وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة يحي فارس – المدية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية
شعبة التاريخ

المشرق العربي في العهد العثماني من خلال كتب الرحالة خلال القرنين 18/ 19م مصر والحجاز أنموذجا

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه الطور الثالث نظام (LMD) تخصص الدراسات التاريخية المتوسطية في العصور الوسطى والحديثة .

من إعداد الطالبة:
حاج بن فطيمة فتيحة

إشراف الدكتور :
بوطيبي محمد

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
الغالي غربي	أستاذ التعليم العالي	جامعة المدية	رئيسا
محمد بوطيبي	أستاذ التعليم العالي	جامعة المدية	مقررا ومشرفا
كريم مقنوش	أستاذ محاضر أ	جامعة المدية	عضوا مناقشا
عبد الرزاق تومیات	أستاذ محاضر أ	جامعة المدية	عضوا مناقشا
أحمد مسعود سيد علي	أستاذ التعليم العالي	جامعة المسيلة	عضوا مناقشا
الوناس حواس	أستاذ محاضر أ	جامعة البليدة2	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 1445 – 1446هـ / 2024–2025م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الوالدين الكريمين بارك الله في عمرهما ، وألبسهما ثوب الصحة و العافية

إلى إخوتي وأخواتي حفظهم الله

إلى روح صديقتي الغالية أمينة سيحاوي تغمدها الله برحمته الواسعة

إلى كل من علمني حرفا و أمدني بيد العون من قريب أو بعيد

أهدي ثمرة جهدي المتواضع

شكر وعرفان

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ **سورة النمل الآية 19**.

أحمد الله عز وجل وأشكره على تسديده لخطاي و إنارته لطريقي لاستكمال هذا العمل المتواضع فما توفيقي إلا بالله .

يطيب لي في هذا المقام أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف الدكتور محمد بوطيبي على ما قدمه لي طيلة فترة إعداد هذه الرسالة من إرشادات قيمة وتوجيهات سديدة، وعلى رحابة صدره فله مني جزيل الشكر وعظيم الإمتنان .

و أتوجه بالشكر الجزيل إلى الدكتور الغالي غريبي و الأستاذة نادية طرشون و الأستاذة لطيفة حمصي و إلى جميع أساتذة قسم التاريخ بجامعة يحي فارس الذين ساهموا في هذا العمل برأي أو توجيه .

كما أتقدم بشكر خاص إلى أعضاء لجنة المناقشة الموقرة على ما سوف يتفضلون به من تصويبات و ملاحظات قيمة .

كذلك لا يفوتني أن أتقدم بجزيل شكري إلى كل من أمد لي يد العون وأخص بالذكر الأخت هبة ابراهيم من مصر ، والشكر موصول كذلك إلى كل العاملين بمكتبات عين شمس و جامعة الأزهر و مكتبة الاسكندرية ومعهد البحوث والدراسات العربية و مكتبة آل سعود بالمغرب .

فلهم مني أسمى عبارات الشكر و الامتنان .

قائمة المختصرات:

أ. باللغة العربية

مج : مجلد

ع : العدد

ج: الجزء

ط: الطبعة

تح: تحقيق

هـــ: هجري

د ب ن: دون بلد النشر

د ت: دون تاريخ

ص: صفحة

تق: تقديم

د.غ.إ: دار الغرب الإسلامي

د.ك.و.ق: دار الكتب والوثائق القومية.

د.م: دار المعارف

م.ق.ت : المركز القومي للترجمة

د.س.ن.ت: دار السويدي للنشر والتوزيع

م.إ : مكتبة الاسكندرية

د.ن: دار النفائس

م.ك.ف: مكتبة الملك فهد

م.م: مكتبة مدبولي

د.ش: دار الشروق

م.ن.ج: مطبعة النجاح الجديدة

د.ع.ن.ت: دار العربي للنشر والتوزيع

د.ك.و : دار الكتب الوطنية

هـــ.م.ع.ك: الهيئة المصرية العامة للكتاب

م.ن.م: مكتبة النهضة المصرية

ب– باللغة الفرنسية :

T : Tome
V : Volume
P : Page
N : Numéro
sd : sans date
éd : édision

مقدمة

التعريف بالموضوع:

تعدّ منطقة المشرق العربي بصفة عامة ومصر والحجاز على وجه الخصوص من أهم الإيالات العربية في العهد العثماني، وقد اكتسبت هذه المناطق هذه المكانة نظرا لمركزها الجغرافي من جهة ومكانتها الدينية والعلمية من جهة أخرى، ومما لاشك فيه أنّ هذه المزايا التي تمتعت بها كل من مصر والحجاز قد جعلتها في طليعة المناطق التي استقطبت اهتمام الرحالة على اختلاف انتماءاتهم وأهدافهم لاسيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وفي الواقع إنّ الحديث عن الرحلات هو حديث عن أحد أهم المصادر التي لا تزال تحتاج إلى العناية و الإهتمام من طرف الباحثين لكشف ما تحتويه وتنفرد به هذه المتون من معلومات مستقاة من الملاحظة والمعاينة المباشرة للرحالة، فكتب الرحلات تعد مصدرا أساسيا لا غنى عنه لدراسة تاريخ البلدان والشعوب وبالأخص منطقة المشرق العربي، فهي تتميز عن غيرها من المصادر التاريخية بتسجيلها لبعض النواحي التي أغفلها المؤرخون في كتاباتهم، وهو ما يساعد على تقصي أحوال هذه البلدان سواء في الجانب السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الفكري.

و على هذا الأساس يندرج موضوع هذه الدراسة الموسوم بـــ: "**المشرق العربي في العهد العثماني من خلال كتب الرحالة خلال القرنين 18/ 19م مصر والحجاز أنموذجا**" ضمن المواضيع الهامة، حيث نسعى من خلاله إلى تقصي أوضاع الحجاز و مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وذلك بناء على ما توفره لنا كتب الرحلات من معلومات متنوعة، ولما كانت هذه المصنفات الرحلية تتسم بكثرة عددها فإننا ارتأينا اختيار نماذج محددة منها، حيث اقتصرنا على أهم الرحلات التي ارتسمت فيها صورة مصر والحجاز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

أهمية الموضوع:

يكتسي هذا الموضوع أهمية كبيرة كونه يُعدّ من المواضيع التي تعتمد على نوع محدد من المصادر هي كتب الرحلات، إذ لا يخفى علينا القيمة العلمية التي يتسم بها هذا النوع من المصادر، حيث لا يمكن دراسة تاريخ المشرق العربي وبالأخص مصر والحجاز اللتين عرفتا عدة تحولات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر دون العودة إلى مدونات الرحالة سواء المغاربة أو الأوروبيين، فالدّارس لها يجد أنّها تحفل بالمعلومات التي

يمكن من خلالها استجلاء صورة وواقع هذه البلدان في مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

دواعي اختيار الموضوع :

إنّ اختيارنا لهذا الموضوع يرجع إلى مجموعة من الدوافع الذاتية و الموضوعية، فأمّا بالنسبة للدوافع الذاتية فتعود إلى اهتمامي طيلة فترة المرحلة الجامعية بدارسة التاريخ العثماني، خاصة ما تعلّق بمنطقة المشرق العربي، أضف إلى ذلك اهتمامي بدراسة أدب الرحلات سيما بعد إطلاعي على نصوص بعض الرحالة المغاربية والتي وجدت أنّها تزخر بمادة تاريخية مهمة، وأمّا بالنسبة للأسباب الموضوعية فإنّها تمثلت في محاولة التعرف على الأوضاع العامة في كل من مصر والحجاز خلال العهد العثماني وذلك استنادا إلى ما سجله الرحالة المغاربة والأوروبيين عنها في مصنفاتهم، فالمعروف عن المنطقتين أنهما شهدتا تحولات كثيرة لاسيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

الإطار المكاني و الزماني:

ارتبط الإطار المكاني لهذا الموضوع بمنطقة المشرق العربي وبالتحديد مصر و الحجاز، ويعود اختيارنا لهاتين المنطقتين إلى أهميتها ومكانتها الدينية والعلمية، و أمّا فيما يخص الإطار الزماني فقد حُدد بالقرنين الثامن عشر و التاسع عشر، وهي الفترة التي شهدت فيها مصر والحجاز توافدا كبيرا للرحالة المغاربة و الأجانب.

الإشكالية:

انطلاقا من سبق ذكره تتلخص إشكالية هذا الموضوع في رصد صورة مصر والحجاز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وذلك وفقا لما دونه الرحالة المغاربة والأوروبيين من مشاهدات في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية و الثقافية، وبناء على ذلك جاءت الإشكالية العامة لدراستنا هذه على النحو التالي:

-إلى أي مدى عكست كتابات الرحالة الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري لمصر والحجاز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؟.

الخطة المعتمدة في الدراسة :

لمعالجة هذا الموضوع وإيفائه حقه من الدراسة ارتأينا تقسيم البحث إلى مقدمة ومبحث تمهيدي و ثلاث فصول وخاتمة .

الفصل التمهيدي: تطرقنا فيه إلى أدب الرحلة و أهمية كتب الرحلات في الدراسات التاريخية .

الفصل الأول: خُصص للتعريف بالرحالة المغاربة والأوروبيين الذين زاروا مصر والحجاز خلال القرنين 18 و19 م والذين كان لهم دور في تدوين تاريخ هاتين المنطقتين من خلال ماخلفوه من مصنفات، وقد قسمناه إلى مبحثين، المبحث الأول تحدثنا فيه عن الرحلات المغاربية حيث تطرقنا فيه إلى العلاقات المشرقية والمغربية وركب الحج المغربي، بالإضافة إلى مسالك ركب الحج وعوائقه و أسباب الرحلات المغاربية وخصائصها، كما أوردنا فيه أيضا أهم الرحالة المغاربة الذين زاروا المشرق العربي من أمثال أحمد بن ناصر الدرعي والورتلاني ومحمد بن عبد السلام الناصري وابن طوير الجنة والغيغائي، حيث قمنا بالتعريف بهم وإبراز أهمية مصنفاتهم العلمية .

وأمّا المبحث الثاني فقد تناولنا فيه نماذج من الرحالة الأوروبيين الذين قصدوا المشرق العربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث استعرضنا في البداية التطور التاريخي للرحلة الأوروبية إلى المشرق العربي، كما تحدثنا أيضا عن دوافع وأهداف الرحالة الأوروبيين، ثم تم تسليط الضوء على أهم الرحالة الأوروبيين الذين كتبوا عن مصر والحجاز و ذلك من خلال التعريف بهم و تبيان أهمية رحلاتهم و قيمتها العلمية .

الفصل الثاني: حمل عنوان:" صورة مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من خلال كتابات الرحالة"، وقد قسمناه إلى أربعة مباحث، ففي المبحث الأول استعرضنا الأحوال السياسية التي تميزت بها مصر خلال تلك الفترة، ثم تطرقنا في المبحث الثاني إلى مظاهر الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة و تجارة، وتناولنا في المبحث الثالث الحياة الاجتماعية بحيث استعرضنا فيها التركيبة الديموغرافية للمجتمع المصري والعادات والتقاليد فضلا عن ذكر الاحتفالات والأعياد و أحوال المرأة المصرية، في حين أفردنا المبحث الرابع للحديث عن الأوضاع الثقافية في مصر، وذلك من خلال تسليط الضوء على المراكز الثقافية وأصناف العلوم و طرق التدريس و أشهر العلماء .

الفصل الثالث: تناولنا فيه أوضاع الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما جاءت في كتب الرحلات، وقد احتوى على أربعة مباحث، استعرضنا في البداية الواقع السياسي الذي كانت عليه الحجاز حيث تحدثنا عن الأوضاع الداخلية و التنظيم السياسي والإداري، ثم تطرقنا في المبحث الثاني إلى النشاط الاقتصادي، وأفردنا المبحث الثالث لمظاهر الحياة الاجتماعية فتطرقنا إلى الفئات التي تكون منها المجتمع الحجازي وعاداته وتقاليده والأعياد والاحتفالات، بالإضافة إلى الحديث عن الأحوال الصحية وغيرها من مظاهر الحياة الاجتماعية الأخرى، وأمّا المبحث الرابع والأخير فقد عالجنا فيه الحياة الفكرية حيث تطرقنا إلى مراكز ومؤسسات التعليم و أصناف العلوم و أبرز العلماء .

الخاتمة: تضمنت ما تم التوصل إليه من نتائج و استنتاجات .

المنهج المتبع في هذه الدراسة :

تم الاعتماد في دراسة هذا الموضوع على المنهج الوصفي، وذلك بالنظر إلى طبيعة الموضوع التي تقتضي ذلك، إضافة إلى المنهج الاستقرائي التحليلي، فأمّا بالنسبة للمنهج الأول فكان من أجل رصد ووصف الأوضاع التي شهدتها مصر والحجاز سواء في الجانب السياسي أو الاقتصادي أوالاجتماعي أو الفكري.

وأمّا فيما يخص المنهج الاستقرائي التحليلي فقد كان لتقصي الحقائق الواردة في كتب الرحلات بحيث عكفنا على تحليلها واستخلاص أهم مضامينها التاريخية .

الدراسات السابقة :

بعد عملية البحث عن مختلف الدراسات التي تتعلّق بموضوع المشرق العربي في العهد العثماني وقفنا على بعض الدراسات الأكاديمية التي تناولت الموضوع من أحد جوانبه، وتجدر الإشارة أن هذه الدراسات قد تنوعت مابين دراسات مشرقية ومحلية.

من الرسائل الجامعية المهمة التي تطرقت إلى هذا الموضوع أطروحة الدكتوراه الموسومة بـــ: "**كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر دراسة تحليلية نقدية**"، وهي من إعداد :عواطف بنت محمد يوسف نواب، وقد اهتمت هذه الدراسة بذكر أهم الرحالة المغاربة الذين زاروا الحجاز خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كما رصدت أيضا الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تميزت بها الحجاز وذلك بناء على ما سجله أولئك الرحالة .

ومن الدراسات التي تطرقت أيضا إلى هذا الموضوع أطروحة الدكتوراه التي أعدّتها حورية عبد الإله السملي والموسومة بـــ: "**كتابات الرحالة الأوروبيين مصدر للتاريخ الحضاري للمدينة المنورة من مطلع**

القرن العاشر هجري إلى نهاية العصر العثماني"، وتعد هذه الدراسة من الدراسات المهمة والقيمة لكونها قدمت صورة شاملة للواقع السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي للمدينة المنورة في كتابات الرحالة الأوروبيين .

و أمّا بالنسبة لأهم الرسائل المحلية نجد من ضمن الدراسات المهمة أطروحة الدكتوراه الموسومة بـــ: "**الحجاز في بعض كتب الرحالة المغاربة ابن طوير الجنة الموريتاني وأبو القاسم الزياني المغربي وأبو راس الناصري الجزائري أنموذجا خلال القرنين 18م– 19م**"، من إعداد الباحث عبد القادر حليس، كما نجد أيضا الدراسة التي أعدها الباحث أحمد كرعي والمعنونة بـــ: "**مصر والحجاز من خلال رحلة ابن ناصر الدرعي**"، وهي مذكرة لنيل شهادة الماجيستير رصد من خلالها أحوال مصر والحجاز في القرن السابع عشر.

التعريف بأهم المصادر:

للإحاطة بمختلف جوانب هذا الموضوع استعنا بقائمة ببليوغرافية مختلفة القيمة، تنّوعت ما بين كتب الرحلات وكتب التراجم والمصادر العربية بالإضافة إلى عدد لا بأس به من المراجع .

أ – كتب الرحلات :

باعتبار أن موضوع هذه الدراسة يتمحور حول ما سجله الرحالة المغاربة والأوروبيين عن مصر والحجاز في العهد العثماني، فإنّ كتب الرحلات تأتي في مقدمة المصادر التي اعتمدنا عليها، بل شكلت الركيزة التي يقوم عليها هذا البحث، ولعلّ من أبرز الرحلات التي تمت الإستفادة منها نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

-رحلة أحمد بن ناصر الدرعي والتي حملت عنوان: "**الرحلة الناصرية الكبرى**"، وتتمثل أهميتها في كونها أفادتنا في رصد العادات والتقاليد التي سادت في المجتمع المصري والحجازي، فضلا على أنّها اشتملت كذلك على تراجم العلماء و الفقهاء، إلى جانب احتوائها على إشارات اقتصادية .

-رحلة الورتلاني الموسومة بـــ: "**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**"، وهذه الرحلة تعد من أهم الرحلات الحجازية الجزائرية ذات القيمة العلمية، فهي تزخر بمعلومات تاريخية متنوعة والتي يمكن من خلالها التعرف على أوضاع مصر والحجاز في القرن الثامن عشر لاسيما فيما يتعلّق بالحركة الفكرية و مظاهر الحياة الاجتماعية .

-رحلة محمد بن عبد السلام النّاصري المعنونة بـــ: "**الرحلة الكبرى**"، ورحلته الثانية أيضا المسماة "**بالرحلة الصغرى**"، وتعدّ من أبرز و أوفى الرحلات المغربية، إذ اشتملت على معلومات وافية فيما يخص أحوال مصر و الحجاز، و قد أفادتنا كثيرا في تتبع الأوضاع الاجتماعية و الثفافية فضلا عن التعرف عن الواقع الاقتصادي .

-رحلة ابن طوير الجنة والتي تحمل عنوان: "**رحلة المنى والمنة**"، وتعدّ من أبرز الرحلات الشنقيطية التي توفر لنا معلومات عن أحوال مصر والحجاز خلال القرن التاسع عشر لاسيما في مجال الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

-رحلة الغيغائي الموسومة بـــ:" **من المغرب إلى الحجاز عبر أوروبا**"، وتكمن أهميتها في أنّها أمدتنا بمعلومات كثيرة عن أحوال مصر في القرن التاسع عشر، وبالأخص التحولات التي شهدتها هذه الإيالة في ظل حركة التحديث التي قام بها محمد علي، فضلا على أنّها زودتنا كذلك بمعطيات هامة عن المجتمع المصري وعاداته وتقاليده، بالإضافة إلى أنّها كشفت لنا ملامح الحياة الفكرية بالأزهر الشريف إذ احتوت على وصف دقيق للنشاط العلمي الذي تميز به .

- رحلة فولني الموسومة بـــ:

Voyage En Syrie Et En Egypte Pendant les Anneés , 1783,1784,1785

تتجلى أهمية هذه الرحلة في كونها أرّخت لفترة هامة من تاريخ مصر، حيث رصدت لنا التحولات التي شهدتها هذه الإيالة أواخر القرن الثامن عشر، وقد تضمنت معلومات متنوعة، إذ أفادتنا في معرفة طبقات المجتمع المصري و ملامح الحياة السياسية و طبيعة النشاط الاقتصادي.

- رحلة جون لويس بيركهارت التي حملت عنوان: **Travels In Arabai**، وتعتبر هذه الرحلة مصدر أساسي لدراسة تاريخ الحجاز خلال القرن التاسع عشر، إذ أفادتنا كثيرا في التعرف على خصوصيات المجتمع الحجازي، بالإضافة إلى أنّها قدمت لنا صورة تكاد تكون شاملة عن الأوضاع السياسية و الاقتصادية التي تميزت بها الحجاز خلال تلك الحقبة.

- رحلة ريتشارد بيرتون الموسومةبـــ:

Personal narrative of a Piligrimage To El Madinah And Meccah

وتكمن أهميتها في أن مؤلفها وصف لنا كل ما شاهده في مصر و الحجاز، حيث تطرق إلى النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وقد استفدنا منها كثيرا لاسيما فيما يتعلّق بالفصلين الثاني والثالث من هذه الرسالة .

ب -**المخطوطات:**

من أبرز المخطوطات التي تمت الاستفادة منها في هذه الدراسة مخطوط: "**الدرر المرصعة بأخبار أعيان أهل درعة**"، لمحمد المكي بن موسى بن ناصر الدرعي، وقد تمثلت جوانب استفادتنا منه في التعريف بالرحالة أحمد بن ناصر الدرعي حيث تضمن معلومات في غاية الأهمية عن رحلته إلى المشرق العربي .

زيادة على ذلك تم الإعتماد على مخطوط: "**منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ محبي مصر**" ، لأبو السعود عبد الله أفندي، ويتكون هذا المخطوط من 32صفحة ، تطرق فيه مؤلفه لانجازات محمد علي في القرن 19م.

ج – التراجم:

اعتمدنا كذلك في دراسة هذا الموضوع على نوع آخر من المصادر تمثل كتب التراجم، ولعل من أهمها نذكر :

-كتاب: "**التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر**" لمحمد ابن الطيب القادري، وهو كتاب في غاية الأهمية ترجم فيه مؤلفه للعديد من العلماء والأدباء والفقهاء الذين ذاع صيتهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد اعتمدنا عليه في الفصل الثالث وبالأخص في ذكر تراجم علماء الحجاز .

-كتاب: "**سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**"، لأبي الفضل محمد خليل بن علي المرادي، وهو في أربعة أجزاء، يعتبر من أهم المصنفات التي تطرقت إلى وصف الحياة الفكرية فهو يضم تراجم عدد كبير من العلماء، وقد استفدنا منه كثيرا لاسيما في الفصل الثالث من الرسالة، فقد ساعدنا في التعرف على جوانب عديدة من حياة العلماء الذين ورد ذكرهم في هذا البحث .

-كتاب "**حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**" لمؤلفه: عبد الرزاق البيطار، ويتكون هذا الكتاب من ثلاث أجزاء، وهو يتضمن تراجم لأشهر العلماء الذين عاصرهم، وقد أمدنا بمعلومات مهمة حول أهم العلماء الذين أثروا الحركة الفكرية في الحجاز في القرن التاسع عشر.

-كتاب "**نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر و الثاني عشر**"، لمحمد بن الطيب القادري، تكمن أهميته في كونه يعدّ أحد المصادر الهامة التي اعتنت بالتأريخ للحياة الثقافية سواء في المغرب أو المشرق، وقد استعنا به في التعريف بالعلماء الذين ذاع صيتهم في كل من مصر والحجاز خلال القرن الثامن عشر .

-كتاب"**المختصر في كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر**"، لصاحبه: عبد الله مرداد أبو الخير، وقد اشتمل هذا الكتاب على تراجم العديد من علماء

مكة المكرمة سواء الذين عاصرهم المؤلف أو الذين سبقوه وهو ما أفادنا في تتبع جوانب مهمة من حياة العلماء الذين ساهموا في إثراء الحياة الفكرية بالحجاز.

د – المصادر العربية :

نظرا لطبيعة هذه الدراسة التي ترتكز على كتب الرحلات كان لزاما علينا الاستعانة بمجموعة من المصادر العربية، وذلك بغية إثراء جوانب الموضوع من جهة، ومن أجل مقارنة ونقد ما ورد من معلومات في كتب الرحلات من جهة أخرى ، ولعلّ من أهم الكتب التي تم الإفادة منها نشير إلى كتاب عبد الرحمن الجبرتي الموسوم بـــ:" **عجائب الآثار في تراجم والأخبار**"، وهو يعدّ من أوفى المصادر التي تتطرق إلى تاريخ مصر في العهد العثماني، حيث احتوى على دراسة شاملة وتفصيلية للمجتمع المصري، زيادة على ذلك اعتمدنا كذلك على كتاب أحمد الدمرداشي المعنون بـــ: " **الدرة المصانة في أخبار الكنانة فيما وقع بمصر في دولة المماليك من السناجق والكشاف والسبعة أوجاقات والدولة وعوايدهم والباشا إلى آخر سنة ثمان وستين ومئة وألف**"، وقد ساعدنا هذا الكتاب في توضيح بعض الأحداث السياسية التي شهدتها مصر، وأمّا فيما يخص الحجاز فقد اعتمدنا على ما كتبه أحمد زيني دحلان خاصة كتابه الذي يحمل عنوان: "**خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن سيدنا النبي صل الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا بالتمام**"، وقد استفدنا منه في التعرف على الأحداث السياسية التي شهدتها الحجاز في القرن الثامن عشر.

كما تم الاستعانة كذلك بكتاب ابراهيم رفعت الموسوم بـــ: "**مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية**"، وقد احتوى هذا الكتاب على معلومات مهمة تخص الحجاز سواء في الجانب السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي أو الاجتماعي، وهو ما مكننا من نقد ومقارنة ما أورده ابراهيم رفعت مع ما ورد في كتب الرحلات لاسيما الأوروبية والتأكد من صحتها.

هـــ – المراجع العربية و الأجنبية :

إضافة إلى المصادر السالفة الذكر اعتمدنا على عدد من المراجع التي تخدم جوانب هذا الموضوع نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر: الدراسة التي أعدّها عبد الهادي التازي الموسومة بـــ: "**رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة**"، وهو مرجع مهم خصوصا وأنه تضمن إحصاء دقيق لجميع الرحلات المغربية نحو الحجاز سواء في العصر الوسيط أو الحديث .

كذلك من الكتب المهمة التي استعنا بها في هذه الدراسة كتاب: محمد ماكامان المعنون بـــ: "**الرحلات المغربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة**"، وكتاب:"**من حديث ركب الحج المغربي**"

لصاحبه محمد المنوني، فضلا عن كتاب عبد الله مرابط الترغي الموسوم بـــ: "**أدب الرحلة في المغرب 1082 – 1139هـــ دراسة في الاتجاهات والمكونات**"، بالإضافة إلى كتاب حفناوي بعلي الذي يحمل عنوان: "**الرحلات الحجازية المغاربية: المغاربة الأعلام في بلد الحرام دراسة نقدية توثيقية ثقافية**"، ومن الكتب المهمة التي أفادتنا كثيرا في هذه الدراسة أيضا كتاب مصطفى الغاشي الموسوم بـــ: "**الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة** "، وهذا الكتاب اكتسى أهمية كبيرة حيث استقينا منه المعلومات التي تتعلق بالرحالة المغاربة بالإضافة إلى الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي تميزت بها الحجاز ومصر في العهد العثماني.

زيادة على ماسبق، تم الاعتماد في دراسة هذا الموضوع على تلك الأبحاث المهمة التي أعدها إلهام ذهني خاصة الكتاب الموسوم بـــ: "**رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر بين النزعة الإنسانية والإستعمارية**"، وكتاب: " **مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر**"، كما استعنا كذلك بكتاب روبن بدول **الموسوم بـــ**: "**الرحالة الغربيون والجزيرة العربية**"، وهو يعدّ من المراجع المتخصصة التي تطرقت إلى الرحلات الأوروبية، كذلك من الكتب التي تم الإفادة منها كتاب ثروت عكاشة الذي يحمل عنوان: "**مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء**"، هذا بالإضافة إلى كتاب عبد العزيز عبد الغني ابراهيم "**روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية 1500–1840م** .

وأمّا فيما يتعلّق بأهم المراجع الأجنبية التي تم الاعتماد عليها في هذه الدراسة فنذكر من بينها كتاب **Christians At Macca** الذي ألفه أغسطس رالي، وهذا الكتاب على درجة كبيرة من الأهمية كونه يشتمل على عرض مسهب للرحلات الأوروبية التي عرفتها منطقة الحجاز خلال العصر الحديث، ومن ضمن المراجع الأجنبية التي أفادت البحث كذلك الكتاب الذي ألفه yerasimos stephane والموسوم ب:

Les Voyageurs Dans L'empire Ottoman (Xiv^{e}_ Xvi^{e} Siécles) وغيرها من المراجع الأخرى.

الصعوبات:

إنّ إنجاز هذا العمل لم يكن بالأمر السهل، إذ اعترضتني مجموعة من الصعوبات والعراقيل أبرزها تشعب الموضوع واتساع إطاره الزماني و المكاني، فهذه الدراسة تمحورت على منطقتين مصر والحجاز، كما أنّها فترتها الزمنية تصل إلى قرنيين، مما تطلب جهدا كبيرا في جمع المادة العلمية، ومن ضمن الصعوبات التي واجهتني تنوع مجالات الدراسة من سياسية واقتصادية واجتماعية و ثقافية، كذلك صعوبة التعامل مع المحتوى الذي تتضمنه

كتب الرحلات لاسيما الحجازية منها حيث اتسم أغلبها بالطابع الصوفي وهو ما يجعل عملية استخراج المادة التاريخية صعبا نوعا ما .

كذلك من الصعوبات التي اعترضتني قلة المعلومات المتعلقة بالجوانب السياسية في مصر و الحجاز، حيث إنّ كتب الرحلات لا تمدنا بمعطيات كثيرة في هذا المجال عكس الجوانب الاجتماعية والثقافية و الاقتصادية، وقد دفعني هذا الأمر إلى اللجوء والاستعانة بمصادر ومراجع تاريخية أخرى مثل كتب التاريخ العام وغيرها قصد الإحاطة بهذا الجانب .

وفي الأخير لا يسعني إلا القول أن هذه الدراسة كغيرها من الدراسات يعتريها الخلل و القصور، فلا ندعي الكمال، فما كان فيها من صواب وسداد فمن توفيق الله عز وجل، و ما كان فيها من نقصان و زلل فمني وحسبي أني بذلت قصارى جهدي ليكون هذا العمل المتواضع مساهمة جديدة في ميدان البحث العلمي.

الفصل التمهيدي: مفهوم أدب الرحلة وأهمية الرحلات في الكتابة التاريخية

1. مفهوم الرحلة اللغوي والإصطلاحي
2. أنواع الرحلات وبواعثها
3. مفهوم أدب الرحلة
4. دواعي وطرق تدوين الرحلة
5. أدب الرحلة عند العرب وتطوره
6. القيمة التاريخية لكتابات الرحالة

لقد اختلف الباحثون في ضبط مفهوم محدد لمصطلح الرحلة، ولعلّ هذا الاختلاف مرده إلى غنى مادة الرحلة وتنوع مضامينها، فهي لا تقتصر على مجال معرفي محدد، وإنما تضم في ثناياها الكثير من المعطيات التي لها علاقة بأكثر من حقل معرفي(التاريخ، الجغرافيا، الأدب، وإثنوغرافيا)[1]، وعلى هذا الأساس تعددت مفاهيم الرحلة لدى الباحثين، وذلك باختلاف اهتماماتهم وتوجهاتهم العلمية، وإذا ما أردنا الوقوف على دلالات الرحلة لابد من أن نعرج على المفهوم اللغوي والاصطلاحي .

1. مفهوم الرحلة اللغوي والاصطلاحي :

أ. المفهوم اللغوي:

يحفل التراث المعجمي على معاني متعددة لمصطلح الرحلة، وهذا إذا دل على شيء فإنما يدل على أهميتها البالغة، ففي معجم لسان العرب يرى ابن منظور أن الرحلة في اللغة: تعني الترحيل، و الإرتحال بمعنى الإشخاص والإزعاج، يقال رحل الرجل بمعنى سار، وقوم رحل أي يرتحلون كثيرا، والرحلة بهذا المعنى هي السير والضرب في الأرض، وارتبطت الرحلة أيضا بالوسيلة التي يستخدمها الانسان، فلفظ الرحل وجمعها رواحل تشير إلى مركب البعير و الناقة، وجاءت الرحلة أيضا لتدل على الوجهة التي يقصدها الإنسان فيقال: أنتم رحلتي: أي الذين أنتقل إليهم [2].

أمّا في معجم المحيط فقد وردت الرحلة بنفس المعنى، فيقال ارتحل البعير أي سار ومضى و ارتحل القوم عن المكان أي انتقلوا والارتحال بالضم يطلق على السفرة الواحدة [3] .

وعلى ما يبدو أنّ استخدام لفظ الرحلة قد شهد تطورا عند العرب، فتنوعت دلالاته و معانيه، وما يؤكد ذلك احتواء القرآن الكريم على الكثير من المفردات الدالة على الرحلة حيث جاء ذكرها لفظا ومعنى[4]، ويبرز ذلك جليا في قوله تعالى:" **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** "[5]، وفي موضع آخر ارتبط لفظ الرحل بالبعير الذي كان من أكثر الوسائل استخداما في الترحال منذ القدم وذلك في قوله عز وجل:" **فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ**

---

[1] صلاح الدين علي الشامي، **الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية**، ط2، د.م ، الإسكندرية، 1999م ، ص 149.

[2] ابن منظور، **لسان العرب**، د.م ، القاهرة، دت، ص ص 1608- 1611. أنظر أيضا : عواطف محمد يوسف نواب، **الرحلات المغربية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 7و8 هـ دراسة تحليلية مقارنة**، مطبوعات الملك فهد، الرياض، 1996م، ص 40.

[3] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، تح: أنس محمد شامي، دار الحديث، القاهرة، 2008م، ص626.

[4] جلول دواجي عبد القادر، "أعلام أدب الرحلات المغاربية رحلة محمد الشنقيطي إلى الحج"، مجلة تاريخ العلوم، ع6،مج 3، 2017م ص 177.

[5] سورة قريش .

السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ"[1]، ويتفق هذا المعنى مع ما ورد في المعاجم العربية، كما تكرر ورود المعاني الدالة على الرحلة في أكثر من أية نذكر من بين هذه المفردات: الضغن والإسراء والسفر والحج والهجرة والسير[2]، وعلى العموم يمكن القول أنّ مشتقات مادة رحل كثيرة و متعددة، غير أنّها تندرج في أغلبها في إطار مفهوم الانتقال من مكان لآخر، فالرحلة بهذا المعنى إنما هي نشاط إنساني أساسه وجوهره الحركة[3] .

ب. المفهوم الاصطلاحي:

تتداخل وتتشعب دلالات الرحلة في الاصطلاح[4]، وهو ما يفسر الاهتمام الذي حضيت به لدى الباحثين، حيث تعرفها دائرة المعارف بأنّها" انتقال فرد أو جماعة من مكان إلى مكان آخر لمقاصد وأسباب متعددة "،كما يعرفها الإمام الغزالي على أنّها: " نوع حركة ومخالطة مع زيادة تعب ومشقة "[5]، ونستشف من هاذين التعريفين أنّ جوهر الرحلة هو الحركة التي تكون مدفوعة بجملة من حوافز بغية تحقيق عدّة أغراض و أهداف، وهو ما أكد عليه صلاح الدين الشامي الذي عرف الرحلة على أنّها "إنجاز أو فعل فردي أو جماعي لما يعنيه اختراق حاجز المسافة وإسقاط الحاجز المعين بين المكان والمكان الآخر ويتأتى هذا الإنجاز من أجل هدف معين يجاوب هذا الهدف إرادة الإنسان وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر وغير مباشر " [6].

وبما أنّ الحركة ترتبط ارتباطا وثيقا بنشاط الإنسان، فإنّ الرحلة وما ينتج عنها من اتصال ومخالطة قد ساهمت في زيادة خبرات الإنسان وتوسيع تجاربه، وفي هذا الصدد نوه حسن العطار بأهمية الرحلة فيرى أنّها فرصة لاكتساب المعارف والتجارب، وقد تجسد ذلك في قوله: **السفر مرآة الأعاجيب وقسطاس التجارب**[7].

---

[1] سورة يوسف: الأية 70.

[2] سميرة أنساعد، **الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري : دراسة في النشأة والتطور والبنية**، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب، جامعة الجزائر، 2006م/2007م، ص ص 11، 12 .

[3] ناصر عبد الرزاق الموافي، **الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 4 هـ** ، ط1، دار النشر للجامعات المصرية، مصر، 1995م، ص 23.

[4] حنيفي هلايلي، "الجزائريون والرحلة إلى الحجاز على ضوء رحلتي الورتلاني وأبو راس الناصري "، مجلة الشهاب الجديد، ع 7، 2008م، ص21.

[5] الموافي، المرجع السابق، ص 24.

[6] نفسه، ص ص 24،25.

[7] حسين محمد فهيم ، **أدب الرحلات**، عالم المعرفة، د ط ، الكويت، 1989م، ص 15.

إنّ الرحلة استنادا إلى المفاهيم التي سبق ذكرها شكلت عاملا مهما في حياة الإنسان[1]، فالإنسان ولد رحالا بطبيعته فكان حرصه شديدا على ممارسة الرحلة سعيا لتأمين حاجاته من جهة واكتشاف الأفاق المجهولة من جهة ثانية، فجاءت رحلاته في بادئ الأمر ضيقة ثم اتسعت بمرور الزمن وفقا لأهدافه وغاياته [2].

2. أنواع الرحلات:

ترتبط الرحلة بتحقيق غاية وهدف، وهو ما يجعل الرحالة يتحمل في سبيله المشاق والمصاعب، فتعددت بذلك الدوافع والحوافز التي شجعت على ممارسة هذا النشاط فاختلفت من فرد لآخر ومن فترة لأخرى [3].

إنّ من ضمن أهم الدوافع يبرز الدافع الديني الذي يقترن بأداء مناسك الحج وزيارة الأماكن المقدسة علاوة على التبشير بالدين، كما يندرج أيضا ضمن الدوافع المقصد العلمي الذي يرتبط أساسا برغبة الرحالة في اكتساب المعارف من خلال الالتقاء بالعلماء والإحتكاك بهم إضافة إلى النهل من مراكز العلم المنتشرة في مختلف الأمصار، و لم تقتصر دوافع الرحلة على الجانب الديني والعلمي فهناك من الدوافع ما يرتبط بشخصية الرحالة فالرغبة في المغامرة و الإستطلاع هي الأخرى شكلت أحد دوافع الرحلة، ونضيف إلى ما تقدم ذكره الدافع الإقتصادي، حيث كانت التجارة أمرا يقتضي القيام بالرحلة، إضافة إلى البعثات الدبلوماسية و التكليفية التي كان الغرض منها سياسي وهو توطيد العلاقات بين الدول [4].

وعلى هذا الأساس اختلفت غايات ومقاصد الرحالة فنجد من بينهم من كان رجل دين أو عالما أو تاجرا أو مغامرا ، جاءت رحلاتهم استجابة لعدّة دوافع سواء كانت دينية أو علمية أو سياسية أو اقتصادية[5].

وبما أنّ مقاصد وأغراض الرحلة قد تعددت، فقد أفرز لنا ذلك أنواعا عديدة من الرحلات اختلف الباحثون في تصنيفها كل حسب وجهة نظره، فاستند البعض في تصنيفه إلى الفترة الزمنية، أما البعض الآخر فاعتمد على

---

[1] أحمد القطوري الصفصافي ، **الرحالة العثماني أوليا جلبي الرحلة إلى مصر والحجاز وبلاد الحبشة 1672،1680** ، ج1، ط1، م.ق. ت القاهرة ، 2010، ص 24.

[2] شوقي ضيف ، **الرحلات** ، ط4، د.م ، القاهرة ، دت ، ص7.

[3] تقوى سليمان ذياب ، **أدب الرحلة في العصر العباسي في القرنين الرابع والخامس هجري**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في اللغة العربية و أدابها ، جامعة اليرموك ، العراق، 2006م ، ص 6 .

[4] فؤاد قنديل، **أدب الرحلة في التراث العربي** ، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2002م، ص ص 19،20.

[5] عمر علوي أمراني، **الرحلة كوثيقة من بين أقدم الوثائق المكتوبة في تاريخ المغرب القديم** ، ضمن أبحاث ندوة :أدب الرحلة والتواصل الحضاري ، جامعة المولى اسماعيل، المغرب، 1993م، ص 13.

استقراء النصوص، ولعلّ من بين تلك التصنيفات نجد تصنيف محمد الفاسي الذي جعل الرحلة في خمسة عشر صنفا، والواضح أن بعض هذه الرحلات تتداخل فيما بينها فيندرج بعضها في نوع واحد [1] .

أمّا بالنسبة لتصنيف صلاح الدين الشامي في مؤلفه الرحلة عين الجغرافيا المبصرة فقد أحصى أنواع الرحلة في ستة أنواع منها ما ظهر قبل الإسلام كرحلة التجارة ورحلة الجهاد ورحلة السفارة، أما الرحلات الأخرى فقد استحدثها الإسلام ويتعلّق الأمر برحلة الحج ورحلة طلب العلم ورحلة الطواف والتجول[2]، وبناء على ما سبق يمكن القول أنه رغم تعدد تصنيفات الرحلة من باحث لآخر إلا أنه يمكن حصرها في الأنواع الأكثر تداولا بين الباحثين والتي ترتبط في نظرهم أساسا بالدوافع المحفزة على هذا السلوك وهي كالآتي .

2. 1 الرحلة العلمية :

الرحلة في طلب العلم ظاهرة وتقليد قديم، فهي غالبا ما كانت شرطا من شروط اكتمال المعارف والعلوم ومصدرا لاغنى عنه لزيادة الخبرات وتحصيل المعارف من منابعها الأصلية[3]، وهو ما نوه به ابن خلدون في مقدمته بقوله:" إن الرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[4]، واستنادا إلى ماذكره ابن خلدون يبدوا أن الرحلة كانت معيارا تقاس به مكانة العالم فهي ترفع من شأنه و تميزه عن غيره، وهو ما يفسر حرص العلماء على تحمل مشاق الرحلة ومصاعبها بهدف الاستزادة من العلوم والأخذ عن المشايخ، فكثيرا ما كان طلبة العلم ينتقلون بين الحواضر الثقافية المنتشرة في العالم الإسلامي كالحجاز ومصر طلبا للإجازة أو بهدف التفقه في الدين[5] أو حتى لنشر معارفهم وعلومهم و الاحتكاك بمراكز الثقافة المتعددة[6].

---

[1] يشمل هذا التصنيف الرحلة الحجازية، الرسمية ، الأثرية، الزيارية ، العلمية ، البلدانية ، الفهرسية ، السفارية ، السياحية ، الدراسية ،الإستكشافية ، السياسية . أنظر : الموافي، المرجع السابق، ص 32 .

[2] الشامي، المرجع السابق، ص ص 112-116

[3] علي ابراهيم كردي، **أدب الرحل في المغرب والأندلس**، د ط، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2013، ص 13 .

[4] عبد الرحمن ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر للنشر والتوزيع، لبنان، 2001م، ص 745

[5] إن ما ساعد على اتساع أفاق الرحلة العلمية هو ارتباط الكثير من العلوم بالجانب الديني ، حيث اقتضى ذلك القيام بالرحلة ، وقد دعى الإسلام إلى الرحلة لطلب العلم فكانت رحلات متعددة ابتدأت بالبعثات التي أرسلها الرسول عليه الصلاة السلام لتعليم ونشر مبادئ الدين في مختلف الأمصار ثم اتسعت هذه الرحلات وارتبطت بعدة أهداف سواء كان ذلك لجمع الحديث أو التأكد من الرواية والسند .للمزيد أنظر : صالح ذياب هندي،" الرحلة في طلب العلم في الإسلام وتطبيقاتها المعاصرة"، مجلة دراسات: العلوم التربوية، مج 38، ع1، ص ص 8،9.

[6] صافية كساس، "الرحلات العلمية من وإلى المغرب ودورها في تنشيط العلمية والتعليمية بالمغرب العربي"، مجلة الممارسات اللغوية، ع 8، الجزائر ، ص 180 .

وعن فضل الرحلة ودورها أيضا يذكر المسعودي بأنه: " ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه وإثارة كل نفيس من مكمنه"[1]، فالرحلة بهذا المعنى تعد من أهم السبل وأنجع الوسائل وأكثر المدارس تثقيفا للإنسان[2].

ونظرا لأهمية الرحلة العلمية وفضلها فقد اهتم العرب بهذا النوع من الرحلات، فكان من الطبيعي أن يرتحل الناس طلبا للمعرفة من بلاد المغرب إلى المشرق، وفي هذا السياق يورد لنا المقري في كتابه نفح الطيب قائمة تضم عددا كبيرا من العلماء ارتحلوا إلى المشرق لطلب العلم وحده، وليس لغرض التجارة والحج، وهذا إذا دَل على شيء فإنه يدل على مدى انتشار وشيوع الرحلة العلمية التي كان لها انعكاسات إيجابية كونها ساهمت في تنشيط و ازهار الحركة الثقافية في العالم الإسلامي مشرقا و مغربا، ولعلّ من أهم الرحلات التي اتسمت بالطابع العلمي نجد: رحلة كل من ابن خلدون والمقري إضافة إلى رحلة العبدري وعبد اللطيف البغدادي و البلوي، والأمثلة في هذا السياق كثيرة، والجدير بالذكر أن أغلب الرحلات العلمية التي زار أصحابها منطقة المشرق الإسلامي قد كانت أهدافهم تجمع وتنحصر بين المسعى الديني وهو أداء مناسك الحج والمبتغى العلمي المتمثل في طلب المعرفة فارتبط بذلك الهدف العلمي بالهدف الديني [3].

2 .2 الرحلة الدينية:

يعتبر الدافع الديني من أهم بواعث التي شجعت على الرحلة[4]، حيث يكتسي هذا النوع من الرحلات أهمية كبرى كونه يرتبط بتأدية ركن من أركان الإسلام وهو أداء فريضة الحج، ويبرز ذلك جليا في قوله عز وجل: " وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ "[5]، وبما أن الدعوة إلى حج بيت الله دعوة قديمة [6]، فإن هذا النوع من الرحلات قد عرف انتشارا كبيرا، فعلى الرغم من أن تأدية هذا الركن قد اقترن بالاستطاعة والقدرة إلا أن المسلمين مع ذلك تشوقوا لأداء فريضة الحج متحملين في ذلك

---

[1] نقلا عن أنساعد ، المرجع السابق، ص 13.

[2] فهيم، المرجع السابق ، ص 17.

[3] بن عيسى بويوزان، **فضل الحج على العلم في الغرب الإسلامي من خلال رحلات الحج من القرن الخامس الى القرن التاسع**، ضمن أبحاث ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة العربية الإسلامية ، 1426هـ، ص ص 249، 250.

[4] ليلى غويني، **التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية الجزائرية**، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2010 / 2011م ، ص 20.

[5] سورة الحج الآية27.

[6] نواب، المرجع السابق، ص 36.

مشاق ومصاعب السفر[1]، وقد تبوأت مكة المكرمة والحجاز منزلة كبيرة إذ أضحت مقصدا وقبلة للوافدين من مختلف الأمصار سواء كان ذلك بغرض تأدية مناسك الحج أو زيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام أو حتى لطلب العلم[2]، فالمؤكد أن الرحلة الدينية أو الرحلة الحجازية كما أجمع المؤرخون على تسميتها لم تقتصر على أداء مناسك الحج فحسب، فغالبا ما امتزج الهدف الديني وهو الغرض الأول من الرحلة بمنافع أخرى علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية نتجت أساسا عن التقاء الحجاج فكان من فضائل الحج طلب العلم وتحصيل المعارف والتجارة والتعارف والاحتكاك بالغير[3]، وبالنظر إلى أهمية رحلة الحج فإن الحكام المسلمين قد أولوا أهمية كبيرة لها، ويتجلى ذلك بوضوح في التسهيلات التي وضعت لتنظيم طرق الحج وتوفير الأمن للحجاج[4]، ولعلّ من أهم الرحلات التي تندرج ضمن الرحلات الحجازية نجد رحلة ابن جبير[5]، إضافة إلى رحلة ابن بطوطة [6] .

3.2 الرحلات الرسمية:

ارتبط هذا النوع من الرحلات بدافع سياسي، وقد اتخذت فيه الرحلة أنماطا مختلفة فضمت الرحلات التكليفية والرحلات الإدارية إضافة إلى الرحلات السفارية[7]، فالرحلة التكليفية هي التي ترتبط بمهمات رسمية كأن يُكلف الحاكم شخصا للقيام برحلة يجوب فيها الآفاق لغرض استطلاعي كرحلة سلام الترجمان إلى بلاد

---

[1] الشامي، المرجع السابق، ص116.

[2] الجوهرة بنت عبد الرحمن المنيع، **الرحلات العربية مصدر من مصادر تاريخ المملكة العربية السعودية من الفترة: 1338،1374 هـ/1920م، 1953م** ، دط، مطبوعات الملك فهد الوطنية ، الرياض، 1431هـ، 2010م، ص 39.

[3] منصورية بن عبد الله ثالث، **صورة المرأة في رحلة ابن بطوطة**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في الأدب الشعبي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2017/2016، ص ص 28،29.

[4] حسين نصار، **أدب الرحلة**، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لبنان، 1991م، ص 19.

[5] ابن جبير(1135م -1217م): هو أبو الحسن محمد ابن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، ولد ببلنسية، تلقى تعليمه على يد العديد من العلماء في الأندلس والمغرب فاشتهر بثقافته الواسعة في العلوم الشرعية والنقلية وبالأخص في الأدب الذي برع فيه، يذكر المؤرخون أنه كان أديبا وشاعرا و كاتبا في ديوان حاكم الأندلس، قام ابن جبير بثلاث رحلات إلى الحج غير أن رحلته الأولى سنة 1173م قد نالت شهرة كبيرة باعتباره قد دون تفاصيلها فكانت مرآة عاكسة لذلك العصر الذي تزامن مع الحروب الصليبية، و لم تقتصر رحلة ابن جبير على الحج فحسب حيث مر بعدة أقطار أبرزها مصر وبلاد الشام وبغداد وصقلية . للمزيد أنظر :أغناطيوس يوليانوقتيش كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، تر : صلاح الدين عثمان هاشم ، دط، د ب ن ، 1957م، ص ص 298-301

[6] ابن بطوطة: هو شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن ابراهيم اللواتي الطنجي، ينتسب إلى عائلة امتهنت القضاء والتدريس، قام بثلاث رحلات لأداء فريضة الحج زار من خلالها عدة أقطار منها الحجاز اليمن ،العراق، وبلاد فارس والهند وأواسط آسيا وبلاد السند والصين. للمزيد أنظر:حسني محمود حسين ، **أدب الرحلة عند العرب**، ط2، دار الأندلس، لبنان ، 1983، ص ص 35،36.

[7] أنساعد ، المرجع السابق، ص 18 .

القوقاز والتي كانت بتكليف من الخليفة العباسي الواثق بالله[1]، وقد ترتبط أيضا الرحلة بغرض إداري"فقد اقتضت ضرورة الحكم و الإدارة وحجم الضرائب أن يكلف الحكام بعض الأشخاص للقيام برحلات تفقدية للأقاليم البعيدة لجمع البيانات والمعلومات وتقديم التقارير وسواء أطلق على هذا النشاط صفة الجغرافية الإدارية أو حتى كتابة تواريخ الأقاليم، فإن الرحلة قد لعبت دورا هاما في أدائه"[2]، وعليه فإنّ مسألة إدارة الأقاليم وتنظيمها قد تطلبت التعرف على جغرافيتها لضبط شؤونها خاصة فيما يتعلّق بالضرائب والبريد و لم يكن ليتحقق ذلك لولا الرحلة .

أمّا بخصوص الرحلة السفارية فهي وليدة التقدم الحضاري وغالبا ما كانت تتم عن طريق تبادل الوفود والبعثات والسفارات بين الدول العربية والدول الأجنبية وذلك بهدف توطيد العلاقات أو التفاوض في المسائل التجارية والحربية أو حتى لإبرام معاهدات الصلح [3]، وكان من أهمها سفارة ابن فضلان[4] إلى ملك الصقالبة والبلغار سنة (309هـ ،921م)، وهي من الرحلات التي زودت العرب بمعلومات مهمة عن تلك المنطقة [5]، كما تبرز أيضا الرحلة السفارية للتمكروتي[6] في القرن السادس عشر ميلادي والتي كلفه بها السلطان السعدي أحمد منصور الذهبي إلى الدولة العثمانية، وقد دونت أخبار تلك الرحلة في كتابه المعروف بـــ:"

---

[1] سيد حامد النساج، **مشوار كتب الرحلات قديما وحديثا** ، د ط، مكتبة غريب ، د ت ، ص 12 .

[2] فهيم، المرجع السابق، ص 81.

[3] محمد صالح المراكشي، "مفهوم الرحلة من خلال كتاب محمد بيرم الخامس،" صفوة الإعتبار في مستودع الأمصار والأقطار" ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ، ع 17، 1979م ، ص 232.

[4] ابن فضلان : هو أحمد ابن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد ، والواضح أن المصادر التاريخية لم تورد الشيء الكثير عن مولده ونشأته سوى أنه كان ذا ثقافة عالية، ارتحل بن فضلان إلى بلاد البلغار والصقالبة في بعثة من طرف المقتدر بالله سنة 921م وقد دام مكوثه فيها حوالي 11شهرا ، ويرجع سبب رحلته حسب المؤرخين إلى أن ملك الصقالبة كان قد أسلم فطلب من المقتدر بالله إرسال بعثة تفقهه في الدين وتعرفه على شرائع الإسلام فترأس ابن فضلان هذه البعثة .للمزيد أنظر: أحمد ابن فضلان بن العباس بن راشد ابن حماد ، **رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك و الخزر والروس والصقالبة**، تح:سامي الدهان، دمشق، 1959م، ص ص 22 ــ37.

[5] قصي حسين، **من معالم الحضارة العربية الإسلامية** ، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنان، 1993م، ص ص 97،98.

[6] التمكروتي (1531م- 1594):هو علي بن محمد التمكروتي، ولد بمنطقة درعة، نشأ في كنف عائلة اشتهرت بالعلم الصلاح، كانت له علاقات وطيدة مع السلطان السعدي أحمد منصور الذهبي و الذي كلفة بالقيام بالسفارة إلى اسطمبول فانطلقت رحلتة سنة1589 وقد دام مكوثه في القسطنطنية حوالي ثماني أشهر اين التقى بالسلطان العثماني وسلمه رسالة أحمد منصور الذهبي وقد ارتبطت شهرته بما دونه بعد عودته من رحلته في مؤلفه الموسوم " النفحة المسكية في السفارة التركية . للمزيد أنظر : علي بن محمد التمكروتي، **النفحة المسكية في السفارة التركية** ، تح: عبد اللطيف الشاذلي ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 2002م ، ص ص 5-9.

النفحة المسكية في السفارة التركية "[1]، وبناء على ما سبق يمكن القول أن الرحلة الرسمية بمختلف أنواعها كانت تخدم مصالح وشؤون الدولة، وقد ظهر هذا النوع من الرحلات بشكل كبير خلال العصور الحديثة .

2. 4 الرحلة التجارية :

كانت التجارة منذ القدم من أهم الأنشطة التي تتطلب وتستدعي القيام بالرحلات[2]، والعامل الذي ساعد على ذلك يكمن في اتساع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية من جهة، و تعدد طرق المواصلات من جهة ثانية، فالرحلة التجارية اتسعت أفاقها فكانت تتم عن طريق البر من خلال القوافل أو عن طريق البحر، وقد وصل من خلالها التجار إلى مناطق بعيدة ومجهولة إذ امتدت علاقاتهم التجارية إلى الصين والهند وشواطئ إفريقية الشرقية والغربية، وهو ما ساعد على انتشار الإسلام بها[3]، ومن أبرز الرحلات التجارية تبرز رحلة الشتاء والصيف عند العرب قبل الإسلام.

أمّا بخصوص الرحلة التجارية البحرية فأهم رحلة هي رحلة سليمان التاجر المعروف بالسيرافي ورحلة ابن وهب القرشي في القرن الثالث هجري والتي انتقل فيها إلى الهند والصين [4] .

وبما أن المسلمين كانت عنايتهم كبيرة بالتجارة فإن ذلك تطلب منهم دراسة المسالك والطرق التجارية، فألفوا كتبا كثيرة في وصف الأقاليم ومن أهم ألف في هذا المجال: معجم البلدان لياقوت الحموي الذي كانت رحلاته التجارية عاملا مهما في تدوينه[5].

والجدير بالذكر هنا أن الرحالة قد اهتموا بوصف مشاهداتهم وملاحظاتهم فورد البعض منها في مصنفات المؤرخين وكتب التراجم، غير أنّ التطور والتنوع الذي شهدته الرحلة فيما بعد قد أفرز نمطا جديد من التأليف يعنى برصد المشاهدات وملاحظات الرحالة، وقد عرف هذا النوع من التدوين بأدب الرحلة الذي أصبح في العصور اللاحقة فنا قائما بذاته له أسسه وقواعده [6].

---

[1] عبد اللطيف الشاذلي، **مسألة الانتماء من خلال رحلة التمكروتي إلى القسطنطنية** ، ضمن أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموئلا ،ط1، م.ن.ج ، المغرب ، 2003، ص 38.

[2] النساج، المرجع السابق ، ص11

[3] ضيف، المرجع السابق ، ص 9.

[4] أماني بنت سعيد الحربي، **مصر في كتابات الرحالة المغاربة في القرنين السابع والثامن هجري** ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، 2015م، ص 45.

[5] أنساعد ، المرجع السابق، ص 18.

[6] كردي، المرجع السابق، ص ص 9،10.

3. مفهوم أدب الرحلة :

تتعدد المفاهيم التي وضعها الباحثون لمصطلح أدب الرحلة، وتختلف باختلاف نظرهم لهذا النمط من المعرفة، ولعلّ من أهم التعريفات هو تعريف مجدي وهبة الذي يرى فيه أنه :" مجموعة الأثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق ولتسجيل دقيق للمناظر التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة أو يجمع بين كل هذا وذاك في آن واحد "[1] .

يشير هذا التعريف إلى أن موضوعات أدب الرحلة تتمحور حول ما يشاهده ويلاحظه الرحالة، فأدب الرحلة بهذا المفهوم هو الأدب الذي يصور من خلاله الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان[2]، وهناك من الباحثين من يعرف أدب الرحلة أيضا على أنه ذلك النثر الذي يتخذ من الرحلة موضوعا أو بمعنى أخر أن تكتب الرحلة في شكل أدبي نثري متميز وبلغة خاصة ومن خلال بناء فني له ملامحه وخصائصه وسماته الخاصة[3].

وإذا كان أدب الرحلة يرتبط بسرد مجريات الرحلة، فإن إنجيل بطرس يشترط في هذا النوع وجود رحلة واقعية ينتقل فيها الرحالة من بلد لآخر ويكون تدوينه ووصفه لها يتسم بالصدق والدقة وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير[4]، وانطلاقا من هذا المفهوم فإن ما يميز أدب الرحلة عن غيره من الفنون الأدبية هو توفر صفتين الأولى: أن يكون من يدون الرحلة رحالة بطبعه محبا للسفر، ومن جهة ثانية يشترط أن يكون أسلوب تدوين الرحلة يعكس روح الرحلة والرغبة الشديدة في القيام بها، فخير أمثلة أدب الرحلات هو ما يكشف عن شخصية الرحالة بقدر ما يقدم بنجاح وصف البلاد التي ينتقل إليها.[5] وعليه يتبين لنا أن أدب الرحلة يرتبط بالتجربة التي يقوم بها الرحالة وبقدرته على تصوير ما يصادفه من أحداث وعجائب في صورة فنية أدبية[6].

بالرغم من الاختلاف الذي عرفه مفهوم مصطلح أدب الرحلة، إلاّ أنّ المؤكد أن بداياته كانت على شكل انطباعات ومشاهدات دونها الرحالة، وعلى ما يبدو أن أغلب تلك الانطباعات قد أخذت شكل مواقف

---

[1] وجدي وهبة ، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، ط2، مكتبة لبنان، لبنان، 1984، ص 17 .

[2] سليمان ذياب، المرجع السابق، ص 8 .

[3] سيد حامد النساج، "أدب الرحلة في حياتنا الثقافية "، مجلة العربي، ع 338، يوليو، 1987م، ص 133.

[4] انجيل بطرس،" الرحلات في الأدب الإنجليزي "، مجلة العربي ، ع7 ، ص52.

[5] نفسه ، ص 52

[6] سهام سديرة ، "أدب الرحلة الماهية والشكل والبنية "، مجلة البدر ، مج 10، ع1، 2018م، ص 18 .

أو حوادث انتقلت عن طريق المشافهة دون تسجيل وبمرور الوقت تحولت إلى نوع من الأدب يحمل سمات مميزة وخصائص محددة يعرف بأدب الرحلة[1].

يرجع ظهور مصطلح أدب الرحلة إلى العصر الحديث[2]، حيث نتج عن تصنيفات الباحثين لأنواع الأدب، وعلى الرغم من ذلك فإن فن الكتابة في الرحلة فن ظهر منذ القدم حيث تواترت أخبار تلك الرحلات وما تضمنته من ملاحظات ومشاهدات في كتب التاريخ والجغرافيا [3].

وإذا كان أدب الرحلة يعنى أساسا بتدوين الرحلات، فإن من الأولى الرحلات التي تندرج في هذا النوع نجد كتابات المصريين القدامى والإغريق خاصة هيرودوت الذي زار مصر وقبرص و فنيقيا وبلاد فارس [4]، وقد اعتبره الكثير من المؤرخين أبا لأدب الرحلات وذلك بالنظر إلى الأثر الذي تركته كتاباته حول الأقاليم التي زارها فكانت بمثابة عون كبير استفاد منه الكثير من المؤرخين .

إنّ المتّأمل في الكتابات التي دونها الرحالة يلاحظ اشتمالها على العديد من المعارف خاصة الجغرافية منها وهو ما شكل تداخلا بين الفكر الجغرافي من جهة وأدب الرحلة من جهة ثانية، وهذا الخلط بين النوعين جعل المؤرخين يحددون القواعد والأسس التي يقوم عليها أدب الرحلة فهو جنس أدبي له من الصفات والخصائص ما يكفي لتمييزه عن باقي الأجناس الأدبية، وعليه فإن طريقة تدوين هذه النصوص هي التي تحدد طبيعة هذا الأدب فإذا" قلت العناصر الأدبية الذاتية صنف النص على أنه جغرافيا وصفية، أما إذا كان الرحالة قد وازن بين الموضوع والذات فإنه يصنف في صنف الأدب الجغرافي،في حين أنه إذا طغت العناصر الأدبية الذاتية فلا شك أن النص ينتمي إلي صنف أدب الرحلة.[5]

ومن الخصائص الأخرى التي تميز أدب الرحلة عن غيره من الفروع الأدبية :هي ضرورة وجود رحلة واقعية ترتبط بزمان ومكان محدد، وفي هذا السياق لا تندرج الرحلات الخيالية ضمن هذا النوع، أضف إلى ذلك أن يكون من يقوم بالرحلة رحالة بطبعه محبا للسفر فيصف في رحلته مشاهداته وانطباعاته عن البلاد التي زارها وتشمل هذه المشاهدات مختلف النواحي الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية،كما يشترط أن يكون

---

[1] نبيل راغب،" أدب الرحلات"، مجلة الفيصل ، ع 88، السنة الثامنة ، يوليو 1984 ، ص71.

[2] يرجع عبد الهادي التازي تاريخ ظهور هذا المصطلح إلى منتصف القرن التاسع عشر حيث أنه لم يكن متداولا عند العرب من قبل، وإنما كانت العبارة السائدة عندهم هي الرحلة. للمزيد أنظر: عبد الهادي التازي ، **أدب الرحلات هل سوف يختفي من الساحة** ، ضمن أبحاث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في الفترة الممتدة من 21 ،24 أكتوبر 2004م ، ج1 ،ص11.

[3] كردي ، المرجع السابق، ص 9 .

[4] عبد القادر بكاري ، **منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني 1519،1830**، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، جامعة وهران، الجزائر، 2016/2015 ، ص 192.

[5] الموافي، المرجع السابق، ص 35.

الوصف موازنا بين شخصية الرحالة من جهة والرحلة كموضوع فلا يطغى جانب على آخر حتى لا يؤثر ذلك سلبا على أهمية الرحلة .

ومن ضمن خصائص أدب الرحلات أيضا أن يستخدم النثر في وصف الرحلة، ويكون ذلك دون تكلف أو إسراف وهو ما يسمح له بحرية الوصف دون أي قيود ويهدف أدب الرحلة إلى التأثير في القارئ فتزداد معارفه وثقافته بطريقة غير مباشرة[1] .

4. دواعي وطرق تدوين الرحلة :

تختلف وتتعدد دواعي تدوين النصوص الرحلية من رحالة لآخر، وعلى العموم قد يكون دافع الكتابة عند الرحالة يرتبط بطلب من الآخرين كطلب كحاكم مثلا [2]، و هو ما حدث مع الرحالة ابن بطوطة الذي نالت رحلته اهتماما كبيرا من طرف أبو عنان المريني الذي أراد الإطلاع على ما احتوته من أخبار ووصف للأمصار، الأمر الذي جعله يقوم بتكليف كاتبه ابن جزي لتدوينها حفظا لها من الضياع من جهة وتقديرا لقيمتها من ناحية أخرى [3].

وقد يرجع أيضا تدوين الرحلة إلى شخص الرحالة نفسه وهدفه من ذلك التعريف بالبلدان والأمصار والمسالك، وقد انتشر ذلك خصوصا في الرحلات الحجازية التي اهتمت بوصف طرق الحج ومسالكه، ويمكن أن نضيف على العوامل المشجعة على تدوين الرحلة ما يتعلّق أيضا برغبة الرحالة في إحداث التغيير في بلده بعد الإطلاع على الأوضاع البلدان الأخرى التي زارها ويقترن هذا الدافع برحلات العصر الحديث[4] .

تختلف الطرق التي انتهجها الرحالة في كتابة رحلاتهم، فنجد من الرحلات من دونها أصحابها أثناء الرحلة ويخضع هذا النوع إلى التسلسل الزمني للرحلة فيتم ذكر الأحداث التي صادفها الرحالة وفق زمان ومكان حدوثها، وتندرج في هذا الإطار رحلة العبدري، وهناك من الرحلات أيضا التي كتبت استناد إلى المذكرات التي دونها أصحابها أثناء رحلاتهم، ويهتم هذا الصنف من الكتابة بتدوين الملاحظات المهمة التي سجلها الرحالة في رحلته وذلك بعد عودته من الرحلة، والصنف الأخير من الكتابة يتعلّق بالرحلات التي دونها أصحابها استنادا

[1] الموافي ، المرجع السابق، ص ص40،41.

[2] نصار ، المرجع السابق، ص 52.

[3] محمد ابن أحمد ابن شقرون ، **مظاهر الثقافة المغربية دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني**، د ط ، دار الثقافة، المغرب، 1985م ، ص 174.

[4] أنساعد ، المرجع السابق، ص 21.

إلى ذاكرتهم بحيث يتم إملاء مجريات الرحلة على كاتب دون الاعتماد على ملاحظات مدونة وتندرج في هذا السياق رحلة ابن بطوطة التي سبق ذكرها حيث تكفل بتدوينها الكاتب ابن جزي بتكليف من سلطان فاس [1].

5. أدب الرحلة عند العرب وتطوره :

تعدّ الرحلة مظهرا من مظاهر الثقافة والتراث العربي[2]، حيث شغلت مكانة مهمة في التاريخ الإسلامي، وقد كان للعرب قصب السبق في هذا الميدان فطبيعة المجتمع العربي التي تقوم على طابع البداوة فرضت عليهم الترحال من مكان لآخر لتأمين احتياجاتهم وموارد رزقهم، وفي هذا السياق وصلت أخبار رحلات كثير ة قام بها الشعراء داخل الجزيرة العربية وخارجها، وهذه الرحلات لم تدون في كتب الرحلة وإنما ورد معظمها ضمن كتب اللغة وقصائد الشعراء قبل الإسلام[3]،كما نجد من أهم الرحلات التي اشتهر بها العرب واهتموا بها قبل الإسلام الرحلة التجارية كرحلة الشتاء والصيف إلى اليمن وبلاد الشام .[4]

وبظهور الإسلام وانتشاره اتسعت أفاق الرحلة عند العرب اتساعا كبيرا، فالإسلام لم يترك وسيلة من الوسائل التي تفيد الإنسان إلا وحث وشجع عليها وهو شأن الرحلة أيضا، ويظهر ذلك جليا في قوله عز وجل **" قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** [5]، وقوله أيضا: **" هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ "**[6]، وعليه فإن الرحلة عند المسلمين قد عرفت عدّة اتجاهات و أنواع، فعلاوة على الرحلة التجارية تبرز أيضا الرحلة في سبيل تأدية فريضة الحج وطلب العلم وهي من بين أهم العوامل التي ساهمت في تنشيط الرحلة [7] .

لقد فرض اتساع رقعة الدولة الإسلامية والحاجة إلى تنظيم الشؤون المالية والإدارية للأقاليم الجديدة التي تم فتحها ضرورة القيام بالرحلة، فكان من أهم ما استندوا عليه في ذلك هو نظام البريد[8] الذي ساهم

---

[1] النساج ، **أدب الرحلات** ...، المرجع السابق، ص 135.

[2] كردي ، المرجع السابق، ص 5.

[3] نوال عبد الرحمن شوابكة، **أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن 9هـ** ، ط1، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن، 2008م ، ص ص 17،18.

[4] راغب، المرجع السابق ، ص 74

[5] الآية 11 من سورة الأنعام .

[6] الآية 15 من سورة الملك.

[7] قنديل ، المرجع السابق، ص ص29،30.

[8] ظهر البريد في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، وقد ازدهر وتطور في عهد عمر ابن الخطاب، فكان أول من رتبه ووضع أسسه هو معارية بن ابي سفيان في عهد الدولة الأموية، حيث أدخلت عليه العديد من التحسينات وأصبح أداة هامة في تسيير شؤون الدولة الإسلامية ،للمزيد أنظر: أحمد رمضان أحمد، **الرحلة والرحالون المسلمون** ، دار البيان العربي، د ب ن ، دت ، ص9 .

بدوره في بعث الرحلة وتنشيطها بشكل ملحوظ فكان من أثر ذلك أن عبدت المسالك والطرق، وهو ما فتح المجال أمام رحلات كثيرة جابت عدّة مناطق [1].

وما من شك في أنّ اتساع مجال الرحلة عند العرب قد دفع بهم إلى تسجيل وتدوين ملاحظاتهم خاصة فيما يتعلّق بالطرق والمسالك، وقد بدأ هذا التدوين للملاحظات بالضبط مع مستهل القرن الثالث هجري التاسع ميلادي [2]، والجدير بالذكر أن أغلب ما دونه العرب من رحلاتهم كان ينحصر في مجال المعرفة الجغرافية فأسهبوا في وصف المسالك والممالك فكان للرحلة بذلك الأثر الكبير في تطور الفكر الجغرافي عند المسلمين فأغلب الجغرافيين العرب جعلوا من الرحلة الوسيلة الأولى لجمع المعلومات الجغرافية[3] .

هذا ويعدّ القرن الرابع هجري القرن الذي شهدت فيه الجغرافيا العربية تطورا ملحوظا، ومن أهم سمات الكتابة في تلك الفترة هي عناية الرحالة الكبيرة في وصف أقطار العالم الإسلامي من مسالك وممالك فكانت الملاحظة الشخصية هي المنهج الذي استندوا اليه[4]، ومن أبرز من سلكوا هذا التوجه نجد المقدسي الذي دون كتاب" أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم[5]، إضافة إلى اليعقوبي[6] والمسعودي[7] وكتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" ، وإذا كان أغلب الجغرافيين العرب رحالة بطبعهم فإن ما دونوه من ملاحظات جغرافية وتاريخية لم يكن في مؤلفات قائمة بذاتها و إنما أدرجت هذه الملاحظات في كتب تقويم البلدان[8] .

وأمّا فيما يخص بداية التأليف الحقيقي في مجال أدب الرحلة فقد بدأت ملامحه في القرن السادس هجري الحادي عشر ميلادي[9]، ومن أهم ما يميز هذا التأليف هو التحول الذي شهده ،فإذا كانت كتابات الرحالة في

---

[1] عباس جيلان ، **أثار مصر القديمة من خلال كتابات الرحالة العرب والأجانب** ، ط1، الدار المصرية اللبنانية ، مصر، 1992،ص 34.

[2] عبد الرحمن المنيع ، المرجع السابق ، ص30.

[3] محمد رشيد الفيل ، **أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب** ، الكويت ، 1979م ، ص 13.

[4] نيقولا زيادة ، **الجغرافيا والرحلات عند العرب** ، الشركة العالمية للنشر،1987، ص ص 12،13

[5] المقدسي: هو شمس الدين أبو عبد الله بن ابي بكر البناء المقدسي المعروف بالبشاري، ولد ببيت المقدس ، قام بالعديد من الرحلات في العالم الإسلامي ،وهو ماجعله يُدون كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم سنة 975هـ ، وهو يمتاز بدقة الوصف . للمزيد أنظر: رمضان أحمد ، المرجع السابق، ص 129.

[6] اليعقوبي: هو أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، يعد من أهم الجغرافيين العرب حيث قام برحلات الى ارمينيا والهند وايران ومصر وبلاد المغرب ، اشتهر بكتابه البلدان الذي يصف فيه الأقاليم التي زارها ، وله مؤلف آخر يعرف بتاريخ اليعقوبي، اعتمد اليعقوبي في تدوينه على التمحيص وقوة الملاحظة، للمزيد أنظر : رمضان أحمد، نفسه، ص ص 71،72.

[7] المسعودي: هو أبو الحسن علي ابن الحسين ابن عبد الله الهزلي المسعودي، مؤرخ وجغرافي وفقيه ،اشتهر بكثرة رحلاته واطلاعه الواسع على مختلف العلوم، له العديد من المؤلفات أبرزها مروج الذهب ومعادن الجوهر اضافة إلى كتاب التنبيه والإشراف، للمزيد أنظر : قنديل، المرجع السابق ، ص ص 211،212.

[8] رمضان أحمد ، المرجع السابق ، ص 53

[9] عبد الرحمن المنيع، المرجع السابق ، ص30.

القرنين الثالث والرابع هجري قد عنيت بالوصف الجغرافي، فإنّها اتخذت صبغة أخرى في القرن السادس هجري، إذ أصبح من أهم سماتها بروز الطابع الأدبي الذي أفضى عليها تنوعا في الأسلوب حيث أضحى الرحالة يهتم بسرد يومياته في طابع قصصي يغلب عليه الأسلوب الأدبي[1]، وقد ارتبط هذا التحول بأهم رحالة هو ابن جبير حيث يتفق المؤرخون على اعتباره الرحالة الأول الذي اكتملت على يديه الملامح الأساسية لأدب الرحلات فقد انفردت رحلته الموسومة بـــ:"تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" عن باقي الرحلات المدونة بطابعها الأدبي وقيمتها العلمية الكبيرة[2] .

ومن أهم رحلات القرن السادس هجري أيضا تبرز أهمية رحلة الإدريسي[3] الموسومة بـــ: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق "إضافة الى رحلة أبو بكر العربي والذي يعدّ أول رحالة أطلق على مصنفه مصطلح الرحلة في كتاب عنونه بـــ:" ترتيب الرحلة للترغيب للرحلة"[4]، والملاحظ هنا أن الكتابة في مجال الرحلة لم تقتصر على المشارقة فحسب وإنما كان للمغاربة والأندلسيين دور كبير في انشار هذا النوع من التأليف فقد أفادت كتابتهم الكثير من المؤرخين، ومن أبرز الرحالة المغاربة نذكر "ابن بطوطة" ورحلته "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، علاوة على رحلة ابن خلدون والموسومة بـــ:"التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا "[5].

إنَ المتتبع لتاريخ أدب الرحلة عند العرب يلاحظ التنوع الذي شهدته كتابات الرحالة في العصر الوسيط، وهذا إذا دل على شيء فإنه يدل على تفوقهم في هذا المجال غير أن هذا التفوق سرعان ما سوف يختفي مع بداية العصر الحديث حيث يرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى التحولات الكبرى التي شهدتها أوروبا خاصة بعد حركة الكشوف الجغرافية والنهضة الأوروبية، وهو الذي أثر سلبا على الحياة الثقافية في البلاد

---

[1] محمود حسين، المرجع السابق، ص 13 .

[2] قنديل، المرجع السابق، ص ص 76،75

[3] الإدريسي: هو أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله الحمودي الحسني ولد في سنة 1100 م بمدينة سبتة ، تلقى تعليمه بمدينة قرطبة ،يعد من أهم الجغرافيين العرب في القرن الثاني عشر حيث زار العديد من المناطق كمصر والأناضول والمغرب، استقر في صقلية حوالي سنة 1116م وأصبح من حاشية الملك روجر الثاني الذي كلفه بتأليف كتابه المشهور: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للمزيد أنظر: قنديل، نفسه، ص ص 338،339 .

[4] عبد الوهاب محمد اسماعيل العمراني، **رؤية يمنية في أدب الرحلات: مشاهدات وانطباعات من الشرق و الغرب**، ط2، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2013، ص 20

[5] غويني، المرجع السابق ، ص ص 17،16.

العربية، وبالتالي نجد أن حركة تدوين الرحلات قد اقتصرت على بعض الرحلات القليلة فقط [1] مثل رحلة أبو سالم العياشي [2]،كما نجد من رحلات هذه الفترة أيضا رحلة عبد الغني النابلسي[3].

بعد حالة التراجع التي شهدتها الحياة الثقافية خلال القرن 15م، انتعشت الحياة العلمية ابتدءا من القرن التاسع عشر حيث تزامن ذلك مع النهضة العربية الحديثة، وقد انعكس ذلك بالإيجاب على تدوين الرحلات، فعلى إثر التحول الكبير الذي شهدته الحركة الثقافية نشطت الرحلة من جديد غير أنها أخذت طابعا مختلفا، فأهم ماتميزت به الرحلة في هذه الحقبة هو تغير مسارها، فبعد أن كان أغلب الرحلات تتم ضمن حدود العالم الإسلامي أضحت في القرن التاسع عشر تتجه نحو أوروبا، ويعود هذا التحول بالدرجة الأولى إلى التواصل الحضاري[4] الذي حدث بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي في الفترة الحديثة[5].

ولقد نتج عن رحلات العرب إلى أوروبا الكثير من المؤلفات التي ساهمت في كشف الغموض عن الحضارة الغربية، ولعلّ من أبرز ما وصلنا كتاب: تخليص الإبريز في تلخيص باريس"لـــ:"رفاعة رافع الطهطاوي"[6]، والذي أبرز فيه مظاهر الحضارة الأوروبية بالإضافة إلى خير الدين التونسي[7]، والذي ألف كتاب

---

[1] راغب ، المرجع السابق، ص 75.

[2] أبو سالم العياشي(1628-1679م): هو أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي ، يرجع نسبه الى قبيلة آيت عياش في جنوب المغرب الأقصى ، تلقى تعليمه بالزاوية العياشية ثم انتقل إلى زاوية وادي درعة ، اشتهر بثقافته الواسعة حيث كان أديبا وفقيها و متصوفا، قام بثلاث رحلات إلى المشرق وقد دون تفاصيل هذه الرحلات في مصنفه الذي حمل عنوان الرحلة العياشية إلى الديار النورانية أو ماء الموائد، له أيضا العديد من المصنفات في النحو والتاريخ والتصوف من أبرزها : إقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر و ومسالك الهداية إلى معالم الرواية . للمزيد أنظر: أبو سالم العياشي ، **إتحاف الأخلاء بإيجازات المشايخ الأجلاء**،تح: محمد الزاهي ، ط1، د.غ.إ ، بيروت ، 1999م، ص ص 23- 57.

[3] عبد الغني النابلسي: هو أحد علماء مدينة دمشق في القرن الثامن عشر، ولد سنة 1050هـــ، قام بالعديد من الرحلات والغرض منها أداء مناسك الحج و زيارة وقد احتوت هذه الرحلة على تراجم الكثير من العلماء والأدباء في تلك الحقبة وقد اعتمد في تدوينها على مصادر متنوعة ما أكسبها قيمة علمية كبيرة. للمزيد: أنظر: عبد الغني النابلسي، **الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز**، هـــ،م.ع.ك ،مصر،1987م، ص ص 9-12.

[4] إن من أهم العوامل التي ساهمت في هذا التواصل هي الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798 والتي ترتب عنها تزايد اهتمام العرب بأوروبا ويبرز ذلك في البعثات العلمية التي أرسلت إلى فرنسا إضافة المهمات الرسمية التي كلفت بها بعض الشخصيات وهو ما سمح لهؤلاء برصد مظاهر التطور الأوروبي في الكتب التي ألفوها والتي نادت بضرورة إحداث إصلاحات في بلدانهم على النمط الأوروبي للمزيد أنظر: نازك سابايارد، **الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة** ،ط2، دار نوفل ،د ب ن، 1992م ، ص ص 7- 9.

[5] المراكشي، المرجع السابق ،ص ص 233،234.

[6] رفاعة رافعة الطهطاوي: ولد بمدينة طهطا في محافظة سوهاج في سنة 1801م، تلقى تعليمه الأولي في صعيد مصر ،في عام 1817م التحق بالأزهر الشريف أين تتلمذ على يد الكثير من المشايخ من أبرزهم حسن العطار فشملت دراسته علوم الحديث والفقه واللغة والنحو والصرف وبعد تخرجه سنة 1821م زاول مهنة التدريس بالأزهر، ارتحل سنة 1826 إلى باريس حيث كلف برئاسة البعثة العلمية التي أرسلها محمد علي ،ويعد الطهطاوي من أبرز رجال الإصلاح في القرن التاسع عشر. أنظر: صلاح زكي أحمد، **أعلام النهضة العربية في العصر الحديث** ،مركز الحضارة العربية ، 2001 ،ص ص 23-25 .

[7] خير الدين التونسي: ولد في منطقة إباضة في بلاد القوقاز سنة 1822م ، نشأ في قصر الباردو بتونس أين تعلم مبادئ العلوم اللغوية والدينية ، تولى عدة مهام سياسية وعسكرية وإدارية ،كما زار العديد من الدول الأوروبية وذلك في ظل المهمات الدبلوماسية التي كلف، نادى بضرورة الإصلاح في المجتمع التونسي من خلال الإقتباس من النظم الأوروبية: للمزيد أنظر: ناصر الدين سعيدوني، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي** : تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين ط1، د.غ.إ، بيروت ، 1999، ص ص 550 - 553 .

"أقوم المسالك في معرفة أحوال و الممالك"[1]، كما نجد أيضا من أهم رحلات هذه الفترة رحلة بيرم الخامس[2] الذي دون رحلته في كتاب "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار "[3].

من خلال ما سبق يمكن القول أن الرحلة عند العرب قد عرفت فترتي ازدهار تختص كل فترة بخصائص محددة، فالفترة الأولى قد بدأت مع الفتوحات الإسلامية وامتدت حوالى ست قرون حيث تنقل الرحالة في حدود أقاليم العالم الاسلامي، أمّا الفترة الثانية فقد تزامنت مع النهضة العربية في القرن التاسع عشر وقد كانت وجهتهم من العالم العربي إلى أوروبا بغية الإطلاع على مظاهر الحضارة ومحاولة تجسيدها في العالم الإسلامي[4].

6. القيمة التاريخية لكتابات الرحالة :

تزايد اهتمام الباحثين في الآونة الأخيرة بما دونه الرحالة من كتابات، ويعود ذلك إلى القيمة العلمية التي تتميز بها، فعلى الرغم من الاختلاف الذي ظهر بين الباحثين حول تصنيف المجال الذي ينتمي اليه أدب الرحلة ،إلاّ أنه اكتسى أهمية كبير ة فهو يزخر بمعارف متنوعة، إذ يعدّ سجلا حقيقيا تتجسد فيه مختلف المظاهر فقد كان عونا وسندا للمؤرخ والجغرافي والأديب وعالم الاجتماع، فلم تقتصر مادته على جانب واحد من المعرفة وإنما أفاد تنوعها شتى أصناف العلوم، ومنه كان للرحلة قيمتين قيمة أدبية وأخرى علمية، فأما القيمة الأدبية فتتجلى في ما تزخر به هذه المدونات من عناصر أدبية متنوعة، فهي تضم الرواية والقصة والسرد علاوة على الوصف ما يفضي عليها تنوعا في الأسلوب ومتعة للمهتمين بها، وأما القيمة العلمية لكتب الرحلات فتتمثل في أهمية ما أورده هؤلاء الرحالة من معلومات تاريخية وجغرافية وثقافية واقتصادية أماطت اللثام عن تاريخ الكثير من المجتمعات[5] .

و بالرغم من أنّ منهج الكتابة في الرحلة يختلف عن المنهج الذي يستخدمه المؤرخ في عملية التدوين التاريخي وكذا احتواء كتابات هؤلاء الرحالة على الانطباعات الشخصية التي لا تخلو من الميول والنزعة الذاتية، إلا أنه لا يمكن الاستغناء عن هذا النوع من المعرفة في الدراسات التاريخية فنصوص الرحلات تبقى من

---

[1] أنساعد، المرجع السابق ، ص ص26 ،27.

[2] محمد بيرم الخامس:1840-1889م من أبرز رواد الإصلاح في تونس ، تولى مهمة التدريس بجامع الزيتونة، استعان به خير الدين التونسي في مشاريعه الإصلاحية حيث أشرف على جمعية الأوقاف سنة 1874م ، كما تولى إدارة جريدة الرائد التونسية التي نشر فيها الكثير من المقالات ، زار العديد من الدول كفرنسا وإيطاليا وإنجلترا إضافة إلى اسطنبول ومصر من أهم مؤلفاته صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار. للمزيد أنظر: محمد بيرم الخامس، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، م1**، تح: علي بن طاهر الشنوفي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس ،1999م ، ص ص 8_12 .

[3] المراكشي، المرجع السابق، ص 234.

[4] فهيم، المرجع السابق، ص ص 94، 95.

[5] محمود حسين، المرجع السابق، ص ص 6- 8.

أهم المصادر التي ساهمت في الكشف عن الجوانب مهمة من تاريخ العالم الإسلامي وكذا الأوروبي وبالأخص في ظل عدم وجود كتابات تاريخية تقدم صورة شاملة، ولعلّ ما أكسبها هذه الأهمية هو المنهج الذي يستند إليه هؤلاء الرحالة في كتاباتهم والذي يقوم على الملاحظة المباشرة الأمر يجعل الرحالة شاهدا على الأحداث ومعاصرا لها، وبما أن هؤلاء الرحالة تتفاوت درجات ملاحظاتهم وتختلف اهتماماتهم فقد أنتج ذلك رصيدا معرفيا متنوعا اتسم بالشمولية وعدم التركيز على جانب واحد وهو ما أبرز أهمية الرحلة في نواحي متعددة [1].

ففي مجال الكشف الجغرافي كان للرحلة الأثر الكبير في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب، ولعلّ ما يؤكد ذلك هو كثرة ما ألف في هذا المجال فلم يقتصروا على وصف أحوال البلاد الإسلامية فحسب، بل شملت معارفهم الجغرافية مناطق أخرى أجنبية[2]، وفي هذا الصدد قد نوه المستشرق الروسي فلاديمير مينورسكي بدورهم في قوله:"إن الجغرافيين العرب ملأوا الفراغ وسدوا الفجوة الزمنية بين عهد بطليموس العالم اليوناني وعهد ماركو بولو العالم البندقي وأن أخبار الرحالة العرب وقصصهم أكثر تنوعا وأشد حيوية وقوة مما نجده مسطورا في كتب علماء اليونان وجداولهم وأن علمهم الذي ضمنوه كتبهم يمتاز بأنه أعظم اختيارا ونقدا وأكثر في التفاصيل مما ورد في كتابات الرحالة البندقي ماركو بولو "[3].

ولعلّ من أبرز الجغرافيين العرب ممن جعلوا الرحلة منطلقا لهم نجد ابن حوقل وكتابه "صورة الأرض" فكان من أثر الرحلات وصف المسالك والممالك ووضع المعاجم جغرافية التي أضحت فيما بعد من أهم المصادر التي تستند إليها الدراسات التاريخية ومن ناحية أخرى شكلت كتابات الرحالة مصدرا مهما في رصد ووصف الثقافات الإنسانية فهي إلى جانب كونها وسيلة لجمع المعارف فقد كانت فرصة لاكتشاف الآخر والأخذ عنه [4]، وهو ما سمح بتسجيل الأوضاع الاجتماعية للعديد من الأقطار وهذه المعلومات المتعلقة بالعادات والتقاليد وطبائع السكان هي على درجة كبيرة من الأهمية خاصة وأن الكتب التاريخية الأخرى كثيرا ما أغفلت و أهملت هذا الجانب حيث انحصر اهتمامها على النواحي السياسية فحسب [5]، وهنا تبرز أهمية كتابات الرحالة في الكشف عنها فالرحالة استقى تلك الحقائق والمعلومات عن طريق الاتصال المباشر بالشعوب والاحتكاك بهم وهو ما سمح بسد الفجوة والفراغ المتعلق بنقص الدراسات حول الواقع الاجتماعي، ومن أهم النماذج التي أرخت للحياة الاجتماعية تبرز رحلة العياشي إلى المشرق العربي فقد أورد فيها الكثير من المعطيات

[1] عبد الرحمن المنيع، المرجع السابق، ص31

[2] فهيم ، المرجع السابق، ص 84

[3] زكي محمد حسن ، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، دار الرائد العربي، لبنان ، 1981م ، ص 180.

[4] سديرة ، المرجع السابق ،ص 13.

[5] نواب ، المرجع السابق ، ص 93.

الاجتماعية حول البلاد العربية في العهد العثماني[1]، وزيادة على على ذلك تتجلى أهمية الرحلات في المعطيات الثقافية التي تحتل حيزا مهما في النصوص الرحلية الأمر الذي يجعلها من أهم المصادر التي تؤرخ للحركة العلمية والثقافية فلا تكاد تخلو رحلة من ذكر العلماء والأدباء ومراكز التعليم وطرق التدريس وهو ما يسمح للباحث بتكوين صورة واضحة عن الحياة الثقافية خصوصا وأن الرحالة في تسجيله للأحداث يعتمد على الملاحظة المباشرة فضلا على أن الأسلوب الذي كتبت به الرحلة هو في حد ذاته انعكاس لملامح الحياة الفكرية في تلك الفترة، ومن جهة أخرى يجد المهتمون بدراسة الجوانب الاقتصادية مادة وفيرة حول الأنشطة الاقتصادية فالرحالة وهو ينتقل من منطقة لأخرى يصف الصناعات والطرق التجارية وطبيعة المعاملات التجارية بين الأفراد بالإضافة إلى وصفه للأسواق و النشاط الزراعي في المناطق التي يمر بها، الشيء الذي يسمح بكشف سمات الحياة الاقتصادية ومدى تطورها [2].

تهتم كذلك كتب الرحلات بالجانب السياسي فما يسجله الرحالة من معطيات وأحداث تتعلّق بطبيعة العلاقات بين الدول ونظم الحكم والثورات الداخلية لاشك أنّها ساهمت كلها في استكمال الصورة العامة للمشهد السياسي للعديد من المناطق [3].

وعلى العموم يتبين لنا من خلال ماسبق ذكره أنّ الرحلات تشكل مادة خام يستند اليها المؤرخ في كشف جوانب مهمة من تاريخ الأمم والشعوب فهي بذلك على درجة كبيرة من الأهمية، ولهذا يتوجب على الباحثين الإهتمام والعناية بها من خلال دراستها ونشرها وتحقيقها فهي تزخر بقيمة علمية كبيرة، فهي تفيد المؤرخ والأديب وعالم الإجتماع على حد سواء باعتبارها تقوم على التجربة الشخصية للرحالة الذي يستقى ملاحظاته عن طريق الاحتكاك المباشر بالشعوب ما يفضي عليها نوعا من المصداقية، غير أنه يتوجب كذلك على الباحث في دراسته لنصوص الرحلات أن يلتزم بروح النقد وذلك بإخضاع هذه النصوص إلى التمحيص الدقيق نظرا لكونها قد تحوي في طياتها النزعة الذاتية للرحالة والذي قد يطغى على أسلوبه المبالغة خاصة في وصف العجائب والغرائب والتي تمتزج غالبا بالخيال، ومع كل هذا تبقى نصوص الرحلات المرآة العاكسة التي رصدت الأحوال السياسية والاقتصادية والثقافية لكثير من المجتمعات خاصة منطقة المشرق العربي في العهد العثماني .

---

[1] سعيدوني، المرجع السابق، ص ص 378، 379.

[2] عواطف محمد يوسف نواب، **كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 11هـ، 12هـ دراسة تحليلية نقدية مقارنة**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث،كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، 1991م، ص ص 17 – 19.

[3] نفسه ، ص 20.

الفصل الأول: التعريف بالرحلات المغاربية والأوروبية نحو المشرق العربي في القرنين 19/18م

المبحث الأول: الرحلات الحجازية المغاربية:

1. العلاقات المشرقية المغربية وركب الحج المغربي
2. مسالك ركب الحج المغربي وعوائقه.
3. دوافع الرحلات الحجازية المغاربية إلى المشرق العربي .
4. خصائص الرحلات الحجازية المغاربية.
5. نماذج عن أهم الرحلات المغاربية إلى المشرق العربي خلال القرنين 18و19م.

1.5 رحلة أحمد بن ناصر الدرعي 1121هـ/1709م

2.5 رحلة الورتلاني 1179هـ/ 1766م

3.5 رحلة محمد بن عبد السلام الناصري 1196هـ/ 1782م.

4.5 رحلة ابن طوير الجنة 1245هـ/ 1829م .

5.5 رحلة الغيغائي 1274هـ/ 1858م.

المبحث الثاني: الرحلات الأوروبية

1. التطور التاريخي للرحلة الأوروبية إلى المشرق العربي.
2. دوافع الرحالة الأوروبيين إلى المشرق العربي .
3. نماذج عن أهم الرحلات الأوروبية إلى المشرق العربي خلال القرنين 18/ 19م.

3. 1 رحلة قسطنطين فرنسوا فولني 1783م / 1785م

3. 2 رحلة جون لويس بيركهارت. 1815/1814م.

3. 3 رحلة رتشارد بيرتون 1853م .

شهدت منطقة المشرق العربي خلال الحكم العثماني توافد عدد كبير من الرَحالة الذين تباينت انتماءاتهم و أهدافهم، وقد تَرتب عن هذه الرحلات ظهور عدّة كتابات وُصفت من طرف الباحثين بأنَها من أهم المصادر التي يمكن الاستفادة منها في دراسة تاريخ هذه المنطقة، وذلك في ظَل غياب دراسات تاريخية متخصَصة تلَم بجميع الجوانب السَياسية والاقتصادية والاجتماعية والثَقافية .

والمتتَبع لهذه الرحلات التي دون فيها أصحابها أخبار رحلاتهم، وما شاهدوه من أحداث متَنوعة يجد أنّها ارتكزت على مناطق هامة، فلم تحض أيَ منطقة من مناطق المشرق العربي بالعناية مثلما حضيت به مصر والحجاز وبلاد الشَام التي توجَهت إليها أغلب الرحلات، فالأهمية التاريخية والدينية التي تتَمتعت بها هذه المناطق جعلت منها نقطة جذب واستقطاب لكثير من الرحالة الذين أزالوا وكشفوا من خلال كتاباتهم التي تركوها الغموض الذي يكتنف تاريخها، خاصة وأن هذه الرحلات جاءت في فترة تاريخية مهَمة هي فترة الحكم العثماني في المشرق العربي .

والملاحظ أنّ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هما الفترة التي شهدت فيهما الرَحلة نحو المشرق العربي تطورا كبيرا، حيث يمكن أن نميَز بين نوعين من الرحلات في تلك الفترة، النوع الأول يتمثل في رحلات المغاربة، أمَا النَوع الثاني فيتمثل في الرحلات التي قام بها الأوروبيون. ومهما اختلفت الدوافع التي تحكمت في هذه الرحلات وتنَوعت كذلك النَظرة التي كونها هؤلاء الرحالة عن المشرق العربي، إلاَ أنَها تبقى من أهَم المصادر التي صَورت واقع الإيالات العربية في ظَل الحكم العثماني .

وبالنظر إلى كثرة الرحلات المغاربية والأوروبية إلى المشرق العربي وصعوبة الإلمام بها جميعا، سوف نقتصر في هذا الفصل على ذكر بعض النماذج من الرحلات التي قصدت المشرق العربي عموما ومصر والحجاز على وجه الخصوص، والتي كان لها أهمية تاريخية بحيث سوف نتَتبع دوافع هذه الرحلات، ونقوم بالتَعريف بهؤلاء الرَحالة، كما نستعرض في نفس الوقت المناهج التي اعتمدوا عليها في تدوين رحلاتهم، ونحدد القيمة العلمية لكتاباتهم ودورها في كشف صورة مصر والحجاز في العهد العثماني .

المبحث الأول : الرحلات الحجازية المغاربية:

تَفوق المغاربة على مرِ العصور التاريخية على غيرهم من الشعوب الأخرى في كثرة رحلاتهم إلى المشرق العربي، حيث تمثل الفترة العثمانية وبالأخص الفترة الممتدة من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر أهَم الفترات التي شهدت فيها الرحلة المغاربية نشاطا، ما يفسر كثرة التآليف التي تركها هؤلاء الرحالة والتي حملت انطباعاتهم ومشاهداتهم، فعلى الرَغم من أنَ هذه التآليف قد حقق البعض منها ولا يزال جزء كبير منها على شكل مخطوط إلا أنَها بلا شك قد أثرت الحركة الأدبية في المغرب العربي، بعد أن أصبح تدوين الرحلات من أهم مظاهر واتجاهات الحياة الثقافية .

والمتَأمل في رحلات هؤلاء المغاربة وكتاباتهم التي تمحورت جلها عن المشرق العربي، يجد أنَها تحمل عدّة مقومات حددت أهميتها التَاريخية، فهي امتداد للرَحلات التي قام بها المغاربة في العصر الوسيط كرحلة ابن بطوطة والعبدري وابن جبير، والحديث عن هذه الرحلات التي شهدها العهد العثماني في حقيقة الأمر لا يتم إلا في سياق الحديث عن العلاقات المغربية المشرقية، ومدى تأثير هذه العلاقات على رحلات المغاربة إلى الحجاز ومصر .

1. العلاقات المغاربية المشرقية في العهد العثماني وركب الحج المغربي :

تميَزت العلاقات التي جمعت دول المغرب العربي مع المشرق الاسلامي منذ القدم بأنَها علاقات متينة ووطيدة، حيث أن جذورها تمتد إلى العصر الإسلامي الأول، فطيلة هذه الفترات لم تقف الخلافات السياسية بأي شكل من الأشكال حائلا أمام استمرار هذا التواصل[1]، والجدير بالذكر أن العلاقة بين المغرب والمشرق قد نتجت أساسا عن الارتباط الديني والثقافي والحضاري بين الطرفين، ما أدى إلى تَعدد أوجه التواصل والاحتكاك بينهما والتي شملت مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية[2].

لقد توطدت العلاقات والصلات بين المشرق والمغرب بشكل لافت خلال العصر الحديث، وذلك بعد انضواء البلاد العربية تحت لواء الدولة العثمانية، فكان من أهم نتائج تلك الصلات هو تزايد اهتمام المغاربة

[1] عبد الواحد ذنون طه، **الرحلات المتبادلة بين المغرب الإسلامي و المشرق**، ط1، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2004 م، ص 13.

[2] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، **فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني**، دط، هـ.م.ع.ك، مصر، 1990م، ص 187 .

بالمشرق العربي عموما وبمصر والحجاز خاصة[1]، حيث شكلت الرحلات التي دأب الحجاج المغاربة على القيام بها في كل موسم حج عاملا مهما في تعزيز تلك الصلات واستمرار التواصل الحضاري والفكري[2].

والحديث عن دور الرحلة في تعميق هذه الأواصر يدفعنا إلى إبراز الدور الكبير لمؤسسة ركب الحج المغربي التي استحدثها الحكام المغاربة منذ العهود الأولى لتنظيم هذه الرحلات من جهة، ولتأطير علاقاتهم مع المشرق العربي من جهة ثانية، حيث تعتبر هذه المؤسسة مظهرا من مظاهر العلاقات بين الطرفين، فضلا على أنها شكلت أحد أبرز الوسائل التي أتاحت التواصل بين المشرق والمغرب العربي خلال العصور الحديثة .

على الرغم من المخاطر الكثيرة التي كانت تعترض رحلات الحجاج نحو الحجاز، وسواء اقترنت تلك الصعاب بالظروف الطبيعية أو البشرية، إلا أن رحلاتهم انتظمت و لم تنقطع على مر العصور، إذ عرف المغاربة بحرصهم الشديد على الرحلة لأداء المناسك الحج خاصة بعد استحداث مؤسسة ركب الحج المغربي التي ساهمت في تطور واتساع هذه الرحلات التي تنوعت أهدافها بين تأدية مناسك الحج وطلب العلم و التجارة[3] .

وتعود نشأة هذا الركب حسب ما ذهب إليه المؤرخ محمد المنوني في كتابه "من حديث ركب الحج المغربي" إلى عهد الدولة الموحدية، حيث يعود الفضل في ذلك إلى الإمام الصوفي أبي محمد صالح الماجري، الذي كان من أهم أركان طريقته الدعوة إلى حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، فتم بذلك تأسيس أول ركب حج مغربي عرف بالركب الصالحي نسبة لمؤسسه [4].

ولتنظيم الحج عكف القائمون عليه على إنشاء مجموعة من الرباطات والزوايا على طول الطريق المؤدي للحجاز بهدف تقديم المساعدة للحجاج وتلبية احتياجاتهم خلال مسار الرحلة[5]، وهو العامل الذي جعل قوافل

---

[1] عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق، ص ص 187، 188.

[2] نور الدين امعيط، **الرحلة المغربية إلى الحجاز خلال العصر الوسيط رحلة العبدري انموذجا**، ضمن أبحاث ندوة ركب الحج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والإجتماعية ببني ملال 29-30 ماي / 2013م، ص 129.

[3] عبد القادر آيت الغازي، **الرحلة الحجية المغربية بين الدين والعلم والسياسة مشاريع في مشروع**، ضمن أبحاث ندوة ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال، المغرب، 29و30 ماي 2013م، ص ص 38،39.

[4] محمد المنوني، **من حديث ركب الحج المغربي**، دط، مطبعة المخزن، تطوان، 1953م، ص 7 .

[5] السعيد لمليح ، **التواصل الفكري والروحي بين المغرب الأقصى والمشرق الإسلاميين (مصر والحجاز) أسسه ومظاهره**، دط، المجمع الثقافي، الإمارات، 2005، ص ص، 65، 66.

الحج تخضع لتنظيم دقيق ساهم في تنشيط الرحلة الحجية التي انتظمت وأصبحت مظهرا من مظاهر التواصل بين المشرق والمغرب العربي [1].

ونتيجة لتطور واتساع رحلات الحج، فقد تعدد ركب الحجاج وعرف عدّة أنواع فظهر الركب الفاسي والركب السجلماسي، والركب المراكشي والركب الشنقيطي، إضافة الركب البحري، غير أن أهم ركب اشتهر في المغرب هو الركب الفاسي[2]، الذي أصبح في عهد الدولة المرينية هو الركب الرسمي للمغرب [3].

وبالنظر لأهمية الرحلة الحجية فإن سلاطين المغرب كانت لهم عناية كبيرة بركب الحج، باعتبار أنه الوسيلة التي أطرت ونظمت علاقاتهم مع مناطق المشرق العربي، ويبرز حرصهم جليا في تشجيع رحلة الحج من خلال الإعانات المالية والمادية التي وفروها للركب، فضلا عن السهر على تأمين سلامته بتخصيص حاميات عسكرية مرافقة له[4]، إضافة إلى تذليل صعاب المسالك بحفر الآبار[5]، وإقامة الزوايا التي انتشرت في المدن الواقعة على طول الطريق بين الحجاز والمغرب العربي[6]، وقد أدت هذه التسهيلات إلى زيادة إقبال المغاربة على الرحلة التي اتسعت وتحولت إلى عنصر نشيط في المجتمع المغربي [7].

لقد كان ركب الحج المغربي يجمع مختلف الشرائح الاجتماعية منها العامة والخاصة من علماء وأدباء وأمراء وفقهاء[8]، وقد اتفق المؤرخون أن هذا الركب يعدّ من أهم الوسائل التي ساعدت على ربط العلاقات المغربية مع

---

[1] عبد العزيز بلبكري، **الرحلات الحجازية المغربية مصدر للعلاقات الفكرية المغربية المصرية**، ضمن كتاب : الذاكرة التاريخية المغربية المصرية ، ج1، جمع وتنسيق: عبد الحميد المودن ، ط1، المغرب، ص 366.

[2] يرجع تاريخ تأسيس الركب الفاسي إلى عهد الدولة المرينية، وقد تم ذلك عن طريق السلطان المغربي أبي يوسف يعقوب المريني الذي أشرف على تنظيمه وتهيأته، حيث عوض هذا الركب الركب الصالحي الذي ظهر في عهد الدولة الموحدية، ومنذ تلك الفترة أضحى هذا الركب يشكل الركب الرسمي لدولة حيث استمر تواجده إلى غاية القرن التاسع عشر . للمزيد أنظر: المنوني ، المرجع السابق، ص ص 9،10

[3] بوشتى بو عسرية، **من مصادر تاريخ العلاقات بين المغرب وشبه الجزيرة العربية: رحلات المغاربة إلى الحرمين الشريفين، القرنين 18 م – 20م**، إعداد محمد ياسر الهلالي، ط1، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المطبعة الأمنية، الرباط ، 2013م، ص ص 12، 13.

[4] عبد الله بوغوتة، **إمتاع السامع بأخبار الرحلة الحجية المغربية في القرون السابع والثامن والتاسع هجري** ، ج1، د ط، مكتبة سلمى الثقافية ، المغرب، 2018م، ص 130.

[5] عكف الحكام المغاربة وخاصة حكام الدولة العلوية على تسهيل وتشجيع الرحلة الى الحجاز من خلال تزويد ركب الحج بما هو ضروري كالمؤن والحراسة، ومن أمثلة ذلك أن المولى رشيد (1666م _ 1672م) قد أمر بحفر أبار في طريق الحجاج سميت بآبار السلطان كانت تسقى منها قوافل الحج على طول الطريق المؤدية إلى الحجاز للمزيد أنظر : بوعسرية ، المرجع السابق ، ص ص13– 15.

[6] المنوني ، المرجع السابق ، ص 11.

[7] مصطفى عبد الله الغاشي،" المؤرخ والرحلة أو كيف تتصدر الرحلة مدونة المؤرخ ؟ الرحلة المغربية والشرق العثماني أنموذجا "، مجلة سطور ، ع11 ، 2020 م، ص 241.

[8] محمد ماكامان، **الرحلات المغربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة الموافق للقرنيين السابع عشر والثامن عشر للميلاد**، ط1، كلية الأداب والعلوم الإنسانية، الرباط ، 2014م، ص 135.

بلدان المشرق العربي في مختلف المجالات، حيث أنه تجاوز دوره من مجرد تنظيم لرحلة دينية لقضاء مناسك الحج إلى أداة حققت التواصل بين مناطق العالم الإسلامي مشرقا ومغربا [1].

وبناء على الدور الذي اضطلع به ركب الحج فإن العلاقات المغربية المشرقية اتخذت عدّة مظاهر، ولعلّ من أهمها نجد السفارات التي كان الحكام المغاربة يرفقونها بركب الحج، فغالبا ما كانت مهمة هذه السفارات تتمثل في حمل الهدايا إلى الحرمين الشريفين، والتوصية بالحجاج في هذه الأقاليم[2]، فأما بالنسبة للهدايا فقد تنوعت وتعددت وكانت عبارة عن تقليد دأب الحكام المغاربة على القيام به منذ القدم، حيث عرفت تلك الهدايا باسم الصرة المغربية [3]، وهي عبارة هبات مالية وعينية ترسل سنويا لشرفاء مكة والمدينة المنورة وأهل الحرمين الشريفين، وقد اشتهر في هذا الشأن كثير من السلاطين العلويين من أمثال المولى اسماعيل والسلطان محمد بن عبد الله[4]، حيث أنهم حرصوا على إرسال الهدايا النقدية التي كان يتكفل ركب الحج المغربي بنقلها إلى الحجاز [5].

وبالنظر لأهمية الصرة المغربية لدى الحكام المغاربة، فإن ركب الحج عادة ما كان يضم بين فئاته شخصيات مهمة من الأسرة الحاكمة التي أدت مناسك الحج، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أن أهم ركب عرف في هذا الشأن هو الركب الذي كان سنة 1730-1731م[6]، والذي كانت فيه "الأميرة خناثة"[7]

---

[1] مليكة الزاهدي، **ركب الحاج المغربي ودوره في تعزيز الصلة بين أشراف المغرب وأشراف المشرق**، ضمن كتاب الهوية بين التراث واللغة ، تنسيق مصطفى حسوني ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، المحمدية ، المغرب ، 2012م، ص 64.

[2] محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين** ، ط3، منشورات كلية الأداب ، المغرب ، 2003م ، ص 171.

[3] بوعسرية ، المرجع السابق ، ص 16.

[4] محمد بن عبد الله: هو حفيد المولى اسماعيل، تولى عرش الدولة العلوية في سنة 1171هـ - 1757م ، عرف عنه اهتمامه الكبير بالعلم والعلماء ، شهد المغرب في عهده استقرار وتطورا ملحوظا وذلك كان نتيجة للسياسة التي انتهجها والتي كانت تقوم على الانفتاح على الخارج، أرسل عدة سفارات إلى الدول الأوروبية و الدولة العثمانية من أجل تحسين العلاقات بين الطرفين ، اهتم بتطوير الجانب العسكري و إصلاح الثغور و الدعوة إلى الجهاد . للمزيد أنظر : محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، تح: ادريس بوهليلة ، ج2، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية، 2005م، ص ص 16 - 30

[5] الزاهدي، المرجع السابق ، ص ص66،67.

[6] بوعسرية ، المرجع السابق، ص 16.

[7] الأميرة خناث هي خناثة بنت الشيخ بكار المغافري و زوجة السلطان المغربي مولاي اسماعيل، كانت فقيهة وعالمة وأديبة ووزيرة، قامت بأدوار سياسية مهمة وتمتعت بمكانة مرموقة، في سنة 1143هـ ارتحلت إلى الحج رفقة حفيدها محمد بن عبد الله ،وقد حملت معها الصرة المغربية قصد توزيعها على أهل الحرمين الشريفين والتي بلغت حوالي مائة ألف دينار ، توفيت بفاس ودفنت بروضة الأشراف وكان ذلك عام 1159هـ .أنظر : أبي زيدان عبد الرحمن بن محمد السجلماسي، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تح:، علي عمر ، ج3، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2008، ص ص 25-32.

زوجة المولى اسماعيل إلى جانب كثير من الشخصيات المهمة نذكر منهم "الوزير محمد الشرقي الإسحاقي"[1] صاحب الرحلة، حيث أنها رافقت الركب و حملت معها هبات مالية وفيرة وهدايا نفيسة وزعت على أهل الحرمين الشريفين، وقد نال هذا الركب الذي ترأسته الأميرة استقبالا وحفاوة كبيرة من طرف أشراف الحجاز [2]، وهذا إذا دل على شيء، فإنه يدل حرص السلاطين المغاربة على إقامة علاقات متينة مع أشراف مكة والمدينة المنورة، حيث كان للصرة المغربية التي اقترنت بركب الحج دور مهم في تعزيز الصلات .

لم تكن الصلات بين المشرق والمغرب تقتصر على العطايا والهبات السنوية فحسب، بل تعدت ذلك وشملت نوعا أخر من العلاقات ففي القرن الثامن عشر ميلادي، وبالتحديد في عهد السلطان المغربي محمد ابن عبد الله انتقلت العلاقة بين الطرفين إلى روابط المصاهرة [3]، ومن ذلك المصاهرة التي تمت بين الأسرتين الحاكمتين في الحجاز والمغرب[4]، وقد كان من نتائج هذه المصاهرة أن ازدادت متانة العلاقات المغربية المشرقية التي أضحت أكثر قوة في نهاية القرن الثامن عشر ميلادي .

يتضح مما سبق ذكره أن الصلات بين المشرق والمغرب هي صلات متينة تعود جذورها إلى فترات قديمة، وقد أخذت العلاقة بين الطرفين مظاهر وأشكال متعددة، حيث توطدت تلك العلاقات بشكل كبير خاصة بعد انضواء معظم المناطق العربية تحت لواء الدولة العثمانية .

والجدير بالذكر أنه رغم طابع العلاقة الذي جمع الدولة العثمانية بالمغرب الأقصى الذي ظل البلد الوحيد من دول المغرب العربي الذي لم يخضع للحكم العثماني، إلا أن تلك العلاقات الرسمية التي اصطبغت في بعض الفترات بالتوتر لم يكن لها تأثير سلبي على المستوى الاجتماعي، إذ استمر التواصل بين المشرق والمغرب الأقصى و لم ينقطع، ولقد كان لانتظام ركب الحج ولرحلات المغاربة دور مهم في الحفاظ على العلاقات المتينة

---

[1] الوزير الإسحاقي : اختلفت المصادر في اعطاء ترجمة وافية لهذه الشخصية، إذ نلاحظ الاختلاف في تحديد الاسم الكامل، فمنها ما يذكر أن اسمه الكامل هو عبد القادر الجيلاني المعروف بالشرقي الاسحاقي، في حين وجدت مصادر أخرى سمته أبو محمد عبد القادر بن محمد الشرقي الاسحاقي ، وهي على الارجح التسمية المشهورة، وهو كاتب ووزير في العهد الاسماعيلي، ارتحل الى المشرق العربي وأجازه عدد من العلماء كالشيخ الشريف الحسيني و الشيخ محمد الطبري وغيرهم ، كان على صلة وثيقة بالبلاط العلوي، من أهم ما تركه من مؤلفات رحلته الحجازية المعروفة بـــ: رحلة الوزير الاسحاقي. للمزيد أنظر: عبد الهادي التازي، **أمير مغربي في طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي**، دط، د ب ن ، دت، ص ص 103- 107.

[2] السجلماسي، المصدر السابق ، ص ص 26-32.

[3] بوعسرية، المرجع السابق ، ص 29.

[4] يذكر الناصري أن هذه المصاهرة قد تمت بين إبنة السلطان المغربي محمد ابن عبد الله و سلطان مكة أنذاك الشريف سرور، وكان ذلك بالتحديد سنة 1182هـــ - 1768م التي تزامنت مع خروج ركب الحج إلى الحجاز للمزيد أنظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ،ج 8، تح: جعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء ، 1997م ، ص 34.

بين الطرفين، وهذا على خلاف الرحلات الأوروبية إلى المشرق العربي التي كانت تتحكم فيها طبيعة العلاقات العثمانية الأوروبية [1].

2. مسالك ركب الحج المغربي وعوائقه :

لقد كان التوجه نحو المشرق العربي بالنسبة للرحالة المغاربة يطرح عدّة إشكالات من أبرزها مشكلة اختيار الطريق التي يتوجب اتباعها، فمن الثابت أن اختيار الرحالة المغاربة للطريق لم يكن عشوائيا وإنما كان يخضع لمجموعة من الشروط التي تتحكم في ذلك كالوجهة المقصودة والدوافع إضافة إلى الطرق الأكثر اعتمادا والأقل خطرا، ومن الواضح أن هذه الاشكالية لم تكن وليدة القرنين السابع عشر أو الثامن عشر وإنما تمتد إلى عهود سابقة وبالتحديد منذ بدايات تشكل ركب الحج المغربي [2].

2. 1 مسالك الحج :

سلك الحجاج المغاربة في طريقهم إلى البقاع المقدسة طرقا متعددة ومختلفة، إذ تنوعت بين الطريق البري والطريق البحري، وهذه المسالك التي اضطلعت عبر تاريخها الطويل بدور مهم في الربط بين طرفي العالم الإسلامي كان بعضها ثابتا ومنها ما كان متغيرا نتيجة للظروف الطبيعية والسياسية.

أ. الطريق البري:

يعتبر هذا الطريق من أهم المسالك وأكثرها استخداما وشيوعا لدى قوافل الحج رغم ما كان يكتنفه من مخاطر[3]، وكان هذا المسلك خلال العهد العثماني يربط بين مختلف الأقطار المغاربية وهي (المغرب الأقصى و إيالة الجزائر وتونس وطرابلس الغرب)[4] .

والمطلع على مصنفات الرحالة المغاربة الذين خصصوا حيزا كبيرا لوصف هذه المسالك يدرك أن مسالك الطريق البري قد تنوعت إذا كانت تشتمل على طرق رئيسية وأخرى فرعية [5]، وعلى العموم ويمكن أن نقسم هذه المعابر و المسالك إلى مايلي:

---

[1] مصطفى الغاشي، "صورة الشرق من خلال المعارج المرقية في الرحلة المشرقية للرافعي التطواني 1096هـ 1684م"، مجلة الدارة ، ع1، 1420هـ ، ص 183

[2] مصطفى الغاشي، **الرحلة المغربيَة والشَرق العثماني– محاولة في بناء الصورة** ، ط1، دار الإنتشار العربي ، بيروت ،2005م، ص 349.

[3] علي عشي، "ركب الحج الجزائري والطريق إلى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة"، مجلة البحوث التاريخية، مج 3، ع1، الجزائر، 2019م، ص 73 .

[4] أحمد بوسعيد، **طريق الصعاليك في روايات الرحالين المغاربة خلال القرنين 17و18م**، ضمن أبحاث مؤتمر طرق الحج في افريقيا، الكتاب الخامس، جامعة افريقيا العالمية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، 2015م، ص 38.

[5] غويني، المرجع السابق، ص 58.

الطريق الصحرواي:

يمتد من إقليم درعة[1] وتافيلالت الواقعة بالمغرب الأقصى ويتجه شرقا نحو الصحراء الليبية حتى فزان جنوبا، ثم منها يتوجه نحو واحات جالو ليصل إل الأراضي المصرية[2]، وهذا المسلك قليل الاستعمال وكان ملتقى لركب الحج السوداني الغربي والركب المغربي خلال العهد السعدي[3]. وتعتبر رحلة ابن مليح السراج من أبرز الرحلات التي اعتمدت على هذا الطريق حيث نجده قد وصف مراحلها وأهم محطاتها في رحلته الموسومة بـــ:" أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب وسيد الأعاجم والأعارب"[4] .

الطريق الساحلي الشمالي :

يبتدأ هذا الطريق من مدينة فاس بالمغرب الأقصى ويمر بالمدن الساحلية كتلمسان والجزائر وتونس حتى يصل إلى الأراضي الليبية، ومن الأراضي الليبية يأخذ طريق الساحل مارا بطرابلس الغرب[5] وسرت وبرقة وصولا إلى الإسكندرية شرقا [6]، ومنها إلى الأراضي المقدسة، والملاحظ أن هذا الطريق شكل أحد الطرق الرئيسية للرحالة المغاربة، وذلك لإستتاب الأمن فيه و اشتماله على العديد من المراكز والزوايا التي توفر الخدمات للحجاج[7]، وهذا على عكس الطريق البحري الذي كان يعج بمخاطر القرصنة المسيحية [8]، ومن أهم الرحالة الذي سلكوا هذا الطريق نذكر على سبيل المثال لا الحصر: المرابط الدلائي خلال عام 1668م، وأحمد القادري سنة 1688م ، وابن الطيب الشرقي سنة 1726م، إضافة إلى الوزير محمد الشرقي الإسحاقي الذي حج سنة 1731م [9].

---

[1] درعة: إقليم يقع جنوب المغرب الأقصى يضم عدة قرى ومراكز، كان خلال العصور الوسطى يمثل محطة تجارية هامة تمر عليها القوافل القادمة من السودان إلى سجلماسة ، وفي القرن العاشر تأسست بها الزاوية الناصرية، فااحتلت درعة بذلك مكانة بارزة فأضحت من أهم المراكز الثقافية والعلمية في المغرب ، للمزيد أنظر: الصديق بن العربي، **كتاب المغرب**، ط3، د.غ .إ ، د ب ن،1984 م، ص 134.

[2] علي مفتاح ابراهيم منصور، **الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، دراسة تاريخية وثائقية**، ط1، د.ك.و ، بنغازي، 2005، ص 48.

[3] ماكامان، المرجع السابق، ص 146.

[4] لمزيد من التفاصيل حول مراحل هذه الطريق أنظر: ابن مليح السراج، **أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب وسيد الأعاجم والأعارب**، تح: محمد الفاسي، دط، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، المملكة المغربية، 1968م، ص2 .

[5] طرابلس: مدينة من مدن ليبيا حاليا، تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، كانت خلال القرنين 11و12هـــ ملتقى لركاب الحجاج .أنظر: عبد المؤمن البغدادي، **مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تح محمد علي البجاوي ، مج1، ط1، دار الجيل، بيروت، 1992، ص 91

[6] أنظر الملحق رقم 01، ص 379.

[7] مفتاح ابراهيم منصور، المرجع السابق، ص 49.

[8] ماكامان، المرجع السابق، ص 50.

[9] الغاشي ، **الرحلة المغربيّة**...،المرجع السابق، ص 351.

الطريق الساحلي الصحرواي:

يبتدأ هذا الطريق من إقليم سجلماسة جنوب المغرب الأقصى ويمر ببعض المدن الداخلية كمدينة بسكرة التي كانت تمثل محطة لإلتقاء جموع الحجاج الجزائريين والحجاج المغاربة، ومن بسكرة يستمر نحو الجنوب التونسي فيمر على قابس وتوزر، ثم يواصل إلى الأراضي الليبية فيمر على العديد من المحطات كتاجوراء وطرابلس ومصراتة فالعقبة ومنها يدخل إلى الأراضي المصرية [1]، ومما ينبغي الإشارة إليه أن هذا الطريق قد اعتمده كثير من الرحالة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كأبي سالم العياشي و الهشتوكي والشيخ أحمد بن ناصر الدرعي والحضيكي وغيرهم [2].

من الواضح أن مصر كانت تمثل ملتقى الحجاج المغرب وجميع دول شمال افريقيا، فبعد أن تنطلق قوافل الحج من المغرب كانت تنظم إليها قوافل العديد من القوافل أخرى للحجاج الجزائريين والتونسيين والليبيين وذلك لمرور طريق الحج ببعض المدن كبسكرة وعين ماضي و سوسة طرابلس وبرقة، ثم تواصل هذه القوافل طريقها مجتمعة إلى مصر التي يتوقفون فيها لمدة من الزمن استعددا لتوديع كسوة الكعبة ومن ثم الخروج ومرافقة الركب المصري [3].

على الرغم من تعدد طرق الحج البرية وتنوع ركاب الحج المتجهة من المغرب إلى الحجاز(الركب الفاسي، السجلماسي، المراكشي، الشنقيطي)، إلا أن هذه المسالك ظلت طيلة العهود التاريخية تمثل الطريق التقليدي أكثر اعتمادا من طرف الرحالة المغاربة، ولعلّ هذه السيطرة التي كانت للطرق البرية تعود بالدرجة الأولى إلى قلة استخدام الطريق البحري فضلا عن الأخطار المنشرة في البحر الأبيض المتوسط كالقرصنة المسيحية والظروف الأمنية وهذا على عكس وخلاف الطرق البرية التي آثرها الحجاج المغاربة سيما في ظل وجود مؤسستين كانت تسهران على انتظام ركب الحج وأمنه و هما الدولة والزوايا[4].

والواقع أن اعتماد الطريق البري التقليدي من طرف الرحالة المغاربة كان له عدّة دلالات ذلك أن هذه الطريق لم تكن مجرد طريق للعبور ذهابا وإيابا فحسب، بل كانت تمثل مجالا للتواصل الثقافي والعلمي، سيما

---

[1] غويني، المرجع السابق، ص 59.

[2] الغاشي، **الرحلة المغربية ...**، المرجع السابق، ص 356.

[3] تركي محمد النصر، "طرق الحج ومسالكه"، مجلة الوعي الإسلامي، ع 591، مج 51، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، 2014م، ص ص 29، 30

[4] مصطفى الغاشي، **طرق الحج خلال القرن التاسع عشر من الصحراء إلى بوغار جبل طارق، قراءة في التحول**، ضمن أبحاث ندوة دور مضيق جبل طارق في علاقات المغرب الدولية، كلية الآداب العلوم الانسانية ، تطوان، المغرب، 2001م، ص 131 .

وأن المحطات التي كان يتوقف فيها الحجاج كانت تتيح لهم فرصة لقاء العلماء والأدباء والأخذ عنهم[1]، وهكذا اضطلعت هذه المسالك بدور هام تمثل في تحقيق التبادل والتفاعل الثقافي بين مختلف الأقاليم في المغرب والمشرق[2]، فضلا أن هذه المسالك البرية كانت كذلك طريقا مهما مارس فيها الحجاج المغاربة مختلف الأنشطة الاقتصادية، ويكفي أن نصوص الرحلات الحجازية قد قدمت صورا عديدة عن الحركة التجارية التي كانت تشهدها الطرق المؤدية إلى البقاع المقدسة ذهابا وإيابا[3].

ب. **الطريق البحري:**

يعتبر هذا الطريق من بين المسالك التي اسخدمها الحجاج المغاربة للتنقل إلى البقاع المقدسة، إذ يرجع تاريخه إلى عهود سابقة، وكانت المدن الساحلية سواء بالمغرب الاسلامي كطنجة[4] أو سبتة أو في القارة الأوروبية كألمرية ومالقة من أهم المحطات التي ينطلق منها الحجاج المغاربة ليمرو على المدن الساحلية قاصدين مدينة الاسكندرية ومنها نحو سواحل البحر الأحمر وصولا إلى الحجاز[5]، فقد كان السفر على متن السفن الأوروبية(الإيطالية) عادة مألوفة عند المغاربة، وهو ما أوضحه الونشريسي بقوله :"جرت العادة عندنا بالسفر في البحر في مراكب النصارى ويكرونها للمسلمين من إفريقيا إلى الإسكندرية إلى بلاد المغرب كذلك" [6] .

و الجدير بالذكر أنّ الطريق البحري قد اضمحل دوره وتراجع بشكل لافت ابتداءا من القرن السادس عشر، حيث قلما كان يستخدم من طرف الرحالة المغاربة، وذلك بالنظر لكثرة المخاطر التي كان يتميز بها خاصة مع انتشار القرصنة المسيحية من جهة والتحولات التي عرفها المغرب العربي في هذه الفترة من جهة أخرى[7]، لكن الأمر سرعان ما لبث أن تغير، فبعد أكثر من أربعة قرون من سيطرة الطريق البري سواء من فاس

[1] أُطلق على الطريق البري عدة تسميات نظرا للنشاط العلمي الذي كان يتم عبر محطاته، ومن أهم هذه التسميات نجد " طريق الفقهاء ".أنظر: محمد بكور، "طريق الحج الصحراوي صلة وصل بين المغرب والمشرق"، مجلة أمل: التاريخ الثقافة، المجتمع ،ع 48 ، المغرب، 2016م ،ص 35.

[2] للتوسع أكثر في الدور الثقافي الذي اضطلعت به طرق الحج أنظر: سامح ابراهيم عبد الفتاح عبد العزيز،" **الحركة العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربية خلال العصر العثماني دراسة تاريخية**"، مجلة المؤرخ العربي، ع 28، إتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 2020م، ص ص 360- 409.

[3] الغاشي، **طرق الحج**...، المرجع السابق، ص ص 131، 132.

[4] طنجة: من أقدم المدن المغربية، تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، كان لهذه المدينة دور هام في تاريخ المغرب ، تعرضت طنجة خلال تاريخها إلى الاحتلال الإسباني ثم البرتغالي. أنظر : بن العربي ، المرجع السابق، ص 165.

[5] بوغوتة، المرجع السابق، ص 326.

[6] أبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقيا والأندلس والمغرب**، ج1،اشراف محمد حقي، د. غ.إ، بيروت، 1989م، ص 436.

[7] الحسن الغشتول، **خطاب الرحلة المغربية إلى الحجاز**، د ط، السعودية، 1439هـ، ص25.

أو مراكش أو سجلماسة انتعش الطريق البحري من جديد عبر المتوسط انطلاقا من جبل طارق، وذلك ابتداء من القرن التاسع عشر[1].

ويعود التحول الذي عرفته طرق الحج من المغرب إلى الحجاز في القرن التاسع عشر إلى التطورات والأحداث السياسية التي عرفتها بلاد المغرب العربي خاصة بعد احتلال الجزائر سنة 1830م، وما نتج عن ذلك من الاضطرابات أدت إلى انعدام الأمن عبر هذه المسالك التي أصبح يتعذر الاعتماد عليها بالنظر للمخاطر الكثيرة التي كان تعج بها[2]، وهذا ما أكده الكتاني بقوله: إن الاستطاعة غير حاصلة لأهل المغرب...، من قال ذلك قاله في الطريق البرية ذات المهامة الصعبة والمخاوف الكثيرة التي كان الناس يحجون عليها والآن تحولت الطريق إلى البحر و قربت وسهلت " [3] .

انطلاقا من ما ذكره الكتاني يتبين لنا أن الحجاج المغاربة ابتداء من القرن التاسع عشر قد آثرو الطرق البحرية لزيارة البقاع المقدسة، وقد كان وراء ذلك عوامل وأسباب مختلفة، فإلى جانب غياب الأمن عبر المسالك البرية والذي أبان عن ضعف الكيانات السياسية بهذه الأقاليم، فإن ما ساعد أيضا على اختيار هذه الطرق هو انتشار الأوبئة والأمراض في المدن المحاذية لهذه المسالك[4]، فضلا عن التفوق التقني للمراكب الأوروبية التي أضحت بالنسبة للمغاربة الوسيلة الوحيدة للتوجه إلى المشرق العربي[5]، زيادة على ماكانت كانت توفره الطرق البحرية والسفن من سبل الراحة خاصة إذا علمنا أن المدة الزمنية التي كان يقضيها الحجاج عبر الطرق البحرية هي أقل بكثير مقارنة بالمسالك البرية التي كانت تستغرق في الغالب مدة أطول قد تصل إلى حوالي سنة [6].

---

[1] نادية الأزمي، **الآخر في الرحلة المغربية" الرحلة التطوانية إلى الديار الفرنسية للشيخ عبد الله الصفار الرحلة الحجازية للشيخ ماء العينين أنموذجين** ، ط1، منشورات جمعية النجاح للتنمية الاجتماعية بالعيون، مراكش ، 2016م ، ص 74.

[2] سليمان القرشي، **أسفار مقدسة عبر سفن ليست كذلك صورة أوروبا في الرحلات الحجية المغربية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين**، العرب بين البحر والصحراء أرض التعارف، مج2، أبحاث المؤتمر الدولي لأدب الرحالة العرب والمسلمين، تق: نوري الجراح، ط1، قطر، 2019م، ص 44.

[3] نقلا عن سليمان القرشي، نفسه، ص 44.

[4] نفسه، ص 43.

[5] الغاشي، **طرق الحج**...، المرجع السابق، ص 138.

[6] محمد علي مكي، **أثر الحج في الثقافة الأندلسية رحلة أبي مروان الباجي**، ضمن أبحاث ندوة طرق الحج للتواصل الحضاري المنعقدة 25و27 حزيران 2002م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، المملكة المغربية، 2007م، ص 63.

ومن بين أهم الرحلات المغاربية التي اعتمدت الطريق البحري نجد رحلة ابن طوير الجنة الذي وصف مسار رحلته إلى الحج في مصنفه الذي اختار له عنوان "رحلة المنى والمنة"، حيث انطلق من مرسى العرائش[1] باتجاه مدينة الكرنة (ليفورن) بإيطاليا ومنها ارتحل إلى الاسكندرية لتتواصل رحلته عبر السويس وصولا إلى الحجاز[2]، كما نجد أيضا رحلة الحسن بن محمد الغسال الذي أبحر سنة 1315هـ -1897م على متن السفينة الانجليزية من مرسى مدينة طنجة نحو الإسكندرية [3]، ومن الرحلات التي اعتمدت الطريق البحري كذلك رحلة ادريس بن عبد الهادي العلوي الحسني الشاكري الذي انطلقت رحلته من مدينة فاس إلى طنجة مرورا بالعرائش ومنها نحو مالطة ليتوجه بعدها إلى الإسكندرية[4].

بناء على ما سبق ذكره نستنتج أنّ الرحلات الحجية في بلاد المغرب العربي سلكت طرقا متعددة ومختلفة، وقد كان الطريق البري الذي يشتمل على عدّة طرق فرعية من أكثر الطرق استخداما وشيوعا لدى المغاربة نتيجة لما كان يتخلل هذه المسالك من منافع علمية واقتصادية واجتماعية، وإلى جانب ذلك استأثر الطريق البحري في فترات معينة بأهمية كبيرة خاصة عندما تراجع دور الطريق البري، وعليه يتضح لنا أن مسالك وطرق الحج في العهد العثماني لم تكن ثابتة وإنما كانت تتغير من فترة إلى أخرى، وهذا التحول الذي كان يمس طرق الحج يرجع بالأساس إلى عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية تتحكم في دور هذه الطرق .

2 .2 عوائق ومصاعب ركب الحج:

كان الحجاج المغاربة سواء في العصر الوسيط أو الحديث يعانون أصنافا كثيرة من المخاطر والعوائق التي أثرت على انتظام رحلاتهم لأداء مناسك الحج، وهذه المخاطر التي أحدقت بهم نجدها قد شملت مختلف المسالك سواء الطريق البري أو البحرى وهو ما أكد عليه معظم الرحالة المغاربة الذين نجد في مصنفاتهم وصفا مسهبا ودقيقا لهذه العوائق والمصاعب التي تنوعت مابين مخاطر طبيعية ومصاعب بشرية .

---

[1] العرائش: مدينة مغربية تقع على البحر الأطلسي ، احتلها الإسبان سنة 1019هـ وحررها السلطان المولى اسماعيل عام 1101هـ ، كان لهذه المدينة دور هام في العصر السعدي. انظر: بن العربي، المرجع السابق، ص200.

[2] حماه الله ولد سالم، **رحلات الحج من موريتانيا (بلاد شنقيط) تقديم الرحلات واسهامها في التواصل المشرقي المغربي**، العرب بين البحر والصحراء أرض التعارف، أبحاث المؤتمر الدولي لأدب الرحالة العرب والمسلمين المنعقد في الدوحة، ديسمبر 2011، تق: نوري الجراح، مج2، ط1، د.س.ن.ت ، الإمارات ، 2011م، ص 122.

[3] الحسن بن محمد الغسال، **الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية**، تح: محمد فهيم بيومي،ط1، دار زهراء الشرق، مصر، 2009م، ص 59.

[4] الغاشي، **طرق الحج**...، المرجع السابق، ص 140.

أ. العوائق الطبيعية:

لم تكن رحلة الحج رحلة سهلة بل كانت مليئة بالمشقة والأخطار فلما كان الحجاج المغاربة يقضون في هذه الرحلة أشهر عديدة للوصول إلى البقاع المقدسة فإنهم كانو يعانون مصاعب عدّة مما كانت تلقيه عليهم الطبيعة من شدائد تفتك بالكثيرين منهم في بعض السنوات[1]، ومن هذه الأخطار قساوة المناخ كشدة الحرارة وندرة المياه و هبوب الرياح الجافة والزوابع الرملية زيادة عن سقوط الأمطار التي تتسبب في السيول الجارفة وعدم وضوح معالم الطريق فضلا عن صعوبة المسالك والتضاريس وخطر الحشرات والزواحف وانتشار الأمراض والأوبئة [2] .

مثلت طبيعة المسالك التي كان يجتازها ركب الحج المغربي أحد الصعوبات التي اعترضت الحجاج المغاربة خصوصا إذا كانت هذه المسالك تشق الطريق الصحراوي الذي اشتهر بتضاريسه الصعبة و مفازاته الوعرة، حيث أن انتشار التلال و الحمادات و وعرة الأراضي وتشعبها فضلا عن ما كان يميز الصحراء من ارتفاع في درجة الحرارة وهبوب الزوابع الرملية كلها عوامل كانت تثقل وتنغص على الركب رحلته، إذ كثيرا ما كان هذه الظروف تحول دون تقدمه في السير حتى أنها كانت تتسبب في تأخره على الوصول إلى بعض المنازل والمحطات في الموعد المنتظر بمرحلة أو أكثر[3]، وهذا ما عبر عنه ابن مليح السراج جليا في سياق حديثه عن مشاق الطريق الصحرواي إذ قال في هذا الصدد: " أقمنا يوما للتهيؤ لدخول الصحراء المعروفة بأزكر الذي هو خمسون يوما بإقامتها و ظغائها... ثم وصلنا إلى بلاد فزان، وقد انتفضت الجراب وعجزت الركاب وماتت الرواحل لبعد المراحل وقد أشرفت الناس على المهالك" [4].

وإلى جانب ذلك وصف أبو سالم العياشي في مواضع كثيرة من رحلته أيضا الأخطار التي كان يكابدها الحجاج المغاربة نتيجة لصعوبة المسالك وامتدادها وتشعبها فبعد خروجه من سجلماسة عبر عن مصاعب الصحراء وأحوال الحجاج ومعاناتهم فيها حيث يقول: "واستقبلنا أراضي واسعة ومناهل عن العمران شاسعة

---

[1] أحمد الرشيدي، **حسن الصفا والإبتهاج بذكر من ولي أمارة الحاج**، تح: ليلى عبد اللطيف أحمد، دط، مكتبة الخانجي، مصر ،1980 م، ص50.

[2] أمعيط، المرجع السابق، ص 136.

[3] الفقيه الإدريسي، **ركب الحاج المغربي بين إكراهات المجال وجاذبية المقامات المقدسة من خلال رحلة " ماء الموائد" لأبي سالم العياشي** ، ضمن أبحاث ندوة ركب الحج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، تنسيق عبد القادر آيت الغازي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بني ملال، المغرب، 2013م ، ص ص 240، 241.

[4] ابن مليح السراج، المصدر السابق، ص ص 30- 32.

لا يهم المرء فيها إلا نفسه، ولا يكون بغير راحلته أو عصاه أنسه، أراضي لا يتشعب في شعابها إلا خوانق الرياح ولا يجترئ على قطعها إلا ذو خف أو جناح" [1].

إذا كانت صعوبة المسالك و وعرها من منغصات رحلة الحج فإن ندرة الماء وصعوبة التزود به ظل على مر العصور التاريخية من أهم الهواجس التي أرقت الحجاج وشغلت تفكيرهم، بل إن هذا العامل أي توفر مياه عبر المسالك أصبح من الشروط الأساسية لاختيار طريق الحج [2] .

لقد كانت مشكلة انعدام المياه وندرتها تمتد على طول الطريق بين المغرب والحجاز، فالمياه التي كانت توفرها الآبار إضافة إلى ما كانت تجود به الأمطار إن نزلت قلما كانت توجد على مراحل متقاربة، وهذا ما جعل ركب الحج في كثير من الأحيان يضطر لقطع مسافات طويلة للبحث عن منابع المياه وإن وجدت هذه المياة والآبار والعيون فإنها مياهها قد تكون في بعض الأحيان مالحة وغير صالحة لتؤثرها بالعوامل الطبيعية، وكان هذا العائق يدفع ركب الحج في العادة إلى الرجوع عن مساره واتخاذ طريق آخر وهو ما كان يتسبب في تعطيل الرحلة عن موعد وصولها [3].

لقد خص الرحالة المغاربة موضوع الماء اهتماما كبيرا في رحلاتهم التي دونوها بل إنه من أكثر المواضيع التي اشتركت فيها جميع الرحلات باعتباره من ضروريات الرحلة والعامل المتحكم في اختيار مسار الطريق، وعليه فإن هؤلاء الرحالة أسهبوا في الحديث عن أماكن تواجده و أوضحوا مميزاته وخصائصه و أشاروا إلى طرق استخراجه، وذلك بناءا على تجاربهم ورحلاتهم إلى الحج لتكون نصوصهم دليلا لغيرهم من الحجاج ولعلّ من أبرز هؤلاء الرحالة الذين اهتموا بموضوع الماء نجد العامري الذي دون رحلته على شكل قصيدة مطولة بين فيها المراحل التي يقطعها الحج وأهم ما يحتاجه إذ يقول في هذا الصدد :

وتذكر حوائجا نافعات وتجنب لما اقتناه عناء
وانتخب قربا وثيقة خرز جيدات لمكن استقداء
وتخير لها تبارج تحميلها لكي لا يصيبها إفراء
لاتقلل من استقاء فكم من سواء خلق إذ يقل الماء

---

[1] أبو سالم العياشي ، **الرحلة العياشية**، تح: سعيد الفاضلي، ط1، ج 1، د.س.ن.ت ، 2006م، ص 75.

[2] سليمان القرشي ، **الماء في الرحلات الحجية المغربية بين الحقيقة والرمز**، السودان وإفريقيا في مدونات رحالة الشرق الغرب أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين المنعقدة بالخرطوم 2006م ،ط1، د.س.ن.ت ، الإمارات ، 2006، ص 168.

[3] بكور، المرجع السابق، ص 40.

فبقدر مشقة يحصل الأجر فلا تسئمنك الضراء[1].

إنّ الحاجة الملحة للمياه جعلت الحجاج المغاربة يلجؤون إلى استخدام طرق متعددة لتوفيره، فمن أجل مواجهة قلة الماء لجأ الحجاج إلى التزود بكميات وفيرة من الماء في الأماكن التي يكثر بها وادخارها تفاديا لندرتها وقلتها في بعض المراحل والمحطات، وليس هذا فحسب بل إن الحاجة الملحة للماء كانت تدفع بعض الحجاج إلى الاستسقاء من مياه السبخات رغم تلفها و ملوحتها[2]، كما أن الحجاج اضطروا في بعض الفترات التي كان يشتد فيها الضمأ والحر في الصحراء إلى استخراج ما في بطون الإبل من الفرث وشربها كبديل للمياه تفاديا للهلاك والموت[3] وهذا ما أوضحه العياشي في معرض حديثه عن الآثار المترتبة عن قلة المياه حيث قال في هذا الصدد: " وهذا المحل من المحال التي تعظم فيها المشقة أيام الحر وقد تتلف فيها أنفس كثيرة بالعطش وقد وقع لنا مثل ذلك في سنة تسعة وخمسين ارتحل الناس من عجرود ظهرا و لم يمرو على النابعة فبتنا ليلتين بلا ماء إلا ماء عجرود الذي لا يتجرعه الظمآن ولا يكاد يسيغه فلم نصل إلى أرض التيه حتى اشتد الحر في اليوم الثالث وقل الماء ومات بعض الإبل وجعل الناس يعصرون ما في بطون الابل من الفرث ويشربونه" [4].

وتجدر الإشارة أن نصوص الرحلات تنقل في طياتها الكثير من الصور التي تشير إلى معاناة الحجاج وما ينجم عن قلة المياه وانعدامها، فهذا الحضيكي يصف ما أصاب الركب في برقة حيث يقول: " وارتحلنا وقطعنا مسافة هناك يقول لها السروال لا ماء بها في تسع مراحل، وفي اليوم التاسع نزلنا على الماء وقد بلغ بالناس والدواب الجهد مبلغا يشرفون فيه على الهلاك لولا لطف الله "[5]، ويذكر أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته أنه "قد هلك من مغاربة قرابة ستين فردا من نساء وصبيان ورجال نتيجة للعطش"[6] .

بقدر ما كان شح المياه يشكل عائقا للحجاج المغاربة فإن وفرته في بعض الأحيان كان يقف حائلا في وجه تقدم ركب الحج، حيث أن تساقط الأمطار بكميات كبيرة وتحولها لسيول جارفة كان يؤدي إلى غرق الحجاج وضياع أمتعتهم وهلاك دوابهم، خاصة إذا صادف نزول هذه الأمطار اجتياز الأودية

---

[1] للإطلاع على نص الرحلة أنظر: المنوني ، **من حديث ركب الحج**...، المرجع السابق، ص 88.

[2] الإدريسي، المرجع السابق، ص ص242، 243.

[3] حسن حافظي علوي، **أخطار تنقل القوافل في القفر بين العوامل الطبيعية والثقافية**، ضمن أبحاث ندوة من إيناون إلى استانبول أعمال مهداة إلى عبد الرحمن المودن، تنسيق: عبد الأحد السبتي وعبد الرحيم بنحادة ، ط1، كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، 2012م، ص 58.

[4] العياشي، المصدر السابق، ج1، ص ص 75،76.

[5] أبي عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السوسي، **الرحلة الحجازية**، ضبط وتعليق: عبد العالي لمدبر، ط1، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 2011م، ص 90.

[6] أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **الرحلة الناصرية 1709-1710**، تح: عبد الحفيظ ملوكي ، ج1، ط1، د.س.ن.ت، الإمارات، 2011م، ص 338.

أو المنحدرات[1]، وهذا ما وقع للركب الذي رافقه أحمد بن ناصر الدرعي في رحلة الإياب، إذ يذكر أنه صادفهم بوادي دمت تساقط كبير للأمطار أعاق الركب عن المسير وتسبب في كثرة الوحل في الطريق الذي لا يتمكن من أن يسلكه رجل أو جمل، ولعلّ ذلك ما اضطرهم إلى تغيير هذه الطريق إلى طريق أخرى مسترملة غير ماسكة للمياه [2]، ومن الأمثلة التي يسوقها اليوسي أيضا ما تعرض له في الركب في بسكرة حيث يقول: " وأقمنا بها يوما ثم رحلنا ... وأصابنا يوم رحيلنا مطر حتى عجزت الإبل عن المسير، لأن أرضها سبخة، فلما أصابها الماء صارت كالغاسول ، فترى الإبل يتساقط بعضها على بعض والناس كذلك، فأخفاف الإبل لا تثبت إلا على الرمل ولاحظ لها في الوحل "[3].

في مقابل ما كانت تتّسبب فيه الأمطار فإن الحجاج عانوا أيضا في بعض الفترات من شدة الحرارة و هبوب الرياح الجافة المعروفة برياح السموم وهي من الخصوصيات المميزة للطريق الصحراوي فتزامن هذه الظواهر مع رحلة الحج كان ينجم عنه متاعب كثيرة خصوصا إذا اقترن ذلك بشح وندرة المياه [4] .

لقد أشار العياشي في مواضع كثيرة من رحلته إلى ما تعرض له الحجاج المغاربة نتيجة للقحط والحر ومن ذلك حديثه عن ما أصابهم عند عودتهم من المدينة المنورة حيث ذكر بأنه مات عدد كثير من الحجاج من شدة الحر ونستشف ذلك من قوله:" ولما طلعت الشمس ووقع شعاعها على الأرض ثار منها لهيب روعت الركائب ... فلم يصلوا إلى المنهل حتى قرب الزوال وضاع ناس من الفقراء بقو في الوادي بمضيعة وهلكت الإبل ...." [5]، والجدير بالملاحظة أن ركب الحج كان غالبا ما يضطر إلى السير ليلا والتوقف نهارا تفاديا لما يترتب عن شدة الحر من أمراض و مخاطر تفتك بالحجاج ودوابهم [6].

زيادة على الآثار التي خلفتها شدة الحرارة شكلت الزوابع الرملية فضلا عن ذلك أحد المنغصات التي لازمت الحجاج المغاربة وأثرت على حركة ركب الحج وتقدمه في الصحراء، فهبوب الرياح الجافة المحملة بالرمال كان يؤدي إلى عرقلة ركب الحج وذلك من خلال تعذر الرؤية إضافة إلى أن حدوث الزوابع الرملية

---

[1] الإدريسي، المرجع السابق، ص 243.

[2] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 716، 717.

[3] محمد العياشي بن الحسن اليوسي، **رحلة اليوسي 1101–1102هـ/ 1690–1691م**، تح: أحمد الباهي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 2018م، ص 83.

[4] الإدريسي، المرجع السابق ، ص ص246، 247.

[5] أبو سالم العياشي، **الرحلة العياشية 1661– 1663م**، ج2، تح: سعيد الفاضلي،د.س.ن.ت، الإمارات، 2006م، ص 402.

[6] بكور، المرجع السابق، ص 38.

كان يمنع الحجاج من نصب الخيام والأخبية عند الإقامة ويتسبب أحيانا في اقتلاع و إتلاف أجزائها إن كانت مبنية [1].

كما أن هذه الزوابع كانت تؤدي أيضا إلى طمر الآبار وغمر المنابع المائية بالرمال وهو ما كان يزيد من متاعب الحجاج، غير أن ما كان يترتب عنها من تغيير في معالم الطريق وطمس وإزالة لتلك المعالم ظل يشكل أهم المخاطر التي كانت تهدد سلامة الحجاج وأمنهم، ذلك أن هذه الظاهرة كثيرا ما أدت إلى ضياع وفقدان قوافل الحج وتايهانها في فيافي الصحراء الواسعة وهلاكها عطشا نتيجة لعدم وضوح معالم الطريق[2].

ومما ينبغي الإشارة إليه أن هذه الأخطار لم تكن تقتصر على الطريق البري فحسب، بل شملت كذلك الطريق البحري فهذا الطريق وإن فضله أحيانا بعض الحجاج لبعده عن الصحراء وقسوتها فإن عبوره لم يكن بالأمر الهين فكثيرا ما كانت سلامة الحجاج تتعرض إلى الخطر من جراء العواصف وأهوال البحر[3]، وهو ما عبر عنه الرحالة ابن طوير الجنة الذي سجل المشاق التي واجهته في طريق عودته على متن السفن [4].

ب. العوائق البشرية:

لم تقتصر الأخطار التي واجهت قوافل الحج على ما هو طبيعي كصعوبة المسالك وندرة المياة وقساوة المناخ فحسب، بل تجاوزته إلى ما له علاقة مباشرة بنشاط الإنسان وتتمثل هذه المخاطر أساسا في انعدام الأمن عبر المسالك نتيجة لغارات الأعراب وقطاع الطرق إلى جانب الضرائب والمكوس التي كانت تفرض على الحجاج.

انعدام الأمن عبر المسالك:

تعتبر ظاهرة اللصوصية التي انتشرت عبر المسالك المؤدية إلى البقاع المقدسة من أهم الأخطار التي كانت تحدق بالحجاج المغاربة حيث عانى ركب الحج من اعتداءات الأعراب واللصوص الذين احترفوا مهنة الحرابة والنهب وقطع الطريق[5]، وبالنظر لاستفحال هذه الظاهرة فإن كثيرا من الرحالة من أمثال العبدري

---

[1] الإدريسي، المرجع السابق، ص 249.

[2] نفسه، ص ص 249- 251.

[3] نوال طلال عبد الله الشريف، "طريق ركب حجاج المغرب والأندلس من المغرب الأقصى إلى مكة المكرمة منذ القرن السادس حتى القرن العاشر هجري ، مجلة العقيق، مج21، ع41،42، نادي المدينة المنورة الأدبي الثقافي، 2002، ص ص 40،41.

[4] الطالب أحمد بن طوير الجنة، **رحلة المنى والمنة**، مخطوط تحت رقم1018، ودان، ص 39.

[5] أمعيط، المرجع السابق، ص 139.

والهلالي السجلماسي و العياشي وأحمد بن ناصر الدرعي قد أجمعوا على تسمية الطريق البري بطريق "الصعاليك" دلالة على غياب الأمن وكثرة المخاطر[1].

يعزوا المؤرخون المغاربة أسباب تفشي ظاهرة اللصوصية إلى مجموعة من العوامل منها الوضع الاجتماعي المتدهور الذي عانت منه القبائل البدوية التي ألفت هذا النوع من الاعتداءات، فلا يخفى علينا ظروف القحط والجدب التي كانت تميز حياتهم في ظل انقطاع المعونات و المخصصات التي كانت ترسل لهم ، زيادة على ما كان يتصف به هؤلاء الأعراب من خشونة في الطبع وجهل وبعد عن أمور الدين وهي في جلها عوامل أوجدت بيئة خصبة لانتشار أعمال اللصوصية وقطع الطريق.[2]

والواقع أن هذه الظاهرة لا يمكن أن تعزى إلى الحالة الاجتماعية لهذه القبائل فحسب، بل نجدها ترتبط كذلك بالحالة السياسية ومدى نفوذ الحكام وسيطرتهم على المناطق، ذلك أن ظاهرة سطو الأعراب على قوافل الحج إنما كانت تشتد بالخصوص في الفترات والمواسم التي تتزامن مع الاضطرابات السياسية والفتن الداخلية[3].

إنّ ما كان يغري أعراب البوادي لاعتراض طريق قوافل الحج هو الرغبة في الظفر بما كان يحمله الحجاج معهم من بضائع وهدايا ثمينة، فمن المعلوم أن ركب الحج كان يحمل في كل سنة الصرة المغربية المتمثلة في الهدايا العينية والنقدية الثمينة التي توزع أهل الحرمين الشريفين من العلماء و الصلحاء والفقراء [4]، هذا إلى جانب ما كان يحمله التجار معهم إلى مصر والحجاز من بضائع و مواد تجارية مختلفة [5] .

لقد سجلت لنا الرحلات الحجية في أكثر من مناسبة خطر الأعراب ومعاناة الحجاج في المسالك، فالرحالة اليوسي الذي اشتهر بكثرة رحلاته وصفهم بقوله: "ولا يلقاك أحدهم إلا وترى الخيانة بادية في عينيه، وإياك أن تغتر بنفسك في هذه البلاد كما كنت في بلادك تعتاد، فلا تنظر فيهم إلا شزرا ولا تزداد منهم إلا نفورا "[6]، وأمّا العياشي فقدم لنا صورا عن انعدام الأمن عند وصوله إلى ليبيا حيث وصف أعرابها بقوله: " عرب هذا الجبل من أشد العرب كفرا و نفاقا، لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله ليس عندهم من

---

[1] بوسعيد ، المرجع السابق، ص 38.

[2] عبد الرحمن بن علي السنيدي،" أمن حركة الحج من المشرق الإسلامي إلى مكة المكرمة خلال العصور العباسية المتأخرة"، مجلة الدارة، ع 3، السنة 32، دارة الملك عبد العزيز، دت، ص 30.

[3] ماكامان، المرجع السابق، ص 150.

[4] الإدريسي، المرجع السابق، ص 254.

[5] محمد المنصور، **المغرب قبل الإستعمار، المجتمع والدولة والدين 1792، 1822م**، تر: محمد حبيدة،ط1 ، المركز الثقافي العربي ، الدارالبيضاء، 2006م، ص 91 .

[6] اليوسي، المصدر السابق، ص 81.

الدين إلا إسمه، لا حرفة لهم بعد تنمية المواشي إلا النهب والغارة، قلما مر ركب فسلم من انشاب الحرب بينهم وبينه بسبب غدرهم وفتكم عند اشتغال الناس بالتسوق معهم، وقد وقع ذلك مرارا"[1].

لقد كانت المناطق التي تنتشر فيها أعمال النهب والسرقة معروفة عند الرحالة المغاربة، وقد اشتهرت في ذلك بعض القبائل أكثر من غيرها نذكر منها: أعراب بسكرة و سيدي خالد وطرابلس وبرقة[2] والجدير بالذكر أن هؤلاء الأعراب كانوا يختارون المسالك الوعرة والضيقة والشعاب والأودية للإغارة على الحجاج ونهب ممتلكاتهم وكثيرا ما كانت تؤدي غاراتهم إلى هلاك عدد من الحجاج فضلا عن نهب أموالهم و متاعهم[3]

في ظل تنامي ظاهرة اعتداء الأعراب على قوافل الحج وما ترتب عن ذلك عمد الولاة العثمانيين على تخصيص حاميات عسكرية مرافقة لركب الحج بهدف حمايته، كما قاموا ببناء الحصون والقلاع عبر المحطات [4]، والجدير بالملاحظة أنه لما كان أمن الطريق يشكل أحد العناصر الهامة المتحكمة في استمرار حركة الحج فإن قوافل الحج التي تخرج من كل قطر كانت تخضع لنظام يكفل لها الأمن فعادة ما كانت هذه المهمة تعهد إلى أمير الحج الذي كان يعين من طرف الحاكم أو السلطان [5].

زيادة على ذلك لجأ الحجاج أيضا إلى التزود بالأسلحة للدفاع عن أنفسهم ومجابهة الأعراب إذ أصبح ذلك من ضروريات الرحلة ولعلّ ذلك ما أشار إليه العامري في قصيدته التي بين فيها الاجراءات التي يتوجب على الحاج اتخاذها في حالة التعرض لهؤلاء الأعراب، ومن أهم هذه التدابير التي ذكرها التزود بالسلاح و اتخاذ الرفيق الصالح و وعدم التخلف عن الركب ويظهر ذلك جليا في قوله:

واتخذ يالبيب آلة حرب ربما عرضت لك الأعداء.

واتخذ للطريق خير رفيق ان ذاك لعمري العنقاء

ثم لا تنفرد عن الركب لحا إن ذاك يساق منه البلاء[6].

---

[1] العياشي، المصدر السابق،ج1، ص 202.

[2] بكور، المرجع السابق، ص 42.

[3] الإدريسي، المرجع السابق، ص ص 253-255.

[4] رشيد زين العابدين، **سياسة السلاطين العثمانيين في الاعتناء بركب الحج المغربي خلال القرن 18م، تقييم الرحالة المغاربة**، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ، الحولية 40، مجلس النشر العلمي، الكويت، 2020م، ص 52.

[5] أحمد علي اسماعيل، **طرق الحج دراسة جغرافية**، ضمن أبحاث ندوة طرق الحج جسور للتواصل الحضاري بين الشعوب المنعقدة 25و27 حزيران 2002م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، المملكة المغربية، 2007م، ص 111.

[6] المنوني، **من حديث ركب الحج** ...، المرجع السابق، ص ص 91،92.

وقد عبر العياشي من جهته على أهمية التزود بالسلاح في رحلة الحج وذلك بقوله:" وخذ لنفسك ما تحتاج من البارود والرصاص، واتخذ لأصحابك ولنفسك مدافع لأربابها فإنها في الطريق هيبته وأي هيبة، فاستكثر منها جهدك، وأمر من يستمع لك بذلك، فإنها نعم السلاح في تلك الطريق" [1].

لقد شكل إذن الحج تحديا حقيقيا عند أهل المغرب نتيجة لتدهور الوضع الأمني عبر المسالك، فبحكم استفحال ظاهرة النهب والسطو فضلا عن ما كان يلحقه الأعراب وقطاع الطرق من أضرار جسيمة بوفود الحجاج فإن كل هذه الظروف كادت تسبب في توقف وتعطيل خروج ركب الحج المغربي [2]، وقد أشار إلى ذلك العياشي في معرض حديثه عن المعاناة الحجاج في ظل سيطرة البدو على المسالك، إذ يقول في هذا الصدد: " وقد شاهدنا ذلك في قوم كثير من أهل برقة وافريقيا والمغرب ولولا فضل الله على الحجاج ورحمته به بالانتقام –ممن رامهم – لتعطلت طريق الحج منذ أزمان خصوصا حجاج المغاربة لضعفهم وقلتهم وبعد المشقة عليهم فكم من قصر ومصر يقطعونه بلا عساكر "[3].

هذا و تذكر المصادر التاريخية أمثلة عديدة حول تعرض ركب الحج إلى السطو ففي القرن الثامن عشر يذكر الجبرتي أن قوافل الحج المغاربية قد تعطلت وتعرضت للنهب من قبل البدو ففي سنة 1780م "وقف لهم العربان في الصفراء والجديدة وحاصروا الحجاج وحاربوهم حوالي عشر ساعات، ومات كثير من الناس والغز والأجناد، ونهبت بضائع وأحمال كثيرة، وكذلك من الجمال والدواب .... كل ذلك والحج سائر "[4]، كما شهدت سنة1784م نفس الأحداث إذ تعرض العربان للحجاج المغاربة في العقبة، وقد أدت هذه الاعتداءات في بعض الفترات إلى تعطيل وانقطاع خروج قوافل الحج، وهذا ما شهده ركب الحج المصري في أعوام 1213هـ – 1715هـ، وغيرها [5].

لَما كانت رحلة الحج عند المغاربة ترافقها كثير من المنغصات والعوائق، لجأ علماء المغرب وفقهائه إلى الإفتاء بسقوط فريضة الحج وذلك لتعذر طريق البر لما شاع من غلبة الخوف وغياب الأمن [6]، ولعلّ أقدم هذه

---

[1] أبو سالم العياشي، **التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز**، تح: سعيد واحيحي، منشورات مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع، الرباط، 2018م، ص 88، 89.

[2] الإدريسي، المرجع السابق، ص 254.

[3] العياشي، **الرحلة** ...، المصدر السابق،ج1، ص 218.

[4] عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في تراجم الأخبار** ،ج2، تح:عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر، 1998م، ص 83.

[5] محمد أديب غالب، **من أخبار الحجاز و نجد في تاريخ الجبرتي**، ط1، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر،د ب ن، 1975م، ص 83.

[6] الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب**،ج1، إشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1989م، ص432– 434.

الفتاوى ترجع إلى عهد الفقيه الطرطوشي المتوفي سنة 519هـ- 1126م[1] وإلى عهد ابن رشد الجد الذي كان قد سئل عن الحج ومدى وجوبه عند أهل المغرب، فكان رده كالتالي:" فرض الحج ساقط عن أهل المغرب والأندلس في وقتنا هذا ولعلّ هذا لعدم الاستطاعة التي جعلها الله شرطا في الوجوب، لأن الاستطاعة القدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال، وذلك معدوم في هذا الزمان ، وإذ سقط فرض الحج لهذه العلة صار نفلا مكروها لتقحم الغرر فيه "[2].

تسلط الجباة و تعسف الولاة:

لم يكن ركب الحج في مسار رحلته إلى البقاع المقدسة يواجه مشاقا وعوائقا ناتجة عن أخطار الطبيعة أو اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق فحسب، بل كانت تقف في وجهه فضلا عن ذلك متاعب أخرى تعود إلى جشع جباة الضرائب و تعسف الولاة وظلمهم[3].

لقد نقلت نصوص الرحلات الحجازية صورا متعددة عن ما كان يلقاه الحجاج المغاربة من معاناة وإهانة من طرف القائمين على جباية الضرائب في الأراضي المصرية والحجازية، وهذه الظاهرة هي ظاهرة قديمة تناقلها الرحالة عبر أزمنة مختلفة سواء في العصر الوسيط أوالحديث [4]، فهذا الرحالة العبدري قد استنكر طريقة تعامل هؤلاء الجباة مع الحجاج المغاربة وبالأخص في مصر "فهم يعترضونهم ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج.... ويبحثون عما بأيديهم من مال ويأمرون بتفتيش النساء والرجال"[5]، وأما ابن جبير فقد تحدث كذلك بإسهاب عن المظالم التي كان يتعرض لها الركب المرافق له في القرن السادس هجري، إذ وصف هؤلاء الجباة بأنهم "يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة، فقد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها وينتهبونهم انتهابا.... فالحاج لا يزال معهم في غرامة ومؤنة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه "[6].

يبدو مما سبق ذكره أن ابن جبير قد تحامل على الممارسات التي انتهجها القائمون على جمع الضرائب في المناطق المشرقية فقد كانت تلك الغرامات تؤخذ عن الحجاج دون وجه حق، ومما ينبغي الإشارة إليه أن

---

[1] للإطلاع أكثر على مسألة الفتاوى التي أصدرها فقهاء المغرب أنظر: محمد حقي، **الحج في المغرب الأندلس في العصر الوسيط الجدال حول استمرار فرضية الحج**، ضمن أبحاث ندوة ركب الحج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، كلية الأداب والعلوم الإنسانية والإجتماعية ببني ملال 29-30 ماي ، 2013م ، ص ص 82- 101.

[2] ابن رشد الجد، **فتاوى ابن رشد**، تح: مختار بن طاهر التليلي، ج1، ط1، د.غ.إ، بيروت، 1987م، ص ص 1022، 1023.

[3] الإدريسي ، المرجع السابق، ص 251.

[4] نفسه ، ص 257.

[5] محمد العبدري البلنسي ، **الرحلة المغربية** ، تق: سعد بوفلاقة، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات ، الجزائر، دت، ص 143.

[6] ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، دط، دار صادر، مصر، دت ، ص 54.

هذه الظاهرة التي استفحلت خلال العصر الحديث تعود عواملها إلى ضعف السلطة الحاكمة وعدم قدرتها على فرض هيبتها على موظفيها من الحكام والباشوات، فهذه الممارسات كانت تشتد في الوقت الذي لم يجد فيه هؤلاء الموظفين اليد الرادعة التي تمنعهم من التسلط على الحجاج وإثقال كاهلم بالضرائب[1] .

لقد تنوعت المكوس والضرائب التي فرضت على الحجاج المغاربة عند مرورهم بمصر والحجاز، ورغم تعدد التسميات التي اتخذتها هذه المكوس ما بين "جعل" و "خراج" و "غفارة "، إلاّ أنّ هذه الغرامات ظلت تعتبر عند الحجاج المغاربة نوعا من أنواع التعسف والظلم[2]، فهي في نظر العياشي" سياسة كسروية ومقاصد دنيوية ما أنزل الله بها من سلطان، ولا جاء لها في سنَة نبيه من بيان "[3].

و تشير كتابات الرحالة المغاربة إلى أنّ جباية الضرائب لم تكن تخلو من الأنواع لاستبداد والقسوة والإهانة، ولعلّ من أهم صور المعاناة التي تعرض لها الحجاج المغاربة تتمثل في أن هؤلاء الجباة كانوا يؤخذون من الحجاج قدرا معلوما من المال عل كل غني وفقير ومن لم يكن لديه ذلك المقدار كان يتم حبسه حتى يفوته الحج [4].

وهذا ما أشار إليه أبو سالم العياشي الذي لم يسلم من تعسفات الجباة ومطالبهم الابتزازية فلدى عودته من غزة يذكر أن أحد الجباة أجبره على أداء ما يعرف بالغفر ولما حاول إقناعه بأن المبلغ المطلوب سبق وأن أداه من قبل تم تهديده بالحبس هو وأصحابه إن لم يؤد " مال السلطان " على حد زعمه، فما كان من العياشي سوى دفع ذلك المبلغ إضافة إلى واجب الغفر الذي ترتب على أحد أصحابه والذي أدخل السجن لعدم دفعه للمال، ونتيجة لتلك المعاملة أكد العياشي:" بتنا تلك الليلة في نكد عظيم وغم أليم لما فعل بنا، ولحقنا من المذلة والإهانة و لم نعهد ذلك قبل هذه الواقعة "[5].

إجمالا يمكن القول أنه رغم ما كان يتخلل رحلة ركب الحج المغربي منذ انطلاقته من المغرب إلى أن يصل إلى الحجاز من عوائق طبيعية وبشرية إلا أن رحلات المغاربة لم تنقطع، ويظهر ذلك جليا في كثرة رحلاتهم إلى هذه الأقطار، فتواجد المغاربة بالمشرق العربي سواء كان ذلك بغرض أداء مناسك الحج أو دوافع أخرى شكل أبرز مظاهر وأوجه تطور العلاقات بين المغرب والمشرق العربي في العهد العثماني.

---

[1] الإدريسي، المرجع السابق، ص ص 257- 259.

[2] نفسه، ص 258.

[3] العياشي، **الرحلة** ...، المصدر السابق، ج1، ص 432..

[4] نفسه، ص 433.

[5] نفسه، ص ص 468، 469.

3. دوافع الرحلات الحجازية المغاربية إلى المشرق العربي في العهد العثماني :

لم تكن دوافع الرحالة المغاربة إلى المشرق العربي عموما والحجاز ومصر على وجه الخصوص تنحصر ضمن هدف محدد، وإنما تنوعت لتشمل دوافع مختلفة دينية وعلمية وسياسية واقتصادية ترتبط أشد الارتباط بتنوع اهتماماتهم، حيث انعكست وتجلت طبيعة تلك الأهداف في نصوص رحلاتهم التي دونوها وهي:

تأدية مناسك الحج :

إن زيارة بيت الله الحرام يُعدّ من أعظم بواعث الرحلة عند المغاربة، فقد تَحمل هؤلاء الرحالة مشاق السفر ومتاعبه لا لشيء إلا لتأدية الركن الخامس من الإسلام[1]، وذلك يظهر تعلقهم الشديد بالحجاز التي انفردت عن سائر الأقطار العربية الأخرى بمكانتها الدينية والروحية، فهي تحتوي على الأماكن المقدسة التي عكف الرحالة المغاربة على زيارتها خاصة مدينتي مكة والمدينة المنورة[2]، ولهذا نجد أنّ معظم رحلات المغاربة صوب المشرق العربي قد جاءت رحلات حجازية الغاية الأساسية منها تأدية فريضة الحج وزيارة قبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام .

والجدير بالملاحظة أنّ أغلب الرحالة المغاربة لم يكتفوا برحلة حج واحدة إلى الحجاز، وإنما تكررت و تتعددت رحلاتهم إلى هذا القطر، فبمجرد عودتهم إلى موطنهم يدفعهم الشوق والحنين مرة أخرى للقيام برحلة ثانية وثالثة [3]، وإذا كان بعض المغاربة قد عادوا إلى موطنهم فإن هناك فئة أخرى منهم قد فضلت الاستقرار والمكوث بالحجاز، وقد ترتب عن ذلك بروز ظاهرة اشتهر بها المغاربة وهي مجاورة الحرمين الشريفين [4].

إنّ الذي ساعد على تشجيع الرحلة عند المغاربة هو الموقع الجغرافي للمغرب العربي، فبعده عن بلدان المشرق العربي لم يشكل حاجزا ومانعا للمغاربة، بل كان عاملا محفزا على الرحلة وبالأخص رحلة الحج وهو ما يفسر حرص هؤلاء الرحالة على تدوين رحلاتهم الحجازية، فقد أدرك هؤلاء الرحالة ضرورة إطلاع

---

[1] عبد الهادي التازي، **رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة**، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ،الرياض ، 2005م ، ص 50.

[2] منصور ابراهيم الحازمي، "رحلات العرب في جزيرة العرب البلاد العربية السعودية 1901م1972 "، مجلة الدارة ، ع 3 ، 1400هـ، ص 33.

[3] كردي، المرجع السابق، ص 13.

[4] المجاورة: يقصد بها المكوث والبقاء بجانب الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وذلك لفترة تطول أو تقصر أو حتى تدوم حسب حاجة المجاور، حيث تعود أسباب ذلك إلى الرغبة في طلب العلم أو التجارة أو أسباب أخرى. للمزيد أنظر: سليمان عبد الغني مالكي ،" علاقة مصر بمكة المكرمة من خلال المجاورين زمن سلاطين الأيوبيين"، مجلة المؤرخ المصري دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة ، ع 22، كلية الأداب جامعة القاهرة ،1999م ، ص ص 103- 107.

الآخرين وتعريفهم بهذه البلاد[1]، وذلك من خلال وصف مسالك الطريق، والإشارة إلى ما لاقوه من مصاعب ومخاطر أثناء رحلتهم خاصة تلك المخاطر التي كانت تتعرض لها قوافل الحج والمتمثلة في غياب الأمن [2] .

من العوامل الأخرى المساعدة على شد الرحال إلى الحجاز هي وجود مؤسسة ركب الحج المغربي، فنتيجة لكثرة الرحلات استحدث الحكام المغاربة هذه المؤسسة وأولوها اهتماما كبيرا من خلال ما وفروه لها من إعانات مالية ساهمت بشكل كبير في تيسير رحلات الحج، فحفر الأبار وتخصيص الأوقاف على الإبل فضلا عن الدور المهم الذي اضطلعت به الزوايا[3]، وكذلك المراسلات التي كانت تتم بين الحكام المغاربة وأمراء الحجاز من أجل تقديم المساعدة للحجاج في هذه الأقاليم كلها عوامل أسهمت في ازدياد واتساع رحلات الحج التي جمع فيها المغاربة وحققوا من خلالها عدة منافع علمية واقتصادية [4].

طلب العلم:

إنّ الرحلات التي كان يقوم بها العلماء إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي تمثل مظهرا من مظاهر الحضارة الإسلامية، وكغيرهم من المسلمين حرص المغاربة على تحصيل العلوم من منابعها الأصلية [5]، فقد عرف عنهم رغبتهم في الأخذ عن شيوخ المشرق، خاصة وأن قيمة العالم كانت تعرف إلا من خلال معرفة عدد الشيوخ الذين التقاهم وأخذ عنهم وأجازوه[6]، ولهذا نجد أن اهتمام المغاربة كان كبيرا بالرحلة العلمية فما من عالم من علماء المغرب إلا وتذكر المصادر أنه قد قام برحلة أو أكثر[7]، فالمغاربة لم يكتفوا بما تلقوه من معارف في بلدانهم، وإنما تطلعوا إلى الإستفادة من علوم غيرهم، فجاءت معظم رحلاتهم تهدف إلى تحقيق عدّة منافع أبرزها طلب الإجازة من الفقهاء والعلماء الذين ذاعت شهرتهم في العالم الإسلامي، وكذا الاحتكاك بشيوخ العلم وحضور المجالس العلمية، فضلا على الاستزادة بالعلم وطلب العلو في الإسناد والإطلاع على الاتجاهات الفكرية

---

[1] شرف موسى، "أخبار العلم والعلماء بأرض الحجاز من خلال الرحلات المغربية رحلة أبي سالم العياشي وابن الطيب الشرقي والهلالي نماذجا" ، مجلة: قضايا تاريخية ، ع 7، 2017 ، ص 84 .

[2] محمد لطفي اليوسفي، **حركة المسافر وطاقة الخيال دراسة في المدهش والعجيب والغريب**، ضمن أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمون إكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموئلا ، ط1، المغرب ، 2003م ، ص282.

[3] ساهمت الزوايا التي كانت منتشرة في البلاد العربية وخاصة المتواجدة في الطرق المؤدية إلى الحجاز في ازهار الرحلة عند المغاربة، وذلك من خلال الخدمات والتسهيلات التي كانت تقدمها للحجاج، حيث وفرت لهم جميع المتطلبات كالضيافة والطعام واللباس، وهو ما ساعد على تزايد هذه الرحلات . للمزيد أنظر : كردي ، المرجع السابق ، ص 17.

[4] المنوني ، **من حديث ركب الحج** ...، المرجع السابق ، ص ص 10،11.

[5] عبد الواحد ذنون طه ، **أبحاث في تاريخ المغرب والأندلس وصور من التواصل الحضاري مع المشرق** ،ط1، دار حامد للنشر والتوزيع ،الأردن ،2014م ،ص 333.

[6] حسن الصادقي، "الوجود المغربي في المشرق من خلال كتب التراجم المشرقية "، مجلة المناهل، ع38، ديسمبر 1989م ، ص 299.

[7] ذنون طه ، **الرحلات المتبادلة** ...، المرجع السابق ص41

السائدة واقتناء الكتب والمصنفات، وكذا نشر علومهم وتحقيق التبادل الثقافي من خلال حضور اللقاءات والمناظرات العلمية [1].

لقد ارتكزت معظم الرحلات العلمية التي قام بها المغاربة على مصر والحجاز بالأخص، ويرجع ذلك إلى كون هذه المناطق كانت تتمتع بمكانة علمية مميزة، إذ ظل المشرق العربي يشكل على مر العصور التاريخية مصدر جاذبية روحية لدى المغاربة وذلك نتيجة لاحتضانه للأماكن المقدسة من جهة ولاشعاعه العلمي من ناحية أخرى [2]، حيث كان يضم أهم الحواضر الثقافية في العالم الإسلامي، ولعلّ الذي أكسبه هذه الأهمية هي مراكز العلم التي كان يحتوي عليها[3]، فالحجاز كان ولازال يشكل على الدوام ملتقا ثقافي يتجمع فيه العلماء من مختلف الأقطار الاسلامية في كل موسم حج، فمكة والمدينة المنورة كانت مركزا للثقافة يجتمع في رحابها في كل عام مالا يجتمع في أي مدينة أخرى[4]، وهو ما أكد عليه ابن خلدون في قوله:" وغالبا ما كانت رحلتهم نحو الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة أنذاك دار علم"[5] .

وأمّا مصر فقد احتلت مركزا محوريا في رحلات الحجاج المغاربة، وذلك ليس لكونها مثلت مركز للعبور ذهابا وايابا فحسب[6]، بل لأنها أصبحت في العهد العثماني تمثل هي الأخرى منارة للإشعاع الفكري والحضاري، وقد تبوأت تلك المكانة بعد التراجع التي شهدته بغداد ودمشق في أعقاب الغزو المغولي والصليبي[7]، إذ اشتملت على أهم المراكز العلمية والدينية آنذاك والمتمثلة في الأزهر الشريف[8]، الذي ساهم في توثيق الروابط الثقافية بين مصر وسائر البلدان الاسلامية الأخرى في المشرق والمغرب .

---

[1] لامعة زكري،" الرحلة العلمية ودورها في إثراء المجال العلمي المفهوم والدوافع والأنواع"، مجلة كان التاريخية، ع22، ديسمبر 2013، ص 159.

[2] آيت الغازي، المرجع السابق، ص 44.

[3] الصادقي ، المرجع السابق ،ص 299.

[4] عبد العزيز صالح الغامدي،" دور الحج في التواصل الثقافي بين علماء الحرمين الشريفين والعلماء المغاربة" ، مجلة التاريخ العربي، ع63، المغرب، 2013. ص 160.

[5] ابن خلدون، المصدر السابق، ص 805.

[6] آيت الغازي، المرجع السابق ، ص 44.

[7] حسام محمد عبد المعطي ، **المغاربة في مصر في القرن الثامن عشر**، دط، م.إ ، مصر، 2015م ، ص222.

[8] الأزهر الشريف :هو أقدم جامع اسس بالقاهرة، أنشأ من طرف القائد جوهر الصقلي في عهد المعز لدين الله الفاطمي ، تم الشروع بنائه سنة 359هـ، 970م ،كان في أول الأمر مركزا لنشاط الدعوة الفاطمية ثم تحول إلى جامعة إسلامية، فكان أهم مركز للإشعاع الثقافي في العالم الإسلامي، ضم العديد من الطوائف والجاليات، وقد اختصت كل جالية برواق خاص بها، وكان التعليم فيه بشمل علوما مختلفة منها الفقه والحديث والتفسير والأدب والفلسفة والمنطق. للمزيد أنظر: علي مبارك، **الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والجديدة** ،ج4، ط1، المطبعة الأميرية الكبرى ، مصر 1305هـ، ص ص 10-16.

لقد احتل الأزهر الشريف مركزا قياديا في العالم الاسلامي فلم يكن في العصر العثماني معاهد تنافس الأزهر في نشر الثقافة الاسلامية سواءا في شهرته التي عمت أرجاء العالم الاسلامي أو في رسوخ قدمه في مجال الدراسات الاسلامية العليا[1] فهو يعدّ أكبر مؤسسة علمية في المشرق بل من أهم المؤسسات على الاطلاق خاصة وأنه كان يتمتع بمجموعة كبيرة من الأوقاف التي حبست عليه لغرض التعليم فانفرد بذلك بشهرته العلمية واضطلع بدور مهم في استقطاب عدد كبير من العلماء المغاربة الذين نهلو منه[2]، وهذا ما أكده أوليا جلبي عند زيارته لمصر في منتصف القرن السابع عشر حيث وصفه بقوله: " ليس في مصر جامع له ما للأزهر من جماعة إذ هو في عين فعل مصر، فهو مزدحم بالناس ليلا ونهارا، فلا تجد له موضعا للسجدة، يجتمع فيه اثنا عشر ألف طالب ليل نهار، وتطن بأصواتهم كأصوات النحل، مما يدهش الإنسان وقد انهمكو في مباحثات علمية " [3].

إنّ العامل الذي ساعد على شيوع الرحلة العلمية عند المغاربة هو أنّها ارتبطت عندهم بالحج، ذلك أن الرحلات التي كان يقوم بها المغاربة كثيرا ما أتاحت ووفرت لهم فرصة لقاء العلماء والاحتكاك والأخذ عنهم في مختلف أمصار المشرق [4]، وقد كان لركب الحج دور بارز في ذلك، فلما كانت مدة وصوله إلى الحجاز تستغرق فترة من الزمن، فإن ذلك فرض ضرورة التوقف ببعض المناطق العربية، وقد انتهز الحجاج ذلك في التنقل بين المراكز و الحواضر العلمية والاتصال بالعلماء والأخذ عنهم خاصة مصر التي كانت من أهم المحطات التي تتوقف عندها قوافل الحج المغاربية [5].

والجدير بالملاحظة أنّ اهتمام المغاربة بتحصيل علومهم من المشرق العربي لا يعكس التفوق الفكري لعلماء المشرق وتراجع المكانة العلمية لنظرائهم بالمغرب العربي[6]، بل إنّ كثيرا من المغاربة لم يرتحلوا إلى مصر والحجاز إلا بعد أن اكتملت ثقافتهم وألمو بجميع أصناف المعرفة [7]، ويظهر ذلك جليا في مدى التأثير العلمي الذي تركه هؤلاء الرحالة وبالأخص على الحياة الثقافية في مصر، حيث تطلعنا المصادر على أخبار علماء

---

[1] عبد العزيز محمد الشناوي، **دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان العصر العثماني**، ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ج2، مارس –أفريل 1969م، مطبعة دار الكتب، 1979م، ص 683.

[2] حسام محمد عبد المعطي، **العائلة والثروة البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، هـــ.م.ع.ك ، القاهرة، 2008م، ص 27.

[3] أوليا جلبي، **سياحتنامة مصر**، تر: محمد علي عوني وآخرون، تق: أحمد فؤاد منوني، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2003م، ص 271.

[4] عبد العزيز بن عبد الله ، **الرحالة العرب والمسلمون من المغرب وإليه** ، ضمن أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموئلا ، ط1، م.ن.ج ، المغرب، 2003م ، ص 202.

[5] محمد عبد المعطي ، المرجع السابق، ص 26.

[6] الحسن الشاهدي، **أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني**، ج1، منشورات عكاظ، د ب ن، دت، ص ص81 .

[7] محمد الحجوي،" الأهداف الدينية والعلمية لرحلة علماء الغرب الإسلامي إلى المشرق"، مجلة المناهل، ع85 ، الرباط، 1974م، ص 209.

مغاربة ذاع صيتهم بالمشرق العربي قد أسندت إليهم مناصب علمية مهمة تنوعت بين التدريس في الأزهر الشريف وتولي وظائف القضاء والإفتاء [1] .

ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى بعض العلماء المغاربة الذين ذكرهم الجبرتي وأسهب في وصف نشاطهم ودورهم العلمي، ومن هؤلاء العلماء نشير إلى الشيخ أبو العباس المغربي الذي تولى التدريس برواق المغاربة ، والشيخ أبو الحسن بن عمر القلعي الذي أوكلت له مشيخة رواق المغاربة عدّة مرات ، وعبد الرحمن بن جاد الله البناني المغربي الذي جاور بالأزهر الشريف [2] .

لقد اضطلع رواق المغاربة[3] بالأزهر الشريف بدور مهم في استقطاب هؤلاء العلماء والطلبة، حيث أنه شكل على مر العصور التاريخية مؤسسة ثقافية واجتماعية كان لها الأثر البارز في توطيد دعائم التواصل الفكري بين مصر والمغرب العربي[4]، وعلى هذا الأساس نجد أن الرحلات العلمية للمغاربة إلى المشرق العربي لم تكن دائما بغرض الإستفادة من العلوم، وإنما كان دافعهم كذلك نشر معارفهم وعلومهم في هذه المناطق، وعليه فإن الرحلة عند المغاربة كان لها دور بارز في المحافظة على استمرار التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب العربي، ولعلّ ما تزخر به نصوص رحلاتهم التي دونوها من أخبار العلماء ونشاطهم العلمي يعبر بشكل كبير على مدى إسهامهم في تنشيط الحركة الثقافية في هذه المناطق .

السفارة:

إنَ رحلات المغاربة إلى المشرق العربي لم تقتصر على تأدية مناسك الحج وطلب العلم فحسب، وإنما وجدت بواعث أخرى لا تقل أهمية عنها فلا يمكن أن نغفل الدافع السياسي الذي كان له دور بارز في اتَساع مجالات الرحلة المغربية، حيث اقتضت الظروف السياسية الداخلية والخارجية التي شهدها المغرب العربي في

---

[1] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، **المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517– 1798م دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية** ،دط، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982م ، ص 104

[2] الجبرتي، المصدر السابق، ج2، ص ص 122، 142،257.

[3] رواق المغاربة: يعتبر هذا الرواق من أقدم وأهم الأروقة التي ألحقت بالأزهر الشريف، أشرف على تجديده السلطان قيتباي سنة 881هـ على يد الخواجا مصطفى ابن الخواجا محمود ، ويوجد هذا الرواق في الجانب الغربي من باب المغاربة،وقد كانت له إدارة خاصة ترعى شؤونه حيث كان يعتبر مؤسسة ثقافية واجتماعية قدمت خدمات للمغاربة الوافدين على مصر لإستكمال تعليمهم بالأزهر الشريف. للمزيد أنظر: عبد الهادي التازي ، "رواق المغاربة بالأزهر الشريف أو البعثة العلمية الدائمة للمغرب بمصر"، مجلة دعوة الحق ، ع229، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب، 1983م ، ص ص 5-7.

[4] نفسه، ص 7.

العصر الحديث ضرورة إقامة علاقات دبلوماسية مع الدول الأخرى وقد كانت الرحلات السفارية هي الركيزة التي اعتمد عليها الحكام المغاربة لتوطيد علاقاتهم سواء كان ذلك مع الدول الأوروبية أو مع الدولة العثمانية [1].

و هذا النوع من الرحلات ظهر وتطور بالأخص في المغرب الأقصى حيث ازدادت وتيرة إرسال السفراء المغاربة إلى الدول الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[2]، وكان ذلك بالتحديد في عهد الدولة العلوية التي انتهجت سياسة الانفتاح، حيث تنوعت أغراض تلك الرحلات ما بين تسوية المشاكل العالقة وافتداء الأسرى وتوقيع معاهدات الصلح[3]، وفي هذا السياق برزت العديد من الرحلات السفارية التي سجل أصحابها تقاريرهم عنها[4]، وإذا كانت الرحلات السفارية المغربية تهدف إلى تحسين العلاقات السياسية مع الدول المجاورة، فإن اهتمام سلاطين المغرب الأقصى لم يقتصر على إيفاد السفارات إلى الدول الأوروبية فقط، وإنَما شَكل المشرق العربي الذي انضوى تحت لواء الدولة العثمانية هو الآخر حيزا مهما في اهتماماتهم ،حيث انتظمت السفارات بين الطرفين و لم تنقطع وغالبا ما كان هؤلاء السفراء ينتهزون فرصة تنقل ركب الحج المغربي إلى الحجاز لإيصال الرسائل وتقديم الهدايا [5] .

لقد اضطلع ركب الحج المغربي منذ نشأته بدور السفارة الروحية بين جناحي العالم الإسلامي مشرقا ومغربا، حيث قام بدور مهم في تمتين الصلات، خصوصا وأنّ هذه الركاب كانت تتوجه سنويا إلى المشرق وذلك بإشراف وفد رسمي يضم شخصيات مرموقة والتي كانت تشكل الهيئة العليا للركب كالعلماء وشيخ الركب الذي عادة ما كانت تسند إليه المهمات السياسية كحمل الهدايا ونقل الرسائل [6].

---

[1] فريد أمعضشو، "خصائص الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، مجلة البيان الكويتية ، ع 521، الكويت ، ديسمبر 2003م، ص ص 50،51.

[2] شهدت فترة حكم السلطان المغربي محمد بن عبد الله عدة سفارات توجهت إلى أوروبا بهدف تسوية المشاكل بين الطرفين، ومن أهم هذه السفارات نجد سفارة محمد ابن عثمان المكناسي إلى اسبانيا و مالطة وكذا سفارة العمراوي والصفار والجعيدي وأحمد الكردودي. للمزيد أنظر: سعيد بنسعيد العلوي ،**أوروبا في مرآة الرحلة صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة** ،منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية د.ط، المغرب، 1995م ، ص ص 22،23.

[3] عز المغرب معينو، **وصف صنائع الفرنج وحيلهم العجيبة للجعيدي** ، ضمن أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموئلا ، ط1، م.ن.ج ، المغرب 2003، ص ص91،92.

[4] تبرز أهمية هذه التقارير في أنها تضمنت وصفا يكاد يكون شاملا عن مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والإجتماعية في أوروبا خاصة وأنها اهتمت برصد أهم منجزات التقدم الأوروبي من خلال وصف أوجه النشاط السياسي ومؤسساته، فضلا عن ذكر التنظيمات الإدارية والعسكرية وتشريع القوانين، كما أنها ركزت أيضا على كل ماله علاقة بالتنظيمات الإقتصادية والنشاط التعليمي .للمزيد أنظر: جمال حيمر، **تصورات مغربية للمدنية الأوروبية من خلال الرحلات السفارية المغربية خلال القرن 19**، ضمن أبحاث ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري ،كلية الأداب والعلوم الإنسانية ، مكناس ، 1993م ، ص 340.

[5] الصادقي ، المرجع السابق ، ص 309.

[6] آيت الغازي، المرجع السابق، ص ص51،52.

كانت معظم السفارات المغربية التي أوفدها السلاطين المغاربة إلى المشرق العربي في العهد العثماني تتم مع مصر والحجاز بالأخص، حيث تذكر المصادر الكثير من الرسائل المتبادلة بين الطرفين، وقد جاءت جل تلك المراسلات تتمحور حول مسألة تنظيم ركب الحج وما يرتبط به من تسهيلات تخص الحجاج المغاربة في هذه الأقاليم[1]، كما ارتكزت أيضا على مناقشة سبل تأمين المسالك من إعتداءات القبائل البدوية وكيفية توفير الحماية والأمن لركب الحج [2] .

تعد الصرة المغربية والهدايا النقدية والعينية التي كان الحكام المغاربة يخصصونها للأماكن المقدسة من بين أهم المظاهر التي تبرز الدور السياسي الذي كان شيخ الركب يتكفل به، إذ كان من عادة الحكام المغاربة في كل موسم حج إرسال الهدايا التي كانت توزع على أهل الحرمين الشريفين، والجدير بالذكر أن هذه الهدايا قد تعددت فعلاوة على الهبات النقدية اشتملت على هدايا أخرى كالمصاحف ورسائل الحضوة النبوية، وقد تنافس السلاطين المغاربة في اضفاء طابع الفخامة على مكونات الصرة خصوصا إذا ارتبط ذلك بقيام أحد الأمراء بمرافقة الركب لاداء مناسك الحج [3]،وقد اشتهر في هذا الصدد مولاي اسماعيل وحفيده محمد بن عبد الله [4].

وهكذا شكلت الصرة المغربية أحد الوسائل التي استعان بها السلاطين المغاربة لتوطيد علاقاتهم مع المشرق العربي وقدكان لركب الحج دور مهم في تعزيز تلك الصلات التي انتظمت و لم تنقطع على مر العصور التاريخية .

ولَما كان اهتمام سلاطين المغرب الأقصى كبيرا بالمشرق العربي، فإنه كان من الطبيعي أن تمتد رحلاتهم السفارية لتشمل الدولة العثمانية فالمغرب وإن لم يخضع لهذه الدولة كباقي البلدان العربية إلا أنه ارتبط معها بعلاقات، فرغم طابع التوتر الذي ميز العلاقة بين الطرفين في بعض الفترات، إلا أنَ ذلك لم يمنع من تبادل

[1] لبيب رزق بونار ، **تاريخ العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912م** ، د.ط، الدار البيضاء ، 1982م ، ص 134.

[2] الشاهدي ، المرجع السابق ، ص 117.

[3] آيت الغازي، المرجع السابق ، ص ص 55،56.

[4] الزاهدي، المرجع السابق، ص 67.

السفارات[1] وهو ما تجسد ابتداء من القرن الثامن عشر فقد نتج عن ذلك تقارب سياسي كان للرحلات السفارية دور مهم فيه [2].

والجدير بالذكر أن معظم هؤلاء السفراء كان يتم اختيارهم من طبقة العلماء والمثقفين وهو ما جعل من ملاحظاتم وتقاريرهم تكتسب أهمية كبرى في التعرف على أحوال هذه المجتمعات التي زاروها، فهم لم يكتفو بأداء المهمات السياسية التي كلفوا بها فحسب، وإنما تفرغوا أيضا للمناقشة والمناظرة في مجالس العلم وحلقاته [3].

ويكفي هنا أن نشير إلى الرَحلة التي قام بها محمد ابن عثمان المكناسي[4] إلى إسطنبول سنة 1785م التي دامت حوالي ثلاث سنوات، حيث مكنته هذه السفارة من زيارة العديد من الأقطار العربية التابعة للدولة العثمانية أنذاك كالحجاز ومصر وبلاد الشام، حيث دون مشاهداته وملاحظاته عن البلاد التي زارها في كتاب: إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب "[5].

وإذا ما كانت رحلات المغاربة إلى المشرق العربي في العصر الحديث ترتبط أشد الإرتباط كما أسلفنا الذكر بالدوافع الدينية والعلمية والسياسية، فإن ذلك لا ينفي وجود عوامل أخرى استوجب ذكرها، وإن كانت دوافع غير مباشرة إلا أنها ساهمت بشكل من الأشكال في تنقل المغاربة إلى هذه الأقاليم ولعلّ من بين هذه العوامل نجد :

---

[1] يعود تاريخ أول سفارة أرسلت إلى الدولة العثمانية إلى عهد الدولة السعدية وهي السفارة التي قام بها التمكروتي في سنة 1589م، وهي موسومةبـــ: النفحة المسكية في السفارة التركية. للمزيد أنظر: مولاي بلحميسي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**،دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1981م ،ص 16

[2] عمار سراح، "صورة الدولة العثمانية في الرحلات المغربية من خلال القرن الثامن عشر رحلة ابن عثمان المكناسي أنموذجا"، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج 6، ع13، ، 2018م ، ص 124.

[3] الشاهدي ، المرجع السابق ، ص 100.

[4] المكناسي: هو محمد ابن عبد الوهاب ابن عثمان المكناسي أحد أبرز سفراء المغرب الأقصى في القرن الثامن عشر ، عُين كاتبا للسلطان محمد ابن عبد الله ثم وزيرا، قام بالعديد من المهمات الدبلوماسية في أوروبا وكذا الدولة العثمانية حيث زار على إثرها العديد من البلدان كإسبانيا ومالطة ونابولي واسطنبول ،خصص لهذه السفارات عدة كتب أبرزها كتاب الإكسير في افتكاك الأسير، وكتاب البدر السافر لهداية المسافر إلى افتكاك الأسارى من يد العدو والكافر. للمزيد أنظر: محمد ابن عثمان المكناسي ، **البدر السافر لهداية المسافر إلى افتكاك الأسارى من يد العدو والكافر**، تق: عبد الهادي التازي ،ط1، 2013م ،ص ص 16،17.

[5] محمد ابن عبد الوهاب المكناسي، **إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب** ، تح: محمد بوكبوط ، ط1،د.س.ن.ت ، أبو ظبي ،2003م ، ص13.

أولا : التجارة :

من المعروف أنّ المشرق العربي عموما ومصر والحجاز على وجه الخصوص كان من بين أهم المراكز التجارية ، ولعلّ من العوامل التي أكسبته هذه المكانة هي الموقع الجغرافي المميز وكذا الاستقرار السياسي الذي شهده، الأمر الذي شجع المغاربة عامة والتجار بصفة خاصة على التوجه نحو هذه المراكز لتصريف منتجاتهم وتحقيق أرباح تجارية، وقد حدث ذلك بعد أن تدهورت الأوضاع الاقتصادية في المغرب العربي بسبب الاضطرابات السياسية من جهة، وتوتر العلاقات مع الدول الأوروبية من جهة ثانية[1] .

لقد كانت الحركة التجارية بين المشرق والمغرب العربي تنشط بشكل كبير خلال مواسم الحج ما أدى إلى وجود تجارة منتظمة بين الطرفين، فخلال كل موسم حج كانت القوافل الحجية المغربية التي تضم فئات مختلفة علماء، حجاج، تجار[2] تنقل أنواعا عديدة من السلع التي كانت تروج على طول الطريق بين المغرب والحجاز خاصة في المحطات التي كان ركب الحج يتوقف فيها [3]، وهكذا يتضح لنا أن قوافل الحج قد لعبت دورا مهما وفعالا في تنشيط التجارة بين طرفي العالم الاسلامي مشرقا ومغربا، إذ سرعان ما كانت تتحول المحطات والأماكن التي كانت تجتازها هذه القوافل إلى أسواق كبيرة تعج بالباعة والتجار الذين يقصدونها من كل مكان، ومما يجب التنويه إليه في هذا السياق أن قوافل الحج خلال العهد العثماني كانت تعتبر من أكثر القوافل أمنا، وهذا نظرا لما كانت توفره لها الحكومات من وسائل لتأمينها سواء من خلال تعيين حاميات عسكرية مرافقة لها أو عن طريق كسب رضى القبائل البدوية المنتشرة في الصحراء، ونتيجة لهذا أصبحت هذه قوافل فرصة للكثير من التجار لنقل بضائعهم من المغرب العربي إلى المشرق مستفدين في ذلك من الخدمات

---

[1] محمد علي فهيم بيومي، **المغاربة في المدينة المنورة إبان القرن الثاني عشر هجري الثامن عشر ميلادي** ، ط1، دار القاهرة ، 2006م ، ص ص 24،23.

[2] تشير كتب الرحلة إلى أن الكثير من الحجاج المرافقين لركب الحج المغربي كانوا يزاولون التجارة التي كانت تعد نشاطا ضروريا لتغطية نفقات الرحلة والإقامة بالحجاز ،حيث كانو يحملون معهم البضائع والسلع التي تلقى إقبالا كبيرا في المناطق التي يمرون بها وخاصة في مدينة الإسكندرية التي كانت تعد من أبرز المراكز والأسواق انتعشت فيها التجارة. للمزيد أنظر : لمليح، المرجع السابق، ص ص 136- 140.

[3] للتوسع أكثر في الدور التجاري الذي اظطلعت به قافلة الحج المغربية عبر المسالك المؤدية إلى الحجاز أنظر :

thomassy , r, **Le Maroc Et Ses Caravans Ou Relation De La France Avec Ses Empire**, paris,1845, p 30_ 55

الأمنية الموفرة لقوافل الحج[1]، وقد أدى كل ذلك إلى تشكل أسواق موسمية ودورية هامة سواء في مرحلة الذهاب أو الإياب [2].

ولقد ترتب عن الحركة النشيطة التي عرفتها التجارة بين المشرق والمغرب العربي ظهور عدّة أُسر مغربية امتهنت التجارة واستقرت بشكل دائم في المشرق العربي وخاصة في القاهرة والاسكندرية، حيث أدت العلاقات التجارية المزدهرة بين المغرب العربي ومصر إلى ظهور الوكالات والبيوتات التجارية المغربية، إذ كان أكثر هؤلاء التجار المغاربة من مدينة فاس، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أُسرتي القباج والبناني اللتين اشتهرتا بدورهم التجاري الكبير في أسواق القاهرة هذا إلى جانب اهتمامهم أيضا بالمشاركة في الحياة الفكرية والدينية التي كان الأزهر مركزا لها [3].

ومما لاشك فيه أن اتساع نشاط هذه الفئة من التجار المغاربة بالمشرق قد أدى إلى تنشيط الحياة الاقتصادية بهذه الأقاليم وهو ما جعل هذه الطبقة من المغاربة تكتسب مكانة مرموقة خاصة في المجتمع المصري والحجازي [4] .

ثانيا : الإضطرابات السياسية :

كان للأوضاع السَياسية المتدهورة التي شهدتها بلاد المغرب العربي في العهد العثماني دور في هجرة الكثير من المغاربة إلى المشرق العربي، ولعل الصراعات الداخلية على الحكم التي استفحل أمرها ابتداء من القرن الثامن عشر وما نجم عنها من اضطرابات هو الذي دفع ببعض المغاربة للتوجه نحو المشرق العربي الذي كان أكثر استقرارا، ولم تكن الصراعات الداخلية هي العامل الوحيد الذي أدى إلى ذلك بل إن توتر العلاقات السياسية مع الدول الأوروبية ودخول الطرفين في مواجهات عسكرية كان له هو الآخر انعكاسات مباشرة، ويتضح ذلك جليا في حركة الهجرة التي تزايدت بشكل ملحوظ خلال القرن الثامن عشر، حيث اختار بعض المغاربة الاستقرار بمصر في حين فضل البعض الآخر منهم المكوث بالحجاز ومجاورة الحرمين

---

[1] عبد الله محمود حسين، "الدور الاقتصادي لركب الحج" ، مجلة العمرة والحج، مج 49، ع 5، وزارة الحج، 1994م، ص 44.

[2] الشيباني بن بلغيث، **أهمية رحلات الحج المغاربي في ربط الهوية بالمجال رحلة العياشي في القرن السابع عشر نموذجا**، ضمن أبحاث الندوة الدولية المجال والهوية ببلاد المغرب المنعقدة (4-5-6 مارس 2004م)، تق: عبد الواحد المكني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس ، 2007م، ص 98.

[3] André Raymond ,'' Deux Familles De Commerçants Fasi Au Caire A La Fin Du XvIII[e] Siécle'' , Revue De L'occident Musulman Et De Méditerranée, N 15,16, Mélanges Le Tourneau , 1973, p 269,273 .

[4] عبد الرحيم عبد الرحمن ، **المغاربة في مصر** ....، المرجع السابق ،ص ص 79،80.

الشريفين، وقد تكونت على إثر ذلك جالية من المجاورين المغاربة استطاعت أن تفرض لنفسها مكانة ضمن فئات المجتمع المشرقي [1].

ومن بين أهم هذه الفئات التي اختارت الارتحال إلى منطقة المشرق نتيجة لهذه الظروف وغيرها، نجد طبقة العلماء حيث أن سوء الأوضاع العامة بالمغرب من جهة، وتوتر علاقاتهم مع الحكام المغاربة من جهة ثانية أدى إلى نشوء عدّة خلافات بينهم، الأمر الذي جعل الحكام المغاربة ينتهجون في حق هذه الطبقة سياسة التضييق والعزل وحتى النفي وهو ما أدى بلا شك إلى هجرة فئة منهم إلى المشرق العربي[2] .

وعلى هذا الأساس يتبين لنا أنّ رحلات المغاربة إلى المشرق العربي تتحكم فيها عدّة عوامل، فإضافة إلى الدوافع الرئيسية كالحج وطلب العلم والسفارة كان أيضا للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي شهدها المغرب العربي وبالأخص خلال العهد العثماني دور مهم في توسع هذه الرحلات .

وعلى العموم يمكن القول أن رحلات المغاربة إلى منطقة المشرق العربي تعَد ظاهرة تاريخية، فهي ليست وليدة العهد العثماني وإنما تمتد جذورها إلى عصور أقدم، وهذه الرحلات دوافعها كثيرة ومتعددة إلا أنها كثيرا ما كانت تتداخل فيما بينها، فقد يقترن الهدف الديني بالهدف العلمي أو يرتبط الهدف العلمي بالدافع السياسي أو تجتمع كل الدوافع للقيام بالرحلة، وهذا ما نستشفه عند دراسة نصوص هذه الرحلات، غير أنَ الشيء الأكيد هو أن جل هذه الرحلات قد جاءت في ظل نوعية علاقات متينة جمعت بين المشرق والمغرب العربي، حيث كان لوجود مؤسسة ركب الحج المغربي دور بارز في ازدياد هذه الرحلات خصوصا وأنه كان من أهم الوسائل التي أتاحت لهم التنقل إلى هذه الأقاليم.

وهذه الرحلات اكتسبت أهمية كبيرة في التراث المغربي فأهميتها تكمن ليس في كثرة عددها، بل في ما تركه هؤلاء الرحالة من مصنفات ثمينة اشتملت على وصف دقيق لما شاهدوه ولاحظوه من أحداث متَنوعة، فكانت هذه الكتابات بلا شك من أبرز سمات الحركة الأدبية في المغرب العربي خاصة في ظل التطور الذي شهده هذا النوع من التدوين في العهد العثماني .

[1] بيومي، المرجع السابق، ص ص 18- 20 .

[2] الحاج صادوق ، "أسباب الرحلات المغاربية إلى الحجاز إبان القرن الثامن عشر"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية ، ع 10، الجزائر، ص 450.

4. خصائص الرحلات الحجازية المغاربية :

لما كان جانب كبير من الرحالة المغاربة الذين توجهوا إلى المشرق العربي ينتمون للطبقة المثقفة في عصرهم (علماء ، أدباء، فقهاء، قضاة)، فإن حرصهم كان شديدا على تدوين وتوثيق تفاصيل رحلاتهم ومجرياتها، وتسجيل مشاهداتهم وانطباعاتهم التي لاتخلو في الغالب من ذكر معطيات هامة تتعلّق بجوانب من الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية حول المناطق التي زاروها [1].

ومن هذا المنطلق فإن ما أودعه الرحالة المغاربة من مصنفات ومذكرات يعدّ من بين أهم المصادر التي ارتسمت فيها صورة المشرق العربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بحيث تجاوزت محتواها من مجرد مذكرات تصف مسالك الرحلة وتفاصيلها[2] إلى كونها أحد أبرز المصنفات التاريخية التي تقدم معلومات عن المشرق العربي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، فتنوع اهتمامات الرحالة وتفاوت درجات ملاحظاتهم فضلا عن كون هذه الرحلات قد دونت من طرف أدباء وفقهاء وعلماء قد ساهم بشكل كبير في بروزها كمصدر أساسي وثري لدراسة تاريخ مصر والحجاز خلال الحقبة العثمانية.

إنّ ما ألفه الرحالة المغاربة من مصنفات جعلهم يعتبرون من السباقين الذين يرجع لهم الفضل في تطور أدب الرحلة العربية [3]، فالتّراث المغربي يزخر بعدد هائل من هذه الرحلات، وإن كان ما وصلنا منها يعدّ قليلا مقارنة بما ورد في كتب التراجم والتاريخ [4]، والتي حفظت لنا أسماء العديد من الرحالة ممن زاروا المشرق العربي والذين لانعرف شيئا عن رحلاتهم إما لضياعها من جهة، أو عدم القيام بتدوينها من جهة ثانية [5] ، لكن المؤكد هو أن المغاربة قد وضعوا في هذا الصنف من الكتابة مؤلفات كثيرة حقق البعض منها ولا يزال الجزء الآخر مخطوطا في المكتبات، ولعلّ تفوق المغاربة على غيرهم من المشارقة في كتابة رحلاتهم يعود إلى عامل مهم هو بعد الديار المغربية عن المشرق العربي، فالرحالة المغاربة الذين توجهوا لأداء مناسك الحج أدركوا أهمية تدوين رحلاتهم حيث كان هدفهم من وراء ذلك هو التعريف بهذه البقاع و على ما تحتويه من أماكن مقدسة ومراكز علمية متنوعة، فضلا عن وصف أهم المسالك والطرق المؤدية إلى الحجاز[6] .

---

[1] سليمان القرشي، **رحلة أبي سالم العياشي إلى المشرق قضايا ومواقف ورجال**، الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمون أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين إكتشاف الذات والآخر، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م ، ص 204.

[2] الأزمي، المرجع السابق، ص 23.

[3] التازي ، **رحلة الرحلات**...، المرجع السابق ، ص50.

[4] من أبرز المؤلفات التي اهتمت بالترجمة لهؤلاء الرحالة نجد كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري .

[5] نواب ، المرجع السابق ، ص17.

[6] محمد الفاسي ،" الرحالة المغاربة وأثارهم "، مجلة دعوة الحق ، ع2، السنة الثانية ،وزارة عموم الاوقاف ،الرباط ، 1958م،ص 8.

وفي هذا السياق يذكر عبد الرحمن المودن في حديثه عن الرحلات الحجية أنّ الغرض المعلن من تدوينها هو وصف المخاطر التي لاقوها في طريقهم للحجاز، والتيمن بذكر مناسك الحج ووصفها، ولعلّ ما يؤكد هذا الطرح هو أنّ أغلب هؤلاء الرحالة قد سجلوا في مطلع رحلاتهم أنّ هدفهم من تدوين رحلاتهم هو ابتغاء مرضاة الله فكانت كتاباتهم وصفا لتجاربهم التي أفادت الحجاج اللاحقين [1]، فكثير من الفقهاء والأدباء والعلماء ممن قصدوا المشرق العربي قد شعروا بأنّ عليهم دينا يجب تأديته لأخوانهم الذين لم تسمح لهم الظروف بزيارة هذه الأماكن التي تشوقوا وتطلعوا لمعرفة أوصافها وما تتضمنه أثار إسلامية[2]، وهو ما اشتملت عليه هذه الرحلات حيث ساعدت وأفادت هذه المصنفات الكثير من الحجاج الذين قدمو من بعدهم فكانت بمثابة المرشد والدليل الذي عرَفهم على أهم مناسك الحج وطرق تأديتها، فضلا على أنها أرشدتهم على أفضل المسالك وأكثرها أمنا وبعدا عن قطاع الطرق والمخاطر[3].

وإذا ما حاولنا معرفة تاريخ بداية تدوين الرحلات في المغرب العربي فإنّه يمكن اعتبار القرنين السابع والثامن هجري من أهم الفترات التي شهدت ظهور هذا الصنف من الكتابة [4]، حيث ازدهر أدب الرحلة بشكل لافت في العصر المريني وأصبح فنا قائما بذاته[5]، وإذا كانت رحلات هذا العصر كثيرة ومتعددة نتيجة لإزدهار الحركة الثقافية، فإنه يمكن القول عن الرحلات المدونة في هذا العصر أنّها كانت اللبنة الأولى التي تطور على إثرها أدب الرحلة المغاربية، فلا يمكن أن نغفل أهمية ما دونه ابن الرشيد الفهري في رحلته الموسومة بـــ: "**ملئ العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة**" ولا ما سطره ابن بطوطة في رحلته المسماة "**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**". فهذه المصنفات اكتسبت قيمة علمية وأدبية كبيرة، وكان لها الأثر البالغ في التحول الذي سوف يشهده أدب الرحلة في العصور اللاحقة [6] .

---

[1] عبد الرحمن الموذن، **الرحلة الحجية مصدر من مصادر التاريخ الاجتماعي المغربي** ، ضمن أبحاث ندوة : في النهضة والتراكم ، دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية مهداة للأستاذ محمد المنوني ، ط1، دار توبقال للنشر والتوزيع ، المغرب ، 1986م، ص 303.

[2] التازي ، **رحلة الرحلات** ...، المرجع السابق ، ص ص50،51.

[3] عبد الرحمن المنيع ، المرجع السابق ، ص 9

[4] من العوامل التي ساعدت على تطور أدب الرحلة عند المغاربة في العصر المريني هو إهتمام الحكام وتشجيعهم للحركة العلمية والثقافية، ومن أمثلة ذلك نجد أن الحاكم أبا عنان المريني قد أولى اهتماما كبيرا لإبن بطوطة ورحلته، حيث كلف كاتبه ابن جزي بتدوين هذه الرحلة وذلك للحفاظ عليها من الضياع ونفس الشيئ بالنسبة لإبن رشيد الفهري الذي اكتسب مكانة هامة لدى البلاط المريني. للمزيد أنظر: محمد ابن أحمد ابن شقرون **مظاهر الثقافة المغربية: دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1985، ص 174.

[5] نفسه، ص ص 172،173.

[6] محمد الحاتمي ، **الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي**، ط1، مطبعة المعارف الجديدة ، المغرب ، 2012م ، ص ص 37، 38.

إنّ المتتّبع لتاريخ أدب الرحلة عند المغاربة يقف على محطات هامة، فإذا كان هذا الفن قد عرف بعض التراجع والفتور في أواخر العصور الوسطى نتيجة لتأثره بالتقلبات السياسية التي شهدها المغرب العربي عامة والتي تمثلت أبرز مظاهرها في كثرة اضطرابات الداخلية من جهة و وازياد التحرشات الإسبانية والبرتغالية على السواحل وثغور المغرب العربي مع مطلع القرن الخامس عشر ميلادي[1]، ومانجم عن تلك الأوضاع من فتاوى أصدرها العلماء والتي تم من خلالها تقديم الجهاد على الحج[2]، فإن ذلك لم يمنع من بروز أدب الرحلة من جديد حيث شهد انبعاثا جديدا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي حيث تأصلت الرحلة في المغرب العربي وأصبحت مظهرا من مظاهر الحركة الأدبية[3] .

لقد أنتج الرحالة المغاربة في العهد العثماني أنواعا عديدة من الرحلات سجلوا من خلالها كل ما شاهدوه ولاحظوه أثناء تنقلاتهم، ويمكن أنّ نقسم أصناف هذه الرحلات إلى رحلات سياسية ذات طابع دبلوماسي ورحلات داخلية، وهي التي تتم داخل حدود المغرب العربي[4]، وقد تكون هذه الرحلات المحلية نتيجة لظروف قهرية كالهروب من الفتن و البحث عن الرزق كرحلة "الوافد في أخبار هجرة الوالد لمحمد بن ابراهيم الزرهوني" الذي ارتحل نتيجة لهدم زاوية تاسفت بمكناس على إثر ضغط السلطة في المغرب سنة 1720م، وقد تكون هذه الرحلات أيضا نتيجة لظروف اختيارية كالرغبة في لقاء الشيوخ والعلماء والاستزادة منهم، وهذه الرحلات تتميز بطابع فهرسي إذ يغلب عليها وصف مجالس العلم وذكر الإجازات والأسانيد والروايات وتراجم العلماء [5] كرحلة "ابن زاكور إلى الجزائر وتطوان والتي تحمل عنوان "نشر أزاهر البستان " ورحلة عبد الرزاق ابن حمادوش إلى المغرب: "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، ورحلة أبو

---

[1] مليكة الزاهدي، **الرحلة الحجازية أداة التواصل الثقافي**، ضمن كتاب الثقافة العربية بين الوحدة والتعدد في حوار المشرق والمغرب ، إشراف: محمد محمد سيد خليل ، ط1، دار العلوم للنشر والتوزيع ، مصر ، 2007م، ص 20.

[2] نتيجة للظروف التي مر بها المغرب ظهرت عدة فتاوى من طرف فقهاء أفتوا من خلالها بسقوط فريضة الحج وأولوية الجهاد ووجوبه في حق المسلمين، وذلك في ظل ازدياد الخطر الصليبي وانعدام الأمن عبر الطرق المؤدية إلى الحجاز، ومن بين أهم تلك الفتاوى نجد فتوى الفقيه أبي بكر الطرطوشي و فتوى المازري وفتوى عبد النور محمد العمراني. للمزيد أنظر : نور الدين أمعيط ، المرجع السابق، ص ص 143، 144.

[3] بكاري، المرجع السابق ، ص ص 194،195.

[4] ابراهيم حركات، **التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية**، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1994م، ص ص 208، 209.

[5] عبد الله مرابط الترغي، **أدب الرحلة في المغرب 1082هـ – 1139هـ دراسة في الاتجاهات والمكونات**، ط1، دار سليكي أخوين للنشر والتوزيع، طنجة، 2020م، ص ص 98، 99.

راس المعسكري الموسومة ب:"رحلتي ونحلتي في تعداد رحلتي " وغيرها من الرحلات الداخلية التي ساهمت بشكل كبير في التعريف بالأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية بالمغرب العربي[1] .

إذا كانت الرحلات المغاربية قد تعددت في العهد العثماني وتنوعت موضوعا وشكلا وحجما وأسلوبا، فإنّ أهم إسهام للمغاربة كان في مجال الرحلة الحجّية أو الرحلة الحجازية كما تمت تسميتها [2]، حيث احتلت مكانا ساميا لشرف موضوعها المتعلق بالبقاع المقدسة وأداء مناسك الحج [3].

ويقصد بالرحلة الحجازية أو الحجية تلك الرحلة التي تكون وجهتها الأماكن المقدسة في الحجاز مكة والمدينة المنورة على سبيل الخصوص لأداء فريضة الحج وطلب العلم [4]، وهذه التسمية التي أطلقت على رحلات المغاربة إلى المشرق العربي ترجع إلى الأهمية التي اكتسبتها منطقة الحجاز في نفوس المسلمين، فباعتبار أنّ الحجاز كانت مركزا ديني يضم البقاع المقدسة فإنه اكتسب مكانة عظيمة في اهتمامات هؤلاء الرحالة الذين لم يقتصروا على زيارته فحسب، وإنّما خلفوا كذلك مصنفات عديدة حول هذه البقاع والتي تضمنت وصفا شاملا لانطباعاتهم ومشاهداتهم حيث وصفوا مراحل الطريق ومظاهر الحضارة الإسلامية، كما كشفت كتاباتهم كذلك أحوال المجتمعات العربية التي مروا بها [5].

إنّ هذا النوع من الرحلات ظهر في المغرب والمشرق العربي على حد سواء [6]، ولكنه شاع عند المغاربة بشكل خاص، حيث أضحى فنا قائما بذاته من حيث تدوينه بأسلوب مميز يشمل تاريخ الخروج والوصول إلى كل مدينة مع تقديم لمحة وافية عنها وقائمة بأسماء ومراحل السفر، كما تناولت هذه الرحلات وصفا شاملا

---

[1] حركات، المرجع السابق، ص 209.

[2] عبد الرحيم علمي ، **مجتمع مكة في أدب الرحلات المغربية قراءة في النصوص والدلالات**، ضمن أبحاث ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة العربية، 1426هـ ، ص 44.

[3] بوعسرية، المرجع السابق، ص 10.

[4] الأزمي ، المرجع السابق ، ص 72.

[5] ماكامان، المرجع السابق، ص131.

[6] إن إسهامات الرحالة المشارقة في أدب الرحلة الحجازية في العصر الحديث ظل محدودا مقارنة بما ألفه المغاربة في هذا الصنف من التدوين ، ولعل من بين أهم مصنفاتهم نجد ما دونه المصريون بالتحديد ، فقد كان معظم هؤلاء الرحالة ضمن أمراء ركب الحج المصري أو ممن تولو مسؤولية الأمن فيه ،ومن أهم رحلاتهم نذكر : رحلة ابراهيم رفعت باشا الذي ألف رحلته الموسومة بـــ: مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره والدينية إضافة إلى محمد صادق الذي ألف :"دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج" و "كوكب الحج في سفر المحمل بحرا وسيره برا ". للمزيد أنظر: عبد العزيز بن صالح الهلابي ،**الرحلة الحجازية لمحمد البتنوني دراسة مقارنة** ، ضمن أبحاث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ، ج1، الرياض ،2000م ، ص ص 81،82.

لمكة والمدينة المنورة في جميع النواحي الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية إضافة إلى إبراز مظاهر الحياة الثقافية والعلمية [1].

لقد نشطت الرحلات الحجازية في المغرب العربي وشهدت أوج ازدهارها في الفترة الممتدة مابين القرنين الحادي عشر والثالث عشر هجري/ السابع عشر والتاسع عشر ميلادي، وهي المرحلة امتازت فيها الحياة الثقافية بالركود والجمود[2]، ولذلك مثلت كتب الرحلات أبرز مظهر للثقافة في تلك الحقبة[3]، ولعلّ ما يبرز أهمية ودور الرحلات الحجازية في إثراء الحركة الأدبية و الثقافية هو أنّ معظم هؤلاء الرحالة كانوا ينتمون إلى الطبقة المثقفة حيث نجد منهم العلماء والأدباء والفقهاء وحتى الشعراء، والجدير بالذكر أنّ الرحلات الحجازية التي دونها هؤلاء الرحالة قد جاءت متنوعة المضامين فمنهم من اختار تدوينها على شكل نصوص نثرية في حين دونها آخرون منظومة[4].

رغم التنوع الذي امتازت به نصوص الرحلات الحجازية في العهد العثماني إلاّ أنّ المتصفح لها يجد أنّها تقوم على مجموعة من الثوابت والأسس التي تميزها عن غيرها من الرحلات ولعلّ من أهم هذه الأسس نجد أنها:

ـ تقوم على هدف رئيسي هو زيارة الحجاز وأداء مناسك الحج وزيارة قبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وبذلك اشتهرت هذه الرحلات بالرحلات الحجازية وتميزت بها على مر العصور[5].

ـ تختص الرحلة الحجازية بما أنّ الهدف منها هو ديني بذكر مناسك الحج ووصف مشاعره طرق تأديته، وهذا الوصف يعد ضروريا تشترك فيه جميع الرحلات الحجازية رغم أنّ ذلك يتم بشكل متفاوت ومختلف من رحالة إلى آخر، أضف على ذلك نلمس في هذه الرحلات رصدا لمشاعر الشوق والحنين التي تنتاب الحجاج لرؤية الأماكن المقدسة، وهذه العاطفة الدينية تبرز بشكل قوي في الرحلات الحجازية سواء كانت نثرية أو منظومة[6] .

ـ تُصور الرحلات الحجازية بجلاء مراحل الطريق ومصاعبه ومشاكله وهذا أمر طبيعي إذا علمنا أن هذه الرحلات كانت تتم في ظروف صعبة، فيحرص الرحالة على وصف أهم الطرق والمسالك المؤدية الى

---

[1] نواب ، المرجع السابق ،ص 71.

[2] أوليا جلبي ، **الرحلة الحجازية** ، تر: الصفصافي أحمد مرسي ،د ط، دار الأفاق العربية ، مصر ، 1999م ، ص 19.

[3] عائض الردادي ، **مجتمع المدينة المنورة في رحلة العياشي 1072هـ ـ 1662م** ، دط ، م.م.ف، الرياض ، 1431هـ ، ص10

[4] عبد الهادي التازي ، **رحلة الرحلات** ....، المرجع السابق ، ص ص52،53.

[5] الترغي، المرجع السابق، ص 15.

[6] الغاشي، **الرحلة المغربية** ...، المرجع السابق، ص 343.

الحجاز سواء كان الأمر يتعلّق بالطرق البرية أو االبحرية[1]، وهذه المعطيات تحتل حيزا كبيرا في اهتمامات هؤلاء الرحالة الذين تناقلوا أخبار هذه المسالك منذ أقدم العصور، فلم يقتصر وصفهم على تبيان محطات الطريق فحسب وإنما شمل كذلك تدوين مايرتبط بها من معطيات جغرافية واجتماعية واقتصادية، وقد جاء تدوينهم للمسالك ومعرفتهم بمراحل الطرق نابع من تجاربهم الشخصية وملاحظاتهم الدقيقة، علاوة على الاستعانة بمصنفات الجغرافيين والرحالة السابقين لهم [2].

ونذكر في هذا الصدد أنّ العياشي الذي ارتحل إلى الحجاز عدّة مرات قد ألف رحلته الصغرى[3] فقط لوصف منازل الطريق ومسالكه، حيث استعرض أهم العراقيل التي تواجه الحجاج خلال الرحلة،كما أورد في الوقت ذاته وصفا دقيقا لمراحل السفر و منازل الطريق وحالة الأمن [4]، وهذه الظاهرة الأخيرة المتعلقة بالوضع الأمني نلاحظ أنها شغلت هي الأخرى مكانا هاما في كتابات هؤلاء الرحالة، لاسيما وأنّ هذه الظاهرة كانت تمثل هاجسا كبيرا لهم حيث وصفوا من خلال مشاهداتهم الوضع الأمني السائد عبر هذه المسالك والذي اتسم بعدم الاستقرار وانعدام الأمن فجاءت مصنفاتهم حافلة بأخبار و حوادث الطريق خاصة تلك التي تتعلّق بوصف غارات الأعراب واللصوص على قوافل الحج [5].

ـ تتسم الرحلة الحجازية بالطابع العلمي فهي تركز بشكل كبير على إبراز مظاهر التواصل العلمي والثقافي بين المشرق والمغرب العربي، فالجانب العلمي يكاد يطغى على مضامين الرحلة الحجازية، فلا تكاد تخلو أي رحلة من ذكر تراجم العلماء والأدباء والفقهاء، وكذا و صف حلقات العلم ومجالسه [6] .

وهذه السمة التي اختصت بها الرحلة المغربية جعلتها في كثير من الأحيان تأخذ الطابع و البعد الفهرسي فالمطلع على نصوص هذه الرحلات يجدها تحتوي على معطيات علمية هامة كالإجازات وذكر الأسانيد العالية، وحلقات العلم وطرق التلقى، وذكر أنواع التآليف وهو ما جعلها تشترك وتتداخل في خصائصها مع

---

[1] جميلة روباش، **أدب الرحلة في المغرب العربي** ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراة في الأدب الجزائري القديم ، كلية الآداب واللغات ،جامعة محمد خيضر ببسكرة ،2014/ 2015م ، ص41.

[2] ماكامان، المرجع السابق ، ص ص 139، 140 .

[3] اختلف الباحثون في أصل التسمية التي اتخذها الرحلة، فمؤلفها لم يختر لها عنوانا خاصا، ولكنها عرفت بتسميات عديدة منها تعداد المنازل الحجازية أو "التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الظروف إليه في الطريق إلى الحجاز ، هذا ويتفق المؤرخون على أن هذه الرحلة ليست رحلة حقيقية وأنما هي عبارة عن تقرير أو رسالة سجلها العياشي سنة 1659م وبعثها لأحد تلاميذه من علماء مدينة فاس وهو أحمد بن سعيد المجيلدي ،حيث تضمنت هذه الرسالة توجيهات وإرشادات لصديقه عرفه فيها على مسالك ومراحل الطريق ومصاعبها وأهم ما يلزمه في رحلة الحج . للمزيد أنظر: أبو سالم العياشي، **التعريف والإيجاز** ...، المصدر السابق ، ص ص 75- 83.

[4] عبد القادر زمامة ،" مع أبي سالم العياشي في رحلته "، مجلة المناهل ، ع 30، المغرب ، 1984م ، ص 114_ 124.

[5] ماكامان ، المرجع السابق، ص ص 147، 148.

[6] الغاشي ، **الرحلة المغربية** ...، المرجع السابق ، ص 344

المصنفات الفهرسة[1]، ولا غرابة في أنّ الرحلة المغربية تنفرد في خصائصها بهذا الطابع عن بقية الرحلات الأخرى فالرحالة المغاربة أثناء رحلاتهم كان هدفهم بعد حج بيت الله الاتصال بالعلماء والمشايخ والأخذ عنهم والاستزادة بالعلوم المتنوعة وكان حرصهم شديدا على توثيق نشاطهم العلمي[2]، فهذه المصنفات التي خلفوها تزخر بكم هائل من تراجم العلماء والمشايخ وكبار الفقهاء ممن لا نجد لهم أحيانا أي ذكر حتى في المصنفات الضخمة التي خصصت لهذه الغاية، وقد ساعدت هذه المعطيات العلمية التي حفلت بها الرحلات المغربية على التعرف على الطابع الثقافي والفكري السائد في المناطق التي قصدها هؤلاء الرحالة [3]، وفي المقابل كشفت عن التفاوت الواضح في تكوين الرحالة من حيث مشاركتهم العلمية والقضايا التي شغلت تفكيرهم فعكست كل رحلة من خلال لغتها وأسلوبها ومضمونها ملامح الثقافة السائدة في ذلك العصر سيما أنّ هؤلاء الرحالة كانوا يتمتعون بقدر كبير من الثقافة والعلم [4].

ويكفي أنّ نشير في هذا الصدد إلى رحلة المقري الموسومة بـــ: **"رحلة المقري إلى المشرق والمغرب"** التي أظهرت جوانب مهمة من نشاطه العلمي في كل من الحجاز ومصر، كما أنها عالجت مظاهر الحياة الثقافية خلال القرن 17م [5].

من خصوصيات الرحلة الحجازية المغاربية أنّها اصطبغت بالطابع الديني[6]، حيث نلمس في متون هذه الرحلات غلبة المواضيع الفقهية والصوفية، وتتجلى هذه السمة بشكل كبير عند ذكر الرحالة للمتصوفة وحديثهم عن الأولياء الصالحين وما يرتبط بهم من كرامات[7]،كما أنهم حرصوا في كل مناسبة على الإستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وتسجيل المناظرات الفقهية التي حضروها و النوازل التي عرضت عليهم، وقد جاء كذلك اهتمامهم كبيرا بوصف المقاصد من المناسك التي أسهبوا في التطرق لها و في تتبع

---

[1] الحسن الشاهدي، "البعد الفهرسي في الرحلات الحجازية بالمغرب رحلات القرن السابع هجري" ، مجلة المناهل، ع 85، المغرب، 2008، ص 185- 188.

[2] عبد اله بوغوتة، **دور المراكز الثقافية في التواصل بين المشرق والمغرب من خلال الرحلات الحجية المغربية في العصر المريني** ، ضمن أبحاث اليوم الدراسي : مسالك الثقافة والمثاقفة في تاريخ المغرب –أعمال مهداة للأستاذ السعيد لمليح، الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، مكناس، 2016م، ص 73.

[3] ابن شقرون ، المرجع السابق، ص ص 183، 184.

[4] ماكامان، المرجع السابق، ص 58.

[5] عبد القادر شرشار، " كتاب الرحلة إلى المغرب والمشرق لأبي العباس المقري "، مجلة الفضاء المغاربي ، ماي ، 2016، ص 75.

[6] للتوسع أكثر في هذ الموضوع أنظر : خليل فاطمة ، "من ملامح الرحلة المغربية الفقه الإسلامي في الرحلة "، مجلة البحث العلمي ، ع41، جامعة محمد الخامس ، المغرب، 1994م، ص ص 127-139 .

[7] محمد الأخضر ، **الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية 1075هـ – 1311 1664– 1894م** ، ط1، دار الرشاد ، المغرب ، 1977م ،ص ص 79،80.

مراحلها[1]، ولعلّ هذا الطابع الذي ميّز نصوص الرحلة الحجازية يرجع بالدرجة الأولى إلى السياق الذي تمت فيه هذه الرحلات وهو الهدف الديني، ومن جهة أخرى يعود إلى طبيعة الحياة الثقافية والعلمية التي طغى عليها التصوف والذي تحول إلى ظاهرة اجتماعية بارزة في العهد العثماني [2].

وهذه السمة تكاد تشمل كل الرحلات الحجازية إلى غاية القرن السابع عشر [3]، فلا نجد فيها إلا القليل من الأوصاف الجغرافية وبعض الجوانب المتعلقة بالمظاهر الحضارية التي صادفها هؤلاء الرحالة، وإن كانت هذه الرحلات ستشهد ابتداء من القرن الثامن عشر بعض التطور من خلال بروز المزيد من الموضوعية في مصنفاتهم التي أضحت أكثر تنوعا [4].

فالرحالة في هذه الفترة تنافسوا على جعل رحلاتهم المدونة موسوعة عصرهم ،حيث ضمّنوها علوما وفنونا كثيرة كالمعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والتي تتعلّق بالمناطق التي مر عليها ركب الحج المغربي، فجاءت معارفهم بهذه الأقطار ناتجة عن المعاينة المباشرة والملاحظة الدقيقة[5]، فعكست مصنفاتهم بما تضمنته من معارف مختلفة حركية المجتمع العربي وأسلوب ونمط حياته وعلاقاته المتنوعة [6].

لقد انفرد الرحالة المغاربة في تدوين رحلاتهم عن غيرهم من الرحالة المشارقة بخصائص محددة مثلت سمة بارزة في أدب الرحلة المغربية، وإذا كانت هذه الرحلات تشترك في مجموعة من الخصائص العامة والتي ورد ذكرها، إلاّ أنّ كل رحلة من هذه الرحلات تتميز عن غيرها بسمات خاصة[7]، فكل رحلة مكتوبة تعكس ثقافة واهتمام صاحبها وتعكس في وقت ذاته ملاحظاته ومشاهداته[8]، وبما أنّ هؤلاء الرحالة اختلفت مجالات

---

[1] الموذن ، المرجع السابق، ص 303.

[2] عمار جحيدر، **التواصل الثقافي بين ليبيا والمغرب نموذجا**، ضمن أبحاث ندوة طرق الحج جسر للتواصل بين الشعوب المنعقدة في 25-27 حزيران ، 2002م ، ص 38.

[3] يشير محمد المنوني إلى أن رحلات هذه الفترة قد تخللها الضعف ويتجلى ذلك في قوله: " بدأ الضعف يسري إلى منهجية هؤلاء الرحالة : تطويل في العروض بالإستطرادات التي قد تكون بعيدة عن الموضوع وتارة اختصار إلى حد الإجحاف". للمزيد أنظر: محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب** ، ج1، منشورات كلية الأداب ، الرباط ، 1983م ، ص 186

[4] محمد الأخضر،" الأدب المغربي على عهد الدولة العلوية العصر الأول 1139- 1171هـ، 1727م – 1757م " ، مجلة المناهل ، ع1، المغرب ، 1974م، ص 220.

[5] خالد السقاط، **ماء الموائد لأبي سالم العياشي الرحلة والرحالة مع تحقيق قسمي مكة والقدس** ، منشورات المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية والشرق الأوسطية والخليجية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ظهر المهراس ، فاس ، دت ، ص 15.

[6] بن بلغيث، المرجع السابق ،ص 87.

[7] نواب ، المرجع السابق ، ص ص76-88

[8] عبد القادر زمامة، "الرحلة المغربية صلة علم وحضارة" ، مجلة كلية الآداب بفاس، ع8، المغرب، 1986م، ص 8.

اهتماماتهم وتفاوتت درجات ملاحظاتهم فإنّ ذلك أدى إلى بروز مصنفات متنوعة المضامين أضحت من أهم مظاهر الحركة الأدبية في المغرب العربي في العصور الحديثة .

لقد خلّف الرحالة المغاربة الكثير من الرحلات الشاهدة على أسفارهم إلى الأماكن المقدسة مسجلين فيها تجاربهم في تجاوز المصاعب والتقاط النوادر والدراسة على المشايخ والعلماء و التبرك بالمزارات مع وصف الطرق والمسالك ورصد أحوال البلدان والمدن التي مرو عليها، ولهذا فإنّ قائمة العلماء المغاربة الذي رحلوا إلى المشرق سواء من أجل الحج أو طلب العلم لاتعد ولاتحصى[1]، فهي من أهم القرائن الدالة على عمق التواصل الثقافي والاجتماعي بين المشرق والمغرب العربي خلال العهد العثماني، وإذا ما حاولنا التعرف على أهم ما أنتجه الرحالة المغاربة في العهد العثماني من رحلات فإننا نقف على حقيقة هامة هي أن هذا النوع من التدوين قد ظهر بشكل مبكر عند علماء المغرب الأقصى مقارنة بعلماء الجزائر وتونس الذي تأخر ظهوره بهما إلى حوالي القرن الثامن عشر ميلادي [2].

فأمّا بالنسبة للمغرب الأقصى يرى محمد الفاسي أنّ أغلب الرحلات التي دونت في العصر الحديث تعود إلى فترة حكم الدولة العلوية، وهذه الرحلات أخذت أشكالا متنوعة، ولكن الجزء الكبير منها ينتمي إلى صنف الرحلة الحجازية فهي الأكثر توفرا [3]، ونبتدأ القائمة الطويلة من هذه الرحلات بأهم رحلة عرفها القرن السابع عشر ميلادي وهي رحلة أبو سالم العياشي المعروفة بالرحلة العياشية إلى الديار النورانية أو" ماء الموائد" التي دونت سنة 1663م .

تعد هذه الرحلة من أمتع الرحلات وأكثرها فائدة، فهي نتاج رحلاته الثلاث التي قام بها إلى المشرق العربي، تمتاز هذه الرحلة بطابعها الموسوعي فقد أرادها مؤلفها أنّ تكون ديوان علم وأدب، وقد أفصح عن الهدف الأساسي من تدوين رحلته فيذكر في هذا السياق:" أنّ قصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أنّ تكون ديوان علم وأدب لا كتاب سمر وفكاهة وإن وجد الأمران معا فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها " [4].

احتلت هذه الرحلة مكانة كبيرة في التراث المغربي، فقد اعتبرت من أهم الرحلات المغربية، ذلك أنها كانت مرجعا ومصدرا أساسيا لكثير من الرحالة ممن – جاؤوا من بعده- والذين نهلوا منها وأخذوا عنها

---

[1] عز المغرب معنينو، **الرحلات الحجازية المغربية في ظل الحماية الفرنسية رحلة ادريس الجعيدي السلوي سنة 1930** نموذجا، السودان وافريقيا في مدونات رحالة الشرق والغرب اكتشاف الذات والاخر، أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين ، دورة ابن حوقل، الخرطوم، 2006م، ص 202.

[2] عبد الحميد الأرقش وآخرون، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر**، دط، مركز النشر العربي، دب ن، 2003،ص 291.

[3] محمد الفاسي،" الرحالة المغاربة وأثارهم "، مجلة دعوة الحق ، ع4، وزارة عموم الأوقاف، المغرب، 1959م ، ص 22.

[4] العياشي ، **الرحلة** ... ، المصدر السابق، ج 1، ص 13.

ومن هؤلاء الرحالة تلميذه أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الذي ضمت رحلته مباحث كثيرة مطابقة لما جاء في رحلة العياشي، ومنهم كذلك الحسين بن محمد الورتلاني مؤلف "رحلة نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" إضافة إلى كل من محمد بن عبد السلام الناصري ومحمد ابن كيران [1].

تتجلى أهمية رحلة العياشي في ما احتوته من معطيات ومواضيع متنوعة فضلا عن الوصف الدقيق لمناطق المشرق العربي في القرن السابع عشر كالحجاز ومصر والقدس الشريف، وهو ما ساعد على استجلاء المظاهر السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية بها ما جعل الرحلة تعد سجلا تاريخيا وأدبيا ارتسمت فيه صورة المشرق العربي من مختلف النواحي[2]، فالدارس للرحلة يقف على معطيات هامة تتعلّق بمنازل الحج ومشاعره المقدسة وبمسالك الطريق ومحطاتها فضلا عن أخبار ركب الحج المغربي ورصد أحوال البلدان وعوائد الناس الاجتماعية وذكر للمعالم الجغرافية والمعاملات التجارية مع عناية خاصة في رصد تراجم العلماء والأدباء ومظاهر الحركة العلمية في العهد العثماني [3].

وإلى جانب رحلة العياشي عرف العهد العلوي ظهور رحلات مغربية أخرى غاية في الأهمية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :رحلة ابن مليح السراج:" **أنس الساري السارب من أقطار المغارب إلى منتهى الأمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب**" و "رحلة أبي محمد بن عبد المجيد بن علي الزبادي المنالي " **بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام**" و رحلة الرافعي التطواني" المعارج المرقية في الرحلة المشرقية" 1684م ، و رحلة أحمد بن محمد أحزي الهشتوكي[4] " **هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام والوقوف بالمشاعر العظام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام 1684م**"، كما نجد من الرحلات المنظومة أيضا الرحلة العامرية التي دونها محمد بن الحاج منصور ابن أحمد العامري وهي تشتمل على 335 بيتا منشورة في كتاب من حديث ركب الحج المغربي [5].

---

[1] محمد أمحزون، **المدينة المنورة في رحلة العياشي**، ط1، دار الأرقم للنشر والتوزيع ، الكويت ، 1988م، ص 76.

[2] شرف، المرجع السابق، ص 86 .

[3] أمحزون، المرجع السابق، ص 79.

[4] أحمد بن محمد الهشتوكي: هو أحمد بن داود بن يعزي بن يوسف الجزولي التملي، ينتسب إلى مدينة درعة بالمغرب الأقصى ، ارتحل إلى الحجاز وألف رحلته الحجازية، من أهم مؤلفاته: إنارة البصائر في ذكر مناقب الإمام ابن ناصر وأتباعه الأكابر، و" قرى العجلان على إجازة الأحبا والإخوان. للمزيد أنظر العباس بن ابراهيم السملالي، **الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، ج2، ط2، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1993م ، ص ص 352،353.

[5] للتوسع أكثر في الرحلات المغربية التي عرفها العهد العلوي أنظر: المنوني، **المصادر العربية**... ،المرجع السابق، ص ص 187- 190.

ومن رحلات القرن التاسع عشر تبرز رحلة محمد التمراوي[1] التي ألفها عن حجته عام 1242هـ 1827م ، وقد طبع نصها كاملا ضمن كتاب المعسول [2].

نلاحظ من خلال الرحلات المغربية التي تم عرضها أنّ جلها ينتمي إلى صنف الرحلات الحجازية، غير أنّ العصر العلوي عرف نوعا أخر من الرحلات والذي أخذ طابعا مختلفا وبالأخص التي دونت بعد منتصف القرن الثامن عشر وهي الرحلات السفارية التي ارتبطت بأداء مهمات سياسية، ومن أهم هذه الرحلات التي ظهرت في هذا العصر رحلة ابن عثمان المكناسي إلى اسطنبول " **إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب**"، أما الرحلة السفارية الثانية فهي لأبو القاسم الزياني وهي موسومة بـــ :"**الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا** ".

والجدير بالذكر أن هذه الرحلات، وإن كانت رحلات سفارية فهي في مضامينها رحلات حجازية أيضا فقد جمع الرحالة فيها بين الهدف السياسي والهدف الديني، وهذا ما نلاحظه في رحلة المكناسي التي وصف فيها الحجاز والأقطار العربية التي زارها[3] .

إنّ إسهامات علماء المغرب الأقصى في أدب الرحلة كان كبيرا فقد شكلت الرحلة عنصرا مهما في الثقافة المغربية وبالأخص في الفترة الممتدة ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر التاسع عشر ميلادي حيث نلاحظ أنّ الرحلات قد تعددت وتنوعت، فإلى جانب الرحلات الحجازية التي اشتهر بها المغاربة اختص المغرب الأقصى برحلات أخرى كانت تتم في كنف السلطة، وهذه الرحلات توجهت أغلبها نحو أوروبا والدولة العثمانية وذلك في ظل سياسة الانفتاح التي انتهجتها الدولة العلوية، وعليه فإنّ ما أنتجه الرحالة من مصنفات يعبر بشكل جلي على مدى شيوع الرحلة وأهميتها في المجتمع المغربي .

وإذا كان المغرب الأقصى قد حقق السبق في تدوين الرحلات الحجازية، فإن المغرب الأوسط قد عرف هو الآخر اهتماما بهذه الرحلات، غير أنّ ما أنتجه علماءه من مصنفات يعد قليلا مقارنة بما ألفه علماء

---

[1] محمد التمراوي: هو محمد بن محمد التمراوي الإدريسي، من كبار علماء مدينة سوس بالمغرب الأقصى، أخذ العلم عن العربي الادوزي، كما أجازه كبار العلماء المشارقة ، كان له باع كبير في الفقه وله عدة مخطوطات ، توفي سنة 1868م. للمزيد أنظر: محمد مختار السوسي، **المعسول**، ج8، د د ن، المغرب، دت ، 197.

[2] للإطلاع على نص الرحلة أنظر : محمد مختار السوسي ، نفسه ، ص 198 .

[3] الغاشي، **الرحلة المغربية** ...، المرجع السابق، ص ص 346،347.

المغرب، ولعلّ ذلك يرجع إلى سبب مهم هو ضياع هذه الرحلات من جهة وعدم عودة بعض الرحالة من أمثال عيسى الثعالبي ويحي الشاوي[1] إلى موطنهم لتدوين رحلاتهم من جهة ثانية[2] .

تعود معظم الرحلات الحجازية التي عرفها العهد العثماني إلى القرن الثامن عشرميلادي حيث نجد أبوالقاسم سعد الله يميز بين نوعين من هذه الرحلات فهناك رحلات منظومة ورحلات نثرية، فأما بالنسبة للرحلات المنظومة فإننا نجد بعضها قد دون بالشعر الملحون وبعضها بالشعر الفصيح[3] .

ويكفى أن نشير في هذا الصدد إلى رحلات كل من عبد الرحمن بن محمد ابن خروب المجاجي[4] و رحلة ابن مسايب التلمساني[5]، وأمَا بالنسبة للصنف الثاني وهو الرحلات النثرية فنشير إلى رحلة أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني الموسومة" **بالروضة الشهية في الرحلة الحجازية"** ورحلة ابن عمار " **نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب** "و رحلة أبي راس الناصري[6] " **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته** "، غير أنّ أهم رحلة حجازية شهدها القرن الثامن عشر هي رحلة الورتلاني **"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"** فهي من أكثر الرحلات التي اهتمت بالسرد التاريخي والوصف الجغرافي المتعلق بالمشرق العربي في العهد العثماني [7].

ومما لا شك فيه أنّ رحلات الحجازية التي دون فيها المغاربة مشاهداتهم وملاحظاتهم قد مثلت أهم مصدر ارتسمت فيه صورة المشرق العربي عامة ومصر والحجاز على وجه الخصوص، فقد تفاوتت اهتمامات

---

[1] يحي الشاوي: هو يحي بن محمد بن محمد الشاوي النائلي، أحد علماء الجزائر في القرن الحادي عشر، تلقى العلوم الدينية كالفقه والحديث والتفسير في زاوية أبهلول المجاجي ، تولى مهمة التدريس في الجزائر ، ارتحل إلى المشرق العربي حيث زار العديد من المناطق كالحجاز وبلاد الشام واسطنبول، اشتهر بمكانته العلمية كبيرة في المشرق حيث أسندت إليه مهمة التدريس بالأزهر الشريف كما تولى أيضا وظيفة الإفتاء بمصر. للمزيد أنظر: أبو القاسم سعد الله ، **تاريخ الجزائر الثقافي 1500**–1830 ،ط1، ج2، د.غ.إ، 1998م ،ص ص 103-106.

[2] نفسه ، ص 382.

[3] أبو القاسم سعد الله ، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر** ،ج1، طبعة خاصة ، دار البصائر ، الجزائر، 2007م، ص ص 179،180.

[4] المجاجي : هو عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي، لانكاد نعثر على ترجمة وافية له سوى ماورد في رحلته المنظومة، عاش في القرن 17م، تتلمذ على نخبة من العلماء من أمثال محمد بني علي أبهلول ، ومن شيوخه المشارقة علي أجهوري وأبو سلطان المزاحي ، كانت له عناية بالتصوف والأدب والتاريخ ، من أشهر مصنفاته رحلته المنظومة وهي مبتورة في جزءها الأول. للمزيد أنظر: عبد الرحمن بن محمد بن الخروب، **رحلة المجاجي**، تح: سعاد آل الشيخ، ط1، مركز جمعة ماجد للثقافة والشؤون الخارجية ، الإمارات العربية، 2017م، ص ص19-23.

[5] ابن مسايب : هو أبو عبد الله محمد ابن مسايب التلمساني ، ينتسب إلى أسرة أندلسية استقرت بتلمسان في القرن الثامن عشر ،ارتحل إلى مكناس ثم أدى مناسك الحج ، اشتهر بنظم الأشعار والقصائد في الزهد و التصوف ،من أهم أثاره نجد رحلته التي دونها على شكل قصيدة والتي وصف فيها طريق الحج وأهم محطاته ، توفي عام 1776م. للمزيد أنظر : سعيدوني ،المرجع السابق ، ص ص 405-408.

[6] أبو راس الناصري: هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد أحمد بن ناصر الجيجلي المعسكري ،ولد سنة 1773م ،تلقى تعليمه على يد عبد القادر المشرفي ،تولى التدريس ومهنة القضاء ،قام بالعديد من الرحلات زار فيها الحجاز ومصر وبلاد الشام ، من أهم مؤلفاته زهرة الشماريخ في علم التاريخ ،والحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية .للمزيد أنظر: سعيدوني، نفسه، ص ص 460-462.

[7] سعد الله ، **تاريخ الجزائر**...، المرجع السابق، ص ص 391- 395.

هؤلاء الرحالة ،كما اختلفت درجات ملاحظاتهم الأمر الذي جعل من مصنفاتهم تعد مصدرا تاريخيا لاغنى عنه في دراسة تاريخ هذه المنطقة خصوصا وأنها اتسمت بالشمولية، فهذه الرحلات نجدها قد جاءت في فترات متلاحقة وهو ما ساعد على معرفة ورصد التحولات التي شهدها المشرق العربي خلال القرنين 18و 19م .

5. نماذج عن أهم الرحلات الحجازية المغاربية إلى مصر والحجاز خلال القرنين 18و19م :

يصعب على الباحث حصر عدد الرحلات المغاربية المدونة التي استهدفت وصف المظاهر الحضارية بمصر والحجاز في العهد العثماني، ذلك أنّ هذه المصادر الدفينة لا يزال بعضها مفقودا وضائع وما حقق منها لا يمثل إلا نسبة قليلة من عدد كبير من الرحلات المخطوطة الموجودة بالخزائن العامة أو الخاصة التي لاتزال تنتظر النور، وفي عرضنا هذا سوف نركز على ذكر بعض النماذج المهمة من الرحلات الحجازية التي تمت خلال القرنيين18/ 19م[1]، والتي عكست نصوصها فترة تاريخية مهمة من تاريخ البلاد العربية، وذلك لما تضمنته من معطيات متنوعة كشفت الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري لهذه لمناطق، والجدير بالذكر هنا أنّ اختيارنا لهذه الرحلات عن غيرها يعود بالدرجة الأولى إلى أهميتها وقيمتها العلمية فهي تمثل أكثر الرحلات التي ارتسمت فيها صورة مصر والحجاز خلال القرنين 18 و19م، ومن بين هذه الرحلات نذكر :

1.5 رحلة أحمد بن ناصر الدرعي

أ. التعريف بصاحب الرحلة :

يصعب على الباحث إيجاد ترجمة وافية لأحمد بن ناصر الدرعي، ذلك أنّ كتب التراجم لم تقدم سوى إشارات قليلة عن هذه الشخصية رغم المكانة التي كان حضيت بها، وبالرجوع إلى هذه المصادر فإن صاحب هذه الرحلة نجده ينتمي إلى الزاوية الناصرية[2] التي اضطلعت بدور كبير في تكوبن شخصيته العلمية والصوفية[3]

يذكر القادري في ترجمته له أنه "الشيخ أبو العباس أحمد ابن أبي عبد الله بن محمد الحسين بن ناصر الدرعي الأغلابي، ولد بمنطقة تامكروت الواقعة بإقليم درعة حوالي سنة 1057هـــ- 1647م، أما وفاته فكانت عام1129 هـــ 1717م[4] .

---

[1] أنظر الملحق رقم 02، ص 380

[2] الزاوية الناصرية: تقع هذه الزاوية بتامكروت على ضفاف وادي درعة، أسست من طرف أبو حفص عمر بن أحمد الأنصاري سنة 1576م، أشرف عليها العديد من المشايخ من أمثال:أحمد بن ابراهيم الأنصاري وأبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي، كانت مركزا للتدريس ونشر العلم، وأضحت مركز للإشعاع الثقافي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر هجري، تخرج منها الكثير من العلماء منهم: أبو علي اليوسي وأبي سالم العياشي. للمزيد أنظر: محمد حجي، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، ط2، م.ن.ج ، المغرب، 1988م، ص ص 60،61.

[3] الغاشي، **الرحلة المغربية ...**، المرجع السابق، ص 187.

[4] محمد ابن الطيب القادري، **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر**، تح: هاشم قاسم علوي، ط1، منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت، 1983م، ص ص212، 313.

نشأ أبو العباس بن ناصر الدرعي في أُسرة اشتهرت بالعلم والصلاح وبالمكانة الاجتماعية والدينية[1]، تلقى تعليمه على يد والده الذي كان شيخا للزاوية النَاصرية، فجمع بين علوم التفسير والحديث واللغة وأصول الدين، كما تتلمذ كذلك على يد الكثير من الشيوخ بالمغرب من أمثال "أبي سالم العياشي" و"أبي عبد الله ابن أبي الفتوح التلمساني" و"أبي العباس الأحزي الجزولي" [2]، ولم يقتصر أحمد بن ناصر الدرعي في تعليمه على علماء المغرب فحسب، بل كانت له رحلات إلى بلاد المشرق التقى فيها بكبار العلماء والفقهاء الذين أخذ عنهم وأجازوه في مختلف العلوم ومنهم "ابراهيم بن الحسن الكوراني "و" عبد الله بن سالم البصري وغيرهم"[3] .

كان أحمد بن ناصر الدرعي من كبار العلماء في عصره نتيجة للثقافة الموسوعية التي اكتسبها وقد أهله ذلك لخلافة والده حيث تولى مشيخة الزاوية سنة1085هـ[4]، كما ذاعت شهرته واكتسب مكانة مهمة في المغرب والمشرق، حيث يصفه القادري في مؤلفه بأنه:" كان عالما نحويا لغويا مؤرخا يقيد الشوارد ويحفظ الفوائد"[5]، ومما قيل فيه أيضا أنه "كان إمام وقته علما وعملا قوالا بالحق، شديد الشكيمة على أهل البدع، لا تأخذه في الله لومة لائم، مقبلا على ما يعينه، متابعا للسنة في أقواله وأفعاله، حريصا على إحياء السنن وإماتة البدع" [6].

اشتهر أحمد بن ناصر الدرعي علاوة على ذلك باهتمامه الكبير بنشر العلم و المعرفة، حيث تذكر العديد من المصادر أنه كان حريصا على إثراء مكتبة الزاوية النَاصرية بنفائس الكتب والمؤلفات النادرة سواء عن طريق الاستنساخ أو الاقتناء، وهو ما جعل من زاويته منبرا علميا ومركزا ثقافيا استقطب العلماء من كل صوب[7].

---

[1] الدرعي، المصدر السابق، ص 11.

[2] محمد بن أحمد الحضيكي، **طبقات الحضيكي**، تح: أحمد بومزكو، ج1، ط1، م.ن.ج، الرباط، 2006م، ص 87.

[3] عبد الحي بن الكبير الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، ج1، ط2، د.غ.إ، بيروت، 1982م، ص 679.

[4] مفتاح ابراهيم منصور، **الرحالة العرب...**، المرجع السابق، ص 68.

[5] محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر** ، تح: محمد حجي، ج3، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، الرباط، 1986م، ص 234.

[6] محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، تح: عبد المجيد خيالي، ط1، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، 2004م، ص 364.

[7] تذكر بعض المصادر أن لأحمد بن ناصر الدرعي الفضل في إدخال كتاب اليونينية إلى المغرب، حيث قام بجلبه من المشرق والكتاب يضم عشر أسفار وهو من تأليف ابراهيم بن علي القيصري المكي الحنفي، للمزيد أنظر: الكتاني، المرجع السابق، ص ص 677- 678.

يتضح من خلال هذه الأوصاف أنّ أحمد بن ناصر الدرعي تميز بثقافة دينية وأدبية واسعة ومرد ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها، حيث كان أحد أهم أعلام الزاوية الناصرية التي كانت خلال القرن الثامن عشر تمثل مركزا من مراكز الإشعاع الحضاري والفكري بالمغرب[1].

خلف الدرعي أثار ومصنفات أدبية متنوعة تعكس ثقافته ومكانته العلمية خلال الثامن عشر ميلادي وهذه المصنفات هي:

- أجوبة فقهية بعنوان تنبيه السائل ببعض ماهو عن السائل.
- تجديد المراسم البالية في السيرة الحسنة العالية وهو كتيب في السيرة النبوية.
- الرحلة الشامية وهي تتعلّق برحلة أخيه محمد بن محمد بن ناصر.
- إشفاء المريض في بساطة القريض وهو عبارة عن ديوان شعري. [2].
- رسالة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.
- كتيب في الطريقة.
- مجموع رسائل.
- ترجمة والدته السيدة حفصة.
- فهرست[3].

ب.التعريف برحلته إلى المشرق :

قام أحمد بن ناصر الدَرعي بالعديد من الرحلات منها ما كان داخل المغرب[4]، ومنها ماكان نحو المشرق العربي، فأمَا بخصوص رحلاته الحجازية فإنّ كتب التراجم تجمع على أنه حج أربع مرات، حيث كانت رحلتة الأولى نحو البقاع المقدسة برفقة والده سنة 1076هـ- 1666م، وكانت حجته الثانية سنة 1096هـ-1684م، في حين كانت حجته الثالثة عام 1009هـ-1697م، وأما فيما يتعلّق برحلته الأخيرة فيعود تاريخها إلى عام1121هـ/ 1709م[5]، وحسب ما ورد في كتاب طلعة المشتري فإن أحمد بن ناصرالدرعي قد خص

---

[1] ماكامان، المرجع السابق، ص 215.

[2] محمد المكي بن موسى بن ناصر الدرعي، **الدرر المرصعة بأخبار أعيان أهل درعة** ، ج2، مخطوط ، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، ص 174.

[3] الدرعي، **الرحلة الناصرية**، المصدر السابق، ص 34.

[4] تنقل أحمد بن ناصر الدرعي بين حواضر المغرب، فشملت رحلاته مدينة سجلماسة و مكناسة وفاس ومراكش. للمزيد أنظر: الدرعي، نفسه،ص 26.

[5] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **طلعة المشتري في النسب الجعفري**، ج2، طبعة حجرية، المؤسسة الناصرية للثقافة والعلم، دت، ص 78.

كل رحلة بالتدوين غير أنّ المعروف والمتداول من هذه الرحلات هو الرحلة الأخيرة التي جمع فيها وقائع رحلاته الحجية الأربعة [1].

وبالعودة إلى تفاصيل هذه الرحلة المهمة نجد أنها تمت بين عامي 1709م –1710م حيث شرع أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته يوم الخميس 24 جمادى الأولى 1121هـ وانتهت برجوعه إلى المغرب الأقصى في 6 من شهر رمضان 1122هـ، وبالتالي دامت هذه الرحلة حوالي 15 شهرا زار من خلالها العديد من الأقطار العربية انطلاقا من سجلماسة[2] ومرورا بالمغرب الأوسط وطرابلس الغرب ووصولا إلى مصر والحجاز[3].

تندرج رحلة أحمد بن ناصر الدرعي ضمن الرحلات الحجازية، فهو يشير في مطلع رحلته إلى الهدف المرجو منها، والذي يكمن في رغبته في أداء مناسك وزيارة قبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، إذ نجده يسهب في وصف أشواقه وحنينه لزيارة تلك البقاع حيث يقول في هذا الصدد: "ولما كان عام تسعة عشر ومئة وألف تتابعت زفراتي وأنيني وكثر اشتياقي وحنيني إلى تكحيل إنسان العينين بمشاهدة مشاهد الحرمين"[4].

ضّمن أحمد بن ناصر الدرعي مشاهداته وملاحظاته وتجربة سفره إلى الحجاز ومصر في مصنفه الشهير الذي يحمل عنوان "الرحلة الناصرية"[5]، وقد اعتمد في تدوينها على رحلة أبي سالم العياشي "ماء الموائد"[6] إذ ضمت معطيات هامة تتعلّق بالمسالك وبالعلماء الذين اشتهروا بمصر والحجاز في مطلع القرن الثامن عشر، وهذه الرحلة تعد من أهم الرحلات المغربية وأكثرها فائدة، ونظرا لتلك للأهمية التي اكتسبتها هذه الرحلة فقد طبعت على الحجر بفاس سنة 1320هـ– 1902م،كما حضيت باهتمام الكثير من الباحثين منهم" بربريجا" الذي قام بترجمة جزء مختصر منها إلى اللغة الفرنسية،كما أننا نجد كذلك الباحث حسين فهمي خشيم الذي قام بدوره في سنة 1974م بنشر الجزء الخاص منها بليبيا في الكتاب الذي حمل عنوان "الحاجية"[7].

---

[1] عبد العزيز آيت المكي، **الرحلات الدرعية إلى الديار الحجازية محاولة ببيليوغرافية**، ضمن أبحاث ندوة الرحلات الدرعية إلى الديار الحجازية المنعقدة بزاكورة يومي 23و24أكتوبر 2015م ، المملكة المغربية ، ص45.

[2] أنظر الملحق رقم 03 : ص 382.

[3] الدرعي ، المصدر السابق ، ص 17.

[4] نفسه، ص 82.

[5] أنظر الملحق رقم 04، ص 383 .

[6] إن اعتماد أحمد بن ناصر الدرعي على أجزاء كبيرة من رحلة العياشي لا يقلل من أهمية رحلته، بل تدخل هذه النقول في إطار الجهود المبذولة لنشر المعرفة وتخليد آثار الشيوخ والتعريف بإنتاجهم الأدبي، فأحمد بن ناصر الدرعي في رحلته ينسب ما نقله إلى رحلة ابي سالم العياشي، وهذا ما ساعد على حفظ قسط كبير من التراث الأدبي. للمزيد أنظر: ماكامان، المرجع السابق، ص219.

[7] نفسه ، ص ص 218،219.

ج . **القيمة العلمية للرحلة :**

الرحلة الناصرية من أهم الرحلات المغربية المدونة خلال القرن الثامن عشر ميلادي، إذ تشتمل على معارف وموضوعات متنوعة، فالمتصفح لهذه الرحلة يجد أنها تتسم بالطابع الموسوعي، فهي تضم إلى جانب المعلومات التاريخية معطيات جغرافية واجتماعية واقتصادية وثقافية، تتعلّق بالمناطق التي شملتها الرحلة سواء تعلّق الأمر بالمغرب أو المشرق العربي.

وليس هذا فحسب بل إنّ الرحلة إضافة إلى كونها نص تاريخي مهم، فهي تعتبر أيضا نص أدبي باعتبارها مصدرا لكثير من النصوص النثرية والشعرية، والتي يمكن أن يكون بعضها الشاهد الوحيد عليها نظرا لاندثار أصولها وأثرها، ويكفي أن متن هذه الرحلة يضم حوالي 1400 بيت شعري، فيها من النوادر والأخبار ما يجعلها ديوانا أدبيا يضم مختلف أغراض الشعر[1].

انتهج الناصري في تدوين رحلته الأسلوب القصصي، وعلى الرغم من سمة التكرار والاستطراد الذي يكتنف مضمونها، إلا أنها تبقى مصدرا هاما يؤرخ للعالم الإسلامي في القرن الثامن عشر، نظرا لقيمتها العلمية الكبيرة [2]، فالرحلة يمكن الإستفادة منها في عدّة جوانب، فمن خلالها يمكن التعرف على تراجم العلماء والفقهاء والصلحاء الذي ذاع صيتهم في تلك الحقبة، وقد خصص أحمد بن ناصر الدرعي حيزا كبيرا في رحلته للحديث عن هؤلاء العلماء وإنتاجهم العلمي والأدبي، خاصة علماء مصر والحجاز، فترجم للشيخ محمد بن سالم الروداني، وعبد الرحمن الأخضري، وأحمد الهشتوكي وغيرهم من علماء ذلك العصر الذين لانجد لهم أي ذكر في كتب التراجم والمناقب[3] .

تكمن أهمية الرحلة الناصرية أيضا في أنها احتوت على أخبار المدن وعجائب الأمصار، فأحمد بن ناصر الدرعي كان حريصا في رحلته على التعريف بالمدن وبالمناطق التي مرَ عليها، فقدم وصفا دقيقا لمظاهرها وخصائصها الجغرافية والطبيعية والعمرانية، وقد يتعدى في بعض المرات حديثه عن المدن مستوى تحديد الموقع ووصف المظاهر إلى البحث في أصل تسميتها و التطرق إلى المراحل التاريخية التي مرّت بها[4]، وبالتالي يمكن

---

[1] محمد صلاح الدين بنان، "أدب الرحلات من خلال مظاهر من الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة 1661م-1710"، مجلة: مركز بابل للدراسات الانسانية، مج 9، ع 1، 2019م ، ص8.

[2] مفتاح ابراهيم منصور، المرجع السابق، ص69.

[3] محمد كنون، **فوائد علمية وحقائق تاريخية من خلال الرحلة الناصرية لأحمد بن ناصر الدرعي**، ضمن أبحاث ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة المولى اسماعيل، مكناس، 1993م، ص 357.

[4] نفسه، ص 360.

التعرف على الأحداث والوقائع التاريخية التي شهدتها تلك المناطق، والتي عاصرها الدرعي أثناء حجته ومن ذلك حديثه عن الحصار الذي فرضه الفرنسيين على طرابلس الغرب سنة 1684م[1].

من المواضيع المهمة التي يمكن استيقاؤها من الرحلة كذلك، هي الأحاديث النبوية المتعلقة بمختلف المسائل الدينية التي عرضها في رحلته، علاوة استنباط مختلف الأحكام الفقهية حول العديد من المسائل المستحدثة كمسألة الدخان وشرب البَن[2] التي كانت محل جدل كبير في القرن الثامن عشر، فهو في هذا الشأن يصف تلك الظاهرة الدخلية على المجتمع العربي و يذكر مواقف العلماء التي تباينت حولها [3] .

إنّ ما يميز الرحلة الناصرية أنها ذات طابع صوفي، وتظهر هذه السمة بشكل جلي في الرحلة التي حفلت بذكر الزوايا والمزارات والمساجد وأقطاب الصوفية، وعليه فإنّ الرحلة قد انعكست فيها شخصية أحمد بن ناصر الدرعي الذي كان أحد أعلام الزاوية الناصرية في المغرب [4].

وعلى الرغم من ذلك فإنّ الرحلة تعكس ثقافة أحمد بن ناصر الدرعي وغزارة معارفه في مختلف العلوم، فهي تصور أفكاره الإصلاحية وتبين مواقفه في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والفقهية [5]، وعلى الرغم كذلك من أنّ هذه الرحلة قد اعتمد أحمد بن ناصر الدرعي في تدوينها على رحلة أبي سالم العياشي بحيث ضمت الكثير من المواضيع المشابهة، فهي تبقى رحلة في غاية الأهمية فهي نص تاريخي وأدبي فيها من المعارف التاريخية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية مما يخص العالم العربي في مستهل القرن 18م الشي الكثير [6]، وهو ماجعلها مصدرا لكثير من الرحالة الذين أخذوا عنها ومنهم الرحالة الحسين الورتلاني الذي اعتمد عليها في رحلته الموسومة "**بزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**" .

[1] الدرعي، المصدر السابق، ص ص 178، 179.

[2] نواب ، المرجع السابق، ج1، ص 82.

[3] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 287-293.

[4] الغاشي، **الرحلة المغربية** ...، المرجع السابق، ص ص 189،190.

[5] الدرعي ، المصدر السابق، ص 38.

[6] آيت مكي، المرجع السابق، ص 45.

2.5 رحلة الورتلاني 1179هـ- 1766م:

أ. التعريف بصاحب الرحلة :

هو الحسين بن محمد السعيد ابن الحسين ابن محمد ابن عبد القادر ابن أحمد الشريف ابن علي البكاي البجائي، يرجع أصله إلى شرفاء مدينة تافيلالت بالمغرب الأقصى[1] .

ولد الحسين الورتلاني بقرية آنو ببني ورتلان في سنة 1125هـ- 1713م، في أسرة اشتهرت بالعلم والصلاح، فوالده وجَده كانا من بين أهم علماء المنطقة في القرن السابع عشر ميلادي [2].

كان التكوين العلمي للورتلاني تكوينا دينيا، إذ حفظ القرآن الكريم و تعلم مبادئ الدين في المدرسة القرآنية التي كان يشرف عليها والده،كما أخذ العلم عن شيوخ الزوايا في منطقته وفي طلعيتهم "الشيخ علي ابن أحمد بن عبد الله" و"الشيخ أحمد زروق ابن الشيخ العنابي"، وبذلك تضلع الورتلاني في علوم الفقه والتوحيد والصرف والأدب والنحو[3].

انتقل الورتلاني بعد أن أتم تعليمه بمسقط رأسه إلى مناطق عديدة كتلمسان والجزائر العاصمة والبليدة وبسكرة سعيا لاكتساب العلوم الشرعية، فأصبح من كبار العلماء البارزين حيث تولى التدريس وأضحى مقصدا للطلبة الذين توافدوا عليه من مختلف الجهات نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد ابن الفقيه ويحي بن حمزة ومحمد السكلاوي وغيرهم من الطلبة ممن تقلدوا فيما بعد وظائف دينية هامة [4].

ارتحل الورتلاني إلى المشرق العربي ثلاث مرات لأداء مناسك الحج فزار مصر والحجاز ، وقد أتاحت له هذه الرحلات فرصة تنمية معارفه وتوسيع ثقافته حيث التقى بكبار العلماء والفقهاء خاصة بالأزهر الشريف فأخذ عنهم العلوم الفقهية ومن أهم الشيوخ الذين أجازوه نجد أبو القاسم الربيعي والشيخ الحفناوي والجوهري والنفراوي و خليل الأزهري و عمر الطحلاوي و الشيخ الهاشمي، إضافة إلى الشيخ الزياتي والعفيفي وغيرهم[5] .

تمتع الورتلاني بمكانة مرموقة في عصره إذ وصفه أبو القاسم الحفناوي صاحب كتاب التعريف الخلف برجال السلف: "بأنه الإمام العالم، العلامة، الكامل، الأستاذ الهمام، شيخ مشايخ الأعلام، الورع

---

[1] يحي بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، ج1، ط1، د.غ.إ ، بيروت، 1995م، ص 44.

[2] سعد الله، **تاريخ الجزائر** ...، المرجع السابق، ص 394.

[3] بوعزيز، المرجع السابق، ص 45.

[4] عبد المنعم القاسمي الحسني، **أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى دراسة احصائية تحليلية** ، ط1، دار الخليل القاسمي، الجزائر، 2005م، ص 144.

[5] الحسين بن محمد الورثلاني، **الرحلة الورثلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، ج1، تح محمد بن شنب، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008م، ص 8.

الزاهد، الصالح العابد، المتبع لأثر الرسول، الجامع بين المعقول والمنقول، بحر الحقائق، وكثير الدقائق، مفيد الطالبين ومربي السالكين وقدوة العلماء العاملين وبقية السلف الصالحين ... نادرة الزمان وبركة المسلمين في كل عصر وأوان "[1]، وأمّا صاحب كتاب شجرة النور الزكية فقال عنه:" العلامة المحقق، المؤلف المدقق، الصوفي، الزكي ، الفاضل، العارف بالله، الواصل الولي، الصالح القدوى، الناصح من بيت مشهود بالعلم والفضل ...كان كثير الكرامات، صادق اللهجة ، مستقيم الحجة" [2].

انصب اهتمام الورتلاني على التصوف والزهد، إذ عُرف عنه ارتباطه الكبير بالطريقة الشاذلية[3]، حيث كانت عنايته كبيرة بزيارة الأولياء الصالحين ومختلف المزارات الدينية الأخرى والتبرك بها، وإلى جانب ذلك اهتم الورتلاني بمحاربة البدع والخرافات المنشرة ودعى إلى اتباع تعاليم الإسلام الصحيحة [4]، والجدير بالذكر أنّ اهتمام الورتلاني بالزهد والتصوف ليس بالشيء الغريب خصوصا إذا علمنا أنّ الفترة التي عاصرها قد عرفت انتشار ظاهرة التصوف التي طغت على كافة الميادين وبالأخص في القرن الثامن عشر ميلادي.

توفي الورتلاني في مسقط رأسه ببني ورتلان عام 1193هـ / 1779م وقد خلف ورائه تراثا أدبيا متنوعا عكس مكانته وشهرته التي فاقت حدود موطنه [5].

للورتلاني العديد من المؤلفات والمصنفات التي شملت مختلف أصناف المعرفة فالورتلاني ألف في الفقه والتفسير والتاريخ، وإن كان يغلب على معظم تصانيفه الطابع الصوفي باعتبار أنّ الفترة العثمانية التي عاصرها الورتلاني قد عرفت شيوع هذه الظاهرة التي انعكست على الحركة العلمية والأدبية عامة، وعليه جاءت معظم مؤلفات الورتلاني تندرج ضمن الشروح والقصائد والتفسير ومن هذه المؤلفات نذكر:

- شرح المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخضري في التصوف
- كتاب شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار.
- شرح محصل المقاصد للأمام أبي العباس أحمد بن زكريا لتلمساني .
- شرح حاشية السكتاني
- شرح كتاب الصلاة

---

[1] أبو القاسم محمد الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، طبعة بيار فونتانة ، الجزائر، 1906م ، ص 133.

[2] محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، تعليق: عبد المجيد خيالي، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003م ، ص 513.

[3] عبد المجيد بوجلة، **رحلة الورتلاني إلى مصر**، الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمون أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين إكتشاف الذات والآخر، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م، ص 254.

[4] نفسه، ص 254.

[5] التازي، **رحلة الرحلات**...، المرجع السابق، ص 375.

- شرح الخطبة الصغرى للسنوسي
- رسالة في قول بعض الأولياء " نسجت برنسا من ماء" وأخرى " وقفت على ساحل وقفت الأنبياء دونه" .
- شرح لبردة البويصري[1]

ومن أعماله الشعرية نجد قصيدة في مدح النبي عليه الصلاة والسلام تضم حوالي 500 بيت وله أيضا مجموعة من القصائد في رثاء بعض المتصوفة وأشهرها القصيدة التي رثا فيها أحمد زروق البرنوسي علاوة كتاب "**الرحلة السنية**" و"**حاشية في شرح كتاب المرادي**" وغيرها من المؤلفات الأخرى التي مازالت في عداد المفقود[2] .

إذا كان الورتلاني قد اعتبر من بين أبرز علماء الجزائر في القرن الثامن عشر نتيجة لما خلفه من مصنفات متنوعة فإن شهرته أيضا ارتبطت بشكل كبير برحلته الحجازية التي دون أخبارها في مصنفه الموسوم ب"**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**"، هذا المصنف الذي أصبح يعد من بين أهم المصادر التاريخية التي عرفها العهد العثماني سيما وأنه جمع في طياته بين أدب الرحلة والكتابة التاريخية [3].

ب. التعريف برحلته إلى المشرق العربي :

رحل الورتلاني إلى المشرق العربي ثلاث مرات لأداء مناسك الحج[4]، غير أن ما يهمنا من هذه الرحلات هي رحلته الأخيرة والتي دون تفاصيلها ومجرياتها في مصنفه الموسوعي "**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**" [5]، وبالعودة إلى هذه الرحلة نجد أنها قد تمت في سنة 1179هـ- 1766م ، وقد استغرقت حوالي ثلاث سنوات، إذ كان الهدف منها تأدية مناسك الحج وتحصيل العلم وذلك سيرا على نهج الرحالة المغاربة الذين سبقوه [6].

---

[1] بكاري، **منهج المؤرخين**...، المرجع السابق، ص 206.

[2] بوجلة ، المرجع السابق، ص 255.

[3] نفسه ، ص ص 253،254.

[4] الرحلة الأولى كانت صحبة والده سنة 1740م، أما الرحلة الثانية فكانت في عام 1752م وعمره أنذاك لايتجاوز واحد وأربعين سنة ، في حين كانت الرحلة الثالثة سنة 1765م وفيها زار مصر والحجاز وأخذ عن أشهر علمائها وفقهائها. للمزيد أنظر: القاسمي الحسني، المرجع السابق، ص 143.

[5] توجد منها نسخة بالمكتبة الوطنية تحت رقم : 2171 .

[6] حفناوي بعلي، **الرحلات الحجازية المغاربية المغاربة الأعلام في بلد الحرام دراسة نقدية توثيقية ثقافية**، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع ، 2018م، ص 395.

سلك الورتلاني في هذه الرحلة الطريق البري، حيث شرع في التحضير للرحلة بالقيام برحلة داخلية جاب من خلالها العديد من المناطق وكان ذلك قصد زيارة العلماء والفقهاء إضافة إلى التبرك بالأولياء الصالحين [1]، والجدير بالذكر أن ظاهرة التبرك بالأولياء الصالحين وزيارة الأضرحة كانت من الظواهر التي انتشرت بشكل كبير في العهد العثماني ، وقد عكف ودأب معظم الحجاج على القيام بها قبل سفرهم لتأدية مناسك الحج[2]، فضلا على أنَ العثمانيين من جهة أخرى قد شجعوا ذلك وقربوا إليهم المرابطين ورجال الدين و المتصوفة [3]، وفي هذا الصدد يقول الورتلاني عن حرصه على زيارة الأولياء: " فمهما ذكر لي ولي أو صالح أو عالم حيا أو ميتا إلا ذهبت إليه واقتبست من نوره لاسيما عمالة الجزائر ،فإني قد خضتها وبحثت عن أهلها بحثا شديدا تاريخا وسيرة وطريقة وحالا وكرامة لما رأينا من وقوع الإهمال في ذلك في وطننا ..."[4].

بناء على ذلك نجد الورتلاني قد سار على عادة المغاربة في زيارة الأولياء الصاحين والعلماء وأهل الفضل [5]، إذ نجده انتقل إلى بجاية ودلس وقسنطينة والأوراس التي زار أضرحتها ومقاماتها [6]، والملاحظ أن هذه الرحلة الداخلية التي قام بها الورتلاني قد شجعت الكثير من الشخصيات على الحج [7]،حيث التحق وانضم إليه عدد كبير من مرافقيه سواءا كانو من أبناء منطقته أو من مختلف أنحاء البلاد [8].

انطلقت رحلة الورتلاني نحو المشرق العربي بعد عودته إلى مسقط رأسه ببني ورتلان حوالي سنة 1179م، إذ تم الإستعداد لرحيل الركب، وهو في هذا السياق يذكر:" فلما حان السفر وآن حاله ذكرنا بعض ما ورد ذكره وصلينا الصلاة الواردة وختمنا بالصلاة في المسجد ،ثم أتينا أهل البيت والخدام والطلبة والجيران ومن أتي يودعنا ودعوا لنا ودعونا لهم وعند ذلك رفعنا ما يحتاج الرفع وانفصلنا على حسن الانفصال ..."[9].

---

[1] عبد الرحمن عزي، **التواصل القيمي في الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار** ، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2011.ص 27.

[2] مروان العطية، **منهج الورتلاني في رحلته إلى مصر والحجاز**،، الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمون أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين إكتشاف الذات والآخر، ط1، د.س.ن,ت، الجزائر، 2005م، ص 279 .

[3] محمد بوشنافي ، **قراءة في رحلة بن مسايب إلى الحجاز في القرن 18**،، الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمون أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين إكتشاف الذات والآخر، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م ، ص 233

[4] الورتلاني، المصدر السابق، ص 345.

[5] العطية، المرجع السابق ، ص 279.

[6] عزي، المرجع السابق، ص 27.

[7] بوجلة، المرجع السابق ، ص 260

[8] من الذين رافقوه في رحلته لأداء مناسك الحج أفراد عائلته كزوجته وبعض وأبناء عمومته مثل علي الشريف وابن عمه يحي ، كما التحق به من منطقته كل من أحمد مداح، ومن الجزائر أحمد الطيب وسيدي الهادي نجل الشيخ المنجلاتي وأحمد عياض ومن بلاد زواوة التحق بالرحلة محمد بوختوش والعلم الكبير المعروف باسم مهنأ وغيرهم. أنظر: بوجلة، نفسه، ص260

[9] الورتلاني، المصدر السابق، ص 104.

مرّ الورتلاني في رحلته الحجازية بمحطات رئيسية، فبعد أن خرج الركب من بني حافظ توجه نحو بني يعلى وزمورة ومنها إلى بسكرة التي توقف فيها لزيارة مقام الولي الصالح عبد الرحمن الأخضري[1]، ومن بسكرة تواصلت الرحلة باتجاه تونس ، وبعدها تابع الورتلاني رحلته عبر الساحل الليبي وصولا إلى طرابلس الغرب وبرقة التي توقف فيها، ومنها تواصلت الرحلة نحو مصر التي مكث فيها مدة من الزمن ، وبعد خروجه من مصر توجه نحو الجزيرة العربية أين وصل إلى المحطة الأخيرة الحجاز ، والملاحظ أن الورتلاني خلال مسار رحلته كان يصف جل الأماكن التي مرّ بها، إذ تحدث عن المدن والقرى، كما وصف أهلها وعاداتها وترجم لعلمائها فضلا على أنه أسهب في الحديث عن تاريخها والتطرق إلى مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بها [2].

لقد ضمن الورتلاني مشاهداته وملاحظاته عن المناطق التي زارها في مصنفه المعروف :بـــ" نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار[3]، حيث يظهر أن حرص الورتلاني على تدوين رحلته كبيرا فهو يذكر أنه كان يغتنم فرصة توقف قوافل الحج لتسجيل ملاحظاته التي أخذت شكل مذكرات[4]، وأما عن رحلته في شكلها النهائي فمن الواضح أن الورتلاني لم يدونها بنفسه ولكنه قام بإملائها بعد عودته على تلاميذه كما جرت عادة المشايخ في تلك الحقبة [5]، وهذه الرحلة التي شرع في تدوينها سنة 1182هـــ - 1768م[6]، هي نتاج رحلاته الحجازية التي قام بها إلى المشرق العربي [7].

لقد أراد الورتلاني من خلال تأليفه لرحلته أن يسجل رحلة متميزة تصبغ عصره سيما وأنه قد لاحظ وأعاب على أهل وطنه عدم اهتمامهم بالتاريخ فجاءت رحلته هذه لتؤكد على فضل هذا العلم ومكانته بين العلوم الأخرى ويظهر ذلك جليا في العنوان الذي اختاره لرحلته [8].

---

[1] عبد القادر بلعربي،" الرحلة الورتلانية محطاتها ومصادرها المعرفية"، مجلة آفاق فكرية، ع6، الجزائر ، 2017م، ص 86.

[2] حفناوي بعلي ، المرجع السابق ص ص 396-399.

[3] أنظر الملحق رقم 05، ص 384.

[4] بوجلة، المرجع السابق، ص ص 255- 266

[5] سعد الله، **أبحاث وأراء** ...، المرجع السابق، ص 188.

[6] بوجلة ، المرجع السابق ، ص256.

[7] عبد القادر بكاري، "حسين الورتلاني والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والانسانية، مج 8، ع1، جوان 2017م، ص 46.

[8] كريم مقنوش، "منهج الكتابة عند الحسين الورثلاني من خلال رحلاته رحلة نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار أنموذجا"، مجلة رؤى تاريخية للأبحاث والدراسات المتوسطية، مج 1، ع 2، 2020م، ص 97. أنظر أيضا : بوجلة ، المرجع السابق ، ص256.

لقد أشار الورتلاني في مقدمة رحلته إلى دوافع تأليفه إذ بين ذلك في قوله: " ... وبعد فإني لما تعلّق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والرباع والقفار والديار، والمعاطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء في كل مكان، من الفقهاء والمحدثين والمفسرين الأخبار، والأشياخ العارفين والإخوان والمحبين والمحبوبين من المجاذيب المقربين والأبرار، من المشرق والمغرب سيَما أهل الصحو والمحو إذ ليس لهم مع غير الله قرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية ..."[1].

زيادة على ذلك يكمن الهدف من تدوين رحلته في وضع تراجم للعديد من علماء والأدباء والأولياء وذكر مناقبهم حتى يقتدي بها عامة الناس و يتعرفوا على آثارهم، ومن ناحية أخرى سعى الورتلاني كذلك إلى تحديد معالم الطريق وتبيان المسالك مبرزا المصاعب التي تعترض قوافل الحج، وذلك بهدف إفادة غيره من الحجاج[2]، ومن الواضح أن الورتلاني كان عازما منذ البداية على تسجيل رحلته فقد اقتفى في ذلك أثر الرحالة المغاربة الذي سبقوه على غرار رحلة العياشي ورحلة ابن عبد الناصر الدرعي[3]، فالمتأمل في العنوان الذي اختاره الورتلاني لرحلته يجد أنّ عنايته كانت كبيرة بالتاريخ وذلك خلافا لمعاصرية [4]، فجاء تدوين رحلته مساهمة في ملء الفراغ الناجم عن قلة التأليف في هذا المجال[5] خصوصا وأنه قد أوضح في ثنايا رحلته التراجع الذي شهدته حركة التأليف عامة وفي ميدان التاريخ بشكل خاص وذلك في قوله:" فإن علم التاريخ منعدم فيهم وساقط عندهم فيحسبونه كالإستهزاء أو انشغالا بما لا يعني أو من المضحكة المنهي عنه"[6] .

لقد نالت الرحلة الورتلانية شهرة واسعة نظرا لقيمتها العلمية، وقد أثنى عليها كثير من الدارسين إذ وصفها محقق الرحلة بأنها:" أنفس تصنيف رصعت به جواهره في وطن الجزائر، وأعلق تأليف اشتهر بين البوادي والحواضر لاشتماله على عوارف المعارف، وظرائف الطرائف، وأبوابد العوائد، وفرائد الفوائد ....."[7]، وأمّا الحفناوي فوصفها بقوله:"فمن تآليفه الرحلة السنية التي سارت بها الركبان وقد دعا لناسخها

---

[1] الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 12، 13.

[2] حفناوي بعلي ، المرجع السابق، ص 396.

[3] عزي، المرجع السابق، ص 16.

[4] بوجلة، المرجع السابق، ص 255.

[5] بكاري، **منهج** ...، المرجع السابق، ص 207.

[6] الورتلاني، المصدر السابق، ص 597.

[7] نفسه، ص 3.

ومالكها وناظرها فهي حصن حصين ودرع متين"[1]، وبالنظر للأهمية التي اكتسها هذه الرحلة فإنها استنسخت وطبعت عدّة مرات [2].

تعتبر الرحلة الورتلانية" **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**" من أهم المصنفات التي تضاف إلى رحلات المغاربة في القرن الثامن عشر[3]، فقد أرادها مؤلفها أن تكون نصا تاريخيا للرحلة وأدبها في العهد العثماني وليس فهذا فحسب، بل إنها تعتبر علاوة على ذلك موسوعة علمية تشتمل على معارف متنوعة سيما وأن الورتلاني جمع فيها بين مقاصد الحج وتحصيل العلم فكانت من أهم المصادر التي وصلتنا من العهد العثماني سواء في مضمونها أو منهجها أو أسلوبها [4].

اعتمد الورتلاني في تدوين رحلته الحجازية على مصادر متنوعة نجد في مقدمتها المعاينة والمشاهدة الشخصية، فالورتلاني حرص منذ شروعه في الرحلة على تسجيل ملاحظاته في مذكراته فوصف كل ما شاهده ورآه من مظاهر وعادات وقد خص مصر والحجاز وطرابلس وتونس بنصيب وافر، إذ نجده اهتم بوصف المسالك وآثار البلاد وعادات الشعوب وغير ذلك ،[5] وإضافة إلى الملاحظة الشخصية استعان الورتلاني كذلك بالرواية الشفوية فقد ضمن رحلته الكثير مما سمعه عن المشايخ والعلماء والمتصوفة وعلماء الزوايا الذين لقيهم في مسار رحلته [6].

لم يقتصر الورتلاني في تدوين نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار على ما شاهده وسمعه فحسب، بل إنه استعان لتوثيق معلوماته وتأكيدها على مصادر تاريخية كثيرة، إذ يقول في هذا الصدد: " وأن اعتمادي في ذلك على رحلة شيخ شيوخنا وقدوتنا ومنَ على الله ثم عليه اعتمادنا سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفري ، هذا وأني أنقل أيضا من بعض كتب التاريخ " [7].

يتضح مما ذكره الورتلاني أنه كان واسع الإطلاع، فلم يكتفي بما شاهده وسمعه فهو فغالبا ما كان يلجأ إلى استكمال وصفه وتأكيد مروياته بالاقتباس من المصادر المكتوبة ومن بين هذه المصادر تبرز كتب الرحلات السابقة التي أفادته في تتبع أخبار طريق الحج فاعتمد بالخصوص على الرحلة الناصرية لأحمد بن

---

[1] الحفناوي، المصدر السابق، ص134.

[2] طبعت هذه الرحلة بتونس سنة 1903م، ثم صدرت الطبعة الأولى بالجزائر عام 1908م حيث حققها ونشرها محمد العربي ابن أبي شنب بمطبعة بيار فونتانة الشرقية بالجزائر واعتمد على 4 نسخ ، ثم أعادت دار الكتاب طبعها في سنة 1974م.

[3] بوجلة ، المرجع السابق، ص 256.

[4] العطية ، المرجع السابق، ص 276.

[5] بوجلة، المرجع السابق، ص 255.

[6] بكاري، **منهج** ...، المرجع السابق، ص 212.

[7] الورتلاني، المصدر السابق، ص 13

الدرعي ورحلة أبي سالم العياشي ماء الموائد[1] إضافة رحلة التيجاني والعبدري والبكري وغيرها من الرحلات، واستفاد الورتلاني إلى جانب كتب الرحلة على مصادر تاريخية أخرى نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: " كتاب عنوان الدراية للغبريني" والمسالك والممالك" للمقريزي و "تاريخ السمهودي" "وشفاء المرام بأخبار البلد الحرام للفاسي"، و"حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي"،كما أفاد من كتاب النبذة المحتاجة قي ذكر ملوك صنهاجة "، و"الجمان في مختصر أخبار أهل الزمان للشاطبي"[2]، فضلا عن تاريخ ابن خلدون وغير ذلك من الكتب التي قاربت حسب محقق الكتاب ما يقرب 300كتاب [3]، والجدير بالذكر أن الورتلاني في اعتماده على هذه المصادر المكتوبة كثيرا ما كان ينقل عنها نقلا حرفيا وطويلا فتارة يكون منسوبا إلى صاحبه وتارة أخرى غير منسوب[4].

ج. القيمة العلمية للرحلة :

إنّ المتصفح لمتن الرحلة الورتلانية يلاحظ التنوع والثراء المعرفي الذي تزخر به، فهي من أكبر وأنفس الأعمال التي أنجزها الورتلاني في العصر العثماني، ومن أهم الرحلات الحجازية المغاربية التي اهتمت بالسرد التاريخي والوصف الجغرافي[5]، ومن هذا المنطلق يمكن القول أن الرحلة الورتلانية تعتبر بلا شك موسوعة تؤرخ لأجزاء كبيرة من تاريخ العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر فهي تجمع تراجم عدد كبير من العلماء والفقهاء والأولياء في المشرق والمغرب[6]، وتضم فضلا عن ذلك وصفا شاملا للمسالك والطرق ومحطات القوافل، كما تعكس في الوقت ذاته عن صورة دقيقة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالمناطق التي شملتها رحلته [7]، وهكذا يتضح أن أهمية رحلة الورتلاني "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" تتجلى في عدّة جوانب وهي كالتالي :

---

[1] مقنوش، المرجع السابق، ص 96.

[2] Hadj Sadok ," **A Travers La Berberie Oriental Du Xvllle Siecle, Avec Le Voyageur Al Warthilani"**, Revue Africaine , V 95 , 1951, P 333- 336.

[3] عبد القادر صحراوي، "الورتلاني مقدمة عن رحلته وملاحظات عن فضل علم التاريخ"، مجلة الحوار المتوسطي، ع9، 10، سيدي بلعباس، 2015م ، ص ص 107، 108.

[4] سعد الله، **أبحاث وأراء** ...، المرجع السابق، ص 189.

[5] حنيفي هلايلي،" الجزائريون والرحلة إلى الحجاز على ضوء رحلتي الورتلاني وأبو راس الناصري" ، مجلة الشهاب، مج 7، ع 7، الجزائر 2018، ص 22.

[6] بوجلة ، المرجع السابق، ص 258.

[7] سعيدوني ، المرجع السابق ، ص 421.

الجانب العلمي :

خصص الورتلاني حيزا مهما في رحلته للحديث عن مظاهر الحياة العلمية بالمشرق العربي حيث أن الدارس للرحلة يجده قد أسهب في ذكر تراجم العلماء والأدباء والأولياء الأحياء منهم والأموات سواء كان ذلك بموطنه أو بالمناطق التي مر عليها[1]، والملاحظ أنّ اهتمامه بهذا الجانب كان بغية تتبع أثارهم والدعوة للإقتداء بهم خاصة وأن هذا النوع من الآثار يكاد يكون منعدما في وطنه، ويتضح ذلك جليا في قوله:" لما رأينا من وقوع الإهمال في تلك التراجم في وطننا فرسمنا كل ذلك رسما جيدا، فحفظنا من كل خلف وصف أسلافه ونقلت من كل نوع أخبار أصله علما مني لا يمجه السمع السليم، والطبع المستقيم، ريحانة لما يجده المتأخر بعدنا ، ورحمة لما يحصل من اقتباس الأنوار في وطننا "[2] .

وبناء على هذا اشتملت الرحلة على تراجم عدد كبير من العلماء الذين أخذ عنهم الورتلاني خاصة علماء مصر التي خصها بنصيب وافر من الوصف، فلم يكتفي بسرد قائمة العلماء الذين كان على صلة بهم كالشيخ الشافعي والشيخ علي الفيومي والشيخ عبد الرؤوف نقيب كسوة الكعبة المشرفة [3]، بل تحدث كذلك عن مجالس العلم والمناظرات الفقهية التي شارك بها، ومن أمثله ذلك وصفه لأهم مشايخ الأزهر في تلك الحقبة ومناظراته الفقهية التي جمعته به إذ يذكر: " إليه النظر في وقتنا هذا في الجامع الأزهر بل وإليه تشد رحال الطلبة بمصر من كل جانب وقد بلغ صيته وعلمه مشارق الأرض ومغاربها شيخنا سيدي علي الصعيدي "[4]، وهذه المعطيات قد أعطت صورة دقيقة عن مظاهر التواصل بين علماء المشرق و المغرب.

وزيادة على ذلك نجد الورتلاني قد اهتم بالمذاهب والملل التي لاحظها في مصر والحجاز وطرابلس[5]، وإذا كان الورتلاني قد عني بتراجم العلماء والفقهاء فإن أهم ما يميز رحلته كذلك هو اهتمامه الكبير بذكر رجال التصوف والأولياء، إذ تكاد سمة التصوف تغلب على مضامين الرحلة، فهو في هذا الجانب حرص على ذكر أشهر الأولياء وما يرتبط بهم من خرافات وكرامات[6]، كما لم يغفل وصف أهم المزارات الدينية والمقامات

---

[1] بكاري، **منهج** ...، المرجع السابق، ص ص 209

[2] الورتلاني ، المصدر السابق، ص 345.

[3] نفسه ، ص 305- 343 .

[4] نفسه ، ص 341.

[5] سعد الله، **أبحاث وأراء**...، المرجع السابق، ص 196.

[6] سعد الله، **تاريخ الجزائر** ...، المرجع السابق ص ص 397.

والأضرحة التي زارها خصوصا بموطنه الجزائر و مصر التي مكث بها مطولا [1]، فجاء وصفه على العموم يتسم بنوع من الاستطراد والمبالغة [2].

تكمن أهمية الرحلة كذلك في كونها قد عكست طبيعة الحياة الثقافية السائدة في العصر العثماني فهي بمكوناتها وأسلوبها ومنهجها تعطي صورة واضحة عن ثقافة ذلك العصر ومعارفه سواء ما تعلّق بعلم التاريخ أو خصوصيات الأدب ولعلّ ذلك ما يجعلها مصدر مهما في دراسة سمات الحركة الأدبية في القرن الثامن عشر [3].

الجانب الاجتماعي:

إنَ ما يميز رحلة الورتلاني احتوائها على دراسة وصفيه شاملة ودقيقة حول تاريخ المجتمعات العربية خلال القرن الثامن عشر، فالورتلاني يعد من أكثر الرحالة المغاربة الذين استعرضوا ضمن رحلاتهم عادات وطبائع الشعوب التي مروا عليها، وذلك بدءا بموطنه الجزائر ثم تونس وطرابلس الغرب وصولا إلى مصر والحجاز التي استأثرت باهتمامه وخص مجتمعها بوصف مسهب ودقيق .

ومن الظواهر الاجتماعية البارزة التي استرعت اهتمام الورتلاني وخصها بالوصف الدقيق في رحلته هي موضوع الأمن الذي كاد يطغى على الرحلة، إذ نجده لا يذكر طريق الحج إلا ويشير إلى المخاطر التي كانت تعترض القوافل، ومن أهمها وصفه لظاهرة اللصوصية التي انتشرت بشكل كبير وكادت أن تؤدي حسب الورتلاني إلى إسقاط فريضة الحج [4].

زيادة على ذلك استعرض الورتلاني ضمن رحلته بعض الظواهر السلبية التي لاحظها في المجتمع المشرقي، حيث تحدث وانتقد ظاهرة الظلم ومظاهر الفساد كالرشوة التي عمت المشرق العربي عامة ومصر والحجاز بشكل خاص [5]،كما تطرق علاوة على ذلك إلى بعض الظواهر التي أثارت جدلا في تلك الحقبة، إذ

---

[1] من أهم المزارات التي زارها الورتلاني في مصر: مقام الإمام الشافعي" محمد ابن ادريس و مقام الإمام عبد الرحمن ابن القاسم ومقام الصحابي عقبة ابن نافع إضافة إلى قبر الإمام شرف الدين البويصري وقبر ابن أبي جمرة و قبر أبي عبد الله المنوفي و غيرذلك من المقامات والأضرحة الأخرى. للمزيد أنظر: الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 328- 331.

[2] العمري بلاعدة، "الرحلات الجزائرية الحجازية: الرحلة الورتلانية أنموذجا" ، مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، ع2، الجزائر، 2016، ص 131.

[3] عيسى بخيتي، **أدب الرحلة الجزائري الحديث سياق النص وخطاب الأنساق**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في الأدب الجزائري الحديث، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان، 2015-2016م، ص 36.

[4] سعد الله، **أبحاث وأراء...**، المرجع السابق، ص ص 190، 191

[5] الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 337- 340.

ناقش مسألة شرب البن والدخان و لم يكتف بذكرها فحسب، بل استعرض موقفه وبين أقوال العلماء والفقهاء فيها[1].

وإلى جانب ما ذكره الورتلاني من ظواهر سلبية لم يغفل التطرق إلى بعض العادات الاجتماعية، فقد اهتم بتسجيل أهم العادات والأعراف التي ميزت الأقطار العربية موضحا بذلك الفوارق الاجتماعية بين المشرق والمغرب، ففي هذا الشأن أفرد جزءا هاما من رحلته للحديث عن الاحتفال بكسوة الكعبة الشريفة وخروج المحمل، فجاء وصفه وصفا دقيقا خاصة وأن هذا الاحتفال يعد حدثا هاما تشهده مصر في كل سنة [2].

من الواضح أن الورتلاني من خلال متن رحلته كان حريصا على عرض الواقع كما شاهده، ولعلّ ذلك يفسر الأحكام القاسية التي أصدرها، خصوصا وأنه كان ينتقد مظاهر التفكك الاجتماعي الذي طغى على البلاد العربية خلال العهد العثماني [3].

الوصف الجغرافي :

لقد احتل الوصف الجغرافي مكانا بارزا في رحلة الورتلاني، فهي تتوفر على كم هائل من المعلومات التي تتعلّق بالمناطق التي مر عليها ركب الحج، وقد استقى الورتلاني معطياته الجغرافية من مشاهداته الخاصة في حين كان البعض الآخر منها مأخوذا من المصادر التاريخية الأخرى [4] .

اهتم الورتلاني في رحلته بوصف معالم الطريق البري الذي كان يسلكه الحجاج، كما وصف المدن والقرى وكل المناطق التي سلكها أو توقف بها للاستراحة، فجاء وصفه تارة بإيجاز وتارة أخرى بشكل مسهب ومفصل [5].

ويبدو أن الورتلاني كان على اطلاع واسع بتاريخ البلدان التي مر عليها في رحلته إلى الحرمين الشريفين، فهو لم يكتف بوصف جغرافيتها فحسب، بل عمد إلى التعريف بها وذلك بإعطاء وصف مسهب لتاريخها وإيراد ما امتازت به عن باقي المدن والمناطق الأخرى فوصف معالمها ومآثرها ومساجدها وآبارها ووديانها، كما تطرق إلى أوضاعها السياسية وأحوالها الاقتصادية .

[1] الورتلاني ، المصدر السابق، ص ص 320- 326.

[2] نفسه ، ص ص 314- 319.

[3] سعيدوني، المرجع السابق، ص 420.

[4] سعد الله ، **أبحاث وأراء...**، المرجع السابق 193

[5] عزي، المرجع السابق، ص 35.

الجانب السياسي :

سجل الورتلاني في رحلته نزهة الأنظار صورة دقيقة عن الواقع السياسي السائد بمختلف المناطق التي سلكها ركب الحج ، وقد أفرد جزءا هاما من رحلته لوصف أوضاع مصر والحجاز بالخصوص، وهو في هذا الصدد تطرق بإسهاب لمظاهر التدهور السياسي، فنجده يشير إلى ذلك من خلال الحديث عن طبيعة الوضع السائد أو من خلال ذكره لبعض الشخصيات السياسية البارزة، فضلا عن سرد الأحداث المتصلة بالحكام وعلاقاتهم مع الرعية [1].

من أهم الظواهر التي رصدها الورتلاني هي انتشار ظاهرة ظلم الولاة وكثرة الاعتداءات، ففي الحجاز نجده قد أصدر حكما قاسيا على ذلك وأكد على تدهور الوضع السياسي خصوصا وأنه لاحظ استفحال هذه الظاهرة وذلك بعد أن عقد مقارنة بين الأوضاع بين حجته الأولى والثالثة [2]، وإلى جانب الحديث عن ظاهرة الظلم تطرق الورتلاني علاوة على ذلك إلى النزاعات الداخلية وعلاقة الحكام بالرعية، وفي هذا الجانب أورد الورتلاني حديثه مع أمير مكة أنذاك ومناقشته للاضطرابات واعتداءات اللصوص التي شاعت في الحجاز[3]، وهذه المعطيات في غاية الأهمية فهي تصور عدم الاستقرار الذي شهده الحجاز نهاية القرن الثامن عشر .

وأما بخصوص مصر فنلاحظ أن الورتلاني قد خصها بوصف مسهب، إذ تحدث في مواضع كثيرة من الرحلة عن طبيعة الحكم فيها،كما أشار إلى الاضطرابات المتكررة التي تنجم عن سوء العلاقة بين الحكام والرعية ، و لم يكتف بذلك فحسب بل انتقد فضلا عن ذلك سياسة الظلم التي انتهجها الولاة العثمانيين [4].

وبناء على هذا يمكن القول أن رحلة الورتلاني تعد من الرحلات المغاربية القليلة التي قدمت صورة تكاد تكون شاملة عن ملامح الحياة السياسية في مصر والحجاز في العهد العثماني، فمتن الرحلة يحفل بالمعطيات التي تعبر عن مظاهر التدهور السياسي وانعدام الاستقرار في المناطق التي سلكها ركب الحج سواء ارتبطت تلك

---

[1] عبد القادر حليس، **المشرق العربي من خلال رحلات المغاربة رحلة المقري– العياشي– الورتلاني17م–18م**، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر2، 2011/2010م، ص 127.

[2] سعد الله، **أبحاث وأراء** ...، المرجع السابق، ص 189 .

[3] الورتلاني، المصدر السابق، ج2، ص ص 492، 493.

[4] الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص 375.

المظاهر بظاهرة ظلم الولاة أو النزاعات الداخلية أو السياسة التي اتبعها ولاة الأقاليم في المدن الرئيسية أو تدخل الجنود الأتراك في إعادة استتاب الأمن وما ينجم عن ذلك من دمار وفوضى [1].

ويقوم المنهج الذي اتبعه الورتلاني على التزام الصدق في عرض الظواهر التي عاينها، كما نجده حريصا على تحري الحقيقة، فهو لم يكتف بما شاهده ووقف عليه فحسب، وإنما كان يلجأ في كثير من المرات إلى الاقتباس من المصادر التاريخية، وذلك تأكيدا لمروياته ومشاهداته[2]، وعلى هذا الأساس فإن الرحلة الورتلانية تعد وثيقة تاريخية جامعة لكثير من المعارف لاشتمالها على معلومات في غاية الأهمية تتصل بالحياة اليومية و الحالة المعيشية والاقتصادية وأسلوب الحكم ومستوى الثقافة وطبيعة العادات ونوعية اهتمامات العامة، ولعلّ ذلك ما جعلها تحضى باهتمام كبير من طرف الدارسين والباحثين، فهي كما وصفها ناصر الدين سعيدوني "تسجيل حي للوضع الاجتماعي و الاقتصادي ووصف دقيق لحالة المسالك والعمران ومحطات القوافل وصورة صادقة للواقع الثقافي"[3] .

3.5 رحلة محمد بن عبد السلام الناصري 1196هـ/ 1782م:

أ. التعريف بصاحب الرحلة:

هو الإمام الحافظ العلامة المحدث الفقيه[4] أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن محمد الكبير بن محمد بن ناصر الدرعي التمكروتي[5]، من كبار شيوخ الزاوية الناصرية [6]، لا تذكر المصادر التي ترجمت له الكثير عن ولادته سوى أنه نشأ بدرعة، وتلقى تعليمه الأولي بمقر الزاوية الناصرية التي اضطلعت آنذاك بدور كبير في نشر العلم والمعرفة، حيث أخذ عن أهم شيوخها الأجلاء ومنهم عمه أبي يعقوب يوسف بن محمد الكبير[7] .

---

[1] عزي، المرجع السابق، ص 76.

[2] سعيدوني، المرجع السابق، ص 420.

[3] نفسه، ص ص119- 421.

[4] عبد السلام بن عبد القادر بن سودة، **إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع عشر 1171هـ-1400هـ /1756-1980م**، تح: محمد حجي،ج1، دط، د.غ.إ ، بيروت 1997م، ص 133.

[5] محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصري، **المزايا فيما أحدث من البدع في أم الزوايا الزاوية الناصرية** ، تح: عبد المجيد خيالي ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت، 2003، ص 7

[6] محمد الأخضر، **الحياة الأدبية...**، المرجع السابق، ص 368.

[7] مخلوف، المصدر السابق، ص 546.

تنقل محمد بن عبد السلام بعد أن أتم تعليمه الأولي إلى فاس وأقام بها بين سنوات 1170هـ-1175هـ، فأخذ ودرس عن كبار الشيوخ والعلماء بها أمثال محمد التاودي بن سودة و محمد ابن الحسن بناني وادريس بن محمد العراقي و الشيخ أبي القاسم السجلماسي الرباطي وغيرهم [1].

بعد أن ارتفعت المكانة العلمية لمحمد بن عبد السلام الناصري الذي أصبح من كبار علماء المغرب توجه لأداء مناسك الحج مرتين، وقد اجتمع من خلال رحلاته بكبار العلماء والشيوخ في المشرق فأجازوه، وكان من بين أهم من لقيهم "الحافظ محمد مرتضى الزبيدي" مؤلف "تاج العروس" و الشيخ أحمد بن محمد الدرديري وغيرهم من العلماء الذين دون إجازاتهم وتراجمهم في رحلاته [2].

كان الناصري مولعا بجمع الكتب واستنساخ النوادر منها، وما يدل على ذلك قوله: " ولقد كنت في وجهتي للحرمين الشريفين مرتين – ولا حرمنا الله من العود أبحث كل البحث عن الكتب بالحرمين ومصر وطرابلس وتونس..."[3].

حضي محمد بن عبد السلام الناصري بمكانة هامة في عصره، إذ اعتبره الكتاني: "نادرة المغرب وأعلم علماء البيت الناصري بالفقه والحديث، وأوسعهم رواية، وأجسرهم قلما وأعلاهم إسنادا "[4]، ووصفه أحمد بن خالد الناصري فقال عنه في طلعة المشتري: " كان علامة أديبا فقيها محدثا حافظا فاضلا لم يأت بعد الشيخين في آل ناصر من هو أعلم منه"[5] ،وأمَا حمد الجاسر فقد اعتبره "عالما مجتهدا في عصر طغى فيه الجمود الفكري وانتشرت فيه البدع والخرافات "[6].

يبدو من خلال ماسبق ذكره أن محمد بن عبد السلام الناصري قد بلغ مكانة عظيمة من بين علماء ذلك العصر، ولاشك أن تلك المكانة المرموقة التي اكتسبها ترجع إلى مجموعة من العوامل التي أسهمت في تكوين شخصيته، فمحمد بن عبد السلام الناصري نشأ في كنف أسرة اشتهرت بالعلم والصلاح، ولها مكانة اجتماعية ودينية كبيرة نتيجة لإشرافها على الزاوية الناصرية التي ذاع صيتها داخل المغرب وخارجه، وليس هذا فحسب بل كان للرحلات التي قام بها إلى المشرق ولقائه مع كبار العلماء والشيوخ، فضلا عن ما ذكره

[1] العباس بن ابراهيم السملالي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، مراجعة: عبد الوهاب ابن منصور، ج6، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 2001م، ص 192.

[2] أبو زيد عبد الرحمن الجشتيمي، **الحضيكيون**، تح: المجلس العلمي المحلي لتارودانت ، ط1، م.ن.ج ، الدار البيضاء، 2010، ص 123.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، المصدر السابق، ص 147.

[4] عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، ج2، ط2، د.غ.إ ، بيروت، 1983م، 847.

[5] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **طلعة المشتري** ...، المصدر السابق ، ص 162.

[6] حمد الجاسر، **ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي**،ط2، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، د ب ن، 1983، ص 36.

المؤرخون عن اهتمامه باقتناء الكتب والمخطوطات واستناخ النوادر منها هي الأخرى دور كبير في بروز هذه الشخصية التي تركت أثرا واضحا في الحياة الفكرية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

والجدير بالذكر أنه إضافة إلى المكانة المرموقة التي تمتع بها محمد بن عبد السلام الناصري، فقد نال علاوة على ذلك منزلة كبيرة عند السلطان المغربي "مولاي سليمان" الذي ربطته صلات قوية به، فمن صور تلك العلاقات أنه كان يعهد إليه بأموال كثيرة قصد توزيعها على العلماء و الأشراف ومختلف الطوائف بمصر والحجاز[1].

توفي محمد بن عبد السلام الناصري بالزاوية الناصرية في سنة 1239هـ -1828م[2]، وقد ترك تراثا أدبيا وإنتاجا فكريا متنوعا عكس ثقافته ، ومن بين أهم تلك المؤلفات نذكر:

-**رحلتاه الكبرى والصغرى:** وهي من أهم مصنفاته التي دون فيها مسيرته لأداء مناسك الحج وما تخللها من مشاهدات ولقاءات وسوف نعود لهذه الرحلات بالتفصيل.

- المزايا فيما حدث من البدع في أم الزوايا: وفي هذا الكتاب انتقد محمد بن عبد السلام البدع والمخالفات التي انتشرت بالزاوية الناصرية، وما آلت إليه من تدهور حيث أورد أهم البدع المخالفة للشرع التي رد على أصحابها بالحجة والبرهان الشرعي [3].

- قطع الوتين من المارق في الدين: تضمن هذا الكتاب ردا على بعض الفقهاء الذين أفتو بجواز بيع الأولاد في فترات المجاعة التي عرفها المغرب سنة 1793م[4].

- الدر النفيس في تفسير القرآن بالتنكيس: تناول فيه مسألة تفسير القرآن على غير الترتيب بادئا من الأسفل إلى الأعلى [5].

-مناقب الأولياء :تضمن هذا المصنف مجموعة من إجازاته لتلاميذته وبعض إجازات الشيوخ المشارقة له إضافة إلى بعض أشعاره ورسائله [6].

---

[1] عبد الخالق أحمدون،"الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي"، مجلة الإحياء، ع21، رابطة علماء المغرب، ديسمبر 2003م، 229.

[2] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المصدر السابق، ص 162.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، المصدر السابق، ص ص 40، 41.

[4] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، ط1، تح: مهدي الغالي ، دار أبي الرقراق للطباعة ، الرباط، 2013م ، ص 15.

[5] أحمدون، المرجع السابق، ص 230.

[6] محمد بن عبد السلام الناصري ، المصدر السابق، ص 16.

ب. التعريف برحلاته إلى المشرق العربي:

كما أسلفنا الذكر قام محمد بن عبد السلام الناصري برحلتين إلى المشرق العربي ، وهذه الرحلات تندرج ضمن الرحلات الحجازية التي كان الغرض الأول منها أداء فريضة الحج ولقاء الشيوخ والعلماء .

-**الرحلة الأولى** : تمت الرحلة الأولى في سنة 1196هـ/ 1782م في عهد السلطان محمد بن عبد الله، وقد كانت ضمن ركب الحج السجلماسي[1].

بدأ مسار هذه الرحلة [2] بخروجه من الزاوية الناصرية في الثالث من جمادى الثانية باتجاه سجلماسة، وبعد وصوله لسلجلماسة توجه إلى المغرب الأوسط فالقيروان فطرابلس وبرقة دخولا إلى مصر التي انظم فيها إلى الركب المصري، ومنها انتقل إلى الحجاز التي دخلها في السادس من ذي الحجة 1196هـالموافق لـ: 12نوفمبر 1782م [3].

دون محمد بن عبد السلام الناصري تفاصيل رحلته الأولى إلى الحج، وقد خصص لها عنوان "الرحلة الناصرية الكبرى "[4]، وهي في جزئين، وهذه الرحلة التي فرغ من تدوينها عام 1199هـ -1785م تعتبر من أوفى الرحلات المغربية وأشملها[5]، حيث وضح الناصري في مستهل رحلته الهدف من تدوينها إذ يقول عنها: " وبعد إني قاصد بعد استخارة الحق سبحانه إلى تقييد ما عنَ لي في سفري للحرمين الشريفين من وصف المراحل والبلدان والمياه وذكر من لقيته من الفضلاء وما أجبت به عن سؤال بعض النبلاء، أو من سائر الجفلاء، وبيان ما زرته من الأحياء والأموات وغير ذلك من الحوادث والنوادر والأخبار... والباعث على ذلك ، وإن كنت لا من أولئك، ولا ممن يليق أن يسلك تلك المسالك، خدمة العلم الشريف والتعرض لنفحات الجناب النبوي الشريف"[6] .

يبدو من خلال ما ذكره الناصري أنه كان حريصا على تسجيل مشاهداته وملاحظاته أثناء أداءه لمناسك الحج، وهدفه من ذلك هو تبيان عظمة هذا الركن من الإسلام، وما يصاحبه من أشواق وانفعالات اتجاه الأماكن المقدسة، ومن جهة أخرى يؤكد على أهمية تقييد تلك المشاهد في خدمة العلم، فهو في هذا الشأن

[1] آيت مكي، المرجع السابق، ص 48.

[2] أنظر الملحق، رقم 06، ص385.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى** ، المصدر السابق، ص ص 102- 111.

[4] أنظر الملحق رقم 07، ص 386.

[5] حركات، المرجع السابق، ص 212.

[6] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى** ، المصدر السابق، ص 51.

يورد في رحلته وصفا دقيقا للمسالك، وأهم من لقيهم من العلماء و الفضلاء وهو ما يعكس جانبا مهما من تاريخ المجتمع العربي .

-الرحلة الثانية :

هذا فيما يتعلّق برحلته الأولى، وأما بخصوص رحلته الثانية إلى الحجاز فكانت بعد سنوات من رحلته الأولى أي في سنة 1211هـ/ 1796م، وإذا كان محمد بن عبد السلام الناصري في حجته الأولى قد ارتحل ضمن الركب السجلماني، فإن رحلته الثانية كانت رفقة الركب الفاسي[1]، حيث يذكر واصفا بداية رحلته: " خرجنا من الزاوية الناصرية أحاطها الله من الآفات والبلية بجاه خير البلية عشية السبت الرابع من جمادى الأولى سنة أحد عشر ومائتين وألف صحبة جماعة وافرة من أخلاط الحجاج نؤم الركب الفاسي "[2] .

سلك الناصري في هذه الرحلة الطريق البري، حيث قطع في مسيرته للحج مجموعة من القرى والمدن وصولا إلى مدينة فاس التي كانت تمثل مركزا لاجتماع الحجاج ومنها تبدأ الرحلة، إذ انطلق الركب الفاسي في يوم 14 جمادى الثانية وصولا إلى تازة ومنها إلى المغرب الأوسط فبسكرة التي مكث فيها ثلاث أيام ثم غادرها في 3 شعبان باتجاه توزر بتونس، ثم منها لمدينة الحامة (الحمامات) ثم التحق بقابس التي لم يدخلوها بسبب انتشار الوباء، وصولا إلى طرابلس في 29 من شعبان، ومن طرابلس انتقل الركب لتاجوراء ثم مصراتة وبرقة فبنغازي، ثم منها ارتحل الركب نحو ريف مصر في الثاني من شوال قاصدا أمبابة و منها غادر إلى القاهرة ثم البركة ثم عقبة آيلة دخولا إلى الحجاز التي أدى فيها مناسك الحج[3].

استغرقت الرحلة الثانية لمحمد بن عبد السلام الناصري حوالي عام، إذ كان رجوعه إلى المغرب في ضحى عاشوراء من سنة 1213هـ [4]، وتجدر الإشارة أنه رحلته الثانية إلى الحج قد تمت رفقة الأميرين مولاي أحمد ومولاي موسى إبنا السلطان سليمان[5] .

---

[1] محمد بن عبد السلام الناصري، **المزايا ...**، المصدر السابق، ص 16.

[2] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الصغرى**، تح: محسن أخريف، ط1، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، المملكة المغربية، 2019م ، ص 111.

[3] الغاشي، **الرحلة المغربية...**، المرجع السابق، ص 329.

[4] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الصغرى** ، المصدر السابق، ص 276.

[5] عبد العزيز بلبكري، **الرحلة الحجازية المغربية مصدر للعلاقات المغربية الفلسطينية**، ضمن كتاب الذاكرة التاريخية المشتركة المغربية الفلسطينية، ج1، طبعة جديدة ، المغرب، 2018، ص ص60، 61

لقد دّون الناصري وقائع رحلته الثانية في مصنفه المعروف "**بالرحلة الناصرية الصغرى**" وقد أتَم تدوبنها عام 1220 هـــ[1]، وهي رحلة مختصرة تقع في 217 صفحة [2].

يتبين مما سبق ذكره أن محمد بن عبد السلام الناصري قد سار على نهج الرحالة المغاربة الذين سبقوه في تدوين ملاحظاتهم ومشاهداتهم، وذلك سعيا منهم لنشر العلم والمعرفة، وفي هذا السياق تندرج الرحلة الكبرى والصغرى للناصري الذي نجده حريصا على تقييد أسفاره، حيث عبر عن ذلك بشكل جلي في مقدمة رحلته الصغرى إذ يقول:"بعد أن هتفت فيَ هواتف التيسير، و زايلتني عوائق التعسير، لتقييد ما عرض في سفري لتلك الديار وما عاينته بتلك الأمصار والقفار خدمة للعلم الشريف ورغبة في نشره"[3].

اعتمد الناصري في تدوين الرحلة الكبرى والصغرى إضافة إلى تجربته الشخصية ومعاينته للأحداث التي عاصرها ووقف عليها على مصادر كثيرة ومتنوعة تنم على سعة إطلاعة وثقافته، فهو في وصفه للأمصار استند على أشهر المؤلفات ككتاب أخبار "مكة للأرزقي" و"الطبقات الكبرى" لابن سعد و"شفاء الغرام" للفاسي و "الأعلام" للقطبي [4]، وفي وصفه للأماكن والمسالك نقل الناصري عن"الروض المعطار في خبر الأقطار" للحميري، إضافة إلى "المسالك والممالك للبكري" [5]،كما اعتمد عل مجموعة من الرحلات السابقة كرحلة العبدري و رحلة البلوي ورحلة أبي سالم العياشي، و رحلة عبد المجيد بن على المنالي الزبادي و رحلة أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي ورحلة الصفدي وغيرها[6].

وأما بخصوص المصادر الفقهية فأخذ عن كتب التفسير ومنها كتاب"الجواهر الحسان في تفسير القران" للثعالبي و تفسير الزمخشري " الكشاف عن الحقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل"، وفي السيرة اعتمد على "سيرة ابن اسحاق" و "الشمائل المحمدية" للترمذي "وأنباء الأذكياء حياة الأنبياء" للسيوطي فضلا عن كتاب "صحيح البخاري ومسلم" و"سنن ابن ماجة" وغيرها من المصادر الدينية و الفقهية و التاريخية والجغرافية الأخرى التي أكدت مروياته وما جاء في رحلاته الأولى والثانية [7] .

---

[1] الجاسر، المرجع السابق، ص 37.

[2] توجد نسخة مخطوطة منها بالخزانة الحسينية بالرباط تحت رقم: 121.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الصغرى** ، المصدر السابق، ص 109.

[4] الجاسر، المرجع السابق، ص 39.

[5] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الصغرى** ، المصدر السابق، ص 46.

[6] محمد بن محمد الحاتمي، **الحرمان الشريفان في الرحلة الناصرية الكبرى لمحمد بن عبد السلام الناصري**، ضمن أبحاث ندوة الرحلات الدرعية إلى الديار الحجازية المنعقدة بزاكورة يومي 23و 24أكتوبر 2015م، المغرب، ص 131.

[7] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 23.

إن رحلة الكبرى والصغرى لمحمد بن عبد السلام الناصري لا شك أنها تعد من أهم الرحلات الحجازية التي يزخر بها التراث الأدبي المغربي فهي من الرحلات القليلة التي عاصرت فترة مهمة من تاريخ العالم الاسلامي، ألا وهي نهاية القرن الثامن عشر و مستهل القرن التاسع عشر، هذه الفترة التي شهد فيها العالم الإسلامي العديد من التحولات التي مست كافة الأصعدة وهو ما يبرز أهمية الرحلة الناصرية الأدبية والعلمية والتاريخية .

ج. القيمة العلمية للرحلة :

تعد الرحلة الناصرية من أهم الرحلات المغربية المدونة في نهاية القرن الثامن عشر، ذلك أنها من أشمل الرحلات وأوسعها، فهي كما وصفها محمد الفاسي تعتبر من أهم ما وضعه المغاربة في هذا الفن الذي برزوا فيه وأبدعوا[1]، فالدارس لمتن رحلاته يجدها تزخر بالمعارف المتنوعة الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية الشيء الذي يجعل مجال الاستفادة منها كبيرا ومتعددا .

وإذا ما أردنا الوقوف على أهم ما تتضمنه الرحلة الكبرى والصغرى لمحمد بن السلام الناصري، فإننا نجد أنها تعد مصدرا هاما لاغنى عنه، فهي تساعد على التعرف على ملامح العصر الذي عايشه الناصري،كما تمكن الباحث من الوقوف على مظاهر الحياة العامة سواء بالمشرق أو المغرب [2].

من بين أهم المواضيع التي استأثرت باهتمام الناصري وضمَنها في رحلته الكبرى وصفه الدقيق لهيأة ركب الحج المغربي وخروجه إلى الحجاز،كما تضمت علاوة على ذلك تفاصيل دقيقة حول أهم المنازل والمراحل التي يقطعها ركب الحج، وما يتخلل تلك المسالك من أخطار ومصاعب[3]، والناصري في وصفه لهذه الطرق لايكتفي بمشاهداته فحسب، بل يورد الكثير من الأوصاف الجغرافية التي نقلها عن مصنفات الجغرافيين الأوائل والرحالة الذين سبقوه من أمثال البكري والعبدري و رحلة التجيبي ورحلة أبي سالم العياشي وغيرهم[4].

إن الملاحظ من خلال متن الرحلة الكبرى و الصغرى أن الناصري قد خصص حيزا هاما للحديث عن ظاهرة اللصوصية والصعاليك التي كانت تعترض ركب الحج المغربي، فوصف ما كان يتعرض له الحجاج من

---

[1] الجاسر، المرجع السابق ، ص 37

[2] أحمدون ، المرجع السابق ، ص 249.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ج1، ص 18.

[4] أحمد فاضل، **مظاهر الإهتمام بالعلوم الشرعية في الرحلة الناصرية الكبرى للعلامة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري**، ضمن أبحاث ندوة الرحلات الدرعية إلى الديار الحجازية المنعقدة يومي 23و 24 أكتوبر 2015م بزاكورة، المجلس العلمي الأعلى، المغرب ، ص 146.

سرقات واعتداءات خاصة من طرف أعراب البوادي[1]، كما تناول في مواضع كثيرة من الرحلة الظروف الطبيعية التي شكلت أحد المخاطر التي واجهت قوافل الحج في طريقها إلى الحجاز كالجفاف و الفيضانات وهبوب الرياح والأوبئة وغيرها [2].

يحتوي نص الرحلة الكبرى والصغرى إضافة إلى أخبار ركب الحج على معطيات هامة يمكن من خلالها الكشف عن ملامح الحياة العلمية بالحرمين الشريفين ومصر، فالناصري أورد في رحلته تراجم الشيوخ الذين أخذ عنهم،كما وثَق الإجازات التي تبادلها مع أقرانه من علماء المشرق[3]، ويكفي أن نشير إلى بعض العلماء الذين ترجم لهم الناصري في رحلاته فنجد من أبرزهم : "الحافظ محمد مرتضى الزبيدي" و "أحمد بن محمد بن أحمد الدريد" و "أحمد جمال الدين الشافعي" وغيرهم من العلماء والفقهاء الذين لقيهم في رحلته الأولى والثانية [4]، وإلى جانب ذكره لتراجم العلماء رصد الناصري في ثنايا رحلتيه كذلك مظاهر الحركة العلمية بالمشرق ،حيث وقف على أهم الكتب التي شاهدها بمكة المكرمة وهو في هذا الشأن خصص فصلا للحديث عن أهم ما اطلع عليه من مؤلفات والتي كانت خزانة الزاوية الناصرية تفتقر إليها [5].

تتجلى الأهمية العلمية لرحلات الناصري كذلك فيما تضمنته من أجوبة فقهية حول العديد من المسائل التي طرحت عليه أثناء رحلاته خاصة ما ارتبط منها بقضايا العقيدة والفقه[6]، فالناصري كان في سياق رده على المسائل التي طرحت عليه يحرص على الاستشهاد بالنصوص والأدلة من خلال استعراض أقوال العلماء والفقهاء فيها، وهذا إذا دل على شيء فإنه يدل على الطابع الديني الذي يغلب على مضامين الرحلة، ومما يجب الإشارة إليه في هذا السياق أن اهتمام الناصري بمسائل الدينية إنما يعود إلى طبيعة التكوين الثقافي الذي نشأ فيه، حيث كانت الثقافة السائدة في تلك الحقبة هي الثقافة الدينية التي كان التصوف من أهم سماتها [7].

---

[1] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق،ج1، ص ص 399- 621 .

[2] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى**، المصدر السابق ، ص ص 114، 137، 143.

[3] أحمدون، المرجع السابق، ص 235.

[4] من بين العلماء والفقهاء الذين لقيهم الناصري في مصر وترجم لهم كذلك نذكر الشيخ الجوهري و الشيخ سليمان الفيومي ونقيب الأشراف الشيخ عمر الأفندي والشيخ سالم الطرابلسي و الشيخ الحريري .أنظر أيضا: محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى**، المصدر السابق، ص 195.

[5] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى** ، المصدر السابق، ج2، ص 569.

[6] للتوسع في المسائل الفقهية التي تناولها الناصري في رحلتيه أنظر: أحمدون، المرجع السابق، ص ص 236- 238.

[7] نفسه ، ص 232.

ومن أهم ما يمكن استيقاءه من ثنايا الرحلة الناصرية الكبرى والصغرى كذلك، هي تلك النصوص الأدبية النادرة التي تتضمنها، فهذه الرحلة تكاد تكون المصدر الوحيد الذي حافظ عليها [1]، ولعلّ من بين أهم النصوص الشعرية التي اشتملت عليها نجد قصيدة بائية نظمها أمير تونس حمودة بن عبد العزيز التونسي في مدح سلطان المغرب المولى محمد بن عبد الله[2]، إضافة إلى قصيدة في البحر الكامل نظمها محمد مرتضى الزبيدي في رثاء سلطان المغرب محمد بن عبد الله[3].

وبشكل عام يمكن القول أن الرحلة الناصرية سواء الكبرى أو الصغرى بما تضمه من تراجم لعلماء ومسائل فقهية و نصوص أدبية وإجازات متنوعة تمثل بلا شك نموذجا يعبر عن مظاهر التواصل العلمي والثقافي بين المشرق والمغربي العربي خلال العصر الحديث .

وتكمن أهمية الرحلة الناصرية كذلك فيما احتوته من معلومات تخص الجانب السياسي فمن خلال متن الرحلة الصغرى والكبرى للناصري نستشف بعض ملامح الحياة السياسية السائدة فيا الحجاز ومصر[4]، فالناصري يشير في رحلتيه إلى طبيعة الحكم في المناطق التي مرَ بها، كما أنه يرصد بعض الاضطرابات التي شهدها الحجاز بالخصوص[5]، ويستعرض الحالة الأمنية السائدة بهذه المناطق وذلك من خلال تركيزه على اعتداءات الأعراب على قوافل الحج وما ينجر عنها من اضطرابات[6]، ومن جهة أخرى ينقل متن الرحلة الناصرية كذلك صورا عن العلاقات بين أمراء مكة المكرمة و سلاطين المغرب ونستشف ذلك من خلال حديثه عن الصرة المغربية التي كانت توزع على أهل الحرمين الشريفين[7].

وزيادة على ذلك تنفرد الرحلة الناصرية الصغرى عن باقي الرحلات المغربية الأخرى في احتوائها على مجموعة من الأحداث السياسية والعسكرية الهامة التي شهدها العالم الاسلامي في نهاية القرن الثامن عشر، حيث أن الناصري نجده قد أرخ للحملة الفرنسية على مصر سنة 1898م وهو في هذا الصدد لا يكتفي بذكرها فحسب بل يستعرض الظروف التي وقعت فيها كما يشير إلى الانعكاسات والآثار التي ترتبت عنها، و لم يغفل

---

[1] محمد أحمد الدياجي،" حول تحقيق الرحلة الناصرية الكبرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري"، مجلة أفاق التراث والثقافة، ع 110، السنة 28، مركز جمعة الماجد للتراث والثقافة، الإمارات العربية، 2020م، ص 111.

[2] أحمدون، المرجع السابق ، ص ص 238،239.

[3] أنظر حول هذه القصيدة: محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى**، المصدر السابق، ص 131- 134.

[4] نفسه، ص 51.

[5] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق ، ج2، ص 518.

[6] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى**، المصدر السابق، ص ص 139، 140.

[7] نفسه، ص ص 210، 211.

أيضا التطرق إلى كيفية خروجها من مصر سنة 1802م [1]، ومما يجب الإشارة إليه في هذا السياق أن ما أدرجه الناصري عن الحملة الفرنسية يكتسي أهمية بالغة كون الرحالة الناصرية الصغرى تكاد تكون المصدر الوحيد من بين الرحلات المغربية الأخرى التي تطرقت لهذا الحدث السياسي الهام الذي كانت له انعكاسات هامة على العالم الاسلامي عامة.

وإلى جانب المعطيات السياسية الجغرافية والدينية والعلمية تزخر الرحلة الصغرى والكبرى فضلا عن ذلك على معلومات ذات بعد اقتصادي، فالناصري في رحلته الصغرى أشار إلى المنتوجات المتبادلة في البيع والشراء، كما تطرق في الوقت ذاته إلى أنواع العملة الرائجة في المناطق التي مرَ عليها الركب[2] ، واستعرض أهم المكوس التي كانت تفرض على الحجاج في مصر[3]، وهذه المعلومات تجعل من الرحلة مصدرا هاما فهي تساعد على التعرف على نمط الحياة الاقتصادية في المشرق العربي، فالناصري زيادة على وصفه الدقيق للأوضاع الاقتصادية يتطرق كذلك إلى التحولات الاقتصادية التي عرفتها الحواضر التي مر عليها ركب الحج الفاسي.

لم يغفل الناصري في متن رحلته الإشارة إلى الأوضاع الاجتماعية المتعلقة بالمناطق التي مر بها، فرحلته في هذا الجانب تحفل بالمعطيات الهامة[4]، حيث نجده يتطرق سواء في رحلته الكبرى أو الصغرى إلى بعض العادات الاجتماعية التي لاحظها خاصة بالحجاز ومصر، وهو في هذا الشأن لا يقتصر على وصفها فحسب وإنما يبين موقفه منها فيستنكر العادات الغريبة والمذمومة منها من جهة ويرصد الاختلاف الموجود بينها وبين ما هو سائد من عادات بالمغرب من جهة أخرى [5]، ولعلّ من أهم العادات التي أثارها في رحلته الكبرى وخصص لها حيزا كبيرا هي ما يخص الاحتفالات الدينية، حيث اهتم برصد مظاهر الاحتفال بكسوة الكعبة وخروج المحمل الشريف من مصر فقدم بذلك صورة دقيقة عن المجتمع المصري وعاداته [6]، وإلى جانب ذلك لم يفت الناصري

[1] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى**، المصدر السابق، ص ص 200، 201.

[2] نفسه ، ص ص 143، 146، 165، 183.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ج2، ص ص 625، 626.

[4] أحمدون، المرجع السابق، ص ص 233، 234.

[5] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الصغرى**، المصدر السابق، ص 52.

[6] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق،ج1، ص ص 394-397.أنظر أيضا: محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى** ، المصدر السابق، ص ص 195، 196.

أيضا الإشارة إلى بعض الظواهر السلبية المنشرة بالمشرق العربي فكانت ظاهرة اللصوصية التي أسلفنا ذكرها من أكثر القضايا التي أسهب في وصفها [1].

وجدير بالذكر أن الناصري في عرضه ووصفه للمشاهد و الأحداث التي عاصرها خلال رحلاته لم يغفل الإشارة إلى التغيرات التي طرأت فكثيرا ما نجده يعقد مقارنات بين ما شاهده ولاحظه في رحلته الأولى وبين ما وقف عليه من مظاهر في رحلته الثانية، فهو في هذا الصدد يبين مظاهر الاختلاف ويرصد أهم التغيرات التي طرأت على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية.

وعلى العموم يمكن القول أن المتصفح لرحلة محمد بن عبد السلام الناصري سواء الرحلة الكبرى أو الصغرى يجد أنها تزخر بالمعارف المتنوعة التي ساهمت في استجلاء صورة وواقع المشرق العربي عامة ومصر والحجاز على وجه الخصوص، فالرحلة بما تضمنته من معطيات تعكس الثقافة الموسوعية التي ميزت محمد بن عبد السلام الناصري ومكانة العلمية التي تبوئها، ونص الرحلة رغم الطابع الديني الذي يغلب عليه إلا أنه يبقى من أهم المصادر الأساسية التي تمد الباحث بمعلومات تاريخية مهمة سواء حول ركب الحج أو مراحل الطريق ومشاق السفر ومصاعبه أو حول مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالمشرق العربي في نهاية القرن الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر، وعليه فإنّ الرحلة الناصرية الكبرى والصغرى تكتسب مكانة هامة من بين الرحلات الحجازية المغربية الأخرى نتيجة للخصوصيات التي تتمتع بها، فهي إضافة إلى كونها كانت رحلة لأداء مناسك الحج تعد سجلا تاريخيا يختزن في مضامينه الكثير من الصور التي تعكس عمق التواصل بين المشرق والمغربي .

4.5 رحلة الطالب أحمد ابن طوير الجنة 1245هـ/ 1829 .

أ) التعريف بصاحب الرحلة :

هو المتصوف والعالم الطالب أحمد المصطفى بن طوير الجنة ابن عبد الله ابن أحمد الصائم الحاجي، يرجع نسبه إلى قبيلة إيدو الحاج إحدى القبائل البارزة في بلاد شنقيط (موريتانيا حاليا) ، ولد سنة 1202هـ - 1787م بودان في أسرة اشتهرت بالعلم والصلاح والمعرفة [2]، وأما وفاته فكانت سنة 1266هـ- 1850م [3].

---

[1] أحمدون، المرجع السابق، ص 233.

[2] أحمد ابن طوير الجنة، **تاريخ ابن طوير الجنة** ، تح: سيد أحمد بن أحمد سالم، دط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1995م، ص 25،26.

[3] التازي، **رحلة الرحلات**...، المرجع السابق، ص 490.

تلقى أحمد ابن طوير الجنة تعليمه الأولي على يد نخبة من علماء منطقته، حيث أخذ مبادئ الفقه والحديث عن ابن عمه الشيخ أحمد سالم ابن الامام و أخيه ابن السالك[1]، كما لازم لمدة طويلة الشيخ سيدى عبد الله ابن الحاج ابراهيم العلوي الذي أخذ عنه مختلف العلوم الدينية والنحوية[2].

عكف أحمد ابن طوير الجنة بعد استكمال تكوينه العلمي على التدريس في مسقط رأسه بودان حيث تتلمذ على يده كثير من الطلبة من أمثال محمد الصابر التاشدبيتي [3]، ومحمد بن صغير ابن انبوجة التيشيتي وغيرهم [4].

ارتحل ابن طوير الجنة لأداء مناسك الحج عام 1245هـ ، وقد سمحت له هذه الرحلة بتوسيع معارفه من خلال لقائه لأبرز العلماء الذين أجازوه في مصر كالشيخ البويصري وسيدي عبد الله المنوفي والشيخ عبد الباقي الزرقاوي وغيرهم من العلماء في الأزهر الشريف[5] .

اهتم ابن طوير الجنة بالزهد والتصوف، إذ كان ينتسب للطريقة الشاذلية[6]، وإلى جانب ذلك بلغ ابن طوير الجنة مكانة مرموقة سواء في مجتمعه أو في مختلف المناطق التي زارها ومر عليها، وليس هذا فحسب بل كانت له حظوة كبيرة لدى السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن[7].

خلف ابن طوير الجنة مصنفات كثيرة في شتى فروع المعرفة ومنها:

- فيض المنان في الرد على مبتدعة هذا الزمان: ويتناول هذا المؤلف ردا على طائفة المعتزلة الذين لم يتقيدوا بتعاليم العقيدة الاسلامية، وقد دونه في طريق عودته من الحج سنة 1831م، يضم حوالي 29صفحة .
- كتاب في التوحيد يتناول فيه شرح عقيدة الطالب جده الغلاوي.
- اختصار لنظم ابن شقرون في الطب.
- نظم في المنطق.

---

[1] ابن طوير الجنة، **تاريخ ابن طوير** ...، المصدر السابق ، ص 26.

[2] علي مفتاح ابراهيم منصور، **تاريخ ليبيا الثقافي والديني والاجتماعي من خلال الرحالة العرب والأوروبيين خلال القرنين 18و19م**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، 2006م، 2007م، ص 56.

[3] ابن طوير الجنة، **تاريخ ابن طوير** ...، المصدر السابق، ص 27.

[4] سيدي عبد الله ابن انبوجة ، **ضالة الأديب**، تح: أحمد ولد الحسن، دط، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، المغرب،1996م، ص 98.

[5] العباس بن ابراهيم السملالي، **الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، ج3، ط3، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1993م ، ص ص 260، 261.

[6] ابن طوير الجنة ، **تاريخ ابن طوير**...، المصدر السابق، ص 27.

[7] محمد منصور كلخة، "عرض كتاب رحلة ابن طوير الجنة"، مجلة المناهل، ع17، مارس، المغرب ، 1980، ص 394.

- رسالة في الرد على الرسالة الغلاوية للشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيدي المختار الكنتي.
- تاريخ ابن طوير الجنة
- رحلته الى الحج والمعروفة باسم المنى والمنة[1].

ب . التعريف برحلة ابن طوير الجنة:

احتلت بلاد المشرق العربي مكانة بارزة لدى العلماء المغاربة لما كانت تمثله من دلالات روحيه[2]، ولهذا لم يقف البعد الجغرافي و لا مصاعب السفر حائلا أمام استمرار رحلاتهم إلى الحج وطلب العلم وتسجيل ذلك في مصنفات حافلة بوصف أحوال الناس وأخبار الدول والممالك، وفي هذا الإطار تندرج الرحلات الحجازية التي قام بها أهل شنقيط خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر [3].

تعتبر رحلة المنى والمنة لمنشئها أحمد ابن طوير الجنة واحدة من الرحلات الحجازية الهامة التي تجسد مظاهر التواصل بين بلاد شنقيط والمشرق العربي في القرن التاسع عشر، وبالعودة إلى السياق الذي تمت هذه الرحلة نجد أنها كانت في أوائل القرن التاسع عشر وبالتحديد مابين سنتي 1245هـ- 1250هـ/ 1829م-1834، أي أن رحلة ابن طوير الجنة استغرقت أكثر من خمس سنوات الأمر الذي يجعلها تعد من أطول الرحلات الشنقيطية إلى بلاد المشرق العربي إن لم تكن من أطول الرحلات في المغرب العربي عامة [4].

استهل أحمد ابن طوير الجنة رحلته بالإشارة إلى الهدف المرجو منها إذ يقول في هذا الصدد: " وخرجنا قاصدين بيت الله الحرام والمصطفى صلى الله عليه وسلم سيد الأنام أكرم أنبياء الله الكرام صلى الله عليه وعليهم وعلى آله العظام وذريته الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة "[5].

انطلقت رحلة أحمد ابن طوير الجنة بخروجه من مسقط رأسه بمنطقة "تيشيت " بودان في السابع من جمادى الأولى من عام 1245هـ وكان قاصدا التوجه إلى وادي درعة لمرافقة الركب السجلماسي، غير أن هذا الركب كان قد غادر إلى الحجاز قبل وصوله إلى درعة، فأقام أحمد ابن طوير الجنة بعدها في قبيلة

---

[1] ابن طوير الجنة، **تاريخ ابن طوير**...، المصدر السابق، ص ص 28، 29.

[2] الحسين عماري، **الركب الشنقيطي جسر للتواصل الروحي والثقافي خلال العصر الوسيط وبداية الحديث**، ضمن أبحاث ندوة ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال 29و30 ماي 2013م،ص 161.

[3] ولد سالم ، المرجع السابق، ص 115.

[4] التازي، **رحلة الرحلات**...، المرجع السابق، ص490.

[5] ابن طوير الجنة، **رحلة المنى** ... ، المصدر السابق، ص 2.

تجكانت، ثم أخذ ينتقل بين حواضر المغرب فتوجه إلى مراكش التي لقي فيها الكثير من العلماء و زار كذلك فيها بعض الأضرحة ومختلف الزوايا المتواجدة بها[1] .

التقى ابن طوير الجنة أثناء إقامته بمراكش بالسلطان المغربي مولاي عبد الرحمن الذي بالغ في ضيافته وحسن استقباله، كما تناقشا حول أحوال بلاد شنقيط سواء فيما يخص أحوال السكان فيها وعاداتهم أو وضعية الأمن بها أو فيما يتعلّق بالحركة العلمية والجانب الاقتصادي، والجدير بالذكر أن أحمد ابن طوير الجنة قد أدى البيعة للسلطان عبد الرحمن الذي أعجب بمآثره وأعماله الجليلة [2].

واصل أحمد ابن طوير الجنة رحلته، فبعد إقامته بمراكش عزم على التوجه إلى فاس للحاق بركب الحج الفاسي المتوجه نحو البقاع المقدسة غير أن خبر وقوع احتلال الجزائر قد اثناه على ذلك وجعله يختار الطريق البحرى[3]، فهو يقول في هذا الصدد:" ولما قدمنا فاس ووجدنا الجزائر أخذتها النصارى الفرنسيس كتبنا إلى مولانا عبد الرحمن نصره الله وهو بمكناسة الزيتون أن البر لا يمكن السير فيه لأنه أرض سائبة وأنا نحب ركوب البحر فبقينا في حيرة... فكتب هو نصره الله إلى قائده بالعرائش مكتوبا جعل عليه طابعه ما نصه : سيد أحمد بن طوير الجن وتلاميذته الثمانية أركبهم في السفينة إلى الاسكندرية وكل ما لزمهم في كراء السفينة ادفعه أنت عنهم "[4] .

يتضح مما سبق ذكره أن أحمد ابن طوير الجنة قد اختار الطريق البحري[5] لأداء مناسك الحج، إذ انتقل في 1 جمادى الثانية من عام 1246هـ إلى مرسى مدينة العرائش أين ركب السفينة التي يذكر أنها كانت ملكا لأحد التجار من أهل فاس، ومن العرائش مر على مدينة (الكرنة) livourne– بإيطاليا التي توقف بها مدة من الزمن ثم ارتحل إلى الاسكندرية ومنها إلى السويس وصولا إلى الحجاز [6].

يذكر ابن طوير الجنة أن رحلته لأداء مناسك الحج قد تمت في ظروف صعبة ومما قاله في هذا الشأن: "وكنا نمكث في بعض المواضع بضع عشر يوما والسفينة لاتتحرك ... وقد ركبنا البحر في زمن لايركب فيه لشدة هوله في ذلك الزمن"[7] ، وقوله أيضا: " ومرة أخرى تأتي السفينة الرياح والعواصف حتى

---

[1] ولد سالم، المرجع السابق، ص 121.

[2] ابن طوير الجنة، **رحلة المنى** ... ، المصدر السابق، ص 15.

[3] ولد سالم، المرجع السابق، ص 121

[4] ابن طوير الجنة ، **رحلة المنى** ... ، المصدر السابق، ص 24.

[5] أنظر الملحق رقم08: ص387.

[6] ولد سالم، المرجع السابق، ص 122.

[7] ابن طوير الجنة، **رحلة المنى** ...، المصدر السابق ، ص 39، 40.

أيقن قومي بالغرق والهلاك ... حتى أن بعض النصارى خدام السفينة الذين معنا يتضرعون إلى الله ويلتمسون منا أن نتضرع إلى الله أن يكشف عنهم ماهم فيه من الغم والحزن والخوف من الغرق "[1].

مكث ابن طوير الجنة في المدينة المنورة مايقارب سبعة أيام ثم انتقل منها إلى مكة المكرمة في يوم 6 ذي الحجة 1246هـ أين أدى مناسك الحج، ومنها عاد إلى المدينة المنورة مرة أخرى وقضى فيها حوالي 17يوما ليسافر بعدها رفقة ركب الحج المصري عائدا إلى مصر، ومن مصر توجه بحرا إلى برقة فبنغازي وصولا إلى طرابلس ومنها إلى تونس التي زار فيها عددا من المدن الشهيرة إضافة إلى التبرك بزيارة الأضرحة والقبور.

انتقل ابن طوير الجنة بعد ذلك إلى مرسى بجاية التي كانت قد احتلت من طرف الفرنسيين أنذاك والذين خصصوا له ولمرافقيه سفينة تنقلهم إلى المغرب، وقبل وصول السفينة إلى المغرب عرج ابن طوير الجنة على مضيق جبل طارق الذي وجد فيه استقبالا كبيرا من طرف الانجليز والقنصل المغربي هناك[2]، ومنها سافر إلى طنجة ثم انتقل إلى مراكش التي استقبله فيها السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن وخصه بحفاوة كبيرة[3].

من الواضح أن علاقة أحمد ابن طوير الجنة والسلطان المغربي مولاي عبد الرحمن كانت وطيدة، فقبل عودته إلى ودان عكف على تأسيس زاوية له بمراكش والتي كانت بمثابة رباط وصل بين المغرب وبلاد شنقيط في القرن التاسع عشر[4].

لقد استغرقت رحلة أحمد بن طوير الجنة أكثر من خمس سنوات قضى معظم أطوارها في زيارة الأولياء والعلماء ورجال الحكم والسياسة، إضافة إلى التبرك بالأضرحة والمزارات الدينية، وكان خلال تنقلاته بمصر والحجاز لا يغفل الحديث عن مجالس العلم ونقل الأشعار و النوادر الأدبية وقصص وكرامات الأولياء الذين التقاهم أو سمع عنهم [5].

سجل ابن طوير الجنة وقائع رحلته إلى البقاع المقدسة في مصنفه الذي اختار له عنوان"**رحلة المنى والمنة**"[6]، وهي من الرحلات الشنقيطية القليلة التي دونت في زمانها واكتسبت أهمية بالغة لدى

[1] ابن طوير الجنة، **رحلة المنى** ... ، المصدر السابق، ص 39.

[2] ولد سالم، المرجع السابق، ص 123.

[3] كلخة، المرجع السابق، ص 396.

[4] نفسه، ،ص 398.

[5] نفسه، ص 395.

[6] أنظر الملحق رقم09 ، ص388.

الدارسين [1]، ففي سنة 1911م نشر مدير مدرسة الجزائر أنذاك السيد" ديستان"الفرنسي ملخصا باللغة العربية حول هذه الرحلة في المجلة الإفريقية[2].

كما قام بنشرها وترجمتها إلى الإنجليزية أول مرة الباحث البريطاني "هنري نوريس[3]" H.T. NORRIS تحت عنوان "the pligrimage of ahmad son of the little bird of paradise "، وذلك استنادا إلى نسخة المخطوط الموجود بودان وتم نشرها عام 1977م، وتعد هذه النسخة من أوضح وأفضل النسخ التي عثر عليها لاحقا [4]، حيث كتبت سنة 1253هـ وذلك قبل وفاة ابن طوير الجنة وناسخها هو الحاج عمر بن سيدنا ابن الحاج عمر[5] وهي ذات النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا العرض .

ج. القيمة العلمية للرحلة:

تعد رحلة المنى والمنة لابن طوير الجنة من النفائس التي يزخر بها التراث الرحلي في بلاد شنقيط، وذلك لما لها من أهمية كبيرة في كشف جوانب هامة من تاريخ العالم الاسلامي في مطلع القرن التاسع عشر، وإذا ما أردنا الحديث عن أهم ما تتضمنه هذه الرحلة، فإننا نجدها أنها تحفل بالمعلومات التي تتصل بالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المناطق التي مرَ عليها.

من المواضيع البارزة في الرحلة نجد الجانب الصوفي الذي خصص له حيزا كبيرا إن لم يكن هو الجزء الغالب على الرحلة، فالرحالة اعتنى بذكر الأولياء الصالحين الأحياء والأموات منهم، كما تطرق إلى وصف كراماتهم التي وقف عليها خاصة في مراكش والاسكندرية التي زار فيها الكثير من الأضرحة والمعالم الدينية [6].

تظهر الصبغة الدينية والصوفيه للرحلة كذلك في الاستشهادات الكثيرة التي وظفها، إذ حوت الرحلة على آيات قرآنية وأحاديث نبوية متنوعة وذلك لتوضيح الكثير من المسائل، وفي المقابل لم يغفل صاحب الرحلة التطرق كذلك إلى وصف الطرق الصوفية المنتشرة بالمغرب و الحديث عن أهم المذاهب الاسلامية السائدة في

---

[1] الحاج صادوق، **الرحلات الحجازية المغاربية إبان القرن التاسع عشر وأثرها على البيئة الحجازية**، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، مرقونة، 2012/2011م، ص 132.

[2] أنظر:

distaing ," **Et-Ta Libe Ahemed Ben Towair El –Ganna – Rehlat El-Monna Wel Minna Pélernage A La Mekke"** , REVUE AFRICAINE , V 55 , 1911, P 216-231

[3] هنري نوريس: أستاذ بمعهد الدرسات الشرقية والإفريقية التابع لجامعة لندن .للمزيد أنظر: عبد الهادي التازي، **رحلة الرحلات...**، المرجع السابق، ص490.

[4] صفاء خلوصي،" حجة أحمد بن طوير الجنة" ، مجلة المجمع اللغة العربية بدمشق، مج 53، ج 3، دمشق، 1978م، ص ص 665- 667.

[5] أبو القاسم سعد الله، "حول رحلة ابن طوير الجنة" ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج 54، ج3، دمشق، 1979م، ص ص690،689.

[6] صادوق، المرجع السابق، ص131.

الأقطار التي شملتها رحلته، حيث قدم بذلك صورة مهمة عكست الحالة الدينية سواء في المغرب أو المشرق [1].

اشتملت رحلة المنى والمنة على معطيات أخرى في غاية الأهمية خاصة تلك التي تتعلّق بالجانب العلمي، حيث أفرد صاحب الرحلة جزءا من رحلته للحديث عن العلماء والفقهاء والأدباء والمشايخ الذين لقيهم في كل المدن التي مر عليها، فقدم ترجمة لهؤلاء العلماء وذكر مآثرهم و تطرق إلى ما أخذه عنهم من اجازات، كما اعتنى بذكر مجالس العلم والأدب خاصة في مصر والحجاز [2].

إن ما يميز رحلة المنى والمنة أنها من الرحلات التي تعكس ملامح الحياة الثقافية في المغرب والمشرق، فإضافة إلى ماحوته من تراجم فهي تضم بين طياتها نصوص شعرية متنوعة، فضلا أن الأسلوب الأدبي الذي دونت به والذي اتسم بالبساطة وبالوضوح واشتمالها أيضا على معارف مختلفة كالتفسير والتصوف والحديث و المنطق و الأدب، كلها سمات جعلت الرحلة تعد مصدرا لاغنى عنه سيما وأنها قدمت صورة تكاد تكون شاملة عن سمات الحركة الأدبية ومظاهر التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب في مطلع القرن التاسع عشر [3].

تتجلى أهمية رحلة المنى والمنة في أنها تمدنا بمعلومات مهمة حول تاريخ المغرب وعلاقاته ببلاد شنقيط فقد ضَمن ابن طوير الجنة رحلته التي استغرقت أكثر من خمسة سنوات من الملاحظات والانطباعات حول المغرب ورجاله مالم يخصصه لأي بلد آخر[4]، ومن جهة أخرى اكتسبت هذه الرحلة أهميتها كونها عاصرت أهم الأحداث التاريخية التي عرفها المغرب العربي في القرن التاسع عشر والمتمثلة في بروز الحركة الاستعمارية واحتلال الجزائر سنة 1830م[5].

امتازت رحلة المنى والمنة بالوصف الجغرافي الذي أخذا حيزا كبيرا من الرحلة، فالملاحظ أن ابن طوير الجنة كان حريصا على وصف كل المراحل التي قطعها خلال مسيرته إلى البقاع المقدسة، وقد جاء وصفه دقيقا للمدن والقرى التي توقف بها، فلم يكتف بذكر خصائصها ومميزاتها الجغرافية فحسب، بل أورد كذلك لمحة عن تاريخها، وقدم صورة عن معالمها الدينية وقائمة بأهم علمائها وأهم ما اشتهرت به [6]، وزيادة على ذلك

---

[1] ابن طوير الجنة، **رحلة المنى**... ، المصدر السابق، ص 51.

[2] صادوق، المرجع السابق، ص 132

[3] نفسه، ص 133.

[4] كلخة، المرجع السابق، ص 392.

[5] صادوق، المرجع السابق، ص 132.

[6] ابن طوير الجنة، **رحلة المنى** ... ، المصدر السابق، ص ص 9، 10 .

أفرد ابن طوير الجنة في رحلته حيزا مهما للحديث عن طرق الحج فوصف بشكل دقيق الطريق البحري الذي سلكه، كما أسهب في ذكر ظروف الحج و ما يلاقونه الحجاج من مخاطر خاصة تلك التي كانت تعترض الطريق البحري والسفن في القرن التاسع عشر [1]، ومن جهة أخرى حفلت رحلة المنى والمنة بأخبار اقتصادية متنوعة، إذ أن صاحب الرحلة عكف على وصف النشاط التجاري بالموانئ والمراكز التجارية،كما وصف الشركات المسيطرة على التجارة وأهم الأنشطة الاقتصادية للمغاربة في المشرق العربي كما لا تخلو الرحلة أيضا من الاشارة إلى الضرائب المفروضة على السلع وطبيعة المعاملات التجارية[2].

إلى جانب ماذكره ابن طوير الجنة عن الجانب الاقتصادي استعرض في رحلته هذه كافة الجوانب المتعلّقة بالحياة الاجتماعية في المناطق التي مرَ عليها، إذ كان حريصا على وصف عوائد السكان وذكر صفاتهم وطباعهم خاصة بالاسكندرية[3]،كما تطرق إلى الأوضاع الصحية التي سادت في هذه المجتمعات[4]، وتحدث عن ظاهرة اللصوصية في الحجاز [5]، من جملة القضايا الهامة التي استأثرت باهتمامه وأسهب في الحديث عنها ظاهرة تغلغل المدنية الأوروبية في أوساط المجتمعات الاسلامية وبالأخص في المدن الساحلية كطرابلس والإسكندرية، كما أشار إلى تأثر سكان المدن الساحلية بالمشرق العربي بعادات وتقاليد الجاليات الأوروبية المتواجدة بها، وفي هذا السياق كان ابن طوير الجنة كثيرا مايقارن بين الأوضاع الاجتماعية في المشرق مع ما يقابلها بالمغرب العربي الذي لم يشهد مثل هذه الظواهر السلبية التي استنكرها بشدة [6].

بناء على ما سبق ذكره يمكن القول أن رحلة المنى والمنة هي من الرحلات الحجازية الهامة التي لا يمكن الإستغناء عنها في دراسة تاريخ المشرق العربي في مطلع القرن التاسع عشر، وذلك بالنظر للفوائد العلمية الكثيرة التي تحفل بها، فهي مصدر أساسي للتعرف على طرق الحج ومظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية، كما أنها تعد نموذجا حيا يجسد مظاهر التواصل الحضاري بين بلاد شنقيط و المشرق العربي، ولعلّ هذه القيمة العلمية التي اكتسبتها هي التي جعلتها تحضى باهتمام الباحثين العرب والأجانب على حد سواء .

---

[1] ابن طوير الجنة، **رحلة المنى** ... ، المصدر السابق ، ص ص35- 40.

[2] سعيد ابن الأحرش، **الرحلات المغربية إلى الديار المقدسة وتركيا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مصدرا للمعلومات عن العالم الإسلامي**، ضمن أبحاث ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي ، مج1، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض 2004م، ص ص 39، 40.

[3] ابن طوير الجنة، **رحلة المنى** ... ، المصدر السابق، ص47.

[4] نفسه ، ص 43.

[5] نفسه، ص 55

[6] نفسه ، ص ص 43،44

5.5 رحلة الغيغائي 1274هـ/ 1858م:

أ. التعريف بصاحب الرحلة :

من الصعب على الباحث إيجاد ترجمة وافية للغيغائي باستثناء بعض ما ذكره عن نفسه في رحلته المدونة ، فحسب ماورد في مصنفه هو أبو عبد الله محمد بن الطالب سيدي مبارك بن الحاج علي بن أحمد بن محمد الغيغائي الأصل ،الوريكي الدار ، العمري النسب[1] .

ولد ونشأ الغيغائي بقبيلة غيغاية الواقعة بنواحي مراكش، كان كاتبا معاصرا للسلطان المغربي عبد الرحمن، كما تذكر بعض المراجع التي ترجمت له أيضا أنه كان فقيها يحضى بعلاقة خاصة عند بعض رموز المخزن ومنهم القائد ابراهيم بن سعيد الأجرواي[2].

اشتهر الغيغائي بسعة معارفه فكان رجل علم له مشاركة في شتى أصناف العلوم، وهذا ما نستشفه من خلال قراءة متن رحلته التي احتوت على استشهادات علمية متنوعة مستقاة من مختلف المصنفات المتداولة في عصره، كما أن الغيغائي إضافة إلى تكوينه الثقافي المتنوع كان شاعرا له عدّة قصائد ضَمنها في رحلته الحجازية[3].

أدى الغيغائي مناسك الحج مرتين الأولى كانت في عام 1263هـ- 1847م، أما الثانية فكانت في سنة 1247هـ- 1858م [4]، والجدير بالملاحظة أنه بالرغم من تنوع ثقافة الغيغائي إلا أنه لم تعرف له تآليف أخرى سوى رحلته الحجازية التي رصد وقائعها، و وأما بالنسبة لتاريخ وفاته فهو غير معلوم غير أن بعض الاشارات الواردة في متن رحلته تفيد أنه كان على قيد الحياة في سنة 1865م أي بعد سبع سنوات من عودته من الحج[5].

ب. التعريف برحلة الغيغائي:

رحلة الغيغائي من الرحلات الحجازية المهمة التي تزخر بالمعطيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تساعد على تقصي أوضاع البلاد الاسلامية في منتصف القرن التاسع عشر، وهذه الرحلة التي تحتفظ المكتبة

---

[1] محمد الغيغائي، **من المغرب إلى الحجاز عبر أوروبا 1857م**، تح: سليمان القرشي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات، 2018م، ص 30.

[2] الغاشي، **طرق الحج**...، المرجع السابق، ص 139.

[3] محمد حجي، **معلمة المغرب** ، ج 19، إشراف الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، المغرب، 2004م، ص6375.

[4] محمد المنوني، **مثقف من البادية يعرف المدينة المغربية بواقع أوروبا والمسلمين في القرن التاسع عشر**، ضمن أبحاث ندوة تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط، 1988م، ص 45.

[5] حجي، المرجع السابق، ص ص 6375.

العامة بالرباط بنسخة مخطوطة منها تحت رقم 98ج تشتمل على حوالي 446 صفحة من الحجم المتوسط[1]، وقد وصف من خلالها الغيغائي وقائع سفره إلى الديار المقدسة سنة 1857م.

على الرغم من أن رحلة الغيغائي تعتبر من الرحلات الحجازية إلا أنها تتميز عن الرحلات الحجية التي سبقتها في عدّة جوانب وعلى رأسها الطريق الذي اعتمده الغيغائي للذهاب إلى الحج [2]، إذ نلاحظ أن الغيغائي قد سلك الطريق البحري الذي أصبح مع بداية القرن التاسع من أهم الطرق المستخدمة لدى الحجاج المغاربة [3].

وكانت رحلة الغيغائي قد انطلقت بخروجه من موطنه" بأسكين وريكة " في يوم الأربعاء المصادف لـــ 15 من شعبان 1274هـــ/1857م باتجاه مراكش، ويشير الغيغائي أنه قد رافقه في هذه الرحلة المرابط محمد القرشي "[4].

عكف الغيغائي قبل وصوله إلى مراكش على زيارة قبور الأولياء الصالحين خاصة بأغمات، ومن مراكش تواصلت رحلته نحو مرسى مدينة الصويرة، ففي الثالث من شهر رمضان استقل السفينة المتجهة نحو مدينة طنجة[5]، ومن ميناء طنجة استمرّت رحلة الغيغائي نحو جبل طارق ومنه إلى مرسى مدينة مالطة لتتواصل رحلته بعد ذلك نحو مدينة الاسكندرية فالسويس بالبحر الأحمر وصولا إلى جدة فمكة المكرمة [6].

وأما بخصوص طريق العودة فبعد زيارته للمدينة المنورة توجه الغيغائي نحو السويس ثم إلى الإسكندية ثم ارتحل إلى مالطة ثم عاد مرة ثانية إلى الإسكندرية ومنها انتقل إلى إيطاليا ثم مرسيليا ثم اسبانيا مرورا بجبل طارق فطنجة، ليأخذ بعدها الطريق البري عبر العرائش وسلا ثم مراكش وصولا إلى موطنه[7] .

يبدو من خلال المسار الذي اعتمده الغيغائي ذهابا وإيابا في رحلته أنه يختلف عن مسار الذي كان يستخدمه الرحالة المغاربة، فلم يسبق لأحد منهم اعتماده ،ولعلّ ذلك يعود إلى أن ظروف الإبحار في البحر الأبيض المتوسط في القرن التاسع عشر قد تحكمت في ذلك ، فقد استوجب على الحجاج المتوجهين إلى الحجاز استخدام السفن الأوروبية، وعلى العموم فإن طريق رحلة الغيغائي ذهابا وإيابا قد سمح له بالإطلاع على

---

[1] ابن الأحرش، المرجع السابق، ص 40

[2] الغاشي، **طرق الحج** ...، المرجع السابق، ص 139.

[3] صادوق، المرجع السابق، ص 93.

[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص 44.

[5] نفسه، ص 44.

[6] نفسه، ص ص 59- 74، 77

[7] الغاشي، **طرق الحج**...، المرجع السابق، ص 139.

أوضاع البلدان التي زارها أو مر عليها وهذا ما جعل الرحلة تحفل بالمعلومات المهمة التي تساعد على التعرف على أحوال بعض المجتمعات وخصوصا ما تعلّق بمسألة التفاوت بين الضفة الشمالية والجنوبية [1].

استهل الغيغائي رحلته بتحديد الهدف منها حيث صرح أن الغاية منها هي أداء مناسك الحج وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام[2]، ثم شرع بعد ذلك في شرح أسباب تأليفه فمما ذكره في الشأن أن تدوينه للرحلة قد جاء نتيجة لإلحاح مجموعة من أحبائه من نخبة مراكش نذكر منهم: محمد الأمين الصحراوي و أبو عبد الله السيد محمد بن ابراهيم النظيفي وغيرهم ففي هذا الصدد يقول الغيغائي: " ولست ممن يجمع التأليف ، ولا ممن يقدر على السبح في بحر التصانيف ، وإنما حملني على تقييدها وجمعها وتسويدها بعض الأحبة الأجلة وفر الله جمعهم وجعل في الصالحات سعيهم " [3]، ثم يضيف:" فجعلت أقص عليهم بلساني ما رأيت في سفري وما وقع في زماني ، فقالوا " هلا كتبت ذلك وجمعت فيه كل ما استفدت ممن لقيت وما حصلته وبحثت عنه وشاهدته ... يكون ذلك رحلة ومؤلفا ينفعك ، تذكر به المواضع المذكورة ، وينفع من أراده بعدك "[4].

وأمّا بخصوص مضمون رحلته فيقول عنه: " إني قيدت بعض المسائل والأخبار في سفري هذا إلى الحج الأكبر وهو سفري الثاني بعد الأول فكتبت مسائل في طريق الحج مما يقع لمريده، وما يشاهده وما يلقاه من مشقة ،ويكابدم من محنة وما يركتبه بعض الناس... "[5].

لقد قسم الغيغائي محتوى رحلته إلى أربع أبواب هي كالتالي :

الباب الأول: في السفر إلى الحج وما يقع فيه ، وركوب البحر وأحواله إلى الاسكندرية ومصر .

الباب الثاني : خصصه للحديث عن مصر وأهلها، وأخبارها وأحوالها وصفة أهلها، وأسماء المدفونين بها وأسماء بعض الفقهاء بها وعجائبها ومن دخلها من الصحابة والتابعين، وأمراء الإسلام وحكام الترك فيها وذكر طلبة الأزهر وجوامعها.

الباب الثالث : تناول فيه ذكر مكة المشرفة وبعض أخبارها ، كما تطرق إلى فضائل البيت المعظم ومن بناه فضلا عن الحديث عن مناسك الحج وغيرها .

الباب الرابع: اشتمل على وصف للمدينة المنورة وأهم المشاهد فيها [6].

---

[1] الغاشي، **طرق الحج**...، المرجع السابق ، ص 139.

[2] الغيغائي، المصدر السابق، ص 29.

[3] نفسه ، ص ص 33، 34.

[4] نفسه ، ص 44.

[5] نفسه، ص 31.

[6] نفسه ص ص 37.

إضافة إلى الأبواب السالفة الذكر تتألف رحلة الغيغائي من مقدمة تناول فيها بإسهاب آداب السفر وما يحتاج إليه المسافر سواء في البر أو البحر[1]، وعلى العموم اتسم أسلوب الغيغائي بدقة الوصف حيث نجده حريصا على تقييد كل ما شاهده من ظواهر سواء تلك التي وقف عليها بنفسه أو سمعها من غيره، وهذا إلى جانب اهتمامه الكبير بالشرح والتعليق [2].

ج. القيمة العلمية للرحلة:

تعدّ رحلة الغيغائي[3] من أهم الرحلات الحجازية التي دونت في القرن التاسع عشر، خاصة وأنها عكست وقائع فترة هامة من تاريخ العالم الإسلامي، فالرحلة جاءت متنوعة المضامين، فيها من المعلومات ما يتعلّق بالجانب الجغرافي، ومنها ما يخص الجانب السياسي والوضع الاقتصادي وفيها من المعطيات الأخرى تتعلّق بأحوال الناس وعاداتهم وحياتهم الاجتماعية، وفيها ما له علاقة بالجانب العلمي، ولعلّ ذلك ما جعل صاحب كتاب المعسول يشير وينوه بأهميتها وقيمتها العلمية إذ يقول عنها:" وقد وقفت على ماصاغه صوت التبر الأحمر ونظمه انتظام الدرر والجوهر أخونا في الله أبو عبد الله محمد بن عبد الله الغيغائي في رحلته إلى المشرق ذهابا وإيابا فوجدها عديمة النظير، بديعة النقول والتحرير ، محتوية على أغرب الغرائب لما تضمنته من تواريخ وأخبار وعجائب، وقد سلك فيها سبيل السلامة والاحتياط خالية من الاطناب والتعقيد"[4].

إن أهم ما حفلت به رحلة الغيغائي هو الوصف الجغرافي الذي أخذ حيزا كبيرا من الرحلة، إذ نلاحظ عنايته الفائقة في تتبع المراحل التي قطعها، فجاء وصفه دقيقا للمدن التي حلَ بها ،خاصة مراكش والصويرة ومالطة، فضلا عن الاسكندرية والمدينة المنورة موضحا خصائصها الطبيعية والجغرافية و مقدما لمحة عن تاريخها وأهم مميزاتها[5]، واستعرض الغيغائي إلى جانب ذلك ظروف الحج و بَين ما كان يلاقاه الحجاج من مشقة وعناء في رحلتهم نحو البقاع المقدسة، فرسم بذلك صورة دقيقة عن أوضاع الحجاج المغاربة على متن السفن الأوروبية [6].

تكمن أهمية رحلة الغيغائي زيادة على ذلك فيما احتوت عليه من معلومات سياسية هامة، فالغيغائي قد أرخ لمرحلة هامة وخطيرة من تاريخ مصر والبلدان الإسلامية في القرن التاسع عشر، ولعلّ من أهم الأحداث

---

[1] الغيغائي، المصدر السابق ، ص 39.

[2] ابن الأحرش، المرجع السابق، ص 41.

[3] أنظر الملحق رقم 10، ص 389.

[4] محمد مختار السوسي، **المعسول**، ج9، د ن، د ب ن، دت، ص 153.

[5] الغيغائي، المصدر السابق ،ص ص 47،59، 74، 77

[6] نفسه، ص 65 .

التي خصص لها حيزا مهما في رحلته الحرب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد روسيا فتطرق إلى أسبابها و ما نجم عنها من نتائج وخيمة انعكست على الامبراطورية العثمانية ، ضف إلى ذلك أولى الغيغائي أهمية كبرى للوضع السياسي في مصر، فقد أسهب في الحديث عن سياسة محمد علي باشا ، فتطرق في البداية إلى الظروف التي صاحبت اعتلاءه للحكم في مصر، ثم أشار إلى سياسته التوسعية في الحجاز وبلاد الشام كما استعرض بإيجاز الصراع الذي قام بين ابراهيم باشا وأتباع الوهابية في الحجاز ، و لم يغفل الغيغائي الإشارة في هذا الصدد إلى توتر العلاقات بين مصر والدولة العثمانية في هذه الفترة و تطورها من ناحية أخرى مع الدول الأوروبية[1].

والجدير بالذكر أنه إذا كان الغيغائي قد اكتفى بذكر تفاصيل وإشارت بسيطة عن الأحداث السياسية بين الباب العالي و محمد على، فإنه في المقابل قد قدم معطيات كثيرة حول محمد على باشا وأعماله العسكرية وهو مايعكس بلا شك السياسة التحديثية التي شهدتها مصر في القرن التاسع عشر[2] .

إنّ ما يميز رحلة الغيغائي احتوائها أيضا على معطيات وافية تتعلّق بالجانب العلمي حيث عمد صاحب الرحلة على ذكر فحول العلماء والفقهاء ممن التقاهم أو سمع عنهم خلال تنقلاته، كما استعرض مؤلفاتهم وقصائدهم وتطرق إلى فقهاء المذهب الشافعي والمالكي، وأشار كذلك إلى نظام القضاء وأحوال القضاة في مصر وطبيعة مهامهم[3]، و من الأمور الهامة التي وصفها الغيغائي حديثه عن مكانة الأزهر الشريف الذي أبدى أعجابه به، فتناول بالتفصيل وضعية الطلبة وأحوالهم، كما وصف مجالس وحلقات التدريس، وذكر مختلف العلوم التي تدرس هناك، واهتم بشكل خاص برصد وضعية الطلبة الوافدين إليه من مختلف الأقطار العربية الأخرى فشرح نظام سكناهم وطريقة عيشهم وحدد أهم الأروقة التي يتكون منها الأزهر ، وليس هذا حسب بل أشار علاوة على ذلك إلى الأوقاف المخصصة لهم[4].

لكن الذي استوقف الغيغائي وخصه بالوصف الدقيق في رحلته المطبعة الأميرية إذ تحدث عن دورها وأشار إلى أسماء المصحيين بها، و لم يكتف بذلك فحسب، وإنما وصف كذلك مؤسسات علمية أخرى منها دار الكتب بمصر و أشاد بمكانة العلم والعلماء بها [5].

---

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص ص 81، 82- 132، 133، 134.

[2] مصطفى الغاشي، **مغربي في مصر خلال القرن التاسع عشر**، أبحاث ندوة السفر في العالم العربي الإسلامي التواصل والحداثة، تنسيق عبد الرحيم المودن – عبد الرحيم بنحادة، ط1، م.ن.ج ، الدار البيضاء، 2003م، ص 98.

[3] الغيغائي، المصدر السابق ، ص ص 91- 96

[4] نفسه، ص ص 97- 101.

[5] نفسه، ص ص 104- 107.

ومن جهة أخرى، تمتاز رحلة الغيغائي بوفرة المعلومات التي تعكس مظاهر الحياة الاجتماعية التي خصها بنصيب وافر من الوصف، إذ تحدث بإسهاب عن المجتمع المصري فوقف على طبائعهم وأحوالهم ، وبين عادتهم في اللباس والمأكل[1]، وزيادة على ذلك استعرض مختلف الشرائح الاجتماعية التي يتكون منها، كما وصف عوائدهم في الاحتفال بالمواسم ولم يكتف بذلك بل أورد كذلك معلومات تخص وضعية المرأة في مصر[2] ، وسجل في مواضع أخرى من الرحلة انطباعاته عن ظاهرة اللصوصية التي انتشرت بالحجاز ولم يفت الغيغائي كذلك الإشارة إلى بعض الأمراض والأوبئة التي عرفها المشرق أواسط القرن التاسع عشر [3].

إنّ الذي اسوقف الغيغائي و انفرد به عن باقي الرحلات المغربية حديثه عن خطورة الوجود الأوروبي بالمشرق العربي وماترتب عن ذلك التواجد من أثار سلبية سيما وأنه اتخذ شكل التحدي والسيطرة وهذه المعلومات الهامة تظهر مدى وعي الغيغائي بالأخطار التي كانت تحدق بالمسلمين في القرن التاسع عشر[4]، فجاء وصفه دقيقا للنصارى بمصر، حيث تحدث عن أوضاعهم الاجتماعية ومكانتهم الكبيرة في المجتمع بالإضافة إلى تناوله لطريقة تنظيمهم وعلاقاتهم بأهالي[5]، والغيغائي في حديثه عن مظاهر الحياة الاجتماعية بمصر والحجاز لم يغفل استنكار الظواهر السلبية منها ففي مقابل ذلك كان يقوم بالمقارنة بين ماهو موجود في المغرب مع لاحظه من اختلافات في مصر والحجاز [6].

زيادة على المعطيات الاجتماعية والجغرافية والعلمية قدم الغيغائي أيضا معلومات توضح طبيعة الحياة الاقتصادية، فنجده قد أشار إلى الحركة التجارية التي شهدتها الاسكندرية، حيث اهتم برصد أنواع السلع وأوضح حالة الأسواق فيها، كما تطرق إلى مختلف أجناس التجار الوافدين إليها، ومن ناحية أخرى تحدث عن بعض المؤسسات التي استرعت انتباهه خاصة تلك التي كان لها دور في تطور الحركة الاقتصادية ومنها وصفه للمراسي والموانئ وماكانت تشهده من أنشطة متنوعة، فضلا عن حديثه عن شق الطرق وإنشاء القناطر وغيرها من المنشآت [7].

---

[1] عبد العزيز التمسماني خلوق، "رحلة الغيغائي" ، مجلة دار النيابة، ع 22، السنة 1989م، المغرب، ص 36.

[2] الغيغائي، المصدر السابق ، ص ص 112 _ 129

[3] التازي، **رحلة الرحلات**...، المرجع السابق، ص 510.

[4] التمسماني خلوق، المرجع السابق، ص 35.

[5] الغيغائي ، المصدر السابق، ص ص 81، 83

[6] نفسه، ص ص 113- 126

[7] نفسه، ص ص 79- 82.

تتجلى أهمية رحلة الغيغائي إلى جانب ماذكرناه سالفا في الإفادات الهامة التي انفردت بها، فمن أهم ما تضمنته الرحلة وصفه الدقيق للتقنيات الحديثة التي استرعت انتباهه في مصر والحجاز كالبابور والتلغراف والقطار والمطبعة الأميرية [1]، هذا فضلا عن إبراز الرحلة للواقع المتردي للمسلمين في القرن التاسع عشر في ظل التفوق الأوروبي[2]، وهكذا فإن هذه السمة التي انفردت بها الرحلة هي التي جعلت محمد المنوني يعتبره "المغربي الأول الذي نشر بالمغرب في القرن التاسع عشر وصف تقنيات حديثة فهو حسبه يعدّ من طليعة المؤلفين الذين عرفوا بواقع المسلمين إزاء تفوق أوروبا" [3].

ومن ناحية أخرى لا بد من الإشارة إلى أن رحلة الغيغائي قد انفردت بمميزات أخرى حيث أن الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر عرفت عدّة تحولات، ولعلّ من أهم ما ماميزها دخول عنصر الرسم في متن الرحلة الشيء الذي زاد من أهميتها وقيمتها العلمية، فالغيغائي كان في مقدمة الرحالة المغاربة الذين ضّمنوا رحلاتهم رسومات مختلفة، إذا تضمنت رحلته صورة تقريبية للمسجد الحرام والكعبة المشرفة[4]، كما أعطى رسما مفصلا للبابور الذي استرعى انتباهه[5]، وهذه السمة توضح بجلاء جمالية الرحلة و تعكس في الوقت ذاته قدرة صاحبها على تجسيد ملاحظاته ومشاهداته للقارئ .

مما تقدم يتضح لنا أن لرحلة الغيغائي قيمة مصدرية مهمة فهي على الرغم من كونها رحلة حجازية إلا أنها تختلف عن الرحلات التي شهدتها الفترة الحديثة، وذلك بالنظر للإهتمام الكبير الذي خصصه الغيغائي للواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي في البلدان الاسلامية كمصر والحجاز، حيث واكبت هذه الرحلة التحولات التي طرأت على المجتمعات العربية في منتصف القرن التاسع عشر، الأمر الذي يجعل منها الشاهد على بدايات الاحتكاك الفعلي للبلدان العربية بمظاهر الحداثة الأوروبية، وبالتالي فإنها أرخت لمرحلة مهمة من تاريخ البلاد الاسلامية في القرن التاسع عشر وهو ما لا نجد له مثيلا في الرحلات الحجازية الأخرى .

[1] الغيغائي، المصدر السابق ، ص ص 84،85، 104

[2] حجي، المرجع السابق، ص 6375

[3] المنوني، **مثقف من البادية** ...، المرجع السابق، ص 45.

[4] الحاتمي، **الرحلة المغربية السوسية**...، المرجع السابق، ص 41.

[5] الغيغائي ، المصدر السابق، ص 71.

المبحث الثاني: الرحلات الأوروبية

استقطبت منطقة المشرق العربي خلال القرنين الثامن والتاسع عشر اهتمام الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين توافدوا عليها من مختلف الأقطار وسجلوا مشاهداتهم وانطباعاتهم حولها، وقد شكلت مصر والحجاز بالأخص أهم المناطق التي ارتكزت عليها هذه الرحلات، وذلك بالنظر لأهميتها التاريخية والإستراتيجية، ولا شك أن ما دونه هؤلاء الرحالة على اختلاف أهدافهم ومشاربهم من ملاحظات ومصنفات أضحى يعدّ من المصادر المهمة التي تساعد على تقصى تاريخ البلاد العربية، فأهميتها لا تكمن في عددها الكبير فحسب، وإنما في منهجيتها ومادتها الغنية التي أزالت الكثير من الغموض الذي ظل يكتنف جوانب مهمة من تاريخ هذه البلدان في العهد العثماني لاسيما في ظل الافتقار إلى المصادر المحلية .

وقبل الحديث والخوض في أهمية كتابات هؤلاء الرحالة الأوروبيين رأينا من المجدي تقديم لمحة موجزة عن التطور التاريخي للرحلة الأوروبية إلى المشرق العربي حتى القرن التاسع عشر مع استعراض أهداف الرحلات الأوروبية وذكر نماذج عن أهم الرحلات التي كان لها دور مهم في الكشف عن جوانب مختلفة من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني .

1. التطور التاريخي للرحلة الأوربية إلى المشرق العربي:

تتفق أغلب الدراسات على أن بداية تشكل العلاقات بين الشرق والغرب تعود إلى العصور الوسطى، حيث مثلت الحروب الصليبية أول احتكاك مباشر بين الطرفين، وكانت هذه الحروب تعد أهم محاولة أوروبية لاستعمار الشرق على نطاق واسع، ففي أعقاب هذا الاحتكاك ازداد اهتمام أوروبا أكثر بمعرفة الشرق و أحوال شعوبه وتراثه [1]، فلقد شهدت المنطقة العربية على إثر ذلك مجيء عدد كبير من الرحالة الأوروبيين سواء من الحجاج الذين قصدوا الأماكن المقدسة أو من التجار[2]، ولقد ترك أغلب هؤلاء الرحالة كتابات عن المناطق التي زاروها وصفوا من خلالها تجاربهم وانطباعاتهم، ولا شك أن ما دونه هؤلاء الرحالة الأوروبيين وما

[1] محمد عوض باعليان، **عدن في كتابات الرحالة الأوروبيين ما بين القرن الثالث عشر إلى الثامن عشر**، ضمن أبحاث ندوة عدن بوابة اليمن الحضارية ، اليمن ، ص 177.

[2] لعل من أهم الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المشرق العربي في العصور الوسطى و خلفوا كتابات حوله نذكر على سبيل المثال لا الحصر: القديس جيرم الذي حج إلى بيت المقدس سنة 385م ، وبنيامين التطيلي الذي قام برحلته مابين سنتي 1163- 1171م ، و يوحنا فوكاس الذي كانت رحلته عام 1185. للمزيد أنظر: محمد مؤنس أحمد عوض، **الرحالة الأوروبيين في مملكة بيت المقدس 1090– 1187م**، ط1، م.م ، القاهرة، 1992م، ص ص 11- 18.

تناقلوه من روايات عن المشرق العربي يعدّ من الإرهاصات الأولى لظاهرة الإستشراق خاصة وأن هذه الكتابات نجدها قد ساهمت في زيادة معارف الغرب حول الشرق الاسلامي [1].

بعد حلول القرن السادس عشر الذي تزامن مع عصر النهضة الأوروبية أخذت العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب بعدا آخر، ففي هذا العصر تطورت المعارف الأوروبية حول المشرق العربي بشكل واسع سيما بعد ترجمة العديد من الآثار الأدبية والفلسفية والعلمية إلى اللغات الأوروبية كقصص ألف ليلة وليلة [2]، فضلا عن ترجمة القرآن الكريم إلى لغات عدّة في القرن الثامن عشر، فتركت هذه المؤلفات صدى في نفوس الأوروبيين الذين تكونت لديهم صورة ملهمة عن الشرق دفعت بهم إلى زيادة الاهتمام به ومحاولة التعرف على تاريخه وحضارته [3]، وفي هذا السياق ينبغى ألا نغفل أن لحركة الكشوفات الجغرافية هي الأخرى دور مهم في إبراز أهمية المشرق العربي، فأوروبا تطلعت في هذه الفترة إلى السيطرة على الطرق التجارية والبحرية[4]، حيث كان للسياسة التوسعية التي انتهجتها وفتح الأسواق التجارية بعد ما أحدثته الثورة الصناعية من تكدس في الإنتاج دور فعال في تشجيع المنافسة على هذه المنطقة، وهكذا أضحت الرحلات تشكل جزءا مهما وأساسي في المجتمع الأوروبي بعد عصر النهضة ، فهذه الرحلات سواء كانت برية أو بحرية أدت إلى دعم النشاط الاستعماري الذي بلغ ذروته في القرن التاسع عشر، وذلك في ظل اتساع الحركة الاقتصادية وتطور التبادل التجاري[5]، وهو الأمر الذي أدى بلا شك إلى اتساع حركة الرحلات الاستكشافية إلى المشرق العربي.

لما كان السفر والترحال يعتبر جزءا من معالم النهضة الأوروبية فإن الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع مثلت أهم الفترات التي شهدت تطور وازدهار الرحلة الأوروبية إلى المشرق العربي، فلقد أثارت الإمبراطورية العثمانية الاهتمام أكثر من غيرها من الإمبراطوريات الشرق الأخرى لأن وجودها بالنسبة لأوروبا شكل أكثر أهمية خاصة و أن جزءا كبيرا من العالم الإسلامي آنذاك كان منظويا تحت لوائها [6].

---

[1] على عفيفي غازي ، **كتابات الرحالة مصدر تاريخي**، منشورات المجلة العربية ، الرياض، 1439هـ، ص 32.

[2] يعد أنطوان غالان أول من ترجم قصص ألف ليلة وليلة إلى اللغة الفرنسية وذلك سنة 1704، حيث كان لهذه الترجمة أثر واضح في انفتاح الفكر الأوروبي على الشرق، وهو ماساهم بدوره في دفع حركة الاستشراق وتطورها. للمزيد أنظر: ابراهيم الحيدري، **صورة الشرق في عيون الغرب: دراسة للأطماع الأجنبية في العالم العربي** ، ط1، دار الساقي، لبنان، 1996م، ص 35.

[3] عبد الله بن أحمد الغامدي، " رحلة إلى الشرق لجيرار دو نرفال : المرأة المصرية نموذجا"، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، مج 25، ع 1، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية ، 2017م، ص 160.

[4] علي عفيفي غازي، **بدو العراق والجزيرة العربية بعيون الرحالة** ، تق : محجوب الزويري، ط1، دار الرافدين ، العراق، 2016م، ص 40.

[5] فهيم، المرجع السابق، ص 32.

[6] سمير عطا الله، **قافلة الحبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج 1862– 1959**، ط1، دار الساقي ، لبنان، 1994م، ص 19.

إنّ من أهم العوامل التي ساعدت على زيادة معرفة الغرب بالمشرق العربي هي السفارات المتبادلة بين الدولة العثمانية و أوروبا[1]، فابتداء من القرن السادس عشر كانت العلاقات السياسية بين الطرفين قد شهدت تحولا مهما بعد أن تم توقيع معاهدة الإمتيازات الأجنبية مع فرنسا سنة 1535م،فبعد هذه الفترة تعددت وتوالت السفارات الأوروبية إلى المشرق العربي، الأمر الذي مهد الطريق أمام الرحالة الأوروبيين لزيارة المناطق العربية كمصر وبلاد الشام والحجاز، إذ لا يخفى علينا الدور الذي قام به هؤلاء السفراء والقناصل في التعريف ببلدان المشرق سواء من خلال مذكراتهم التي تركوها أو عن طريق اهتمامهم بجمع المخطوطات وإنشاء المطابع لنشر وترجمة التراث الشرقي[2] ، والجدير بالذكر أن وتيرة الرحلات الأوروبية إل بلدان المشرق العربي قد كانت تتحكم فيها طبيعة العلاقات مع الدولة العثمانية حيث كانت تنقطع وتزداد وتخف وذلك وفقا للظروف التي تتحكم في العلاقات بين الشرق والغرب[3].

لقد اتضحت صورة المشرق العربي إذن بفضل العلاقات التجارية والسياسية والبعثات الدينية والدراسات التاريخية والجغرافية واللغوية التي سوف تشكل فيما بعد ما عرف بالاستشراق [4]، غير أنّ من أهم العوامل التي أسهمت في توثيق عرى التواصل بين الشرق والغرب خلال هذه الفترة هي الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر، حيث يتفق الدارسون على أنه كان لها أثر البالغ في لفت أنظار الغرب إلى أهمية الشرق الإسلامي وما يحويه من معارف وتراث يبعث على الدهشة، فقد كانت هذه الحملة تضم بعثة علمية تتكون من العلماء والمهندسين والمؤرخين ومترجمين وغيرهم [5]، ولعلّ هذا ما أكده إدوارد سعيد في قوله: " إن احتلال نابليون لمصر أذِن بدوران عجلة الروابط بين الشرق والغرب ...،كما أنّ حملة نابليون بما أفرزته من ثمار

---

[1] كانت العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية ودول أوروبا تعتبر معيارا يحدد عدد الرحالة لكل دولة في الإمبراطورية العثمانية حيث تحكمت طبيعة تلك العلاقات في ازدياد تلك الرحلات أوقلتها . للمزيد أنظر:

stephane yerasimos**, Les Voyageurs Dans L'empire Ottoman (Xiv^{e}_ Xvi^{e} Siécles) Bibiliographie, Itinéraires Et Invet Des Lieux Habités** , Imprimerie De La Sociéte Turque D' Histoire , Ankara, 1991, p.10

[2] محمد بن عبد الهادي الشيباني، **أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية**، ضمن أبحاث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض 21- 24 أكتوبر، 2000م، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ، 2000م، ص ص 524، 525.

[3] ليليان زيدان "أحوال الشرق من خلال كتاب الرحلة إلى مصر وسوريا خلال 1783-1784-1785م للرحالة الفرنسي فولني"، مجلة كلية التربية الأساسية ، عدد خاص بوقائع المؤتمر الدولي العلمي الافتراضي الأول للعلوم والاجتماعية ، كلية التربية الأساسية ، جامعة المستنصرية بالتعاون مع كلية التربية الأساسية جامعة واسط وكلية الآداب والعلوم الإنسانية الجامعة اللبنانية ، 20 ، 21 تموز، 2020م، ص 496.

[4] جون ماري كاريه، **مختارات من كتاب رحالة وأدباء فرنسيون في مصر**، تر :سونيا نجا و رشا صالح ، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، مصر، 2006م، ص 60.

[5] الغامدي، المرجع السابق، ص 160.

القرائح العلمية الجماعية العظيمة التي يحفظها لنا كتاب "وصف مصر"، قد عدت المشهد أو الإطار الذي ازدهر فيه الاستشراق، إذ أصبح ينظر إلى مصر ومن بعدها البلدان الاسلامية الأخرى بصفتها المجال أو المختبر أو المسرح الحي للمعرفة الغربية عن الشرق" [1].

ومما ينبغي الإشارة إليه في هذا السياق أن حاجة أوروبا لمعرفة الشرق قد جاءت في إطار ما يعرف بالمسألة الشرقية التي كانت إحدى القضايا الرئيسية التي شغلت دول أوروبا في القرن التاسع عشر، وذلك في ظل الصراع القائم بينها وبين الدولة العثمانية[2]، وهكذا ظل المشرق العربي يمثل مركز استقطاب للعديد من الرحالة الأوروبيين، فالرحلة إليه كانت حلما تتوق نفس كل أوروبي إلى تحقيقه، وذلك نتيجة لما نقل عن هذه المنطقة بعد الحروب الصليبية من أخبار سواء من خلال كتب الأدب والرحلات، أو عن طريق ما تناقله التجار والمغامرون من روايات تداخل فيها الواقع مع الأسطورة، ومهما يكن من أمر فإن المشرق العربي قد احتل مكانة استراتيجية وظل على الدوام موضع تنافس بين الإمبراطوريات الاستعمارية في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر [3].

وعلى هذا الأساس شهد المشرق توافد رحلات كثيرة قام بها أوروبيون ممن مختلف الجنسيات على اختلاف أهدافهم وتوجهاتهم، ولا شك أن أدب الرحلات الغربي وأثار رحلاتهم التي خلفوها يعتبر كما يرى أسعد فارس:" امتدادا لحركة الاستشراق والمستشرقين، والاستشراق بحد ذاته هو تراث الامبراطوريات الغربية التي كانت ومازالت تحرص على الدوام مصالحها في البلاد الأخرى، وحتى الرحلات العلمية ذات الطابع الأكاديمي كانت مرتبطة بالسياسة أكثر من ارتباطها بالعلم و الحضارة، ونادرا ما حادت عن أهدافها السياسية "[4].

2. دوافع الرحلات الأوروبية إلى المشرق العربي:

لقد اختلف الباحثون في تحديد الأهداف الحقيقية للرحلات الأوروبية إلى المشرق العربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وترجع أسباب هذا الاختلاف الحاصل بينهم إلى أن الرحالة الغربيين أنفسهم لم يفصحوا بوضوح عن الأسباب الرئيسية التي دفعتهم إلى زيارة هذه المنطقة، إذ أنهم جعلوا غطاء لرحلاتهم التي

---

[1] إدوارد سعيد ، **الاستشراق المفاهيم الشرقية للغرب**، تر:محمد عناني، ط1، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،2006م، ص 100.

[2] أردموته هللر، "الغرب في مرآة الشرق"، مجلة فكر وفن، ع 40، ألمانيا، 1984، ص 34.

[3] ابراهيم محمد حمد المزيني، **وصف مكة ومظاهر الحج في رحلة المستشرق الإيطالي لودفيكو دي فارتيما 908هـ – 1503م**، أبحاث الملتقى العلمي الثامن عشر الحج والعمرة والزيارة ، المنقد في 1-2 ماي 2018م ،جامعة أم القرى، ص 21.

[4] أسعد عيد الفارس، **الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية أهدافهم وغاياتهم** ، ضمن أبحاث أبحاث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض 21- 24 أكتوبر، 2000م، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ، 2000م، ص 559.

كانت تهدف إلى جمع المعلومات ودراسة عادات الشعوب و أوضاعها المعيشية و السياسية وذلك بغية خدمة مصالح دولهم [1] .

لكن الدراسة المتعمقة للظروف التي كانت تتم فيها هذه الرحلات من شأنه أن يساعد بلا شك على تحديد الأهداف الخفية التي كان يسعى هؤلاء الرحالة لتحقيقها[2]، فإذا كانت أهم حججهم المعلنة تنحصر في الرغبة في الاستكشاف والسياحة وجمع المخطوطات الإسلامية و تعلم اللغة العربية والبحث عن الآثار أو زيارة الأماكن المقدسة وشراء الخيول العربية الأصيلة أو البعد عن الحياة الأوروبية الصاخبة والاستمتاع بسحر بلاد الشرق، فإنه من المؤكد أن كل هذه الأهداف تبقى ثانوية مقارنة بأهدافهم الخفية الأخرى التي ظهرت فيها النزعة الاستعمارية، فهؤلاء الرحالة نجدهم قد جاؤوا إلى المشرق من مختلف البلدان الأوروبية ووفق نوايا وأهداف محددة مسبقا[3]، وعلى العموم يمكن تقسيم دوافع الرحلات الأوروبية إلى المشرق العربي إلى دوافع دينية واستعمارية وعلمية .

الدافع الديني :

ظل الدافع الديني يشكل على مر العصور الباعث الأول والأساسي لرحلات الأوروبيين إلى المشرق العربي[4]، فلقد كانت الرحلة إلى بلاد الشرق عامة وإلى الأماكن المقدسة على وجه الخصوص تمثل بالنسبة للكثير من الأوروبيين واجبا دينيا لما لهذه الرحلة من أهمية كبيرة في الديانة النصرانية[5]، ولهذا فإن معظم رحلاتهم جاءت تهدف إلى تحقيق عدّة غايات دينية لعلّ في مقدمتها الرغبة في الحج وزيارة الأماكن المقدسة والمزارات المسيحية والوقوف على أوضاع المسيحيين واليهود في الشرق بعد أن خضعوا لسيطرة المسلمين [6].

والجدير بالذكر أنه زيادة على الدوافع السالفة الذكر قد تتخذ الرحلة بعدا آخر، إذ كان التبشير بالمسيحية أحد الأسباب المهمة التي دفعت بأوروبا إلى الاهتمام بالشرق والقيام بالعديد من الرحلات الدينية

---

[1] عبد الرحمن بن سعد العرابي ، "جدة في كتابات الرحالة الغربيين في القرن الثالث عشر التاسع عشر ميلادي" ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، مج 20، ع1 ، السعودية، 2012م،ص 6 .

[2] أغسطس رالي، **مكة المكرمة في عيون الرحالة النصارى**، تر: حسن سعيد غزالة، دط، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، 1430هـ، ص 25.

[3] عيد الفارس، المرجع السابق: ص 564.

[4] yerasimos, op,cit, p 3.

[5] كان المسيحيون يرون أنه كان لزاما عليهم زيارة الأراضي المقدسة ولو لم تفرض الكنيسة عليهم ذلك في بادئ الأمر إلا أنها فيما بعد جعلته جزءا أصليا من أعمال التوبة و سبيلا لغفران الخطايا .للمزيد أنظر: نقولا زيادة ، **الرحالة المسلمون والأوروبيون إلى الشرق العربي في العصور الوسطى** ، ط1، الدار العربية للموسوعات، 2010م، ص ص 46،47.

[6] مروان فريد جرار،" دوافع رحلات الرحالة الغربيين إلى مدينة القدس وصورتها في كتاباتهم"، المجلة التاريخية الفلسطينية، ع4، 2015م، ص ص 161،162.

إليه، فمن المعلوم أن النزعة التنصيرية ظلت على الدوام تحتل مكانة مركزية في إيديولوجية الكنسية المسيحية التي سعت جاهدة إلى نشر مذهبها و السيطرة على المسلمين وذلك بعد فشل المواجهات العسكرية في القضاء على التفوق الاسلامي[1]، وذلك ما يفسر الإهتمام الذي أولته للدراسات العربية فابتداء من القرن السادس بدأت مرحلة جديدة في العلاقات بين المشرق والغرب نتج عنها ازدياد الاهتمام الأوروبي بهذه المنطقة ومحاولة دراستها والتعرف على تاريخها، ففي سنة 1530م تم تأسيس أول مطبعة عربية، كما توالى بعد ذلك تأسيس العديد من الأكاديميات التي اهتمت بإدخال وتخصيص عدد من الكراسي لتدريس اللغة العربية واللغات الشرقية عامة ضمن مناهجها كجامعة أكسفورد وجامعة كمبردج، وكان الغرض من ذلك تعريف البعثات الدينية المتوجهة إلى الشرق بأوضاع العرب وتاريخهم[2]، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى بعض الرحالة الحجاج الذين رحلوا إلى المشرق لأغراض تبشيرية والذين اشتهر منهم على وجه الخصوص وليام بالغريف[3].

كما يمكن أن نضيف في هذا السياق الرحالة تشالز دواتي ،وأما بخصوص الرحالة الفرنسيين فنذكر منهم بالأخص جان كوبان[4] الذي قام في سنة 1638 برحلة إلى الباب العالي ومصر لزيارة الأماكن المقدسة، وقد نشر عند عودته إلى فرنسا رحلته[5] التي حملت في طياتها مشروع حرب صليبية للقضاء على الدولة العثمانية قدمها إلى الملك الفرنسي وإلى الكنيسة بروما[6]، هذا بالإضافة إلى غيره من الرحالة الذين كشفت المؤلفات التي دونوها عن المشرق مدى التعصب الديني الكبير ضد الإسلام والمسلمين [7].

---

[1] حيدر جاسم الرويعي، "تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوروبي من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين" ، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مج 10، ع3،4، الكويت، 2011م، ص 40.

[2] إلهام ذهني، **رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر بين النزعة الإنسانية والإستعمارية** ، ط2، د.ش، القاهرة، 2008، ص 19.

[3] وليام بالغريف: رحالة انجليزي، ولد سنة 1826م، وتوفي في 1888م، تلقى العلم في مسقط رأسه ودرس اللغات الشرقية في جامعة أكسفورد، ، زار المشرق العربي متنكرا بزي طبيب عربي ، من أهم آثاره التي خلفها رحلته الموسومة ب وسط الجزيرة العربية وشرقها 1862، 1863م وهي في جزئين . للمزيد أنظر: وليام جيفورد بالغريف، **وسط الجزيرة العربية وشرقها 1862،1863م** ، ج1، تر: صبري محمد حسن، المجلس الأعلى للثقافة، الاسكندرية، 2001، ص ص 5-7.

[4] جان كوبان: رحالة فرنسي، كان قنصلا سابقا في دمياط و عضوا بالمجلس البلدي في الأراضي المقدسة، في عام 1686 نشر رحلته التي تضمنت الدعوة إلى حرب صليبية ضد الأتراك . للمزيد أنظر: ماري كاريه، المرجع السابق، ص 65.

[5] أنظر رحلته التي حملت عنوان :

Le Bouchier De L'Europe Ou La Guerre – Sainte Avec Le Voyages dans La Turquie,et La Thébaide Et La Barbarie

[6] jean_ pierre farganal, **les voyageurs français au levant et en berbarie du xvl$_e$ au xvlllz$_e$ siécle ; de la perception de l'altérité fondée sur des a priori religeux aux prémices de la vision ethnographique,** actes du 130 sup congrés nationaux des société historiques et scientifiques« Voyages Et Voyageurs » , La Rochelle, 2005, Paris, p 77.

[7] رنا قباني، **أساطير أوروبا عن الشرق لفق تسد،** تر: صباح قباني،ط3، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1993، ص 164.

الدافع الاستعماري (سياسي ، اقتصادي) :

زيادة على الدوافع الدينية اقترنت رحلات الأوروبيين إلى المشرق العربي بالأهداف السياسية و الاقتصادية، حيث كانت أحد الدوافع المهمة التي شجعت أوروبا على إرسال البعثات إلى الشرق لدراسة تاريخ هذه المنطقة والحصول على المعلومات التي تخدم مصالحها الاستعمارية، فلقد اشتد التنافس والصراع بين القوى الأوروبية في القرن السابع عشر وبلغ أشد ذروته، وإذا ما أردنا معرفة الأسباب التي كانت وراء تزايد اهتمامهم بهذه المنطقة فإننا نجدها تكمن في الرغبة فرض السيطرة الاقتصادية[1]، والبحث عن الأسواق التجارية لتصريف الفائض في الإنتاج والحصول على مواد الخام ويضاف إلى ذلك الرغبة في التوسع و الإستيلاء على هذه المناطق بعد التراجع الذي أصاب الدولة العثمانية [2].

و مما لا شك فيه أن النزعة الاستعمارية كانت تقف وراء الكثير من الرحلات التي توجهت إلى المشرق العربي، فقد وفر هؤلاء الرحالة معلومات هامة ودقيقة لحكوماتهم و بلدانهم حول أوضاع المناطق التي زاروها ، فلم يكن ما دونوه مجرد تسجيل لانطباعاتهم فحسب، وإنما نجد فيها الكثير من التفاصيل التي تحتوي على عرض دقيق للجغرافيا السياسية والاقتصادية وفحص للتقاليد وأنماط السلوك ودراسة للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتي لا تخلو في الغالب من أغراض سياسية [3]، فهناك من أوفدته الحكومات لدراسة طبيعة الأرض وكان من بينهم من أرسل لدراسة القبائل ومنهم من أرسل لتقصي أوضاع السكان وإثارة الفتن وغيرها من المهام الأخرى التي تخدم مصالحهم [4].

وهذا ما لا يجعل مجالا للشك بأن معظم هذه الرحلات قد تم تنظيمها وتمويلها في ظل حماية وتشجيع ورعاية هذه الدول الاستعمارية [5]، ولعلّ ذلك ما نستشفه في قول بيتر بنت الذي قال: "إن الأشخاص الذين ذكرناهم كانوا العيون والأذان التي استطاع الغرب الحصول بها على المعلومات عن بلاد العرب وشعبها فنحن

---

[1] اشتد تنافس الدول الأوروبية على السيطرة على مناطق الشرق من أجل اكتساب مناطق النفوذ وإقامة المراكز تجارية ، ويظهر ذلك جليا من خلال الشركات التي تم تأسيسها لهذا الغرض حيث أسست بريطانيا سنة 1600م شركة الهند الشرقية لاكتشاف الشرق وثرواته ، كما أنشأت على غرارها فرنسا وهولندا شركات أخرى لنفس الهدف .للمزيد أنظر: حيدر صبري شاكر الخيقاني، "كتابات الرحالة الأوروبيين إحدى المصادر المهمة في تدوين تاريخ البصرة"، مجلة آداب البصرة ، مج 2، ع 63، العراق، 2012م، ص 769.

[2] علي عرفة عبده، **أوروبيون في الحرمين الشريفين**، ط1، دار عالم الكتب، القاهرة، 2013م، ص 32.

[3] نفسه، ص 21

[4] عطا الله، المرجع السابق، ص 16.

[5] محمد محمود السرياني، معراج نواب مرزا، "مكة المكرمة في عيون غير المسلمين دراسة في تقييم أهداف وانطباعات ومعارف الرحالة النصارى عن العاصمة المقدسة"، مجلة رسائل جغرافية ، ع307، الكويت، 2005، ص 23.

نرسل الكشافين ونبني الصور على الطريقة التي تسير بها الأمور ونستعين بالتقارير التي يجلبونها لنا وحين تتكون لدينا مثل هذه الصور فمن الصعب تغييرها" [1].

إن مثل هذه الشهادة توضح بجلاء الأهداف السياسية والاقتصادية للكثير من الرحلات الأوروبية حين اشتد الصراع والتنافس بين القوى الأوروبية على المنطقة، فكما يقول أسعد فارس: "حتى الرحلات العلمية ذات الطابع الأكاديمي كانت مرتبطة بالسياسة أكثر من ارتباطها بالعلم والحضارة ونادرا ما حادت عن أهدافها السياسية "[2]، ولعلّ من أهم الأمثلة التي تؤكد ذلك ما قاله أحد العلماء: " أن التعاون الوثيق بين المجمع الجغرافي الملكي ووزارة الحرب في مطلع القرن العشرين مكن من القيام بالعديد من الرحلات السرية بهدف مزدوج جغرافي أكاديمي، وهذا الهدف المقنع للآخرين كان المسوغ لأن يباشر الضباط ذو المهام الخاصة رحلاتهم ، وهذه هي الوسيلة التي استخدمتها جميع الدول الأوروبية لتحقيق أهدافها" [3].

من أهم الرحالة الذين يمكن الإشارة إليهم في هذا الصدد دومينجو باديا ليبليتش[4] الذي رحل متخفيا إلى الحجاز تحت إسم علي بك العباسي وأسدى خدماته إلى نابليون الذى كان معروفا بطموحاته التوسعية في المشرق العربي[5]، كما لا نغفل الإشارة في هذا السياق إلى ريتشارد بيرتون الذي يعدّ من أبرز الرحالة الذين قدموا خدمات لبريطانيا من خلال رحلته إلى مصر والحجاز حيث صرح في كتابه أنه قد تم تكليفه من طرف الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية في عام 1852م بدراسة بلاد العرب ووضع تقارير سياسية واقتصادية واجتماعية وجغرافية وإدارية حولها [6].

ولعلّ ما يؤكد أيضا النزعة الاستعمارية لكثير من الرحالة الأوروبيين ما صرح به قادة الحملة الفرنسية وتأكيدهم بأنه:" لولا كتابات سافاري و قرانجيه وفولني و أوليفيه لما تمكنا من معرفة مصر قبل أن نقدم على غزوها "[7].

---

[1] نقلا عن عيد الفارس، المرجع السابق ، ص 562.

[2] نفسه، ص 559.

[3] عرفة عبده، المرجع السابق، ص ص 31، 32.

[4] دومينجو باديا: رحالة إسباني ، ولد في مدينة برشلونة سنة 1766م ، درس اللغة العربية وغيرها من العلوم الشرقية في مدينة بلنسية ، زار في عام 1802م لندن والتقى بأعضاء الجمعية الافريقية من أجل القيام باكتشافات في القارة ، ارتحل في عام 1803م إلى الحجاز وكان متنكر بزي عربي واتخذ إسم علي بك العباسي ، عمل لصالح نابليون الذي كان يسعى للسيطرة على الشرق، توفي سنة 1818م بدمشق . للمزيد أنظر: روبن بدول ، **الرحالة الغربيون والجزيرة العربية** ، تر:عبد الله آدم نصيف، دط، الرياض، 1989م، ص ص 29- 34.

[5] السرياني ، المرجع السابق، ص 17 .

[6] Rechard Burton , **Personal narrative of a Piligrimage To El Madinah And Meccah ,** v1, printed by spottiswood ,london, 1857,p 1,2

[7] إلهام محمد علي ذهني، **مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر** ، د ط، هـــ.م.ع.ك ، مصر، 1992م، ص 9.

الدافع العلمي والمعرفي :

إذا كانت رحلات الأوروبيين إلى المشرق العربي تتداخل فيها مجموعة من الدوافع الدينية و السياسية، فإن ذلك يجب ألا يجعلنا نغفل الدافع الفردي وحب الإطلاع والمغامرة الذي كان وراء الكثير من تلك الرحلات، خاصة تلك التي بدأت بعد عصر النهضة، فمن المعروف أن من السمات الأساسية لهذا العصر ازدياد الرغبة في المعرفة والإطلاع ومحاولة اكتشاف المجهول [1].

تذكر المصادر الكثير من الرحالة الذين قصدوا المشرق قبل كل شيء رغبة في الاطلاع وسعيا وراء أهداف علمية نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر لوديفيكو دي فارتيما[2] الذي قال عن رحلته :" فإذا ما سألت عن سبب رحلتي هذه، فمن المؤكد أنه لا يوجد سبب أفضل من القول أن رغبتي المنقدة في المعرفة، التي دفعت الكثير من الرحلات لرؤية العالم ومعجزات الخالق، ونظرا لكون البعض قد سافر إلى بعض أجزاء العالم بما فيه الكفاية، فإني عزمت على زيارة ووصف الأماكن التي لم تكن معروفة من قبل ..."[3]، كما يبرز إضافة إلى ذلك الرحالة الفرنسي أنكتيل دوبرون anquetil duperron الذي درس اللغات الشرقية بباريس و رحل إلى الشرق للبحث عن المخطوطات والكتب الدينية [4].

ومن الرحلات ذات الطابع العلمي أيضا رحلة الليدي آن بلنت[5] وزوجها اللذان سافرا إلى المشرق لاكتشاف سحر الصحراء ومشاهدة معالمه، وقد سجلوا مشاهداتهم في تلك الرحلة في كتاب جاء بعنوان "الحج إلى نجد"[6]، ونفس الشيء ينطبق على الرحالة الفرنسي جان تيفينو الذي صرح في مقدمة رحلته بأن

---

[1] فلاح حسن عبد الحسين ،" بعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لمدينة البصرة كما أوردها الرحالة الأوروبيون في العصر الحديث" ، مجلة المورد، ع4، أكتوبر 1989م، ص 6.

[2] لوديفيكو دي فارتيما: رحالة إيطالي، ولد في مدينة بولونيا ، اشتهر بحب الإطلاع والمغامرة ، قام برحلة إلى مصر وبلاد الحجاز والتي كانت مابين سنتي 1503م-1509، كان يعمل لصالح ملك البرتغال الذي قام بتمويل رحلته، تنكر فارتيما عند دخوله إلى الحجاز باسم الحاج يونس المصري ،وهو يعد من أوائل الرحالة الأوروبيين الذين قدموا معلومات عن الجزيرة العربية في القرن السادس عشر وذلك من خلال رحلته التي دونها .للمزيد أنظر : لوديفيكو دي فارتيما، **رحلات فارتيما الحاج يونس المصري**، تر: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، هـــ.م.ع.ك، مصر، 1994م، ص ص 9- 11.

[3] بدول ، المصدر السابق، ص 23.

[4] محمد كامل عياد ، **صفحات من تاريخ الاستشراق** ، دط، د .ب.ن، دت، ص 389.

[5] الليدي آن بلنت 1837م- 1917م : رحالة ومستكشفة انجليزية ، تنحدر من أسرة نبيلة في انجلترا فهي حفيدة الشاعر الانجليزي " بيرون " وزوجة السياسي " ويلفريد سكوين بلنت ، قامت برحلات كثيرة إلى شمال إفريقيا و البلاد العربية في الشرق و الهند ،حيث زارت شمال الجزيرة العربية والعراق و بلاد الشام، اشتهرت بتربية الخيول العربية ، من أهم أثارها: كتاب :القبائل العربية في الفرات و وكتاب الرحلة إلى نجد الذي يروي تفاصيل رحلتها إلى الجزيرة العربية . للمزيد أنظر: الليدي آن بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد** ، تر: محمد أنعم غالب، ط2، دار اليمامة للبحث والترجمة ، الرياض، 1978م، ص ص 6،7.

[6] الشيباني، المرجع السابق، ص ص 546، 547.

هدفه من القيام بالرحلة هو الفضول والمعرفة [1]، ولعلّ ما ينبغي الإشارة إليه في الأخير أن الرحلات ذات الطابع العلمي قد برزت بشكل كبير ابتداء من القرن الثامن عشر إذ لم تقتصر على الرحلات ذات الطابع الفردي فحسب، بل إن الكثير من الرحلات في هذا القرن جاءت تندرج ضمن المهام العلمية للجامعات والمعاهد الأوروبية التي أصبحت تهتم بالمشرق وتسعى للحصول على أكبر قدر من المعلومات الدقيقة عنه [2]، وقد ساهم ذلك في تنشيط حركة الاستشراق في كثير من الدول الأوروبية بعد أن وجهت العناية إلى دراسة التراث العربي الاسلامي والوقوف على أحوال العرب وآدابهم وتاريخهم [3].

يتضح مما سبق ذكره أن أهداف الرحالة الأوروبيين إلى بلاد المشرق العربي قد تباينت واختلفت من رحالة إلى آخر، فالإمبراطورية العثمانية عرفت توافد أعداد كبيرة من الرحالة الأوروبيين من مختلف الاتجاهات والمشارب، فكان من بينهم من ينتمي إلى فئة الحجاج ورجال الدين ومنهم من كان من المبعوثين، كما كانت طائفة أخرى منهم من المغامرين و العلماء والمستكشفين ، وأما الصنف الأخير من الرحالة فكان ينتمي إلى فئة الدبلوماسيين والتجار[4].

ومهما يكن من أمر، فإن تباين أهداف هؤلاء الرحالة يعكس بلا شك الاهتمام المتزايد للدول الأوروبية بالمشرق العربي منذ بداية القرن السادس عشر الذي شهد بداية ظهور الصراع بين الدول الأوروبية لفرض سيطرتها على هذه المنطقة والتوسع في العالم الاسلامي [5].

لقد كان الرحالة الأوروبيين إذن ينتمون إلى أمم مختلفة ومن اتجاهات متعددة، لكن الملاحظ أن الرحالة الفرنسيون قد حافظوا طيلة قرون كثيرة على تفوقهم في مجال الرحلة إلى الشرق، إذ لا نجد هذه الأعداد من الرحالة لدى أي دولة أوروبية أخرى[6]، ولعلّ ذلك راجع إلى طبيعة العلاقات الحسنة التي جمعت بين فرنسا والدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر، فلا يخفى علينا أن فرنسا قد سعت جاهدة لإيجاد مكانة لها في الشرق، وقد تحقق لها ذلك من خلال توقيع معاهدة الإمتيازات بين الملك الفرنسي فرنسوا الأول والسلطان العثماني سليمان القانوني وذلك في عام 1535م، حيث تمكنت فرنسا من خلال هذا التحالف من الولوج إلى

---

[1] Jean Thévénot, **Les Relation D'un Voyage Fait Au Levant** , Paris, 1964 , Préface

[2] جبور الدويهي، "الرحلة وكتب الرحلات الأوروبية إلى المشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر"، مجلة الفكر العربي، ع 32، السنة الخامسة، معهد الإنماء العربي ، لبنان، 1983م، ص 64.

[3] محمد محمود الصياد، "الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية قبل القرن التاسع عشر"، مجلة المؤرخ العربي ، ع14، العراق، 1980، ص 55.

[4] yerasimos, op,cit, p 11, 12

[5] فلاح حسن عبد الحسين ، المرجع السابق، ص 5.

[6] ذهني، **مصر في كتابات الرحالة** ...، المرجع السابق، ص 83.

معظم أرجاء الإمبراطورية العثمانية وإيالاتها العربية وخاصة منها مصر والحجاز[1]، و هذا بعد أن أصبحت تتمتع بتسهيلات كثيرة أهمها حق حماية الأماكن المقدسة في الشرق وحرية التجارة وغيرها من الإمتيازات الأخرى [2].

وهكذا تعددت رحلات الفرنسيين إلى الشرق سيما ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر فمن أهم هؤلاء الرحالة الذين زاروا الشرق نجد كلود إتيان سافاري[3] claude Etienne Savary الذي قام في سنة 1777م برحلة إلى مصر وأقام بها مدة ثلاث سنوات ودون رحلته التي أخذت عنوان les lettre d'egypte [4]، بالإضافة إلى رحلات كل من جيرارد دو نارفال و لامارتين و شاتوبريان و فلوبير و غيرهم من الرحالة الفرنسيين الذين لا يسع المقام لذكر تفاصيل رحلاتهم [5].

إن الحديث عن الرحلات الفرنسية يجب أن لا يجعلنا نغفل دور الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الشرق على اختلاف جنسياتهم و هوياتهم، وخاصة منهم الرحالة البريطانيين الذين كان لهم حضور دائم في الشرق فمن أشهر هؤلاء الرحالة يبرز إدوارد وليم لين[6] بالإضافة إلى ريتشارد بوكوك و شو وغيرهم .

لم تكن الرحلة إلى المشرق العربي تقتصر على الرحالة الرجال فحسب، بل إننا نجد أنه كان لبعض النساء الغربيات نصيب من هذه الرحلات، بل إن هؤلاء النساء المغامرات قد تركن بصمات واضحة في تاريخ

---

[1] سلمان بدر شحادة، "العرب بعيون المستشرقين الفرنسيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر" ، مجلة جامعة البعث ، ع 31، مج 42، سوريا، 2020م، ص ص 34، 35. أنظر أيضا:

Cirilli Gustave , **le Regime des Capitulations** , librairie plon , Paris , 1898 , p 55 _ 69

[2] للإطلاع أكثر على الإمتيازات التي حصلت عليها فرنسا راجع كتاب :

Le Baron i . De Testa , **Recueil des Traités de la Porte Ottoman avec les Les puissances étrangéres** , Amayot éditeur des archives diplomatique , T 1 , Paris , s d , p 15- 41.

[3] كلود إتيان سافاري1750– 1788م: رحالة ومستشرق فرنسي ، نشأ في مقاطعة فيتري ، درس اللغة العربية وكان له اطلاع كبير على تاريخ المشرق العربي ، زار مصر سنة 1777 ومكث فيها حوالي ثلاث سنوات سجل سافاري انطباعاته حول رحلته إلى مصر في كتاب نشره حمل عنوان "رسائل عن مصر" ، ومن أهم مؤلفاته أيضا ترجمة لمعاني القرآن الكريم سنة 1883م بالإضافة إلى كتاب يتناول حياة النبي محمد صل الله عليه وسلم ، وكتاب حول قواعد النحو العربية والذي نشر بعد وفاته . للمزيد أنظر: ثروت عكاشة ، **مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء (القرن التاسع عشر)** ، مج1، ط 2، د.ش، القاهرة، 2003م، ص ص 72– 74.

[4] ذهني، **مصرفي كتابات الرحالة** ...، المرجع السابق، ص 66.

[5] بيير جوردا، **الرحلة إلى الشرق: رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر** ، تر: مي عبد الكريم ، ط1، دار الأهالي للطباعة والنشر، سوريا، 2000م، ص 16.

[6] إدوارد وليام لين1801م–1876م : رحالة ومستشرق إنجليزي، ولد في هيرفورد، تلقى تعليمه بجامعة كامبيردج ، كان مهتما بدراسة الحضارة المصرية، فدرس بلندن اللغة العربية وتعرف على أحكام الشريعة الإسلامية ، في سنة 1825م ارتحل إلى المشرق العربي وأقام مدة ثلاث سنوات في مصر ، بعد عودته إلى انجلترا ألف كتابه الموسوم" بعادات المصريين المحدثين وتقاليدهم، قام ادوارد لين علاوة على ذلك بترجمة قصص ألف ليلة وليلة، وقد اكتسبت مؤلفاته شهرة واسعة في أوروبا. للمزيد أنظر: إدوارد وليام لين ، **عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم مصر مابين 1833م–1835م**، تر: سهير رسوم، ط2، م.م، القاهرة، 1999م، ص ص 7– 10.

أدب الرحلة[1]، ولعلّ من أشهرهن نذكر إيزابيل بيرتون زوجة الرحالة ريتشارد بيرتون الذي ارتحل إلى مصر والحجاز والليدي آن بلنت التي ارتحلت إلى الجزيرة العربية و هيستر ستانهوب وغيرهم من النساء الرحالات اللواتي تنوعت أسباب رحلاتهم في مابين الرغبة في المغامرة أو الهروب من قيود التقاليد الاجتماعية لأوروبا البرجوازية [2].

إذا كانت دوافع وأهداف رحلات الأوروبيين قد تنوعت بنتوع وتعدد هوياتهم واتجاهاتهم، فإن الأساليب التي اعتمد عليها هؤلاء الرحالة للولوج إلى البلاد العربية قد تنوعت هي الأخرى من رحالة إلى آخر غير أنهم اتفقوا جميعا على ضرورة تأهيل أنفسهم للتلاؤم مع معطيات الشرق وعاداته وسلوكياته، فكان عليهم تعلم اللغة العربية[3] واتقان اللهجات المحلية وتعلم الشعائر الاسلامية زيادة على الالمام بتاريخ القبائل العربية و أنسابها وعاداتها وارتداء الزي العربي والتستر وراء أسماء عربية، وهناك منهم من قام بإدعاء الإسلام ففارتيما نجده قد تنكر بشخصية الحاج يونس المصري و بيركهارت انتحل شخصية الحاج عبد الله ، وأما بيرتون فقد تستر بزي حاج أفغاني[4]، والملاحظ أن هؤلاء الرحالة قد انتظموا داخل إطار مجموعة من المبادئ والقيم الشرقية وقد تم ذلك من خلال معرفتهم الدقيقة بالعادات الاجتماعية والدينية ومعايشتهم التامة لأساليب الحياة في المجتمع الشرقي حتى أضحى من الصعب التعرف على هوياتهم [5].

ومهما يكن من أمر هذه الرحلات وتنوع أهدافها وغاياتها فإنه ما من شك في أن هؤلاء الرحالة الأوروبيون قد أثروا التاريخ العربي الاسلامي بما قدموه في رحلاتهم من مشاهدات وانطباعات حول المناطق التي زاروها، فلقد ازدهر أدب الرحلات الغربي في مطلع القرن الثامن عشر والتاسع عشر كجانب مهم من جوانب الأدب الذي نال اهتماما وعناية كبيرة من طرف القراء في أوروبا [6]، إذ نتج عن ذلك كم هائل من الوثائق والمذكرات و اليوميات التي سجلها الرحالة الأوروبيون على مدى قرون عدة، و إن كانت هذه

---

[1] عيد الفارس، المرجع السابق، ص 563.

[2] أندرياس بفليتش، "الشرق في مرآة أدب الرحلات الغربي: بحاثة ومستكشفون وسياح "، مجلة فكر وفن ، ع 89، يوليو 2008م ، ص22.

[3] كان عدد كبير من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المشرق العربي يتقنون اللغة العربية ، إذ كان التأهيل في مجال اللغة يتم في المعاهد الإستشراقية في البلدان التي كان يفد منها هؤلاء الرحالة ، كما أن المدن القريبة من سواحل البحر الأبيض المتوسط كمدينة الإسكندرية و القاهرة ودمشق و بيروت شكلت منافذ مهمة لهؤلاء الرحالة، حيث كان يتعلمون فيها اللغة العربية وشعائر الإسلام فدومينجو باديا مثلا تعلم اللغة العربية في اسبانيا قبل أن يقوم برحلته إلى الحجازو، أما بيركهارت فأتقن اللغة العربية أثناء إقامته بدمشق .للمزيد أنظر: السرياني، المرجع السابق، ص 24.

[4] عيد الفارس، المرجع السابق، ص ص 567، 568.

[5] رالي، المرجع السابق، ص ص 35، 36.

[6] جون أنتيس، **مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر من خلال وصف الرحالة جون أنتيس 1770م–1782م**، تر: سيد أحمد علي الناصري، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر، 1997م،ص ص 9، 10.

المصنفات تمثل نظرة الطرف الآخر للحضارة الإسلامية، إلا أنها تظل في غياب وقلة الرحالة العرب في تلك المرحلة تمثل المصدر الوحيد الذي يمكن من خلاله تقصي أوضاع البلاد العربية في العهد العثماني[1]، ويجدر بنا في هذا السياق أن نقدم لمحة مختصرة عن تطور محتوى أدب الرحلات الأوروبية إلى المشرق والذي تشكل على إثر ما كتبه الأوروبيون من الرحلات التي قاموا بها إلى بلدان المشرق وخاصة منها الحجاز و مصر، فإذا ما إطلعنا على بعض الرحلات التي خلفها هؤلاء الرحالة منذ القرن السادس عشر و إلى غاية القرن التاسع عشر فإننا سوف نلاحظ تطور محتواها إذ يمكن تقسيم تلك الرحلات إلى فترتين متباينتين:

المرحلة الأولى: وتشمل فترة القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهي تتميز بظهور الرحلات التي طغى عليها الطابع الديني، كان معظم الرحالة في هذه الفترة من رجال الدين والحجاج كالرحالة دوبدان Doubdan وكوبان COPPIN [2]، أضف إلى ذلك لا يمكن الحديث في هذه الفترة على نوع مستقل من أدب الرحلات حيث كان هاجس الرحالة الأول هو تعريف القارئ الأوروبي بأماكن جديدة ومجهولة وقد كان ذلك يعفي الكاتب من أي تكلف أو صناعة أدبية، ولهذا فإن كتب الرحلات في هذه الفترة جاءت في أغلبها على شكل سرد يومي لتفاصيل ومجريات الرحلة، فطغى عليها الاختصار وبساطة الأسلوب، كما كان من أهم مميزاتها كذلك نقل الغرائب والعجائب والتصرف بكتب الآخرين فضلا على أن الرحالة الأوروبيين في هذه الفترة قد تأثروا بكتب الرحالة السابقين من أمثال استرابون وهيرودوت إذ تضمنت مصنفاتهم التي تركوها الكثير من المعلومات المستقاة من كتب الرحالة القدامى [3].

وأما بخصوص المرحلة الثانية فتمتد من القرن الثامن عشر إلى غاية القرن التاسع عشر، إذ ازدهر خلالها أدب الرحلة بشكل لافت خصوصا بعد الحملة الفرنسية على مصر، وقد ساعد على ذلك اتساع التنافس بين الامبراطوريتين الفرنسية والانجليزية على الشرق، و من جانب آخر كان لتحسن المواصلات بعد اكتشاف البخار واستخدامه في صناعة السفن دور كبير في زيادة عدد الرحالة الأوروبيين الذين لم يعد هدفهم من الرحلة إلى المشرق العربي يقتصر على زيارة الأماكن المقدسة والحج فحسب، بل من أجل إشباع غريزة المعرفة والإطلاع [4].

---

[1] عطا الله، المرجع السابق، ص 16.

[2] مصطفى الغاشي، **الرحالة الفرنسيون مصدر للمعلومات عن الدولة العثمانية**، ضمن أبحاث ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي، مج1، مكتبة الملك عبد العزيز ، الرياض ، 2004م، ص 326.

[3] الدويهي ، المرجع السابق، ص58- 60.

[4] أنتيس، المصدر السابق، ص 10.

وهكذا نلاحظ أنه ابتداء من القرن الثامن عشر أن كتب الرحلات الأوروبية عرفت تنوعا في مضامينها فبعد أن كانت في القرنين السابقين تتخللها الصبغة الدينية التي نتجت عن مواقف هؤلاء الرحالة الذين كانوا من رجال الدين المسيحيين أو من الحجاج أصبحت هذه الرحلات في القرن الثامن عشر أكثر تحررا بعد أن تخلص هؤلاء الرحالة من نظرتهم المسبقة والعدائية للعرب، فقد أكد بعض الرحالة في مقدمات كتبهم على نيتهم في إعفاء القارئ من أرائهم الشخصية، ومن ناحية أخرى لم يعد الرحالة يستندون على مؤلفات الرحالة السابقين وإنما أصبحت مؤلفاتهم تشتمل إضافة على ملاحظاتهم ومشاهداتهم الشخصية على أسماء الرواة الذين يزودونهم بالأخبار والمعلومات حول الشرق[1]، ولهذا جاءت رحلاتهم أكثر عمقا ودقة و شمولية مقارنة برحلات القرنين السادس عشر والسابع عشر[2]، ويبقى أن نشير في الأخير إلى أن رحلات الأوروبيين إلى المشرق العربي خلال العصر الحديث وما قصوه من مشاهدات حول هذه المنطقة كان له أثر بالغ في تطور حركة الاستشراق إذ ازدادت الرغبة في التعرف على هذه البلاد كما توجه الاهتمام أكثر لدراسة كل ما يتعلّق بتاريخها وحضارتها [3].

و مما لا شك فيه أن ما خلفه الرحالة الأوروبيون من كتابات ومصنفات[4] قد أسهم بشكل كبير في رسم صورة دقيقة للشرق العربي سيما في القرنين الثامن والتاسع عشر، فلولا هذه الكتابات التي قدمها هؤلاء الرحالة لكانت جوانب كثيرة من تاريخ المشرق العربي ما تزال غامضة، ومن ثم يمكن القول أن ما دونه الرحالة الأوروبيين عن المشرق يعدّ من المصادر التي لا غنى عنها للباحث في كتابة تاريخ هذه المنطقة، غير أن ما ينبغي الإشارة إليه في هذا الصدد أنه على الرغم من الأهمية التي اكتسبتها هذه المصنفات يجب علينا ألا ننساق ونقبل كل ما ورد فيها، فليس كل ما كتبه الرحالة الأوروبيين عن المشرق العربي يعتبر صحيحا [5]، إذ كثيرا ما تتخلل تلك الكتابات النزعة الذاتية، كما أنها لا تخلو من المغالاة و مجانبة الحقيقة، فالرحالة الأوروبيين من مشارب مختلفة وكانت أهدافهم متنوعة [6]، وذلك يفرض علينا الحذر من ما قد يشوب تلك الكتابات من أخطاء لا توافق الواقع، وسواء كانت مظاهر القصور في هذه الرحلات ناتجة عن اختلاف المرجعيات الدينية

---

[1] الدويهي، المرجع السابق، ص 64.

[2] ذهني ، **مصر في كتابات الرحالة** ...، ص 77.

[3] محمد علي حشيشو، "رحلات نيبور وزيتس وبوركهارت ومن سبقهم من الالمان إلى البلاد العربية "، مجلة فكر وفن ، ع7، يوليو 1961م، ص 44.

[4] أنظر الملحق رقم 11، ص 390.

[5] عيد الفارس، المرجع السابق، ص 561.

[6] عوض البادي، **الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية منطقة الجوف 1845م–1922م** ، ط1، م.م.ف ، السعودية، 2011م، ص 12

والثقافية لهؤلاء الرحالة أو لأهدافهم المختلفة، فإن ذلك يستدعي من الباحث أن يتصف بالموضوعية في التعامل مع نصوص هؤلاء الرحالة وذلك من خلال التحلي بروح النقد والتحليل فيتوجب عليه إخضاع هذه الرحلات إلى النقد العملي الذي يقوم على التمحيص الدقيق لمضامينها، كما أنه لا بد كذلك من مقارنة ما جاء في هذه الرحلات مع مصادر أخرى من نفس الحقبة الزمنية.

أضف إلى ذلك ضرورة تقييم هؤلاء الرحالة وفقا لأهدافهم والبلدان التي قدموا منها والتعرف أيضا على الظروف السياسية التي أحاطت برحلاتهم إلى المشرق[1] إذ غالبا ما كانت تمتاز كتاباتهم بالتحيز، ولعلّ ذلك ما أوضحه بعض الباحثين فوليام ميلر يصف كتابات الرحالة الأوروبيين عن الشرق بقوله: "إن معظم من كتب عن هذه المنطقة يتعاملون مع الموضوع بروح الانحياز وعدم الحيادية " [2].

وأما ريتشارد ثرينش فيذكر: "أن أغلب الرحالة الذين حاولوا أن يعدلوا أو يصححوا الجهل الأوروبي كان عليهم أولا أن ينتصروا على أنفسهم، فالقلة منهم كانت نخبة حقيقية، أما الباقون فكانوا امبرياليين أومغامرين أو جواسيس أو بحاثة عاديين" [3]، ونفس الأمر ذهب إليه وليد نويهض الذي ذم الأحكام المسبقة التي تتخلل كتابات الرحالة حيث يقول في ذلك :" ... تم إلحاق بعض نشطاء الرحالة بالمؤسسات التي كانت تريد أن تتعرف على أحوال وعادات وتقاليد الشعوب من خلال تقارير الرحالة والمبشرين وهو أمر أملى بعض الاستشهادات الاستشراقية الحديثة أن تكون في موقع غير قادر على التخلص كليا من العقلية الثأرية السابقة فانتقلت إليها العديد من الهواجس والأفكار الاستعلائية والعنصرية " [4].

وفي الحقيقة أن هذا الحكم لا يمكن أن نعممه على جميع الرحالة، فليس من الانصاف وضع كل الرحالة في بوتقة واحدة، فلقد أكدت بعض الدراسات أن عددا كبيرا من الرحالة كانوا مستقلين في أهدافهم و رحلاتهم و لم يكن لهم أي تورط في المشاريع الاستعمارية لصالح بلدانهم، بل أننا نجد من بين هؤلاء الرحالة من كان منهم من رجال علم الذين اتسمت كتاباتهم بالموضوعية و الدقة فأنصفوا الحضارة الاسلامية وانتقدوا الحضارة الغربية[5]، بل وكان لبعض الرحالة الفضل في نشر الثقافة العربية وذلك ما نوه به حمد الجاسر في قوله:

---

[1] عيد الفارس، المرجع السابق ، ص 561.

[2] William Miller, **Travels And Politics In The Near East** , Frederick A stokes company , new York , 1889,p I X

[3] عرفة عبده، المرجع السابق، ص 22

[4] نقلا عن علي بن ابراهيم الحمد النملة ،" رحلات المستشرقين مصدرا من مصادر المعلومات عن العرب و المسلمين" ، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج1، ع1، مكتبة فهد الوطنية، 1995م، ص 42.

[5] هلال الحجري،" أدب الرحلات والإستشراق البحث عن المنهج" ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، مج102 ع،26، 2008م، ص 45.

"فلا مغالاة في القول بأن لكثير من علماء الغرب من المستشرقين وغيرهم الفضل في إبرز معالم تاريخ جزيرة العرب، وفي كشف ما خفي من آثارها، فضلا عما لهم من فضل في إحياء التراث الاسلامي والشرقي بوجه عام "[1].

إن الرحلات التي دونها الرحالة الأوروبيين عن المشرق العربي تعتبر مصادر أساسية لدراسة تاريخ البلدان العربية فعلى الرغم من ما قد يتخلل كتاباتهم من تحيز وبعد عن الموضوعية في بعض الأحيان إلا أنها تبقى على درجة كبيرة من الأهمية باعتبارها تتناول العديد من الجوانب المهمة من تاريخ الأقطار العربية و التي لا نكاد نقف عليها في المصادر المحلية، فهذه الرحلات تمثل نظرة وانطباعات الطرف الآخر الأوروبي للتاريخ العربي الاسلامي وقد نجد في كتاباتهم حقائق وقضايا قد لا يهتم بها المؤرخون المحليون، وبهذا الخصوص يقول حمد الجاسر: "إن القارئ العربي كثيرا ما تعتريه حالة من الريبة والشك حيال كتابات الغربيين عن الشرق، وهي حالة مع منافاتها للحكمة العربية القديمة (الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها) لا تتفق مع المنطق القويم في شيء فالحق يجب قبوله أيا كان مصدره، والباطل لا يتوقف رفضه على معرفة مصدره، و أولئك بحكم بعدهم عنا وجهلهم لأحوالنا في الماضي تشوب كتاباتهم عنا شوائب من الخطأ، لا ينبغي أن تكون حائلا بيننا وبين المعرفة، بل الأجدر بها أن تكون من الحوافز التي تدفعنا إلى معرفة كل ما يكتب عن بلادنا وتاريخنا لنقبل الحق وننتفع به وننفي الزيف ونأباه" [2].

3. نماذج عن أهم الرحلات الأوروبية إلى المشرق خلال القرنين 18/ 19م:

3 .1 رحلة قسطنطين فرنسوا فولني 1783-1785م .

أ. التعريف بصاحب الرحلة:

مستشرق ورحالة وفيلسوف وسياسي فرنسي، اسمه الكامل قسطنطين فرنسوا دي شاسبوف constantin françois chassebouef ، ولد في سنة 1757م بمقاطعة كرون، وتوفي سنة 1820م، ينتمي إلى عائلة إستقراطية، كان في البداية يحمل الاسم الذي أطلقه عليه والده "بواجيريه" bois giraise، ثم بعد ذلك اتخذ اسما جديدا له اشتهر به لدى العلماء وهو فولني ، وهذا اللقب شكله من كلمتين الأولى هي vol نسبة إلى

[1] جاكلين بيرين ، **اكتشاف جزيرة العرب خمسة قرون من المغامرة والعلم**، تر: قدري قلعجي ، دط، دار الكتاب العربي، د ب ن، دت، ص 5.
[2] نفسه، ص 16.

الفيلسوف فولتير الذي تأثر بآفكاره، أما المقطع الثاني ney فهو مقتبس من نهاية اسم المدينة التي عاش فيها هذا الفيلسوف والتي تسمى بفيرني frenay [1].

في عام 1775م انتقل فولني إلى باريس حيث درس الطب والقانون ثم أبدى اهتمامه المبكر باللغات الشرقية والكلاسيكية[2]،كما اهتم فولني بدراسة المؤلفات التاريخية والفلسفية فوضع في هذا الشأن كتابا مهما في التاريخ تناول فيه التسلسل الزمني لحياة هيردوت حمل عنوان:

la mémoire sur la chronologie d'hérodote[3]، وقد أتاحت له هذه الدراسة فرصة الاحتكاك بكبار المؤرخين والباحثين بل والانضمام إلى الصالون الأدبي والعلمي الذي كان يشرف عليه ثلة من المؤرخين في باريس ليصبح فيما بعد أحد رواده [4].

كان فولني ينتمي إلى طائفة الإيديولوجيين التي ظهرت في عصر التنوير وكان من بين أهدافها التأسيس لعلم جديد يقوم على التجديد والابتكار مع مراعاة علاقة العلوم ببعضها البعض من جهة وتفاعلاتها مع محيطها من جهة أخرى بحيث ترتبط السياسة بالاقتصاد والجغرافيا [5] .

اضطلع فولني بأدوار سياسية مهمة إذ انظم إلى نادي اليعاقبة، ودافع عن الأفكار الثورية(المساواة، الحرية ، العدالة)، و بعد انتهاء الثورة الفرنسية عين عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية ثم تم انتخابه كعضو في مجلس الشيوخ الفرنسي[6]، وبعدها اشتغل فولني بالتدريس حيث أوكلت له الحكومة الفرنسية مهمة تعليم مادة التاريخ للناشئة في دار المعلمين[7].

---

[1] Sarga Moussa , " Voleny , Ouveres ,T,Iii, Voyage En Syrie Et En Egypte Et Considirations Sure La Guerre Des Turcs " ,Revue Romantizme , N 107, Figures, 2000, P 109.

أنظر أيضا:

Mohamed Abedl Majjeed Al- Hasanat, " La Représentation De La Syrie Dans Le Voyage En Egypte Et En Syrie En 1787 De L'idéologue Volney " , Revue Dirasat Human And Social Sciences , V32, N2, 2005, p 461- 462.

[2] Yves Durand , " Anticlericalizme Et Politique Dans L'ouest De La France A La Fin Du Xviiie Siécle", revue histoire ,économie société , n2, anné 9, 1990, p 247

[3] ماري كاريه، المرجع السابق، ص 157.

[4] خيرة الطار، **الرحلة والرحالة في الدولة العثمانية فولني أنموذجا** ، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر تخصص الدولة العثمانية والمشرق العربي، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر 2، 2012، 2013م، ص 29.

[5] زيدان، المرجع السابق، ص 498

[6] André Reix, Constantin François De Volney ,'' Les Ruines Ou Méditations Sur Les Révolution Des Empires " , Revue Philosophique De Louvain , T 76, N 31, 1978,p 404

[7] حبيب السيوفي، **سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر كما وصفها أحد المشاهير الغربيين**، ج1،د ب ن، دت، ص 5.

ارتبطت حياة فولني بالسفر والترحال فمن من بين 63سنة التي عاشها قضى ست سنوات منها في السفر والمغامرة، إذ قام برحلتين الأولى كانت نحو مصر و سوريا بين سنتي 1783م – و 1785م، وأما الرحلة الثانية فقد زار فيها الولايات المتحدة الأمريكية وذلك من سنة 1795م إلى سنة 1798[1].

خلف فولني مجموعة من المؤلفات في شتى أنواع العلوم والمعارف كالتاريخ والفلسفة والأدب ومن أهم هذه المؤلفات نذكر :

Mémoire Sur La Chronologie D'hérodote –

هي عبارة عن أول مذكرة ألفها فولني، تم نشرها في سنة 1780م، وقد تقدم بها إلى أعضاء الأكاديمية العلمية بباريس سنة 1790، يتمحور مضمونها حول انتقادات لأفكار هيرودوت حول مصر

Voyage En Syrie Et En Egypte Pendant Les Années 1783,1784 ,1785 –

يعدّ هذا الكتاب من أهم المصنفات التي ألفها فولني والتي لاقت رواجا كبيرا في أوروبا، وقد جمع فيه وقائع رحلته ومشاهداته وانطباعاته حول رحلته إلى المشرق العربي والتي زار فيها مصر وبلاد الشام في القرن الثامن عشر، صدر في سنة 1787م، وقد مثل أوج تطور لأدب الرحلات الفرنسية في القرن الثامن عشر .

Les Ruines Ou Méditation Sur Les Révolution Des Empires

إن كتاب أطلال أو تأملات حول ثورات الامبراطوريات يعدّ من أهم الكتب التي اشتهر بها فولني بعد مؤلفه الرحلة إلى مصر وسوريا، اذ صدر سنة 1789م، وهو العام الذي صادف الثورة الفرنسية، اشتمل هذا المصنف على وصف فلسفي لمصير الحضارات الانسانية، وقد ركز فيه فولني بالخصوص على مصير فرنسا بعد التحولات التي شهدتها [2].

Considérations Sur La Guerre Actuelle Des Turques –

هذا الكتاب الذي حمل عنوان اعتبارات للمعركة بين الأتراك والروس صدر في سنة 1788م، وهو يتكون من حوالي مئة صفحة، وقد استعرض فيه فولني الحرب القائمة بين الدولة العثمانية وروسيا وانعكاساتها في القرن الثامن عشر [3].

Tableau Du Climat Et Du Sol Des Etats _ Unis D'Amerique –

[1] Roger Texier , "**Volney Au Proche –Orient Entre Le Passé Et L'avenir Des Peuples "** , In Ciculation Des Homme Et Des Idées A L'epoque Révolutionnaire, Actes Des Congrés Nationaux Des Sociétés Historiques Et Scientifiques « Voyages Et Voyageurs » ,La Rochelle , 2005, Paris , Edition Du CTHS , 2008 , P 133, 135

[2] الطار، المرجع السابق، ص 37.

[3] Denize Brahimi, " **Voyageure En Egypte, Avant Et Pendant L'expédition "** , In Cahiers De La Méditerranée , N57 ,1, 1989, Ponaparte , Les Iles Méditerranéennes Et L'appel De L'orient – Actes Du Colloque D'ajaccio 29-30 Mai 1989 , P 43 ,

صدر هذا الكتاب في سنة 1803م، وهو عبارة عن وصف دقيق لأوضاع الولايات المتحدة الأمريكية سواء من الناحية الطبيعية أو الجغرافية أو الطوبوغرافية، أودع فيه فولني مشاهداته وانطباعاته حول رحلته التي قادته إلى العالم الجديد مابين سنتي 1795م و 1798 وهو بالتالي ثمرة ثلاث سنوات من إقامته في الولايات المتحدة الأمريكية التي زار فيها كل المناطق دارسا في نفس الوقت المناخ والقوانين والسكان وعاداتهم .

ب. التعريف برحلة فولني إلى المشرق العربي:

إذا ما أردنا تقصي دوافع رحلة فولني التي قادته إلى المشرق العربي، فإن أول ما يلفت النظر اختلاف المؤرخين في تحديد أسبابها الرئيسية، ذلك أن هذه الرحلة قد جاءت نتيجة لدوافع متعددة ومتداخلة، أفصح فولني عن بعضها في كتابه في حين بقي البعض الآخر منها يكتنفه الغموض لارتباطه بأهداف سياسية .

إن من أهم الدوافع التي يمكن استخلاصها من خلال ما أورده فولني في مستهل رحلته الدوافع العلمية والفكرية، حيث يذكر فولني أنه قام برحلته إلى مصر وسوريا من أجل اكتشاف معارف جديدة حول هذه المناطق التي لم تكن معروفة بالشكل الكافي وهو ما يظهر بوضوح في قوله: "بدت لي بلدي و الدول المجاورة معروفة جدا أو من السهل معرفتها، وجذبتني تجربة نحو أمريكا الناشئة، بيد أن اعتبارات أخرى صرفت عزيمتي إلى آسيا، وبدا لي أن سوريا ومصر بماضيها حقل صالح لما أردت الانصراف إليه من الأبحاث السياسية "[1].

نستشف من خلال قول فولني أن رحلته إلى ومصر جاءت لغاية علمية محددة حيث كان يسعى لدراسة تاريخ هذه الأقطار والمقارنة بين ماضيها وما أصبحت عليه [2]، والواقع أن فولني كان شغوفا ومحبا للسفر، وهذا نتيجة لما يترتب عليه من اكتساب لمعارف جديدة و اكتشاف للمجهول، ولعلّ هذا ما أكده بخصوص دوافع رحلته إذ يقول في ذلك: " منذ خمس سنوات، كنت في مطلع شبابي، قدر لي أن أحصل على طريق الإرث على مقدار من المال، تملكتني الحيرة في وجه استعماله، وأراد بعض أصحابي أن أستمتع به بذلا و إنفاقا، في حين أن بعضهم الأخر قد نصحني أن أستفيد من ريعه، ورجعت إلى نفسي ،... وقررت السفر لأنني وجدت في ثروتي وسيلة جديدة لإرضاء نزعتي وفتح أفاق أوسع لثقافتي، وكنت قد قرأت وسمعت بأن السفر أنجع الوسائل لتجميل العقل وتهذيب قوته "[3].

زيادة على الدوافع السالفة الذكر ارتبطت رحلة فولني بأسباب أخرى، من بينها الأسباب الذاتية، حيث كان فولني يرى في السفر إلى الشرق وسيلة للحصول على المكانة الرفيعة والشهرة الواسعة، وهذا ما بينه في

[1] Volney , **Voyage En Syrie Et En Egypte Pendant les Anneés , 1783,1784,1785**, t 1, Paris , Pérface .

[2] ماري كاري، المرجع السابق، ص 158.

[3] volney, op,cit , Pérface .

قوله:" غادرت بلدا من الوفرة والأمن ...للذهاب إلى العيش في بلد البؤس لا لسبب إلا لقضاء وقت الشباب في اكتساب المعرفة من نوع جديد و لأزين بقية حياتي بهالة من التقدير و الاعتراف"[1]، هذا ويذكر محمد عبد المجيد الحسنات أن رغبة فولني في تحقيق المجد والشهرة قد راودته حتى قبل نشر كتاب ويستشهد في ذلك بما ذكره فولني عندما كتب قائلا:" لما وصلت من رحلتي إلى الشرق كانت سمعتي ساحرة ، أصبحت محط الأنظار والتجمعات ، كانوا يسألونني وكنت مستمتعا "[2].

إذا كانت الدوافع المعلنة لرحلة قولني واضحة وتنحصر في مجملها حسب ما أفصح عنه في الفضول العلمي واهتمامه بالمشرق العربي الذي مثل مهد الحضارات والأفكار الدينية التي لا يزال تأثيرها شديدا في المجتمعات الغربية[3]، فإنه ما من شك في وجود دوافع أخرى خفيه لم يتم الإعلان عنها، إذ حاول بعض المؤرخين من أمثال غولميه j-gaulmier البرهنة على أن الرحلة التي قام بها فولني إلى سوريا ومصر قد ارتبطت بمهمة سياسية، ففي هذا السياق يذكر بأن وزير الخارجية الفرنسية آنذاك قد أسند إليه مهمة سرية [4]، تكمن في جمع أكبر قدر من المعلومات حول المنطقة وذلك لمساعدة السفراء الذين يباشرون مهامهم الدبلوماسية لأول مرة في الشرق[5]، وإذا كان فولني لم يصرح بشكل مباشر بهذا الدافع السياسي، إلا أن القارئ لرحلة فولني يعثر على إشارات متفرقة تثبت جانبا من الأهداف الخفية لرحلته، وخاصة في قوله:" وقد تبصرت من ناحية أخرى بالأحوال السياسية التي تحيط بالامبراطورية العثمانية منذ عشرين عاما، وقد تأملت في النتائج التي قد تسفر على عنها، فوجدت موضوعا حرك فضولي لاستقصاء المعلومات الدقيقة عن نظامها الداخلي، لأخلص منه إلى معرفة قوتها و مواردها، ووضعت هذه الأمور نصب عيني عندنا ارتحلت إلى مصر في نهاية سنة 1782م"[6].

وتجدر الإشارة أن هذا القول إذا دل على شيء فإنه يدل على أهمية المشرق بالنسبة لفرنسا التي مثل لها رمزية وقيمة استثنائية،كما أنه يؤكد من ناحية أخرى على ارتباط فولني بالأهداف السياسية فلا شك أنه كان على معرفة بطموحات فرنسا الإستراتيجية في هذه المنطقة[7].

---

[1] volney, op,cit , Pérface

[2] Al-Hasnat, op,cit, P 463.

[3] زيدان، المرجع السابق، ص 497.

[4] الدويهي، المرجع السابق، ص 65.

[5] الطار، المرجع السابق، ص 41.

[6] Volney, op,cit, Pérface

[7] Alexander Cook , **"Entre L'ancien Et Le Nouveau Monde. C.F . Volney Et La Politique Des Récits De Voyage En France , 1782-1803"** , Revue Annales Historiques De La Révolution Fraçaise , N 385, 2016, P 90

لقد تزامنت الرحلة التي قام بها فولني إلى المشرق العربي مع مرحلة تاريخية مهمة وهي الفترة التي سبقت بقليل الحملة الفرنسية على مصر، وبالعودة إلى تفاصيل هذه الرحلة نلاحظ أنه بعد أن حدد فولني وجهته والمناطق التي سوف يقصدها – مصر و سوريا، شرع في التحضير للرحلة، حيث تذكر الكثير من الدراسات أنه ظل طوال عام كامل يستعد للرحلة وذلك من خلال تعلم اللغة العربية و الاطلاع على بعض المؤلفات التي استعرضت تاريخ السفر إلى الشرق والتي سمحت له بالإلمام بأوضاع الدولة العثمانية، كما أنه انتقل إلى الريف للتدرب على مواجهة مشاق الرحلة، حيث شرع يعود نفسه على قطع المسافات الطويلة سيرا على الأقدام والركوب على الخيل دون لجام، والتدرب على المبيت في العراء وغيرها من المصاعب التي قد تعترضه في رحلته الشاقة إلى مصر [1].

لا يذكر فولني مسار رحلته، غير أن المعلومات المتوفرة في بعض الدراسات تشير إلى أنها انطلقت من ميناء مرسيليا في شهر ديسمبر من سنة 1782م[2]، حيث ركب السفينة متوجها نحو الاسكندرية التي وصلها في جانفي سنة 1883، ومن الاسكندرية توجه نحو القاهرة التي مكث فيها حوالي سبعة أشهر، غير أن المصاعب الكثيرة التي لاقاها[3]، والتي حالت دون تمكنه من استكمال تعلم اللغة العربية والتوغل في كامل أرجاء مصر جعلته يغادر هذا البلد، إذ انتقل بعد عام إلى بلاد الشام التي كانت أفضل حالا من مصر وقد قضى فيها مدة طويلة زار فيها العديد من المناطق حيث شمل مسار رحلته مدن كثيرة منها جبل لبنان الذي كان قد استقر فيه لأكثر من 8 شهور لتعلم اللغة العربية في دير ماري يوحنا شوير[4].

سجل فولني وقائع رحلته التي استغرقت ثلاث سنوات في كتاب ضخم يحمل عنوان: الرحلة إلى سوريا ومصر خلال سنوات 1783م، 1784م، 1785 م.

Voyage En Syrie Et En Egypte Pendant les Anneés , 1783,1784,1785

قام بتأليفه بعد عودته إلى فرنسا، وتم نشره لأول مرة في سنة 1787 م، وقد لاقت هذه الرحلة رواجا كبيرا في فرنسا وأوروبا ، إذ تمت ترجمتها إلى عدّة لغات [5].

---

[1] روبير سوليه، **مصر ولع فرنسي**، تر: لطيف فرج، دط، ه.م.ع.ك ، القاهرة، 1991م، ص 28.

[2] أنظر الملحق رقم 12، ص392.

[3] من بين الصعوبات والعراقيل التي واجهت فولني خلال إقامته بمصر نجد: تدهور الأوضاع في مصر الذي لم يسمح له بالولوج إلى كل كافة المناطق، وعدم تلقيه للمساعدة من الجالية الفرنسية المقيمة بمصر بالإضافة عدم تمكنه من استكمال تعلم اللغة العربية.للمزيد أنظر: خيرة الطار: المرجع السابق، ص 43.

[4] عكاشة، المرجع السابق، ص ص 76، 77.

[5] ترجمت هذه الرحلة إلى اللغة العربية مرتين : الأولى ترجمها إ دوارد البستاني وقد حملت عنوان ثلاث أعوام في مصر وبر الشام وأما الترجمة الثانية فقد قام بها حبيب السيوفي الذي نقل إلى اللغة العربية الجزء الخاص بسوريا .

ترجع أسباب تأليف هذا الكتاب حسب ما أفصح عنه فولني في المقدمة إلى عدّة عوامل تأتي في مقدمتها قلة المعلومات حول هذه المناطق وذلك يعود حسبه إلى أن الرحلات إلى الشرق تحيط بها الكثير من المخاطر و المشاق، أضف إلى ذلك أن أغلب الرحالة الذي تمكنوا من زيارة الشرق قد اهتموا بالأبحاث الأثرية أكثر من عنايتهم بوصف الأوضاع العامة فيها، وهكذا فإن فولني قد أوضح مدى قصور الرحلات السابقة في دراسة أوضاع المشرق العربي سيما في ظل عدم توفر هؤلاء الرحالة على الشروط الأساسية لدراسة أي مجتمع والتي يحددهما فولني في ضرورة الالمام باللغة العربية و الوقت، حيث يقول عن ذلك:" لما كان أكثرهم يجتازون البلاد على عجل فقد أعوزتهم الوسيلتان الأساسيتان لمعرفتها، عنيت الوقت والإلمام باللغة، فلا يمكن بمعزل عن اللغة تقدير عبقرية أمة وطبائع أهلها، وما كانت ترجمة المترجمين لتفضي يوما إلى ما تفضي إليه المشافهة المباشرة، ولا يمكن بمعزل عن عامل الوقت إبداء الحكم الصادق السليم لأن منظر الأشياء الجديدة يثير الدهشة لأول وهلة ويلقي التشويش في العقول ..."[1].

استند فولني في تدوين رحلته على منهج علمي فريد، فمما يمكن ملاحظته أنه كان حريصا على تنويع مصادره، فإضافة إلى قراءته الواسعة عن المشرق العربي، اتبع طريقة جديدة في عصره هي أسلوب التقصي والبحث عن الحقيقة المؤكدة، ففي هذا المجال حرص على استجواب شهود العيان من الأوروبيين و المسلمين ليرى بنفسه الأماكن التي كانت مسرحا للأحداث، وبعد هذا يقوم بمراجعة ودراسة وثائقه ليكشف في الأخير عن الحقائق المؤكدة التي تعكس الواقع [2].

تتألف رحلة فولني من جزئين، يشتمل **الجزء الأول** على قسمين، خصصها للحديث عن انطباعته في مصر، جاء **القسم الأول** بعنوان الحالة الطبيعية في مصر، وهو يضم خمسة فصول، قدم فيها فولني وصفا شاملا لمدينة الاسكندرية، وأعطى دراسة دقيقة عن النيل والدلتا كما أنه بين حالة الرياح وطبيعة المناخ بهذا البلد .

القسم الثاني ، يشتمل على أكثر من عشر فصول، وجاء يحمل عنوان: الحالة السياسية في مصر، استعرض فيه فولني في البداية التركيبة الاجتماعية لسكان مصر، ثم خصص عدّة فصول للحديث عن طبيعة حكم المماليك وقد انصب اهتمامه بشكل كبير على حركة علي بك بالخصوص، وأما باقي الفصول

[1] فولني ، **ثلاث سنوات في مصر وبر الشام** ، ج1، تر: إدوارد البستاني، ط1، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة ، لبنان، 1949، ص ص 8، 9 .

[2] **Siham Abed – Fatah Gaber , "L'image Politique Et Sociale D' Aprés Voyage En Egypte Et En Syrie De Volney Au Xviii^{éme} Siécle "** , Revue De La Faculté Des Arts , V20 , Université Du Fayoum , 2019, P 210.

فتناول فيها حالة التجارة كما أشار إلى المعتقدات الدينية والممارسات القضائية والسياسة الضريبية وزيادة على ذلك أورد جانبا من الأوضاع الصحية التي شهدتها مصر .

الجزء الثاني من الرحلة خصصه فولني لوصف أوضاع بلاد الشام في القرن الثامن عشر، جاء القسم الأول منه يتناول الحالة الطبيعية لسوريا من مناخ وتضاريس وغيرها، وأما القسم الثاني فأورد فيه فولني الأوضاع السياسية في هذه المنطقة، وذلك من خلال التطرق إلى حركات التمرد التي شهدتها بلاد الشام كحركة الظاهر عمر بالإضافة إلى وصف السكان وعاداتهم و الحديث عن مظاهر الحياة الاقتصادية .

ج. القيمة العلمية لرحلة فولني :

إن الدارس لرحلة فولني خلال القرن الثامن عشر يجد بلا شك أن هذه الرحلة تعد من أهم الرحلات الفرنسية بل إنها واحدة من أبرز الرحلات الأوروبية ذات القيمة العلمية الكبيرة، فهي بمضامينها المتنوعة ومنهجها الدقيق مثلت النموذج الأرقى لأدب وكتب الرحلات الأوروبية في القرن الثامن عشر[1]، وذلك نظرا لكونها اتسمت بنزعة تجديدية في مضامين أدب الرحلة الأوروبي[2] .

لقد استمدت رحلة فولني أهميتها العلمية من المنهج الدقيق الذي اعتمده، والذي نجده قد اختلف وتميز عن منهج الرحالة السابقين من أمثال سافاري و لامارتين، فإذا كان هؤلاء الرحالة قد أدرجوا انطباعاتهم الشخصية في كتاباتهم[3]، فإن رحلة فولني تخلوا من كل ذلك، فهو لما كان يرى أن "السفر ينتمي للتاريخ لا للرواية" توخى في سرد الوقائع الوصول إلى الحقيقة فاجتنب الجنوح للخيال على الرغم من معرفته لمدى تأثير الوهم على القراء [4].أضف إلى ذلك أن هذه الرحلة جاءت خالية من أي بعد ديني إذ اعتمد فولني في تدوينها على منهج يقوم على التحليل والنظرة الموسوعية الدقيقة وهذا على الرغم من ما يشوب كتابه من ملاحظات قاتمة وأحكام قاسية عن المجتمع الشرقي[5].

تتجلى أهمية الرحلة أيضا في كونها سلطت الضوء على تاريخ أهم الايالات العثمانية، فهي لم تعنى بتاريخ مصر الفرعونية أو القبطية أو في العصر الإسلامي، و إنما قدمت أفضل لمحة عن أوضاع مصر في ظل

---

[1] الدويهي، المرجع السابق، ص 65.

[2] محمد ابن الأصفر، **أدب الرحلات في القرن التاسع عشر سند للحركة الاصلاحية العربية** ، دار سنابل للنشر والتوزيع، 2006، ص 60.

[3] ماري كاري، المرجع السابق، ص 160.

[4] فولني، المصدر السابق، ص 10.

[5] ذهني ، **مصر في كتابات الرحالة** ...، المرجع السابق، ص 72.

الحكم العثماني[1].فمن خلال ما أورده فولني من معلومات يمكن للباحث الوقوف على التحولات السياسية والتاريخية التي ميزت مصر أواخر القرن الثامن عشر، ذلك أن هذه الفترة تعد من أهم الفترات في تاريخ مصر والمشرق العربي عامة لكونها تمثل مرحلة انتقالية مهدت للحملة الفرنسية سنة 1798م [2].

وهكذا فإن رحلة فولني من الرحلات القليلة التي كشفت وأزالت الغموض عن جوانب مهمة من التاريخ السياسي والاجتماعي لمصر وبلاد الشام فقط سلطت الضوء على أوضاع المجتمع المصري والشامي وساعدت على التعرف على الحالة المدنية للسكان وأجناسهم وطوائفهم وأحوالهم في هذه الفترة التاريخية المهمة التي تقل فيها الدراسات المحلية، ويكفي للدلالة على أهمية هذه الرحلة وما تضمنته من معلومات أنها نالت اهتماما كبيرا بعد صدورها وقد كانت الدليل الذي استعان به نابليون في حملته على مصر سنة 1789م[3].

2.3 رحلة جون لويس بوركهارت 1815/1814م

أ. التعريف بصاحب الرحلة :

يوهان لودفيج بيركهارت، رحالة ومستشرق سويسري الأصل، ولد عام 1784 بمدينة لوزان، كان والدة يشتغل عقيدا في الجيش لكنه اضطر لمغادرة بلاده نحو ألمانيا بعد أن احتلتها القوات الفرنسية[4]، نشأ بيركهارت في ألمانيا وتلقى تعليمه في جامعتي لايبزيغ و غوتنغن، انتقل في سنة 1806م إلى انجلترا بعد أن رفض الخدمة العسكرية تحت راية نابليون بونابرت، اشتهر بيركهارت بولعه بالرحلات والاستكشاف وذلك دفعه إلى عرض خدماته على الجمعية الإفريقية البريطانية التي كانت تمول البعثات الاستكشافية إلى إفريقيا [5].

التحق بيركهارت بعد موافقة الجمعية على إيفاده إلى المشرق بجامعة كامبريج لدراسة اللغة العربية والطب والكيمياء وعلم الفلك وغيرها من العلوم التي قد تساعده في رحلته [6].

---

[1] Henri Gauthier, **"Voyageurs Et Ecrivains Français En Egypte "** , In Journal Des Savants, Mars ,Avril, 1934, P 75.

[2] Abed – Fatah Gaber , op , cit, P 209 .

[3] Abdumalak Al – Zaum, **La Part De La Syrie Dans Les Littérature De Voyage Dans Les Pays Du Levant Du Xix**e, These Pour Obtenir Le Grade Dectour De L'université François université François Rabelais Tours Rabelais , Spésialité Lettre Modernes , , 2011, P 28

[4] جون لويس بيركهارت، **مواد لتاريخ الوهابيين**، تر: صالح عبد الله العثيمين، د ط، جامعة الملك سعود، السعودية، دت، ص 3.

[5] كامل عيد رمضان ، **شرائع الأزمنة وطبائع الأمكنة مقتطفات من كتابات الرحالة الأوروبيين عن مصر في القرن التاسع عشر** ، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، 2010م، ص 29

[6] عبد العزيز عبد الغني ابراهيم ، **روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية 1500–1840م** ، ج1، ط 1، دار الساقي، بيروت، 2013م، ص 187. أنظر أيضا:

Augustus Ralli, **Christians At Macca**, William Heinemann , London, 1909, p 75

قضى بيركهارت جزءا من حياته في الترحال حيث زار سوريا ولبنان وفلسطين و مصر والحجاز و أدى مناسك الحج، وأطلق على نفسه لقب الحاج ابراهيم بن عبد الله، وقد كان من أعظم انجازاته اكتشاف مدينة البتراء[1] في سنة 1811م بالإضافة إلى معبد أبو سمبل[2].

توفي بيركهارت بالقاهرة في أكتوبر سنة 1817م إثر إصابته بالطاعون وتم دفنه في مقبرة إسلامية تقع خارج باب النصر، حيث كتب على قبره" هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعلى الشيخ ابراهيم بن عبد الله بيركهارت اللوزاني"[3].

ترك بيركهارت مجموعة من المؤلفات تولت الجمعية الافريقية البريطانية نشرها بعد وفاته وهي :

- **رحلات في سوريا والأراضي المقدسة:** صدر هذا الكتاب سنة 1819 م، وهو يشتمل على وصف دقيق لرحلته إلى سوريا التي دامت أكثر من عامين .
- **رحلات في بلاد النوبة والسودان:** طبع في لندن عام 1822م، وترجمه إلى اللغة العربية فؤاد أندراوس، سجل فيه بيركهارت وقائع رحلته من مصر إلى بلاد النوبة، وهو يشتمل على معلومات مهمة عن النوبيين وعاداتهم وتقاليدهم .
- **رحلات في شبه الجزيرة العربية:** هو عبارة عن تسجيل دقيق لانطباعاته في الحجاز وبالأخص في المدينتين المقدستين مكة والمدينة المنورة التي كانتا لا تزال مجهولة عند الأوروبيين، وقد طبع في لندن سنة 1829م ونال شهرة كبيرة في أوروبا، قام بترجمته إلى اللغة العربية هتاف عبد الله .
- **ملاحظات عن البدو والوهابيين:** جمعه أثناء رحلاته في الجزيرة العربية وهو يضم جزئين، قدم فيه وصفا للقبائل البدوية مستعرضا عاداتهم وطباعهم وتجارتهم وصناعاتهم وعلومهم، كما خصص جزءا كبيرا للتعريف بالدعوة الوهابية في الحجاز وتاريخها ونظام حكمها ونظمها الدينية السياسية والاقتصادية، كما أورد وصفا تفصيليا لحملة محمد علي باشا التي استهدفت القضاء على الحركة الوهابية .

[1] البتراء: مدينة أثرية قديمة ، تقع في وادي موسى إلى الشمال الغربي من معان، وتشرف على وادي عربة شرقي النقب ، كانت عاصمة لدولة الأنباط التي انتهى حكمها سنة 106م . للمزيد أنظر : يحي شامي، **موسوعة المدن العربية والإسلامية**،ط1، دار الفكر العربي، بيروت ، 1993م، ص 10.

[2] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 4،5 .

[3] عبد الغني ابراهيم، المرجع السابق، ص ص 234،235.

- **العادات والتقاليد عند المصريين المحدثين:** كتاب جمع فيه حوالي سبع مئة و اثنين وثمانين مثلا شعبيا، سجلها بيركهارت وقام بشرحها باللغة الانجليزية، وهذه الأمثال تكشف عن الكثير من تفاصيل الحياة اليومية في مصر في عهد محمد علي [1].

ب. التعريف برحلة بيركهارت:

لا شك أن رحلة بيركهارت إلى المشرق العربي في مطلع القرن التاسع عشر تختلف عن الرحلات الأوروبية الأخرى، فلم تكن الجزيرة العربية هدفه ولا مصر وبلاد النوبة مقصده وإنما شاءت الظروف أن يرتبط إسمه بما دونه عن هذه الأمصار[2]، فإذا ما اطلعنا على الظروف التي صاحبت رحلته لأدركنا أن رحلة بيركهارت لم يكن الهدف منها الوصول إلى المشرق العربي وإنما تمثل هدفه في محاولة اكتشاف الأجزاء الداخلية لإفريقيا وبالتحديد منابع نهر النيجر، وقد جاءت هذه الرحلة في ظل المهمة التي كانت قد عهدت إليه بها الجمعية الافريقية البريطانية[3]، فحتى أوائل القرن الثامن عشر كانت إفريقيا لا تزال في نظر الغرب قارة مجهولة

وعلى الرغم من أن بيركهارت لم يحقق هدفه الأساسي و لم تكتمل مهمته في اكتشاف أسرار إفريقيا والكتابة عنها، إلا أنه حقق مكاسب علمية كبيرة بوصوله إلى مركز العالم الإسلامي مكة والمدينة المنورة ومصر فقدم من خلال مذكراته التي دون فيها وقائع رحلته أدق المعلومات عن هذه المنطقة التي شهدت أحداثا تاريخية مهمة في مطلع القرن التاسع عشر، فأضحت بذلك كتاباته أحد المصادر المهمة التي ساهمت في زيادة معارف الغرب عن المشرق العربي عامة و عن الجزيرة العربية على وجه الخصوص[4].

بالعودة إلى مجريات وتفاصيل الرحلة نجد أنه بعد تعاقد بيركهارت للعمل لحساب الجمعية الافريقية شرع يحضر لرحلته إلى تومبكتو، وكان أول ما وقف عليه هو مسار الرحلة حيث اختار الرحيل إليها عن طريق قافلة

---

[1] جون لويس بيركهارت، **العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي** ، تر: ابراهيم أحمد شعلان، ط3، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 2000، ص ص 45- 49.

[2] جون لويس بوركهارت، **رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان** ، تر: فؤاد أندراوس، المجلس الأعلى للثقافة، مصر ، 2007م، ص 11.

[3] بيرين، المصدر السابق، ص 228.

[4] بدر عبد الباسط بن عبد الرزاق ،" الحياة السياسية والاقتصادية بالمدينة المنورة في رحلة بيركهارت"، مجلة مركز البحوث ودراسات المدينة المنورة ، ع 29، يونيو 2009م، ص 74.

الحج التي ترجع إليها من مكة المكرمة كل عام، وهكذا فإن هذا الأمر فرض عليه ضرورة التوجه أولا إلى الحجاز وبعدها يواصل رحلته نحو هدفه [1].

لقد كان بيركهارت على دراية تامة بأن نجاح رحلته الاستكشافية يحتاج إلى خبرات متعددة فااستعدادا منه للقيام بالمهمة التي كلف بها وإدراكا أيضا منه لمدى المشاق التي قد تعترض طريقه عكف بيركهارت طيلة عام على تهيئة نفسه للرحلة، حيث شمل هذا الإعداد الجانب العلمي بالإضافة إلى الجانب البدني، فدرس اللغة العربية والطب والكيمياء ومختلف العلوم الأخرى في جامعة كامبريدج،كما دأب على التمرن على قطع المسافات الطويلة سيرا على الأقدام مكشوف الرأس، بالإضافة إلى افتراش الأرض و التعود على أكل الخضار فقط وغيرها من الأمور التي كان يلجأ إليها الرحالة لتأهيل أنفسهم للتلاؤم مع معطيات الشرق وعاداته وسلوكياته [2] .

انطلقت رحلة بيركهارت في سنة 1809م، حيث أبحر من مدينة مالطة متوجها نحو سوريا، وقد كان متنكرا في شخصية طبيب مسلم يحمل اسم ابراهيم بن عبد الله، مكث بيركهارت في سوريا مدة عامين ونصف عكف خلالها على تعميق معرفته باللغة العربية فضلا عن دراسته للعقيدة الاسلامية[3]، ففي هذا الصدد الصدد يشير روبن بدول إلى "أن اهتمام بيركهارت كان كبيرا بالشريعة الاسلامية لدرجة أنه أعلن إسلامه رسميا وقد بلغت معرفته بالفقه درجة كبيرة حتى أصبح العلماء المحليين يأخذون برأيه في أمور كثيرة ويعتبرونه عالما عظيما "[4].

غادر بيركهارت بلاد الشام بعد عامين قضاهما في التردد على حلقات العلم في حلب والتجول في بادية الشام وصولا إلى مدينة البتراء التي لم تكن قد اكتشفت من قبل، وبحلول سنة 1812 م ارتحل بيركهارت نحو مصر التي مكث عدّة شهور لينتقل بعدها إلى بلاد النوبة أين التحق بقافلة الحج السودانية المتجهة إلى

---

[1] حورية عبد الإله سعيد السملي، **كتابات الرحالة الأوروبيين مصدر للتاريخ الحضاري للمدينة المنورة من مطلع القرن العاشر هجري حتى نهاية العصر العثماني دراسة تحليلية مقارنة**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية ،جامعة أم القرى ،كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، 1434هـ- 2013م، ص 65.

[2] نبيل عبد الجواد سرحان، **المدينة المنورة في رحلتي بيركهارت وليون روش 1230هـ -1257هـ ، 1814م- 1841م**، ضمن أبحاث السجل العلمي للقاء الجمعية التاريخية السعودية العاشر: تاريخ وحضارة المدينة المنورة عبر العصور ، مج 2، ع 2، الجمعية التاريخية السعودية ، 2007م، ص 329.

[3] Ralli, op,cit, p 75.

[4] بدول، المرجع السابق، ص 45.

الحجاز فسار معها إلى أن وصل إلى ميناء سواكن الذي أبحر منه في سنة 1814م متجها نحو جدة التي وصلها بعد رحلة استغرقت أسبوعين [1].

قضى بيركهارت في إقليم الحجاز أحد عشر شهرا ظل خلالها يتنقل بين مدنه إلى غاية سنة 1815م فبعد إقامته بجدة زار الطائف التي يذكر أنه قابل فيها محمد علي الذي كان يتأهب للقضاء على الحركة الوهابية وقد نال عنده حظوة كبيرة[2]، ومن الطائف توجه بيركهارت في 07 أيلول إلى مكة المكرمة التي قضى فيها أكثر من أربعة شهور أدى فيها مناسك الحج، ومن مكة المكرمة غادر إلى المدينة المنورة التي زار فيها قبر النبي صل الله عليه وسلم، لكنه خلال إقامته بها تعرض لمرض ألزمه الفراش، وبعد أن تحسنت صحته ارتحل إلى ينبع ثم عاد منها إلى مصر التي وصلها في 24 حزيران 1815م[3]، حيث عكف فيها على مراجعة مشاهداته و مذكراته التي كان قد جمعها خلال مسار رحلته من أجل إرسالها للجمعية الافريقية، وفي الوقت ذاته أخذ يعد نفسه للسفر مع القافلة العائدة من مكة إلى فزان ليستكمل رحلته التي كان ينوي القيام بها إلى تومبكتو لكن الظروف حالت دون ذلك فتدهور حالته الصحية قد عجل بوفاته في 6 نوفمبر 1815[4].

استنادا إلى ما سبق ذكره يتضح أن رحلة بيركهارت إلى البلاد العربية تتميز عن غيرها من الرحلات الأخرى في القرن التاسع عشر، فبخلاف تلك الرحلات يعدّ بيركهارت من الرحالة القلائل الذين جاءت رحلاتهم تندرج ضمن الأهداف العلمية، فلم يكن تاجرا ولا جاسوسا يعمل لصالح دولة معينة و لم يسافر إلى المشرق من أجل غاية تبشيرية، وإنما كان العلم والبحث عن الحقيقة والرغبة في الاستطلاع والمغامرة هدفه الأول الذي شجعه على القيام برحلاته وتسجيل ما شاهده خلال تجواله وهو ما ظهر جليا في مؤلفاته الكثيرة، [5] ويكفي أن العلماء قد اعتبروه الرائد الأول لحركة الكشوف في الأراضي المقدسة و القطر الحجازي[6].

كان بيركهات خلال تجواله في بلاد العرب حريصا على تسجيل انطباعاته ومشاهداته، وقد أودع خلاصة رحلاته في خمسة مجلدات يختص كل واحد منها بمنطقة محددة، ومن بين هذه المؤلفات نذكر"رحلات

---

[1] حمد الجاسر ، **رحالة غربيون في بلادنا عرض موجز لرحلات بعض الغربيين في قلب الجزيرة وشمالها** ، دار اليمامة للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، دت، ص 9.

[2] John Leuis Burchaart**, Travels In Arabia**,Bublished By Authority Of The Association For Promoting The Discovery Of The Interior Of Africa, V1, London , 1829, p 1- 9 – 129, 130,133

[3] Ralli, op,cit, p 80,94, 100

[4] حشبشو، المرجع السابق، ص 57.

[5] جون لويس بيركهارت، **رحلات بيركهارت في بلاد النوبة** ...، المصدر السابق، ص 9.

[6] سرحان، المرجع السابق، ص 328.

في بلاد الشام" و رحلات في بلاد النوبة والسودان، لكن ما يهمنا أكثر في دراستنا هذه كتاباته المتعلّقة بالجزيرة العربية والتي جاءت في كتابين الأول صدر سنة 1829م و يحمل اسم: **رحلات في شبه الجزيرة العربية** Travel's In Arabia، وأما الكتاب الثاني فموسوم بـــ "**ملاحظات عن البدو و الوهابيين**" Notes On The Bedouins And Wahaby وقد طبع أول مرة في سنة 1830م[1]، ويبدو أن بيركهارت قد سجل جل هذه المصنفات في البداية على شكل يوميات وملاحظات متفرقة خلال رحلته حيث كان يدون ملاحظاته يوما بيوم[2]، وبعد عودته إلى مصر قام بمراجعتها وجمعها وترتيبها ومن ثم قام بإرسالها إلى الجمعية الافريقية في انجلترا التي أولت اهتماما كبيرا بها فنشرت بعد وفاته جميع كتبه على التوالي [3].

لقد اتبع بيركهارت في تدوين انطباعاته و مشاهداته على منهج علمي واضح يقوم على الحرص على نقل الحقائق التاريخية كما شاهدها إلى جانب الدقة في الوصف والتحري والتحليل والنقد وتمحيص الروايات التي سمعها[4]، وفضلا عن ذلك اتسمت كتابته بميزة خاصة هي ابتعاده عن إبداء انفعالاته الشخصية وهو ما أعطى لمصنفاته طابعا علميا فقد كان من أكثر الرحالة غزارة في المعلومات التي قدمها عن الحجاز في مطلع القرن 19م، أضف إلى ذلك لم يقتصر بيركهارت في تدوين وقائع رحلاته على تجاربه الشخصية فحسب بل إنه استعان بمصادر متنوعة فعلاوة على المشاهدة والملاحظة المباشرة اعتمد على الرواة وشهود العيان من الحجاج والتجار والحرفيين الذين استمع إليهم، وهذا ما نلاحظه جليا في حديثه عن المناطق التي لم يزرها[5].

وزيادة على ذلك لم يكتف بيركهارت في كتابة رحلاته على ملاحظاته و على ما سمعه من الرواة فحسب، بل اعتمد إلى جانب ذلك على المصادر المكتوبة، فقد ساهمت معرفتة باللغة العربية واتقانه لها في تمكنه من الاطلاع على العديد من المصادر العربية وتوظيفها في مؤلفاته، وهذا ما نستشفه في قوله:" غالبا ما استشهدت في صفحات هذا الكتاب ببعض المؤرخين العرب الذين كنت أملك أعمالهم ..."[6]، ولعلّ من بين

---

[1] عبد الباسط عبد الرزاق بدر، "وصف المدينة المنورة لبيركهارت" ، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، ع 3، 2003،ص 131.

[2] محمد القاضي، "جماليات خطاب الرحلة : قراءة في ترحال في الجزيرة العربية لجون لويس بيركهارت" ، مجلة الآطام، م 13، ع 39- 40، النادي الأدبي بالمدينة المنورة ، 2011م، ص 24.

[3] حشيشو، المرجع السابق ،ص 57.

[4] سرحان ، المرجع السابق، ص 328.

[5] ضيف الله بن يحي الزهراني ، **ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مكة المكرمة من خلال كتاب رحلات في شبه الجزيرة العربية لمؤلفه جون لويس بيركهارت أو الحاج ابراهيم بن عبد الله** ، ضمن أبحاث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة مابين 24-27 رجب 1421 الموافق لـــ 21-24 أكتوبر 2000م، ج2، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ص 669.

[6] جون لويس بيركهارت، **رحلات في شبه الجزيرة العربية**، ط1، دار الانتشار العربي ، لبنان، 2005، ص 13.

هذه المصادر التي استفاد منها نذكر على سبيل المثال لا الحصر كتاب: "**أخبار مكة** " لأبو الوليد الأرزقي وكتاب "**العقد الثمين**" لتقي الدين الفاسي و "**الإعلام في أعلام بلد الله الحرام**" لقطب الدين المكي وكتاب **وفاء الوفاء في دار المصطفى** لنور الدين علي ابن أحمد السمهودي، كما أنه لم يفته كذلك الاستعانة بتقارير الرحالة السابقين مثل كارستن نيبور وغيره [1].

ج . القيمة العلمية لرحلات بيركهارت :

لا شك أن المتفحص لمؤلفات الرحالة بيركهارت وخاصة كتابيه "رحلات في شبه الجزيرة العربية" و"ملاحظات عن البدو الوهابيين" يدرك مدى أهمية ما دونه هذا الرحالة خاصة وأن مصنفاته أضحت تعد من المصادر الأساسية التي يمكن من خلالها تتبع التاريخ الحضاري للجزيرة العربية في مستهل القرن التاسع عشر، فبيركهارت قدم من خلال رحلاته أدق وأشمل تقرير وصل إلى أوروبا عن الحجاز، بل إن مصنفاته عدت عند بعض الباحثين من أهم ما كتب عن المدينتين المقدستين حتى أنه لم يترك شيئا جديدا يوصف لمن جاء بعده من الأوروبيين [2]، ولعلّ هذا ما اعترف به بعض الرحالة الذين زاروا مكة والمدينة المنورة من بعده حيث يقول بيرتون عن أهمية كتاباته:" إنه لا يمكن الزيادة على كتاباته فكل صفحة من صفحات كتابه مليئة بالحقائق الدقيقة فقد تتغير ظروف الشكل الخارجي للحج من سنة إلى أخرى لكن الأوصاف الأساسية لشعائر الحج كانت كاملة عنده "[3].

إن أهمية رحلة بيركهارت تتجلى في كونه عاصر فترة انتقالية مهمة ما يزال الغموض يكتنف الكثير من جوانبها وهي الفترة التي تصادف انحسار الحركة الوهابية في الحجاز وسيطرة محمد على المنطقة، حيث تحدث بيركهارت عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأسس الحركة الوهابية، وأفرد حيزا مهما للحديث عن التطور السياسي الذي عرفته الجزيرة العربية في هذه الفترة، فبيركهارت يعدّ من الرحالة القلائل الذين عاينوا عن كثب الصراع القائم بين محمد علي و الحركة الوهابية، وبالتالي فإن المعلومات التي احتوتها مذكراته في هذا الشأن على درجة كبيرة من الأهمية[4].

---

[1] بيركهارت ، المصدر السابق، ص ص 13، 14.

[2] حشيشو، المرجع السابق، ص 57.

[3] نقلا عن محمد محمود السرياني، المرجع السابق، ص 33.

[4] جون لويس بيركهارت، **ملاحظات عن البدو والوهابيين**، ج2، تر: صبري محمد حسن، ط1، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، مصر، 2007، ص 80

و زيادة على ذلك اهتم بيركهارت بوصف الحجاز، فقدم معلومات قيمة عن ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيه، إذ نجده أسهب في الحديث عن المدن ومنازلها وشوارعها ومصادر المياه فيها،كما وصف السكان وفئات المجتمع وعاداتهم وتقاليدهم وحرفهم وأساليب حياتهم في المأكل والمشرب[1]، ناهيك على أنه أعطى إضافة إلى ذلك صورة شاملة عن المجتمع في البادية فتطرق إلى تنظيمهم الاجتماعي والقبلي وطبائعهم وأخلاقهم و صناعاتهم و علومهم و وغيرها من المعلومات التي لا نجدها تتوفر في أي مرجع آخر غيره [2].

تبرز القيمة العلمية لرحلة بيركهارت زيادة على ذلك في الملاحظات الهامة التي تتعلّق بشعائر الحج وما يرافقها، فقد تحدث بالتفصيل عن كيفية أداء المناسك و مدى اهتمام العالم الاسلامي بهذه الفريضة، كما وصف قوافل الحج المختلفة وطرق تحركاتها، فأفاض في وصف القافلة السورية والمصرية والمغربية وغيرها من القوافل الأخرى القادمة من مختلف العالم الاسلامي مستعرضا في الوقت ذاته ما يصاحبها من أنشطة علمية واقتصادية[3].

ومهما يكن من أمر فإن المذكرات التي سجلها بيركهارت عن رحلاته إلى المشرق العربي قد اشبعت فضول الأوروبيين بعد نشرها سيما منهم رجال الدين والسياسيين و الجغرافيون والمؤرخين الذين لطالما كانوا يركزون اهتمامهم لمعرفة تاريخ الأماكن المقدسة والأماكن المجاورة لها [4].

وبصفة عامة يمكن القول في الأخير أن رحلة بيركهارت تمثل بلا شك وثيقة تاريخية هامة، لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة الأوضاع العامة في الحجاز و البلاد العربية في مطلع القرن التاسع عشر، وذلك بالنظر لما تحتوي عليه من إفادات علمية متنوعة وذات قيمة علمية كبيرة والتي قد لا نعثر عليها في المصادر المحلية المعاصرة لتلك الفترة و لا حتى في كتب الرحالة الذين جاؤوا من بعده .

---

[1] بيركهارت، **رحلات في شبه الجزيرة**... ، المصدر السابق، ص ص 153 - 308.

[2] جون لويس بركهارت ، **ملاحظات عن البدو والوهابيين**، ج1، تر: صبري محمد حسن، ط1، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق اليومية ، مصر، 2007 ، ص ص 17، 44، 55، 60 .

[3] بيركهارت، **رحلات في شبه الجزيرة**...، المصدر السابق، ص 206 .

[4] ديفيد جورج هوغارث، **اختراق الجزيرة العربية سجل لمعرفة الغرب بشبه الجزيرة العربية** ، تر: صبري محمد حسن، ط2، م.ق.ت، القاهرة ، ص 125.

3. 3 رحلة ريتشارد بيرتون 1852م .

أ. التعريف بصاحب الرحلة :

إسمه الكامل ريتشارد فرانسيس بيرتون رحالة ومستكشف انجليزي من أصل إيرلندي، ولد في سنة 1238هـ -1821م وتوفي في 1890م، يذكر روبن بدول في كتابه أن والده كان يعمل ظابطا في الجيش البريطاني وبعد أن ترك مهنته أخذ يرتحل إلى ايطاليا و فرنسا، تلقى بيرتون تعليما غير نظامي، حيث ألحقه والده سنة 1840 م بكلية اللاهوت بجامعة أكسفورد تمهيدا للعمل في الكنيسة لكنه سرعان ما انفصل عنها والتحق في سنة 1842 بخدمة الجيش البريطاني في الهند، اشتهر بيرتون بإتقانه للعديد من اللغات والتي التي قاربت حسب ما ذكرته بعض الدراسات تسعة وعشرين لغة منها العربية والفارسية والهندوستانية وغيرها من اللهجات [1].

كان بيرتون مهتما بالترحال والرغبة في الإستكشاف، فزار العديد من المناطق مثل باكستان و الهند و مصر والحجاز و شرق إفريقيا وغربها، وقد ذاعت شهرته نتيجة للإكتشافات الكبيرة التي قام بها، فهو يعدّ أول أوروبي إكتشف بحيرة تنجانيقا[2]، عمل بيرتون لحساب الجمعية الجغرافية البريطانية وأدى العديد من المهمات الإستكشافية في الجزيرة العربية و إفريقيا، عين بعدها قنصلا في البرازيل ثم في دمشق في سنة 1869م، ثم اختير مرة أخرى قنصلا في تريستا الإيطالية التي استقر فيها إلى أن وافته المنية في عام 1890 م [3].

ترك بيرتون إنتاجا علميا ثريا ومتنوعا يدل على سعة فكره ومكانته الكبيرة، والجدير بالذكر أن إسهاماته العلمية تنوعت ما بين التأليف والترجمة، فمن أهم آثاره نذكر على سبيل المثال لا الحصر:كتاب **خطوات في افريقيا الشرقية**" و"**كتاب التطواف بإفريقيا الغربية**" بالإضافة إلى كتاب "سوريا غير المكتشفة"، وإلى جانب ذلك ألف ثلاث كتب أخرى عن الهند، لكن أهم ما اشتهر به ريتشارد بيرتون هو ترجمته لقصص "ألف ليلة وليلة" والتي جاءت في ستة عشر مجلدا، هذا إلى جانب كتابه الآخر الذي هو محل

---

[1] عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، **روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية 1500-1840م** ، ج2، ط 1، دار الساقي، بيروت، 2013م، ص 21،23. أنظر أيضا: Ralli , op,cit, p162,163

[2] ذهني، **رؤية الرحالة الأوروبيين**...، المرجع السابق، ص 56.

أنظر أيضا:

thomas wright, **The Life Of Sir Richard Burton**, V 1,London , 1906, P 150 , 156 , 157.

[3] بدول، المرجع السابق، ص ص 56،64.

دراستنا والذي يتعلّق برحلته المهمة إلى مصر والحجاز والذي اعتبره المؤرخون من أوثق المراجع و أهمها في منتصف القرن التاسع عشر[1].

ب. التعريف بالرحلة :

تندرج رحلة ريتشارد بيرتون ضمن الرحلات الاستكشافية التي كانت تنظمها الجمعية الجغرافية في لندن والتي انصب اهتمامها على محاولة اكتشاف المزيد من المناطق في الجزيرة العربية التي ظلت حتى القرن التاسع عشر تجذب أنظار الأوروبيين إليها لأهميتها السياسية والاقتصادية .

في إطار هذا المشروع الاستكشافي عرض بيرتون في سنة 1852م خدماته على الجمعية الجغرافية من أجل إجراء بعض الاستكشافات في المنطقة الوسطى والغربية من الجزيرة العربية، وقد أبدت الجمعية موافقتها على هذا المشروع وتكفلت شركة الهند الشرقية بتمويل رحلتة إلى مصر والحجاز[2].

لا شك أنّ رحلة بيرتون إلى المشرق العربي تتداخل فيها مجموعة من الدوافع الظاهرة والخفية منها ما أفصح عنه بيرتون في مقدمة رحلته التي دونها، و منها ما يمكن للباحث أن يستشفه سواء من خلال القراءة المتعمقة للظروف التي تمت فيها الرحلة، أو من خلال الوقوف أيضا على بعض التفاصيل الدقيقة التي احتوت عليها الرحلة والتي تكشف عن جانب من الأهداف الحقيقية لهذه الرحلة .

إنّ من جملة الأهداف التي كان بيرتون يعزم على تحقيقها وقد أفصح عنها في مستهل رحلته هي محاولته الوصول إلى الجانب غير المعروف من الجزيرة العربية والذي يمتد حسب ما ذكر من المدينة المنورة حتى مسقط، و يشكل هذا الأمر هدفه الأساسي، وأمّا بخصوص أهدافه الثانوية يصرح بيرتون أنها متنوعة منها ما يتعلّق برغبته في اكتشاف امكانية فتح سوق للخيول بين وسط شبه الجزيرة العربية والهند، بالإضافة إلى جمع المعلومات عن الربع الخالي حتى يتم ادراجها في خرائطهم، وكذلك البحث في هيدروجرافية الحجاز من خلال التعرف على مصادر المياه فيها و وصفها، هذا إلى جانب محاولتة التأكد بالملاحظة الفعلية من وجود الفوارق الفيزيولوجية بين السكان في الجزيرة العربية عن طريق دراسة أصولهم وأحوالهم[3].

إذا كانت الدوافع التي أشار إليها بيرتون في مقدمة رحلته ترتبط جلها بالرغبة في كشف الغموض عن المناطق التي كانت لا تزال معرفة الأوروبيين عنها تعد قليلة، فإنه مما من شك في وجود دوافع أخرى لم يفصح عنها بيرتون، لكن المؤرخين الذين اهتموا بهذه الرحلة لم يستبعدوا أن تكون رحلته مرتبطة بأهداف سياسية

---

[1] نجيب عقيقي، **المستشرقون**، ج2، ط5، د.م، القاهرة ، 2005م،ص 60 .

[2] بدول، المرجع السابق، ص 56.

[3] Burton , op ,cit, p 2 , 3.

واستعمارية شأنه في ذلك شأن أغلب الرحالة الأوروبيين السابقين، وقد استندوا في ذلك على كونه كان يعمل لحساب الجيش البريطاني، كما أن رحلته قامت بتمويلها شركة الهند الشرقية وبالتالي فإنه قام بتزويد بريطانيا بأكبر قدر من المعلومات حول هذه المناطق التي زارها[1]، ومما يؤكد هذا الأمر أنه في حديثه عن مصر نجد مايدل على أهدافه الإستعمارية وذلك ما يظهر من خلال قوله : "... فلو وقعت مصر في أيدي الغرب سهلت السيطرة على الهند ، ومكنت من فتح إفريقيا الشرقية كلها بشق قناة للسفن تصل البحر المتوسط بالبحر الأسود عند السويس، وليس من خوف كثير من تعصب المصريين فقليل من التدبير يكفي للسيطرة ...، وباختصار فإن مصر هي أكثر الجوائز اغراء بحيث تجعل الشرق يبعدها عن أطماع أوروبا إنها أهم حتى من القرن الذهبي " [2].

لقد بدأت رحلة بيرتون إلى بلدان المشرق العربي في سنة 1853 م، و قد كان مسار رحلته الذي اختاره يقضي بزيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة من خلال المرور أولا بمسقط والربع الخالي لكن شركة الهند الشرقية عارضت هذه الفكرة ورأت أن هذه الرحلة تكتنفها الكثير من المخاطر، وهذا الأمر دفع بيرتون إلى تعديل مساره رحلته، حيث اختار هذه المرة السفر في البداية إلى مكة المكرمة ومنها يعبر إلى الربع الخالي ثم إلى مسقط ومن مسقط يتوجه إلى أخر محطة له في الهند [3].

سلك بيرتون في رحلته طريق البحر حيث غادر في الثالث من شهر أفريل عام 1853م ميناء ساوثهامتون متجها نحو الإسكندرية، وبعد أن أقام فترة في القاهرة استغلها في دراسة الشعائر الإسلامية غادر بيرتون نحو السويس ومنها أبحر إلى ينبع التي مكث بها أسبوعا، ومن ينبع واصل بيرتون رحلته إلى المدينة المنورة ثم توجه منها إلى مكة المكرمة التي وصلها في شهر سبتمبر من عام 1853م[4].

في هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن بيرتون قد عكف كغيره من الرحالة الأوروبيين السابقين خلال مسار رحلته على التنكر وتقمص شخصيات عدّة وذلك حتى يتسنى له الولوج إلى المناطق والتنقل بين المدن بكل أريحية ودون أي مشاكل أو عراقيل، ففي فترة تواجده في الإسكندرية تنكر بشخصية درويش ثم انتحل بعدها شخصية رجل أفغاني مسلم وسمى نفسه باسم عبد الله الأفغاني، وكان بيرتون قد اكتسب خلال فترة إقامته بالحجاز ومصر والتي دامت حوالي سنة معرفة دقيقة بأخلاق و عادات المسلمين، كما أنه أدى فريضة

[1] السملي، المرجع السابق، ص 58.

[2] Burton , op ,cit, v1, p110

[3] بدول، المرجع السابق، ص 56.

[4] عبد الغني ابراهيم، المرجع السابق، ج2، ص 24.

الحج[1]، وكان بيرتون طيلة فترة إقامته بالحجاز ومصر حريصا على تسجيل ملاحظاته وانطباعاته عن هذه الأقطار وشعوبها فوصف عاداتهم وطباعهم ومناسك الحج ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

لقد ضَمن بيرتون مجريات وتفاصيل رحلته إلى المشرق العربي والتي دامت حوالي سنة في كتاب ضخم، وقد جاء في مجلدين، تم نشره بعد عودته إلى انجلترا سنة 1893م، قام بترجمته إلى اللغة العربية الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ بعنوان "**رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز** .

إن المطلع على الرحلة يجد بيرتون قد اعتمد في تدوين مشاهداته على منهج دقيق يقوم أولا على الملاحظة الشخصية والوصف التفصيلي، ولم يكتف بذلك فحسب، بل إنه استعان علاوة على ذلك بالرواية الشفوية، واطلع على كتابات الرحالة الأوروبيين السابقين الذين كثيرا ما كان ينقل عنهم ويستشهد بهم، وإلى جانب ذلك لم يهمل بحكم معرفته و اتقانه للعربية الاعتماد على أمهات الكتب العربية منها ما يخص السيرة النبوية ومنها وما يتعلّق بالشعر العربي وغيرها من المصادر الأخرى [2].

من جهة أخرى إن ما يميز رحلة بيرتون عن غيرها من الرحلات طبيعة الأسلوب الذي دونت به، فالقارئ للرحلة أول ما يلفت نظره الأسلوب الصعب الذي اتبعه بيرتون في عرض وقائع رحلته، وقد أجمع المهتمون بالرحلة على أن أسلوب الرحلة صعب المرتقى، كثير التلافيف، طويل الجمل ، وقد أغرق بيرتون في استخدام الصيغ البلاغية والتشبيهات التي استقاها من ثقافات مختلقة اغريقية وأوروبية وعربية، وفي نظرهم أن هذا من شأنه أن يرهق القارئ الذي ينتابه التشتت في متابعة الأفكار [3].

ومما يؤخذ عن الرحلة كذلك طغيان الذاتية على مواضيع الرحلة، والتي تتجلى بوضوح في الصبغة استعلائية التي ميزت خطاب بيرتون، لكن رغم تلك المآخذ لا يمكن أن نغفل أو نهمل أهمية الرحلة فهي بما حوته من إفادات متنوعة حول أوضاع المشرق العربي في منتصف القرن التاسع عشر أصبحت تعد مصدرا مهما ولا غنى عنه سواء في دراسة تاريخ مصر أو في تقصي أحوال الحجاز في العهد العثماني .

[1] رالي، المرجع السابق، ص 197- 199.

[2] عبد الغني ابراهيم، المرجع السابق، ص ص 31، 32.

[3] بيرتون، المصدر السابق، ص 13.

ج . القيمة العلمية لرحلة بيرتون:

تحتل رحلة بيرتون مكانة متميزة بين الرحلات الأوروبية في القرن التاسع عشر، وقد اعتبرها الباحثون أحد النصوص الأساسية التي تضم معلومات قيمة عن المشرق العربي، وهذا نظير مساهمتها في كشف بعض الجوانب المهمة من تاريخ المنطقة العربية ولاسيما مصر والحجاز التي ظلت أوروبا تتطلع لاكتشافهما .

و لاشك أن المطلع على مضمون هذه الرحلة يتضح له أنها تمثل سجلا حافلا بالمعلومات المهمة و التي قد لا نعثر عليها في المصادر الأخرى، فالرحلة تتميز بطابع شمولي إذ لم يقتصر بيرتون فيها على وصف مراحل الرحلة ولا على ذكر المدن والأقاليم التي مر بها فحسب، بل تعدى ذلك إلى الحديث عن مختلف المظاهر الحضارية فقدم صورة تكاد تكون شاملة عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية [1].

تبرز أهمية هذه الرحلة في كونها أرخت لمرحلة تاريخية مهمة من تاريخ العالم الاسلامي، فقد وصف بيرتون أحوال مصر والحجاز في منتصف القرن التاسع عشر وهي الفترة التي تميزت بأحداث وتحولات تاريخية كثيرة، وهكذا فإن المذكرات التي دونها بيرتون عن رحلته قد ساهمت بشكل كبير في سد الفراغ الناجم عن قلة المعلومات عن هذه الحقبة من جهة، كما أنها من جهة أخرى استكملت وصف ما لم يتناوله الرحالة السابقون في كتاباتهم مثل بيركهارت وغيره من الرحالة[2].

إن من أهم الملاحظات التي أوردها بيرتون في رحلته واكتست أهمية بالغة لدى الباحثين ما يتعلّق بملامح الحياة الاجتماعية، إذ تطرق بنوع من التفصيل إلى طبائع السكان في مصر والحجاز واستعرض طرق تعايشهم وأنماط حياتهم سواء فيما يخص الأطعمة والأشربة و الألبسة أوفيما يتعلّق بعاداتهم في المناسبات، وفضلا عن ذلك لم يفته كذلك وصف أوضاع العبيد و أحوال الأجانب وأهل الذمة في المشرق العربي [3].

أضف إلى ذلك جاءت معلوماته المتعلقة بالجانب الثقافي على قدر كبير من الأهمية، حيث وصف مراكز التعليم، فنجده قد خصص حيزا مهما من رحلته للحديث عن جامع الأزهر، فتطرق إلى مناهج التعليم فيه واستعرض نظامه الداخلي، وأورد أنواع العلوم و الأوقاف المخصصة له وغيرها من المعلومات الأخرى التي كشفت طبيعة وملامح الحياة الثقافية في المشرق العربي [4].

---

[1] مختار بن حسن بن عقيل موسى الشريف، **المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية** ، م1،ط 1، دار الأندلس الخضراء، السعودية، 2001م، ص 23.

[2] السملي، المرجع السابق، ص 91.

[3] بيرتون، المصدر السابق، ص 63- 98 . أنظر أيضا : الشيباني، المرجع السابق، ص ص 108، 109.

[4] بيرتون، المصدر السابق ، ص ص 85- 97.

ولم تقتصر أهمية رحلة بيرتون على ما ذكره في الجانب الاجتماعي والعلمي فحسب، بل تعتبر المعطيات التي قدمها عن الحياة الاقتصادية والسياسية ذات فائدة كبيرة للباحثين، حيث أسهب صاحب الرحلة في وصف سمات الحركة التجارية و أنواع الصادرات والواردات،كما تحدث عن حالة الأسواق و دور قوافل الحج في تنشيط الحركة التجارية [1].

ومن الإفادات العلمية التي تضمنتها الرحلة كذلك حديثه عن عدم الاستقرار الذي ميز المشرق العربي منتصف القرن التاسع عشر، حيث اهتم بوصف سياسة شريف مكة في التصدي للصوصية، كما استعرض في الوقت ذاته موقف الدولة العثمانية من البدو، ولعلّ ما يزيد من أهمية هذه الرحلة أيضا حديثه عن الصراع الذي قام بين الدولة العثمانية والحركة الوهابية حيث نجده يصف حملة طوسون باشا التي كانت تهدف للقضاء على هذه الحركة في الحجاز [2].

وعموما يمكن القول في الختام أن رحلة بيرتون واحدة من الرحلات الأوروبية التي تختزن في طياتها الكثير من المعطيات التي يمكن من خلالها استجلاء صورة المشرق العربي، حيث تعددت جوانب الاستفادة منها، وبالنظر للأهمية التي حضيت بها هذه الرحلة فإنها شكلت نموذجا احتذى به الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة من بعده .

[1] بيرتون، المصدر السابق ، ص ص 148- 150.

[2] نفسه، ص ص 197- 213

الفصل الثاني : صورة مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من خلال كتابات الرحالة.

المبحث الأول : الأوضاع السياسية في مصر خلال القرنين 18 و 19م

1. الأوضاع السياسية في القرن الثامن عشر.
2. الأوضاع السياسية في القرن التاسع عشر.

المبحث الثاني: مظاهر الحياة الاقتصادية في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

1. الزراعة.
2. الصناعة.
3. التجارة

المبحث الثالث : الأوضاع الاجتماعية في مصر من خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

1. التركيبة الاجتماعية .
2. العادات والتقاليد.
3. الإحتفالات والأعياد.
4. المرأة المصرية

المبحث الرابع : الحركة الثقافية والفكرية في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

1. المؤسسات والمراكز العلمية
2. أصناف العلوم.
3. طرق التدريس والتلقي في المؤسسات التعليمية المصرية .
4. العلماء ونتاجهم الفكري.

المبحث الأول: الأوضاع السياسية في مصر من خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

لقد كانت مصر خلال العهد العثماني تمثل محطة أساسية لكثير من الرحالة المغاربة والأوروبيين، وبالنظر للأهمية التي كانت تتمتع بها هذه المنطقة، فإن هؤلاء الرحالة قد تركوا لنا مجموعة من المذكرات التي حرصوا فيها على ذكر انطباعاتهم ومشاهداتهم، والجدير بالذكر أن هذه المصنفات التي دونها هؤلاء الرحالة عن مصر قد احتوت على الكثير من الإفادات العلمية التي تسمح للباحثين باستجلاء صورة مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر سواء كان ذلك في الجانب السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو حتى في الجانب الثقافي .

وبناء على ذلك سنحاول من خلال هذا الفصل إبراز الصورة التي أنتجها هؤلاء الرحالة عن مصر والتي انعكست في كتاباتهم، بحيث اقتصرنا في عرض واقع مصر على أهم النماذج من الرحلات المغاربية والأوروبية التي توفرت لدينا، فمن المعلوم أنه لا يمكن الإحاطة بجميع الرحلات لعدم توفرها كاملة من جهة والصعوبة التي تترتب على الباحث عند دراستها كلها من ناحية ثانية، ومع ذلك اقتضى منا هذا الموضوع الاستعانة ببعض المصادر المحلية ككتاب الجبرتي"**عجائب الآثار في التراجم والأخبار**"و"**كتاب الدرة المصانة لأحمد الدمرداشي**"، وهذا لمقارنة بينها وبين ماكتبه هؤلاء الرحالة عن مصر في العهد العثماني، ولعلّ ذلك ما يسمح في الأخير بإعطاء صورة دقيقة وشاملة لأوضاع مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

لقد شهدت مصر في ظل الحكم العثماني وبالأخص في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحولات سياسية مهمة، وقد سجل الرحالة الذين وفدوا إليها في مذكراتهم تفاصيل متنوعة تعكس مجمل الأحداث والتطورات التي عاشتها مصر في تلك الحقبة، غير أن الملاحظة التي ينبغي الاشارة إليها قبل التطرق إلى مميزات الحياة السياسية في مصر أن مضامين الرحلات المغاربية تكاد تخلو من المعطيات السياسية باستثناء بعض الإشارات القليلة التي ذكرها بعض الرحالة[1]، وهذا على عكس وخلاف الرحلات الأوروبية التي نجدها قد أولت هذا الجانب اهتماما وحيزا كبيرا .

و بالإطلاع على مضمون هذه الرحلات يتضح لنا أن المعطيات التي قدمها هؤلاء الرحالة عن مظاهر الحياة السياسية في مصر جاءت ترتكز على مواضيع محددة تناولها أغلب الرحالة، ففي القرن الثامن عشر اهتموا بوصف مظاهر انهيار الحكم العثماني في مصر واستئثار المماليك بالنفوذ، بالإضافة إلى تركيزهم على وصف الاضطرابات السياسية وحركات التمرد التي شهدها القرن الثامن عشر كحركة علي بك الكبير، و أما في

[1] من الرحالة المغاربة الذين سجلوا في مصنفاتهم معطيات تعكس مظاهر الحياة السياسية في مصر نذكر الورتلاني ، و الغيغائي و الفقيه الحيوني وقد جاء تركيزهم على وصف سياسة محمد على في القرن التاسع عشر.

القرن التاسع عشر فقد انصب اهتمامهم بشكل خاص عن وصف فترة حكم محمد علي و ما تخللها من أحداث.

1. الأوضاع السياسية في القرن الثامن عشر :

انهيار الحكم العثماني في مصر

أصبحت مصر ولاية عثمانية ابتداء من سنة 1517 م، وهذا بعد أن قضى السلطان سليم الأول على دولة المماليك التي حكمت لعدّة قرون، ونتيجة للأهمية التي شكلتها هذه الإيالة بالنسبة للدولة العثمانية عمد السلطان العثماني على إرساء نظام حكم جديد لتسيير شؤونها، وهذا النظام يقوم على توزيع السلطة على ثلاث قوى رئيسية تتمثل الأولى في الباشا وهو ممثل السلطان ونائبه في الإيالة بالإضافة إلى رؤساء الجند والانكشارية الذين كان يتشكل منهم الديوان[1]، كما أوجد إلى جانب ذلك سلطة ثالثة هي الأمراء المماليك الذين كانت مهمتهم الأولى هي الإشراف على السناجق[2] قبل أن يسترجعوا نفوذهم في القرن الثامن عشر [3].

لقد كان هدف السلطان من وضع أسس هذا النظام في مصر هو محاولة المحافظة على سلطة ونفوذ الدولة العثمانية فيها، ذلك أن انفراد الباشا وحده بالحكم كان يثير مخاوف السلطان، فقد يتسبب ذلك في ثورة هذا الأخير عليه واستقلاله على الدولة العثمانية، وذلك بالنظر لبعد مصر عن مركز الخلافة، ولهذا رأى أن توزيع السلطة على قوى متعددة من شأنه أن يحفظ التوازن بينها، فوجود سلطة أخرى إلى جانب سلطة الباشا سوف يحول بلا شك دون استئثاره بالحكم فهي تحد من نفوذه و تراقبه وتمنعه من التفكير في التمرد على السلطنة، ولعلّ هذا ما يعزز من نفوذ الدولة العثمانية في ولاياتها من جهة ويضمن استمرار تبعية مصر لها من جهة أخرى[4].

عرف النظام الذي أرساه العثمانيون لتسيير شؤون مصر استمرارية، بحيث كان يسير وفق الأسس والنظم التي وضعت في القرن السادس عشر، لكن ابتداء من القرن الثامن عشر شهد الحكم العثماني في مصر

---

[1] الديوان: أنشأه السلطان سليم بعد ضمه لمصر سنة 1516م، وذلك من أجل أن يمارس الوالي اختصاصاته، وقد قسمه إلى قسمين الديوان الكبير المكلف بالأعمال الهامة، وهو يتشكل من أمير الحج وقضاة المذاهب الأربعة بالإضافة إلى ضباط الوجاقات، وكان هذا الديوان يتلقى الأوامر من الباب العالي، وأما الديوان الصغير فهو يتشكل من الدفتردار و الروزنامجي ووكيل الوالي المعروف بالكتخدا، كانت مهمته هي التكفل بالأعمال المحلية. للمزيد أنظر: **ناصر الأنصاري، المجمل في تاريخ مصر النظم السياسية والادارية**، ط1، د.ش، بيروت، 1993، ص 199.

[2] السناجق، جمع سنجق، وهي لفظ تركي يقصد به اللواء وهو يعني منطقة ادارية وجزء من الولاية ، يشرف عليها قائد عسكري يسمى بـــ سنجق بيك . انظر محمد أحمد دحمان، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، دار الفكر، دمشق، 1999م، ص 93.

[3] محمد ابن سرور البكري الصديقي، **النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية** ، تح: عبد الرزاق عبد الرزاق عيسى، ط1، د.ع.ن.ت ، القاهرة ، 1998م، ص 21 .

[4] Volney, op,cit , p 96

انهيارا وتراجعا ملحوظا، حيث طرأ على نظام الحكم اختلالات كبيرة، فطغى على المشهد السياسي العام عدم الاستقرار وازدياد الاضطرابات والمنازعات السياسية بين مختلف القوى(الباشا و رؤساء الجند والأمراء المماليك) لينتهي هذا الصراع في الأخير بتراجع سلطة الدولة العثمانية في مصر وتزايد نفوذ المماليك الذين باتوا يعتبرون الحاكمين الفعليين لمصر [1].

سجل الرحالة الذين وفدوا على مصر خلال القرن الثامن صورا متعددة تعكس تردي الوضع السياسي في تلك الحقبة، وقد أجمعوا في كتاباتهم على أن الدولة العثمانية قد فقدت سيطرتها على هذه الإيالة بحيث لم يعد لها سوى سلطة إسمية، ومن الدلائل التي قدمها هؤلاء الرحالة لتأكيد هذا الموقف حديثهم عن ضعف وتراجع سلطة الباشا الذي كان يعتبر نائب السلطان وممثله في مصر[2].

لقد قدم الرحالة نيبور الذي زار مصر في سنة 1761م معطيات هامة نستشف من خلالها مظاهر تراجع الحكم العثماني، فهو في خضم حديثه عن طبيعة الحكم يذكر أن من يتولى زمام السلطة في مصر هو الباشا، لكن بالرغم من أهمية منصبه إلا أن سلطته محدودة ولا يمكن مقارنتها بسلطة وصلاحيات الباشوات في الولايات الأخرى من الدولة العثمانية، وهذا في نظره يعود إلى أن الباشا في مصر ينساق و يخضع خضوعا شبه كامل للديوان، وإلى مختلف القوى الحاكمة الأخرى سواء من رؤساء الجند أو البكوات المماليك[3].

و جاءت رواية نيبور تتوافق إلى حد كبير مع ما ذكره فولني الذي يمكن اعتباره من أكثر الرحالة إطلاعا على أحوال مصر نظرا لمكوثه بها ثلاث سنوات، فبالعودة إلى ما سجله عن ملامح الحياة السياسية نجده يؤكد أن صلاحيات الباشا قد تقلصت بشكل كبير، فلم يعد ضمن صلاحياته سوى تبليغ أوامر للباب العالي و إرسال الجزية إلى الأستانة، والسهر على حفظ الأمن في والحيلولة دون ظهور المنازعات داخل الإيالة [4]، فضلا عن حضور الاحتفالات الرسمية كالإشراف على خروج كسوة الكعبة الشريفة إلى الحجاز[5].

---

[1] ذهني، **مصر في كتابات الرحالة** ...، المرجع السابق، ص 97.

[2] Sonnini **, Voyage Dans La Haute Et Basse Egypte Fait Par Order De L'ancien Gouvernement Et Contenant des observations de tous genres** , t 2, paris , p317, 318 .

[3] كارستن نيبور، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها**، ج1، تر: عبير المنذر ، ط1، دار الانتشار العربي ، بيروت ،2007م، ص 107.

[4] Volney, op,cit, p 96,97.

[5] الدرعي ، المصدر السابق، ج 1، ص 280.

إن ما قدمه الرحالة في نصوصهم من معطيات حول الباشا وصلاحياته في مصر قد حمل كثيرا من الدلالات، إذ عكست كتاباتهم مدى انهيار الحكم العثماني في مصر، فعلى الرغم من أن وظيفة الباشا كانت تمثل أهم الوظائف في الدولة العثمانية، فالملاحظ أن سلطة الولاة العثمانيين في مصر شهدت انهيارا واضمحلالا كبيرا، فابتداء من القرن الثامن عشر تراجعت مكانتهم في مصر وأضحت سلطتهم محدودة تقتصر فقط على بعض المهام العادية في حين أن السلطة الفعلية تحولت إلى المماليك الذين آل إليهم الحكم في مصر.

إن تراجع الحكم العثماني وانهياره في مصر لم يكن يقتصر على تراجع صلاحيات الباشا الذي كان يعتبر ممثل السلطان ونائبه في الإيالة فحسب، بل تعددت مظاهر ذلك، ومما يؤكد هذا الأمر ما أشار إليه بعض الرحالة بخصوص ما كان يتعرض له هؤلاء الولاة من قتل ومضايقات وعزل، فقد ذكر فولني **أن:** "الباشا كان قيد المراقبة في قصره وهو سجين المماليك أكثر مما هو ممثل السلطان، وهو عرضة للخلع والنفي والطرد في أي وقت"[1]، وقد أيد هذا الموقف أيضا الرحالة سافاري، ففي وصفه للوضع المتردي الذي آل إليه الولاة العثمانيين في مصر في القرن الثامن عشر أكد على أن المماليك هم سادة مصر وفي رأيه أنه لم يعد للولاة العثمانيين أي سلطة فعلية، بل إنهم باتوا أداة في أيدى الأمراء المماليك، وهذا ما نستشفه في قوله:" إن منصب الباشا هو نوع من أنواع النفي، فهو لا يستطيع أن يخرج من القلعة إلا بإذن من شيخ البلد، وهو سجين يرى نفسه وقد أحيط بمظاهر الأبهة، ومن خلال هذه المظاهر يشعر بثقل القيود التي يرسف فيها فهو لا يد له في شؤون الحكومة ومرتبه محدود بما يدخل رسوم جمرك السويس والمتاجر التي ترد من البحر الأحمر "[2].

ويضيف "أن الباشا لا يستطيع الاستمرار في مركزه ومنصبه إلا إذا تمكن من أن يستجلب عطف الحزب الغالب من المماليك، ورغم ذلك فإنه يظل بحاجة إلى الحذر الشديد فأصغر هفوة منه تؤدي به إلى الهلاك، وقد يحدث في بعض المرات أنه مع حذره ودهائه ينقلب عليه قصده، وهذا إذا طغى بعض أمراء السناجق على الحزب الغالب من البكوات الذي ينتمي إليه الباشا فيسلبه السلطة و يرتفع إلى مشيخة البلد وهكذا يخرج الباشا مطرودا ومذموما "[3].

[1] Volney, op,cit, p148.

[2] Savary, **Lettres Sur L'egypte** , T 2, Paris , P 141

[3] Ibid , P 141,142

ولا يختلف رأي نيبور عن ما أورده سافاري وفولني فهو من جهته يؤكد ويدعم ما أشاروا إليه، فمما ذكره أن الباشا كثيرا ما كان يتم إقصائه من الحكم، وهذه الظاهرة حسبه تستفحل أكثر عندما لا يكون الباشا سياسيا محنكا يعرف كيفية تحريض الأحزاب بعضها على البعض، و يشير نيبور أيضا في وصفه لهذه الظاهرة أنه في المدة القصيرة التي أقامها بمصر شهد تعاقب ثلاث باشوات على الحكم، كما أنه هناك من الولاة من لم يتعدى حكمهم سبعة أشهر[1].

و بمقارنة ما ذكره هؤلاء الرحالة مع ما ورد في المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة وخاصة كتاب الجبرتي نجد توافقا واضحا، فقد روى الجبرتي العديد من الأمثلة التي تبين قيام المماليك بتجريد الباشا من سلطته وإنزاله من مقره في القلعة إلى حيث يحاسب ويسجن على ما جمع من مال و ينفى من البلاد، ولعلّ حديثه عن عزل الوالي علي باشا وحسين باشا والوالي ابراهيم باشا وغيرهم لدليل واضح على مدى ضعفهم وازدياد نفوذ الذي استأثر به المماليك آنذاك [2].

يظهر من خلال ما ذكره الجبرتي أن تعيين الولاة واستمرارهم في الحكم كان يخضع بشكل كبير لإرادة ورغبة الأمراء المماليك، وقد أوضح سافاري بنوع من التفصيل هذه الحقيقة أيضا عندما وصف موقف المماليك من استقبال الوالي الجديد، فمما ذكره أنه لما يصل الباشا المعين من طرف الباب العالي إلى الاسكندرية يبلغ الديوان بخبر وصوله ويرسل شيخ البلد وفدا من أهم البكوات لاستقباله وتقديم الهدايا وإظهار الطاعة له، لكنهم في نفس الوقت يحاولون خلال مقابلته استطلاع نواياه، وهذا من خلال أقواله وأقوال حاشيته، فإذا رأوا أنه لا يوافق أهوائهم وطموحاتهم أرسلوا لشيخ البلد في القاهرة رسالة، ويتم على إثرها عقد الديوان ويبلغ الباشا أنهم لا يريدونه، ثم يرسل إلى الباب العالي بأن الباشا الجديد يحمل نيات عدائية من شأنها أن تهدد استقرار البلاد و تتسبب في حدوث الفتنة بين رعاياه، فيطلبون استدعائه فلا يرفض لهم الباب العالي طلبا، وأما إذا اطمئن الوفد لنوايا الباشا وتأكدوا أنه لا خيفة منه يدعونه إلى القاهرة ويتم استقباله في موكب ضخم [3].

وقد أكدت المصادر التاريخية هذه الظاهرة ففي سنة 1623م رفض الأمراء المماليك قبول الوالي الجديد علي باشا وقاموا بإعادته إلى اسطنبول، ومما ذكر أيضا في المصادر أن البكوات قد اجتمعوا في سنة 1631م على معارضة الوالي موسى باشا، فعزلوه بعد أن قتل أحد شخصياتهم، و عينوا واحدا آخر في مكانه هو حسن

---

[1] نيبور، المصدر السابق، ص 107.

[2] الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج1، تح: عبد الرحين عبد الرحمن عبد الرحيم،، ج1 ، دار الكتب المصرية، 1998م، ص ص61، 62 ، 72.

[3] Savary , op, cit , P 139

بك وأرسلوا إلى السلطان العثماني كتابا يعلمونه بما قاموا به، فما كان عليه إلا الموافقة على ما فعلوه، والواقع أن هذه الحادثة شكلت سابقة في تاريخ مصر فعلى إثرها تحولت السلطة الفعلية إلى المماليك الذين أضحوا يسيطرون على الوالي العثماني[1].

إن وصف الرحالة لم يقتصر على الضعف التي آل إليه نفوذ الولاة العثمانيين في مصر بل أسهبوا زيادة على ذلك في الحديث عن مظاهر ذلك، فعند تتبع ما كتبوه نلاحظ أن من أهم مظاهر تراجع سلطة الباشوات ظاهرة العزل التي كانوا يتعرضون لها نتيجة للمؤامرات التي كان يحكيها الأمراء المماليك ضدهم، فيذكر سافاري في هذا الشأن أنه بعد أن يجتمع الديوان ويتم اتخاذ قرار العزل بخصوص الباشا يتم إرسال رسول إليه يسمى الأودى باشى، فلما يدخل لمقابلته يقوم بالانحناء احتراما له، ثم يقوم بلمس أحد أطراف السجادة وطيها، ثم يخاطب الباشا قائلا: إنزل يا باشا، وهكذا يدرك الباشا أنه معزول، فيشرع في حزم أمتعته للتوجه إلى بولاق، وينتظر بعدها ما سوف يصدر في حقه من الأستانة، وأما إذا كان للبكوات المماليك شكاوى ضد الباشا فإنهم قبل عزله يحاسبونه على ما وقع في حوزته طيلة فترة حكمه من الأموال والإمتيازات،كما يقومون باقتسام ثروته التي جمعها ويعينون محله قائم مقام يتولى هذا المنصب إلى أن يتم إرسال باشا جديد[2].

ويتفق وصف سافاري كثيرا مع ما ذكره الدمرداشي في كتابه الدرة المصانة، إذ في خضم تعرضه لكيفية عزل اسماعيل باشا يذكر أنهم أرسلوا للباشا من كل بلوك اثنين اختيارية يقولون له:" إن العساكر قامت على اختياراتها والاختيارية قامت على أغواتها و الآغاوات قامت على السناجق، لم يرضوك حاكما عليهم"[3]، ولاشك أن هذا الوصف لدليل واضح على مدى الضعف والوهن الكبير الذي لحق بالحكم العثماني بمصر جراء تصاعد نفوذ و سيطرة المماليك .

و إلى جانب هذه الصورة التي تعكس تدهور سلطة الولاة يقدم فولني مظاهر أخرى أكثر دلالة، فيذكر بأن الباشا ما إن يتم إبلاغه وانذاره بالنزول من طرف ضابط أسود الرداء حتى ينزل من قصره، ويضيف بأن جل محاولات الباشوات في الحفاظ واستعادة سلطتهم كانت تنتهي بالفشل، وهذا على الرغم من دعم الباب

---

[1] محمد سهيل طقوش، **تاريخ مصرالحديث والمعاصر**، ط1، د.ن، بيروت، 2018م، ص 35.

[2] Savary, op,cit, p 142

[3] أحمد الدمرداشي، **الدرة المصانة في أخبارالكنانة فيما وقع بمصر في دولة المماليك من السناجق والكشاف والسبعة أوجاقات والدولة وعوايدهم والباشا إلى آخر سنة ثمان وستين ومئة وألف**، تح: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1989م، ص 37.

العالي لهم، فالبكوات المماليك كثيرا ما أحاطوا محاولاتهم بمخاطر متعددة، وهذا الأمر على حد تعبير فولني جعل معظم هؤلاء الباشوات يقتنعون بضرورة قضاء المدة المتبقية من حكمهم بهدوء وسكينة[1].

لاشك أن ما قدمه الرحالة من ملاحظات حول تراجع سلطة الباشا وانهيار الحكم العثماني في مصر يتسم بنوع من الدقة ويتوافق إلى حد كبير مع ما أوردته المصادر المحلية المعاصرة لتلك الفترة، غير أن ما يجب التنويه إليه، أنه لا يمكن أن نعمم هذا الحكم على كافة الباشوات الذين تعاقبوا على الحكم في مصر، فالمصادر غالبا ما تشير إلى بعض الولاة الذين امتازوا بقوة نفوذهم وسلطانهم فيروي الجبرتي مثلا عن سنة 1128هـ – 1715 أنه لما استلم علي باشا ولاية مصر عرفت فترة حكمه هدوءا كبيرا وخلت من الفتن [2].

ومما تقدم ذكره يتضح أن مصر شهدت خلال القرن الثامن عشر حالة من الفوضى والاضطراب السياسي، ويعزوا المؤرخون أسباب انهيار الحكم العثماني في مصر وتزايد نفوذ المماليك إلى مجموعة من العوامل لعلّ من أهمها: التراجع والضعف الذي اعترى الدولة العثمانية في هذه الفترة نتيجة انشغالها بحروبها الخارجية ضد روسيا و النمسا، الأمر الذي أنهك قواها وأعاقها على معالجة الأوضاع المضطربة في مصر وغيرها من الإيالات الأخرى، أضف إلى ذلك الفساد الإداري الذي دب في هياكل الدولة العثمانية فكان من الطبيعي أن تتأثر مصر بكل هذه الظروف، ويظهر على مسرح الأحداث البكوات المماليك الذين وجدوا في ضعف الدولة العثمانية وممثليها في مصر فرصة سانحة تتيح له الانفراد والاستئثار بالحكم بل ومحاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية كما حدث مع علي بك الكبير [3].

تسلط المماليك واستئثارهم بالحكم في القرن الثامن عشر .

إن المتتبع لوصف الرحالة الأوروبيين لملامح الحياة السياسية في القرن الثامن عشر يجد أنهم قدموا صورة متنوعة تعكس مدى النفوذ الذي استأثر به المماليك في هذه الفترة فتحدثوا بإسهاب عن أصولهم ومهامهم والوسائل استطاعوا من خلالها الإنفراد بالسلطة في مصر،كما ألقوا الضوء على سياستهم وانعكاساتها على المجتمع المصري .

لقد أرجع نيبور أصل المماليك إلى المسيحين والعبيد الذين أحضروا في سن مبكرة من جورجيا إلى القسطنطينية ومنها إلى القاهرة التي بيعوا فيها إلى كبار المسؤولين في مصر[4]، و أما فولني فيذهب إلى أبعد من

---

[1] Volney, op,cit, p 148.

[2] الجبرتي، المصدر السابق، ج1، ص 101.

[3] عبد الرحمن الرافعي، **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر** ، ج1، ط1، مطبعة النهضة ، مصر، 1929م،ص 19.

[4] نيبور، المصدر السابق، ص 107.

ذلك فهو يصفهم بأنهم قوم غرباء عن مصر، ينتسبون إلى الجراكسة الذين يرجع أصلهم إلى بلاد القوقاز، قدموا حسبه إلى مصر في عهد صلاح الدين الأيوبي وبالتحديد سنة 1230م، حيث استقدمهم أحد خلفائه، بعد أن ابتاع منهم حوالي أثني عشر شابا من الشركس و المنغوليين و دربهم على فنون القتال حتى أصبحوا في فترة قصيرة من أبرز القوى العسكرية في آسيا، كما يشير أن هذه الفرق سرعان ما تمردت على سيدها وخلعته، ففي سنة 1250م قتل جنودها أخر أمير تركماني وعينوا محله أحد من رؤسائهم وأطلقوا على أنفسهم لقب المماليك [1].

و أشار فولني إلى أن المماليك تولوا حكم مصر لعدّة قرون، وقد تشكلت دولتهم حسب فولني نتيجة العنف، فلم يكن للمماليك أي عقد اجتماعي يربط بينهم سوى المصلحة الراهنة ولا حق دولي يجمعهم بالأمة غير حق الفتح ولا قاعدة للحكم سوى العنف[2].

وزيادة على ذلك يؤكد فولني أيضا أنه بالرغم من زوال دولتهم على يد السلطان سليم الأول في سنة 1517م، إلا أنهم ظلوا يحافظون على مكانتهم ونفوذهم في مصر، وهذا راجع إلى سياسته التي لم تكن تهدف إلى القضاء عليهم، وإنما جعلهم أحدى القوى الحاكمة إلى جانب الباشا و الأوجاقات العسكرية، وقد كانت المهام التي أوكلت هي الإشراف على حكم السناجق الأربعة والعشرين بالإضافة جباية الضرائب و مهمة حفظ الأمن الداخلي [3].

و إذا كانت الدولة العثمانية قد تمكنت من إبقاء مصر تحت سيطرتها طيلة قرنيين بفضل النظام الذي اعتمده السلطان سليم الأول فإنه ابتداء من القرن الثامن عشر وتزامنا مع تراجع الذي اعتراها طرأت عدّة تغيرات على مصر أفضت إلى ازدياد نفوذ المماليك الذين وجدوا في الأوضاع المضطربة الفرصة الملائمة لاستعادة سلطتهم من جديد ما أدى إلى استئثار هذه الطائفة بالحكم في مصر حتى أن نفوذ الدولة العثمانية في هذه الايالة أصبح لا يعدوا أن يكون مجرد سلطة صورية[4].

لقد أسهب فولني في وصف حكومة المماليك، ولعلّ من أهم المعطيات التي قدمها لنا هو أنه كشف لنا الطريقة التي وصلوا من خلالها إلى الحكم، حيث يؤكد في هذا السياق أن استئثارهم بالسلطة لم يكن شرعيا بل جاء نتيجة لضربات السيف والدسائس، ويضيف بأنّ السيادة في نظرهم لم تكن سوى عبارة عن وسيلة

---

[1] Volney, op,cit, P 94, 95.

[2] Ibid ,P 95 .

[3] Ibid ,P 97

[4] Ibid ,p 98

للاستكثار من النساء و الحلي و الجياد و العبيد، ولهذا يرى فولني أن حكومتهم مستبدة فالإدارة الداخلية أو الخارجية مسيرة بتلك الطريقة، إذ تقوم من جهة على استرضاء قصر السلطان في الأستانة، وهذا تجنبا للضرائب ولغضب السلطان، ومن جهة أخرى ترتكز على شراء الرقيق ومضاعفة الأتباع و المشاركة في الدسائس و إبادة الخصوم [1].

يتفق معظم الرحالة على أن بوادر بروز المماليك واستئثارهم بالحكم لا يرجع إلى القرن الثامن عشر الذي استفحلت فيه هذه الظاهرة بشكل واسع، بل إنها تعود إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر فالرحالة فاسليب الذي زار مصر سنة 1672م، لاحظ أن كلمة البكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا يخالف لهم أمرا وكانوا يملكون عزله [2]، ونفس الموقف أبداه المستشرق مارسيل الذي ذكر أن تاريخ مصر تميز من منتصف القرن السابع عشر إلى نهايته بتعاقب الباشوات، حيث تولاها 22 واليا، لم يكن لهم أي شأن أو نفوذ في حكومتها، ويضيف بأن هؤلاء الباشوات لم يكن باستطاعتهم الاستمرار في الحكم إلا إذا سلموا الأمور للبكوات المماليك الذي كان منهم شيخ البلد الذي يعتبر الحاكم الفعلي للبلاد [3].

من المؤكد أن تصاعد نفوذ المماليك واستحواذهم على مقاليد الحكم في القرن الثامن عشر قد جاء نتيجة لتضافر عدّة عوامل، و بالعودة إلى ما سجله فولني عن فترة حكمهم نجده قد أشار بنوع من التفصيل إلى تلك العوامل، فيذكر أن من أهم أسباب استمرار قوة هذه الطائفة ما كانوا يدخلونه في أنسالهم من الدم الجديد، فمن المعروف أن هؤلاء البكوات كانوا يجددون قوتهم من خلال الاستمرار في جلب الرقيق من موطنهم الأصلي، وقد ساهم استمرار تدفقهم على مصر وعدم انصهارهم في المجتمع المصري في أن تظل هذه الطائفة محافظة على قوتها وخصوصياتها[4].

وحسب فولني فإن تجارة الرقيق ظلت رائجة حتى في العهد العثماني، حيث كان الأرقاء ينقلون إلى الأستانة أولا ثم يتم توزيعهم على كافة الولايات العثمانية ليتم شراءهم فيما بعد من طرف الأثرياء، ويرى فولني أن الدولة العثمانية قد تهاونت في القضاء على هذه التجارة الخطيرة بعد ضمها لمصر وبذلك كانت سياستها عونا للمماليك الذين أصبحوا في القرن الثامن عشر يسعون إلى الإستحواذ على السلطة في مصر [5] .

[1] Volney, op,cit, p 170.

[2] نقلا عن الرافعي، المرجع السابق، ص 20

[3] نفسه، ص 20.

[4] Volney, op,cit,P 101.

[5] Ibid , p 101, 102.

و مما ساعد على زيادة نفوذ المماليك كذلك استغلال التراجع الذي شهدته فرقة الأوجاقات العسكرية حيث تناقص عددها إلى النصف، ويرجع ذلك حسب ما أورده فولني إلى جشع القادة الذين استحوذوا على مرّتبات هؤلاء الجنود، فضلا عن محاولاتهم المستمرة في التخلص من الرؤساء وتجريدهم من نفوذهم، وقد دفع بهم هذا الوضع إلى الاندماج في المجتمع المصري والاشتغال في مهن أخرى كالتجارة فضعفت سلطتهم وتراجعت، وقد عبر فولني عن ذلك في قوله:" أصبح الإنكشارية اليوم خليطا من الصناعين والمرتزقة والمتشردين الذين يرتضون حراسة أي باب لقاء أجر يتقاضونه، ويرتجفون أمام المماليك " [1].

ومن ضمن العوامل التي ساعدت أيضا على تصاعد قوة المماليك سياسة الدولة العثمانية التي كانت تقوم على التغيير المستمر للولاة[2]، وهذا ما أكده الورتلاني، ففي سياق وصفه للوضع السياسي في مصر لاحظ "أن مصر قد حكمها أربعة وعشرين بايا يرأسهم الباشا الذي يأتي من اسطنبول كل عام، غير أن هؤلاء الباشوات ما استوفى أحد عامه إلا ذهب وأتى غيره مع القاضي وكان ذلك دأبهم "[3].

ومما تجدر ملاحظته أنه إذا كان هذا الإجراء في البداية وسيلة لمنع هؤلاء الولاة من الاستئثار بالحكم في مصر فإن هذه السياسة كانت لها تباعيات خطيرة خصوصا مع بداية انهيار الدولة العثمانية، حيث أدى ذلك إلى ضعف قوة و سلطة الباشا الذي لم يعد قادرا على تسيير شؤون البلاد وهو ما حفز المماليك على استرجاع نفوذهم وسيطرتهم على شؤون الحكم[4].

ومن ناحية أخرى إن ما زاد من قوة المماليك في القرن الثامن عشر حسب ما ذكره فولني توليهم لأهم الوظائف في الإدارة، فلما كان يدر عليهم ذلك أموالا طائلة فإنهم استغلوا تلك الثروة من جهة في جمع واستمالة الحلفاء، ومن جهة أخرى في الاستكثار في جلب الرقيق الذين يقومون بتحريرهم وإشراكهم في مراتب الجندية والحكومة، فحفظ هؤلاء الرقيق لأسيادهم الفضل بعد أن تدرجوا في المناصب المهمة، وبالتالي

---

[1] Volney, op,cit, p 149, 150.

[2] تذكر بعض المراجع أن عدد الولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر من بداية الفتح إلى غاية الحملة الفرنسية قد بلغ أكثر من 100 والي ، وهؤلاء الولاة قلما كان أحد فيهم يحكم أكثر من عامين، بل أن أكثرهم كانوا يستبدلون في كل عام، وهذا على الرغم من أنه كان من ضمن هؤلاء الولاة من يتمتعون بالخبرة والاخلاص والقدرة على تسيير شؤون البلاد . للمزيد أنظر: أنور زقلمة، **المماليك في مصر** ، ط1، دار مدبولي للنشر، القاهرة، 1995م، ص 120.

[3] الورتلاني ، المصدر السابق، ج2، ص 621.

[4] حمزة صباح كاضم الحمداني، **مصر في عهد علي بك الكبير 1720، 1783**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب ، جامعة ذي قار،العراق، 2015م، ص6.

عملوا على حشد الأتباع لهم وإرضائهم[1]، وهذا الأمر أكد عليه أيضا نيبور، إذ يذكر في هذا السياق أن أثرياء مصر من البكوات"كانوا يكثرون من شراء الرقيق ثم يعلمونهم ويدبرون لهم الوظائف سواء مدنية كانت أو عسكرية، ولأن هؤلاء العبيد كانوا يدينون بكل ما لديهم لأسيادهم فإننا نجدهم يخلصون لهم الاخلاص كله و هذا ما يعزز من شأنهم ومكانتهم في الحكومة" [2].

من الواضح أن المماليك قد استطاعوا تثبيت وتوطيد نفوهم من خلال العوامل الكثيرة التي أسلفنا ذكر البعض منها، غير أن ما ينبغي الإشارة إليه في هذا السياق أن تراجع الحكم العثماني في مصر وضعف سلطة الباشا والأوجاقات العسكرية قد مثل أهم العوامل التي أسهمت في تصاعد نفوذ هذه الطائفة، فمن المعروف أن المماليك قد تمكنوا في ظل هذه الظروف المضطربة من تقلد أعلى المناصب الإدارية والمتمثلة في منصب شيخ البلد الذي أصبح نفوذه مع بداية القرن الثامن عشر ينافس و يفوق سلطة الباشا العثماني[3].

لقد أظهرت كتابات الرحالة مدى النفوذ الذي تمتع به الأمراء المماليك في ظل تراجع الدولة العثمانية، فإلى جانب ما رواه فولني من معطيات أكد الورتلاني هو آخر على تزايد نفوذهم في القرن 18 إلى درجة أنه اعتبرهم الحكام الحقيقيين لمصر وذلك ما نستشفه من قوله: "وما ملك مصر إلا للمماليك الذين أسلموا، فكل من ملك مصر إلا كان مملوكا "[4]، وتأكيدا لما أفاد به الرحالة السابقون أورد فولني صورة واضحة على الهيمنة المملوكية، فمما ذكره أن الأمراء المماليك أصبحوا في القرن الثامن عشر يمتنعون ويماطلون في دفع الجزية للأستانة، و إذا ما تم تأديتها فإنها غالبا ما تكون ناقصة حيث يعمدون إلى إسقاط نفقات كثيرة منها ،كنفقة ترميم الجوامع و الحصون ومرتبات الجنود و تنظيف الترع وغيرها من النفقات الأخرى التي تبقى مجرد نفقات وهمية على حد تعبيره، فلولا خوف هؤلاء البكوات من مراكب الدولة التي تأتي في كل عام إلى الإسكندرية ورشيد لتحصيل ضريبة الأرز والحنطة لما قاموا بدفعها[5].

وإذا ما قارنا بين ما ذكره فولني مع ما ورد في كتاب الجبرتي نجد هناك توافقا كبيرا، فالجبرتي يقدم أمثلة كثيرة تؤكد تماطل الأمراء المماليك في دفع الجزية للأستانة، فيروي في حوادث سنة 1778م أن ابراهيم بك

---

[1] Volney, op,cit, p 102, 103.

[2] نيبور، المصدر السابق، ص 107.

[3] هاميلتون جب وهارولد بوون، **المجتمع الإسلامي والغرب**،ج1، تر: أحمد أبيش، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، د.ك.و، الامارات، 2012م، ص 320. أنظر أيضا : الغالي غربي، **دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي 1288–1916م**، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 2011م، ص 132

[4] الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 641، 642.

[5] Volney, op,cit, 149.

ومراد بك[1] قد امتنعا عن إرسال الجزية إلى الدولة العثمانية والتي قدرت بـــ ثلاث مئة وخمسون كيسا ،كما أنهما تماطلا أيضا في إرسال مخصصات الحرمين الشريفين، فلما أرسلت الدولة العثمانية مبعوثا لمطالبة بمستحقاتها "طلع هؤلاء الأمراء إلى القلعة واجتمعوا مع الباشا وتكلموا مع بعضهم كلام كثيرا، وقال مراد بك للباشا: ليس لكم عندنا إلا حساب أمهلونا إلى بعد رمضان وحاسبنا على جميع ماهو في طرفنا نورده، وأرسل إلى من وصل إلى الاسكندرية يرجعون إلى حيث كانوا، و إلا فلا نسهل حجا ولا صرة ولا ندفع شيئا وهذا آخر الكلام "[2].

وفي الحقيقة الأمر إن مظاهر سيطرة المماليك على الحكم كثيرة ومتعددة، لكن الذي ينبغي الإشارة إليه أن هؤلاء الأمراء بالرغم من أنهم استطاعوا الاستحواذ على السلطة الفعلية، إلا أن ذلك لا يعني تمكنهم من استقلال عن الدولة العثمانية، فمما استرعى انتباه فولني أن كل شيء كان يتم باسم السلطان العثماني و موافقته، فالبكوات المماليك حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر لم تكن لهم القدرة الكافية لإعلان استقلالهم التام، خاصة وأنهم كانوا يخشون من أن يؤدي ذلك الأمر بأحد الأحزاب المتطرفة إلى السيطرة على الديوان[3].

من جانب أخر يمكن إرجاع عدم تمكن البكوات المماليك من الإنفراد بالحكم عشر بشكل كلي في النصف الأول من القرن الثامن إلى حالة الانقسام والتناحر التي قامت بين المماليك أنفسهم وصراعاتهم المستمرة حول المناصب العليا وبخاصة منصب شيخ البلد، فالملاحظ على هذه الفترة أنها تميزت بكثرة الحروب الأهلية و الفتن الداخلية التي أصبحت سمة بارزة للحياة السياسية في القرن الثامن عشر[4].

إنّ التحول السياسي الذي عرفته مصر خلال القرن الثامن وانتقال الحكم إلى طائفة المماليك يقودنا بلا شك إلى التساؤل عن موقف الدولة العثمانية اتجاه هذه التطورات، ففي هذا السياق يرى فولني أن الدولة العثمانية بالرغم من الظروف التي كانت تمر بها في تلك المرحلة إلا أنها كانت في وضع لا يسمح لها بالسيطرة على الأوضاع في مصر إذ كثيرا ما كانت تغض الطرف عن تعسف المماليك، فالدولة العثمانية قد أدركت

---

[1] مراد بك : هو أحد الأمراء المماليك المشهورين في مصر، كان في البداية من المماليك التابعين لأبي الذهب الذي اشتراه في سنة 1282هـــ ، ارتفع شأنه في مصر بعد وفاة سيده أبو الذهب، تقلد مراد بك منصب شيخ البلد ، وقد اقتسم حكم مصر مع ابراهيم بك ، عرفت مصر في عهده الكثير من الثورات الداخلية ، توفي سنة 1215هـــ- 1800م، للمزيد أنظر: محمد سعيد العشماوي، **مصر والحملة الفرنسية** ، دط، هـــ.م.ع.ك ، مصر، 1999م، ص ص 30، 32.

[2] الجبرتي، المصدر السابق، ج2، ص 156.

[3] Volney, op,cit,p 149.

[4] طقوش، المرجع السابق، ص 42.

أنها إذا لجأت إلى سياسة القمع فإن ذلك من شأنه أن يتسبب في حرب معلنة قد تكبدها خسائر كبيرة هي في غنى عنها، لاسيما وأن مصالحها في تلك الحقبة كانت تفرض عليها مواجهة خطر أكبر هو روسيا، الأمر الذي يستلزم منها حشد الجزء الكبير من جيشها في الشمال [1].

لكن هذا الأمر حسب فولني لا يعني أنها لم تبذل أي جهد من أجل إحكام سيطرتها على الأوضاع المضطربة في مصر، فلما كان تصعيد الموقف ليس في صالحها، فإنها لجأت لإتباع سياسة أخرى لطالما أتت بمنافعها حسبه، وتقوم هذه السياسة في نظره على التفرقة بين الأحزاب وذلك حتى لا تؤول السلطة لطرف معين من المماليك[2]، وما ذهب إليه فولني أكده أيضا كلود بك الذي ذكر أن الدولة العثمانية في محاولاتها للتصدي للنفوذ المتزايد للمماليك تبنت سياسة كانت عواقبها وخيمة، و ارتكزت هذه السياسة في نظره على هدف واحد هي زرع بذور النزاع والانقسام بين المماليك مع اتخاذ الوسائل اللازمة لمنع تغلب حزب ما على آخر وهذا للحيلولة دون تمكن الحزب الغالب من توطيد سلطته على وجه تتم فيه الوحدة ويتوافر النظام[3] .

وبمقارنة ما ذكره فولني وكلود بك مع ما ورد في المصادر التاريخية فإننا نلاحظ أنهم أغفلوا أمورا أخرى لجأت إليها الدولة العثمانية للحد من تزايد نفوذ الأمراء المماليك، فالدولة العثمانية كانت تحاول في كل مرة تسمح لها الفرصة استعادة سلطتها ونفوذها في مصر، وقد استخدمت لأجل ذلك أساليب مختلفة، فمما سجله بعض المؤرخين أنها كانت تلجأ إلى غلق أسواق الرقيق في البلقان أمام البكوات المماليك وهذا لمنعهم من تجديد قوتهم[4]، وأما الإجراء الثاني الذي اتبعته فهو إرسال حملات عسكرية تأديبية لردع البكوات المماليك الذين تمردوا على السلطة العثمانية وخير مثال على ذلك الحملة التي أشار إليها الجبرتي والتي كانت بقيادة حسن باشا في عام 1200هـ- 1786م، إذ تمكنت هذه الحملة التي أرسلتها الدولة العثمانية من أن تحد من سيطرة إبراهيم بك ومراد بك و ترفع المظالم عن المصريين [5].

تكاد تجمع رحلات المغاربة أو الأوروبيين على وصف سياسة الأمراء المماليك في تسيير شؤون مصر بالطغيان والفساد ذلك أن فترة حكمهم قد طغى عليها كثرة الصراعات و النزاعات الداخلية التي أدت إلى شيوع الفوضى والاضطرابات، وبالعودة إلى مضامين هذه الرحلات فإننا نعثر على صور متنوعة تعكس الوضع الذي آلت إليه مصر في ظل سيطرة المماليك، فالرحالة سافاري مثلا عبر عن ذلك بقوله:" لقد قدر لمصر أن

[1] Volney, op,cit, p 149,150.

[2] Ibid , p 150

[3] كلوت بك ، **لمحة عامة عن مصر** ، تر: محمد مسعود، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، 2011م، ص ص 46، 47.

[4] طقوش، المرجع السابق، ص 42.

[5] الجبرتي ، المصدر السابق،ج2، ص ص 157- 168

تترك في يد عصابة من 8ألاف جندي أجنبي يلتهمون من ثروات أقاليمها ولا يكفون عن إشعال الحروب[1]، وأما الرحالة سونيني فقد ذهب إلى أبعد من ذلك حيث ذكر أن مصر يحكمها 24 طاغية يتحكمون في مقدراتها ولا يهتمون إلا بتنمية ثرواتهم، ويضيف بأن هؤلاء الطغاة يحكمون بلا قوانين وقد قضوا على آمال وطموح الشعب المصري [2] .

إنّ هذا الموقف أيده كذلك بعض الرحالة المغاربة فالورتلاني الذي مكث مدة في مصر أشار بنوع من التفصيل إلى انعكاسات سياسة الاستبداد التي انتهجها الأمراء المماليك حيث يقول عن ذلك:" فباشواتها وسناجقها وولاتها وحكامها بل وسائر جندها وعسكرها فيما يظهر لنا ليس فيها إلا ما أعماه حب الدنيا وأصمه وختم على سمعه وبصره لا يرحمون صغيرا ولا يوقرون كبيرا أينما تبدوا صبابة من الدنيا وثبوا عليها، وأمّا رعيتها وفلاحتها فلا تسأل عما يلاقون من الجند من الظلم وما هم فيه من الإهانة والاحتقار ..."[3]، و يستطرد الورتلاني في وصف ورصد مظاهر الاستبداد السياسي الذي استوقفه في مصر، ففي موضع آخر من رحلته يضعنا أمام صورة أكثر دلالة حيث يقول:" إن مصر الآن كثر فيها الظلم حتى سمعت من الشيخ العارف المحقق شيخنا الحفناوي يقول في حجتنا هذه أن ظلم ولاتها قد وصل كل جنس من أجناس الآدميين حتى بلغ الظلم الحاج المغربي والعلماء والطلبة والفقراء والأشياخ والصناع والتجار والمجاورين وسائر الناس قاطبة ولذلك ابتلاهم الله بالشقاق والفتنة فكانت مصر لمن غلب"[4].

و الجدير بالملاحظة، أن هذا الحكم لا يمكن أن نعممه على كافة البكوات المماليك، فلا شك أنه تعاقب على حكم مصر عدد من البكوات الذين اشتهروا بالإعتدال، ولعلّ ذلك ما أكده الرحالة جون أنتيس الذي يمكن اعتباره من الرحالة الأوروبيين القلائل الذين أنصفوا المماليك، ففي معرض حديثه عن ظاهرة استبداد التي ميزت عصر المماليك يؤكد أنها ليست ظاهرة عامة وإنما اختص بها بعض المماليك فحسب[5]، و استنادا إلى ما

---

[1] Savary, op, cit , p 188

[2] ذهني ، **مصر في كتابات الرحالة** ...، ص 107

[3] الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص ص 294،295

[4] نفسه، ص 375.

[5] أوضح جون أنتيس ذلك بقوله: "بالرغم من وجود أمثال هؤلاء الأوغاد من البكوات والمماليك يستطيع المرء أن يقول باطمئنان أن الغالبية العظمى ينطبق عليها ذلك الوصف، غير أنني خلال إقامتي الطويلة بينهم وجدت أشخاصا عديدين سواء من المماليك أو الأتراك ذوي مبادئ غاية في الأمانة وذوي طبيعة جيدة، إذ لم يكونوا فقط ذوي شخصية محببة بل كانوا متمسكين بعقيدتهم فيما يتعلق بالحلال والحرام، ولقد أصبح بعضهم من أعز وأخلص أصدقائي ... بل إنني كنت على ثقة من أن أئتمن بعضهم على أي شيئ ذي قيمة دون أن ينتابني أدنى خوف من استيلائهم عليه، وعلى العموم فإن المعاملة المجحفة التي لقيتها على يد بعض منهم لا تعميني إلى درجة إدانة الكل دون تفرقة، إذ أنني مقتنع تماما أن كثيرا منهم خيرين بطبعهم وأنشئوا على تربية حسنة. أنظر: أنتيس ، المصدر السابق، ص 164.

سبق ذكره نخلص إلى القول بأن نظرة الرحالة إلى الحكام المماليك قد اختلفت فهناك من أنصفهم وهناك من وصفهم بالطغيان والفساد، ويمكن تفسير هذا الاختلاف في الحكم بأنه يرتبط بشكل كبير بمصالح هؤلاء الرحالة ومدى قربهم وعلاقتهم بالبكوات المماليك فمتى كانت العلاقة قوية نجد عبارات المدح والثناء، وأما اذا ساءت العلاقة بين الطرفين فإننا نلاحظ عبارات النقد والذم [1].

تمرد علي بك الكبير :

لقد ساعدت الأوضاع السياسية المضطربة التي شهدتها مصر خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر على بروز الكثير من الشخصيات المملوكية المتنفذة التي عملت جاهدة للانفراد بالحكم في مصر، بل ومحاولة السعي لإحياء مجد الدولة المملوكية من جديد، ولعلّ من أهم هذه الشخصيات التي برزت وأثارت اهتمام الرحالة وكتبوا عنها باسهاب في مذكراتهم محمد علي بك الكبير الذي قاد الحركة التمردية ضد الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

وقبل أن نعرج على تفاصيل هذه الحركة التي قادها تجدر الإشارة إلى أن هذه الحركة ما هي إلا جزء من ظاهرة عامة مست مختلف الإيالات العثمانية وهي ظاهرة بروز العصبيات والقوى المحلية واستئثارها بالحكم

إذا ما استعرضنا ما جاء في كتابات الرحالة حول حركة علي بك الكبير فإننا نلاحظ أنهم في البداية قد حاولوا إزالة الغموض الذي يكتنف حياته، فبينما أشار فولني إلى أنه ينحدر من قبيلة إباضة المتواجدة في بلاد القوقاز[2]، أكد سافاري أنه ولد في عام 1728م، و إسمه الحقيقي يوسف داود، تم اختطافه في إحدى الغارات ونقله كمملوك إلى القاهرة وهو لا يتجاوز سن الثالثة عشر[3].

و بعد وصوله إلى القاهرة اشتراه اليهوديان اسحاق ويوسف اللذان قاما بتقديمه كهدية لإبراهيم كتخدا الذي أطلق عليه بدوره تسمية علي بك [4][5].

تؤكد كتابات الرحالة أنّ علي بك نشأ في بيت سيده ابراهيم كتخدا، وكغيره من المماليك الذين يتم شراؤهم، اعتنق الإسلام وتعلم مبادئ القراءة والكتابة باللغتين العربية والتركية، وقد أظهر براعته في الفروسية والرماية و ضرب السيف و استخدام الأسلحة النارية حتى أنه أطلق عليه بسبب ذلك تسمية "**الجن علي**"[6].

---

[1] ذهني، **رؤية الرحالة الأوروبيين**...، المرجع السابق، ص ص 69- 71.

[2] Volney, op,cit, p, 107.

[3] Savary,op, cit, p 143

[4] Volney, op,cit, p107.

[5] Savary, op, cit, p 143

[6] Volney, op,cit, p 108.

يشير فولني إلى أنه لما بلغ على بك سن الثامن عشر قام ابراهيم كتخدا بإعتاقه[1]، وبالنظر لما أبداه من تفوق سرعان ما قلده عدّة وظائف بدءا بوظيفة سلحدار آغا ثم خزندار ثم منصب كاشف[2] ليصل بعدها إلى أعلى المراتب وهو منصب الباكوية أو السنجقية [3].

بعد وفاة ابراهيم كتخدا في سنة 1757م أصبح المجال مفتوحا أمام علي بك لتحقيق طموحاته، ففي هذا الصدد أوضح سافاري أن علي بك قد عمل على التقرب من الباشا العثماني فقد جمعت بينهما علاقة طيبة حتى أنه عينه وجعله وسيطا لحل الخلافات بينه وبين المماليك المتنازعين على السلطة[4].

وعلى النقيض من ذلك أكد فولني أن علي بك كان يشترك في كافة الدسائس التي كانت تهدف إلى عزل الولاة أو تعيينهم[5]، وفي الواقع أن هذا الأمر قد ساهم بلا شك في تزايد نفوذه علي بك، ولعلّ ذلك ما أشار إليه الرحالة نيبور حيث يذكر أنه بمجرد حلول سنة 1760م تمكن علي بك تقلد منصب شيخ البلد وهذا بعد أن عمل على القضاء على منافسيه وأبرزهم عبد الرحمن الكخيا الذي قام بنفيه إلى مكة، لكن الذي أكد عليه نيبور و ينبغي الاشارة إليه هو أن علي بك لم يكد يهنأ بمنصبه الجديد حتى اضطره منافسوه وأعدائه إلى الفرار من مصر[6]، وقد أيد فولني رواية نيبور لكنه يضيف تفاصيل أخرى، إذ يشير إلى أن علي بك بعد فراره إلى غزة تحول منها إلى الصعيد أين لحق به أتباعه وأنصاره وقد أقام في جرجا مدة سنتين قضاهما في الاستعداد للإستيلاء على السلطة من جديد [7].

يشير فولني إلى أن علي بك استطاع الدخول إلى القاهرة من جديد سنة – 1180هـ 1766م، وكخطوة أولى لتثبيت نفوذه عمل القضاء على جل منافسيه سواء عن طريق القتل أو النفي، فمما سجله فولني أنه استطاع قتل في ليلة واحدة أربع بكوات ونفي أربعة آخرين حتى أصبح رئيسا على الغالبية"[8]، ومن جهته أشار سافاري كذلك أنه في غضون بضع سنوات من حكمه استطاع علي بك رفع ستة عشر من المماليك إلى

---

[1] Volney, op,cit, p 108

[2] كاشف، مصطلح كان يطلق في العهد المملوكي على الموظفين الذين يتولون الإدارة في الأقاليم والعناية بالري وحفظ الأمن، أما في العهد العثماني فقد أطلق لفظ الكاشف على طبقتين هما: الحكام الأقاليم الإدارية الصغرى ووكلاء الباشا الذين يديرون قرى الكشوفية التي كانت مخصصة له في معظم أقاليم مصر. للمزيد أنظر: ليلى عبد اللطيف أحمد ، **الإدارة في مصر في العصر العثماني**، مطبعة جامعة عين شمس، مصر، 1978، ص ص 392، 393.

[3] Savary, op,cit, p 144

[4] Ibid , p 144

[5] Volney, op,cit, 108, 109

[6] نيبور، المصدر السابق ، ص 108.

[7] Volney, op,cit, 109.

[8] Ibid, p 109, 110 .

منصب الباكوات وواحد منهم إلى منصب آغا الانكشارية[1]، كما أكد الرحالة نيبور المكانة التي بلغها على بك فقد أشار أن أنه أضحى صاحب أعلى سلطة في القاهرة وذلك عقب تمكنه من القضاء على منافسيه [2] .

لا شك أن نجاح علي بك في الاستيلاء على السلطة في مصر قد جعله يطمح أكثر لتحقيق أهدافه فلم تكن طموحاته تقتصر على لقب القائد أو القائم مقام[3] فحسب، بل إنه كان يتطلع إلى الحصول على لقب سلطان مصر، ولهذا نجد أن جميع مساعيه انحصرت لتحقيق هدفه الأساسي وهو الانفصال عن الدولة العثمانية التي كان يرى في سيادتها وتبعية مصر لها أمرا يجرح كبريائه على حد تعبير فولني [4].

لقد تتبع الرحالة الخطوات التي انتهجها علي بك لتحقيق طموحه السياسي، فمن الأولى الخطوات التي اتبعها وأشار إليها الرحالة هي العمل على توطيد نفوذه داخل مصر، إذ يذكر فولني أنه قام بعزل و طرد الباشا العثماني الذيلم يكن سوى مجرد أداة تمثيلية على حد تعبيره، كما امتنع عن دفع الجزية للباب العالي، وأما الخطوة الأخرى التي قام بها فهي سك العملة الخاصة به[5]، وهذا في سنة 1768م[6]، وذكر سافاري في هذا الصدد أيضا أن الخطباء كانوا يدعون له في المساجد حيث لقبوه بسلطان البرين و خاقان البحرين [7].

إنّ ما أورده فولني يتوافق كثيرا مع ما سجله الجبرتي عن علي بك، فبالرجوع إلى ما سجله نجده يؤكد ويثبت قوله، إذ يشير أن علي بك في سنة 1768م استصدر أمرا من الديوان من أجل عزل الوالي العثماني أنذاك محمد راقم باشا، وقد تولى عوضا عنه منصب القائم مقام[8]، ويضيف الجبرتي أنه لم يقف عند هذا الحد، بل أنه أصبح بعد تقلده لهذا المنصب يمنع دخول ومجيء الولاة العثمانيين من الأستانة [9].

هذا على الصعيد الداخلي، وأما على الصعيد الخارجي فالملاحظ أن علي بك لم يكتف بما حققه من نفوذ بل تطلع إلى أكثر من ذلك، وقد وجد في انشغال الدولة العثمانية بالحرب الروسية فرصة سانحة للتوسع وبسط نفوذه على كافة القطر المصري وحتى المناطق المجاورة، وهكذا في سنة 1769م وجه علي بك اهتمامه

---

[1] Savary , op,cit, p 149

[2] نيبور ، المصدر السابق، ص 108.

[3] قائم مقام: مصطلح يطلق على الشخص الذي يتولى مقام الغير في وظيفته ومنصبه، وهو أعلى منصب إداري في الأقضية . أنظر:سهيل صابان، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، م.م.ف ، الرياض، 2000، ص 170.

[4] Volney, op,cit, p 110.

[5] أنظر الملحق رقم 13 ، ص 393

[6] Volney, op,cit, p,110

[7] Savary, op,cit, p 158

[8] الجبرتي، المصدر السابق،ج1، ص 490.

[9] نفسه، ص 597.

للسيطرة على منطقة الصعيد التي كانت خاضعة أنذاك للشيخ همام، فأرسل حملة عسكرية بقيادة محمد بك المدعو أبو الذهب[1] للقضاء على نفوذ ه، وهذا بسبب احتضانه للمتمردين من قبائل البدو[2].

أضف إلى ذلك عرفت هذه الفترة حدثا آخر أكثر أهمية، فالملاحظ أنه بعد أن استتب الأمر لعلي بك في مصر وجه حملة أخرى نحو الحجاز وقد صلت أصدائها ونتائجها إلى أوروبا، ففي هذا الصدد يذكر فولني أن علي بك سلح السفن في السويس وأطلق عليها المماليك صوب جدة مرفأ مكة، وأمر القائد حسن بك أن يحتلها،كما انطلقت من البر فرقة أخرى من الفرسان بقيادة محمد بك فاستولت على مكة [3].

و الجدير بالذكر أن حملة علي بك على الحجاز كان قد استغل فيها التراع الذي دار بين أشراف الحجاز حول الحكم، فالجبرتي يشير أنه في سنة 1770م ورد على علي بك الشريف عبد الله يطلب منه المعونة ضد ابن عمه الشريف أحمد الذي استقل بإمارة مكة، لكن علي بك بالرغم من أنه كان منشغلا بتوطيد نفوذه في مصر إلا أنه وافق على طلبه سيما وأن ذلك يحقق طموحاته في التوسع خارج مصر، وهكذا لما خلص علي بك من بسط نفوذه في مصر وجه أنظاره للحجاز مستغلا في ذلك الظروف الحرجة التي كانت تمر بها الدولة العثمانية[4].

لقد علّل فولني أسباب اهتمام علي بك بالسيطرة على الحجاز، فذكر أن هدفه من ذلك هو محاولة جعل جدة مركزا لتجارة الهند، ويضيف أن هذا المشروع شجعه عليه تاجر من البندقية كان قد حضي بثقته، وأمّا الغرض من هذا المشروع فيكمن في رغبته في أن تتحول تجارة الشرق إلى البحر الأحمر والسويس بدلا من مرورها إلى أوروبا بطريق رأس الرجاء الصالح[5] .

وتجدر الإشارة أن دوافع علي بك للسيطرة على الحجاز لم تكن تقتصر على الأسباب الاقتصادية فحسب، فمما لا شك فيه أن هناك عوامل أخرى ذات أهمية بالغة، فالمعروف أن مركز الحجاز كان يشكل

[1] محمد بك أبو الذهب: كان مملوكا تابعا لعلي بك الكبير ثم أصبح وقائدا عسكري، اشتراه سيده في سنة 1175هـ -1762م ، اشتهر بأبو الذهب ويرجع سبب تلقبه بذلك أنه لما لبس الخلعة بالقلعة صار يفرق البقاشيش ذهبا وفي حال ركوبه أو مروره ينثر الذهب على الفقراء ، عظم شأنه في فترة قصيرة حيث تقلد المناصب االرفيعة وتولى المهمات الكبيرة وأبرزها حملته على الحجاز وبلاد الشام ، خرج على طاعة سيده علي بك وقضى عليه في موقعة الصالحية ، انفرد بعدها بحكم مصر ، عينه الباشا خليل باشا في ولاية جدة وتوفي هناك سنة 1774م. للمزيد أنظر: الجبرتي، المصدر السابق،ج1، ص ص 651،652.

[2] Volney, op,cit, p 110 , 111.

[3] Ibid, p 111.

[4] الجبرتي، المصدر السابق، ج 1، ص 549.

[5] Volney, op,cit, p 111,112.

أهمية خاصة لأي حاكم إسلامي يريد أن تتسع شهرته، وبالتالي فإن وجود سلطة مصرية في الأماكن المقدسة من شأنه أن يرفع من مكانة وهيبة حاكمها ويؤمن ولاء هذا الجزء الهام من العالم الاسلامي[1].

تشير كتابات الرحالة أن النزعة الاستقلالية لعلي بك ظلت مستمرة، فبعد أن سيطر علي بك على الحجاز امتد طموحه إلى بلاد الشام[2]، فيذكر فولني أن على بك وجه في سنة 1770م حملة عسكرية تعدادها 60 ألف جندي إلى دمشق بقيادة محمد بك الملقب بأبو الذهب، وقد تحالف علي بك مع الظاهر عمر[3] الذي كان يقود الحركة الإنفصالية في فلسطين، والجدير بالذكر أن هذه الحملة تمكنت في سنة 1771م من هزيمة قوات عثمان باشا والي دمشق آنذاك والدخول إلى مدينة دمشق ومحاصرة القلعة والإستيلاء على الكثير من المدن الأخرى، لكن هذا النجاح على حسب فولني لم يدم طويلا إذ سرعان ما انقلبت الأوضاع، وهذا بسبب انسحاب المفاجئ لمحمد أبو الذهب وعودته إلى مصر [4].

لقد أوضح الرحالة موقف الدولة العثمانية من حركة علي بك فذكر فولني أنها كانت على دراية تامة بالخطر الذي كان يشكله، غير الأوضاع لم تكن مواتية لإعلان الحرب عليه، وهذا نظرا لانشغالها بمسائل أخرى، ففي هذه الفترة استلزم على الدولة العثمانية حشد كافة جيوشها لمواجهة روسيا التي أعلنت عليها الحرب سنة 1768م، وعلى الرغم من ذلك يؤكد أنها حاولت القضاء عليه من خلال إرسال فرقة من القبوجين الذين كانوا يهدفون للقضاء عليه، لكن علي بك لطالما كان ينجح في إحباط خططهم حيث كان يستقبلهم بالسم والخنجر[5].

و أكد سافاري ما ذكره فولني لكنه كان أكثر تفصيلا منه، حيث نجده قد أورد الحادثة التي على إثرها قررت الدولة العثمانية القضاء على علي بك، ففي هذا الشأن يذكر أنه لما ازداد خطر روسيا ودخلت أساطيلها إلى البحر الأبيض المتوسط طلبت الدولة العثمانية من مصر تزويدها بإثني عشر ألف مقاتل، لكن خصوم علي

---

[1] جلال يحي، **مصر الحديثة 1517–1805م**، دط، د.م ، الاسكندرية، دت، ص 247.

[2] يرجع بعض المؤرخين سيطرة علي بك على بلاد الشام إلى عدة أسباب منها: تأمين وضعه في مصر، فبلاد الشام تعد الباب الشرقي لمصر ، بالإضافة إلى محاولة القضاء على قوة والي دمشق وغيرهم من الولاة الذين قد تكلفهم الدولة العثمانية بالقضاء عليه في مصر ، فضلا عن رغبته في إعادة حكم المماليك إلى بلاد الشام كما كان قبل مجيئ العثمانيين . للمزيد أنظر سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 50.

[3] الظاهر عمر: يرجع نسب وأصل الظاهر عمر إلى الزيادنة ، ولد سنة 1695م، عين واليا على صفد خلفا لوالده، ضم طبريا ويافا ونابلس وعكا التي جعل منها مقرا له، تزعم في القرن الثامن عشر الحركة الانفصالية التي ظهرت في بلاد الشام ضد الدولة العثمانية ، تحالف مع علي بك الكبير و استولوا على مدينة دمشق في عام 1771م ، استعان بروسيا وتحالف معها ضد الدولة العثمانية، انتهى تمرده على يد يوسف شهاب وأحمد الجزار اللذان استعانت بها الدولة العثمانية للقضاء عليه، توفي في عام 1775م بعد أن عمرت دولته ربع قرن . للمزيد أنظر: جميل بيضون، **تاريخ العرب الحديث**، ط1، دار الأمل للنشر والتوزيع، د ب ن، 1992، ص ص 75،76.

[4] Volney, op,cit, p 116, 117.

[5] Ibid, p110.

بك وأعدائه استغلوا هذا الظرف وراسلوا السلطان العثماني وأعلموه بأن الجيش الذي كونه علي بك وكان بصدد إرساله هو موجه لمساعدة روسيا لا الدولة العثمانية، وهذا الأمر أثار مخاوف السلطان العثماني الذي أرسل كتابا إلى باشا مصر يأمر فيه بقتل علي بك، لكن على بك سرعان ما علم بما تدبره الدولة العثمانية ضده فأرسل بدوره مجموعة من المماليك للقضاء على هؤلاء الأشخاص فور وصولهم للقاهرة [1].

بناء على ما سبق ذكره نستنتج أن علي بك الكبير قد أفاد كثيرا من الظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية، فقد استغل انشغالها بالحرب الروسية لتوطيد نفوذه داخل مصر وخارجها وبذلك استطاع أن ينفرد بحكم مصر في سنة 1969م .

لقد تباينت مواقف الرحالة اتجاه سياسة علي بك الكبير في مصر، إذ تراوحت مابين إشادة بفترة حكمه من جهة ورفض واستنكارها من جهة أخرى، فالرحالة سافري مثلا نجده يثني على حالة الاستقرار التي ميزت عهده، فذكر أن علي بك كان حريصا على إقرار الأمن في ربوع البلاد، وذلك من خلال القضاء على نفوذ العربان و محاربة اللصوص الذين كانوا يغيرون على القوافل، ومما استرعى انتباه سافاري وأشاد به كذلك هي الإجراءات والقوانين التي سنها علي بك من أجل تطوير الزراعة و انعاش التجارة والتي لاحظ أنها أصبحت مزدهرة في عهده [2] .

إنّ ما أورده سافاري بشأن شيوع الأمن وتطور الزراعة والتجارة في عهد علي بك لا يختلف كثيرا عما ذكره الجبرتي، بل يتوافق معه بشكل كبير، فهو يؤكد هذه الحقيقة، إذ يذكر أن على بك استطاع وضع حد لتمرد البدو واعتداءاتهم المتكررة في الدلتا، حيث تمكنت الحملة التي أرسلها سنة 1768م من القضاء على أبرز مشايخهم المعروف بسويلم ابن حبيب، كما تمكن كذلك في سنة 1769م من وضع حد للعربان في الصعيد وهذا بعد أن قضى على حركة الشيخ همام[3]، وبالتالي عم الاستقرار والأمن حتى أن الجبرتي وصف ذلك بقوله:" أن المسافر يسير بمفرده ليلا راكبا أو ماشيا ومعه حمله من الدراهم والدنانير إلى أي جهة ويبيت في الغيط والبرية آمنا مطمئنا لا يرى مكروها أبدا "[4].

و على النقيض من ذلك يقدم فولني صورة سلبية عن علي بك الكبير، فهو بخلاف سافري يدين بشكل كبير السياسة التي انتهجها، وقد استند في موقفه على مجموعة من الأدلة، لعلّ من أهمها الأوضاع المتردية التي

[1] Savary, op,cit, P 154
[2] Ibid, p 150 ,151 .

[3] الجبرتي، المصدر السابق،ج1، ص ص 525- 528.
[4] نفسه، ص 598.

أصبحت عليها مصر في عهده، فقد أكد أن تكاليف الحروب التي قام بها علي بك أدت إلى تفاقم الضرائب على الشعب المصري، وهو ما أفضى بالبلاد إلى أسوأ مآل على حد تعبيره، فهذه السياسة في نظره أدت إلى تذمر المصريين، خصوصا وأنه ترتب عن ذلك حدوث المجاعة في سنتي 1770م-1771م، ويسترسل فولني في انتقاد سياسة علي بك فيذكر: "أن معظم أعمال علي بك لا تستند إلى مبادئ العدل و الإنسانية بقدر ما هي تعود إلى عوامل طمعه، فمصر لم تكن في نظره سوى ملكا والشعب إلا قطيعا يجوز له أن يتصرف به على هواه "[1].

وتجدر الاشارة في هذا السياق أنه على الرغم من الموقف السلبي الذي أبداه فولني اتجاه سياسة علي بك، إلا أن الملاحظ أنه أولى اهتماما كبيرا بالثورة التي قادها ضد الدولة العثمانية، فقد ذكر أنها استوقفت اهتمام أوروبا في تلك الحقبة، وقد توقع الأوروبيين من وراءها انقلابا خطيرا، وإلى جانب ذلك نجده يعتبر علي بك رجلا خارقا لكنه يؤكد في نفس الوقت أنه لا يرتقي إلى مصاف الرجال العظام، وهذا حسب فولني يعود بالدرجة الأولى إلى عامل مهم هو افتقاره إلى الثقافة، وهذا الخلل في نظره هو الذي منع علي بك من اتباع سياسة حكيمة تمكنه من النجاح في حركته التمردية [2].

لم يغفل الرحالة في خضم حديثهم عن حركة علي بك الكبير التطرق إلى نهايتها، ففي هذا السياق أجمعوا على أن سبب فشلها كان نتيجة لخيانة مساعده وقائده العسكري أبو الذهب الذي استماله العثمانيون للانقلاب على سيده، وقد أوضح فولني هذه الحقيقة عندما ذكر أن عثمان باشا والي دمشق لما استشعر عجز قواته لجأ إلى التفاوض ومحاولة دس بذور الشقاق والعصيان بين الطرفين، فأرسل إلى القائد المصري أحد رجاله الذي أدخل في ورعه أن السلطان العثماني سوف يقتص لا محالة من علي بك، وهذا بسبب انتهاكه لحرمة مدينة مقدسة كدمشق[3]، هذا ويرجح العديد من المؤرخين أيضا أن تواطأ محمد أبو الذهب مع الدولة العثمانية، قد جاء نتيجة الوعد الذي قدمه له الباب العالي بتعيينه حاكما على مصر وهذا في حالة أنه ثار على سيده وعزله من الحكم [4].

إن مما لا شك فيه أن هذه التطورات قد شكلت بداية لتراجع حركة علي بك الكبير، فالملاحظ أنه سرعان ما دخل في الصراع مع قائده العسكري محمد أبو الذهب، حيث يؤكد سافاري أنه بالرغم من أن علي بك في هذه الفترة حاول عقد تحالف مع روسيا لتزويده بما يحتاجه من السلاح و المهندسين لتقوية جيشه إلا أن

[1] Volney, op,cit,128,129
[2] Ibid, P 125.
[3] Ibid, p 118.
[4] طقوش، المرجع السابق، ص 50.

محاولاته باءت بالفشل[1]، و قد أكد الجبرتي أن ذلك قد أثر سلبا عليه، حيث يطلعنا أنه بعد عودة علي بك إلى القاهرة التقى مع محمد أبو الذهب في موقعة الصالحية سنة 1773م، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة جيشه[2]، وأما بخصوص مصير علي بك فيشير فولني أنه توفي لكن الغموض يكتف سبب موته، فحسبه هناك من عزى ذلك إلى الجراح التي تأثر بها، وأما البعض الآخر فأرجع وفاته نتيجة السم الذي دس له [3].

ومن جهة أخرى لم يفت فولني وهو يستعرض ويتتبع نهاية علي بك أن يسجل بعض الملاحظات الهامة فهو إلى جانب تأكيده لما جاء في رحلة سافاري ومصنف الجبرتي ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ تحدث بإسهاب عن أسباب وعوامل فشل حركة علي بك و نهايتها، حيث أجملها في ثلاث أخطاء ارتكبها علي بك وهي نزعته الكبيرة إلى الفتوحات والتي استنفذت مداخيله وقواته في الحروب، الشيء الذي جعله ينصرف و يهمل الإدارة الداخلية لمصر، و ركونه المبكر إلى الراحة واعتماده الكبير على مساعديه الذين أوكل لهم السلطة، الأمر الذي قلل من شأنه عند المماليك وشجعهم على الثورة و التمرد عليه، أضف إلى ذلك إغداقه الثروة على أهم مساعديه – محمد أبو الذهب – مما أكسب هذا الأخير مكانة وسلطة أساء استخدامها ضده[4].

و زيادة على الاهتمام الكبير الذي أولاه الرحالة لحركة علي بك الكبير خصصوا أيضا حيزا مهما من رحلاتهم للحديث عن أوضاع مصر في عهد بعض الشخصيات من البكوات المماليك الذين استأثروا بالحكم بعد وفاة علي بك ومنهم محمد أبو الذهب و مراد و ابراهيم بك اللذان اشتركا في الحكم، وفي الحقيقة أن الوضع السياسي في مصر خلال فترة حكمهم لم يختلف كثيرا عن ما شهدته من اضطرابات وفتن وصراعات، حيث أكد هؤلاء الرحالة أن ذلك الوضع ظل قائما حتى نهاية القرن الثامن عشر[5].

ومن خلال هذا القول نستشف أن الرحالة كان لهم دور بارز في بلورة فكرة احتلال مصر فقد أبرزوا في نصوص كتاباتهم مدى الضعف الذي بلغته في ظل حكم المماليك وتراجع مكانة الدولة العثمانية وهذا ما تجسد بالفعل في نهاية القرن الثامن عشر حيث شهدت مصر حدثا هاما يتمثل في الحملة الفرنسية التي كانت في عام 1798م بقيادة نابليون بونبارت ودامت ثلاث سنوات، وإذا ما تمعنا في نصوص الرحلات المغاربة فإننا لا نكاد نجد ذكرا لهذا الحدث التاريخي الذي كان له انعكاسات على المشرق العربي عامة، هذا باستثناء الإشارة الوحيدة والمقتضبة التي قدمها محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته الصغرى، حيث رصد لنا جانبا من

[1] Savary, op ,cit, p165

[2] الجبرتي، المصدر السابق، ج 1، ص ص590 ، 591.

[3] Volney, Op,Cit, 125.

[4] Ibid ,p 126

[5] فولني، المرجع السابق، ص ص 97- 107

آثارها وانعكاساتها على المجتمع المصري إذ يقول عن ذلك:" لقد تواتر لدينا أن الفرنسيين استولوا على مصر و إيالتها بخيل، فنشبت بينهم وبين الغزو المغاربة ومن له طاقة حروب، ثم تفرق المقاتلة من المسلمين للشام و السودان، فأفضى الحال إلى أن أفسد الكفرة وبغوا وطغوا، وقاتلوا جماعة من العلماء وأخذوا الأموال قهرا وتوجهوا نحو الشام على البر، فأخذوا المدائن ثم وقعت الغلبة للمسلمين والحمد الله واستنقذوا منهم ما أخذوا وقاتلوهم أشد القتال "[1].

وبالرغم من الإشارة المقتضبة التي قدمها محمد بن عبد السلام الناصري حول الحملة الفرنسية إلا أنها ذات أهمية بالغة، إذ نستشف منها الكثير من الحقائق المهمة التي تدحض أقوال المستشرقين الذين رأوا في هذه الحملة مشروعا حضاريا، فما ذهب إليه محمد بن عبد السلام الناصري يعكس جليا التأثيرات السلبية التي خلفتها الحملة، فقد وصف هول هذا الحدث و تبعياته على مصر، وموقفه هذا يتطابق إلى حد كبير مع ما سجله الجبرتي سواء في مصنفه عجائب الآثار في التراجم والأخبار أو كتابه الثاني مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس[2]، فقد وصف بدقة أحداث هذه الحملة التي رأى في قدومها أنه بداية لاختلاف الأحوال وفساد التدبير و حصول الخراب، وهذا ما نستشفه في قوله:" أنها أولى سنين الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير" [3].

وعلى العموم يمكن القول أن هذه هي ملامح الحياة السياسية التي شهدتها مصر في القرن الثامن عشر، كما رصدها لنا الرحالة، حيث عكست لنا نصوص رحلاتهم مدى التدهور السياسي الذي بلغته مصر في ظل سيطرة المماليك على الحكم، إذ غلب عليها الفوضى والاضطرابات والفتن الداخلية وانعدام الاستقرار، والحقيقة أن هذا الوضع السياسي المضطرب لم يكن سوى نتيجة لتراجع نفوذ الحكم العثماني في مصر واستئثار المماليك بالسلطة الفعلية و هذا ما ظهر جليا في عهد علي بك الكبير الذي كاد أن يستقل بولاية مصر.

---

[1] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى**، المصدر السابق، ص 200.

[2] يعد كتاب مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس وثيقة وسجلا تاريخيا مهما ، فهو يؤرخ لوقائع الحملة الفرنسية من بدايتها إلى نهايتها ، وقد استعرض فيه الجبرتي موقفه ازاء الفرنسيين الذين انتقدهم بشدة نظرا لما أحدثوه من فساد ونهب وحروب و مصادرات وفرض للضرائب وقتل للعلماء : للمزيد أنظر : عبد الرحمن الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس** ، تح:عبد الرزاق عيسى ، ط1، مطبعة النيل، مصر، 1998، ص ص136 - 142.

[3] الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** ،ج 3، تح: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ،1998م، ص1.

2. الأوضاع السياسية القرن التاسع عشر.

اشتملت كتابات الرحالة الذي وفدوا على مصر في القرن التاسع على الكثير من المعطيات التي تساعد الباحث على تقصي الواقع السياسي في هذه الحقبة المهمة من تاريخ مصر، فالمعروف لدينا أن مصر قد شهدت العديد من التحولات بعد جلاء الحملة الفرنسية، وقد سجل الرحالة في كتاباتهم هذه التطورات، حيث انصب اهتمامهم بشكل كبير على وصف طبيعة الحكم في عهد محمد علي، كما اهتموا بوصف سياسة التحديث التي عرفتها مصر في عهده، و قدموا إضافة إلى ذلك بعض المعلومات تبين طبيعة العلاقات التي كانت تجمع مصر مع الدولة العثمانية والدول الأوروبية، فضلا عن اهتمامهم أيضا بظاهرة التسلط الأجنبي و تراجع المسلمين التي ميزت مصر في القرن التاسع عشر .

سياسة محمد علي باشا

لا شك أن المتصفح لكتابات الرحالة سواء المغاربة أو الأوروبيين يلاحظ مدى اختلاف نظرتهم للحكام الذي تعاقبوا على الحكم في مصر خلال القرن التاسع عشر، فهناك من امتدحهم وهناك من عارضهم وانتقد سياستهم، ولعلّ الملفت للانتباه أن محمد علي قد حضي بالنصيب الأكبر في كتابات هؤلاء الرحالة، وهذا نظرا لما أحدثه من تغييرات جذرية، حيث اهتموا بوصف الظروف التي صاحبت توليه للسلطة، كما أفاضوا أيضا في الحديث عن سياسته التحديثية وتوسعاته الخارجية .

لقد أشار الغيغائي أن اعتلاء محمد للحكم في مصر قد جاء بعدما تم طرد الفرنسيين من مصر ثم استيلاء الإنجليز على الاسكندرية، حيث عكف محمد علي على محاربتهم بمن كان تحت يديه من الجيوش التركية ، وقد مهد له هذا الإنتصار الذي حققه حكم ولاية مصر[1]، وأمّا الرحالة شاتوبريان فعزى انفراد محمد علي بالسلطة إلى ذكائه ودهائه حيث بيّن في رحلته أن هذا الأخير قد استطاع القضاء على منافسيه وبالأخص ابراهيم بك ومحمد بك الألفي[2]، ونفس الرأي أيده كلوت بك، لكنه يضيف عاملا آخر خالف به الرحالة السابقين، حيث أوضح أنّ وصول محمد علي لسدة الحكم لم يكن إلا بعد اجتيازه لصعوبات جمة تغلب على بعضها بشجاعته تارة وبدهائه تارة أخرى، لكن الذي ساعده على بلوغ أسمى المراتب في رأيه هو الضعف الذي آلى إليه المماليك جراء الانتصارات التي حققتها ضدهم القوات الفرنسية حيث يقول عن ذلك: " والحقيقة التي لا مراء فيها أن نابليون أو بعبارة أخرى فرنسا هي التي أخذت بيده في الطريق وفتحت له مغاليق الأبواب، فنابليون

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 130.

[2] ذهني، **رؤية الرحالة الأوروبيين...**،المرجع السابق، ص 79.

وفرنسا كانا يعادلان فيما أصاب من النجاح نصف طالعه السعيد، لأنهما بفوزهما على المماليك أصحاب السيادة الحقيقية على مصر في ذلك الوقت وانتصارهما عليهم في ثلاث معارك كبيرة مهدا له طريق الوصول إلى الغاية البعيدة التي كان يرنوا إليها"[1].

والواقع أن هذه الأراء التي قدمها هؤلاء الرحالة فيها ما يتفق مع ما ورد في المصادر المحلية ومنها ما يختلف عنها، وبالأخص موقف كلوت بك الذي نلاحظ أنه ينطوي على كثير من المبالغة باعتبار أنه يقوم على تمجيد نتائج الحملة الفرنسية، فإذا ما عدنا إلى ما سجله الجبرتي في مصنفه ، فإننا نجده اختلف في طرحه مع ما ذكره الرحالة سابقا، إذ أكَد على أن وصول محمد علي للسلطة قد جاء بإرادة من الزَعامة الشعبية (العلماء) التي قامت بتثبيت دعائم حكمه، حيث استطاع محمد علي من خلال أعماله العسكرية استمالة العلماء إلى جانبه لاسيما وأنهم رأوا فيه القائد الذي بإمكانه إنقاذ مصر من حالة الفوضى والاضطراب السياسي الذي أعقب خروج الفرنسيين، وهذا الأمر في نظره هو الذي جعلهم يطلبون منه تولي مقاليد الحكم، ولعلّ ما يؤكد هذا هو حديث عمر مكرم مع محمد علي الذي أورده الجبرتي في كتابه، حيث خاطبه بقوله: " أننا نريدك واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة و الخير" [2]، وهكذا لم يبقى على السلطان العثماني سوى الإذعان لمطلبهم حيث أرسل مندوبا يحمل فرمان التعيين، وبالتالي أصبح بموجبه محمد علي ابتداء من 20 يوليو 1805 واليا على مصر [3].

لقد أفاض الرحالة في وصف السياسة التي انتهجها محمد علي لكونه سعى من خلالها إلى بناء دولة حديثة، لكن الملاحظ أن مواقف هؤلاء الرحالة قد تباينت واختلفت وإن كان أغلبهم قد اتفق على تأكيد عظمته ، فالغيغائي مثلا أثنى مطولا على إنجازاته، وما جلبه من الصنائع و ما أحدثه في البلاد من تغييرات، وهذا ما يظهر جليا في قوله:" إذ ما ترك صنعة ولا حرفة ولا حكمة مندرسة في مصر إلا وردها وواصلها إليه من كل نوع وجنس، فمهد الله له الأرض والبلاد وسّخر له خلقه من العباد حتى أقام بجميع الصنائع من الروم والهند والسودان وغيرهم من العجم ، وزاد على ذلك حتى أظهر العجائب وخلف لولده من الأموال والذخائر من كل الغرائب"[4].

---

[1] كلوت بك، المصدر السابق، ص 469.

[2] الجبرتي، المصدر السابق، ج3، ص 521.

[3] نفسه، ص ص 531، 532. أنظر أيضا : أبو السعود عبد الله أفندي، **منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ محيي مصر**، مخطوط تحت رقم 323212، 1278هـــــ، ص 7.

[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص 133.

إنّ ما قدمه الغيغائي من معلومات حول انجازات محمد علي إذا دّل على شيء فإنه يدل ويعكس التحولات التي عرفتها مصر في عهده، فالغيغائي عبر ضمنيا على حركة التحديث التي باشرها محمد علي خاصة في المجال الاقتصادي، ولعلّ هذا ما يفسر وقوفه على العديد من الانجازات التي قام بها هذا الحاكم، إذ أبدى إعجابه الكبير بما أدخله من مستحدثات تقنية والتي عكست مظاهر التمدن التي أضحت عليها مصر في عهده، وخاصة فيما يتعلّق بالمواصلات (القطار والبابور، السفن) هذا إلى جانب انبهاره بالتلغراف والمطبعة التي استرعت انتباهه وخصها بكثير من الوصف،كما لم يفته الإشادة كذلك بالقناطر و الموانئ والمراسي التي عكف على انشائها في مصر [1].

وإذا كانت الرحلات المغاربية لم تسعفنا بالشيء الكثير عن سياسة محمد علي، فإن الرحلات الأوروبية على خلاف ذلك تزخر بالمعطيات المهمة التي يمكن من خلالها التعرف على ملامح مصر في عهده، فكلوت بك الذي عاصره سجل في مذكراته العديد من منجزاته، فهو يرى فيه الحاكم الذي أيقظ مصر من كبوتها و بعثها من سباتها وهذا نظرا لما أدخله من تمدن ونظم حديثة، وليس هذا فحسب بل إن كلوت بك ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث أكد أنه ليس من المبالغة اعتبار محمد علي من فحول الرجال، و أنه أكبر من أنجبهم الشرق و امتازوا بالعبقرية العالية[2].

والواقع أن كلوت بك استند في تعليل موقفه هذا على حركة التحديث التي تبناها محمد علي للنهوض بمصر ، فمما ذكره في هذا الشأن أن محمد علي عرف بحكمته كيف يقي مصر من الركود، إذ قام بشق الترع التي كانت توصل إلى الجهات البعيدة، وأدخل التحسين على نظام الري والذي أدى إلى زيادة المحاصيل، ومن جهة أخرى استدعى إليه الأطباء الأجانب وأنشأ مدارس في الطب ومستشفيات متعددة،كما حال بين الموظفين و التسلط على الأهالي بالظلم والتعسف، ويضيف كلوت بك في موضع آخر من رحلته أنه استطاع فرض النظام وبسط الأمن في ربوع البلاد، وهذا بعد أن تمكن من القضاء على العربان ومد سلطته على الأرياف والصحاري، وأمّا بخصوص إصلاحاته العسكرية فيشير أنه عمل على تشكيل جيش جديد وفقا للأساليب الحديثة مستعينا في ذلك بالمهندسين والخبراء الفرنسيين، كما عكف على إنشاء المعاهد و المدارس وغيرها من الإصلاحات[3] .

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص ص 67،77،79، 80 ، 84، 85، 104.

[2] كلود بك، المصدر السابق، ص ص 469، 470.

[3] نفسه، ص ص 470، 496 .

وهذه المعلومات تتوافق إلى حد كبير مع ما ورد في المصادر المحلية إذ أسهب الشيخ خليل الرجبي في ذكر إصلاحات محمد علي والتي أشار أنها مست كافة المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية[1] .

والحقيقة التي تجدر الاشارة إليها أنه بالرغم من إجماع أغلبية الرحالة حول أهمية انجازات محمد علي، إلا أن هناك فئة أخرى من هؤلاء الرحالة لم يخفوا تحفظهم وامتعاضهم اتجاه تلك الاصلاحات، غير أن الملاحظ أن هؤلاء الرحالة لم ينتقدوا انجازات محمد في حد ذاتها بقدر ما انتقدوا الطريقة والوسائل التي انتهجها لتحقيق مشروعه، إذ أوضحوا في هذا الصدد أن سياسته اتسمت بالاستبداد والقسوة وكانت حجتهم في ذلك المذبحة[2] التي دبرها للمماليك سنة 1811م والتي وصفت بالدموية[3]، هذا إلى جانب تركيزهم على الوضع المتردي الذي أضحى عليه الأهالي وبالأخص فئة الفلاحين الذين لم تتحسن حالتهم بعد الاصلاحات، بل أصبحت أكثر بؤسا وهذا يعود في نظرهم إلى السياسة التي انتهجها محمد علي والتي كانت تقوم على احتكار الموارد وفرض الضرائب المجحفة[4].

ومن أهم هؤلاء الرحالة الذين تبنوا هذا الموقف نجد إدوارد وليام لين، الذي رأى أن اصلاحات محمد علي في ميدان الصناعة والزراعة والتعليم أنها اصلاحات لا طائل منها، فهذه التغييرات التي أحدثها حسبه أضرت بمصر و لم تحقق نتائج نافعة ولا يعول عليها[5].

---

[1] للتوسع في الإصلاحات التي أحدثها محمد علي أنظر: خليل بن أحمد الرجبي ، **تاريخ الوزير محمد علي باشا** ، تح: دانيال كريسيليوس، ط1، دار الأفاق العلمية ،القاهرة ،1997م، ص 166، 177 ،183، 231 .

[2] مذبحة المماليك : هي أحد الحوادث المشهورة في تاريخ مصر الحديث ، ويطلق عليها أيضا مذبحة القلعة ، وهذه الحادثة دبرها محمد علي في 1مارس 1811م للقضاء على المماليك وإبادتهم ، حيث استدعاهم للمجيء إلى القلعة بحجة التشاور معهم ، ثم قام بعد دخولهم بغلق الأبواب عليهم وأصدر أمرا لجنوده بإطلاق النار عليهم حتى كاد قضى عليهم جميعا . للمزيد أنظر: نجاة سليم محمود محاسين، **معجم المعارك التاريخية** ، ط1، دار زهران للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2011م، ص 490. أنظر أيضا : عبد الله أفندي، المصدر السابق، ص 9.

[3] بالرغم من أن الكثير من الرحالة انتقدوا كيفية قضاء محمد علي على المماليك إلا أن هناك في المقابل رحالة آخرين برروا هذا العمل ولاسيما كلوت بك و ادوارد وليام لين ، إذ ذكروا أنه إذا كان الهدف من سياسته هو إعادة مصر إلى مجدها القديم وما كانت عليه من الحضارة فلا بد من غض النظر عن الوسائل التي استعان بها لتوطيد سلطته مادام أنه استطاع من خلالها بسط الأمن والإستقرار في البلاد، فالغاية حسبهم تبرر الوسيلة.أنظر: كلوت بك ، المصدر السابق، ص 198.

[4] Sarga Moussa , Méhmét –Ali Au Mémoir Des Voyageure Français En Egypte , Revue Romantisme , N 120, 2003, P15, 21

[5] يقول إدوارد وليام في هذا الشأن:" إن من تأمل سياسة محمد علي لا يسعه إلا أن يأسف للفرق بين حالة مصر تحت حكمه وبين ما يمكن أن تكون عليه خاصة أن سكانها لا يزيدون عن ربع العدد الذي يمكنها إعالته،كم تغيرا عظيما كان يمكن أن يطرأ عليها لو كانت تحكم بواسطة حكومة متنورة وبواسطة أمير يسعى بدلا من إفقار الفلاحين بترع أراضيهم واحتكار معظم المحصولات الهامة واستخدام القسم الأكثر كفاءة من السكان في تحقيق طموحه إلى الغزو الخارجي، واستخدام قسم كبير آخر في منافسة الصناعات الأوروبية على غير طائل إلى تنمية اهتمام الأهالي بزراعة الأراضي وجعل مصر ما قدرته لها الطبيعة أن تكون ..." . للمزيد أنظر: وليام لين، المصدر السابق، ص 36.

ويتفق موقف بريس دافين مع الطرح الذي قدمه وليام لين سابقا، إذ يرى أن سياسة محمد علي تتميز بالظلم، وقد أشار أن الفلاحين المصريين قد أطلقوا عليه تسمية" ظالم باشا"[1]، وفي الحقيقة إن استنكار بريس دافين لسياسة محمد علي قد جاء نتيجة لما شاهده من ظلم اتجاه فئة الفلاحين في عهده، إذ يروي أنهم كانوا يتعرضون لمختلف أنواع التعذيب من طرف جباة الضرائب وهذا بالرغم من عجزهم المالي، أضف إلى ذلك أن محمد علي قد عمد في سياسته أيضا على تفضيل الأتراك والألبان على المصريين وخاصة في تولي الوظائف المهمة حيث ظلوا مستبعدين منها[2]، وهكذا فإن الاصلاحات التي جاء بها محمد علي كانت في نظر بريس دافين إصلاحات تستحق الثناء، غير أن الذي يؤخذ عليها أنها لم تطبق بالشكل المطلوب، وهذا ما أكده بقوله: "فالقانون الذي أرساه محمد علي وأطنب المطنبون في الإشادة بحكمه وتماشيه مع روح الحرية، لم يوضع يوما موضع التنفيذ، وهذا لأن روح محمد علي في فرض الضرائب والنهب وعدم التراهة في الابتزاز روح لا مثيل لها..."[3] .

إنّ هذا الموقف الرافض الذي أبداه لين وغيره من الرحالة اتجاه إصلاحات محمد علي لا يمكن أن نعزوه فقط إلى اعتبارات شخصية تتعلق بهم، بل إن معارضتهم نابعة أيضا من تأييدهم لمواقف حكوماتهم والتي كانت ترفض بدورها أي محاولة للتحديث والتغيير في هذا الجزء من المشرق العربي، سيما إذا كان ذلك بعيدا عن الهيمنة البريطانية و مصالحها [4].

ومما يجب الإشارة إليه أن الاختلاف في تقييم إصلاحات محمد علي لم يكن مقتصرا على الرحالة فقط، بل إن هذا التباين في المواقف نلاحظه أيضا عند المؤرخين المحليين الذين عاصروا محمد علي، فبنيما أشاد الشيخ خليل بن أحمد الرجبي مطولا بإصلاحاته، اتّخذ الجبرتي في المقابل موقفا معارضا منها، إذ وصف آثار هذه الاصلاحات بأنها كانت أشد وطأة على المصريين وبالأخص الضرائب و المغارم التي أثقلت كاهل المصريين، ناهيك عن ما ترتب عن نظام الاحتكار الذي كان تطبيقه في نظره يعد مظهرا من مظاهر الظلم[5]، وينبغي

---

[1] بريس دافين، **إدريس أفندي في مصر مذكرات الفنان و المستشرق بريس دافين في مصر، 1807م، 1879م**، تحرير جمال الغيطاني، د ب ن، مصر، دت ، ص 81.

[2] Hamdi Abdelazim Abdelmaksoud Abdelkader, **L' Egypte Dans Voyage En Orient De Gérard De Narval Et La France Dans L'or De Paris De Rifa'a Al Tahtawi**, These Exgence Partille Du Doctorat En Etudes Littérares , Université Québec A Montréal , 2008 , p 150

[3] دافين، المصدر السابق، ص 81.

[4] ناجي نجيب، "الرحلة إلى الشرق والرحلة إلى الغرب"، مجلة فكر ونقد ، ع 31، ألمانيا، 1978م، ص 48.

[5] عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج4، تح: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، د.ك.م، القاهرة، 1998 ، ص ص253، 245، 392.

الإشارة في هذا السياق أن الجبرتي كان موضوعيا في موقفه إذ انتقد ما رآه يستحق النقد و أيد من الإصلاحات ما كان يستحق الاشادة.

إلى جانب اهتمام الرحالة بمظاهر التحديث وانعكاساتها على المجتمع المصري، لفتوا انتباهنا أيضا إلى مسألة في غاية الأهمية، إذ بينوا لنا موقف المصريين من التجربة التحديثية التي تبناها محمد علي، ففي هذا الصدد أكد كلوت بك أن غالبية المصريين قد عارضوا إصلاحاته ورفضوها وهذا بحجة أنه استنفذ قوى البلاد المصرية بتشكيله للجيش الذي لم تتسع الموارد المالية التي تتمتع بها مصر للإنفاق عليه[1]، كما يذكر أن معارضتهم لم تقتصر على التنديد بسياسته فحسب ،بل ألقوا كذلك العقبات والمصاعب في طريقه، ولعلّ ذلك ما نستشفه في قوله:" إنَ الذي أثار تلك الحركة ونبهها من خمودها إنما هو ذلك الرجل العظيم بما فطر عليه من كرم الشمائل و نبالة المقاصد وأصالة الرأي وبعد النظر، وأمّا الشعب المصري فلم يشاركه قط في شيء ما من التصميمات التي أقرها ولا في اختيار الوسائل التي استحسنها لتنفيذها، بل ألقى في طريقه كل ما استطاع أن ينثره من الصعوبات و المعاثر لتعطيلها وأقام في وجهه الاعتراضات الجمة عليه "[2].

وفي الحقيقة أنه إذا عدنا إلى ما سجله المؤرخون، فإننا نعثر على الكثير من المعطيات التي تؤيد ما أورده كلوت بك، فإصلاحات محمد علي أثارت جدلا كبيرا، وقد أظهر الكثير من المصريين وبالأخص علماء الأزهر الشريف معارضتهم ورفضهم لمحاولات التجديد التي أقدم عليها محمد علي، وذلك بدعوى أنها مستقاة من الحضارة الأوروبية ولا تتوافق مع نظم وأحكام الشريعة الاسلامية، ولكن في الواقع هذا لا ينفي وجود فئة أخرى من المصريين ساندت وأيدت هذا المشروع بل وإنها كانت في نفس الوقت عناصر مؤثرة في حركة التحديث، وهذا من منطلق إدراكها لمدى التراجع الذي أضحت عليه مصر ومحاولاتها للنهوض به من جديد[3].

إنّ المتفحص لكتابات الرحالة حول محمد علي لا يجدها تقتصر على وصف سياسته الداخلية فحسب، بل إن من أبرز المسائل التي استقطبت اهتمامهم كذلك وخصصوا لها حيزا مهما في مصنفاتهم هي توسعات محمد علي وعلاقاته الخارجية سواء كان ذلك مع الدولة العثمانية أو الدول الأوروبية، فأما بالنسبة للسياسة التوسعية التي انتهجها والي مصر[4] نلاحظ أن الرحالة قد أجمعوا على أن طموحات هذا الحاكم لم تكن تنحصر في حكم مصر فقط، بل إنه تطلع أيضا لمد نفوذه في المناطق أخرى، فالغيغائي في خضم حديثه عن

[1] كلوت بك، المصدر السابق، ص 198.

[2] نفسه، ص 470

[3] سيد ابراهيم الجيار، **تاريخ التعليم الحديث في مصر وأبعاده الثقافية** ، ط2، دار غريب ، مصر، 1977م، ص ص 38، 42.

[4] للتوسع أكثر في سياسة محمد علي التوسعية أنظر: سليمان الغنام، **سياسة محمد علي باشا التوسعية في الجزيرة العربية و السودان و اليونان وسوريا 1811_1840 م قراءة جديدة**، ط 1،المركز الثقافي العربي، المغرب، 2004.

السياسة التوسعية لمحمد علي أشار إلى أن هذا الأخير استطاع مد نفوذه إلى الحجاز وبلاد الشام والسودان، ففي الحجاز يشير الغيغائي أنه وجه حملة عسكرية بقيادة إبنه ابراهيم باشا للقضاء على الحركة الوهابية والتي انتصر عليها يقول عن ذلك:" وجهز ولده ابراهيم باشا بالعساكر والقوة لمقاتلة القائم البدعي الوهابي المضر بأمة النبي صل الله عليه وسلم ... وهي في أثره إلى أن حاصر عليه بالمدينة المنورة وأخرجه منها وتبعه إلى مكة المشرفة وإلى الطائف وإلى الشرق وإلى الدرعية والعساكر في أثره ... والإمداد من مصر لا تنقطع من القتال كل يوم إلى أن وصل الوهبي إلى بلده وتحصن ببعض الحصون من قلاعه، ووقف عليه وهو محصور نحو سنة ... ثم رجع عنه بعد الغاية وقبض الأموال وخلاء الحصون "[1].

والواقع أن ما أورده الغيغائي بشأن الحرب التي شنها محمد على الحركة الوهابية في الجزيرة العربية تؤكده أيضا المصادر المحلية إذ ذكر خليل الرجبي بأن هذه الحرب قد جاءت استجابة لطلب السلطان العثماني الذي أرسل لحمد علي أمرا يتضمن إنقاذ بلاد الحرمين الشريفين مكة والمدينة وأن يصد الخطر الوهابي بالحرب ويرفع ضرره و يكف شره على المسلمين [2].

وأمَا عن توسعاته في بلاد السودان فيذكر الغيغائي أنَ استيلاء محمد علي عليها قد جاء بعد أن انسحبت قواته من الحجاز وذلك حوالي سنة 1821م وذلك ما يوضحه قوله: " ...إذ لما طرده عبد المجيد من الشام والحجاز صعدت عساكره وأمواله إلى نحو السودان يجاهد بها من كان كافرا وطاع له بها من كان مؤمنا وبناها مدينة في موضع يقال له "فزعل" سماها مصر فهي اليوم عامرة عساكر ورجالا وأموال ومدائن ..." [3]، ونفس الأمر يشير إليه الفقيه الحيوني فهو في خضم حديثه عن المناطق التي خضعت لنفوذ محمد علي يذكر أن سلطته شملت مصر كما أنه حكم أيضا بلاد السودان [4].

وإذا كان الغيغائي والحيوني لم يقدما لنا معلومات كثيرة حول حروب محمد علي، فإن كلوت بك على النقيض من ذلك أسهب في الحديث عنها،كما أنه رصد في الوقت ذاته النتائج التي أسفرت عنها حروبه الخارجية ولاسيما حملته على الحجاز، إذ يذكر في هذا الصدد أنه بالرغم من أن هذه الحملة العسكرية على الجزيرة العربية قد كلفته تكاليف باهضة سواء كان من خلال الجند أو الأموال، إلا أنَها في نفس الوقت عادت عليه بفوائد جمة، ذلك أن أنباء انتصاره وقضائه على الحركة الوهابية قد عم كافة الإمبراطورية

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 130.

[2] الرجبي ، المصدر السابق ،ص 129. أنظر أيضا عبد الله أفندي ، المصدر السابق، ص ص 10- 12

[3] الغيغائي، المصدر السابق، ص 133.

[4] الفقيه الحيوني، **الرحلة الحجازية**، تق: أحمد البوزيدي، ط2، المغرب، 2010م، ص 126.

العثمانية، فأصبحت بذلك سيرته مقرونة بحسن الذكر والثناء وهو الأمر الذي مهد له في فيما بعد وساعده على تشكيل جيشه النظامي الذي بنى عليه دعامة شهرته [1].

وفي الحقيقة الأمر أن هذا الموقف لا يختلف عما سجله المؤرخون العرب فعبد الرحمن الرافعي رأى في الحروب التي خاضها محمد علي الوسيلة التي مكنت مصر من تحقيق استقلالها وبلوغ مكانتها الدولية[2].

علاقة مصر بالدولة العثمانية والدول الأوروبية.

إنّ حديث الرحالة عن الأحوال السياسية في مصر لم يقتصر على وصف سياسة محمد علي وتوسعاته الخارجية، بل إن المتفحص لمذكراتهم يجدهم قد قدموا أيضا إشارات هامة يمكن من خلالها تتبع بعض جوانب العلاقات الخارجية التي جمعت بين مصر و الدولة العثمانية من جهة و مع الدول الأوروبية من جهة أخرى، وإن كان ما قدموه من معلومات بهذا الشأن لا يكفي لتكوين صورة شاملة حولها .

لقد انفرد الغيغائي في رحلته بتسجيل حوادث مهمة أظهرت طبيعة العلاقة التي كانت تربط مصر بالدولة العثمانية في عهد محمد علي، ولعلّ الدّارس للنصوص التي أوردها الغيغائي يستشف منها مدى التحول الذي طرأ على العلاقات بين مصر والدولة العثمانية، فبعد أن كانت تجمع بين الطرفين علاقات متينة كان أبرز مظاهرها ذلك التعاون العسكري الذي كان من نتائجه القضاء على الحركة الوهابية في الحجاز (1811_ 1818م) فضلا عن مساعدته في حربها لإخماد ثورة اليونان (1824- 1828)، دخلت تلك العلاقات مرحلة جديدة طغى عليها التوتر والفتور، بل إن الطرفين دخلا في صدام ومواجهة.

وقد أشار الغيغائي إلى أسباب ذلك الخلاف، حيث يذكر أن توسعات محمد علي في بلاد الشام والحجاز قد أثارت حفيظة وغضب السلطان العثماني عبد المجيد ، وعلى إثر ذلك دخل الجانبين في صراع كبير انتهى في الأخير بتدخل الدول الأوروبية الكبرى فرنسا وبريطانيا، إذ سعت هذه الدول جاهدة لحل النزاع وتسوية الخلاف القائم، فتَم إبرام الصلح[3] بين الطرفين، لكن هذا الاتفاق كان يتكون من مجموعة من الشروط تتمثل في ضرورة انسحاب محمد علي من بلاد الشام وكذا الحجاز مقابل تعهد السلطان العثماني بمنحه حكما وراثيا لمصر يقول الغيغائي في ذلك: " ثم إن الأمر باق في أولاد محمد علي باشا إلى اليوم وإلى ما أراد الله تعالى

---

[1] كلوت بك، المصدر السابق، ص 64.

[2] عبد الرحمن الرافعي ، **عصر محمد علي** ، ط 5، د.م ، القاهرة ، 1989م، ص 117.

[3] إن الصلح الذي ذكره الغيغائي يقصد به الإتفاقية التي عُرفت في المصادر التاريخية بمعاهدة لندن والتي وقعت في سنة 1840م ، حيث نصت بنودها : على منح محمد علي وخلفائه حكم مصر وراثيا مع احتفاظه أيضا بحكم المنطقة الجنوبية لبلاد الشام ، هذا بالإضافة إلى التزامه أيضا بإعادة جميع المناطق التي استحوذ عليها إلى الدولة العثمانية و دفعه للجزية للباب العالي . للمزيد أنظر: جميل سيار، **تكوين العرب الحديث**، د ط، د.ش ، عمان، 1979م، ص ص 334- 336 .

وذكر الناس أنه لما وقع صلحه مع السلطان عبد المجيد نصره الله بعد القتال مع النصارى والسلطان دخل الفريقان الفرنسي والانجليزي بينهما بالصلح ... واصطلحوا ورفع محمد باشا يده على الشام والحجاز وبعض بلاد الترك وبقي بإقليم مصر وما والاه إلى السودان وفي البحر إلى "الركريك" إلى بلد أزمير واشترط أن يبقى واليا على مصر، وهو من ظهرت نجابته عقبه بعده إلى انقطاع نسلهم ، كلما بقي لعبد المجيد وبنيه تصرفا في الملك، فقبله السلطان ورضيه وهو كذلك وكتب له وختمه بخاتمة "[1].

ومن جهته أكد الفقيه الحيوني ما ذكره الغيغائي بشأن الصلح الذي تم بين محمد علي والدولة العثمانية، وهذا في سياق حديثه عن المناطق التي امتد إليها نفوذه إذ يذكر قائلا:" ووجدنا العسكر قائم بها محزوم جدا هو للسلطان لا لمحمد باشا، إذ تمام حكومته الوش ومنه لمكة لا كلام له فيها، لكونه كان فيما مضى هو الحاكم على الجميع لكن لما اصطلح مع السلطان شرط عليه أن يخرج من الحجاز وامتثل" [2].

والواقع أن هذه الأحداث التي أوردها الرحالة المغاربة بشأن العلاقة بين الدولة العثمانية ومحمد علي إذا دلت على شيء فإنها تدل على أن تبعية مصر للدولة العثمانية لم تعد كالسابق، وهذا بدليل أن محمد علي قد حاول استقلال بمصر والانفصال عن الدولة العثمانية، وهي الحقيقة التي أيدها أيضا بعض الرحالة الأوروبيين وخاصة إدوارد وليام لين الذي يؤكد لنا في رحلته أن مصر عرفت خلال منتصف القرن التاسع عشر تغييرات سياسية بالغة الأهمية حيث تحررت تحررا شبه كامل من تبعيتها للدولة العثمانية [3].

ولكن الذي ينبغي الاشارة إليه في هذا الصدد أنه بالرغم من أن إيالة مصر أصبحت تتمتع بوضع استثنائي مقارنة بالإيالات العثمانية الأخرى، إلا أن ذلك لا يعني انفصالها على الدولة العثمانية بشكل كلي، ولعلّ ما يثبت هذا الأمر الإشارة المهمة التي أوردها الغيغائي في رحلته، إذ أكد في سياق حديثه عن العلاقات العثمانية المصرية استمرار دفع مصر للجزية للباب العالي والتي كانت تقدر حسبه بـــ 100 ألف كيس (الكيس 24ريال أو 25 ريالا)، كما يشير الغيغائي كذلك أن السلطان العثماني قد أنقص من خراج مصر ما يقارب عشرون ألف كيس، وهذا بعدما قام إبنه العباس بإهدائه إحدى الحمامات فأضحت بذلك قيمة الخراج تقدر ب 80ألف كيس يقول الغيغائي عن ذلك:" وأما خراج أولاده اليوم الذي يعطونه للسلطان فاعلم أنه كان أولا إلى زمان العباس 100ألف كيس، والكيس عندهم 24 ريالا وفيما مضى كان 25 ريالا، ولما توفي ابراهيم باشا رحمه الله وترك حماما كان يصنع له من البدائع المحاكمة ... قدم العباس إلى باشا وأهداه للسلطان من جملة ما

[1] الغيغائي ، المصدر السابق، ص ص 132، 133.

[2] الحيوني ، المصدر السابق ، ص 57.

[3] وليام لين، المصدر السابق، ص 116.

أهدى له، ففرح به غاية وأكرمه غاية الإكرام، ثم سأله أن ينقص من هذا الخراج المذكور وشكى إليه ضعف الناس، فأزال عنه عشرين ألف كيس إلى اليوم وهي التي يعطونها دراهم "[1].

هذا عن العلاقات المصرية العثمانية وأمّا بخصوص العلاقات التي جمعت مصر مع الدولة الأوروبية فالملاحظ أن كتابات الرحالة لا تسعفنا بالشيء الكثير عنها، فهي إذا قدمت شيئا فإنها تقدم إشارات مقتضبة لا تكفي لإعطاء صورة شاملة، وعلى العموم يمكن القول أن هذه العلاقات كانت في البداية علاقات حسنة، وهذا يرجع حسب ما أشار إليه الغيغائي إلى المكانة التي بلغتها مصر في عهد محمد علي، فنتيجة للانتصارات التي حققها محمد علي جراء سياسته التوسعية اكتسبت مصر حضور قوي ومكانة دولية كبيرة أهلتها لإقامة علاقات سياسية واقتصادية مع الدول الأوروبية، وهذا ما يوضحه قول الغيغائي:"وبغلبة الجنس الركريكي (الكريكي) وطرد الوهبي الدرعي حصل لمحمد علي شأن عظيم عند الأجناس الرومية فكانوا يهادونه ويهابونه خوفا من سطوته ..." [2].

الوجود الأجنبي بمصر :

لا شك أنّ المتأمل في كتابات الرحالة المغاربة حول مصر يلاحظ أنهم لطالما قدموا صورة إيجابية عن هذا البلد الذي ظل يشكل على الدوام محل إعجاب وإشادة لديهم، لكن هذه الصورة الجذابة التي أخذها مصر في كتابات المغاربة سرعان ما اعترتها القتامة، وذلك ابتداء من القرن التاسع عشر، والواقع أن هذه الصورة السلبية التي أضحت عليها مصر في هذا القرن لا تعود فقط إلى انعدام الأمن الذي ميز بعض فتراتها ولا إلى ظاهرة اعتداءات العربان التي استفحلت على وفود الحجاج، بل إن العامل الأساسي الذي أدى إلى رسم صورة قاتمة عن مصر هو ظاهرة التسلط الأجنبي وكثرة أعداد الأوروبيين بهذا القطر وامتزاجهم بالسكان على نحو غير معهود، مما يشير إلى التحولات التي بدأت تمس المجتمع المشرقي في القرن التاسع عشر وما آلت إليه الأوضاع في ظل تراجع المسلمين و تفوق أوروبا[3].

لقد أجمع الرحالة المغاربة على استنكار الوضعية التي آلت إليها البلدان المشرقية عامة ومصر على وجه الخصوص، فقد استوقفتهم ظاهرة التغلغل الأوروبي بمصر مقابل تراجع المسلمين وقد عبروا عن هذا الوضع تارة بغلبة النصارى و تارة أخرى بغربة الإسلام[4].

---

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 134.

[2] نفسه، ص 130.

[3] أحمد مكاوي، **صورة المشرق من خلال الرحلات الحجازية القرن التاسع عشر نموذجا**، ضمن أبحاث ندوتي المغرب _ المشرق، العلاقات والصورة جامعة القاضي عياض ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال،، 1999م، ص 286.

[4] أحمد المكاوي، "الرحلة الحجازية مصدر لرصد بعض المواقف من أوروبا ومدنيتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين"، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية"، ع 6، 2001، ص 11.

يعتبر الرحالة أحمد بن طوير الجنة في طليعة الرحالة الذين تنبهوا لهذه الظاهرة حيث ترسخت لديه بأن الغلبة أضحت للأوروبيين، وهذا نتيجة لما لاحظه فقد أكد على أن سيطرة النصارى قد امتدت إلى كافة المرافق المهمة (الملاحة ، التجارة)، لكن الذي أثار نقمة ابن طوير أكثر هو تأثر سكان المدن الساحلية بعادات وتقاليد الجاليات الأوروبية وحصول التمازج بينهم الشيء الذي أدى في نظره إلى انصياع المصريين وخضوعهم لهم وكذا تقليدهم في العادات و الهندام حتى أن الوافد على مصر يصعب عليه التمييز بين السكان الأصليين و النصارى الأجانب[1].

لقد أوضح ابن طوير الجنة مدى خطورة الوجود الأجنبي في مصر، فقد أكد في مواضع كثيرة من رحلته على مدى تراجع المسلمين وعلو شأن النصارى في القرن التاسع عشر حيث كتب قائلا :"...إن لله وإن إليه راجعون على ضعف الإسلام بمصر والإسكندرية وطرابلس، إن الأمر بيد النصارى لا بيد المسلمين ..."[2].

و لم يكتف ابن طوير الجنة بالتنديد بهذه الظاهرة فحسب فاللبرهنة على الوضع الذي آلت مصر في ظل هيمنة النصارى عقد مقارنة بين وضعية المغرب والمشرق بشأن العلاقة مع الأوروبيين حيث قال في هذا الصدد: " والأمر مختلف في بلاد المغرب نصر الله سلطانه وأصلح به العباد والبلاد، إذ ليس للنصارى ولا لليهود فيه شأن، بل هم فيه تحت الأقدام وتحت الذمة، فلا تكاد ترى في المغرب نصرانيا ولا يهوديا إلا ميزته عن مسلم ... بخلاف مصر والإسكندرية وبنغازي وطرابلس لايُميز فيهم بين المسلم والنصراني واليهودي، حتى أن المسلم والنصراني إذا تشاتما وتخاصما تكون الحمية والمعونة للنصراني على المسلم، كما حدثنا بذلك الثقاة من أهل الاسكندرية وغيرها من أهل تلك المدائن العظام، بخلاف المغرب حتى أن الكفار في مراكش وفاس ومكناس وجميع مدائن الغرب جهتهم التي فيها دورهم معروفة لا يتجاوزونها إلا لحاجة يقضونها من غير جهتهم، ثم يرجعون إلى الجهة التي فيها دورهم وما ذلك إلا لعلو الإسلام في الغرب والإسلام يعلوا ولا يعلو عليه "[3].

و من الواضح أنّ ابن طوير الجنة قد اعتبر المغرب نموذجا لحصانة الإسلام فقد أثنى عليه مطولا وقد أبدى تحسره على حالة المسلمين في المشرق الذي أضحى فيه النفوذ للنصارى وهذا يوحي في نظره بضعف الإسلام بهذه الأقطار، والجدير بالملاحظة أن هذه المقارنة والمفاضلة بين المشرق والمغرب أضحت عاملا مشتركا في كثير من الرحلات الحجازية اللاحقة بعد تزايد التغلغل الأوروبي في مصر، ففي ذات السياق انفعل الغيغائي أيضا مع هذه الظاهرة التي استوقفته هو الآخر، إذ أفاض في الحديث عن خطورة التواجد الأوروبي بمصر لا

[1] ابن طوير الجنة، **رحلة المنى** ...، المصدر السابق، ص 42.

[2] نفسه، ص 42.

[3] نفسه ، ص ص 43، 44.

سيما وأنه اتخذ شكل التحدي والسيطرة، وقد استنكر على أهل مصر خدمتهم للنصارى وخضوعهم لهم وهذا ما يوضحه بقوله:" ومن دناءة هذا القطر المصري خدمتهم للنصارى ... وكذلك يخدمون لهم الدواب ويقفون على الأبواب يقضون الحوائج ويستخرون لهم كالعبيد، والنصارى بهذا القطر كلام عالي وشأن كبير "[1]، و زيادة على ذلك يدق الغيغائي ناقوس الخطر ففي استعراضه لحادثة قتل المسلمين لبعض النصارى في جدة علق بنوع من الإحباط على ما آل إليه وضع المسلمين أمام النفوذ الأوروبي المتزايد" وحاصل الأمر وغايته ونهايته أن النصارى لعن الله دينهم وحزبهم تقوو على المسلمين وظاهروا عليهم .... وعلت كلمة الكفر بالثغور وذلت كلمة الإسلام في كل الأمور، ... ووقع الهول والفتنة وخمدت الفكرة والفطنة... ، وبهذا سلط الله على قلوبنا خوف أعدائنا... فاخترنا التلذذ بالغالي وترك الجهاد "[2].

لاشك أنّ الغيغائي رأى في مصر نموذجا للتخاذل والانحطاط ومرد ذلك حسبه هو خضوع المصريين للسيطرة الأوروبية، ففي هذا الشأن أسهب في وصف مظاهر النفوذ الأوروبي فمما ذكره أن الجاليات الأجنبية كانت تحضى بمكانة كبيرة وقد لا حظ سيطرتها واحتكارها لكافة الوظائف السياسية والإدارية، يقول عن ذلك:" وللنصارى بهذا القطر كلام عال وشأن كبير ، وإنك لا ترى مرسى ولا ... ولا بيت حكم من الأحكام ولا موضع وزن ولا كرسي ديوان ولا قشلة عسكر ولا مخزنة مؤن له ولا محل قبض أو عطاء، ولا موضعا ترده الأخبار سرية أو جهرية، إلا وعليها النصارى وهم الآخذون والمعطون، وهم الأمناء والكتاب وهم على كل سر خفي أو جلي حتى أمور المملكة وهم المدبرون لها والمتصرفون فيها كتابة و قراءة، وهم الصناع والمعلمون وهم القائمون بالسلك الآتي بالأخبار من كل الأقطار ..." [3].

إنّ الهيمنة الأوروبية التي تحدث عنها الغيغائي في مصر لم تكن حسبه تقتصر على البلاد المصرية فحسب، بل إن ما لاحظه من مظاهر التفوق الأوروبي جعله يعتبرها ظاهرة عامة مست كافة الأقطار المشرقية، لكنه استثنى في ذلك الحرمين الشريفين مكة والمدينة المنورة، وأضاف إليها المغرب بعد قارن بينها وبين المشرق فيذكر أنه ظل بمعزل عن التواجد الأوروبي الكثيف، وبهذا الخصوص يقول " وأما عز الإسلام ما رأينا منه إلا بالحرمين الشريفين أعزهما الله إذ هما له الحمد لم يدخلهما هذا العدو الكافر ملكا ولا تجارة، وما سواهما من أرض المشارق موجود به وكذلك بلدنا المغرب الجواني فإنه منور من نور النبوي ومصون بالسر الإلهي، لا

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 83.

[2] نفسه ، ص ص 156، 157.

[3] نفسه، ص 83.

بقوة ولا بعدة، بل ببركة الأولياء المؤخوذين به إلى غابر الدهر، وما سوى ذلك قد عمه الروم سيما المشارق كلها وبلاد الترك والعجم نسأل الله أن يبدل ذل الإسلام عزا "[1].

ولا يختلف موقف الحيوني مع ما ذهب إليه ابن طوير الجنة والغيغائي، بل يتطابق معهم إلى حد كبير، حيث لاحظ هو الآخر عند نزوله بالإسكندرية ما أصبحت عليه الأحوال في مصر ولا سيما فيما يتعلّق بمدى هيمنة النصارى على المجتمع المصري وخضوع الأهالي لهم، ولعلّ ذلك ما جعله يوجه انتقاداته واستنكاره وهو ما يوضحه قوله:" وحاصله بر المشرق لولا رسول الله صلَ الله عليه وسلم ليس فيه ما يرى أحد ، يحبون النصارى ويخافون منهم خوف الإبل من العصا ، فلا يغير فيه النصراني أبدا" [2]، وفي إشارة أخرى لمدى النفوذ الذي استأثر به النصارى يذكر الحيوني أنهم سيطروا على مختلف الوظائف المهمة في مصر وخاصة على الديوان[3]، كما يشير كذلك إلى المكانة الكبيرة التي أصبحوا يحتلونها وذلك في قوله:"والحاصل فاضت النصارى في المشرق والمغرب وطلعت دولتهم ونارت أيامهم، والله يعصمنا و أياكم من البلاء فلا ترى مسلما في المشرق يقدر على أن يرد الكلام للنصراني أبدا " [4].

والواقع أن الحيوني في خضّم حديثه عن هيمنة النصارى لم يكتف بإبداء استنكاره فحسب بل عكف أيضا على رصد المخاطر التي ترتبت عن ذلك، إذ ذكر أن هذه الممارسات الغير معهودة تشكل خطرا على القيم والعادات الإسلامية، كما تنبأ في الوقت ذاته بخراب المشرق، ولتأكيد موقفه وتبريره قدَم الفقيه الحيوني العديد من الأمثلة التي تبرز الخطر الذي أضحى يهدد الإسلام في مصر، ولعلّ من أهم ما أشار إليه هو توافق الباشا مع النصارى لتطبيق النظم الأوروبية فعن ذلك يقول الحيوني:" وأعظم من ذلك أن الباشا توافق مع النصارى على أن يجعلوا دينا واحدا وحكما واحدا بحيث أن يأخذوا جميع الكتب المشهورة من كل مذهب ويأتون بكتب النصارى، وينظرون في كتب النصارى أي علماؤهم وعلماء المسلمين، فما توافق عليه الجنسان من الأقوال وما بطلوه يبطل، ثم يجعلون كتابا واحد ملفقا من جميع المذاهب ومن دين النصارى ويضربونه في المطبعة، وبهذا الكتاب يكون الحكم، وبه تمضي الفتوى وهذا كله بأمر السلطان، وإذا وقع هذا فذلك خراب الدين وخلاء أرض المشرق"[5] .

يبدو واضحا أن الرحالة المغاربة من خلال ما أوردوه من انطباعات سلبية قد ترسخت لديهم فكرة غلبة الأوروبيين وتراجع بلاد المسلمين – المشرق- وهذا ما يفسر المقارنة التي عقدوها بين موطنهم المغرب

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 108.
[2] الحيوني، المصدر السابق، ص46.
[3] نفسه، ص 109.
[4] نفسه، ص73.
[5] نفسه، ص 111.

ومصر إذ أثنوا مطولا على بلدهم الذي كان في نظرهم نموذجا لحصانة الإسلام، فهم لم يألفوا مثل هذه المظاهر به وهذا بخلاف المشرق الذي أصبح مدنسا بالوجود الأوروبي .

إنّ اهتمام الرحالة المغاربة بوصف ما آلت إليه أوضاع المسلمين بمصر في القرن التاسع عشر نابع من كونهم على دراية تامة بالأخطار التي أضحت تحدق بهذا البلد ودليل ذلك أنهم لم يكتفوا باستنكار ما شاهدوه بل حاولوا تفسير وتعليل أسباب غلبة الأوروبيين وهيمنتهم على المجتمع المصري، فابن طوير الجنة مثلا أرجع عُلو شأن النصارى بهذا الإقليم إلى سبب هام هو اتساع المد الاستعماري لاسيما بعد احتلال فرنسا للجزائر، ففي نظره أن وقوع الجزائر تحت وطأة الاحتلال قد أضر أيضا بالأقاليم العربية الأخرى حيث أمد الأوروبيين بالحافز للتطاول على بلاد الإسلام[1]، يقول بهذا الخصوص:" وقالو لنا بعض أهل الاسكندرية وطرابلس أن سبب علو النصارى في هذه الأقاليم المتقدمة أخذ النصارى للجزائر "[2].

وأمَا الفقيه الحيوني فذهب إلى أبعد من ذلك، إذ أكَد على أن سبب خضوع المصريين للأوروبيين هو العلاقة بين الرعية والحكام، وأضاف بأن السياسة الضريبية التي انتهجها الحكام في مصر والتي أثقلت كاهل الأهالي هي التي كانت السبب في لجوء المصريين واضطرارهم إلى العمل عند الأوروبيين وتأثرهم بعاداتهم وهذا بخلاف الولاة في المغرب [3] .

وبصفة عامة يمكن القول أن الانطباعات التي ارتسمت لدى الرحالة حول مصر قد أظهرت جليا طبيعة التحولات التي بدأت تطال المجتمع المصري في هذه الحقبة، فشيوع ظاهرة التسلط الأجنبي وخضوع المصريين وانصياعهم للنصارى إذا دَل على شيء فإنه يدل وينبأ بالخطر الكبير الذي كان يتهدد العالم الإسلامي في ظل انتشار الحركة الاستعمارية التي سوف تشهد أوج قوتها في القرن التاسع عشر.

[1] ابن طوير الجنة ، **رحلة المنى ...**، ج1، المصدر السابق، ص ص 42، 43.

[2] نفسه، ص 43.

[3] الحيوني، المصدر السابق، ص ص 139، 140.

المبحث الثاني: مظاهر الحياة الاقتصادية في مصر خلال القريين الثامن عشر والتاسع عشر .

1. الزراعة :

لقد كانت الزراعة في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تعتبر الركيزة التي تقوم عليها الحياة الاقتصادية في تلك الفترة، فهي منذ القدم تعد من الأنشطة الرئيسية التي زاولها المصريون، وقد لفت النشاط الزراعي في مصر خلال العصر العثماني أنظار الكثير من الرحالة المغاربة و الأوروبيين فتركوا من خلال رحلاتهم معلومات هامة في هذا الجانب رغم قلتها، حيث تحدثوا عن المنتوجات الزراعية التي عرفتها مصر و الطرق وأساليب المستخدمة في عملية الري فضلا عن حديثهم كذلك الثروة الحيوانية .

1.1 المنتجات الزراعية :

اتفق الرحالة المغاربة والأوروبيين على الإشارة إلى أن مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عرفت ازدهارا في النشاط الزراعي، ومما ساعد على ذلك نوعية تربتها التي تمتاز بالخصوبة، وطبقا لما جاء في نصوص الرحلات كان لوجود نهر النيل الأثر الكبير في انتعاش الزراعة، فهو الذي يمد مصر بالطمي ويخصب أراضيها و يساعد على ريها[1].

وقد أشار العديد من الرحالة إلى دوره الكبير و أهميته فقال عنه الورتلاني:" وأثار بركته ظاهرة للعيان في مائه وتربته و قراه، بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثرها خصبا"[2]، كما أثنى عليه كذلك الرحالة روبرت إينسلي بقوله:"إن النيل ليس له أهمية تذكر مقارنة بتأثيره على الزراعة، فما هي إلا صحراء قاحلة تجعلها مياه النيل واحدة من أكثر المناطق إنتاجا، ويحدث ذلك نتيجة فيضانه السنوي الذي يرقبه السكان بقلق بوصفه مسببا للوفرة أو الندرة "[3].

من الواضح أنّ الزراعة في مصر ارتبطت بشكل وثيق بفيضان نهر النيل، فعندما يقل منسوب فيضانه تتدهور الزراعة وتتراجع، وأما إذا ارتفع منسوب فيضانه السنوي فكان يعم الرخاء و تكثر المنتوجات الزراعية، وقد نقل لنا الغيغائي الذي تزامن دخوله إلى مصر مع فيضان النيل ما يثبت أهميته في المجال الزراعي إذ يقول عنه: " دخلنا مصر مع العصر آمنين ... ووجدنا النيل فاض فيضانا عظيما ...،واخضرت الأرض

---

[1] moncorps de savigny, **Journal D'un Voyage En Orient 1869- 1870 –Egypte , Syrie , Constantinople,ullustré par riou et alph, de neuville** ,libraries hachette, Paris, 1873, p 48 ,Maillet, **Description De L'egypte Contenant Plusieurs Remarques Curieuses Sur La Géographie Ancienne Et Moderne De Se Pais**…,t 2, paris. p 89,90

[2] الورتلاني، المصدر السابق، ج2، ص 293.

[3] روبرت إينسلي، **مشاهدات في مصر في القرن التاسع عشر**، تر: أحمد سالم سالم، ط1، مركزالتاريخ العربي للنشر والتوزيع، اسطنبول، 2019م، ص 26.

بالزروع ورونقت الأشجار، وأينعت الأغصان والفروع، ومُلئت الخلجان والطرق مياهها، وانشرحت القلوب شكرا...، وقد علت بالحمد الله الأصوات، ورخصت بفضل الله الأقوات وذهبت المحن " [1].

إنّ المتفحص لنصوص الرحالة المغاربة والأوروبيين يتبين له الانتاج الزراعي في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان متنوعا، إذ اشتهرت مصر بالعديد من المحاصيل الزراعية منها ما هو مرتبط بالفلاحة الموسمية كالخضر والفواكه، ومنها ما هو مرتبط بزراعة الحبوب والأشجار، وعلى العموم يمكن تصنيف أهم المنتجات الزراعية التي عرفتها مصر خلال هذه الفترة على الشكل التالي:

زراعة الحبوب :

اهتم المصريون بزراعة مختلف أنواع الحبوب، وتأتي عنايتهم بهذا النوع من المحاصيل نظرا لكونها تعد من الزراعات المعيشية، أضف إلى ذلك أن التربة الخصبة التي تجود بها مصر ساعدت بشكل كبير في انتشار هذه الزراعة، فكان القمح يزرع في مختلف أنحاء مصر ولاسيما في مدينة طيبة و جرجا و أسيوط ، والمنيا و القاهرة، والمنوفية، والمنصورة[2]، وأما الشعير الذي كان يستخدم في تغذية الخيول و قد اتسعت زراعته بشكل كبير حيث شغلت مساحته حسب ما يذكر الرحالة سونيني أجزاء كبيرة من أنحاء مصر[3]، و قد كان موجها أيضا للتصدير فقد كان يرسل إلى مكة المكرمة وإلى الأستانة في القوافل وعلى متن السفن[4]، ومما يدل على ذلك أن الغيغائي قد أشار إلى هذا الأمر عندما كان مارا بمدينة قنا، إذ يذكر أنه:" وجد زروعا كثيرة تُجمع، و ناس كثيرون تحملها وتدفع جمالا وسفائن من أعلى النيل وأسفل فسأل عنها فقيل له زرع السلطان عبد المجيد يدفعه للحرمين الشريفين ... بين قمح وشعير "[5].

ومن المنتجات الزراعية التي انتشرت بمصر أيضا الأرز، وحسب ما أشار إليه سافاري كان هذا المنتوج يعتبر من الأغذية الأساسية لسكان مصر[6]، وقد اشتهرت مدن أكثر من غيرها في زراعته، وذلك نظرا لتوفرها على الشروط المناسبة و خاصة المناخ و المياه، ومن أهم هذه المدن مدينة رشيد ومدينة دمياط[7] ، وفضلا عن

---

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 201.

[2] جيرار، **الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر** ، ضمن كتاب وصف مصر ، تر: زهير شايب، ج1، مصر ، 1978، ص 43.

[3] Sonnini, op,cit, t2, p 260, 261

[4] Maillet , op,cit, p95

[5] الغيغائي، المصدر السابق، ص 144.

[6] Savary, op, cit , t 2, p 194

[7] نيبور، المصدر السابق، ص 61. أنظر أيضا:

Olivier**, Voyage Dans L'empire Othoman , l'Egypte Et La Perse , Fait Par Ordre Du Gouvernment , pendant les six premiéres années république ,** t3, Chez H AGASSE , paris, 1801 , p 91- 94

زراعة القمح والشعير والأرز تشير نصوص الرحالة إلى انتشار أنواع أخرى من الحبوب في مصر، ومنها الذرة التي كانت تنموا على ضفاف نهر النيل، وفي الأماكن التي تكون قريبة من قنوات الري والسقي[1].

كما اشتهرت كذلك مصر بزراعة الفول والعدس[2]، والجدير بالذكر أن الفلاحون المصريون اعتمدوا في تخزين محاصيلهم من الحبوب على المخازن التي أعدت لذلك، وقد أشار الحيوني إلى هذا الأمر في قوله:" ووجدناهم يدرسون النوادر من القمح كالبروج المشيدة ... عند الفلاحين من القمح والفول "[3].

زراعة الخضر والفواكه :

تفيدنا الإشارات الواردة في كتب الرحلات أن مصر اشتهرت بزراعة أنواع مختلفة من الخضر و الفواكه، وقد أثار هذا التنوع في الإنتاج انتباه العديد من الرحالة، فالغيغائي عبر وأشاد بالمستوى الذي بلغته مصر في إنتاج هذه المحاصيل فقال :"فيها من الخيرات ما لا يحصى ومن الخصب والفواكه والخضر و الزروع شيئا لا يستقصى"[4].

ومن أبرز أنواع الخضر التي احتلت زراعتها أهمية كبيرة لدى المصريين وورد ذكرها في كتب الرحلات البصل الذي انتشرت زراعته في مدينة القاهرة والبحيرة[5]، و الملوخية و السلجم (اللفت) الذي ذكر السبعي أنه يتواجد بكثرة في مدينة السويس و الاسكندرية[6]، بالإضافة إلى الكوسة والقلقاس الذي خصصت له مزارع كبيرة في دمياط ومدينة رشيد، ومن أنواع الخضر التي كانت موجودة أيضا بمصر وأشار إليها علماء الحملة الفرنسية والرحالة الأوروبيين البامية و الخيار و الخس و الجلبان و الفاصولياء والكرنب والباذنجان غيرها من المحاصيل الأخرى[7]، و أما إذا انتقلنا للحديث عن زراعة الفواكه في مصر فقد تنوعت هي الأخرى، إذ لاحظ الرحالة وجود أصناف مختلفة، ومن أهم الأنواع التي عرفت انتشارا نجد التمور (البلح)[8]، حيث كثرت زراعتها في الصعيد والدلتا و في طيبة وفي مدينة رشيد، وقد أشار سنونيني إلى أن هذا المنتوج كان واسع

---

[1] جيرار، المصدر السابق، ص 47. أنظر أيضا:

Maillet, op,cit,p92

[2] Piere Nicols Hamont**, L'egypte Sous Méhémet _ Ali** , T1, Léautey Et Lecointe, Paris, 1845, P 154.

[3] الحيوني، المصدر السابق، ص 103.

[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص 143.

[5] ذهني، **مصر في كتابات الرحالة** ...، المرجع السابق، ص 165.

[6] السبعي أبو العباس أحمد بن محمد، **الرحلة الحجازية**، تح: محمد عيناف و يوسف أمال، المملكة المغربية ، 2019م ، ص 77.

[7] جيرار، المصدر السابق، ص ص 75– 77. أنظر أيضا:

Olivier, op,cit, t3, p 33, 34 . maillet, op,cit, p 102.

[8] Maillet, op,cit , p 106

الاستهلاك عند المصريين بل وكانت أوراق أشجار النخيل تستخدم كذلك في صناعة الحبال و أشرعة القوارب بالإضافة إلى السلال[1]، و فضلا عن التمور اشتهرت مصر بوجود فاكهة الرمان، وحسب ما ذكره الغيغائي كانت هذه الفاكهة لها أنواع إذ يقول عنها: "والرمان على ثلاث أصناف: صنف مثل رماننا هذا وصنف منقوط بنقط حمراء مثل الحناء يعجب منه الناظر، وصنف ثالث ترى رمانة مصبوغة بالحمرة إلى السواد ...إلا أن هذا الرمان كثر فيه العظم " [2].

وزيادة على ذلك يُعدّ البطيخ والملوخية وكذلك الخيار من أكثر أنواع الفواكه تواجدا في مصر، إذ كان إنتاجه وفيرا [3]، ونجد في رحلة الغيغائي ما يشير إلى ذلك حيث يقول: "وبمصر من الملوخية الكثيرة ماليس بغيرها، وبها من البطيخ الكثير و الدلاع والقثاء الكبير والصغير ما لا حد له "[4]، وأما عن الأماكن التي تتركز فيها زراعته فقد أشار الرحالة سونيني إلى منطقة الصعيد، وهذا نظرا لتوفرها عل المناخ الحار الملائم لنموه[5].

ومن أنواع الفواكه التي لفتت انتباه الرحالة وأكدوا على توفرها في مصر الخوخ والمشمش والكمثري والتفاح والتين، والعنب والزيتون[6]، كما وجدت كذلك أشجار الليمون والبرتقال والتي اشتهرت بها مدينة رشيد [7]، وفضلا عن ذلك عرفت مصر أيضا زراعة أشجار التوت[8]، وحسب ما جاء في بعض المصادر توسعت زراعة أشجار التوت بشكل كبير في عصر محمد علي حيث بدأ استخدامه لاستخراج دودة القز وذلك من أجل إنتاج الحرير[9].

---

[1] ذهني، **مصر في كتابات الرحالة**... ، المرجع السابق، ص 166. أنظر أيضا:

Sonnini, op,cit, p 268 , 269, 270

[2] الغيغائي ، المصدر السابق، ص 128

[3] Savary, op, cit , t 2, p 195 . maillet , op,cit, p 92- 93

[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص 128.

[5] Sonnini, op,cit, p 101, 102

[6] Maillet , op,cit, p 105

[7] Volney, op,cit, p 9.

[8] Olivier, op,cit, p 33

[9] كلود بك، المصدر السابق، ص 566. أنظر أيضا :

Filix Mengin , **Histoire Sommaire De L'égypte Sous Le Gevernement De Mohammed-Aly,** Libraire De Firmin Didot Fréres , Paris, p 185- 189**.**

Paul Mouriez , **Histoire De Méhémet – Ali Vice Roi D'égypte**, T 03, Louis Shappe Editeur, Paris, 1858 , p 47.

وأما بالنسبة لأشجار الزينون فإن الرحالة سنونيني يذكر في رحلته أنها لم تكن منتشرة بكثرة في مصر[1]، غير أن القنصل الفرنسي maillet يشير إلى عكس ذلك فقد لاحظ أن أشجار الزيتون كانت تنمو بكثرة في هذا البلد وتتميز ثمارها بحجمها الكبير[2].

هذا ولم يكن الإنتاج الزراعي في مصر يقتصر على أصناف الحبوب والخضر والفواكه، بل وجدت محاصيل زراعية أخرى كثيرة كان لها أهمية كبيرة في انعاش الاقتصاد المصري، ومن هذه المنتجات نذكر:

قصب السكر:

انتشرت زراعته بشكل واسع في مصر، وهذا بفضل جهود محمد علي الذي خصص مساحات كبيرة من الأراضي لزراعته، ومما ساعد على تطور هذه الزراعة هو توفر المناخ الملائم و التربة الخصبة، و من أهم المناطق التي اشتهرت بزارعته مدينة جرجا وأسيوط[3]، ويذكر الرحالة السبعي أنه كان يزرع كذلك في المناطق الواقعة بين مدينة السويس و الاسكندرية، إذ شاهد أثناء ركوبه في القطار الذي أقله من السويس إلى الاسكندرية حقولا كثيرة لقصب السكر مجاورة لقناة النيل يقول عن ذلك: "سار بنا المركب مسامتا للوادي الآتي من النيل بأحواز الترعة ... وفي أحواز ذلك قصب السكر"[4].

البرسيم :

اهتم المصريون بزراعته لأنه كان يُعدّ العشب المفضل لدى الحيوانات، وتتركز أهم مناطق إنتاجه في الصعيد وجرجا وأسيوط و الجيزة والفيوم[5]، بالإضافة إلى مدينة أمبابة، ومما يؤكد ذلك أن الرحالة محمد بن عبد السلام الناصري قد ذكر أنه عند دخوله إلى هذه المدينة لاحظ كثرة الحقول المخصصة لزراعته حيث يقول:"وجدنا الأرياف في غاية الخصب و الرخاء، وشبعت الدواب من البرسيم"[6].

---

[1] Sonnini, op,cit, p 266

[2] Maillet, op,cit, p 106

[3] جيرار، المصدر السابق، ص 94. أنظر أيضا :

Hamont pierre nicolas, **L'egypte Sous Méhémet _ Ali** , T1, Léautey Et Lecointe, Paris, 1845, p 177

[4] السبعي، المصدر السابق، ص ص 75، 76.

[5] جيرار، المصدر السابق، ص ص 70، 71. أنظر أيضا: Savary, op, cit , t2, 195

[6] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى** ، المصدر السابق، ص 195.

القطن :

كان إنتاجه يأتي بوفرة كبيرة في عهد محمد علي الذي يرجع له الفضل في إدخال هذا النوع من الزراعات إلى مصر[1]، ووفقا لما أورده نيبور كانت زراعته تتركز في مصر السفلى[2]، ومن أهم المناطق التي اشتهرت بإنتاجه مدينة طيبة والمنصورة[3]، وقد كان الجزء الأكبر من هذا المنتوج مخصصا للتصدير حيث عادة ما كان يتم إرساله إلى مدينة مرسيليا وليفورن[4].

الزعفران:

أشار نيبور أن مصر كانت تنتج كميات كبيرة منه، وقد تعددت أصنافه إذ كان يوجد أكثر من عشر أصناف منها الزعفران الصعيدي والبحري والقبلاوي والبلدي الذي يعتبر أجودها، يبدأ موسم حصاده في شهر أيار/ ماي، ويوجه أغلب الإنتاج إلى التصدير حيث يتم إرساله إلى البندقية ومرسيليا، كما يصدر أيضا إلى أزمير وجدة و سوريا[5] .

الكتان:

أكد سنونيني انتشار زراعته في مصر منذ القدم[6]، وقد ذكر الرحالة أوليفيه أن مصر تتوفر على المناخ الملائم لزراعته، حيث كان يزرع بكثرة في مدينة رشيد [7].

يبدو مما تقدم ذكره أن الزراعة في مصر عرفت تطورا كبيرا لاسيما في القرن التاسع عشر، فبعد أن كانت تقتصر على إنتاج ما يلزم لغذاء السكان أصبحت في القرن التاسع عشر تقوم على إنتاج المحاصيل من أجل التصدير وتقوية الاقتصاد، وفي الواقع إن هذا التطور الذي شهدته الزراعة لم يكن ليكون لولا السياسة الإصلاحية التي اتبعها محمد علي، حيث أولى أهمية كبيرة لهذا القطاع، وذلك من خلال اهتمامه بتوسيع المزروعات وخاصة منها ذات الأهمية التجارية حيث جلب زراعات جديدة من أوروبا كالقطن والكتان وقصب السكر بالإضافة إلى نبات النيلة الذي كان يستخدم لصناعة الصباغة[8].

---

[1] moncorps de savigny, op, cit , p 48.
Mengin, op, cit, p 4, 5

[2] نيبور، المصدر السابق، ص 113.

[3] جيرار، المصدر السابق، ، ص ص 86- 89.

[4] نيبور، المصدر السابق، ص 113.

[5] نفسه، ص 113.

[6] Sonnini, op,cit, p261

[7] Olivier, op, cit , p 91

[8] Mouriez , op, cit ,p 43,44

كما عمد كذلك إلى معالجة مسألة ملكية الأراضي حيث ألغى نظام الالتزام[1] وذلك بضم جميع الأراضي الزراعية للدولة ورفع أيدي الملتزمين عن التصرف في فيها[2].

وقد أشار الغيغائي إلى هذا الأمر في رحلته، إذ ذكر أن محمد علي بعد إلغائه لنظام الالتزام قام بمسح شامل لكل الأراضي وتقييدها في دفاتر تضم مساحة جل الأراضي في القطر المصري وحدودها، وهو مايوضحه بقوله :" إذ جميع الأراضي عنده مكتوبة، كل بلد ومقدار ما فيه من أحبال التراب، وكل واحد من أهل البلد مثلا مكتوب عليه عدة ما عنده من الأحبال ... وكل حبل بقيمته من جودة و رداءة ...، وكل بلد بشيخها يعرف ذلك، والديوان عند الباشا فمتى حرثوا أو درسوا يدفعون قيمة الأحبال للشيخ، والشيخ يدفع للحاكم والحاكم يبعث للباشا" [3] .

1 . 2 نظام الري و السقي :

كانت عملية ري الأراضي الزراعية في مصر تعتمد بشكل أساسي على نهر النيل، فهو منذ القدم يعتبر المصدر الرئيسي لخصوبة التربة فيها، وقد عمد السكان المصريون على اتباع طرق متعددة للاستفادة من فيضانه السنوي.

تمدنا كتب الرحلات بمعلومات قيمة عن نظام الري في مصر، ويبدو من خلال ما جاء فيها أن أنماط السقي قد تنوعت وتعددت حسب الطبيعة الجغرافية لكل منطقة، فنجد بعض المناطق يرتكز فيها نظام الري على الأحواض والسواقي والقنوات، وهذا النظام تؤكد الكثير من المصادر أنه كان أكثر شيوعا واستخداما في مصر، لا سيما وأنه كان يساعد في إيصال المياه إلى المناطق البعيدة عن نهر النيل، وفي هذا الشأن يفيدنا نيبور بأن مدينة دمياط اشتهرت بوجود هذا النظام فيها حيث احتوت على قنوات كثيرة كانت مخصصة لري حقول الأرز الموجود هناك [4].

وفضلا عن نظام القنوات والسواقي الذي اشتهر استخدامه في مصر تفيدنا كتب الرحلات بأن المصريين اعتمدوا في ري محاصيلهم الزراعية كذلك على النواعير و الشواديف، وفي الغالب كان يتم استخدام

---

[1] نظام الالتزام: هو تقديم مصادر الدخل الحكومي للمتعهدين مقابل مبالغ مالية مقطوعة بحيث يدفعها المتعهد أي الملتزم مقدما للدولة ، ثم يحصلها مع أضعاف مضاعفة من المجتمع بالاستناد إلى قوات حكومية ، وقد بدأ العمل بهذا النظام في القرن السابع عشر وألغي سنة 1865م. للمزيد أنظر: صابان، المرجع السابق، ص 35.

[2] أسماء جاد الله خصاونة، "إصلاحات محمد علي الاقتصادية في مصر 1805– 1848م"، مجلة المشكاة للعلوم الانسانية والاجتماعية ، مج 7، ع 2، 2020م، ص 127. أنظر أيضا: غربي، المرجع السابق، ص 180.

[3] الحيوني، المصدر السابق، ص 113.

[4] نيبور ، المصدر السابق، ص 61

هذا النوع من الوسائل في المناطق والأراضي التي لا تصلها مياه النيل عند فيضان ، وقد اتسمت هذه الطريقة من الري بأنها بطيئة ومكلفة[1]، وقد لاحظ الغيغائي استخدام هذا النوع من أساليب الري في المناطق الممتدة بين بولاق و مناطق الصعيد، إذ يذكر أنه شاهد " نواعير المياه و شدوفاتها ترمي بالمياه عن يمينها وعن شمالها"[2].

ومما تشير إليه النصوص الرحلية أن نظام الري في مصر عرف تحولا كبيرا في القرن التاسع عشر، فإذا كانت نظم الري التقليدية مثل السواقي و النواعير و الشواديف ظلت سائدة في القرن الثامن عشر فإن شبكة الري في مصر يبدو أنها عرفت تطورا كبيرا في القرن التاسع عشر، إذ أدخلت آلات حديثة حيث أصبح ري المزروعات يتم عن طريق آلات الري التي تدار بالبخار، وقد أكد كثير من الرحالة هذا الأمر، فالحسن الغسال عند مروره بالقاهرة أشار إلى أنه لاحظ وجود هذه الآلات على نهر النيل وقد قال عن ذلك: " ويمر وادي النيل بمحاذاتها وعليه آلة بخارية لرفع الماء وتصفيته وتفرقته على جميع الديار والسقايات"[3]، وحسب ما أفادنا به الغيغائي يبدو أن استخدام هذه الآلات البخارية في عملية ري الأراضي الزراعية لم يكن يعرف انتشارا كبيرا في زمن رحلته، إذ اقتصر استعمالها على كبار الملاك والمزارعين، وقد ذكر الغيغائي أنه شاهد ذلك بمدينة أسيوط: وهو في هذا الشأن يقول: " مررنا في سيرنا على بابورين لجبد الماء من النيل على يسار الطالع ... وهذان البابوران هما للباشا عباس ملكا يجبدان الماء لسقي قصب السكر والخضر والذرة ... وتسمع صياحهما من ثلاث أميال "[4].

وفي الحقيقة إنّ هذا التطور الذي شهده نظام الري في مصر يرجع إلى جهود محمد علي لتطوير الزراعة، إذ أقيمت العديد من المشاريع الكبرى التي ساهمت في إدخال نظام الري الدائم، ومن أهم هذه المشاريع التي أقيمت و أشارت إليها المصادر حفر الترع وإقامة الجسور والقناطر الخيرية، إذ ساهمت هذه المشاريع وخاصة قناة المحمودية في تسهيل عملية توصيل المياه إلى باقي الأراضي الصالحة للزراعة[5]، وهذا ما نجد له إشارة في رحلة الغيغائي إذ نوه بأهمية ترعة المحمودية التي أنشأها محمد علي حيث يقول عنها: " فهذه المحمودية ابتدعها الباشا محمد بن علي في زمن السطان محمود، ولذلك سميت بإسمه، وقسم بها النيل من نحو

---

[1] Mouriez , op,cit,96

[2] الغيغائي، المصدر السابق، ص 139.

[3] الغسال، المصدر السابق، ص71.

[4] الغيغائي، المصدر السابق، 140

[5] عبد الله أفندي، المصدر السابق، ص ص 28، 29. أنظر أيضا: يونان لبيب رزق وآخرون، **تحديث مصر في عصر محمد علي**، تق:: اسماعيل سراج الدين، دط، م.إ ، مصر، 2007م ،ص ص 53، 54.

أنظر أيضا: Mouriez , op,cit,p 90,92

ثلاثة أيام، وقدم بها إلى الاسكندرية في البرية، واليوم تمشي السفن من الإسكندرية في هذه المحمودية إلى النيل الأكبر"[1].

وأمّا عن القناطر الخيرية التي أنشأت على الترع و التي كانت تتحكم في تدفق المياه فقد أشار الغيغائي إلى كثرتها ومنها قنطرة أسيوط التي وصنفها بأنها" " قنطرة عظيمة عند حمل النيل وفيضانه تنفع الناس"[2]، وقد أورد الحيوني كذلك وصفا لهذه القناطر فذكر أن لها أبوابا حديدية يمكن من خلالها حجز المياه وتصريفها حسب الحاجة، وهذا ما يوضحه بقوله: "انتهينا لفم المحمودية فإذا بأبواب مغلقة بسلاسل من حديد، والسلسلة من عود والعود في سارية من حجر، فمتى أرادوا أن يفتحوا ذلك العود، فبدورانه تلتئم السلسلة شيئا فشيئا فيغلق الباب، وهم بابان كما ترى"[3].

وتجدر الإشارة إلى أنّ إقامة هذه المشاريع تطلبت جهودا كبيرة حيث لجأ محمد علي إلى الاستعانة بالفلاحين لبناء الجسور وحفر الترع و إقامة القناطر، وحسب ما تورده بعض المصادر تم الاعتماد على أعمال السخرة في إنشاء هذه المشاريع [4]، وقد أكد الفقيه الحيوني هذا الأمر إذ يذكر أنه وجد "العسكر قد ملؤوا سفنا من الفلاحين قاصدين بهم إزاء المحمودية، إذ أراد الباشا أن يربط بحر النيل بأن يجعل له قناطر على هيئة المحمودية، وجعلوا يقارنون كل اثنين بقيد في أيديهما، بحيث أن يجعلوا لكل واحد إحدى يديه في القيد والآخر يده الثانية كذلك "[5] .

1. 3 الثروة الحيوانية :

تشكل الثروة الحيوانية جزءا من النشاط الزراعي و الاقتصادي، وكغيرها من المناطق اشتهر المصريون بتربية أصناف عديدة من أنواع الحيوانات، وبالرغم من أن كتب الرحلات لم تقدم لنا معلومات وافية في هذا الجانب، إلا أن الإشارات المقتضبة التي ورد ذكرها عند بعض الرحالة تؤكد لنا أن مصر كانت في العهد العثماني تتميز بثروة حيوانية متنوعة.

لقد كانت الخيول والإبل تعد من أهم أصناف الحيوانات التي اعتنى المصريون بتربيتها، وقد تواجدت بكثرة في مصر نظرا لأدوارها المتعددة حيث كانت تستخدم في نقل البضائع، كما كانت من جهة أخرى تعد

[1] الغيغائي، المصدر السابق ، ص 88.

[2] نفسه، ص 141.

[3] الحيوني، المصدر السابق، ص ص 46، 47.

[4] عبد الغفار محمد حسين، **بناء الدولة الحديثة في مصر**، ج1، د.م، مصر، 1980م، ص 155.

[5] الحيوني ، المصدر السابق، ص 104.

الوسيلة الأساسية التي كان يعتمد عليها الحجاج في التنقل إلى الحجاز من أجل أداء مناسك الحج، ووفقا لما يذكره الغيغائي كانت أغلب الخيول والإبل الموجودة بمصر يتم جلبها من بلاد الشام والحجاز[1]، وأمّا عن المناطق التي تنتشر فيها تربية هذا النوع من الدواب فإن علماء الحملة الفرنسية قد أشاروا إلى أن القبائل العربية القاطنة على ضفاف نهر النيل هي التي اختصت بتربية الخيول و الإبل، إذ كانت تزود الأسواق بمختلف أنواع الأحصنة والجمال [2] .

هذا عن الإبل والخيول، وأما بالنسبة للحمير فإن كتب الرحلات توضح لنا أن المصريين اهتموا كذلك بتربيتها إذ كانت تعد وسيلة أساسية للتنقل، وقد كانت تتمتع بالقوة والقدرة على قطع الطرق الطويلة لاسيما عبر الصحراء ، ووفقا لما يورده سنونيني كانت الحمير تعد من بين الوسائل المفضلة التي كان يستخدمها الحجاج في طريقهم إلى مكة المكرمة كما أنها كانت أيضا وسيلة النقل الوحيدة التي كان مسموحا للأجانب استخدامها في مصر[3].

ومن أصناف الحيوانات الأخرى التي وجدت في مصر وتحدث عنها الرحالة أيضا المواشي من أبقار وأغنام وماعز، وقد اهتم المصريون بتربيتها لكونها توفر لهم جزءا من المأكل فضلا عن دورها الكبير في أعمال الزراعة حيث كانت تستخدم في عملية الحرث وسقي المحاصيل[4]، ومما يؤكد وفرة المواشي في مصر ما ذكره "بول ليون"، حيث أشار إلى أن طريق القاهرة مليء بالحقول الخضراء التي ترعى فيها قطعان الأبقار والأغنام [5]، وقد أكد الغيغائى من جهته كثرة انتشار الأبقار في مصر حيث قال: "في هذا الصقع كثير من بقر الجاموس متى دخل واحد منها البيت هربت منه الذباب، وهي من حيوان البر، وتدخل الماء غالبا تمكث فيه أشهرا أو السنة ولا يضرها "[6]، وأمّا الرحالة السبعي فقد أشار بدوره إلى خصائص التي كانت تتميز بها الأغنام في مصر، حيث لفت انتباهه حجمها الكبير، كما ذكر أن هذا النوع من الأغنام كان يستورد من بلاد الشام

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 128.

[2] جيرار، المصدر السابق، ، ص 106.

[3] Sonnini, op,cit, p 355,357

[4] جيرار، المصدر السابق، ص 104– 108. أنظر أيضا :

Hamont , op,cit, P140,141.
Maillet, op,cit, p92, 93

[5] leon paul **, Journal de voyage**, paris , 1865, p 25**.**

[6] الغيغائي، المصدر السابق، ص 137.

يقول السبعي عن ذلك:" وقد توجد فيهما معا الإسكندرية والسويس الشاه كالعجل في الكبر، وبعض السمين منها يكاد أن لا يظهر فيه لحم، فأخبرني بعض أهل البلد أنها من غنم الشام "[1].

وبحسب ما ذكره بعض الرحالة يبدو أن الأغنام في مصر لم تكن توفر حاجيات مصر من الصوف وهو ما يفسر اللجوء إلى استيرادها من البلدان المجاورة، ولعلّ هذا ما أكد عليه الغيغائي عندما قال: "الصوف ليس عندهم، وإنما تجلب من النواحي، وعندهم القطن الكثير وغنمهم جرد ولها زغب "[2]، وأما بخصوص الماعز فقد أشار الرحالة سونيني إلى أنها كانت تجلب من الحبشة [3].

وإضافة إلى الخيول والإبل والمواشي اشتهرت مصر كذلك بتربية النحل، وبالرجوع إلى ما سجله الرحالة نجد تأكيدا لذلك حيث أشار سافاري إلى أن منطقة الصعيد تعد من أهم المناطق التي تكثر فيها تربيته وذلك لوجود مختلف أنواع الزهور التي تزخر بها مصر [4].

2. الصناعة :

تشير المصادر التاريخية إلى أن الصناعة في مصر خلال القرن الثامن عشر قد امتازت بالركود والجمود[5]، إذ لم تكن هناك صناعات كبرى بل اقتصر الأمر على وجود بعض الحرف البسيطة التي كان يحتاجها السكان في حياتهم اليومية، وقد أكد كثير من الرحالة الأوروبيين هذه الملاحظة أيضا، إذ وصف فولني الصناعة في مصر بأنها كانت بدائية ومتأخرة لا تزال في مراحلها الأولى، كما أوضح كذلك أنها تميزت بضعف جودتها مقارنة بالصناعات الأوروبية التي كانت تفوقها بمراحل كثيرة[6]، ولقد أشار الرحالة سنونيني في رحلته أيضا إلى ما يعزز هذا القول حيث أكد هو الآخر على تدني وتدهور النشاط الصناعي وهذا بالرغم من مصر كانت تتوفر على جل الامكانيات اللازمة لتطور الصناعة[7].

---

[1] السبعي، المصدر السابق، ص 77.

[2] الغيغائي، المصدر السابق، ص 129.

[3] ذهني، **مصر في كتابات الرحالة** ...، المرجع السابق، ، ص 172

[4] Savary, op,cit, t2, p 195. Maillet, op,cit, p117.

[5] ساهمت عدة عوامل في تأخر الصناعة في مصر في القرن الثامن عشر ، ومن أهم هذه العوامل اختلال الأمن والاضطرابات السياسية التي كان لها تأثير سلبي على الحركة الاقتصادية عامة، هذا بالإضافة إلى افتقار مصر للمواد الخام الضرورية في الصناعة كالحديد والفحم ، ومما زاد كذلك في تراجع الصناعة المصرية تفوق المنتجات الأوروبية سواء من حيث الجودة أو الأسعار، فضلا عن قلة الأسواق . للمزيد أنظر : أحمد أحمد الحتة ، **تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر** ، د ط، مطبعة المصري، مصر، 1967م، ص ص 10، 11.

[6] فولني، المصدر السابق، ص 134.

[7] ذهني، المرجع السابق، ص 177.

و يبدو واضحا من خلال ما أسلفنا ذكره أن مصر خلال القرن الثامن عشر لم تكن تعرف أي صناعات كبرى بل اقتصر الأمر على وجود بعض الصناعات والحرف البسيطة التي كان تسد حاجيات السكان من الغذاء واللباس[1]، ومما يجب التنويه إليه أن النشاط الصناعي في مصر قد ارتبط ارتباطا وثيقا بنظام الطوائف، إذ كان المشتغلون في كل حرفة أو مهنه يشكلون طائفة، وكان لكل طائفة شيخ يتولى شؤونها ويدافع عن مصالحها[2]، وقد تحدث بريس دافين عن هذا النظام موضحا الأسس التي يقوم عليها إذ يقول: " تكاد المهن جميعا أن تكون متوارثة، ومن النادر أن لا يحترف الأبناء مهنة أبيهم، واليوم تؤلف كل مهنة في كل مدينة نقابة لها رئيس خاص، وذلك تقليد ترجع أصوله بلا شك إلى قدماء المصريين الذين كانوا ينقسمون إلى طبقات يخلف فيها الأبناء أباءهم"[3] .

وإذا كانت نصوص الرحلات قد أجمعت على تدهور النشاط الصناعي في القرن الثامن عشر فإنها من جهة أخرى قد أكدت على أن مصر قد عرفت خلال القرن التاسع عشر نهضة صناعية كبيرة ، فقد شهدت الصناعة تطورا كبيرا مقارنة بما كانت عليه سابقا، وفي الواقع يرجع هذا التحول الذي مس الأنشطة الصناعية أساسا إلى الجهود التي قام بها محمد علي، إذ تذكر المصادر التاريخية أنه أولى عناية كبيرة لهذا المجال، فمن أجل النهوض بالنشاط الصناعي عمد إلى إدخال الصناعات الكبرى والحديثة خاصة وأن الحرف التي كانت سائدة آنذاك لم تكن تكفي لتلبية حاجيات المصريين[4]، كما أرسل البعثات إلى أوروبا لتكوين الكوادر العلمية، واستورد كذلك الآلات الحديثة ومواد الخام من الخارج، وبالإضافة إلى ذلك استقدم الخبراء الأجانب وخاصة منهم الإيطاليين والفرنسيين لتعليم المصريين وتدريبهم[5]، ولقد بين الغيغائي في رحلته ما يثبت الجهود والإصلاحات التي قام بها محمد علي في القرن التاسع عشر لتطوير الصناعة حيث قال: " لولا الطول لذكرنا كذلك سيرة محمد بن علي باشا وما جلبه من الصنائع وأبدعه في هذه البلاد، إذ ما ترك صنعة ولا حرفة

---

[1] الحتة، المرجع السابق، ص ص 10– 12

[2] عبد السلام عبد الحليم عامر، **طوائف الحرف في مصر 1805–1914**، هـــ.م.ع.ك، مصر، 1993م، ص ص 13، 14.

[3] دافين، المصدر السابق، ص 48.

[4] للتوسع في السياسة التي اتبعها محمد علي في مجال الصناعة أنظر:

Jean Batou, « L'égypte De Muhammad 'Ali Pouvoir Politique Et Développement Economique 1805- 1848» , Annales Economies , Sociétés , Civilisations , n 2, 1991,p 401-421

[5] James- Augustus , **Egypt And Mohamed Ali: Travels In The Vally Of The Nile** ,V 2, London, 1834, p 409 .

أنظر أيضا: Jean Batou, op,cit, p 414

مندرسة من مصر إلا وردها وأوصلها إليه من كل نوع ومن كل جنس ، فمهد الله له الأرض والبلاد ، وسخر له خلقه من العباد حتى أقام بجميع الصنائع من الروم والهند والسودان والترك وغيرهم من العجم"[1].

وأمّا عن أنواع الصناعات التي انتشرت في مصر، فالملاحظ أنه رغم قلة حديث الرحالة المغاربة والأوروبيين عنها، إلا أن الإشارات المقتضبة التي تضمنها بعض نصوص رحلاتهم تؤكد أن المصريين قد مارسوا صناعات مختلفة، ومن أهم هذه الصناعات يمكن ذكر منها مايلي:

– صناعة الغزل والنسيج :

تعتبر هذه الصناعة من أبرز الصناعات التي اشتهرت بها مصر، غير أنها ظلت خلال القرن الثامن عشر تعاني من التراجع والرداءة، وذلك نتيجة لاستخدام واعتماد المصريين على الأدوات البدائية، وقد أثر هذا العامل على جودة الإنتاج، حيث لم تكن صناعة النسيج في مصر خلال هذه الفترة ترقى إلى منافسة المنسوجات الفرنسية[2].

تميز القرن التاسع عشر بانتشار صناعة النسيج في العديد من المناطق المصرية خاصة في الوجه القبلي والبحري، إذ راجت في الصعيد صناعة المنسوجات القطنية، وأما القاهرة والمحلة الكبرى ودمياط فقد اختصت بصناعة الأقمشة الكتانية والمنسوجات الحريرية، وقد كان يتم استوراد مواد الخام من بلاد الشام[3]، ومن المدن المصرية التي تركزت فيها صناعة الغزل والنسيج كذلك مدينتي بولاق ودمياط و جرجا وأسيوط والمنصورة [4]، بالإضافة إلى مدينة رشيد التي ذكر أوليفيه أنه كان بها حوالي ثمانية مصانع للغزل[5]، وللإشارة شهدت الصناعة النسيجية تطورا كبيرا في القرن التاسع عشر، و لم يكن هذا التطور ليحدث لولا الجهود التي قام بها محمد علي لتطوير هذه الصناعة، حيث أدى التوسع في إنشاء المصانع والمعامل كمعمل الخرنفش الذي أنشئ في عام 1816م ومعمل مالطة ببولاق إلى زيادة الإنتاج وتصدير الفائض منه إلى الخارج [6]، وبالتالي أضحت المنتوجات القطنية المصرية تنافس المنتوجات الأوروبية في الأسواق [7].

---

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 133.

[2] ذهني، **مصر في كتابات الرحالة** ...، المرجع السابق، ص 179.

[3] صلاح أحمد هريدي، **الحرف والصناعات في عصر محمد علي**، د.م ، مصر ، 1980م، ص 96

[4] الحتة ، المرجع السابق، ص ص 164، 165.

[5] Olivier, op,cit, t3, p 98

[6] عبد الله أفندي، المصدر السابق، ص 30. أنظر أيضا: هريدي، المرجع السابق، ص ص 200- 202

[7] Mouriez, op,cit, P 44

– الصناعات الغذائية :

عرفت هذه الصناعة انتشارا في مصر نظرا لارتباطها بالاستهلاك المحلي، وقد تنوعت وتعددت مجالاتها فكانت هناك صناعة للزيوت التي كانت تستخرج من السمسم و القرطم و الخس والسلجم و بذور الكتان، وقد أشار جيرار أنه كانت توجد في مدينة أسيوط حوالي عشرة معاصر لاستخراج الزيوت، كما بلغ عددها في مدينة منوف أربعة عشر معصرة، ومن أشهر المناطق التي ازدهرت فيها هذه الصناعة مدينة قنا و القاهرة ، وقد كان معظم الإنتاج يوجه للاستعمال في الغذاء و الوقود [1].

ومن أنواع الصناعات الغذائية التي راجت في مصر صناعة صناعة تمليح الأسماك، وعلى ما يبدو أن هناك مناطق محددة اختصت بهذه الصناعة مثل دمياط، ورشيد[2]، وإلى جانب هذه الصناعة انتشرت في مصر أيضا صناعة السكر، وقد ساعد على تطور هذه الصناعة وجود المادة الأولية، إذ كانت زراعة قصب السكر من أهم الزراعات في مصر، وتجدر الإشارة أنه رغم تعدد المصانع المخصصة لهذه الصناعة في مصر، إلا أن السكر كان في البداية ينقل إلى مرسيليا لتكريره قبل أن يقوم محمد علي في سنة 1830م بإدخال الآلات الحديثة لتصنيعه في مصر، وقد ساهم ذلك في تحسن نوعية المنتوج [3].

ويدخل ضمن الصناعات الغذائية التي اشتهرت بها مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أيضا صناعة ضرب الأرز و تبييضه، وقد تركزت هذه الصناعة في مدينة رشيد[4]، وفي هذا الشأن ذكر الرحالة أوليفيه أنها كانت تحتوي على خمسون مصنعا [5]، وكانت أغلب هذه المصانع تدار بواسطة الثيران ثم أصبحت في القرن التاسع عشر تعتمد على الآلات البخارية[6].

– صناعة الأواني الفخارية .

ذكر الرحالة إدوارد وليام لين أن المصريين اشتهروا منذ القدم بممارسة هذه الصناعة، وقد امتاز هذا النوع من الصناعات ببساطته، فقد ظلت صناعة الفخار في مصر بدائية تقتصر فقط على صناعة بعض الأواني المترلية كالجرار و البرم التي تستخدم في الحياة اليومية[7]، وحسب ما أشار إليه جيرار تركزت أهم مناطق صناعة

---

[1] جيرار، المصدر السابق، ص ص 191- 195

[2] ذهني، **مصر في كتابات الرحالة ...**، المرجع السابق، ص ص 180، 181..

[3] الحتة ، المرجع السابق، ص ص 165، 166. أنظر أيضا : Mengin , op,cit , p 204- 208

[4] Hamont, op,cit, 179

[5] Olivier, op,cit, t3, p99

[6] هريدي، المرجع السابق، ص ص 195، 196.

[7] وليام لين ، المصدر السابق، ص 320.

الفخار في مصر العليا وخاصة في مدينة قنا التي كانت تتوفر على مادة الصلصال والتي تعتبر مادة الأولية في الصناعة ، وقد كان معظم الإنتاج يعرض في الأسواق المصرية [1].

– صناعة ملح النشادر:

كانت هذه الصناعة منتشرة بكثرة في مصر، وعلى الرغم من أن الرحالة لم يقدموا معلومات كثيرة عن هذه الصناعة إلا علماء الحملة الفرنسية قد ذكروا في كتاب "وصف مصر"، أن ملح النشادر كان يستخرج من سماد الحيوانات[2]، وقد تركزت هذه الصناعة بشكل كبير في مدينة القاهرة، وكان هذا المنتوج يصدر إلى الدول الأوروبية[3].

– الصناعات الحربية :

ازدهر هذا النوع من الصناعة في القرن 19م بعد أن أولى محمد علي أهمية كبيرة لها[4]، ولعلّ من أبرز الصناعات الحربية التي اشتهرت بها مصر خلال هذه الفترة هي صناعة السفن، حيث كان مشروع تكوين الجيش والأسطول يتطلب إنشاء السفن لنقل الجنود و المؤن، وقد كان يتم جلب المواد الأولية لهذه الصناعة من مختلف الدول فكان الخشب يجلب من الهند عن طريقة جدة ، وأما الصواري فكانت ترد من الأستانة، وكانت جدة تمد مصر بالأشرعة[5]، ومن أهم المدن التي تركزت فيها صناعة السفن ووردت الإشارة إليها في كتب الرحلات مدينة الاسكندرية حيث أقيم بمينائها ترسانة مخصصة لإنشاء مختلف أصناف المراكب البحرية، وقد أتيحت للفقيه الحيوني معاينة هذه الترسانة حيث وصف كثرة السفن فيها بقوله:" فترى في الإسكندرية السفن مثل النخيل في بلدنا منهن المذهبات والمموهات والخدامين في إنشاء السفن الجديدات أكثر مما يحصى، والمرقعين للسفن القديمات كذلك، فلا تسمع إلا الطنين وضرب الحديد بالزبرة في وسط البحر"[6].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الترسانة التي أقامها محمد علي كانت تشتمل على عدّة مصانع و ورشات فكان كل ورشة مخصصة لنوع محدد من الصناعات البحرية مثل: ورش الحدادة والنجارة و ورش إبرام الحبال و ورش ترميم السفن و ورش لصنع ساريات السفن، و ورش الأشرعة والزوارق وغيرها من الورش الأخرى[7]

---

[1] جيرار، المصدر السابق، ص ص 165-168 .

[2] علماء الحملة الفرنسية، المصدر السابق، ج5، ص ص 292، 293.

[3] الحتة ، المرجع السابق، ، ص 17

[4] Batou, op,cit, p 405

[5] بيرتون، المصدر السابق، ص 147.

[6] الحيوني، المصدر السابق، ص ص 45، 46.

[7] كلوت بك، المصدر السابق، ص524.

وقد أبدى الغيغائي إعجابه بما شاهده أثناء زيارته لها فقال:"ودخلنا مواضع الخدمة ورأينا بها عجائب الصنعة"[1].

3.التجارة :

اشتهرت مصر منذ القدم بدورها وأهميتها التجارية، وقد تظافرت عدّة عوامل ساهمت في احتلالها لهذه المكانة المهمة، ومن بين هذه العوامل موقعها الجغرافي المهم والمتميز في طرق التجارة العالمية حيث كانت تعد ملتقى وممرا لبضائع الصين والهند وسواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر[2]، وبالرغم من الظروف السياسية المتدهورة التي شهدتها مصر في القرن الثامن عشر، إلا أنها ظلت تعد مركزا تجاريا مهما، وقد لفت النشاط التجاري المزدهر الذي عرفته مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع اهتمام الرحالة المغاربة و الأوروبيين.

و باستقراء ماسجلوه في هذا الشأن نلاحظ أنهم أولوا أهمية كبيرة للتجارة الداخلية التي شكلت الأسواق رافدها الأساسي، بالإضافة إلى وصفهم للتجارة الخارجية وأهم الصادرات والورادات، وهو ما سوف نتعرف عليه.

3 . 1 الأسواق :

أكدت النصوص الرحلية على أن مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر امتازت بكثرة الأسواق، وقد تركزت هذه الأسواق في المدن لا سيما في الحواضر الكبرى، ففي وصفه لمدينة القاهرة قال الحسن الغسال:" بهاته المدينة أسواق كثيرة في سائر الجهات لبيع البضائع المجلوبة إليها من سائر أقطار المعمورة"[3] .

وحسب ما أفادتنا به كتب الرحلات يبدو أن الأسواق في مصر كانت تعرف رواجا تجاريا كبيرا، ومما يؤكد ذلك كثرة الزحام الموجود بها، وقد أشار إلى هذا الأمر كثير من الرحالة فأحمد بن ناصر الدرعي قال عن ذلك: " فكل سوق دخلته تقول هذا أكثرها زحاما ، فإذا خرجت منه لآخر وجدته مثله أو أشد، وقد شاهدنا الناس في بعض الأسواق تارة يقف هنيهة لا يقدر أحد أن يتحرك يمينا أو شمالا من غير أن يكون هناك

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 80.

[2] شيرين مبارك فضل الله، "ركب الحج المغربي وأثره في تقوية الروابط بين مصر والمغرب في القرن الثامن عشر من واقع نخبة مختارة من الرحلات الحجازية"، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، ع 40، ج1، جامعة الأزهر،2021م، ص 3439.

[3] الغسال، المصدر السابق، ص 78.

حاصر لهم من الأمام إلا الزحام، وربما رفع أحد صوته بالتكبير فيكبرون حتى يظهر فيهم بعض التحرك فيدفعون مثل السيل إذا انجمع في مكان ضيق فيدفع بعضهم بعضا حتى يتفجر من جهة" [1] .

و لم يختلف رأي بريس دافين عما ذكره أحمد بن ناصر الدرعي عن كثرة الزحام الذي ميز الأسواق المصرية، إذ يشير هو الآخر إلى وجود هذه الظاهرة، وذلك ما نستشفه من خلال قوله: "إن الأسواق في القاهرة يختلط فيها القبطي والعربي والسوري والتركي والمغربي والحبشي والفارسي والهندي واليوناني والأوروبي ويتدافعون بالمناكب للأغراض نفسها "[2].

وتجدر الإشارة أن الأسواق المصرية كانت تتميز بتنوع المنتوجات والسلع المعروضة فيها، إذ حرص التجار على توفير كل ما يحتاج إليه الزائرون، فكانت تباع مختلف أنواع الدواب بالإضافة إلى العديد من المواد الاستهلاكية، وفي هذا الصدد ذكر لنا بريس دافين أنه وجد في أسواق مدينة دمياط قصب السكر والموز والتين والبطيخ والشمام و الأرز و الشعير والسمك المملح و الأواني الخزفية[3]،كما أشار ابن الطيب الشرقي من جهته إلى ما كان يعرض من سلع في أسواق مصر ومنها السوق التي كانت تنصب في بركة الحاج حيث يقول بشأنها: " تنصب الأسواق الحافلة بشط البركة... فلا تسأل عما يوجد في تلك الأسواق من مهيجات الأسواق طعام وشراب وقرب وقراب وحوافر و أخفاف وجوارب وخفاف و محارة على جمل وأنواع الجدي ، والحمل والسمن وعسل وسيف وأسل وتمر وزبيب وتين وحليب وغير ذلك من أنواع السلع التي لست أحصيها..." [4].

وفضلا عن التنوع و الرواج التجاري الذي كانت تتميز به الأسواق في مصر تفيدنا كتب الرحلات بأن الأسواق المصرية كانت تخضع للتنظيم، إذ جرت العادة أن يختص كل سوق بنوع معين من السلع، وهكذا كانت توجد سوق للمجوهرات وسوق للسجاد وسوق للأسلحة وأسواق أخرى للسروج والنعال و السمك و الخضر والفواكه[5]، وقد أشار الفقيه الحيوني في هذا الصدد إلى سوق السلام الذي زاره فقد وجده يختص ببيع الأسلحة فقال عنه: "وسوق السلام فالترك هم أهله فقد تسوقته مرارا، فلا ترى يا سعد الدين إلا الكوابيس المختلفة الألوان، قد ذَهبو البعض، والبعض موهوه بالفضة ... وسيوف العسكر والترك كلها بندقية

[1] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 259، 260.

[2] دافين، المصدر السابق، ص 31.

[3] نفسه، ص 55

[4] محمد الطيب الفاسي الشرقي ، **رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة**، تح: عارف أحمد عبد الغني، دار العرب، دمشق، 2014م، ص 160.

[5] moncorps de savigny , op, cit , p 56

معوجة، ويجعلون للسيف سيرا ويشده الرجل وسطه"[1]، ومما يلاحظ كذلك على الأسواق المصرية أن الحكام أولوا لها أهمية كبيرة حيث حرصوا على تنظيمها وذلك من خلال تعيين المحتسبين عليها، بالإضافة إلى توفير الأمن والحماية لها، وقد أمدنا كل من الرحالة بريس دافين و بول لوكاس في هذا الشأن بتفاصيل كثيرة حول المهام المنوطة بالمحتسب فذكرا أنه كان بمثابة الآغا وهو مكلف بالإشراف على الأسواق، وقد كان يخرج بصحبته أعوان وأمناء من الإنكشارية لمراقبة السلع ومختلف المكاييل والموازين المعروضة في الأسواق، وذلك بهدف محاربة أنواع الغش فقد كان يتم تطبيق العقوبات الزجرية على المخالفين والتي قد تصل إلى حد السجن والضرب والتنكيل والطرد من السوق[2].

وأما بالنسبة لتوفير الأمن في الأسواق فقد أوضحت نصوص الرحلات أن معظم الأسواق المصرية كانت تخضع للحماية، إذ أوكلت هذه المهمة إلى الجنود، وهذا ما نجد له إشارة في رحلة الفقيه الحيوني الذي قال عن ذلك: "وكل سوق بعسكره واقف في وسطه، ومكحلته بين يديه" [3]، ومن جهته يذكر بريس دافين ما يؤكد قول الحيوني، إذ لاحظ انتشار الأمن بها فالدكاكين الموجودة في تلك الأسواق تبقى مفتوحة رغم غياب أصحابها، وقد كتب عن ذلك قائلا:" وفي تلك الأسواق لا تغلق الدكاكين غالبا، وهي التي تجتمع فيها كل أنواع السلع الثمينة السهلة الحمل إلا بأقفال خشبية رديئة وعندما يتغيب التاجر عن دكانه في النهار يسدل على بابه شبكة بسيطة"[4].

ووفقا لما أورده الرحالة نيبور لم تكن عملية البيع في الأسواق تقتصر على السكان المحليين فحسب، بل إن مزاولة التجارة بهذه الأسواق كانت تشمل كافة التجار ومن الجنسيات المختلفة [5]، وقد أكد الغيغائي ذلك أيضا عندما أشار إلى مدينة السويس، إذ ذكر أن بها "من التجار من كل جنس مسلمون وكافرون من الشام واسطنبول ومن تونس والعجم وأجناس الروم كلها هناك للتجارة" [6]، وفي الواقع هذا إذا دل هذا على شيء فإنه يدل على أنه لم تكن هناك أي قيود تحد من نشاط التجار الأجانب، إذ أضحت مصر تستقطب التجار على اختلاف انتماءاتهم فقد كان يفد عليها التجار المغاربة، وفضلا عن دور المغاربة في التجارة الداخلية استأثر

---

[1] الحيوني، المصدر السابق، ص125.

[2] دافين، المصدر السابق، ص 33. أنظر أيضا:

paul lucas , **voyage du sieur paul lucas au levant** , v1, Libraire Ordinaire De Mofeigneur De Dauphin paris, sd, p 56,57

[3] الحيوني ، المصدر السابق، ص 109.

[4] دافين ، المصدر السابق، ص 34.

[5] نيبور، المصدر السابق، ص ص 106–112.

[6] الغيغائي، المصدر السابق، ص 208.

كذلك التجار الأوروبيين بنفوذ كبير، إذ استطاعت هذه الفئة في القرن التاسع عشر أن تسيطر وتحتكر التجارة الداخلية بكافة أنواعها حتى أن الفقيه الحيوني قد ذكر في رحلته أن الأسواق أضحت كلها على أيديهم[1] .

ومن جهة أخرى وبحسب ما جاء عند بعض الرحالة كالغيغائي والفقيه الحيوني كانت التجارة في الأسواق المصرية لا تقتصر على فئات محددة، بل كانت تشمل كافة فئات المجتمع بما في ذلك النساء اللواتي دفعتهن الظروف المعيشية المتدهورة إلى الخروج إلى الأسواق لممارسة التجارة، وقد ساقت لنا كتب الرحلات في هذا الشأن أمثلة عديدة، ومن ذلك ما أشار إليه الحيوني الذي قال:" وتراهن في الأسواق يبعن على أنفسهن فمن خبازة ومن خضارة بميزانها، ومن قشاشة تمرا وتفاحا أو فاكهة بميزانها "[2]، وقد قدم الغيغائي ما يثبت أيضا مشاركة المرأة ودورها في الأسواق وذلك بقوله:"أن نساء هذه البلاد يتسوقن ويجلسن في الحوانيت للبيع، فهن بقالات و خبازات وهن طباخات وقشاشات في البلح والتمر و غير ذلك ...وإن قلت أنهن نصف الرجال بالأسواق فما كذبت "[3].

حسب الإشارات الواردة في كتب الرحلات امتازت الأسواق المصرية بالتنوع، منها ما كان دائما ومنها ما كان ظرفيا يرتبط بمواسم محددة، ومن أهم هذه المواسم التي كانت تقام فيها الأسواق المؤقتة وتنشط فيها حركة التجارة موسم الحج، وتجدر الإشارة أن الرحالة المغاربة قد أفردوا لهذه الأخيرة أي الأسواق الموسمية حيزا كبيرا في كتاباتهم نظرا لما كانت تشهده من ازدهار ورواج تجاري كبير، وفي هذا الشأن ذكر لنا أحمد بن ناصر الدرعي أن أسواقا كثيرة كانت تقام للحجاج بصفة مؤقتة، وهذه الأسواق كانت تتميز بأسعارها الرخيصة، وهذا ما أكده لنا بقوله:" فتنصب الأسواق هناك و يخرج غالب الباعة والمسببين، بحيث يجد هنالك ما يحتاج إليه السفر بأرخص من سعر مصر ويقيمون هنالك إلى آخر اليوم السابع والعشرين"[4]، ومن جانبه يفيدنا أيضا الورتلاني بوصف لهذه الأسواق إذ يقول:" إن أسواق ركب الركب المصري كثيرة لا يمكن عدها، إذ فيها كل خير مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وترغب فيه الناس إلا كان فيه " [5].

و من أهم الأسواق الموسمية التي اشتهرت بها مصر وورد ذكرها في كتب الرحلات نذكر على سبيل المثال لا الحصر سوق مدينة الرملة الذي كان يتحول أثناء وصول القافلة إلى سوق ضخم تباع فيه كافة أنواع السلع والدواب، وفي ذلك قال أحمد بن ناصر الدرعي:" والرملة فضاء واسع خارج عن قلعة الجبل فيه تباع

[1] الحيوني، المصدر السابق، ص 46.

[2] نفسه، ص 119.

[3] الغيغائي، المصدر السابق، ص 117.

[4] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 282، 283.

[5] الورتلاني، المصدر السابق، ص 377.

الإبل والخيل وسائر الدواب، وبه يوجد غالب ما يحتاجه الحاج من الأثاث والأمتعة، وتنصب به أيام المواسم أراحي متعددة لتدشين الفول يديرها الرجال بأيديهم مع كبرها، وقد أعطوا قوة على ذلك يطحن الرجلان أرادب متعددة في يوم واحد فتكون بالرملة صبر من الفول المدشنة كل صبرة تزيد عن المائة أردب، ومن هناك يكيل غالب الحاج فولهم ويعمرونه هناك في غرائرهم ويمكنونه للجمالين ..."[1].

ومما يجب التنويه إليه قبل نختم الحديث عن الأسواق أن موسم الحج كان يشكل مناسبة هامة للمصريين، إذ يعتبر فرصة مهمة لترويج السلع والمنتجات التي كان يحتاج إليها الحجاج لاستكمال طريقهم إلى البقاع المقدسة، وهذا ما يجعل الحركة التجارية في مصر تنشط بشكل كبير لا سيما إذا علمنا أن الركب الحج المغربي كان هو الآخر يضم بين فناته عددا من التجار الذين يحملون معهم السلع والمنتجات لتسويقها في البلاد المصرية التي أصبحت خلال موسم الحج مركزا محوريا للتبادل التجاري بين المشرق والمغرب [2].

3 . 2 التجارة الخارجية (الصادرات و الواردات) :

اشتهرت مصر بتنوع إنتاجها الزراعي والصناعي، ولما كان هذا الإنتاج يكفي ويغطي حاجيات السكان فإنها كانت تعمد إلى تصديره، وحسب ما تضمنته كتابات الرحالة شكلت الحبوب بمختلف أنواعها أهم الصادرات في مصر، إذ كان القمح والشعير و الفول و الكتان يرسل إلى الجزيرة العربية وسوريا و الأستانة [3]،كما كان يصدر كذلك إلى أوروبا عبر الموانئ المصرية، وقد اشتهر ميناء المحمودية بهذا النوع من التصدير، إذ كانت تتجمع فيه الحبوب ليتم نقلها بعد ذلك، وهذا أوضحه لنا الفقيه الحيوني في وصفه لهذا الميناء حيث يقول عنه:" والسفن فيها أكثر مما يحصى فمن ذاهب وآت، يأتون بالقمح والشعير و الفول وغير ذلك بالكراء للباشا، وهو يبيع للنصارى..."[4]، وإلى جانب الحبوب اشتهرت مصر كذلك بتصدير الجلود، وقد شكّل هذا المنتوج أحد أهم الصادرات المصرية إذ كان في كل سنة يصدر منه مابين 70ألف و80ألف قطعة، كان يرسل جزء منها إلى مرسيليا بينما يوجه الجزء الباقي إلى إيطاليا وسوريا، وحسب ما أورده نيبور كانت الجلود المصرية تمتاز بكثرة سماكتها وثقل وزنها[5].

[1] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 281، 282.

[2] الصادقي، المرجع السابق، ص 302.

[3] Savary, op,cit , p 88. Maillete, op,cit, p 95.

[4] الحيوني، المصدر السابق، ص 48.

[5] نيبور، المصدر السابق، ص 112.

ومن المواد الأولية التي كانت تصدرها مصر القطن الذي كان يوجه إلى مرسيليا وليفورن، و الزعفران الذي كان يصدر إلى البندقية وأزمير و مرسيليا و سوريا و ليفورن، بالإضافة إلى الكتان الذي اشتهرت مدينة رشيد بتجارته، وقد كان الفائض من هذا المنتوج يصدر إلى مناطق كثيرة كالأستانة واليمن وسوريا وجدة و ليفورن، ويدخل ضمن نطاق الصادرات المصرية كذلك الصمغ العربي الذي يمر عبر الأراضي المصرية قادما من الحبشة و جدة، حيث يوجه القسم الأكبر من هذه البضاعة إلى ليفورن و مرسيليا، كما كان البن يصدر إلى البندقية وفرنسا وايطاليا، واشتهرت مصر إضافة إلى ما سبق بتصدير البخور الذي كان يتم جلبه من الجزيرة العربية واليمن، إذ كان معظم هذا المنتوج يتم تصدريه إلى الأستانة وأوروبا، ووفقا لما ذكره الرحالة نيبور يبدو أن هذه التجارة حققت للحكومة الفرنسية أرباحا طائلة تعادل ما يقرب 60 بورصة علما أن كل بورصة يساوي 500 قرش[1]، وفضلا عن ماسبق ذكره كان قصب السكر يُعدّ كذلك من أهم الصادرات المصرية حيث كان يتم توجيهه إلى بلاد الشام وإلى آسيا الصغرى وإلى أوروبا[2].

هذا عن الصادرات وأما عن واردات مصر فقد أوضحت كتب الرحلات أنها كانت متنوعة ومتعددة ، ومن بين أهم هذه الواردات الخشب الذي كانت مصر تستورده من الهند و الأستانة و أوروبا، وذلك نظرا لحاجتها للمادة الأولية لصناعة السفن والمنازل[3]، وقد أشار الفقيه الحيوني إلى ذلك في سياق حديثه عن ما كان يتطلبه بناء المنازل في مصر حيث قال:" والدار لا تبنى إلا بخمسين قنطارا فأكثر، وكل شيء بالشراء من تراب وحجارة وخشب يأتي من بر النصارى"[4]، ومن بين البضائع التي كانت تستوردها مصر أيضا الكتان و الأقمشة، إذ على الرغم من تطور صناعة النسيج في مصر إلا أن الإنتاج المحلي ظل عاجزا عن سد حاجيات المصريين فزاد بذلك الطلب على الكتان الذي أصبح يجلب من بلدان مختلفة لا سيما من اسطنبول وأوروبا، وهذا ما أوضحه الحيوني بقوله: "الكتان على اختلاف ألوانه أكثر من مئة نوع فالكتان في مصر مزوق مصنوع كان يأتيهم من اسطنبول ومن عند النصارى "[5].

[1] نيبور، المصدر السابق، ص ص 113، 114 .

[2] Hamont, op,cit, p 178.
Maillet, op,cit , p 112

[3] بيرتون، المصدر السابق، ص 147 . أنظر أيضا :

[4] الحيوني، المصدر السابق، ص 102.

[5] نفسه، ص 114.

وحسب ما جاء في رحلة نيبور تعد فرنسا من أكثر الدول التي كانت تزود مصر بالأقمشة وخاصة أقمشة"لانجدوك" التي يكثر عليها الطلب أثناء موسم الحج لتغطية متطلبات القوافل[1]، وقد ذكر فولني أن هذه التجارة كانت تدر أرباحا طائلة على الفرنسيين تصل إلى 40 بالمئة [2]، وفضلا عن الأقمشة والخشب كانت مصر تستورد من أوروبا التوابل والبهارات والقصدير والحديد والزئبق بالإضافة إلى الرصاص والزجاج والنحاس، و من البندقية ومرسيليا كانت تستورد الورق[3]، ومن أهم الوردات المصرية كذلك العبيد الذي كان يجلب من الحبشة حيث كان يصل إلى القاهرة في كل سنة قافلة تحمل مابين ألف وألفين من الرقيق[4]، ومن دارفور كان يأتيها العاج والتمر الهندي بالإضافة إلى العبيد الذين شكلوا جزءا أساسيا في تجارة القوافل بين السودان ومصر[5].

وأما من دول المغرب العربي فقد كانت مصر تستورد الطرابيش والبرانس التي كانت تردها من فزان، ومن تونس والمغرب الأقصى النعال المصنوعة من الجلد الأصفر والعسل وزيت الزيتون و الشمع، وينبغي الإشارة أن عمليات التبادل التجاري بين مصر و بلدان المغرب العربي كانت تتم إما عن طريق القوافل البرية أو من خلال الطريق البحري[6]، ولم تقتصر علاقات مصر التجارية على بلاد المغرب العربي فحسب، بل إنها امتدت كذلك إلى بلاد المشرق، فكان يجلب من بلاد الشام الحرير والقطن و الزيوت والثمار المجففة بالإضافة التبغ اللاذقي الذي كان يستهلك على نطاق واسع في مصر، ومن الأستانة كانت تأتيها الأثواب والأسلحة والفراء والأدوات المعدنية[7]، وأما عن وارداتها من الجزيرة العربية فتمثلت في البن اليمني و الصمغ العربي والشموع و عرق اللؤلؤ، والعطور والتمر الهندي وغيرها من المنتجات الأخرى[8].

يستشف من خلال ما سبق ذكره أن التجارة في مصر خلال القرنين الثامن عشر التاسع عشر كانت نشطة بشكل كبير حيث كانت لمصر علاقات تجارية مع العديد من الدول، وفي الواقع تظافرت عدّة عوامل ساعدت على ذلك.

---

[1] يذكر نيبور أن قافلة الحج التي كانت تنطلق من القاهرة تحتاج وحدها من 60 إلى 70 طردا من الأقمشة، وقد كانت تستخدم معظمها لخياطة الثياب التي تقدم إلى العرب الذين تمر القافلة على أراضيهم بالإضافة إلى سكان مكة . أنظر: نيبور، المصدر السابق، ص 115.

[2] Volney , op ,cit,p 207.

[3] نيبور، المصدر السابق، ص 115.

[4] Volney , op ,cit, p177 , 178

[5] جيرار، المصدر السابق، ص ص 237، 238.

[6] عبد الرحيم عبد الرحمن ، **فصول**...، المرجع السابق،ص ص 195-196.

[7] Volney , op ,cit, p190.

[8] بيرتون، المصدر السابق، ص 148.

3.3 المراكز التجارية :

أدى التوسع التجاري الذي عرفته مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع إلى ظهور عدّة مدن كبرى كان لها دور كبير في تنشيط الحركة التجارية سواء الداخلية أو الخارجية، وقد أصبحت هذه المدن نظرا لما تتوفر عليه من مقومات اقتصادية تعتبر مراكز تجارية هامة تستقطب التجار على اختلاف جنسياتهم، ومن أهم هذه المدن التي اشتهرت وورد ذكرها في نصوص الرحلات نذكر:

الإسكندرية :

لعبت هذه المدينة خلال القرن التاسع عشر دورا هاما في التجارة الخارجية لمصر، وقد اكتسبت الاسكندرية أهميتها التجارية نتيجة لتوفرها على المرافئ والموانئ ومن أبرزها ميناء ومرسى محمد باشا الذي أشاد به الغيغائي في رحلته[1]، ومما يؤكد المكانة التجارية التي تمتعت بها هذه المدينة أنها أصبحت مركزا للتبادل التجاري بين مصر ومختلف الدول الأخرى، إذ يذكر كل من الرحالة نيبور وأوليفيه أنها كانت تأتي إليها السفن القادمة من أوروبا ومن افريقيا ومن الدول المجاورة الأمر الذي جعلها تعد مستودعا لتجارة العديد من الدول[2]، أضف إلى ذلك عرفت هذه المدينة نتيجة لأهميتها الاقتصادية توافد عدد كبير من التجار الذين جعلوا منها مركزا لإقامتهم[3].

القاهرة :

تشير المصادر الرحلية أن مدينة القاهرة كانت أحد المدن الرئيسية التي تتركز فيها الأنشطة التجارية، وقد تظافرت عدّة عوامل ساعدتها على ذلك، ومن هذه العوامل الموقع الجغرافي الذي تنفرد به، فالمعلوم أن القاهرة تحوز على موقع استراتيجي بالنسبة للتجارة[4]، وقد نوه فولني في هذا الصدد بأهمية موقعها فذكر أنها كانت تعد ملتقى للطرق التجارية فهي تتصل بالجزيرة العربية والهند عن طريق البحر الأحمر و تتصل كذلك بالحبشة عن طريق النيل، وأمّا بالنسبة لأوروبا والدولة العثمانية فمن خلال البحر الأبيض المتوسط، ومما ساعد أيضا على بروزها كأهم المراكز التجارية هو وجود كبار الملاك والتجار والأثرياء من المماليك في هذه المدينة فضلا عن تمركز الأوروبيين بها[5].

---

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص ص 77، 78.

[2] نيبور، المصدر السابق، ص 80. أنظر أيضا: Olivier , op, cit , t 2, p 73 .

[3] نيبور، المصدر السابق ، ص 50.

[4] نفسه، ص 112.

[5] Volney , op ,cit, p 188.

مدينة رشيد :

أكّد أوليفيه الذي زار مصر خلال القرن 18م أن الأهمية التجارية لمدينة رشيد لم تكن تقل عن أهمية القاهرة و الاسكندرية وبقية المدن المصرية، فقد اشتهرت هذه المدينة التي تقع على الضفة الغربية من نهر النيل منذ القدم بدورها التجاري إذ كانت تعتبر مركزا للبضائع التي تأتي من شبه الجزيرة العربية و الهند، كما أنها كانت كذلك ملتقى للقوافل القادمة من النوبة و الحبشة[1]، وحسب ما يذكره نيبور ساهمت هذه المدينة بشكل فعال في تنشيط التجارة لاسيما منها الداخلية فقد كانت مستودع للبضائع والسلع التي تنقل من القاهرة إلى الإسكندرية، وقد ساعد على ازدهارها التجاري الميناء الموجود بها وكذلك تمركز التجار الأوروبيين بها[2].

مدينة دمياط:

إضافة إلى مدينة رشيد كانت مدينة دمياط كذلك من المدن التي تمتعت بمكانة تجارية هامة، حيث اشتهرت بمصانع القطن والنسيج، وبالنظر لموقعها الملائم للتجارة أصبحت مركزا رئيسيا للتبادل التجاري لاسيما مع بلاد الشام فالبضائع القادمة من سوريا والبلدان المجاورة تمر عبر دمياط لتنقل بعدها إلى القاهرة وحسب ما أوضحه بريس دافين في رحلته يبدو أن هذه المدينة لم تحافظ على مكانتها التجارية خلال القرن التاسع عشر، حيث تراجع دورها بشكل كبير وهذا نتيجة لتحول الريادة التجارية إلى مدينة الإسكندرية[3].

مدينة السويس :

كانت السويس من أهم المراكز التجارية في مصر، وقد أكد علماء الحملة الفرنسية على أهميتها الاقتصادية، فبحكم موقعها الاستراتيجي الذي تتميز بها غدت هذه المدينة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع محورا ومنطلقا للتجارة مع الجزيرة العربية والهند، وقد كان ميناؤها يشهد نشاطا تجاريا واسعا حيث شكل منطقة تبادل تجاري[4]، وقد أوضح أحمد بن ناصر الدرعي أهمية هذه المدينة فقال عنها:" هي مدينة صغيرة ذات أسواق ومساجد ووكالات ... ترسى بهذه المدينة السفن التي تأتي من جدة ومكة واليمن، فيها السلع التي لا تحصى والبضائع التي لا تستقصى"[5]، وتجدر الإشارة أنه رغم النشاط التجاري الواسع الذي كانت تشهده هذه المدينة، إلا أن أهميتها التجارية قد تضاعفت أكثر بعد افتتاح قناة السويس[6].

---

[1] Olivier, op,cit, t3, p 97

[2] نيبور، المصدر السابق ، ص ص 52، 53

[3] دافين، المصدر السابق، ص 61.

[4] علماء الحملة الفرنسية، المصدر السابق، ج1 ، ص 255

[5] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 308، 309.

[6] ذهني، **رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر** ...، المرجع السابق، ص 113.

المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

تشتمل كتابات الرحالة المغاربة والأوروبيين الذين وفدوا على مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على إفادات علمية متنوعة تعكس مظاهر الحياة الاجتماعية بهذ البلد، والشيء الجدير بالملاحظة في هذا السياق أن اهتمامهم برصد الجوانب الاجتماعية قد أخذ حيزا كبيرا في مصنفاتهم مقارنة مع الجانب السياسي الذي ظل حضوره ضعيفا وقليلا، وإذا ما تتبعنا ما دونوه في هذا الجانب فإننا نجدهم قد نقلوا لنا صورة حية و تكاد تكون شاملة عن أحوال المجتمع المصري في هذه الحقبة، إذ تحدثوا بنوع من التفصيل عن الفئات الاجتماعية التي تألف منها المجتمع المصري، كما استعرضوا العادات والتقاليد التي اختص بها أهل مصر، فضلا عن رصدهم كذلك لوضعية المرأة المصرية خلال هذه الحقبة، الشيء الذي يجعلنا بلا شك ندرك التحولات التي مست المجتمع المصري خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

1. التركيبة الاجتماعية :

ليس من السهل تتبع المشهد الاجتماعي الذي رصده الرحالة في كتاباتهم حول مصر، ذلك أن تصوير هؤلاء الرحالة لسمات المجتمع المصري يتفاوت ويختلف من رحالة إلى آخر، وهذا تبعا لقدرات كل واحد منهم على الملاحظة والوصف الدقيق ناهيك أيضا عن توجهاتهم المختلفة.

لا تقدم كتابات الرحالة معلومات كثيرة حول تعداد سكان في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لكن من خلال تفحص ما كتبه هؤلاء الرحالة نعثر على بعض الإشارات المفيدة وإن كانت هذه الإحصائيات غير دقيقة وتختلف من رحالة إلى آخر، فهذا كلوت بك يشير إلى أنّ مصر عرفت انخفاضا في عدد السكان إذ بلغ تعدادهم حسبه في أوائل القرن التاسع عشر حوالي ثلاث ملايين نسمة، وهذا الانخفاض يرجع إلى أسباب محددة أهمها الحروب الأهلية التي شهدتها مصر في نهاية القرن الثامن عشر، بالإضافة إلى الأمراض والأوبئة[1] التي تفشت بالقطر المصري والتي أودت بحياة الكثير من سكانه[2]، وأما الرحالة روبرت إينسلي الذي زار في مطلع القرن التاسع عشر فقد قدر عددهم بحوالي أربع ملايين ملايين نسمة[3]، وأمّا إذا ما عدنا إلى ما

[1] لقد عدد فولني الأمراض المنتشرة في مصر خلال القرن 18م فذكر أنه كان من بينها الجدري والطاعون الذي كان يفتك بعدد كبير من المصريين بالإضافة إلى وباء الكوليرا الذي أشار أنه تسبب في عام 1783م في هلاك أكثر من ألف وخمسمئة شخص من مدينة القاهرة وحدها . للمزيد أنظر: Volney, op,cit, p175, 217_231

[2] كلوت بك، المصدر السابق، ص ص 194- 197.

[3] روبرت إينسلي، المصدر السابق، ص 82.

سجله علماء الحملة الفرنسية فنجد أن جومار قد قدر عددهم بحوالي 2,5 مليون نسمة لكن هذه الاحصائية تبقى غير دقيقة لاسيما وأنه لم يدرج ضمنها فئة العربان التي تقطن في الصحاري[1].

وإذا كان الرحالة قد اختلفوا في تقديرهم لعدد سكان مصر إلا أن الملاحظ أنهم اتفقوا حول مسألة تنوع سكان مصر، فالمتمعن فيما سجله هؤلاء الرحالة عن المجتمع المصري يلاحظ أن أهم صورة لفتت انتباههم هي تعدد أجناسه و تنوع الشرائح الاجتماعية التي يتألف منها، ففي هذا الصدد يقول محمد بن عبد السلام الناصري:" وفيها من الأجناس أهل اليمن والحجاز والعراق والشام والهند والصين والسند والفرس والتكرور والإفرنج والروم والقبط والترك والبربر وأهل المغرب على اختلاف أجناسهم من عربي وأعجمي وصحراوي وسوداني...، وفيها المماليك بأنواعها الثلاث الحبش والزنج والإفرنج، فلقد جمعت كثيرا من كل نوع من هذه الأجناس ..."[2]، وهذا الرأي أيده فيه أيضا الورتلاني إذ أشاد هو الآخر في رحلته بالزخم السكاني المتنوع الذي اتسم به المجتمع المصري وهذا ما يظهره قوله:" نعم إن أمر مصر غريب وعجيب في كل الأصناف والأنواع و الأجناس، مهما رأيت جنسا فيها إلا وقلت أن هذا الجنس هو الغالب فيها...وهذا من عجائب مصر ... لأن مصر تغنى عن الغير ولا يستغني الغير عنها، فهي رحمة لأهل التقوى ونقمة لغيرهم فهي مدينة الأنبياء والصحابة والتابعين والعلم وأهله ..."[3] .

إنّ ما استوقف الرحالة في حديثهم عن المجتمع المصري والفئات التي تكون منها وجود ظاهرة التفاوت الطبقي، وفي الواقع أن هذه الظاهرة أشار إليها العديد من الرحالة سواء المغاربة أو الأوروبيين، فأحمد بن ناصر الدرعي أكد في هذا الصدد أن المجتمع المصري انقسم إلى فئتين، الأولى هي الفئة الحاكمة وتضم الباشوات و الولاة والعساكر، و هي تتمتع حسبه بالحظوة والسطوة والمكانة الكبيرة، وأما الفئة الثانية فهي فئة العامة وتتكون من مختلف الشرائح وعلى رأسها طائفة الفلاحين، وكانت هذه الشريحة تعيش وضعية اجتماعية متردية فهي عكس الفئة الأولى تمتاز بأنها كانت في غاية الذل و الإهانة، يقول الدرعي عن ذلك:" لا بد أن تشتمل مصر على طائفتين إحداهما في غاية العتو والاستكبار والأخرى في غاية الذل والاحتقار..."[4]، وقد أكد الزياني وجود هذه الظاهرة في مصر، ففي سياق حديثه عن هذا الأمر أوضح أنها تحتوي على فئتين مختلفتين فئة تتمتع بثراء شديد ويصل بها الأمر بهذه الفئة إلى كراء البيوت في طريق خروج المحمل، وهذه المنازل لا تستخدم طول

---

[1] علماء الحملة الفرنسية، **وصف مصر المصريون المحدثون** ، تر: زهير شايب، ط3، صندوق التنمية الثقافية ، 1992م، ص ص 23،24.

[2] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى** ...، المصدر السابق ص 811.

[3] الورتلاني، المصدر السابق، ج2، ص 646.

[4] الدرعي ، المصدر السابق، ص 257.

العام إلا في هذه المناسبة، وفي المقابل توجد طبقة أخرى تعاني بؤسا شديدا لدرجة أنها تسكن بمقربة من قبور الأولياء الصالحين وترتزق من المساعدات والهبات التي يقدمها الوافدون لهذه المزارات[1].

ويبدو من خلال ما أورده الرحالة أن المجتمع المصري قد كان يضم فئات عديدة، ولا ريب أن هذا التنوع الذي شهدته مصر يعود إلى المكانة والأهمية التي احتلها مصر عبر التاريخ والتي جعلتها نقطة جذب واستقطاب لكثير من الأجناس الذين وفدوا عليها من كافة الأقطار، فتحول المجتمع المصري على إثر ذلك إلى خليط من الأجناس، ينفرد ويتميز كل جنس منه بخصوصياته وسماته المحددة، وعلى العموم يمكن حصر أهم الفئات الاجتماعية التي ذكرها الرحالة في مصنفاتهم على النحو التالي :

الأتراك العثمانيين:

احتلت هذه الفئة المرتبة الأسمى بين فئات المجتمع المصري، كانت ممثلة في القرن الثامن عشر في الحكام والفرق العسكرية، لم يسجل الرحالة الشيء الكثير عن هذه الفئة، ولهذا فإن صورة هذه الشريحة أتت محدودة في مدوناتهم .

وعموما يمكن القول أن الرحالة اتفقوا على أن الأتراك العثمانيين في القرن الثامن عشر كانوا يشكلون طبقة أرستقراطية لا سيما أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم سادة البلد ، ومن أهم السمات التي تميزوا بها حسبهم هي صفة الاستكبار والاستعلاء، ويرى بعض الرحالة المغاربة الأتراك أنهم يتميزون بالجور والظلم يقول عن ذلك أحمد بن ناصر الدرعي:" فبشواتها وسناجقها وولاتها وحكامها بل وسائر جندها وعسكرها ليس فيهم إلا ما أعماه حب الدنيا ... فلا يرحمون ضعيفا ولا يوقرون كبيرا، أينما بدت لهم صبابة من الدنيا وثبوا عليها إن كان صاحبها حيا تسببوا له بأدنى سبب ليأخذوا ماله، إما مع رقبته أو بدونها ... وإن كان ميتا ورثوه دون بنيه وبناته" [2].

لقد سجل الرحالة ملاحظات مهمة حول هذه الشريحة، فأشار الرحالة جيرارد دي نارفال إلى أن عددهم لم يكن يزيد عن عشرة ألاف نسمة [3]، ومن جهته أكد فولني أنهم كانوا يتمركزون في المدن والحواضر الكبرى على عكس القرى التي كان وجودهم فيها شبه محدود، والملاحظ أن معظم أفراد هذه الفئة كانوا يستحوذون على أهم الوظائف السياسية والعسكرية و الإدارية في السلطة، غير أن هذه المكانة التي ظلت تتمتع

---

[1] أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، تح: عبد الكريم الفيلالي، دار المعرفة للنشر والتوزيع ، الرباط، 1991م. ، ص ص 205، 206، 210.

[2] الدرعي، المصدر السابق، ص ص 257، 258.

[3] جيرارد دي نارفال، **الرحلة إلى الشرق**، ج3، ترجمة: عبد السلام البحيري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، دت، ص 272.

بها هذه الفئة سرعان ما تراجعت بفعل تزايد نفوذ المماليك الذين أصبحوا يسيطرون على مقاليد الحكم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر [1].

ويزودنا الحيوني الذي زار مصر في القرن التاسع عشر بصورة أكثر دلالة تعكس أحوال الأتراك العثمانيين بعد إزاحتهم من الحكم وتولي محمد علي زمام السلطة، فبالرغم من ضعف مكانتهم إلا أنهم ظلوا يشكلون طبقة متميزة في المجتمع المصري فقد أحاطوا أنفسهم بمظاهر الترف والبذخ، فكانوا يركبون أفضل الخيول ويبالغون في تزيينها بالذهب، وهو ما أكده الحيوني بقوله:" ويركبون على الخيول جلهم قريوسية المقدم والمؤخر كلاهما يغشيهما بالذهب، ويغشي أيضا جواء الكابوس يجعله في القريوس الأول، ويغشي اللجام بالذهب، ويجعل للفرس لجاما في جبهته من ذهب، ومنهم من يلبس الشكاري مذهبة من فوقها إلى تحتها في الأعياد "[2]، و إضافة إلى ذلك يشير الحيوني أيضا أن معظم الأتراك كان لهم خدام من المصريين يسهرون على توفير الراحة يقول الحيوني بهذا الخصوص: " وكل تركي له خدام من الفلاحين، فمتى ركب على فرسه تقدم الخدام أمامه يحيدون الناس عن الطريق، يقولون ظهرك جنبك وشد عينيك شمالك حتى يترل في موضعه، ويأخذ الخدام الفرس ...".[3]

وهكذا يتضح لنا أن الطبقة الحاكمة ظلت تتمتع بمكانتها المرموقة في المجتمع المصري، وقد كانت لها امتيازات كثيرة، ومنه فإن الفوارق الاجتماعية بينها وبين طبقة الرعية واسعة ولعلّ ذلك ما عبر عنه الرحالة في مصنفاتهم.

المماليك :

مثلت هذه الفئة طبقة مهمة ومتميزة في المجتمع المصري، إذ ظلت تحافظ طيلة عهود على مكانتها، وقد أوضح فولني أن أصولهم مختلفة فمنهم من تم جلبهم من بلاد منغوليا ومنهم من جلبوا من جورجيا والقوقاز وغيرها من المناطق الأخرى، وأما عن أعدادهم فهناك اختلاف في الإحصائيات وإن كانت هذه الاختلافات طفيفة، فوفقا لتقدير الرحالة فولني كان عدد المماليك خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر يبلغ حوالي ثمانية ألاف رجل موزعين بين بكوات وكشافين و أرقاء و معتقين، وكان من أعظم البيوتات المملوكية شأنا بيت إبراهيم بك الذي تألف من ست مئة مملوك، وبيت مراد بك الذي يتكون من أربع مئة [4].

[1] Volney, op,cit, p 89.

[2] الحيوني، المصدر السابق، ص 123.

[3] نفسه، ص 124

[4] Volney, op,cit, p 152

و على الرغم من قدم تواجد المماليك في مصر إلا أنهم لم يندمجوا و ينصهروا مع السكان الأصلين لمصر، حيث ظلوا يشكلون طبقة منعزلة عن الأهالي لها خصوصياتها، واللافت للنظر أنهم كانوا يجددون نسلهم من خلال جلب الرقيق من بلاد نشأتهم، وهذا العامل أدى إلى زيادة عددهم وتكاثرهم [1].

أكد أغلب الرحالة على أن نفوذ المماليك قد تعاظم في القرن الثامن عشر، فقد كانوا هم الحكام الحقيقين لمصر[2]، وهذا في ظل تراجع سلطة الولاة العثمانيين، ومما يؤكد هيمنتهم على شؤون الحكم هو أن السلطة المدنية والعسكرية قد تركزت في أيديهم، فمن من أهم الوظائف التي تولوها هي حكم المقاطعات الأربع والعشرين بالإضافة إلى السهر على جباية الضرائب والتصدي لهجمات الأعراب والمحافظة على الأمن الداخلي [3].

ظل المماليك يعيشون كطبقة منفصلة عن سائر الطبقات الأخرى، واللافت للنظر أنهم اشتهروا بحياة الترف والأبهة و البذخ[4]، ومن مظاهر ذلك ما سجله الرحالة عنهم، حيث ذكروا أنهم سكنوا أحسن القصور وأجمل المباني والقلاع، كما سيطروا على أجود الأراضي[5]. وقد أكد هذا الأمر أيضا العديد من المؤرخين ومن أمثلة ذلك حديثهم عن حسن كاشف الذي بنى لنفسه قصرا في الناصرية من أفخم القصور وأجملها وقد أنفق عليها أموالا طائلة، وكذلك بالنسبة لعبد الرحمن كتخدا الذي كانت له دار عظيمة، تتميز مجالسها بأنها منقوشة بالذهب المموه و مزخرفة بالرخام الأبيض وكذلك الحال بالنسبة للكثير من الأمراء المماليك [6].

أجمع الرحالة على وصف المماليك بالاستبداد والظلم وقد ساقوا في مذكراهم العديد من الأمثلة التي تدعم وجهة نظرهم حيث قال عنهم الورتلاني:" إن أكثر العسكر في مصر خوارج وطغاة لا تعمى أبصارهم لكن تعمى قلوبهم ... إنهم يأتون المستضعفين من الناس فيبيعونهم عبيدا ويجعلونهم أسرى يخدمون في مدينة السويس إلى أن يموتوا أهلكهم الله"[7]، وأما فولني فوصفهم بأنهم تميزوا بالعتو والاستبداد و سجل أنهم فرقة من الأرقاء الطغاة، ليس لهم قاعدة للحكم سوى العنف، وأضاف بأن مصر قد دخلت في عهدهم مرحلة خطيرة إذ عمت بها الحروب والنزاعات الأهلية[8].

---

[1] Volney, op,cit, p 101.

[2] إينسلي، المصدر السابق، ص 82.

[3] Volney, op,cit, p97.

[4] مرفت أسعد عطا الله، "الحياة الإجتماعية لبكوات المماليك في مصر في القرن الثامن عشر"، مجلة مصر الحديثة ، ع 8 ، 2009، ص 117.

[5] ذهني، **مصر في كتابات الرحالة** ...، المرجع السابق، ص 109.

[6] محمود الشرقاوي، **مصر في القرن الثامن عشر** ، ج1، مكتبة الانجلو المصرية، مصر 1955م،ص 105.

[7] الورتلاني، المصدر السابق، ج2، ص 644.

[8] Volney, op,cit,p 95, 96.

لقد أفاض الرحالة في وصف المماليك وعاداتهم وبالرغم من الصورة القاتمة التي سجلوها عنهم إلا أن ذلك لم يمنع البعض منهم من الإشادة ببعض السمات التي لاقت إعجابهم، ومن أهمها الصبغة العسكرية التي تميزوا بها حيث لاحظوا أن المماليك يشتهرون بقوتهم وكفاءاتهم العسكرية فقد برعوا في مجال الفروسية، كما أبانوا عن مقدرتهم وشجاعتهم في الحروب التي لا يدانيهم فيها أحد، فهم ينشؤون منذ صغرهم نشأة عسكرية وقد شهد لهم الرحالة بكفاءتهم وهذا حينما اعتبروهم أشجع المقاتلين في العالم وقد قدموا لنا في هذا الصدد وصفا لأسلحتهم ومختلف التدريبات التي كانوا يتلقونها[1].

ومما يجب الإشارة إليه أنه بحلول القرن التاسع عشر عرفت فئة المماليك تقلصا كبيرا في أعدادها، بل يمكن القول أن هذه الطبقة التي كانت تحتل مكانة مرموقة في المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر لم يعد لها وجود في التركيبة الاجتماعية لمصر، فالملاحظ أنها تراجعت وتلاشت بشكل ملحوظ، ويرجع ذلك إلى مجموعة من العوامل من بينها توقف ومنع جلب المماليك من بلاد القوقاز، فلا يخفى علينا أن هذه التجارة كانت تشكل المصدر الرئيسي لاستمرار نسلهم في مصر، أضف إلى ذلك الحروب الطاحنة التي خاضوها ضد جيوش الحملة الفرنسية والتي أسفرت عن خسائر كبيرة، لتأتي نهايتهم في الأخير على يد محمد علي باشا الذي قام بتدبير مذبحة القلعة في سنة 1811م، وهو ما أودى بحياة أعداد كبيرة من هذه الطائفة، وكل هذه التطورات تنم عن مدى التحولات التي مست المجتمع المصري خلال القرن التاسع عشر[2].

العلماء :

إلى جانب الطبقات الاجتماعية السالفة الذكر وجدت بمصر شريحة أخرى كان لها تأثير كبير في المجتمع المصري، وهذه الفئة هي فئة العلماء والتي يندرج ضمنها أيضا فئة القضاة والفقهاء و المفتين والمدرسين وغيرهم من القائمين على المؤسسات الدينية والتعليمية.

حازت طبقة العلماء على مكانة مرموقة في المجتمع المصري، إذ لم تكن في مصر فئة تحضى بالإحترام والتقدير مثلما حضيت به هذه الفئة التي استطاعت في ظل الظروف المضطربة التي سادت البلاد أن تحافظ على كيانها ومكانتها، و الجدير بالذكر أن هذه الفئة قد اضطلعت بدور هام في القرن الثامن عشر نظرا للتأثير الكبير الذي حضيت به، فبحكم أن الحكام والرعية كانوا يشكلون طبقتين مختلفتين فكثيرا ما كان هؤلاء العلماء

[1] Savary, op ,cit , p134. volney , op,cit, p 150, 152

[2] سمير عمر ابراهيم ، **الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر**، هـــ.م.ع. ك، القاهرة ، 1992، ص 42.

يقومون بدور الوسيط بين الجانبين، كانت لهم الزعامة الدينية والعلمية والسياسية [1]، وللإشارة فإنه بالرغم من النفوذ الذي انفردت به هذه الطائفة في القرن الثامن عشر إلا أن مكانتهم الاجتماعية سرعان ما تراجعت بشكل كبير وبالأخص في عهد محمد علي الذي عمل على تقليص دورهم في ظل التحولات التي عرفها عهده، وقد نقل لنا الرحالة في مصنفاتهم مظاهر هذا التراجع الذي مس مكانة العلماء، فإدوارد وليام وهو يتحدث عن سمات الحركة الفكرية لفت انتباهنا إلى الوضع الاجتماعي المتردي الذي أصبحت تعيش في كنفه هذه الفئة، ومن أهم ما أشار إليه هو أن هؤلاء العلماء قد تضائل نفوذهم وتقلص، حتى أن جزءا كبيرا منهم لم يعد لهم مصدر لكسب رزق عيشهم سوى اللجوء إلى التدريس في المنازل الخاصة أو نسخ الكتب وحتى العمل في التجارة[2]، وفي الواقع أن هذه الحقيقة لم يشر إليها ادوراد وليام لين فقط، بل أكدها أيضا الرحالة المغربي الغيغائي، وذلك في قوله:" لاتظن أنه فقيه لأنك تراه جزارا أو سمسارا أو طباخا أو سقاء أو عمالا أو حمالا، ولا تجد ذا مروءة أو حسن أدب إلا فقيها أو ولد فقيه"[3].

لقد اختلف المؤرخون في تفسير أسباب انحسار نفوذ العلماء في القرن التاسع عشر، فمنهم من أرجع ذلك إلى سياسة محمد علي الذي قام بتقليص نفوذهم من أجل المضي في حركة التحديث[4]، في حين أرجعه البعض الآخر إلى طبيعة الجامع الأزهر الشريف الذي ظل يسير وفق نظامه القديم فعدم مواكبته لحركة الاصلاح والتجديد التي باشرها محمد علي أدى إلى انتقال مركز الثقافة من الأزهر إلى المدارس والمعاهد، وبذلك لم يعد باستطاعتهم المشاركة في الشؤون السياسية والإدارية، وعلى إثر ذلك تضاءل نفوذهم وارتفعت في المقابل مكانة الفئة المتخرجة من المدارس والمعاهد العلمية والحربية، فهم بحكم توليهم لعبء الجهاد وحملهم للواء الإصلاح امتازوا على طبقة العلماء و حجبوها بما نالوه من النفوذ والسلطة[5].

الفلاحين :

من المعلوم أن هذه الفئة كان يتشكل منها معظم سكان مصر، حيث يذكر الرحالة أنهم كانوا يتركزون في الأرياف و القرى، وهم يمتهنون في الغالب الزراعة، لكن بالرغم من أهمية هذه الطبقة في المجتمع المصري إلا

---

[1] هناء بهي الدين أحمد يوسف العزب، **المجتمع المصري خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر** ، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجيستير في التاريخ الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية ، جامعة الدول االعربية، غير منشورة، 2007م، ص 70، 71.

[2] وليام لين، المصدر السابق، ص ص 214- 216

[3] الغيغائي، المصدر السابق، ص 113

[4] عفاف لطفي السيد، "العلماء ودورهم في مصر مطلع القرن التاسع عشر"، مجلة الإجتهاد ، مج 1، ع 4، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر ، 1989م، ص 233.

[5] الرافعي، **عصر** ... ، المرجع السابق، ص 548.

أن الشيء الملاحظ أنها لم تحض بالمكانة اللائقة بها، إذ أجمع جل الرحالة الذين زاروا مصر على الإشارة إلى الوضع السيئ الذي تقبع فيها هذه الشريحة سواء في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر، وقد نقلوا لنا في رحلاتهم صورا مختلفة تعكس أحوال هذه الفئة، فمحمد بن عبد السلام الناصري أوضح أنها كانت تعيش ظروفا اجتماعية قاسية، وهذا نتيجة للإهانة والقهر المفروض عليها من طرف الحكام والجند، وهذا ما يؤكد لنا بقوله: "وأما رعيتها وفلاحتها فلا تسأل عما يلاقون من الجند من الظلم وما هم فيه من الإهانة والاحتقار، تضرب ظهورهم وتؤخذ أموالهم ولا مشتكى لهم إلا الله، ومن تجابر منهم واشتكى ضُوعف عليه العذاب الأليم"[1] .

ويبدو من خلال ما ذكره الناصري أن فئة الفلاحين قد قدر لها أن تعيش حياة يطغى عليها الفقر و البؤس والمهانة والاستحقار، ففي توضيحه للأحوال المتردية التي عانى منها الفلاحون في مصر يسوق الفقيه الحيوني أيضا أمثلة حية وذات دلالة كبيرة على الظلم الذي كانوا عرضة له، إذ أشار إلى أنه كان يتم حرمانهم من حق التملك، كما كانت تفرض عليهم الضرائب والغرامات الباهظة لدرجة أنه لم يترك لهم أي دخل يمكنهم من العيش بكرامة، وقد بين ذلك بقوله:"وأمّا الفلاحين خارج المدينة لا عيشة لديهم ولا لباس، قد جردهم الحاكم وأخذ منهم جميع العدة، وجميع البلدان عنده (أي الأراضي) مكتوبة،كل بلد ومقدار ما فيه من أخيال التراب، وكل واحد من أهل البلد مثلا مكتوب عليه عدة ما عنده من الأخيال ... فمتى حرثوا ودرسوا يدفعون قيمة الأخيال للشيخ والشيخ يدفع للحاكم والحاكم يبعث للباشا وهكذا، ومن لا دراهم له فيدفع ... فإن فضل له شيء أخذه وإلا دفع الجميع وجعل عليهم ما يعطون كل سنة على الديار كذا وعلى كل نخلة كذا وكذا خراجا حتى تركهم في الحزازيم" [2] .

ولا يختلف وصف فولني لوضعية الفلاحين عن ما أورده الغيغائي بل يؤيده إلى حد كبير، حيث نجده قد أولى عناية كبيرة بحالة الفلاح المصري، وقد ربط تردي وضعه الاجتماعي بالنظام السياسي الذي انتهجه المماليك، فأكد أن هذه الفئة كانت عرضة لكل أنواع التعسف والإهانة، فهي كانت تعيش تحت وطأة الضرائب[3]، ومما زاد من معاناتها أن ملكية الأراضي كانت بيد البكوات المماليك، وأما هؤلاء الفلاحين لم

[1] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى** ، المصدر السابق، ص 812.

[2] الحيوني، المصدر السابق، ص ص 113،114

[3] لقد أورد بريس دافين في رحلته مايؤيد حديث فولني بشأن معاناة الفلاح المصري و الضرائب التي كان يفرضها الولاة عليهم حيث أكد أنهم كانوا يفرضون عليهم ضرائب باهضة، وهؤلاء الفلاحين كانوا ضحية لكل موظفي الوالي من أعلاهم إلى أدناهم، ويضيف بأنه إذا كان الفلاح يملك أي قروش فإن هؤلاء الموظفين يطمعون فيه ويجبرونه على دفعها فإذا رفض فإنه يتعرض للسجن كما تتم معاقبته بدنيا بالضرب بالعصا . أنظر: دافين ، المصدر السابق، ص 71.

يكونوا سوى عمال مأجورين و لم يترك لهم الحكام إلا ما هو ضروري لضمان بقائهم على قيد الحياة[1]، وذهب الورتلاني إلى أبعد من ذلك حيث اعتبر هذه الفئة كانت راضية بالواقع الذي تعيشه لأن نفوسهم ميتة وقد تربوا على الذل والاحتقار و لم تقطن في نفوسهم حب الرياسة أبدا[2]، وما يؤكد هذا الأمر ما ذكره أيضا أحمد بن ناصر الدرعي في قوله:" إذ لا يعرفون في بلادهم قتالا ولا مدافعة عن النفس لكونهم رعايا إن شتموا مروا وإن ضربوا فروا...." [3]، وبالعودة إلى ما سجله الجبرتي نجد الكثير من الروايات التي تؤكد الواقع المزري الذي أضحى عليه حال الفلاحين حتى أن الكثير منهم اضطروا إلى الهجرة والفرار إلى بلاد الشام وذلك هروبا من الضرائب و المغارم التي أثقلت كاهلهم [4].

لقد استمر تردي الوضع الاجتماعي للفلاحين حيث لم تعرف أحوالهم أي تحسن في القرن التاسع عشر بالرغم من التحولات الكبيرة التي شهدتها البلاد، بل إن وضعيتهم ازدادت أكثر سوءا على ما كانت عليه، وهو ما لاحظه الغيغائي ونقله لنا في رحلته حيث قدم لنا صورا متعددة تعكس جليا الوضع المزري الذي أضحى عليه الفلاحون، ومن أهم تلك الصور دلالة حديثه عن خضوعهم الكامل للنصارى وخدمتهم لهم بشكل يعكس مكانتهم المتدنية والتفاوت الطبقي الذي أضحى يميز المجتمع المصري حيث يقول:" ومن دناءة القطر المصري خدمتهم للنصارى، فإذا ركب النصراني مشى الفلاحون أمامه وخلفه ... ويأخذ المسلم بركاته والرومي يهز الحمار وكذلك يخدمون لهم الدواب ويقفون على الأبواب يقضون لهم الحوائج و يتسخرون لهم كالعبيد "[5].

إنّ وصف الرحالة لفئة العامة والفلاحين لم يقتصر على الحديث عن معاناتهم ووضعيتهم الاجتماعية المتردية فحسب، بل نقلوا علاوة على ذلك صورا إيجابية متعددة، فسجل الورتلاني أنهم يتميزون بالبنية القوية و يشتهرون بقدرتهم على تحمل كافة المتاعب حيث يقول: "فبالليل يسيرون و بالنهار يعملون في البيع والشراء وفي السفن والزراعة والسقي وفي الطبخ وغيرها من المهن ولا يرتاحون إلا قليلا" [6]، وأما فولني فأكد أنهم يتسمون بالقوة والعناد ويضيف بأنهم يتمتعون بكافة المؤهلات، فهم يملكون الشجاعة التي تجعلهم ينتفضون ضد الحكام لتغيير واقعهم المتردي، لكن رغم هذه المزايا ظلت هذه الفئة تعيش تحت وطأة الضيق

[1] Volney, op,cit,p 171, 172

[2] الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 294،295.

[3] الدرعي ، المصدر السابق، ص 318.

[4] الجبرتي ، المصدر السابق، ج4 ، ص 114

[5] الغيغائي، المصدر السابق، ص 83.

[6] الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص ص 333، 334.

والكرب، وبطبيعة الحال لا يمكن مقارنة وضعها الاجتماعي بوضع الطبقات الأخرى فهي تقبع في مؤخرة السلم الطبقي[1].

البدو والعربان :

شكل البدو أو العربان كما اصطلح على تسميتهم شريحة مهمة في المجتمع المصري، وقد أكد الرحالة على أن نمط معيشتهم يختلف عن نمط حياة بقية الفئات الاجتماعية الأخرى، فهم يشكلون مجموعات من العشائر والقبائل التي تعيش في الصحاري و الأماكن المعزولة عن المدن، وأهم ما يميزهم حسب ما يشير إليه فولني الترحال والتنقل المستمر، كما أنهم لا يخضعون لقوانين محددة ، فضلا على أنهم لا يرتبطون بالأرض إلا بمقدار ما تؤمنه لهم من كلأ ومرعى لقطعانهم[2].

لم يقدم الرحالة في كتاباتهم احصائيات دقيقة حول عدد القبائل والبدو في مصر، لكن هناك بعض الإشارات المهمة التي يمكن من خلالها معرفة أعدادهم، وإن كان ذلك بشكل تقريبي، فوفقا لما أورده فولني فإن عددهم خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر قد بلغ حوالي ثلاثين ألف خيال [3]، وفي إحصائية أخرى قدر علماء الحملة الفرنسية عددهم بأربعين ألف، وكانت معظم تلك القبائل تتوزع في الصحاري المحيطة بمصر[4].

بالنسبة للتنظيم الاجتماعي والإداري الذي كان يخضع له البدو، فإن أهم ما استرعى الرحالة هو أن كل الدول التي تعاقبت على حكم مصر بدءا بالمماليك ثم العثمانيين قد عجزت على فرض سيطرتها عليهم أو إخضاعهم، ولهذا فإن البدو تميزوا بتنظيم اجتماعي وإداري خاص يتلائم مع نمط حياتهم، وقد أشار كثير من الرحالة إلى هذا التنظيم، حيث ذكر سافاري بأن كل قبيلة كانت تتفرع إلى مجموعة من العائلات الكبيرة، و تخضع كل قبيلة لسلطة أعلى تتمثل في سلطة شيخ القبيلة الذي كان من مهامه حل المنازعات وقيادة الجيوش في الحروب [5].

اتفق الرحالة في حديثهم عن البدو على وصف طبيعة العلاقة التي كانت تجمع هؤلاء البدو مع الأتراك العثمانيين، ومن أهم ما لاحظوه هو أن العلاقة بين الطرفين قد اتسمت في الغالب بالعداء، إذ لطالما كانت هذه القبائل ترفض الخضوع للعثمانيين[6]، ومما يؤكد ذلك ما أورده الجبرتي أيضا فقد أوضح أن العربان كان لهم

---

[1] Volney, op,cit,p 177- 185

[2] Ibid,p 70,71.

[3] Ibid ,p 71, 72

[4] علماء الحملة الفرنسية، المصدر السابق، ص ص 36، 37.

[5] SAVARY , op,cit,p 23, 26

[6] سلمان بدر شحادة، "العرب بعيون المستشرقين الفرنسيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر"، مجلة البعث، مج 42 ، ع 31، 2020م، ص ص 46- 48

دورا مهم في حالة الفوضى والفتن السياسية التي عمت البلاد المصرية خلال القرن الثامن عشر، ولعلّ ما سجله عن عرب هوارة بزعامة الشيخ همام و عربان الحبايبة بزعامة حبيب بن سويلم يكفي للدلالة على دورهم في إثارة الفتن و التمردات [1].

إنّ وصف الرحالة لفئة العربان لم يقتصر على الحديث عن نمط حياتهم وتنظيمهم الاجتماعي فحسب، بل لفتت انتباههم أيضا أمور أخرى لاسيما ما تعلّق بوضعهم الاقتصادي وعاداتهم وصفاتهم، والشيء الملاحظ على ما سجله هؤلاء الرحالة سواء تعلّق الأمر بالرحالة المغاربة أو الأوروبيين أنهم اتفقوا على الاشارة بأن أهم صفة امتاز بها البدو هي اعتمادهم على السرقة و النهب[2]، والجدير بالذكر أن هذه الصفة ظلت ملازمة لهم منذ أقدم العصور وهذا راجع إلى قلة مواردهم من جهة وإلى طبيعة نمط معيشتهم الذي اتسم بعدم الاستقرار، ومما لاشك أن هذه العوامل جعلت البدو يألفون قطع الطريق ومهاجمة القوافل التجارية والحجية[3]، وقد سجلت لنا كتب الرحلات المغربية خطر الأعراب في أكثر من مناسبة.

و إذا كانت الصورة التي سجلها غالبية الرحالة عن البدو في الغالب هي صورة قاتمة نظرا للأدوار السلبية التي اضطلع بها البدو، فإن هذا لم يمنع بعض الرحالة من نقل صورة إيجابية عنهم، فبالرغم من أنهم كانوا يمتهنون مهنة السلب والنهب إلا أنهم يتميزون من ناحية أخرى بصفات حسنة ومنها حسن الضيافة والكرم والوفاء بالعهد، وهذا ما أشاد به سافاري عندما وصفهم بقوله:" هؤلاء العرب هم أفضل الشعوب على الأرض، لأنهم يتجنبون رذائل الشعوب المتحضرة، لا يعرفون الخداع أو الكذب، شامخون وكرماء، حسن الضيافة صفة أساسية لديهم "[4]، ويضيف في موضع آخر: " لم أقرأ في التاريخ و لم أعلم أنه يوجد في ما في الأرض شعب يحترم يمينه مثل العرب، فهي صفة ملازمة لهذا الشعب تميزه عن بقية الشعوب، وميلهم للنهب والسرقة لا يتنافى أو يتناقض مع حسن الضيافة لديهم فهم ليسوا أقل شرفا من العرب المزارعين" [5].

---

[1] الجبرتي، المصدر السابق، ج 3،ص ص488 – 490- 525.

[2] Volney, op,cit,p 71.

[3] إيمان محمد عبد المنعم، **العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر**، هـــ.م.ع.ك ، مصر، 1979م، ص 8. 23.

[4] SAVARY , **lettres sur l'egyte** ,t 3 ,paris, sd, p27 .

[5] Ibid, p 29.

الجاليات الأجنبية :

تُجمع كتابات الرحالة على أن الجاليات الأجنبية لم تكن تتواجد بشكل كبير بمصر خلال القرن الثامن عشر، لكن الظاهرة التي أكدوا عليها في كتاباتهم هي أنه مع حلول القرن التاسع عشر بدأت أعدادهم تتزايد بشكل ملحوظ حتى أنهم أصبحوا يشكلون شريحة هامة في المجتمع المصري .

لقد تعددت وتنوعت الأجناس الأوروبية التي استقرت في مصر خلال القرن التاسع عشر، ومما يؤكد ذلك ما أورده الغيغائي عندما حل بالإسكندرية، حيث لاحظ بأنها تحتوي على أجناس مختلفة ومن كل بلد، وقد بلغ عددهم حسبه أكثر من أربعين جنسا، ومن أهم تلك الجاليات حضورا في مصر نجد الفرنسيين والانجليز واليونانيين و غيرهم من الأجناس الأخرى، وإذا كان هناك اختلاف في تقدير عددهم فإن الغيغائي يورد إحصائية هامة يمكن من خلال معرفة مدى تزايد أعداد هذه الفئة خلال القرن التاسع عشر فهو يذكر بأنه في حجته الأولى قد بلغ عددهم حوالي سبعين ألف شخص، وأمَا في حجته الثانية فإن عددهم قد ارتفع بشكل لافت،وقد كتب في هذا الشأن :" وفيها من الترك وتجارها ومن أهل الشام والأعاجم النصارى، ومن نصارى الشام ومن الروم من كل بلد... وفيها من حومات النصارى وأجناسها كلها، قالوا بلغوا سبعين ألف بالإحصاء وذلك في سفرنا الأول، وأمّا اليوم فإنهم يزيدون عن هذا العدد لأنهم لم يزالوا يبنون ويسكنون ولا سيما بالمحمودي ملكوها كلها "[1] .

كانت الجاليات الأوروبية في مصر تخضع لتنظيم اجتماعي خاص بها، فقد كان لكل جنس من هذه الأجناس سناجق وأحياء خاصة بهم[2]،كما كان لكل طائفة دينية قنصل خاص بها، وهو يُعدّ بمثابة وكيل السلطان الذي يرعى شؤونهم و يحل المنازعات ومختلف المسائل المرتبطة بهم، أضف إلى ذلك تمتعت الجاليات الأوروبية بالحرية الدينية في مصر، فقد كان للنصارى عدّة كنائس يمارسون فيها شعائرهم الدينية، وقد أوضح الغيغائي التنظيم الذي تميزت به الجاليات الأجنبية في مصر حيث وصف ذلك بقوله:" ... وكل جنس له قنصو وهو وكيل السلطان، ولهم بها كنائس كبار والمشهور منها أربعة، والكبرى منهم هي للجنس الركريكي... وتليها كنيسة الإنجليز... وكل الأجناس الرومية لها سناجق إلا الجنس الركرك، وكذا جنس المسكوف لهم

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص ص 80،81.

[2] إن اختيار النصارى الإقامة في أحياء خاصة بهم لم يكن بأمر من الدولة العثمانية وإنما يرجع ذلك إلى حرص هؤلاء النصارى على المحافظة على هويتهم وخصوصيات مجتمعهم ، ومن أهم الأحياء التي ارتكزوا فيها نذكر: حارة النصارى أو حي الأقباط الذي كان مقره خلف الجامع الأحمر ، وحي الإفرنج الذي كان مقره بالقرب من حي بيولاق، بالاضافة إلى حارة الروم الجوانية وحارة الونديك التي كان يسكنها أكابر النصارى . للمزيد أنظر: أحمد حامد القضاة، "نصارى مصر دراسة في ضوء كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي 1733م-1821م"، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع23، السنة 12، 2011، ص ص 192- 196.

اليوم سنجق "[1]، كذلك يشير الورتلاني إلى أن النصارى كانوا يمارسون شعائرهم الدينية في وادي الرهبان حيث كان لكل طائفة دير خاص بها و لا يدخل أحد من غير جنسهم إليها[2]، وأما فيما يخص مناطق تمركز الجاليات الأوروبية فإن الملاحظ أن تواجدهم قد اقتصر أكثر على المدن الكبرى وخاصة تلك المعروفة بنشاطها التجاري كمدينة الاسكندرية والمحمودية فضلا عن مدينة رشيد[3] و دمياط و القاهرة [4].

أكد الرحالة على أن الجاليات الأوروبية على اختلاف أجناسها استأثرت بنفوذ كبير في القرن التاسع عشر، فمن أهم ما لاحظوه أن هذه الشريحة قد ارتفع شأنها في مصر، وأضحت تحتل مكانة مرموقة تفوق في بعض الأحيان ما كان يتمتع به السكان الأصليين، ومما يؤكد ذلك أنهم هيمنوا على كافة الميادين السياسية والاقتصادية والإدارية، فالفقيه الحيوني عند دخوله إلى الإسكندرية أول ما شدّ انتباهه هو أن معظم حكامها كانوا من النصارى، كما أنه أكد في مواضع كثيرة من رحلته بأنه كانت لهم كلمة نافذة وسلطة كبيرة وهذا ما بيّنه بقوله:" والنصارى وصنعتهم والكلام كلامهم والحكام منهم والأسواق كلها على أيديهم"[5].

ومما يشير أيضا إلى النفوذ الذي تمتعت به أفراد الجاليات الأوروبية ما أورده الغيغائي في رحلته فمن أهم ما أشار إليه أن هيمنة الأوروبيين قد امتدت لتشمل كافة الوظائف المهمة في البلاد، ولعلّ ذلك ما يظهره قوله: "للنصارى بهذا القطر كلام عال وشأن كبير، وإنك لا ترى مرسى ولا أعشار سلعة ، ولا بيت حكم من الأحكام ولا موضع وزن ولا كرسي ديوان ولا قشلة عسكر ولا مخزنة مؤن له ولا محل قبض أو عطاء ، ولا موضعا ترده الأخبار سرية أو جهرية، إلا وعليها النصارى وهم الآخذون والمعطون ، وهم الأمناء والكتاب وهم على كل سر خفي أو جلي حتى أمور المملكة وهم المدبرون لها والمتصرفون فيها كتابة و قراءة، وهم الصناع والمعلمون وهم القائمون بالسلك الآتي بالأخبار من كل الأقطار"[6].

ومن الأمور الأخرى التي تعكس المكانة الكبيرة التي تمتعت بها للجاليات الأجنبية في لمجتمع المصري أيضا ما رصده الغيغائي بشأن الاختلاف الكبير الذي لاحظه بين مستوى معيشة السكان المحليين وهؤلاء الأجانب الذين أحاطت بهم مظاهر البذخ والترف في الإسكندرية إذ قال عنهم:" وللنصارى بها حظ وافر من

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 81.

[2] الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص 293.

[3] لاحظ الرحالة التمراوي الذي زار مصر في سنة 1827 وجود عدد كبير من النصارى في مدينة رشيد، وقد كتب عن ذلك " هي مدينة عظيمة على شاطئ النيل متقنة البناء كثيرة القصور، وفي مرساها من الغرب عدد كثير ينيف بالحرص عن أربعمئة ". أنظر: محمد مختار السوسي، المصدر السابق ،ص 201.

[4] علماء الحملة الفرنسية ، المصدر السابق، ص 43

[5] الحيوني، المصدر السابق، ص 46.

[6] الغيغائي، المصدر السابق، ص 83.

قصور بديعات وغرف عاليات وملابس فاخرة ... ومراكب حسنة من عربيات جميلة وهي أكداش مزوقة بالذهب والفضة تجرها خيول عتيقة رفيعة وخدام أمام وخلف" [1]، ولعلّ نفس الظاهرة أكدها الجبرتي عندما وصف ما يتميز به النصارى فأشار أنهم يرتدون الملابس الكشميرية والملونة والغالية الثمن، كما أنهم يركبون الرهونات والبغال والخيول، ويوجد أمامهم وخلفهم الخدم الذين يحملون العصي بأيديهم ليطردوا الناس عن طريقهم [2] .

والجدير بالذكر أن الرحالة في وصفهم لوضعية الأوروبيين في مصر لم يكتفوا بالحديث مكانتهم فحسب، بل إنهم قدموا كذلك تفسيرات لمظاهر تفوقهم وعلو شأنهم، و بالعودة إلى ما سجلوه يمكن القول بأن أهم عامل ساهم في نظرهم في بلوغ الأوروبيين لهذه المكانة هو طبيعة نظام الحكم والسياسة التي انتهجها محمد علي اتجاههم والتي كان من أبرز معالمها التقارب والاستعانة بالأجانب في مختلف الوظائف و المجالات [3].

أهل الذمة :

عادة ما يستخدم مصطلح أهل الذمة للإشارة إلى الرعايا الغير المسلمين التابعين للحاكم المسلم، وكغيرها من البلدان عرفت مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وجود بعض الأقليات الدينية التي امتزجت مع السكان المحليين، ومن أهم هذه الأقليات فئة الأقباط النصارى بالإضافة إلى الطائفة اليهودية [4].

يرى فولني أن الأقباط المتواجدين بمصر ينحدرون من سلالة الفراعنة لكنهم اختلطوا مع الفرس والروم، وهم يتميزون عن العرب بديانتهم النصرانية[5]، كان عددهم وفقا لما أشار إليه إدوارد وليام لين يقدر بحوالي مئة وخمسين ألف نسمة في مطلع القرن التاسع عشر، منهم عشر ألاف تعيش في القاهرة على ضفاف نهر النيل [6]، في حين أن معظمهم كان يقطن في منطقة الصعيد أين كانت تتألف منهم قرى بأكملها [7].

شكل الأقباط أقلية ذات نفوذ كبير في المجتمع المصري حيث سيطرت هذه الطائفة على أهم الوظائف الإدارية، إذ تولوا الإشراف على سجلات الضرائب، كما وصل بعضهم إلى أعلى المراتب فمن هذه الفئة كان

---

[1] الغيغائي، المصدر السابق ، ص 83.

[2] الجبرتي، المصدر السابق، ج4، ص 198

[3] الحيوني، المصدر السابق ، ص 109. علماء الحملة الفرنسية ، المصدر السابق ، ص 156.

[4] هناء بهي الدين أحمد يوسف العزب ، المرجع السابق، ص 75.

[5] Volney, op,cit, p 72.

[6] وليام لين، المصدر السابق، ص 545.

[7] Volney, op,cit,p 72.

يتم اختيار الكتبة و الوكلاء والأمناء والمحاسبون، هذا بالإضافة إلى اشتغال جزء كبير منهم في الزراعة والصناعة والتجارة [1]، ومما ينبغي الإشارة إليه أن طائفة الأقباط قد حافظت على خصوصيتها، حيث ظلت تعيش بمعزل عن بقية الأجناس الأخرى التي يتكون منها المجتمع المصري [2].

هذا عن الأقباط، وأما عن فئة اليهود فقد شكلت هذه الطائفة هي الأخرى شريحة مهمة، وقد اختلف الرحالة في تقدير عددهم فبينما أشار إدوراد وليام لين أنهم بلغوا حوالي خمسة ألاف نسمة، قدم كلوت بك إحصائية أخرى تفيد بأن عددهم قد قارب سبعة ألاف نسمة [3]، وأمّا عن مناطق تمركزهم فيبدو أن الجزء الأكبر من اليهود كان يقيم في المدن الكبرى وبالأخص في القاهرة، حيث كانت لهم أحياء خاصة بهم تتسم حسب ما ذكره وليام لين بالأزقة الضيقة التي لا تسمح بمرور شخصين، كما أن منازلهم سيئة المظهر من الخارج، وهذا راجع إلى عدم رغبتهم في إظهار ثرائهم من جهة و محاولة الانعزال عن بقية سكان المدينة من ناحية أخرى [4].

كانت طائفة اليهود في مصر تتمتع بالحرية الدينية فقد كان لها معابد خاصة بها في أحيائهم، وهذا ما أكده إدوارد وليام لين عندما ذكر أن هذه الطائفة لم تتعرض لأي مضايقات عند ممارستهم لشعائرهم الدينية، بل على النقيض من ذلك كانت هذه الطائفة تتميز بعلو شأنها في مصر، فعلى الرغم من قلة عددها إلا أنها استطاعت الاستحواذ على المناصب المهمة كمهنة الصرافة التي برعوا فيها، واشتغلوا كذلك في صناعة المجوهرات وبالتجارة وهكذا استطاعت هذه الفئة أن تحوز على مكانة بارزة في المجتمع المصري [5].

بناء على ما سبق ذكره نخلص إلى القول بأن المجتمع المصري خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر اتسم بتنوع أجناسه، وقد انفرد كل جنس منه بميزاته الخاصة فكان هناك الأتراك والمماليك الذين مثلوا الطبقة الحاكمة، كما وجدت طبقة العلماء و الفلاحين، بالإضافة إلى فئة أهل الذمة و العربان ومختلف الجاليات الأجنبية، وكان من البديهي في ظل هذا التنوع أن يصطبغ المجتمع المصري بالطبقية والتفاوت، وهذه الظاهرة رصدها كثير من الرحالة سواء من المغاربة أو الأوروبيين الذين لاحظوا بروز الفوارق الاجتماعية بين الطبقة الحاكمة و الرعية، وزيادة على ذلك إن أهم ما يمكن أن نستشفه من خلال ما كتبه الرحالة عن المجتمع المصري

---

[1] وليام لين، المصدر السابق، ص 563. أنظر أيضا :

Sonnini, op,cit, p 97

[2] علماء الحملة الفرنسية، المصدر السابق، ص 29.

[3] كلوت بك، المصدر السابق، ص 195.

[4] وليام لين، المصدر السابق ، ص 569

[5] نفسه، ص ص 569-572.

هو تلك التحولات التي مست التركيبة الاجتماعية خلال القرن التاسع عشر، إذ تكونت فئات اجتماعية جديدة لم يكن لها وجود في القرن الثامن عشر،كما اضمحلت في المقابل فئات اجتماعية أخرى وتراجع دور البعض الآخر منها، وهذا ما ينطبق على فئة الجاليات الأجنبية التي أضحت تمثل شريحة مهمة لها مكانتها وتأثيرها الكبير في القرن التاسع عشر، بينما تراجعت فئة المماليك وكادت تختفي من التركيبة الاجتماعية التي تكون منها المجتمع المصري في القرن التاسع عشر .

2. العادات والتقاليد

اشتهر سكان مصر بممارسة الكثير من العادات والتقاليد التي مثلت جانبا من حياتهم اليومية، وقد تنوعت هذه العادات فمنها ما كان مرتبطا بالعبادات ومنها ما كان مرتبطا بالمناسبات والأفراح، وقد لفتت هذه العادات انتباه الرحالة الذين سجلوها في مدوناتهم فمنها ما كان مستحسنا ومنها ما كان مستنكرا .

إن من أهم العادات الاجتماعية التي تميز بها المصريون ولاقت استحسان الرحالة الأوروبيين كرم الضيافة وحسن استقبال الضيوف، فقد أشاد بريس دافين بهذه العادة بقوله:" لن تجد في أي مكان أرق من كرم الضيافة الذي تلقاه في الشرق، وقد راع حسن الإستقبال هذا كل رحالة جاب تلك البلاد وليس فيما يقدمه لك الشرقي أي مباهاة فهو يعتبر ذلك واجبا يفرضه عليه الدين "[1].

كذلك من العادات الدينية التي تميز بها المصريون حرصهم على زيارة القبور والأضرحة والتبرك بها، إذ يذكر الرحالة نيبور أنه كان من عادات النساء في يوم الجمعة الخروج لزيارة قبور الأولياء لاسيما في القرافة[2]، ومن الواضح أن هذه العادة كانت من العادات الراسخة في المجتمع المصري، فقد حافظ عليها المصريون منذ القدم، وهذا نظرا لما تمثله من أهمية في الموروث الديني المصري، والجدير بالذكر أن هذه العادة قد استوقفت انتباه الكثير من الرحالة ولاسيما الرحالة المغاربة الذين تحدثوا عنها مطولا، فأبو القاسم الزياني أشار إلى عادة المصريين في التبرك بالأولياء حتى بلغ بهم الأمر ببعضهم إلى السكن بالقرب من أضرحتهم، وهذا ما ينطبق على ضريح الإمام الشافعي الذي كان من أهم المزارات ،حيث يقول عنه الزياني:" كان يتخذ عند قبره في كل سبت مولد يجتمع فيه ناس كثيرون، يضيق بهم المسجد وغرفاته مابين فقراء وأمراء ورجال ونساء يبيتون طول الليل بين ذكر بجماعة وقراءة قرآن وصلاة، لايفترقون إلى طلوع الفجر، وذلك دأبهم أبدا في كل ليلة سبت "[3].

---

[1] دافين، المصدر السابق، ص 48.

[2] نيبور ، المصدر السابق ، ص 97

[3] الزياني، المصدر السابق، ص ص 205، 206.

كذلك يحدثنا الفقيه الحيوني الذي زار مصر خلال القرن التاسع عن بعض العادات المتصلة بالمزارات الدينية ومنها عاداتهم في حضور الموالد والإحتفالات التي كانت تقام على أضرحة الأولياء، فيذكر أنها كانت تحضى بتوافد كثيف للأهالي، ومن أهم هذه الموالد على الإطلاق حسبه الاحتفال الذي كان يقام على ضريح السيد أحمد البدوي وضريح الشيخ ابراهيم الدسوقي، وقد حدد الحيوني الأوقات التي كانت تقام فيها المواسم بهذه المزارات حيث يقول عن ذلك:"وأما السيد أحمد المذكور (البدوي) موسمه قال من رآه يضاهي عرفات أو يفوقها، وله موسمان: واحد في المولد وواحد قي شعبان، تأوي إليه جميع الفلاحين والعربان الذين بإزائهم "[1]، وأمَا عن ما كانت تشهده تلك المزارات فيقول: " لاقوة إلا بالله ما أعظم وأكثر ما اجتمع فيه من الخلائق والبيع والشراء ... وهذا الموسم فيه حتى ينسلخ شهر شوال"[2].

وفي الواقع إن عادة التبرك بالأولياء والحرص على زيارة المزارات الدينية لم تقتصر على مصر فقط، بل عمت كافة الأقطار العربية في العهد العثماني، لكن الشيء الجدير بالملاحظة أن مصر تميزت عن غيرها من البلدان بكثرة الأولياء الصالحين المتواجدين بها وقد أكد الورتلاني هذا الأمر في رحلته [3].

و من بين العادات التي ألفها أهل مصر كذلك الخروج إلى أماكن التسلية والتنزه، وقد أوضح الزياني بأن المصريين كانت لهم عناية فائقة بالخروج إلى فضاءات الفرجة والتسلية والتي أطلق عليها تسمية الحلق، فقد شاهد أثناء إقامته بمصر موضعا بالرميلة وسط القاهرة يجتمع فيه الناس للعب والتفسح يقول عن ذلك: "وفي الرميلة كثير من الحلق يلعبون هناك في سائر الأيام كأنواع المشعوذين وأصحاب القرود ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوان كالدب والحمير والتيوس والكلاب"[4]، ومن جانبه أشار الغيغائي أيضا إلى هذه العادة التي تميز بها المصريون واستمرّت إلى القرن التاسع عشر، فمما ذكره بأن أماكن التسلية كانت تتواجد في البداية في منطقة الرميلة وهو نفس ما أشار إليه الزياني لكن مع مطلع القرن التاسع عشر تم تحويلها إلى أوجلة الأوزبكية، وهو موضع يقع خارج مدينة القاهرة على طريق بولاق، يتوافد عليه جميع السكان نساء ورجالا وكهولا وأطفالا، كما يختلط فيها المسلمون مع النصارى، وأمّا عن ما كانت تشهده تلك المتنزهات فإنها

---

[1] الحيوني، المصدر السابق، ص 47

[2] نفسه، ص 47

[3] يصف الورتلاني كثرة وجود الأولياء في مصر بقوله: "وإن مصر قد حشيت بأولياء الله، وأنهم فيها كالنجوم في السماء، فالمستور فيها أكثر من الظاهر ...وبالجملة فأحوالهم كمثل بحر ووجودهم كثير، فهم ينبتون فيها دائما لا تنقطع آثارهم ولا تغيب شموسهم وأقمارهم، فعلى من دخل مصر أن يجعل معتمده عليهم، فإن بحث عنهم وجدهم لاسيما إن كان بصدق الطلب فوطن مصر ليس كغيره ". أنظر: الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص 360.

[4] الزياني، المصدر السابق، ص 211.

كانت تعج بالمقاهي والكراسي وأصناف الألعاب والموسيقى ولعل ذلك ما يؤكده قول الغيغائي: "ففيها من كل أنواع الملاهي كل غريب ومن أنواع الحروب و الفروسية وضرب العيدان والأوتار ...وبها من كل مضحكة وعجب ونغمة "[1].

ومن العادات التي استنكرها الرحالة الغيغائي أكل الناس في الأسواق إذ لاحظ أن هذه العادة مست النساء والرجال على حد سواء، فهم يتناولون الأكل جالسين أو ماشين، وفي نظره أن هذه العادة هي عادة مألوفة في المجتمع المصري ولا تعتبر سببا في إزالة المروءة التي تسقط بها الشهادة عند العدول في المغرب، يقول الغيغائي واصفا ذلك : " يأكلن في السوق ولا عليهن في الرجال، وكذلك الرجال يأكلون في السوق جالسين وماشين ، ولا عليهم فيمن يراهم أو يرونه ، وهذا حالهم شريف ومشروف إلا القليل النادر"[2].

ومن العادات التي اهتم الرحالة برصدها كذلك عاداتهم في الجنائز، فلما كانت الوفاة ترافقها مجموعة من المراسيم والتقاليد الدينية، فإن الرحالة استوقفتهم بعض العادات السلبية والغريبة التي استنكروها بشدة، ومن ذلك ما أشار إليه جيرارد دي نارفال الذي ذكر بأنه عند وفاة أحدهم تأتي النائحات التي تصحن ليلا ونهارا وتبكين وراء الميت وتقمن بمدح محاسنه، وقد يصل الأمر ببعض العائلات إلى جلب ندابتين أو أكثر لرثاء ميتهم[3]، وهذه الظاهرة لم يشر إليها جيرارد دي نارفال فحسب، بل أكدها أيضا الرحالة التركي خالد ضياء الدين الذي أوضح بأن الجنائز في مصر تصاحبها بعض الممارسات الغريبة التي ورثوها عن القدماء المصريين يقول عن ذلك:" تنتقل الجنازات بالذكر والتهليل وأحيانا بقراءة ميراث مطبوعة، ويتبع النساء المآتم الملقبات باسم الندابات واللاتي يحصلن على أجر طبقا لسعة كل جنازة ... وهن يظهرن الحزن والكدر مصطنعين ..."[4]

ويشير في موضع آخر بأنّ هؤلاء النساء التي يطلق عليهم إسم الندابات كان يتم استئجارهن فهن يتبعن عربات الحمولة ، فيذهبن وهن ينحن، وكان ينظر إليهن بعين الكراهية في ذهابهن ورجوعهن في هذه العربات، وقد اعتبر خالد ضياء الدين أن هذه العادة التي شاعت في المجتمع المصري من العادات الغير اللائقة كونها تتنافى بشكل كبير مع الآداب الإسلامية[5] .

وخالف الفقيه الحيوني ما ذهب إليه جيرارد دي نارفال والرحالة التركي خالد ضياء الدين بشأن النساء اللواتي كن يستأجرن في المآتم، إذ أكد أن بكاء النساء على الميت يكون عند وفاته فقط، فإذا خرجت

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 127

[2] نفسه ، ص 117،118.

[3] دي نارفال، المصدر السابق، ص 266.

[4] خالد ضياء الدين ، **ذكريات مصورة عن مصر** ، تر: سامية محمد جلال، ط1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2006م ، ص 245.

[5] نفسه، ص 245.

روح الميت سكتن، وهذا سواء كبر شأن المتوفي أو قل، لكن الحيوني في نفس الوقت يشير إلى ظاهرة سلبية أخرى شاعت في مآتم المصريين وهي تتعارض مع ما ألفه في المغرب، فالحيوني استنكر عادة النساء في الخروج مع جنازة الميت على عكس الرجال إذ يقول عن ذلك : " نساء مصر لا يصحن عن الميت إلا عند خروج روحه، فإذا خرجت سكتن سواء كبر شأنه أو صغر، والنساء هن اللواتي يذهبن مع الميت للقبر مع الصبيان، وأما الرجال فقليل "[1] ولعلّ فيما ذكره الحيوني لتأكيد لما أشار إليه كل من جيرارد دي نارفال و خالد ضياء الدين.

ويصور الغيغائي جانبا آخر من عادات المصريين في المآتم والجنائز، إذ لاحظ عاداتهم المختلفة في دفن موتاهم فقد جرت العادة أنهم يدفنون الموتى في مقابر جماعية وهذه المقابر في أغلبها مخصصة لدفن الفقراء والغرباء، بينما هذا الوضع لاينطبق على الأغنياء فقد كانت هذه الفئة يجعلون لموتاهم مقابر خاصة ومنفردة يشترونها لدفن أهلهم فيها، وفي الغالب كانت هذه المقابر تحاط بأسوار وتكون مقفلة[2].

إن وصف الرحالة لعادات المجتمع المصري لم يقتصر على الحديث عن عاداتهم الدينية والاجتماعية فحسب، بل كانت لهم عناية أيضا برصد عاداتهم في المأكل بالإضافة إلى وصف لطبائعهم وأخلاقهم التي أبدوا امتعاضهم من بعضها، ولعلّ من أهم من العادات والظواهر التي كرست الصورة السلبية لمصر عند هؤلاء الرحالة ظاهرة استهلاك البن والتبغ التي عمت المشرق العربي وكذا انتشار ظاهرة الرشوة والفساد و شيوع اللصوصية في المجتمع المصري.

فيما يخص العادات الاستهلاكية إنّ أهم ظاهرة استأثرت باهتمام الرحالة المغاربة وأخذت حيزا كبيرا في كتاباتهم هو عادة أهل مصر في شرب البن والقهوة، ومما يلاحظ أن هذه العادة قد لفتت انتباه معظم الرحالة المغاربة الذين زاروا مصر في القرن الثامن عشر لكونها لم تكن مألوفة عندهم في المغرب، ولهذا فإن مواقفهم الشرعية منها قد تباينت ما بين مؤيد ومعارض لها .

لقد أفاض الرحالة المغاربة في وصف عادة شرب البن والقهوة[3] عند المصريين لاسيما وأنها تحولت إلى عادة اجتماعية تميز بها القطر المصري، إذ يستشف من مصنفات الرحالة أن هذه العادة أصبحت تعد مظهرا من مظاهر الترحيب و الإكرام والضيافة، وهذا ما أكده الرحالة ابن الطيب الفاسي في قوله: بأن أهل مصر: " إنما

[1] الحيوني، المصدر السابق، ص 119.

[2] الغيغائي، المصدر السابق، ص 103.

[3] تشير المصادر أن أول من أشاع ظهور القهوة في المشرق العربي هو الشيخ الصوفي علي ابن عمر الشاذلي الذي أمر أتباعه بشربها للإستعانة بها على السهر في العبادة ثم انتشر أمرها وعمت كافة المشرق العربي . للمزيد أنظر: محمد ماكامان، المرجع السابق، ص ص322، 223.

يتكارمون بينهم بشراب البن الذي يسمونه القهوة، والمغاربة لايعرفونها ولا يعدونها في الأطعمة ولا من الأشربة، ولا في الأدوية ولا في المشتهيات، والكلام فيها من حيث الحكم والإباحة وعدمها طويل عريض..." [1]، ومما يؤكد مكانة القهوة والبن عند المصريين ما أورده أيضا أحمد بن ناصر الدرعي حيث ذكر أنه قد تمت دعوته لمترل نقيب الأشراف الشيخ حسن، وقد كان هذا الأخير يحرص على دعوة المغاربة وإكرامهم لاسيما في ليلة المولد النبوي، فأخرج لهم الشاربات من السكر والحلوى لما علم أنهم لا يتناولون القهوة التي يستعملها العام والخاص في البلاد المشرقية، وعن حب المشارقة للقهوة يقول أحمد بن ناصر الدرعي: " وكانت عندهم أعظم التحف تغنى عن غيرها ، ولا يغنى عنها غيرها "[2] .

ومن جانبه يقدم الورتلاني معلومات أخرى عن مادة البن التي كانت غير مألوفة في المغرب بشكل يعكس المكانة التي أضحت تحتلها عند المصريين والذين جعلوها رمزا للإكرام وحسن الضيافة إذ يقول عنها: " وهذه القهوة خفيفة المؤونة والناس راضون بها غنيهم فقيرهم ورئيسهم ومرؤوسهم فكانت صيانة لوجوه الفقراء عند ورود أحدهم عليهم "[3]، وأما الغيغائي فيصفها بقوله:" وأما القهوة المذكورة فهي أخت الدخان في المشارق ومرافقته في الأزقة والشوارع، فيهما تلذذهم وبهما طربهم ، وهما طعامهم وشرابهم ... وبهما إكرامهم لمن أرادوا إكرامه، فإذا ناولك الرجل فنجانا من القهوة فقد أدى لك جميع الحقوق، وليس فوق هذا من مزيد ...، وهكذا يشربها الأكابر والأمراء، ويكتفون بها عن الطعام أحيانا، ولمن دخل عليهم يمدون له فنجانا منها كرامة" [4].

يبدو من خلال ما ذكره الرحالة بشأن مادة البن وانتشارها في مصر أنها تحولت إلى مادة أساسية بل أنها أصبحت عادة مهمة من عادات المجتمع المصري في إكرام الضيوف و الاحتفاء بهم، وبالتالي فإن هذه العادة المستحدثة اعتبرها الرحالة المغاربة عادة غريبة عن مجتمعهم فلم يكن قد شاع أمرها في المغرب ولهذا أسهبوا في الحديث عنها وعن دورها المهم في في توطيد العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع المصري، وقد أشار الاسحاقي إلى أن استخدامها بشكل كبير قد أدى إلى حدوث تغييرات اجتماعية صاحبها الكثير من المظاهر الجديدة، إذ انتشرت وكالاتها في مصر و أصبحت تخصص لها أماكن محددة، فكان يوجد في كل الأحياء دكاكين ومجالس يجتمع فيها الناس من كل الطوائف للمسامرة يقول في هذا الصدد: " كذلك القهوة عندهم

[1] الطيب الفاسي الشرقي، المصدر السابق، ص 145.

[2] الدرعي ، المصدر السابق،ج1، ص 284.

[3] الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص 321.

[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص 122.

أمرها شائع ذائع لا يستغني عنها أحد ولا يستنكف منها أحد، بل هي أول الإكرام عندهم ... ويصرف في هذه القهوة بالبلاد المشرقية لاسيما مصر من الثمن ما لا يعد و لا يحصى، وفي كل حومة وكالة متخذة لشرب القهوة مبنية على هيئة مخصوصة لها مصاطب ودكاكين ، وهي مفروشة كلها ... والناس آخذون مجالسهم بسكينة ووقار"[1].

ومما تجب الإشارة إليه أنه كان لظهور البن وانتشار استخدامه في مصر أن صاحبه بروز جدال كبير بين العلماء حول حكم شرب القهوة، وقد اختلفت المواقف اتجاه هذه العادة المستحدثة فهناك من أباحها وهناك من حرمها[2]، ولما كان المغاربة يرون في عادة استهلاك القهوة عادة غريبة لعدم اعتيادهم عليها في المغرب فإنهم خصصوا في رحلاتهم حيزا كبيرا لهذه المسألة، إذ ناقشوا أقوال العلماء فيها، كما استعرضوا مواقفهم وأحكامهم منها، فذكروا أن أكثر العلماء يميلون إلى إباحة القهوة، وهذا لما كان لها فوائد جمة، فمن من مميزاتها أنها تعين على السهر على العبادة، كما يستعين بها الطلبة في المطالعة الليلية، لكن رغم ذلك هناك من العلماء من قام بتحريمها[3]، وذلك استنادا لما كان يصاحب تناولها من مظاهر سلبية تتنافى في نظرهم مع الشريعة الإسلامية، ومن أهم تلك المظاهر اجتماع الناس عليها في المقاهي وشربها على هيئة شرب الخمر، بالإضافة أنهم أنكروها لأنها كانت أيضا تلهي عن العبادة وصلاة الجماعة، هذا بالإضافة إلى كونها أدت إلى ظهور العديد من المفاسد [4].

زيادة على ذلك إنّ من العادات الاستهلاكية التي استوقفت انتباه الرحالة وتحدثوا عنها أيضا في مصنفاتهم انتشار ظاهرة شرب الدخان أو التبغ، وقد أكد الغيغائي أن هذه الظاهرة السلبية قد تفشت بشكل كبير في المجتمع المصري والمشرقي عامة، ويضيف الغيغائي بأنها من العادات المذمومة التي وجب النهي عنها لاسيما وأنها تحولت إلى عادة يومية يتميز بها المصريون نساء و رجالا، فاستهلاك الدخان أصبح ملازم لهم في

---

[1] محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقي، **رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية** ، تح: محمد الأندلسي، ج2، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية، 2017م، ص 432.

[2] صدرت في مسألة انتشار القهوة في المشرق العديد من الفتاوى منها من تبيح هذا الشراب ومنها من تحرمه ، ومن أهم الفقهاء الذين انشغلوا بهذا الموضوع و أفتوا فيه أحمد الرملي الدمشقي ، وزكريا بن محمد الأنصاري ، وأحمد بن عبد الحق السنباطي ، كما وجد من الفقهاء ممن كتب رسائل بشأنها والذين نذكر منهم أحمد بن غفار المالكي وأبو بكر ابن أبي يزيد المكي الشافعي صاحب المؤلف المعروف بإثارة النخوة بحل القهوة . للمزيد أنظر: محمد الأورناؤوط، **من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي** ، ط1، دار جداول للنشر والتوزيع ، بيروت، 2012م، ص68.

[3] إن هذا الخلاف الذي قام حول مسألة القهوة قد نشأ عنه تراكم نتاج فقهي كبير ومتعدد مابين فتاوى ورسائل، وذلك ما أوضحه الورتلاني في قوله: " ... ظهر في هذا القرن والذي قبله بيسير شراب يتخذ من قشور البن يسمى القهوة ، واختلف الناس فيه ، فمن متغال فيه يرى أن شربه قربة ، ومن غال يرى أنه مسكر كالخمر، والحق أنه في ذاته لا إسكار فيه وإنما فيه تنشيط للذهن وتحصيل بالمداومة عليه ضراوة أي استئناس وألفة تؤثر في البدن عند تركه ... وقد كثرت في هذه الأيام واشتهرت وكثر فيها الجدال ، وحدثت بسببها الفتن، واختلفت فيها فتاوى العلماء وتصانيفهم ونظمت في مدحها وذمها القصائد ...". أنظر: الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص ص 326،327.

[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص ص122، 123

جميع أحوالهم وقد سجل ذلك باستياء حيث قال: " أكثر ترفههم (أهل مصر) بالقهوة وأكثر لهوهم بالدخان ليلا ونهارا حتى في المشي في الطرق والأزقة، فسبحان من ابتلاهم بهذا الدخان وأقامهم عليه، وترى الرجل يجري وعمود الدخان طلع من فيه، أو هو نائم وقضيب الدخان لا ينزعه عن فيه، والرجل يتكلم مع الآخر وهو يلمس القضيب حال الكلام كلمة ومصة لا يفتر، والنساء كذلك يشربنه، وبعضهن في الأزقة والأسواق، والشواب فضلا عن العجائز"[1]، وأكد الغيغائي على حقيقة هامة لاحظها في مصر، إذ أشار أن استهلاك الدخان في مصر أصبح يُعدّ من مظاهر التمييز الاجتماعي فلم يبقى استهلاكه محصورا على فئة معينة كالأغنياء الذين يتباهون به، بل إن الأمر شمل أيضا الفقراء الذين أقبلوا عليه رغم أوضاعهم المتردية، يقول الغيغائي بهذا الخصوص:" وهذا التبناك عندنا مستحسن عندهم، ومن لم يشرب هذا الدخان فليس عندهم بشيء، يتفاخرون بشربه لاسيما أكابرهم وأهل الثروة، وترى الرجل المسكين لم يلبس إلا ما يواري عورته، وهو لا يفارق هذا الدخان ، فما استفاده ينفقه فيه"[2] .

ولم يكن الغيغائي الرحالة الوحيد الذي تطرق إلى انتشار ظاهرة استهلاك التبغ في المجتمع المصري، فالرحالة التامراوي الذي زار مصر خلال القرن التاسع عشر قدم لنا من جهته معطيات هامة بهذا الخصوص، حيث لفت انتباهه أن تعاطي التدخين في مصر لم يقتصر على عامة الناس فحسب، بل كان الفقهاء والعلماء والقضاة بدورهم يتناولونه أثناء قيامهم بأعمالهم،كما لاحظ قلة انتشاره في المغرب مقارنة ببلاد المشرق كمصر وقد قال عن ذلك: "وابن غازي مدينة جيدة ... وهي الآن من عمل السلطان طرابلس وأهلها طيبون محبون للحجاج ... وقل فيها شاربوا دخان(الدباغا) بخلاف المشرق كمصر فجلهم رجالا ونساء يشربونها وكأنها عندهم من القوت، وقد شاهدت عدول قاضي (مصر) قاعدين في مجلس القضاء على هيئة جليلة وملابس نفيسة يشربونها ويتعاطونها والناس والخصوم عندهم " [3]، وتجدر الإشارة أن ظاهرة استهلاك العلماء للتبغ قد أكدها أيضا الغيغائي وذلك عندما قال:" وكذلك الفضلاء والفقهاء لا يفارقونه إلا في المساجد والحمد الله على بقاء المساجد مصونة من هذه الممارسة السيئة "[4].

لقد انتقد الرحالة المغاربة بشدة عادة المصريين في استهلاك التبغ وقد أجمعوا على اعتباره عادة مذمومة، ولهذا اجتهدوا في تبيان حكمه، فأكدوا أن هناك إجماع بين العلماء على تحريمه، ومن هؤلاء العلماء

[1] الغيغائي، المصدر السابق ، ص 118.
[2] نفسه، ص 119.
[3] مختار السوسي، المصدر السابق،ج8، ص 209.
[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص 119.

الذين أشار إليهم الغيغائي، محمد بن ناصر الدرعي، واليوسفي، وأبو العباس الهشتوكي[1]، ويذكر الإسحاقي أيضا أسماء العلماء الذين أصدروا فتاوى بشأن هذه العادة ومنهم الشيخ الحطاب و الشيخ الأجهوري[2].

ومما ينبغي الإشارة إليه أنه رغم الفتاوى الكثيرة التي أصدرها العلماء بشأن عادة التدخين إلا أن ذلك لم يمنع من انتشارها، بل إن تلك الظاهرة انتشرت بشكل كبير وأقبل عليها المصرين حتى أصبح استهلاك التدخين عندهم يعتبر عادة من عاداتهم ، إذ جعلوه مع شرب البن وسيلة من وسائل اكرام الضيوف، وهذا ما أعابه الغيغائي عليهم بقوله: "وبهما إكرامهم لمن أرادوا إكرامه، فإذا ناولك الرجل قضيب الدخان أو فنجانا من القهوة فقد أدى لك جميع الحقوق ، وليس فوق هذا من مزيد ..." [3].

وفي الواقع إنّ إسهاب الرحالة في الحديث عن مسألة شرب البن واستهلاك التدخين وانتشارهما في مصر إذا دل على شيء فإنه يدل على جانب مهم من جوانب التحولات الاجتماعية التي بدأت تشهدها البلاد المصرية خاصة والمشرقية عامة في القرن التاسع عشر، إذ انتشرت عادات سلبية كثيرة لم تكن شائعة من قبل، وقد استوقفت هذه الظواهر اهتمام الرحالة المغاربة الذين بينوا في كتاباتهم مواطن الاختلاف الكبير في العادات بين المغرب والمشرق .

لم يغفل الرحالة وهم يصفون المجتمع المصري أن يتطرقوا كذلك إلى مميزات المصريين وصفاتهم وطبائعهم إذ أشادوا بالصفات الحسنة التي لا حظوها، كما استنكروا في الوقت ذاته بعض الصفات المذمومة التي انتشرت عند المصريين، وبالعودة إلى ما سجله هؤلاء الرحالة ولا سيما المغاربة منهم، فإننا نجد أنهم اتفقوا على شيوع بعض الصفات و الظواهر الاجتماعية السلبية كصفة الظلم والمكر والغش والتحايل والسرقة، فالرحالة الورتلاني تحدث بإسهاب عن الظلم الذي كان يمارسه الولاة حيث أكد أن ظلمهم قد شمل جميع الناس حتى أنه امتد أيضا ليشمل كذلك الحجاج المغاربة، والملاحظ أن الورتلاني في حديثه عن هذه الظاهرة قد خص بالذكر فيها والي بولاق حيث يقول في هذا الصدد:" إن ظلم ولاتها قد بلغ كل جنس من أجناس الآدميين حتى بلغ ظلمه الحاج المغربي، والعلماء والطلبة والفقهاء والأشياخ والصناع والتجار والمجاورين وسائر الناس قاطبة، ولذلك ابتلاهم الله بالشقاق والفتنة فكانت مصر لمن غلب "[4].

[1] الغيغائي، المصدر السابق ، ص ص 119-122.

[2] الإسحاقي، المصدر السابق، ص 432.

[3] الغيغائي، المصدر السابق، ص 122.

[4] الورتلاني ، المصدر السابق، ج1، ص 375.

وفي الواقع إنّ ظاهرة الظلم التي كان تطال الحجاج المغاربة وما كانوا يلاقونه من مضايقات في مصر قد تعرض لها الكثير من الرحالة المغاربة في كتاباتهم، فمن جانبه يؤيد الغيغائي ما ذكره الورتلاني لكنه في حديثه عن صفات أهل مصر نجده يميز بين صنفين من الناس الصنف الأول يتميز بالأخلاق الحسنة ويحصره الغيغائي في فئة العلماء والفقهاء، وأما الصنف الثاني فهو عكس الفئة الأولى وبهذا الخصوص يقول: " وأما أخلاقهم فهم مختلفون وهم أصناف متباينون فمنهم أخيار في الأدب وحسن الخلق والتواضع والتجمل والخشوع ولا تجد بهذه الفرقة إلا الفقهاء وأبناءهم وكذلك نساءهم وهذه الفرقة هي القليلة، ومنهم فرقة أعظم الناس فضاضة وأضيقهم صدورا و أعبسهم وجوها سيما على الحجاج المغاربة وأفحشهم لسانا وأعيبهم للناس وأنسبهم إلى النقص وإلى غير دينهم"[1].

ومما سجله الرحالة المغاربة أيضا عن طبائع المصريين انتشار صفة الخداع والمكر والتحايل ففي هذا الشأن تحدث الورتلاني عن ما أسماهم بالشيالين فوصفهم بأقبح الصفات محذرا الحجاج المغاربة من مكرهم وداعيا إياهم إلى تجنبهم وعدم الاغترار بهم، ولعلّ ذلك ما يوضحه قوله:" فلا تغتر أيها الحاج بحلاوة اللسان من الشيالين ولا بإظهار المودة ولا بكثرة الإيمان فإنهم ذئاب في ثياب، وكذا من آتوا لك بهدية فلا تقبلها منهم فإنهم يريدون التحيل بالوصول إلى مالك، فلا يعتبرون عهدا ولا مودة ولا يمينا ولا صحبة ولا شيخا ولا واليا إلا المكر والخديعة ...،إن قدروا على أخذ المال تحيلا فعلوه وإلا أخذوه بإعطاء رشوة لأصحاب المخزن ..." [2].

وزيادة على ذلك إن من أهم الظواهر الاجتماعية التي أثارت امتعاض الرحالة المغاربة وتحدثوا عنها بكثير من النقد هي تفشي ظاهر الرشوة وبيع المناصب، إذ لاحظ الزياني أن هذه العادة قد عمت مصر وكافة دول المشرق العربي حيث يقول بشأنها:"وهذه عادة قضاة الشرق كلهم ...فقد عمت هذه البلوى في هذه الدولة العثمانية في القسطنطينية وبلاد الترك كلها ومصر والشام والعراق وخراسان وما وراء النهر وباعوا آخرتهم بدنياهم ... فليس للوعظ فيهم عمل ولا تأثير فإنها عندهم جباية من أصول، ويسمونها بالمحصول فتجد القاضي يناضل على قبضه ويصول من غير ارتياء ولا استحياء ولا حشمة، ولا اعتبار شنعة أو وصمة كأنه حق واجب..."[3]، ومما أكده الزياني كذلك أن هذا الفساد الذي شهدته مصر وغيرها من بلدان المشرق العربي قد

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 112.

[2] الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص 337.

[3] الزياني، المصدر السابق، ص 279.

شمل كافة المناصب الدينية من إمامة و فتوى وتدريس، وهذا بخلاف المغرب الذي عرف انعدام هذه الظاهرة[1].

والجدير بالذكر أن الرحالة المغاربة لم يكتفوا بوصف المظاهر السلبية التي وقفوا عليها في مصر فحسب، بل عكفوا كذلك على البحث عن تفسير لهذه الظواهر السلبية التي تفشت في المجتمع المصري، إذ عزوا انتشار هذه الآفات إلى فساد السلطة وإهمال الحكام للرعية، فانتشرت بذلك الكثير من الانحرافات الاجتماعية كالسرقة والغش والمكر والرشوة، وهو الأمر الذي جعل مصر حسب الورتلاني تعتبر من أسوء الأوطان وأذلها بالنسبة للوافدين عليها والغرباء[2]، و إضافة إلى ماسبق ذكره قدم الرحالة المغاربة صورا متنوعة عن الأحوال الاجتماعية في مصر وما صاحبها من ظواهر سلبية، لكن الملاحظ أن من أهم الظواهر التي استوقفتهم وأفاضوا في الحديث عنها أكثر من غيرها هو انتشار ظاهرة اللصوصية التي كانت تهدد ركب الحجاج المغاربة، إذ سجل معظم الرحالة استفحال هذه الظاهرة باستنكار كبير فأشاروا إلى خطر الأعراب واللصوص وغاراتهم على قوافل الحج، وقد تعددت الأمثلة التي أوردها الرحالة بهذا الخصوص فنجد محمد بن عبد السلام الناصري رصد من خلال رحلته حالة انعدام الأمن التي كانت تسود طرق الحج لا سيما بين مصر والحجاز فيخبرنا بأن الأعراب البدو قد تعرضوا للركب الجزائري ونهبوه 1797م [3].

وتجدر الإشارة أن ما قدمه الرحالة من معلومات حول خطر الأعراب الذين كانوا يمتهنون السلب والنهب نجد لها تأكيدا عند الجبرتي حيث يشير أنه خلال موسم الحج سنة 1199هـ/ 1785م تعرض الأعراب للحجاج المغاربة في سطح العقبة حيث قاموا بمحاصرتهم ونهب ممتلكاتهم، كما قتلوهم عن آخرهم إذ لم ينج منهم إلا أعداد قليلة [4].

والجدير بالذكر أن الرحالة في حديثهم عن تفشي ظاهرة اللصوصية في مصر لم يقتصروا على ذكر الاعتداءات التي كان التي يتعرض لها ركب الحج واستنكار تلك الظاهرة فقط، بل إنّ هناك من الرحالة من اهتم بذكر العوامل والأسباب التي جعلت العربان يحترفون حرفة السطو على القوافل، إذ أرجع الرحالة أوليا جلبي ذلك إلى عدم التزام أمراء الحج بدفع المخصصات والعوائد المرسلة لهم وهذا ما يظهره قوله: " وإن

---

[1] عبر الزياني عن ذلك بقوله: "هذه إحدى المسائل التي فضل بها المغرب المشرق والثانية هذه المناصب الدينية من القضاء والفتوة والتدريس والإمامة والخطابة والشهادة لا تباع ولا تشترى كعادة أهل المشرق وكلهم ببلاد الروم والشام والعراق ومصر والحرمين فإنها تباع ... ، وما رأيت قاضيا قاض ببلد من هذه الأقاليم كلها يقارب ما يشبه أن يكون شرعيا ومدار أحكامهم على الرشا وقبض المال في الحق والباطل وينقض في الحكم في الأمر الواحد مرارا ولاحياء ولا من يرده على هواه". للمزيد أنظر: الزياني ، المصدر السابق، ص 232.

[2] الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 644، 645.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى**، المصدر السابق، ص 194.

[4] الجبرتي ، المصدر السابق، ج2، ص 132.

نقصت من مخصصاتهم نقرة قطعوا المياه على الحجاج وألقوا الجيفة في آبار مياه الشرب، وملأوا بعضها بالحجارة وهاجموهم قاطعين الطريق من كل الأرجاء وكمنوا لهم مع اللصوص ونهبوهم "[1]، وهو نفس الأمر الذي أشار إليه الجزيري في مصنفه[2]، وعموما يمكن القول أن الرحالة قد استوقفتهم العديد من الظواهر السلبية في مصر فسجلوا ما لاحظوه من عيوب في المجتمع المصري بأسلوب ناقد لكن هذا لا يعني أن صورة مصر في نظرهم أصبحت قاتمة، فكغيرها من المجتمعات تميز المصريون بالعديد من الصفات الحسنة والتي أثارت إعجاب واندهاش هؤلاء الرحالة، ومن هذه المظاهر حرصهم الكبير على الجد والعمل، إذ لاحظ بن ناصر الدرعي أن أغلبية المصريين يسرعون في مشيهم وتفسير ذلك حسبه هو حرصهم الكبير على ألا يفوتهم تأدية غرض من أغراضهم، ومن الأمور التي أشاد بها الرحالة ولاسيما المغاربة هو تميز أهل مصر بالذكاء " فأهلها لهم عقول راجحة وذكاء زائد فمن استعملها في الخير فاق فيه ومن استعملها في الشر فكذلك "[3].

3. الإحتفالات والأعياد :

اشتهر المجتمع المصري بالعديد من الاحتفالات والأعياد التي شدت انتباه الرحالة المغاربة والأوروبيين الذين سجلوا ما كان يصاحبها من مظاهر استعراضية ومراسيم وطقوس، وقد تعددت هذه الاحتفالات وتنوعت فمنها من ارتبط بالجانب الديني مثل الاحتفال بالمولد النبوي وعيد الفطر والأضحى وخروج المحمل وغيرها، ومنها من ارتبط بالموروث الشعبي المصري كالاحتفال بيوم وفاء النيل أو الاحتفال بقدوم الباشا الجديد وغيرها من الاحتفالات الأخرى .

يُعدّ يوم خروج المحمل الشريف[4] الذي يحمل كسوة الكعبة المشرفة من أهم الاحتفالات التي حرص المصريون على الإهتمام بها فهذا اليوم المشهود أكد على أهميته الكثير من الرحالة فوصفه الرحالة التركي خالد ضياء الدين بقوله: "يقام في يوم سفر المحمل ورجوعه احتفال خاص وهو يحتل أهمية عند للمصريين فهو يمثل

---

[1] جلبي، المصدر السابق، ص ص 544،545 .

[2] لقد أكد الجزيري ما أورده أوليا جلبي إذ يذكر بأن طمع أمراء الحج في مرتبات العربان وعوائدهم وعدم تسليمها لهم كاملة هو السبب الكامن وراء تعدياتهم على القوافل وهذا ما وضحه في قوله: " يجب أن تعلم أنه في غالب الأحوال عربان الدرك لا يتعمدون حصول الفساد والأذى والتخطف إلا عند قطع عوائدهم المرتبة لهم من الديوان السلطاني ، فإن الملوك السالفة قد رتبوا ذلك لهم لأجل استقامة أحوال أمن الطريق ومرور أهل الركب في هذا الدرب على حالة الأمن والأمان ...فمن أمراء الحج من من يبطل عادتهم من ديوانه ...فيطمع في غالبها عينا وصنفا ويوجه لذلك وجوها من الذرائع ثم ما كفاه ذلك الطمع وعدم النظر في العاقبة حتى يعاملهم بسوء المعاملة فلا يراعي أحوالهم كما إذا احتاجوا إلى علف لرواحلهم أو دقيق يتزودون به فيبخل عليهم بذلك ، ولا يوفيهم مالهم ولا يراعي أحوالهم ، فليس عندهم حينئذ إلا أنهم يتداعون للفساد وتجتمع أراؤهم عليه ". للمزيد أنظر : عبد القادر بن محمد الأنصاري الجزيري، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة** ، تح: محمد حسن اسماعيل ، ج1،ط 1، دار الكتب العلمية ، لبنان، 2006م، ص154.

[3] الورتلاني، المصدر السابق، ص 296.

[4] أنظر الملحق رقم 14، ص 394.

عيدا قوميا مثلما هو الحال في الشام"[1]، وأمّا أحمد بن ناصر الدرعي فقد أوجز عظمة هذا اليوم وقيمته عند المصريين بعبارة بالغة الدلالة قائلا:" وبالجملة فهذا اليوم عندهم من أعظم أيام السنة ولا ثاني له إلا يوم كسر النيل عند وفائه ويقرب منه أيضا يوم قدوم الحاج، فهذه الأيام هي التي يحتفل بها عندهم غاية الإحتفال ويبتهل بها أتم الإبتهال..."[2] .

لقد شغل وصف خروج المحمل حيزا مهما في كتابات الرحالة المغاربة والأوروبيين إذ أصبح ذلك عملا يتكرر في كل الرحلات، والملاحظ أن وصف الرحالة الأوروبيين لهذا الاحتفال لم يختلف عن ما ذكره الرحالة المغاربة إذ حرص معظم الرحالة على التأكيد على أهمية هذا الاحتفال عند المصريين وهذا لما لاحظوه من عناية به، فقد كانت تصاحبه مراسيم احتفالية بهيجة و تحيط به مظاهر العظمة والأبهة .

أوضحت المصادر التاريخية أن الاحتفال بالمحمل كان يتم مرتين في السنة، الاحتفال الأول يكون في النصف الثاني من شهر رجب حيث كان يؤتى بكسوة الكعبة من دار الصنعة، وقد كان الهدف من ذلك هو إعلام الناس باقتراب موسم الحج وحث الراغبين في أداء المناسك على البدء في التجهيزات اللازمة لذلك[3].

لقد أشار أحمد بن ناصر الدرعي أن هذه المناسبة كانت تتخللها احتفالات بهيجة على أنّ الذي لفت انتباهه أكثر هو عناية أكابر الدولة بهذا الإحتفال إذ كان هذا الإحتفال المميز الذي كان يقام بالقلعة يأخذ طابعا رسميا حيث كان يحضره كبار المسؤولين، وقد وصف أحمد بن ناصر الدرعي ماكان احتفال يرافق هذا اليوم من طقوس بقوله: " فيحضر السناجق كلهم والولاة والأمراء والحكام والقاضي كل واحد مع أتباعه ولكل واحد مجلس معلوم ... ومجلس الباشا في الوسط وعن يمينه مجلس القاضي وكلما أتى واحد من الأمراء وأرباب الدولة جلس في مجلسه المعهود ، وقربهم من الباشا مثل قربهم بحسب قربهم من مناصبهم فإذا تكاملوا كلهم وأخذوا مجالسهم وصفت الحبل عن يمينهم فجلس صف كل طائفة مع جنسها إلى أن تحيط بالميدان الذي هو أمام مجلس الباشا وهو ميدان كبير يسع من الخيل الألف ويخرج الباشا .... فإذا جلس الباشا يؤتى بالجمل الذي يحمل المحمل وهو عبارة عن قبة من الخشب رائقة الصنعة بخط متقن وشبابيك ملونة بأنواع الأصباغ وعليها كسوة من رفيع الديباج المخوص بالذهب ورقبة الجبل ورأسه وسائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم وعليه ريش محلى بمثل ذلك ، والجمل نفسه غاية مايكون من السمن وعظم الجثة وحسن الخلقة جلده كله مخصب بالحناء يقوده سائسه ويتبعه جمل آخر على مثل صفته بالكسوة المشرفة ملفوفة قطعا قطعا والناس

[1] ضياء الدين، المصدر السابق، ص 235

[2] الدرعي ، المصدر السابق، ص 281.

[3] يوسف جاغلار ، صالح كولن، **المحمل الشريف ورحلته إلى الحرمين الشريفين** ، ط1، دار النيل ، 2015م، ص151

يتمسحون بها ويتبركون ثم يمر ذلك بين يدي الباشا والأمراء فيقومون لها إذا مرّت بهم تعظيما ثم يذهب بها حملتها ويمرون بها في وسط السوق والناس يتمسحون بها حتى يبلغوها إلى المشهد الحسيني فتنشر في صحن المسجد وتخاط هناك ..."[1].

و تدل الصورة التي نقلها لنا أحمد بن ناصر في حديثه عن المظاهر المميزة لخروج كسوة الكعبة على مدى اهتمام الدولة العثمانية بالمحمل الشريف لما يمثله من دلالات سياسية ودينية، حيث جرت العادة أن يأخذ الاحتفال بالمحمل طابعا رسميا فقد كان يحضى بإشراف من الباشا وولاته، وهذا بغية تأكيد سلطتهم على الحرمين الشريفين وإضفاء طابع الحماية على الأماكن المقدسة .

وإذا كانت هذه هي أبرز المظاهر المميزة ليوم خروج كسوة الكعبة من دار الصنعة فإن يوم الخروج الثاني للمحمل الذي كان يصادف يوم الواحد والعشرين من شهر شوال كان يوما أعظم ليس فقط من أجل عدد الحشود التي كانت تحضر هذا الإحتفال، لكن أيضا لدقة التنظيم الذي كان يطبع مختلف المراسم و المظاهر الاحتفالية وكذلك لكثرة الجموع والعساكر والطوائف الصوفية التي كانت ترافق المحمل حتى خروجه، فهذا اليوم هو يوم خروج المحمل الكبير وهو كما وصفه محمد عبد السلام الناصري يعتبر من أعظم أيام السنة في مصر ولا ثاني له إلا يوم كسر النيل عند وفائه، وأما بخصوص ما كان يتخلل هذه المناسبة من مراسيم واحتفالات فيصف لنا محمد ابن عبد السلام ذلك بقوله: " فإذا كان يوم الحادي والعشرين من شوال خرج المحمل من القاهرة، وهذا اليوم هو يوم خروج المحمل الكبير الذي هو من أيام الزينة، ويجتمع له الناس من أطراف ويؤتى بكسوة البيت الشريف من موضع خياطتها ... وتجعل في المحمل الذي تحمل فيها، ويجتمع الولاة والجند السلطاني على الهيئة المتقدمة إلا أن هذا أتم احتفالا وأكثر جمعا، فإذا تكامل ذلك جيئ بجميع ما يحتاج إليه أمير الحج من إبل وقرب ... وخيل ورماة وغيرها من الأسباب التي تخرج من بيت المال، ويحضر الجميع في ذلك الميدان، كل طائفة لها أمير مقدم عليها حتى الطباخين والفراشين والسقائين ثم يؤتى بالمحمل على جمله المذكور أولا يقوده سائسه حتى يناول رأس الجمل للباشا فيأخذه بيده ويناوله لأمير الحاج بمحضر القاضي والأمراء ومعاينتهم ثم يناوله أمير الحاج لسائسه فيذهب به، وذلك كله كالشهادة على الباشا بأنه مكن للأمير المحمل وكل ما يحتاجه ذهابا وإيابا ويشهد على ذلك القاضي والأمراء، ويكتب بذاك إلى السلطان"[2].

وزيادة على هذه المراسيم صاحب خروج المحمل مراسيم أخرى، إذ جرت العادة أنه إذا مر المحمل بين يدي الباشا وذهب، جيء بأرباب الطوائف من الصوفية بشيخهم ولوائهم رافعين أصواتهم بالذكر ومن هذه

[1] الدرعي ، المصدر السابق، ص 279.

[2] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى** ، المصدر السابق، ص 396.

الطوائف القادرية والرفاعية والبدوية والدسوقية، ثم تمر هذه الطوائف على الباشا الذي يمدهم بالعطاء، ليقوم بعد ذلك الباشا بخلع الخلعة على أمير الحاج وكل الأمراء المرافقين له، وبعد هذه المراسيم يخرج المحمل وسائر الإبل والعساكر إلى وسط المدينة حيث تجتمع الحشود من أجل مشاهدته، ومما لاحظه الرحالة في هذا اليوم المميز أن الأسواق كانت تتعطل، إذ كانت كل الطوائف تحرص على مشاهدة مرور المحمل وتتبع خروجه من القاهرة إلى العادلية والذي كان يتم وسط أجواء بهيجة تعكس مدى أهمية هذا الحدث عند المصريين [1].

ومما يجب الإشارة إليه أن وصف الرحالة لاحتفال خروج المحمل لم يقتصر على ذكر المظاهر والمراسيم التي كانت تصاحبه، بل عمد البعض منهم على تتبع تاريخ نشأة المحمل وتطوره وهذا نظرا لأهمية هذا الإحتفال عند المصريين، فإدوارد وليام لين يذكر أن المحمل قديم النشأة،كما يؤكد أن المؤرخون اختلفوا في تحديد تاريخ ظهوره فالشائع أن الظاهر بيبرس هو أول من أرسل المحمل مع قافلة الحجاج إلى مكة المكرمة، وهذا خلال حجته عام 675هـ- 1272م، بينما هناك رأي آخر يؤكد أن تاريخ المحمل أقدم من ذلك فأول من استحدث المحمل هو شجر الدرّ التي أرادت تخليد ذكرى حجتها عام 645م، حيث أرسلت هودجها إلى مكة لإضفاء هيبة الدولة المصرية، وهكذا أصبح إرسال المحمل عادة وتقليدا يسير عليه مختلف الأمراء والملوك[2]، وذلك في إطار حرصهم على إضفاء الطابع الديني لحكمهم والظهور بمظهر حماة الاسلام والحرمين الشريفين[3].

ومما ينبغي الاشارة إليه أنّ احتفالات أهل مصر بالمحمل لم تكن تقتصر على يوم خروجه من مصر فحسب، بل شكل يوم عودة قافلة الحج من الحجاز أيضا مناسبة للاحتفال، وقد شاهد الرحالة إدوارد وليام لين عن كثب طريقة احتفال المصريين بعودة الحجاج فيذكر أنه خلال هذا اليوم يخرج المصريون للساحات الكبرى لاستقبال ذويهم وأقاربهم الذين أدوا مناسك الحج حاملين معهم أصنافا من الفواكه والأطعمة والثياب للحجاج، كما كانوا يصطحبون معهم الفرق الموسيقية والطبول للترحيب بالعائدين وتكريمهم في أجواء تعمها مظاهر الفرحة والبهجة[4].

وقد نقل من جانبه الرحالة الناصري صورة مشابهة لما ذكره إدوارد وليام لين حول طريقة احتفال أهل مصر بعودة المحمل والحجاج إلى مصر إذ أكد أن اهتمامهم بالاحتفال بهذه المناسبة قد بلغ حدا تتوقف فيه حركة الحياة اليومية، فمن عاداتهم في يوم وصول الركب المصري أن يخرج جميع السكان بما فيهم العلماء

[1] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 280، 281.

[2] وليام لين، المصدر السابق، ص 456

[3] منير كيال، **المحمل الشامي دراسة توثيقية**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006م ، ص 129

[4] وليام لين ، المصدر السابق، ص ص 451- 453.

ورجال الصوفية لاستقبال الحجاج مصطحبين معهم جميع اللوازم التي يحتاجها الحجاج من مأكل ومشرب وملبس، يقول الناصري عن استقبال أهل مصر للركب الذي كان يرافقه: " وبها جاءت الملاقاة لأهل مصر من أهاليهم على عادتهم في الترفه في المأكل والمشارب والملابس، وجاءت الباعة بماء النيل والفواكه والثمار والشعير وغير ذلك ..." [1].

ومن الاحتفالات التي دأب المصريون على إحيائها في كل سنة يوم وفاء النيل أو كما سمي بيوم كسر النيل، وهذا الإحتفال يُعدّ من المناسبات المهمة التي توارثها المصريون منذ القدم، إذ جرت العادة أنه إذا بلغ منسوب مياه النيل مقدار ستة عشر ذراع كانت تقام الأفراح و الإحتفالات، وقد ذكر إدوارد وليام لين ما كان يرافق هذا الاحتفال من مظاهر وطقوس، فأشار أن من أهم عاداتهم حين يبدأ ارتفاع منسوب المياه في النيل أن يخرج المنادون إلى الشوارع والأسواق للإعلان عن بداية وفاء النيل رافعين الرايات الملونة، وهذا إيذانا ببدأ الاستعداد لإقامة الحفلات والأفراح الكبرى [2]، وهذه العادة قد أشار إليها أيضا الإسحاقي بقوله:" وقد حضرنا يوم كسر النيل وهو اليوم الذي تنتهي الزيادة في المقياس إلى الحد الذي يضمن فيه خراج السلطان ... ومن حين يبتدأ النيل في الزيادة والمنادون ينادون في الشوارع والأسواق: بلغت الزيادة كذا وكذا ومادام يزيد والناس يفرحون ويستبشرون، والمنادون يأخذون البشائر من الناس ومن الديار عادة جارية عندهم "[3] .

ومما سجله بول لوكاس أيضا عن هذا الاحتفال أنه كان يأخذ طابعا رسميا إذ جرت العادة في هذا اليوم أن يخرج الوالي والأمراء في مواكب مزينة من أجل الإشراف على كسر السد الذي يحبس الماء، كما كان يشهد هذا اليوم أيضا توافد الحشود الكثيرة بغرض مشاهدة عملية إزالة السد و المشاركة كذلك في الإحتفالات الشعبية التي تصاحب هذا اليوم المشهود [4]، وقد أوجز الإسحاقي ما كان يتخلل هذا الحدث من عادات وأجواء مميزة حيث وصف ذلك في قوله: " فإذا عزم والي البلد وأهل العسكر على كسره، ركب الباشا في جنده وركبت السناجق كلها، واحتفل الجيش بإظهار أنواع العدة والسلاح والملابس الفاخرة وأخرجوا الطبول والغيطات وسائر الرعدات، وخرجت المدافع، ولا يبقى أحد إلا وخرج ودب ودرج حتى النساء والصبيان ...، ويذهب أهل الحفارين الذين يزيلون السد فإذا أزالوه اندفع البحر اندفاعة واحدة، ففي

[1] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى** ،المصدر السابق، ص 215.

[2] وليام لين ، المصدر السابق، ص ص 505- 510.

[3] الإسحاقي، المصدر السابق، ص 419

[4] Paul lucas , **Voyage Du Sieur Au Levant** , V 2, Libraire Ordinaire De Mofeigneur De Dauphin Paris , Sd, P 76, 77

الساعة يرجع كل الخليج نهرا وكل نهر بحرا، و عاداتهم في الذين يحفرون السد عاما بعام يحفره أهل الذمة وعام يحفره المسلمون الفلاحة لأنهم المعدون لأعمال الشاقة..." [1].

وإلى جانب هذه العادات يؤكد الاسحاقي على أن يوم الاحتفال بوفاء النيل هو من أيام المشهودة والمنتظرة عند المصريين، إذ بعد أن تتم إزالة السد تبدأ الأفراح فتطلق طلقات المدافع وتقام الزينات وتضاء القنادل، واعتاد المصريون أن يقضوا أوقاتهم في بهجة وسرور حيث كان من أهم عاداتهم في هذا اليوم الخروج للتنزه في القاهرة [2].

ومن ضمن الاحتفالات التي أولى لها المصريون أهمية كبرى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف الذي يحمل رمزية دينية كبيرة في نفوس المصريين والمسلمين عامة ، والمتأمل فيما كتبه الرحالة عن هذا الإحتفال يجد أنهم أجمعوا على أن هذه المناسبة الدينية كان لها تقاليد خاصة في مصر، حيث جرت العادة أن يستمر الاحتفال بهذه المناسبة لعدة أيام وليالي حيث كان يجتمع الناس والفقهاء في المساجد وفي الفضاءات الكبرى وبالأخص في الساحة الكبرى المعروفة ببركة الأوزبكية، حيث تنصب الخيام ويتم إيقاد المصابيح والشموع والقنادل، كما تقام حلقات الذكر وتُردد المدائح النبوية، والملاحظ أن حضور احتفالات المولد النبوي لم تكن يقتصر على المصريين فحسب، بل إن هذا الاحتفال كان تشارك فيه جميع الطوائف الدينية من غير المسلمين وهذا الذي أكده الغيغائي حيث صور لنا في رحلته ما كانت تشهده هذه المناسبة الدينية من مظاهر الاحتفالية إذ يقول عن ذلك: " رأيت في الأوزبكية خياما مضروبة وفساسيط كبار منصوبة معمورة بالناس ... ومجامر الطيب تفور وموائد الطعام تدور ولا تسمع إلا الأذكار والألحان وأنواع المدح وكلام الهذيان والتفرجات والطوائف من أصحاب الأديان وذلك من أول الشهر إلى المولود "[3].

ومن المناسبات الدينية الأخرى التي كان المصريون يحتفلون بها احتفالا كبيرا عيد الفطر وعيد الأضحى، إذ يذكر إدواراد وليام لين أن من عاداتهم في عيد الفطر الذي يستمر ثلاث أيام التوجه لإقامة الصلاة في المساجد وهم في أحسن حلة حيث يتزينون ويرتدون أفضل الملابس ويتطيبون، ومن أهم العادات المرتبطة كذلك بهذا العيد تبادل التهنئة والزيارات بين الأقارب،كما اعتاد أيضا المصريون في هذه المناسبة الخروج لزيارة المقابر والأضرحة ولاسيما النساء منهم حيث كانوا يحملن معهن أنواعا من الأطعمة مثل الكعك والتمر وغير

[1] الإسحاقي ، المصدر السابق، ص ص 419، 420 .

[2] نفسه، ص 420.

[3] الغيغائي، المصدر السابق، ص 127.

ذلك من الأصناف الأخرى التي يتصدقون بها على الفقراء الذين ينتشرون في المقابر في مثل هذه المناسبات[1].

وأمّا فيما يخص عيد الأضحى فلا تختلف طريقة الاحتفال به عن ما كان يشهده الاحتفال عيد الفطر، فالمصريون يتبعون العادات نفسها من تبادل للزيارات والتهاني وزيارة للمقابر وغيرها من العادات الأخرى، لكن ما لاحظه الرحالة ولاسيما الفقيه الحيوني أن احتفالاتهم بعيد الفطر كانت أحسن من احتفالاتهم بعيد الأضحى، ومما أشار إليه الحيوني كذلك أن من عادات المصريين عدم التضحية في عيد الأضحى وهذا لتردي وضعهم الاجتماعي يقول بهذا السياق:" والعيد جلهم لا يضحي وإنما يشترون اللحم من السوق والعيد الصغير عندهم أفضل من العيد الكبير ، ولا يكبرون بأحدهم رأسا "[2].

كذلك امتازت هذه المناسبة بعادات أخرى إذ يذكر الفقيه الحيوني أنه شاع على أهل مصر في هذا العيد الخروج إلى المتنزهات حيث كانت تخصص أماكن محددة للتسلية واللهو فكان سكان القاهرة يخرجون إلى باب النصر حيث تنتشر مظاهر الزينة والفرح وتتعدد أصناف الألعاب [3].

ويعتبر يوم تولية الباشا كذلك مناسبة مهمة دأب المصريون على الاحتفال بها، وقد سجل الرحالة في كتاباتهم ما كان يتخلل يوم قدوم الباشا الجديد من مظاهر احتفالية مميزة، إذ جرت العادة أن يتم استقبال الوالي الذي يعينه السلطان في مواكب ضخمة، فما إن يُبلغ بنبأ قدوم الباشا إلى القاهرة، تبدأ الاستعدادات لاستقباله، فإذا كان الباشا قد سلك الطريق البحري فعند وصوله إلى الاسكندرية يخرج وفد رسمي من كبار الشخصيات لملاقاته كما يحضر الجنود والأمراء بأزياءهم العسكرية لإستقباله وتنصب الخيام وتقام الولائم، وبعد ذلك يركب الباشا سفينة كبيرة مزينة متجها إلى بولاق وترافقه سفن أخرى مزينة حيث يستقبله هناك الأغوات والسناجق والأمراء المماليك، ويتم تسليمه مفاتيح القلعة ثم يسير الباشا من بولاق إلى القلعة في موكب حاشد ووسط احتفالات بهيجة حيث تقرع الطبول و ترتفع أصوات الموسيقى [4].

وزيادة على احتفال أهل مصر يبوم تولية الباشا اشتهر المصريون كذلك بإحياء بعض لاحتفالات الشعبية التي توارثوها منذ عهد الفراعنة ومن أهم هذه الأعياد احتفالهم بعيد شم النسيم أو عيد الربيع(النيوز)الذي يذكر إدوارد وليام لين أنه كان يصادف الثلاث الأيام الأولى من فصل الربيع، وقد كان لهذه المناسبة تقاليد

[1] وليام لين، المصدر السابق، ص ص 494،495.

[2] الحيوني، المصدر السابق، ص ص 109،110.

[3] نفسه، ص 110.

[4] Savary, Op,cit, p 139 , 140.

خاصة حيث كان يعمد أهل مصر في صباح ذلك اليوم إلى كسر بصلة وشم رائحتها ثم في فترة ما قبل الظهر يخرج السكان على الأحصنة أو سيرا على الأقدام إلى المتنزهات والحقول لإستنشاق الهواء العليل و المرح واللهو [1].

4. المرأة المصرية :

خصّص الرحالة المغاربة والأوروبيين في سياق وصفهم للمجتمع المصري حيزا مهما للحديث عن المرأة المصرية وواقعها خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، والملاحظ على سجلوه من انطباعات حولها أن هناك اختلافا واضحا بين نظرة الرحالة المغاربة للمرأة المصرية وبين ما نقله الرحالة الأوروبيين عنها، ولعلّ هذا الاختلاف ناتج عن طبيعة التكوين والبيئة التي قدم منها هؤلاء الرحالة.

تشير المصادر التاريخية أن النساء في مصر قد انقسمن إلى طبقتين تتميز كل طبقة منهما بسمات محددة، الطبقة الأولى تندرج ضمنها النساء الثريات وخاصة نساء علية القوم والبكوات المماليك، وهذه الفئة من النساء انعكس الثراء الذي تعشن في كنفه على نمط حياتهن حيث كان نساءها يقضين أوقاتهن داخل مباهج ومسرات الحريم، وأما الطبقة الثانية فتمثلها نساء الطبقة الدنيا وخاصة نساء الأرياف والقرى اللواتي قدر عليهن العمل والمشقة ، وإلى جانب ذلك وجدت أيضا فئة من الجواري والخدم [2].

و المتتّبع لنصوص الرحلات التي اهتمت برصد واقع المرأة المصرية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع وبالأخص الرحلات الأوروبية تستوقفه ملاحظة هامة إذ عمد غالبية الرحالة الأوروبيين على إظهار المرأة المصرية في مرتبة متدنية حيث وصفوها بأنها ليس لها أي دور في الحياة العامة وقد قارنوا بينها وبين ما كانت تتمتع به المرأة الأوروبية من حرية [3]، والواقع أن هذه النظرة التي تبناها كثير من الرحالة الأوروبيين تنطوي على كثير من المبالغة والتحيز، فهؤلاء الرحالة انطلقوا في رسم تصوراتهم لواقع المرأة الشرقية على منطلقات محددة كتركيزهم على موضوع الحجاب ونظام الحريم (الحرملك)[4] الذي كن ينعزلن فيه ولهذا ارتسمت لديهم صورة سلبية عن وضع المرأة في مصر والتي كانت في نظرهم تعاني من الاضطهاد وهذا مقارنة بالمرأة الأوروبية التي كانت أكثر تحررا حسبهم .

---

[1] وليام لين ، المصدر السابق ، ص 504.

[2] عصمت محمد حسن، **الجبرتي وعصره دراسة في التاريخ الإجتماعي لمصر العثمانية**، ط1، دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، مصر، 2015م، ص 195.

[3] محمد عبد الله عنان، "مصر في أواخر القرن الثامن عشر كما وصفها الرحالة سافاري،" مجلة الرسالة ، ع 221، ص 1566.

[4] الحرملك : مصطلح يستخدم للدلالة على القسم الخاص للنساء من أقسام المنازل والقصور، انظر: صابان، المرجع السابق، ص 91.

وفي الحقيقة أنه رغم هذا التحيز الواضح الذي اتسمت به بعض كتابات الرحالة الأوروبيين حول المرأة المصرية فإن هذا لا ينفي وجود كتابات أخرى اتسمت بالموضوعية واتفقت في رصدها لصورة المرأة الشرقية مع ما أوردته المصادر المحلية وكذا الرحلات المغاربية، وهو ما مكننا من الوقوف على وضعية المرأة المصرية في القرنين الثامن والتاسع عشر سواء في صورتها الإيجابية أو السلبية، وعلى العموم يجد المتتبع لنصوص الرحلات المغاربية والأوروبية صورا متنوعة للمرأة المصرية حيث جاء وصفهم لها يرتكز على قضايا متعددة كدورها في الحياة العامة وصفاتها المعنوية والجسدية بالإضافة إلى وضعها الاجتماعي.

إنّ من أكثر المسائل التي شدّت انتباه الرحالة المغاربة والأوروبيين في وصفهم للمرأة المصرية ما تعلّق بخصائصها ومميزاتها فقد لاحظ غالبية الرحالة أنها تتسم بالحسن والجمال وهذا ما أثنى عليه الرحالة إدوارد وليام لين الذي يذكر بأن النساء "المصريات منذ بلوغهن الرابعة عشر حتى العشرين سنة يعتبرن مثالا للجمال"[1]، ومن جهته لاحظ الفقيه الحيوني نفس الملاحظات حيث يقول واصفا نساء مصر:" وكلهن ذوات حسن وجمال وقد واعتدال، يستحي ذو العرض أن ينظر إلى وجهها"[2]، و للإشارة إن الفقيه الحيوني لم يكتف بوصف جمال نساء مصر فحسب، بل دفعه إعجابه بهن إلى مقارنة بينهم وبين نساء بلده فاس مفضلا نساء مصر حيث يقول:" فنساؤها الغالب عليهن الحسن، وبه قال جُل من رأيت من المغاربة فقد سلموا هذه المقالة فأهل فاس بأنفسهم قالوا إن نساء مصر أفضل من نساء فاس بكثير"[3].

إن وصف الرحالة للمرأة المصرية لم يقتصر على ذكر مميزاتها فحسب، بل عمدوا كذلك على رصد دورها في المجتمع المصري وأحوالها الاجتماعية، فمما سجله عنها الرحالة سافاري أنها كانت مثل الرقيق ليس أي دور في الحياة العامة، فإذا كانت المرأة الأوروبية خلال هذه الفترة تسيطر على العروش ولها دور في الحياة السياسية فإن المرأة المصرية كانت حبيسة نظام الحريم وأعظم أمانيها هي انجاب الأولاد ورعايتهم[4].

وفي الحقيقة إن هذا الرأي يتناقض كثيرا مع ما جاء في الرحلات المغاربية والمصادر المحلية إذ فندت نصوص الرحالة المغاربة ما أورده الرحالة الأوروبيين عن المرأة المصرية، إذ سجل الغيغائي أنها اضطلعت بدور هام في الحياة العامة، فلم يكن دورها ينحصر في تسيير شؤون المترل كما زعم بعض الرحالة الأوروبيين المتحيزين، بل كان لها حضور قوي في جميع الأنشطة العامة، فالمرأة المصرية زاولت مختلف الأعمال والأنشطة

[1] وليام لين، المصدر السابق، ص 48

[2] الحيوني، المصدر السابق، ص 119

[3] نفسه، ص 115

[4] عنان، المرجع السابق، ص 1566.

وقد أدت بها الظروف إلى العمل حتى في المجال التجاري وهو ما أكد عليه الغيغائي بقوله:" إن نساء في هذه البلاد يتسوقن ويجلسن في الحوانيت للبيع فهن بقالات وخبازات وهن طباخات وقشاشات في الملح والتمر وغير ذلك ...، وإن قلت أنهن نصف الرجال بالأسواق فما كذبت"[1]، و لم يختلف رأي الحيوني عن ما ذكره الغيغائي، حيث أكد من جهته مزاولة المرأة للتجارة و مساهمتها في الحياة العامة وهو ما يوضحه قوله:" وتراهن في الأسواق يبعن على أنفسهن، فمن خبازة ومن خضارة بميزانها ومن قشاشة تمرا وتفاحا أو فاكهة بميزانها ومنهن من تحمل الخبز من الوصلة على رأسها وتدور بها في الأسواق وهي تصرخ بلسانها به "[2].

يتضح من خلال ما ذكره الرحالة سالفا أن المرأة المصرية لعبت دورا مهما في المجتمع المصري إذ لم يكن عملها يقتصر على تدبير شؤون المترل وتربية الأولاد كما ذهب إليه الرحالة سافاري وغيره من الرحالة الأوروبيين، بل إن دورها تجاوز ذلك حيث انخرطت في العمل من أجل سد حاجيات أسرتها وقد تنوعت الأنشطة التي مارستها المرأة حيث امتهنت التجارة في الأسواق، كما مارست مهن أخرى كالحياكة والتطريز والنسيج، وقد كانت هذه المهن تدر عليها دخلا كبيرا حسب ما أشار إليه الرحالة جيرارد دي نارفال [3]، و لم يختلف الوضع بالنسبة للنساء في البوادي، إذ ذكر دي شابرول ضمن كتاب وصف مصر أنهن كن يعملن في الحقول إلى جانب أزواجهن وهذه الفئة من النساء البدويات كانت تقع على عاتقهن أعباء كثيرة، الأمر الذي جعلهن يتميزن عن غيرهن من نساء الطبقات الثرية[4].

وفي الواقع أنه إذا ما عدنا إلى المصادر المحلية نجد كثيرا من الأمثلة التي تؤكد على دور المرأة ومكانتها الاجتماعية، فمما سجله الجبرتي عنها أنها كانت تتمتع بمكانة كبيرة، حيث وجدت نساء اكتسبن مكانة اجتماعية رفيعة، وكمثال عن ذلك يكفي أن نشير إلى السيدة نفيسة المرادية[5] زوجة مراد بك والتي أجمع المؤرخون بأنها نالت احتراما وتقديرا كبيرا نظرا لمشاركتها ودورها المهم في الحياة العامة[6].

---

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 117.

[2] الحيوني، المصدر السابق، ص 119.

[3] دي نارفال، المصدر السابق، ص 247.

[4] علماء الحملة الفرنسية ، المصدر السابق، ج1، ص64.

[5] نفيسة المرادية: امرأة جركسية الأصل ، ذاع صيتها عندما دخلت إلى حريم على بك الكبير ، كان لها ثروة كبيرة ، تزوجت من مراد بك بعد وفاة علي بك وخلال هذه الفترة حازت على مكانة كبيرة في المجتمع المصري، للمزيد أنظر: محمود الشرقاوي، المرجع السابق، ص ص 166، 167.

[6] عبد المنعم ابراهيم الجميعي، **المرأة المصرية في عصر الجبرتي** ، ضمن كتاب المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني، ضمن أبحاث ضمن أبحاث ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، 2007م، ص 269.

وزيادة على ذلك إنّ من الصور التي نقلها الرحالة وتدل كذلك على دور المرأة ومكانتها في المجتمع المصري ما أشار إليه الغيغائي حيث كشف أن المرأة المصرية كانت لها عناية بالتعليم فقد لاحظ أثناء تواجده بمصر ارتفاع مكانة بعض النساء اللواتي بلغن مكانة مهمة، إذ وجد من بينهن من أصبحن فقيهات يحضرن مجالس العلم والتفسير بجامع الأزهر[1].

إنّ الرحالة في وصفهم لواقع المرأة المصرية لم يفتهم أيضا أن يسجلوا المظاهر السلبية التي استوقفتهم لاسيما التي لم تكن مألوفة عندهم وتتعارض مع مرجعياتهم الدينية والاجتماعية الشيء الذي دفعهم إلى استنكارها، ومن أهم هذه الصور ما لاحظه الغيغائي في القرن التاسع عشر إذ شد انتباهه تلك الحرية التي أصبحت تتمتع بها المرأة المصرية، فالغيغائي تحامل عليها بشدة بسبب استهلاكها للدخان وسفورها واختلاطها مع الرجال وقد وصفها بأنها تميزت بقلة الحياء ومن أهم ما سجله في هذا الشأن قوله :" وأمّا النساء في مصر فإنهن قليلات الحياء، كثيرات الصولة، إلا ما كان من نساء الحجاب، وأما المتسوقات فأعظمهن ليس معها حياء، ونساء مصر ونواحيها أجسر النساء وأصولهن وأطولهن لسانا[2]، وهي نفس الملاحظة التي سجلها أيضا الناصري إذ صرح بالقول: " وأما مزاحمة النساء للرجال بها وقلة حيائهن فأمر خارج عن الدين"[3].

ومن المفيد الإشارة هنا أن هذه الصورة التي قدمها الرحالة المغاربة تعكس جانبا من التحولات التي مست واقع المرأة المصرية سيما بعد الحملة الفرنسية والتأثيرات التي أحدثتها في المجتمع المصري فحياة المرأة المصرية تأثرت بشكل كبير بعد هذا التاريخ، إذ أن اختلاطها واحتكاكها بالنساء الفرنسيات وما اشتهرن به من تحرر جعلها تتخلى عن كثير من صفاتها المحافظة، وهذا ما أوضحه كذلك الجبرتي حيث استنكر بشدة خروج النساء عن أصول الحشمة والحياء ومخالفتهن للتقاليد والعادات حيث يقول عن ذلك:" لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهن زوجاتهم كانوا يمشون في الشوارع مع هؤلاء النسوة حاسرات الوجه لابسات الفساتين والمناديل الحريرية الملونة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة فمالت إليهم أهل الأهواء الأسافل"[4] .

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 114.

[2] نفسه، ص 113.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى** ، المصدر السابق، ص 840.

[4] الجبرتي، المصدر السابق، ج3، ص ص 262، 263.

ومن الأمور الأخرى التي سجلها الرحالة المغاربة حول المرأة المصرية و التي كانت في نظرهم تعد من المظاهر السلبية التي تميزت بها هي خدمتها للنصارى، وهذا ما أثار استنكار الغيغائي باعتبار أن هذا الأمر يتنافى مع قيم المسلمين يقول واصفا :" وأما عداوة النصراني فليس في قلوبهم ذلك أصلا... والمسلمة الصغيرة البكرة الحسناء تراها خدامة عند النصارى تحمل أولادهم وتخدم نسائهم كالآمة عصمنا الله وإياكم، فكل هذا ولا ترى من يقول هذا ليس بفعل المسلمين"[1] .

وللإشارة إن الرحالة المغاربة في سياق وصفهم للمرأة المصرية لم يفتهم أيضا أن يسجلوا في رحلاتهم بعض المحاسن التي تميزت بها، فالنساء المصريات حسب ما أشار إليه الغيغائي يجمعن بين المتناقضات، فعلاوة على صفة قلة الحياء التي تغلب عليهن فإنهن إلى جانب ذلك يتسمن بالحذق في المعاملة والمعرفة بالحساب و القدرة على العمل، يقول الغيغائي بهذا الخصوص:" وليس في البلاد كلها ما سلكناه ووصلنا إليه أسطى و ألذع لسانا ولا أحذق في الحساب ولا أعمل بالدين ولا أكسب من نساء مصر إلا أنهن أعرف النساء بالقواعد وأفهم في الدين من غيرهن ..." [2].

مجملا يمكن القول أن أحوال المرأة المصرية خلال القرنين الثامن والتاسع عشر قد عرفت الكثير من التحولات وهذا تبعا للتطورات التي شهدتها مصر، لكن الذي يجب الإشارة إليه أن وضع المرأة المصرية قبل الحملة الفرنسية قد اختلف عن وضعها بعد الحملة، ومن جهة أخرى يتبين لنا أن المرأة المصرية اضطلعت بدور كبير في الحياة العامة إذ أكدت نصوص الرحالة المغاربة وكذا المصادر التاريخية على المكانة التي تمتعت بها المرأة المصرية في المجتمع المصري ولعلّ ما ذكره الرحالة الأوروبيين الذين انتقدوا أحوالها الاجتماعية لم يكن سوى مبالغات نابعة عن اختلاف البيئة التي جاؤوا منها والتي كان فيها وضع المرأة فيها يختلف عن وضع المرأة في المجتمعات العربية الاسلامية .

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 139.

[2] نفسه، ص 114.

المبحث الرابع : الحركة الفكرية في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

انفردت مصر خلال العهد العثماني بمكانتها العلمية الكبيرة التي جعلت طلاب العلم يتوافدون عليها من كافة أنحاء العالم الإسلامي، ولعلّ من العوامل التي ساعدت مصر على تبوأ هذه المكانة هي تعدد المراكز العلمية الموجودة بها بالإضافة إلى وجود كوكبة من العلماء والفقهاء الذين برعوا في شتى أصناف المعرفة، وكان من الطبيعي أن تستأثر مظاهر الحياة الثقافية في مصر باهتمام الكثير من الرحالة الذين سجلوا لنا بين طيات رحلاتهم جوانب مهمة حول واقع الحياة الثقافية في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لكن الجدير بالذكر هو أن الرحلات المغاربية كانت أكثر تفصيلا وتوسعا في رصد صورة المشهد الثقافي في مصر، وهذا على عكس الرحلات الأوروبية التي لا نجدها تتوفر على معلومات كثيرة ووافية في هذا الجانب، ولعلّ ما يفسر هذا الاختلاف في تناول مظاهر الحياة الثقافية هو أن الرحالة المغاربة عند زيارتهم لمصر كان من ضمن أهم أهدافهم الاتصال بعلمائها والأخذ عنهم، وبالتالي انعكس ذلك على مصنفاتهم التي جاءت حافلة بالمعلومات ذات البعد الثقافي.

وأما بخصوص الرحالة الأوروبيون فقد اختلف الأمر إذ يلاحظ أن اهتمامهم كانت يرتكز على مجالات أخرى أكثر أهمية، وبالتالي لم يتركوا لنا معلومات كثيرة حول الحياة الثقافية في مصر، وباستقراء نصوص الرحلات المغاربية يمكن القول أنها قدمت صورة تكاد شاملة عن مظاهر الحركة العلمية في مصر، إذ لم يقتصر حديثهم عن العلماء فحسب، بل إنهم تطرقوا إلى مسائل متنوعة فوصفوا المؤسسات التعليمية وما ميزها من نشاط علمي، وأشاروا كذلك إلى مناهج التعليم وأصناف العلوم السائدة في تلك الفترة.

1. المؤسسات و المراكز العلمية:

لقد كانت مصر خلال العهد العثماني تعد من أهم الحواضر الثقافية في العالم الاسلامي، ويرجع ذلك إلى ما كانت تحتضنه من مراكز علمية مختلفة، وبالعودة إلى ما سجلته كتب الرحلات عن الحركة الثقافية في مصر يمكن القول بأن المراكز العلمية التي زخرت بها مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت متنوعة حيث تمثلت أساسا في المساجد والمدارس والكتاتيب بالإضافة إلى منازل العلماء التي كانت تعقد فيها حلقات الدروس .

1.1 المساجد والجوامع :

تعتبر المساجد المؤسسة التعليمية الأولى في الإسلام، فدورها لم يقتصر على كونها أماكن للعبادة فحسب، بل إنها أسهمت على مر العصور في نشر علوم الدين واللغة، فشكلت بذلك المركز الرئيسي لنشر الثقافية الإسلامية[1].

وكغيرها من الأقطار الإسلامية تميزت مصر في العهد العثماني بكثرة المساجد التي مارست دورا تعليميا في تلك الفترة، وقد لفت هذا الأمر انتباه الكثير من الرحالة الذين زاروا مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فالفقيه الحيوني أشار إلى ذلك بقوله: " فيها أكثر ما يحصى من المساجد كل مسجد بصومعته ... وأكثر مساجدها للسلاطين القدماء فمتى أحب واحد منهم أن يموت بنى لنفسه مسجدا، ويجعل له الأحباس التي تكفيه من كل شيء "[2]، وأما الرحالة بيرتون فقد أحصى في مدينه القاهرة وحدها مايقارب أربع مئة مسجد [3]، وقد وافقه أيضا في ذلك الرحالة ستانلي لين بول الذي زار مصر في القرن التاسع عشر حيث ذكر أنه كان يوجد بالقاهرة كان أكثر ثلاث مئة مسجد[4].

وبالرغم من أن معظم الرحالة لم يقدموا إحصائيات دقيقة حول هذه المساجد، إلا أننا نجد في رحلات المغاربة ذكرا لأهم العوامل التي ساهمت في كثرة انتشار المساجد بمصر، فالورتلاني يرى أن كثرة انتشار المرافق الدينية وتعددها في القطر المصري يرجع بالأساس إلى العناية و الاهتمام الكبير الذي كان يوليه الحكام لهذه المؤسسات الدينية، فأهل المشرق عامة والمصريين خاصة عرف عنهم عنايتهم بالمساجد وهذا بخلاف و عكس ما هو موجود في المغرب العربي الذي تنعدم فيه العناية بالمرافق الدينية، وقد أبرز الورتلاني الفرق بين مصر والمغرب العربي وذلك من خلال قوله: " فرحم الله أفاضل الملوك الذين درجوا، والذين من خلفهم على مناهجهم نهجوا، لقد خلدوا من المآثر الدينية ما أوجب خلود الثناء عليهم ووصول الدعاء ممن بعدهم إليهم، و لم يزل أهل المشرق إلى الآن لهم اعتناء ببناء المساجد والخانقات ويبالغون في تعظيمها ويتأنقون في ذلك ويبادرون إلى إصلاح ما وهي منها، وأما أهل مغربنا فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجد عظيما قد أحدث بل

---

[1] ناصر عبد الله عثمان، **قبل أن يأتي الغرب الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر** ، ط2، د .ك.و.ق، القاهرة 2012م ، ص99

[2] الحيوني، المصدر السابق، ص ص 106، 107.

[3] بيرتون ، المصدر السابق، ص 90.

[4] Lane Poole Stanly, **Social Life In Egypte A Description Of The Country And Its People** , London, P 88

ولا مهدما قد جدد أو واهيا قد أصلح بل لو سقط شيئ من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه إن كان مبنيا برخام أن يعاد بآجر وجص وإن كان مجصصا أن يعاد بطين ..."[1] .

إن المطلع على نصوص الرحلات يجد أنها تحفل بمعلومات مهمة عن المساجد الموجودة بمصر ودورها العلمي، لكن الذي يلفت الإنتباه أن جامع الأزهر قد أخذ الحيز الأكبر في هذه النصوص، وهذا نظرا لكونه يعتبر من أهم المؤسسات الدينية والعلمية التي اشتهرت ليس في مصر فحسب، بل في العالم الإسلامي عامة، فهذا المعهد الديني طبقا لما سجلته كتابات الرحالة كان مركز إشعاع ثقافي فاقت شهرته أرض مصر خاصة وأنه كان يجذب إليه طلاب العلم من مختلف الأقطار الاسلامية.

لقد أكد معظم الرحالة على أهمية الأزهر الشريف والدور العلمي الذي كان يضطلع به في العهد العثماني، وقد تنوعت الأوصاف التي سجلها هؤلاء الرحالة في إشادتهم به فمنهم من حرص على وصف عمارته كالفقيه الحيوني الذي ذكر أنه يحتوي على ست أبواب هي باب المزينين و باب المغاربة وباب الترك وباب الشوام وباب الصعايدة، ومنهم من بين مكانته العلمية، فالغيغائي وصفه بقوله:" إنك لا ترى في هذا الجامع إلا مجالس التدريس والمطالعة والمذاكرة والتلاوة والتعليم...، فسبحان من خص هذا الجامع بالعمارة والأذكار والتدريس للعلوم دون سائر الجوامع في الأمصار، وفضله بهذا المزية ورفعه على سائر البقاع في كل الأمصار، ليس على وجه الأرض من يماثله بهذه العمارة و يوازيه بكثرة العلم والعلماء ولا في الفضل سوى المساجد الثلاثة وبركة الأزهر لا تحصى ولا تستقصى"[2].

إن إشادة الرحالة بجامع الأزهر الشريف لم تقتصر على الرحالة المغاربة فحسب، بل سجل لنا الرحالة الأوروبيين بدورهم معلومات مهمة تشير إلى مدى المكانة التي تبوئها الأزهر الشريف في العهد العثماني، فإدوارد وليام لين اعتبر الأزهر الشريف الجامعة الرئيسية في المشرق، كما وصفه بأنه منارة للإسلام و ملتقى للعلماء والطلبة الذين يتوافدون عليه من كل أرجاء العالم [3].

ويبدو واضحا من خلال ما أورده الرحالة عن الجامع الأزهر أن هذه المؤسسة الدينية والعلمية قد تبوأت واحتلت مكانة كبيرة لاسيما في العهد العثماني، وفي الواقع إن ظهور الأزهر الشريف كأهم المراكز الدينية والعلمية في مصر يرجع إلى عوامل مختلفة، و لعلّ في مقدمة هذه العوامل نجد ذلك الإهتمام الذي أولاه العثمانيون لهذه المؤسسة، فبفضل نظام الأوقاف الذي خصص له أصبح الجامع الأزهر يتمتع باستقلال

[1] الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص ص318، 319.

[2] الغيغائي، المصدر السابق، ص 98.

[3] وليام لين، المصدر السابق، ص ص 210- 214.

مالي، وفي هذا السياق يذكر لنا جومار أحد أعضاء البعثة العلمية للحملة الفرنسية أنه كانت لهذا الجامع موارد مالية ضخمة حيث كانت نسبة كبيرة من هذه الموارد تنفق على التعليم فيه وعلى تمويل المكتبات [1] .

و من ناحية أخرى إن ما ساعد على بروز الأزهر الشريف في العهد العثماني احتضانه لكافة المذاهب الدينية، إذ وجد فيه المذهب الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي، وقد ساهم هذا التنوع المذهبي بشكل كبير في جعل الأزهر الشريف قبلة لطلاب العلم على اختلاف توجهاتهم [2].

لم يفت الرحالة وهم يصفون الجامع الأزهر أن يقوموا برصد النظام والنشاط التعليمي الذي كان يتميز به هذا الجامع، فمما سجله الرحالة المغاربة أن التعليم في الأزهر الشريف قد اختلف عن ما كان متداولا في المساجد الأخرى، حيث كان يعتمد بالأساس على نظام الأروقة، وقد ذكر الحيوني أنها بلغت خمسة وعشرون رواقا، يختص كل رواق منها بإقليم معين، إذ يوجد رواق للمغاربة [3]و رواق لأهل اليمن ورواق لأهل الشام و رواق للترك وغيرها من الأروقة الأخرى، وطبقا لما دونه الحيوني كذلك فإن كثيرا من هذه الأروقة كان لها أحباس خاصة بها ومكتبات مستقلة [4]، وقد وصف الغيغائي هذا الجانب أيضا إذ نجده يلخص طبيعة النظام التعليمي في الأزهر الشريف في قوله:" كل جنس له مدرسة ويسمونها رواقا وكل إقليم منعزل عن الآخر، وكل مدرسة متصلة بالجامع أو بداخله و هي: رواق الترك، ورواق الشامية ورواق الشرقية ورواق المغاربة وغيرها"[5] .

لقد أشار الرحالة المغاربة والأوروبيون إلى أن التعليم بالأزهر الشريف كان يرتكز بالأخص على العلوم الدينية من فقه، وتفسير وغيرها، وإضافة إلى ذلك لم يكن الإلتحاق بهذه المؤسسة الدينية يخضع لأي شروط إذ لم تفرض سن معينة لحضور مجالس العلم، حيث كانت تتواجد فيه حسب ما أفادنا به الفقيه الحيوني جميع الفئات وهذا يؤكده قوله: "فيهم الشيباني والشاب والكهل والشيخ الفاني، من قرأ يمكث يقرأ ويُقرأ

[1] الشناوي، المرجع السابق، ص ص 680، 681.

[2] حسام محمد عبد المعطي، **شيخ الجامع الأزهر في العصر العثماني، 1538 – 1812م**، م. إ، مصر ، 2016م، ص 18.

[3] تشير المصادر أن هذا الرواق يقع في الجانب الغربي من صحن المسجد ، يحتوي على خمسة عشر بائكة ومساكن ، ومكتبة ، له أوقاف كثيرة، يؤم هذا الرواق العلماء القادمون من المغرب العربي وهي تونس ، الجزائر، المغرب ، ليبيا ، أنظر: عبد الجواد صابر اسماعيل، **مجتمع علماء الأزهر إبان الحكم العثماني1517–1797م**، د.ك.و.ق، القاهرة ، 2016م، ص347.

[4] الحيوني، المصدر السابق، ص ص 130– 133.

[5] الغيغائي، المصدر السابق، ص 99.

غيره " [1]، كما كان التعليم فيه مجانيا، إذ يكفي أن يكون الراغب في الإلتحاق به ملما بمبادئ القراءة والكتابة[2].

وقد أوضح الرحالة لين بول مزايا نظام التعليم في الأزهر في قوله:" إن نظام الجامع الأزهر نظام مثالي كامل، يتم الترحيب على الفور بالشباب الفقراء الذين يأتون إليه، ويستطيعون تعلم كل ما يعرفه الأساتذة ويمكنهم الحصول على أفضل وأرقى تعليم يمكن أن يُحصله مسلم في تلك الفترة، وذلك دون أن يطالبوا بدفع أي قرش "[3].

تميز الأزهر الشريف حسب ما أورده الرحالة المغاربة والأوروبيين بنشاط علمي كبير، إذ يذكر لنا التامراوي الذي زاره أن هذا الجامع كان يعج بالطلبة والعلماء وكانت القراءة فيه لا تنقطع في كل فن [4]، ونفس الأمر أكد عليه الغيغائي حيث أشاد هو الآخر بكثرة عددهم إذ يقول عن ذلك: " وأما طلبة الأزهر العلماء والمتعلمون لا يحصون كثرة بارك الله فيهم... وأعانهم على ما هم فيه من الجد و الإجتهاد" [5].

اختلفت الإحصائيات التي قدمها الرحالة عن أعداد الطلبة المتواجدين في الأزهر، فالرحالة بيرتون يشير بأنه كان يوجد بالأزهر الشريف ما بين ألفين وثلاث ألاف طالب ينتمون إلى أمم وأجناس مختلفة[6]، وأمّا الغيغائي فيذكر أن عددهم وصل حسب ما أفاده به الفقيه سيدي محمد بن أبي سعادة الواسطي إلى تسعة ألاف وست مئة طالب، وقد ذكر أيضا أن هذا العدد قد ارتفع بعد مغادرته لمصر حيث بلغ عددهم أحد عشر ألف طالب [7]، ومما ينبغي الإشارة إليه أن هؤلاء الطلبة كانت لهم رواتب كما كانوا يحصلون على حصتهم اليومية من الطعام والتي كانت تؤمنها لهم الأوقاف المخصصة للجامع[8]، وقد أكد هذا الرحالة نيبور إذ يقول:" ومن بين الجوامع هذه المدينة كلها يُعدّ جامع الأزهر أكثرها قدما وغنى وأكثرها مساحة حيث يؤمن يوميا المأكل والمأوى لعدد كبير من الفقراء ..."[9].

---

[1] الحيوني، المصدر السابق، ص 138

[2] بيرتون، المصدر السابق، ص 94

[3] Stanly , op, cit ,p 84

[4] المختار السوسي، المصدر السابق، ص 201.

[5] الغيغائي، المصدر السابق، ص 97.

[6] بيرتون، المصدر السابق ، ص 94.

[7] الغيغائي، المصدر السابق ، ص 97

[8] وليام لين، المصدر السابق، ص 214.

[9] نيبور، المصدر السابق، ص 97.

وأما بالنسبة للمجالس العلمية التي كانت تعقد في الأزهر الشريف، فقد كانت تتم حسب ما ذكره الغيغائي وفق حلقات منفردة، والملاحظ على هذه الحلقات أنها كانت تقام حسب المذاهب "فكل مذهب على حدتهم لهم حلقات معلومة وعلماء مستقلون"[1]، وقد أشار الحضيكي إلى عدد المجالس العلمية التي كان يشتمل عليها الأزهر الشريف إذ بلغت ثلاثين مجلسا تعقد في وقت واحد [2]، وأمّا عن ما كان يشهده الأزهر الشريف من نشاط علمي فقد لاحظ الإسحاقي حركة علمية نشيطة وقد عبر ذلك بقوله:" لا يزال جامع الأزهر غاصا بالناس ليلا ونهارا مابين قارئ ومطالع لكتاب ومصل و ذاكر، كأنما هو سوق عامرة والمجالس الدَّرسِية به متظافرة ، ظهر هذه الحلقة لظهر هذه...[3]، وقد سجل كذلك الفقيه الحيوني ما كان يتميز به الأزهر الشريف حيث وصف ذلك بقوله: "وتسمع للمسجد دوي وزفير في كل الأوقات فلا تنقطع القراءة ليلا ونهارا حتى في أيام العواشر"[4].

لم يغفل الرحالة المغاربة في وصفهم للأزهر الشريف ودوره العلمي أن يكشفوا كذلك عن الاختلافات التي لاحظوها بين المغرب ومصر، فمن أهم ما استرعى انتباههم وتحدثوا عنه في رحلاتهم هو اختلاف المذاهب وتعددها في مصر، وقد أشار الغيغائي في هذا الصدد إلى وجود أربعة مذاهب هي المذهب الحنفي و الشافعي و المالكي والحنبلي، غير أن الملاحظ حسب ما جاء في رحلته أن هذه المذاهب قد اختلفت وضعيتها فقد كان المذهب الحنفي الأكثر انتشارا في مصر، وقد احتل الصدارة باعتباره المذهب الرسمي للدولة العثمانية، وأمّا بخصوص المذاهب الأخرى فيخبرنا الغيغائي بأنها تراجعت وكادت تندثر ولا سيما المذهب الحنبلي الذي لم يعد له أي وجود يقول عن ذلك:" وأما المذهب الحنبلي بمصر اليوم فقليل جدا وبها عالم واحد كان يعلم نحو ثلاث من الناس وكاد ينقطع منها مذهبهم"[5]، وتجدر الإشارة أن ما أورده الغيغائي بشأن وضعية المذاهب في مصر قد أكده أيضا الإسحاقي والحضيكي ومحمد بن عبد السلام الناصري في رحلاتهم.

رغم الدور المهم الذي ظل يقوم به الأزهر الشريف في نشر التعليم في مصر، إلا أن الرحالة أكدوا في كتاباتهم على حقيقة هامة مفادها أن هذه المؤسسة الدينية والعلمية قد تراجع دورها بشكل لافت لاسيما عقب الحملة الفرنسية، إذ أصبحت تعاني من الإهمال وعدم العناية بها[6]، وقد رصد الغيغائي بعض مظاهر ذلك

[1] الغيغائي، المصدرالسابق، ص 99.

[2] الحضيكي، المصدر السابق، ص 189.

[3] الإسحاقي، المصدر السابق، ص421.

[4] الحيوني، المصدر السابق، ص 138.

[5] الغيغائي، المصدر السابق، ص ص 93- 97.

[6] وليام لين، المصدر السابق، ص 217.

التدهور حيث لخص ما آل إليه جامع الأزهر في تلك الفترة في قوله:" والأزهر اليوم مهمول وعلى رأس العز والاعتناء به غير محمول من قلة الفرش والزينة، و لم يبقى على الحالة اليوم سوى الجامع الحسيني، والجامع الأزهر اليوم متروك لا يبالي به الأمراء ولا بطلبته..."[1].

و مما ينبغي التنويه إليه أن الغيغائي لم يكن الرحالة الوحيد الذي أشار إلى مسألة تدهور أحوال الأزهر فقد تحدث الرحالة بيرتون أيضا عن ما حل بجامع الأزهر في تلك الفترة، ومما أكد عليه أن هذا الجامع بعد عهد محمد علي فقد الكثير من منزلته، حيث تدهورت أحواله بشكل كبير لاسيما في عهد سعيد باشا، ويعزوا بيرتون هذا التدهور الذي أصاب الأزهر إلى قلة الرعاية والعناية به [2].

وفي الواقع تؤكد الكثير من المصادر أن التدهور الذي حل بالأزهر الشريف في القرن التاسع عشر لم يكن سوى نتيجة للسياسة التي اتبعها محمد علي باشا الذي قام بإلغاء نظام الالتزام ومصادرة الأوقاف المحبوسة عليه، فنقصت بذلك موارد الأزهر وانخفض عدد الطلبة المجاورين به، وفقد العلماء الكثير من مكانتهم الاجتماعية[3]، وهذا ما أدى في الأخير إلى تراجع دوره أمام بروز المدارس الحديثة [4].

وفي الحقيقة إن المتفحص لكتابات الرحالة المغاربة والأوروبيين في القرن التاسع عشر يجد الكثير من المظاهر التي تعكس مدى تدهور أحوال الأزهر الشريف في تلك الفترة، و يكفي أن نشير إلى ما ذكره الغيغائي بخصوص الطلبة المجاورين بالأزهر، إذ استنكر بشدة الأوضاع المعيشية التي كانوا يعيشون في كنفها حيث يقول عن أحوالهم: " وهم اليوم غير معتن بهم و لا مبال بأحوالهم، ونقصت لهم الرواتب وكانوا في زمن محمد علي باشا لهم الرواتب الفاخرة والمراتب العالية وأما اليوم فلا معين لهم إلا الله ..."[5]، وقد أضاف في موضع آخر واصفا الظروف المعيشية المزرية التي يعيشون في كنفها" وأما أقوات الطلبة وغيرهم فاعلم أن معيشتهم بالخبز اليابس وأعظمه من النساء يصنعونه من الذرة والفول والشعير يأكلونه بالكراث أو الفجل ... وهذه معيشة

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 101.

[2] بيرتون، المصدر السابق، ص ص 93، 94.

[3] وليام لين، المصدر السابق، ص 214.

[4] فتيحة علواش، **الحياة الفكرية في مصر وبلاد الشام خلال الفترة العثمانية من الربع الأول من القرن 16/ 10هـ إلى منتصف القرن 19م/ 13هـ**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر الدولة العثمانية والمشرق العربي، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر2، 2013م-2014، ص 180.

[5] الغيغائي، المصدر السابق، ص 97.

أكثرهم... وإذا رأيت الطلبة يتعيشون بهذه البقول في وسط الجامع تشفق عليهم وتقول لو كانت عندي قوة وثروة لأغنيتهم خبزا ولحما ولو قدرت على أفرق عليهم أموالا يستعينون بها لفعلت ... "[1].

وحسب ما جاء في رحلة إدوارد وليام لين لم تكن وضعية العلماء بأحسن حال، فهذه الفئة التي كانت في ما مضى تحتل مكانة مرموقة في المجتمع المصري فقدت الكثير من مكانتها في القرن التاسع عشر، والذي يدل على ذلك أنه لم يعد أمام العلماء من مصدر للعيش غير التدريس في المنازل ونسخ الكتب أو احتراف التجارة، يقول ادوارد وليام لين في هذا الصدد:" لا يتلقى الأساتذة رواتب محددة، وليس لهؤلاء من وسيلة انتظامية يؤمنون بها عيشهم إلا في حال ورثوا ملكا أو كان لهم أقرباء يعيلونهم ووسيلة كسبهم الوحيدة هي التدريس في المنازل الخاصة أو نسخ الكتب ... أو العمل في التجارة "[2].

وللإشارة إن إسهاب الرحالة في الحديث عن جامع الأزهر ودوره في الحركة العلمية في مصر لا يعني أنه كان المعهد العلمي الوحيد في مصر، إذ وجدت مساجد أخر، وإن كانت شهرتها لا تقارن مع الشهرة التي نالها الأزهر الشريف، ومن أهم هذه المساجد "مسجد السلطان حسن" الذي أشار إليه محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته حيث وصفه بأنه "لاثاني له في مصر ولا في غيرها من البلاد"[3] .

ومن المساجد الهامة التي شهدت نشاطا تعليميا كذلك "المسجد الحسيني"، وقد جاء ذكر هذا المسجد عند كل من الرحالة محمد بن عبد السلام الناصري و الغيغائي، ولعلّ أهم ما أكد عليه محمد بن عبد السلام الناصري هو أن مكانة هذا المسجد عند المصريين كانت كبيرة فهو يكاد يضاهي الأزهر الشريف في مجالس العلم والذكر والتلاوة [4]، وقد سجل الغيغائي في رحلته ما يؤكد قول محمد بن عبد السلام الناصري، إذ ذكر أن هذا المسجد كان يحتوي على عدّة مدارس تحيط به وقد شاهد أثناء زيارته له الطلبة وهم في حلقات العلم، وأمّا عن الحركة العلمية التي تميز بها المسجد الحسيني فيذكر لنا الغيغائي أن مجالس العلم كانت تعقد فيه حسب المذاهب، وقد كانت تتداول فيها علوم مختلفة كالتفسير و النحو والفقه والتوحيد والتصوف وغيرها، كما أن هذه المجالس العلمية كان يحضرها علماء كبار يتولون مهمة إلقاء الدروس بها، ومن هؤلاء الشيخ الباجوري وسيدي محمد بن عبد الله عليش وغيرهم[5].

---

[1] الغيغائي، المصدر السابق ، ص 101.

[2] وليام لين، المصدر السابق، ص ص 214- 216.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 837.

[4] نفسه، ص 834.

[5] الغيغائي، المصدر السابق، ص ص 92- 99

واشتهر إلى جانب المساجد السالفة الذكر مسجد "ابن طولون" الذي زاره أبو القاسم الزياني في القرن الثامن عشر، حيث اعتبره من "أقدم المساجد في القاهرة وله بركة "[1]، وكذلك يحدثنا ابن طوير الجنة عن مسجد عمروا ابن العاص[2]،كما وجد أيضا "مسجد المؤيد"الذي أشاد به الرحالة الحسن بن محمد الغسال[3]، ومن المساجد كذلك الموجودة بالقاهرة مسجد السلطان الغوري الذي زاره الاسحاقي ووصفه بأنه مسجد رائق متقن البناء[4]، كما وجد كذلك مسجد السيدة زينب ومسجد محمد علي الذي وصفه بيرتون و ليون بول بأنه يتميز في بنائه بطابع معماري عثماني جميل [5] .

وإلى جانب هذه المساجد في القاهرة كان هناك جوامع أخرى لا تقل عنها شأنا، إذ احتضنت مدن مصرية أخرى مساجد كثيرة ألقيت فيها الدروس وعقدت بها مجالس العلم، ففي مدينة أسيوط مثلا اشتهر "جامع الإمام جلال الدين السيوطي"، وقد ذكر الغيغائي الذي زاره أنه وجد فيه مجلسين كان يتم فيهما تدريس التفسير[6].

2.1 المدارس والكتاتيب:

رغم ما سجله الرحالة عن واقع الحياة الثقافية في مصر خلال القرنين الثامن والتاسع عشر إلا أن نصوص رحلاتهم لم تسعفنا بمعلومات وافية حول الكتاتيب و المدارس الموجودة بمصر آنذاك، وهذا مقارنة بما ذكروه عن المساجد ودورها التعليمي خلال تلك الفترة، وفي الواقع إن عدم حديث الرحالة عن المدارس والكتاتيب لا يعني قلتها أو ندرتها، بل إن الإشارات المقتضبة والمتفرقة التي أمكننا التقاطها عند بعض الرحالة تدل على عكس ذلك، فمصر التي كانت من أهم الحواضر الثقافية في العهد العثماني اشتهرت بكثرة الكتاتيب و المدارس التعليمية الموجودة بها، وهذا ما أشاد به إدوارد وليام لين الذي ذكر في رحلته أن مدينة القاهرة تعد مهدا للمدارس الأدبية والعلمية [7].

ومما يؤكد انتشار الكتاتيب و المدارس في مصر كذلك ما ذكره الرحالة أوليا جلبي الذي زار مصر خلال القرن السابع عشر، إذ أوضح هو الآخر ما كانت تحتويه مصر من مدارس وكتاتيب، وقد أحصى لنا ما

---

[1] الزياني ، المصدر السابق، ص 208.

[2] ابن طوير الجنة، **رحلة المنى** ... ، المصدر السابق، ص ص 74، 75.

[3] الغسال، المصدر السابق، ص ص 86، 87.

[4] الإسحاقي، المصدر السابق، ص 450.

[5] بيرتون، المصدر السابق، ص 92. أنظر أيضا:

Léon paul , op,cit, p23

[6] الزياني، المصدر السابق، ص 141.

[7] وليام لين ، المصدر السابق،ص 210 .

يقارب مئة وستة وخمسون مدرسة في القرن السابع عشر بينما بلغ عدد الكتاتيب أكثر من ألفين وخمسة عشر كتابا في القاهرة، وقد كانت أغلب هذه المدارس والكتاتيب مرتبطة بالجوامع والمساجد، كما أن معظم المدارس الموجودة بمصر يرجع تاريخ تأسيسها إلى عهود سابقة ولاسيما في عهد دولة المماليك التي اشتهر سلاطينها بإنشاء المؤسسات التعليمية والتي ظلت قائمة حتى في العهد العثماني[1].

و كان دور الكتاتيب و المدارس التعليمية حسب ما أشار إليه الرحالة يقتصر على تعليم مبادئ القراءة والكتابة، إضافة إلى تعليم مبادئ القرآن الكريم الذي كان يعتبر من الوظائف الأساسية التي تتولاها هذه المؤسسات التعليمية [2].

ومن أهم المدارس التي ذكرها المؤرخون والرحالة نشير على سبيل المثال لا الحصر إلى "مدرسة الصرغتمشية"[3]، بالإضافة إلى "مدرسة السنانية "التي أنشأها محمد بك أبو الذهب في سنة 1188هـ- 1744م وقد وصفها الرحالة ستانلي لين بول بأنها أعجوبة في فن بنائها، كما ذكر بأنه كان لهذه المدرسة أروقة للحنفية والشافعية والمالكية، وكان يفد عليها العلماء ليدرسوا العلوم الشرعية فيها[4]، كما وجدت أيضا "المدرسة الأشرفية" التي زارها محمد بن عبد السلام الناصري[5]، و"المدرسة الجوهرية"، و"المدرسة السيوفية" التي قام بتجديدها عبد الرحمن كتخدا في سنة 1173هـ[6].

و بالإضافة إلى هذه المدارس السالفة الذكر وجدت مدارس أخرى تابعة لأهل الذمة، إذ تشير المصادر التاريخية أن طائفة الأقباط نشطت مبكرا في إنشاء المدارس الخاصة بها، و قد كانت معظم تلك المدارس والكتاتيب القبطية تتواجد داخل كنائسهم في المدن والقرى، وقد أخبرنا الغيغائي في رحلته أنه لما دخل مدينة قنا زار موضع اجتماعهم فوجد مجلسا يتصدره رجل قبطي يعلم الأولاد علم الحساب وعلم المساحة ومعرفة الأقلام التركية والعربية والرومية، وقد أشار الغيغائي أن الأقباط كانوا متخصصين في مثل هذه العلوم

---

[1] جلبي، المصدر السابق، ص ص 311- 316.

[2] Stanly , op,cit, p 82

[3] المدرسة الصرغتشمية: هي مدرسة صرغمتش التابعة للجامع الذي أنشأه سيف الدين صرغتمش الناصري 757هـ 1256م، تقع بشارع قلعة الكبش بطولون ، استمرت هذه المدرسة حتى نهاية القرن الثامن عشر . للمزيد أنظر: الحناوي محمد عبد الحميد، "النشاط العلمي للمغاربة في مصر خلال القرن الثامن عشر دراسة في وثائق المحاكم الشرعية وكتابات الجبرتي"، المجلة العلمية لكلية الآداب، ع 22، أسيوط، 2007م، ص 180.

[4] ستانلي لين بول، **سيرة القاهرة**، تر: ابراهيم حسن ، ط2، م.ن.م ، دت، ص **252**.

[5] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى** ، المصدر السابق، ص **768**.

[6] علي باشا مبارك، **الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة** ، ج6، ط1، المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق، 1305هـ ، ص ص 3 – 8 .

وبالأخص علم الحساب، فهذا الصنف من العلوم لم يكن يتولاها غيرهم وذلك لأنها كانت تفتح لهم مجالات الإلتحاق بالوظائف الإدارية والمالية التي احتكروها [1].

وأما بالنسبة للكيفية التي كانت تمول بها المدارس التعليمية في مصر فقد كانت بفضل الأوقاف المرصودة عليها، إذ يذكر علماء الحملة الفرنسية في كتابهم القيم" وصف مصر" أن الأثرياء من أهل البلد كانوا يخصصون لهذه المدارس مبالغ وعطايا وفيرة لحد يسمح بالصرف على طعام وكساء وتعليم الأطفال الفقراء مهما كان عددهم [2].

ومما يجب الإشارة إليه أن القرن التاسع عشر شهد تأسيس نوع آخر من المدارس، فإذا كان الأزهر الشريف والمدارس والكتاتيب قد اختصت بالتعليم الديني، فإن محمد علي والي مصر عمد في إطار السياسة التحديثية التي باشرها إلى إنشاء العديد من المدراس الحديثة التي كانت على النمط الأوروبي، وقد اختصت هذه المدارس بنشر التعليم الحديث وتدريس العلوم العقلية كالطب والهندسة والصيدلة وغيرها، ولعلّ من أهم هذه المدارس مدرسة الهندسة التي أسست سنة 1815م بالقلعة قبل أن يتم نقلها فيما بعد إلى مدينة بولاق، بالإضافة إلى مدرسة الطب التي أنشأها في سنة 1827م باقتراح من الطبيب الفرنسي كلود بك و الذي أصبح فيما بعد مديرا لها، ومن بين المدارس الأخرى التي أنشأها محمد علي كذلك المدرسة الحربية بأسوان سنة 1824م، ومدرسة الزراعة في سنة 1836م، ومدرسة الألسن التي أسست في عام 1836م، فضلا عن المدارس الإبتدائية والتجهيزية الأخرى والتي كانت تشمل مختلف المراحل التعليمية [3].

1. 3 المجالس العلمية في منازل العلماء و الأعيان :

لم يكن النشاط التعليمي في مصر في العهد العثماني يقتصر على المساجد والمدارس فقط، إذ تشير نصوص الرحلات إلى وجود مراكز علمية أخرى مستقلة، ومن بين هذه المراكز بيوت العلماء التي كانت تعقد فيها حلقات الدورس، والملاحظ على هذه المجالس العلمية أنها انتشرت بشكل كبير إذ كان العلماء المصريون يستضيفون في بيوتهم العلماء والطلبة الوافدين عليهم من مختلف البلدان الإسلامية، فيتناقشون في المسائل العلمية ويتبادلون الأراء، ومن أشهر العلماء الذين جعلوا من منازلهم مركزا لنشر العلم عبد الرحمن الجبرتي و الشيخ سليمان الفيومي، إذ يخبرنا أبو القاسم الزياني أنه خلال إقامته بمصر كان يتردد على بيوت هؤلاء العلماء حيث دارت بينهم مناقشات علمية مختلفة " يقول أبو القاسم الزياني: " كان إلى جانب بيتي بيت الشيخ عبد الرحمن

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص ص 144،145.

[2] علماء الحملة الفرنسية، المصدر السابق، ج1، ص ص 56، 57.

[3] عبد الله أفندي ، المصدر السابق، ص 27 ــ 28. أنظر أيضا: يونان لبيب رزق وآخرون، المرجع السابق، ص ص 79، 80.

الجبرتي، وقد عزمني لبيته يوما، وكان يأتيني كل يوم، ثم اجتمعت بالشيخ سليمان الفيومي كبير علماء الأزهر في وقته و عزمني لبيته وآتى بيتي مرارا ... وكنت أدخل مع الشيخ عبد الرحمن الجبرتي إلى خزانة الكتب بمسجد محمد باي أبو الذهب بما فيها من غريب الكتب" [1].

وبالإضافة إلى هذه الحلقات التي كانت تتم في بيوت العلماء كانت هناك مجالس علمية أخرى تقام في منازل الأمراء و الأعيان، ومن العلماء الذين اشتهروا بإقامة مثل هذه المجالس المرتضى الزبيدي، إذ يروي الجبرتي أنه كان يصطحب معه إلى هذه المجالس خواص طلبته والمقرئ و المستملي وكاتب الأسماء، وكانت مجالسه تحضى بإقبال كبير فقد كان يحضرها حتى النساء والصبيان الذين كانوا يستمعون لدروس الحديث من خلف الستار [2].

1 .4 المكتبات وخزائن الكتب :

تعتبر المكتبات جزءا مهما من الحياة الفكرية والعلمية في مصر، لكونها تعد رافدا من روافد العلم في العصر العثماني، وقد أشار الرحالة المغاربة والأوروبيون إلى أن مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت تتوفر على عدد كبير من المكتبات وإن كانوا قد قدموا معلومات شحيحة حولها .

إن الذي يلاحظ من خلال الإشارات القليلة التي أوردها هؤلاء الرحالة أن المكتبات وخزائن في مصر قد تنوعت بتنوع أماكن وجودها، فكانت توجد المكتبات العامة، وهذا الصنف من خزائن الكتب كان في الغالب مرتبطا بالمساجد والجوامع، ومن أهم ما يميزها أنها تضم الكتب النفيسة لا سيما تلك التي تتعلّق بالفقه والتفسير و علم الحديث والتاريخ ومختلف العلوم الدينية الأخرى[3] .

ومن أهم المكتبات العامة التي وجدت في مصر وأشارت إليها نصوص الرحلات مكتبات الأروقة بالأزهر الشريف، فقد ذكر الغيغائي أن كل رواق من أروقته كانت له مكتبة مستقلة، كما أنه انفرد دون غيره من الرحالة الغيغائي بالإشارة إلى أن خزانة الكتب الموجودة برواق المغاربة كانت من أكبر المكتبات احتواء على المصنفات والمؤلفات المتنوعة، ويعود ذلك في نظره إلى عدم تعرضها للنهب بخلاف خزائن الكتب الموجودة بالأروقة الأخرى التي استولى عليها الفرنسيون عقب دخولهم لمصر، يقول الغيغائي بهذا الشأن: " وكل واحدة من هذه الأروقة لها أوقاف من الكتب من كل فن وأكثرها كتب رواق المغاربة ، وذلك أن كتبها لم تنهب يوم دخل الإفرنسيس مصر ومكث فيها عامين ، أخذ جميع كتب الأزهر سوى كتب رواق

[1] الزياني، المصدر السابق، ص 194

[2] الجبرتي، المصدر السابق، ج2، ص 308.

[3] وليام لين ، المصدر السابق، ص 212.

المغاربة ، يعني المالكية ، فإنها أخذها الفقيه والإمام عليش، أمر الطلبة وحملوها معه إلى داره ... وبقيت الكتب تحت يده إلى أن خرج النصارى من مصر "[1] .

واشتهر من المكتبات العامة كذلك خزانة الكتب الموجودة بمسجد أبو الذهب، وقد ذكر لنا أبو القاسم الزياني أنه زارها خلال مدة مكوثه في مصر، ومن جملة ما قاله عنها أنه وجد بها أنفس الكتب لاسيما في التاريخ وقد وصفها بقوله: "كنت أدخل مع الشيخ عبد الرحمن الجبرتي إلى خزانة الكتب بمسجد محمد باي أبو الذهب بما فيها من الكتب الغريب وخصوصا كتب التاريخ وكنت أطالع بها أولا ، ثم تمكنت الصحبة مع قيمها فكان يعيرني ما أطلب، فطالعت تاريخ الكرماني وتاريخ النووي وتاريخ الخلفاء للسيوطي والخطط للمقريزي وبحر الأنساب للشيخ المرتضى وغير ذلك" [2].

ويذكر الغيغائي من المكتبات المشهورة في مصر أيضا دار الكتب التي أنشأها محمد علي في مستهل القرن التاسع عشر، وهذا بعد تأسيسه للمطبعة الأميرية ببولاق[3]، وحسب ما جاء في وصف الغيغائي يبدو أن هذه الدار كانت متخصصة في بيع الكتب وترويجها فهي تتبع نظام خاصا، يقول الغيغائي عن ذلك: "وأما دار الكتب المعدة لها فهي أعظم وأنقى وأتقن، ولها بيوت وخدام، وكل فن من الفنون له بيت مستقل به أعوان واقفون عند أمر الواقف بذلك، وبيده زمام وقائمة فيها أسماء الكتب ومؤلفوها وعدد الثمن المبيع به وعدد أسفار الكتب، وبهذه الدار يشتري التجار الكتب الخارجة من المطبعة، فإذا أراد الإنسان شراء كتاب قصد هذه الدار وهي مجاورة لدار القاضي "[4].

وحسب ما أورده الغيغائي في وصفه لدار الكتب كان بيع الكتب بها لا يخضع لأي مساومة، فقد كانت محددة الثمن من طرف الباشا، وأما بالنسبة لنوعيه الكتب الموجودة بها فيذكر الغيغائي أنها كانت متنوعة و بلغات متعددة ومن كل فن [5] .

---

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 99.

[2] الزياني، المصدر السابق، ص 194.

[3] تشير المصادر إلى أن المطبعة الكبرى ببولاق قد أسست في سنة 1819م، وذلك بعد عودة المبعوثان المصريان من إيطاليا، بدأ العمل بها بعد عامين من إنشائها ، كانت تسمى في البداية بالمطبعة الأهلية ، وحينما تم نقلها إلى بولاق عام 1822م عرفت باسم مطبعة بولاق أو الممطبعة الأميرية، تولى إدارتها مسابكي أفندي حتى عام 1831، كان نشاطها في أول الأمر يقتصر على طبع المنشورات الحكومية و أوامر الحاكم ، ثم توسعت وأصبحت فيما تطبع الكتب في مختلف كافة العلوم وفي كل المجالات . للمزيد أنظر: وائل ابراهيم الدوسقي ، **التاريخ الثقافي لمصر الحديثة المؤسسات العلمية والثقافية في القرن 19م**، د.ك.و.ق، القاهرة ، 2012م، ص ص 312- 315 .

[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص 105.

[5] نفسه ، ص 105.

والجدير بالذكر أن الغيغائي في سياق حديثة عن دار الكتب المصرية انفرد بذكر ملاحظة مهمة حول العوامل التي ساعدت على انتشار الكتب والمكتبات خلال القرن التاسع عشر، وفي هذا الإطار نجده قد أشاد مطولا بالمطبعة الأميرية الكبرى التي أنشأها محمد علي، إذ قال عنها:" والمطبعة الكبرى ببولاق والأخرى بمصر، وبنو لها دارا مشيدة محصنة، ودارت بها بيوت مصنوعة من العود والزجاج، وليس لكل كتاب مطبعة مستقلة به، بل هي مطبعة واحدة من ثلاثين حرفا التي هي حروف الهجاء، ويطبع بها بقانون ومعرفة لدى الموكلين بذلك"[1]، ومما خلص إليه الغيغائي كذلك أن هذه المطبعة تعد من أفضل المطابع، وذلك لأنها تتوفر على الفقهاء المصححين بها[2]، وهذا ما أوضحه بقوله:"واعلم أن مطبعة مصر أصح المطابع من غيرها، لأن لها الفقهاء المصححين يعيدون كتابة الطوابع كلما خرجت منها الكتب وليس غيرها كذلك، ومن هذه الدار يأخذ التجار من جميع الأقطار "[3].

و حسب ما جاء في كتب الرحلات لم يكن يوجد بمصر مكتبات عامة فقط، بل وجدت مكتبات خاصة ساهمت هي الأخرى بقسط وافر في تنشيط الحياة الثقافية، ومن أشهر المكتبات الخاصة التي وجدت في مصر و أشارت إليها نصوص الرحلات مكتبات العلماء، ومن أهمها يكفي أن نشير إلى مكتبة المرتضى الزبيدي التي احتوت على نفائس الكتب، إذ يصفها محمد بن عبد السلام الناصري بقوله: " جمع الله له من دواوين الحديث والتفسير واللغة وغيرها من أشتات الدواوين في سائر العلوم ما لم يجمعه فيما شاهدنا من علماء عصرنا شرقا أو غربا ... تراه يشتري وينسخ دائما بالأجرة ويستعير من الأقطار البعيدة، ويؤتى إليه منها بالكتب هدية، ومع ذلك فهو يحبس ويعطي أيضا غيره، فلقد حدثني أنه حبس على مسجده بحارته بمصر في سوق " لالا" بقرب الشيخ أبي محمود الحنفي ما ينيف عن ثلاث مئة مجلد، ولقد أتحفني بعدّة كتب تقبل الله منه وشكر سعيه "[4].

مما تقدم ذكره يمكن القول أن مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت تحتوي على العديد من المعاهد والمؤسسات التي كانت تؤدي دورا تعليميا، فكان هناك الكتاتيب والمدارس وبيوت العلماء التي كانت منتشرة بكثرة بالإضافة إلى المكتبات، لكن الملاحظ من خلال ما سجله الرحالة أن المساجد وبالأخص

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 104.

[2] أشار الغيغائي في رحلته إلى أسماء سبعة من المصححين هم كالتالي : الشيخ محمود الجزائري ، ومحمود شاهين الدمشقي الشامي و محمود روشي وعبد الرحمن البحرواي الشامي و أحمد أفندي الشعراني وشهاب الدين محمد ابن اسماعيل ، ومحمد أفندي. أنظر: الغيغائي، نفسه، ص 107.

[3] نفسه، ص ص 105، 106 .

[4] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى** ، المصدر السابق، ص ص 636، 637.

مسجد الأزهر الشريف كان هو المعهد العلمي البارز الذي دارت في فلكه الحركة التعليمية في مصر، ولعلّ هذا ما يفسر الأهمية التي أولاها له الرحالة في كتاباتهم مقارنة ببقية المراكز العلمية الأخرى .

2. أصناف العلوم :

درج معظم المؤرخين على وصف الحركة العلمية في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالتراجع و التدهور، وقد سجل الرحالة الأوروبيين هذه الملاحظة في كتاباتهم بشيء من التفصيل، ففولني الذي زار مصر خلال القرن الثامن عشر صور حالة التعليم في مصر آنذاك بقوله:" و الجهل شائع في هذه البلاد مثل سائر الدولة التركية، وهو يشمل كل الطبقات،كما أنه يمس جميع فروع المعرفة الأدبية والعقلية والعلوم والفنون الجميلة، وحتى الصناعات اليدوية فإنها في أبسط أحوالها ...، ويندر أن تجد في القاهرة من يصلح ساعة وإن وجد فهو إفرنجي"[1].

وأما الرحالة الانجليزي جون أنتيس فقد ذهب إلى أبعد من ذلك، ففي سياق تأكيده لحالة التدهور التي بلغتها مصر عقد مقارنة أظهر فيها الفرق بين وضع المصريين في العصور السابقة وفي العصر العثماني، إذ يقول بهذا الخصوص:" إن المصريين القدماء كانوا علماء حقيقيين في الفلك، أما معاصروهم فهم علماء في التنجيم والدجل"[2] .

ومما يلاحظ على ما سجله الرحالة الأوروبيون بشأن تراجع الحركة العلمية في مصر أنهم أرجعوا أسباب الانحطاط الحضاري إلى طبيعة الحكم العثماني، فالنظام القائم على الطغيان الشرقي في نظرهم حرم الناس من حقوقهم المشروعة في التعبير عن أنفسهم وتذوق الفنون الجميلة و حرمانهم من إشباع غريزة المعرفة[3].

غير أن الجدير بالذكر أن هذا الرأي مبالغ فيه، إذ بمقارنة ما سجله الرحالة المغاربة مع ما ذكره الرحالة الأوروبيين نلاحظ أن مصر خلال هذه الفترة حقيقة شهدت تراجعا علميا[4]، لكن ليس بالصورة القاتمة التي وصفها بها الرحالة الأوروبيين، إذ ظلت مصر رغم ذلك تحتل مكانة بارزة في العالم الاسلامي، ولعلّ ما يؤكد ذلك أن مصر خلال موسم الحج كانت تشهد نشاطا علميا كبيرا وذلك نتيجة لالتقاء علماء المغرب بعلماء المشرق، إذ ساهم ركب الحج في انتعاش النشاط العلمي الذي تعددت مظاهره، فازدهرت بذلك حلقات

---

[1] voleny , op,cit, p 186,187.

[2] أنتيس، المصدر السابق، ص 23.

[3] محمد عفيفي، **عرب وعثمانيون رؤى مغايرة**، ط2، د.ش، مصر، 2008م، ص 58.

[4] من ضمن الرحالة المغاربة اللذين أشاروا إلى أن التعليم في مصر كان مترديا الرحالة الإسحاقي ، إذ عبر عن التراجع الذي شهدته الحياة الفكرية بقوله:" **وحضرنا مجالس العلم ... فما رأينا ما يشفي الغليل ولا ما يبرئ العليل ... ، و بالجملة فالعلم بالبلاد المشرقية كغيرها قد وقف على ثنية الوداع وهم مزنه بالإقلاع** ". أنظر : الاسحاقي، المصدر السابق، ص 424.

الدروس في الأزهر الشريف و تجسد التواصل العلمي بين مختلف الأقطار العربية[1]، وهذا ما نجد له تأكيدا في رحلة الحضيكي، حيث وصف النشاط العلمي الذي ميز الأزهر بقوله: "وأما جامع الأزهر، فهذا مشحون اليوم بالعلماء وأهل الحق و الدين، ومازالوا قائمين بوظائف التدريس والتحقيق ، ويقصد هذا الجامع للعلم من اليمن ومن الحرمين الشريفين والعراقيين والشام و المغرب، وليس في الدنيا بجميعها مثله علما ، على ما شاع وذاع عند العامة والخاصة " [2].

لقد تعددت المواضيع التي أوردها الرحالة بشأن الوضع الثقافي مصر، ومن أهم الأمور التي اهتموا بها في رحلاتهم طبيعة التعليم السائد في مصر، ومما يلاحظ على ما سجلوه أنهم أكدوا على التعليم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان تعليما دينيا يقتصر فقط على بعض العلوم الشرعية مثل الفقه والتفسير وعلم الحديث، وأما بخصوص العلوم العقلية الأخرى كالطب والكيمياء والحساب فإنهم أشاروا أن الاهتمام بها كان ضعيفا وضئيلا و إن وجدت هذه العلوم فإن الفضل في وجودها يعود حسبهم إلى الأوروبيين[3].

و يكفي أن نشير في هذا السياق إلى ما أورده ستانلي لين بول، حيث يقول في وصفه للنظام التعليمي في مصر: " يظهر العديد من المصريين حماسا شديدا جديرا بالثناء في سعيهم إلى العلوم الدينية والمذهبية وعلوم التفسير في جامعة الأزهر، لكن عقولهم خارج المعرفة الدينية التقليدية ضعيفة الإستيعاب للتعلم أو حتى لإكتساب المعلومات العامة"[4].

و بمقارنة ما ذكره الرحالة المغاربة والأوروبيون مع ما سجلته المصادر المحلية لتلك الفترة نلاحظ توافقا كبيرا، إذ أكد الجبرتي هو الآخر على مدى تدهور الحياة الثقافية في مصر، حيث قال واصفا إياها:" نجد العلم انزوى وشاع التقليد وندر الابتكار وأصبح التأليف لا عدو حاشية على متن أو تعليقا على حاشية تدور موضوعاتها على بعض المسائل الفقهية، واقتصرت المعارف على العلوم الدينية واللغوية التي كانت تدرس لوحدها في الأزهر"[5].

ومما يجب الإشارة إليه أنه رغم سيطرة العلوم الدينية على الحياة الفكرية في مصر، إلا أن ذلك لا يعني عدم اهتمام العلماء بأصناف العلوم الأخرى، إذ تشير المصادر التاريخية إلى أن حلقات الدراسة سواء في الأزهر

---

[1] شيرين مبارك، **ركب الحاج المغربي وأثره في تقوية الروابط بين مصر والمغرب في القرن 18**، ضمن كتاب : الذاكرة التاريخية المشتركة المغربية المصرية ، ج1، جمع وتنسيق: عبد الحميد المودن ، ط1، المغرب، ص 547.

[2] الحضيكي، المصدر السابق، ص 188.

[3] وليام لين، المصدر السابق، ص 221.

[4] Stanly , op,cit, p79.

[5] نقلا عن ليليان زيدان، المرجع السابق، ص 503.

الشريف أو في مختلف المراكز العلمية الأخرى كان يتداول فيها علوم كثيرة ومتنوعة ، ومن الطبيعي أن تتفاوت درجة الاهتمام والإقبال على تلك العلوم، فالطب والرياضيات والمنطق وعلم الفلك والكيمياء إن كانت لاتدرس بالأزهر الشريف ولا تحضى بالعناية الكبيرة باعتبار بعضها يعتبر من العلوم المذمومة في نظر شيوخ الأزهر وبالأخص علم الفلسفة والكمياء، إلا أنه كان يوجد هناك علماء اشتغلوا بها فقد كانوا يدرسونها في بيوتهم وقد كانوا يتقاضون أجرا محددا نظير ذلك، وتشير المصادر إلى عدد منهم كالشيخ حسن الجبرتي الذي ذاعت شهرته في مختلف العلوم العقلية، و الشيخ الحسن العطار الذي برع في الفلسفة والشيخ أحمد الدمنهوري الذي اشتغل بالطب والكمياء[1]، وعلى هذا الأساس يمكن أن نستشف من نصوص الرحلات وجود علوم مختلفة منها ما هو مرتبط بالعلوم الدينية ومنها ماله علاقة بالعلوم العقلية، ومن أهم هذه العلوم التي انتشرت في مصر وأشارت إليها كتب الرحلات نذكر:

الفقه :

يعتبر من أبرز العلوم التي لاقت رواجا كبيرا في مصر، وقد أشار الإسحاقي إلى مدى أهميته، وهذا عندما وصف مجالس العلم بالأزهر الشريف حيث لاحظ أن: " أكثر ما يتعاطونه في هذه الدروس الفقه على مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي"[2]، و قد أشار الغيغائي كذلك إلى هذا الأمر، حيث ذكر أن هذه المادة كانت تُدَرس وفق المذاهب الأربعة وهذا من خلال قوله: "ومجالس الفقه والفروع في الأزهر كل واحد على مذهبه"[3]، ومن أشهر العلماء الذين تصدروا لتدريس الفقه الشيخ الباجوري، والشيخ الدردري الذي يخبرنا الحيوني بأنه حضر مجلسهما بالأزهر الشريف[4]، إضافة إلى الشيخ علي الصعيدي والشيخ العماوي الدمرداشي[5] والشيخ عمر الطحلاوي[6] اللذان أخذ عنهما الحضيكي عندما كان مجاورا بالأزهر، وأما بالنسبة للمؤلفات التي استخدمت في تدريس الفقه فيفيدنا الرحالة المغاربة بأسماء بعضها والتي كان من أهمها:"رسالة ابن أبي زيد"

---

[1] علي جواد كاظم المالكي، "الحياة الفكرية في الوطن العربي خلال السيطرة العثمانية مصر أنموذجا"، مجلة الدراسات المستدامة ،ع6، مج2، 2020، ص ص 277- 279

[2] الإسحاقي، المصدر السابق، ص 421

[3] الغيغائي ، المصدر السابق، ص 99.

[4] الحيوني، المصدر السابق، ص 139.

[5] الشيخ العماوي الدمرداشي: هو شهاب الدين أحمد بن أحمد العماوي الدمرداشي، فقيه مالكي ، كان إماما ومحدثا وأصوليا، تصدر للتدريس في محل شيخه الشبراملسي ، توفي في سنة 1155هـ . للمزيد أنظر: الكتاني، المصدر السابق،ج1، ص 830.

[6] الشيخ عمر الطحلاوي، هو أبو حفص عمر بن علي بن يحي الطحلاوي ، فقيه مالكي مصري ، تتلمذ على يد كبار العلماء في مصر من أمثال أبي الحسن علي الحرييشي الفاسي وأحمد العماري وغيرهما، كانت له حضوة كبيرة ووقار ، توفي في 11 صفر 1181هـ . للمزيد أنظر: الكتاني، نفسه، ص 468

و مختصر خليل" و "الجامع الصغير للإمام السيوطي"[1]، بالإضافة إلى"كتاب دليل الطالب لنيل المنى والمطالب " في المذهب الحنفي و" مختصر أبي شجاع" [2] .

علم الحديث:

حضي هذا العلم بمكانة كبيرة عند المصريين، إذ تشير نصوص الرحالة المغاربة إلى أنه كان يدرس في معظم المساجد والمدارس بمصر، وممّا يدل على أهميته أن معظم الرحالة المغاربة قد أخذوا على علماء الحديث في مصر، ومن أشهر العلماء الذين تولوا تدريسه المرتضى الزبيدي الذي أثنى عليه مطولا محمد بن عبد السلام الناصري حيث ذكر أنه لم يكن يوجد بمصر من العلماء من يضاهيه في علم الحديث، وهذا ما جعله مقصدا للطلبة الذين توافدوا عليه من المشرق والمغرب[3]، وفي القرن التاسع عشر برز كذلك الشيخ عليش الذي ذكر الغيغائي أنه زاره في مجلسه بالمسجد الحسيني[4]، ومن أشهر المؤلفات التي اعتمدت في تدريس علم الحديث حسب ما استقيناه من كتب الرحالة المغاربة"صحيح البخاري"، و"صحيح مسلم " و"جامع الإمام الترميذي" و"الموطأ" و" سنن ابن ماجة" [5] " ورسالة القشيري" و "مختصر العين" وغيرها[6] .

علم التفسير:

كان التفسير من أكثر العلوم الدينية التي انتشرت في مصر وحازت على مكانة مهمة، ومما يدل على علو مكانته في تلك الفترة اشتغال الكثير من العلماء به، فلا تكاد تخلوا رحلات المغاربة من تسجيل أسماء الكثير من العلماء الذين التقى بهم هؤلاء الرحالة وأخذوا عنهم وأجازوهم، وممن اشتهر بإلمامه ونبوغه في هذا الصنف من العلوم الشيخ "أبو داود سليمان الجمل" الذي اجتمع به محمد بن عبد السلام الناصري أثناء عودته من الحجاز حيث ذكر أنه كان له بالمشهد الحسيني درس كبير في التفسير يحضره جمع غفير من العلماء، و أشار محمد بن عبد السلام الناصري كذلك إلى الشيخ محمد بن محمد الجوهري الخالدي الذي جرت بينهما محادثات علمية، إذ وصفه بـــأنه:" فارس المعقول والمنقول الجامع بين التفسير والحديث والأصول"، ومن كتب التفسير

---

[1] الحضيكي، المصدر السابق، ص 178.

[2] محمد أبو راس الناصري، **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته** ، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص 116.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 636.

[4] الغيغائي، المصدر السابق،ص ص 91، 92.

[5] محمد بن عبد السلام الناصري ، المصدر السابق ، ص ص675، 676.

[6] أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص 116.

التي اشتهرت في تلك الفترة وأشار إليها الرحالة المغاربة كتاب "تفسير الجلالين" وحاشية الخفاجي[1] وتفسير البيضاوي وغيرها [2].

النحو :

كانت مادة النحو من أكثر وأهم المواد التي كان يتم تدريسها في مختلف المساجد والمراكز العلمية في مصر ، وقد أشار الرحالة المغاربة في خضم حديثهم عن الحلقات العلمية التي كانت تعقد في الأزهر الشريف إلى بعض العلماء الذي اشتهروا بنبوغهم في هذا الصنف من العلوم حيث ذكر الإسحاقي من بين هؤلاء الشيخ علي الحنفي الذي حضر مجلسه في اللغة العربية[3]، وأمّا الورتلاني فقد أشار إلى الشيخ الزياتي الشافعي الذي أخذ عنه دروسا في النحو[4]، ومن أهم الكتب التي كانت تعتمد في تدريس النحو كتاب " شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، وهذا ما أوضحه الإسحاقي بقوله:" ...والنحو يدرسون ألفية ابن مالك ويقرؤون عليها شرح الأشموني ولهم بهذا الكتاب اعتناء كبير حتى كأن لم يؤلف في العربية غيره "[5].

المنطق:

توضح الإشارات القليلة التي وردت في كتب الرحالة المغاربة أنه كان لبعض العلماء المصريين اهتمام بعلم المنطق، وهذا ما يفند ما ذهب إليه الرحالة الأوروبيون، وخير مثال على انتشار دراسة علم المنطق بمصر ما جاء في رحلة الإسحاقي حيث يذكر أن من أهم ما استرعى انتباهه خلال مكوثه بالأزهر الشريف هو انكباب العلماء في مصر على دراسة هذا العلم وانشغالهم به عن المعقول والمنقول، وقد أنكر عليهم ذلك[6]، ومن أهم العلماء الذين برعوا في هذا الصنف من العلوم الشيخ الشريف محمد البليدي[7] الذي يذكر لنا الحضيكي في رحلته أنه كان مقصدا لكل الطلبة الراغبين في دراسة هذا العلم[8] .

---

[1] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، ص ص 691، 709، 710.

[2] نفسه، ص 792.

[3] الإسحاقي، المصدر السابق، ص 421.

[4] الورتلاني، المصدر السابق، 351.

[5] الإسحاقي، المصدر السابق، ص 421.

[6] نفسه ، ص 443

[7] البليدي، هو ابن محمد بن محمد المغربي المالكي ، ولد سنة 1096هـ ، تتلمذ على يد كبار الأئمة من أمثال أحمد البقري و أحمد بن غانم النفراوي بالإضافة إلى أحمد بن محمد البنا الدمياطي ، اشتهر في مصر وكانت له حضوة كبيرة، من أهم مؤلفاته : حاشية على تفسير البيضاوي و رسالة في المقولات العشر، وحاشية على شرح الأشموني ، توفي في سنة 1176هـ. للمزيد أنظر: أبي الفضل محمد خليل بن علي المرادي، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر** ، ج4، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت، ص ص 110، 111

[8] الحضيكي، المصدر السابق، ص 183.

التاريخ :

إضافة إلى اشتغال علماء مصر بعلم المنطق كان لهم كذلك اهتمام كبير بدراسة التاريخ، ومما يدل على ذلك ما نقله لنا الزياني في رحلته، إذ يطلعنا أنه لما وصل إلى مصر قام بزيارة خزانة الكتب الموجودة بمسجد محمد أبو الذهب، وقد وجد في هذه المكتبة أنواعا نادرة من الكتب لاسيما كتب التاريخ أهمها "تاريخ الكرماني"و"تاريخ النووي"و"تاريخ الخلفاء للأسيوطي"و" الخطط للمقريزي"، و"بحر الأنساب للمرتضى الزبيدي"، ومن العلماء الذين اشتهروا باعتنائهم بهذا العلم في تلك الفترة عبد الرحمن الجبرتي الذي أخبرنا الزياني أنه اجتمع به وكان يتبادل معه الزيارات، بالإضافة إلى اسماعيل العباسي الذي وصفه الزياني بأنه مؤرخ مصر، وقد ذكر أنه كان يتردد على مجلسه ودارت بينهما مباحثات علمية شملت مسائل عديدة، يقول الزياني عن المؤرخ اسماعيل العباسي:" كنت لا أنقطع عنه وأجاريه في التاريخ وكان له ولوع بخبر دول المغرب الحديثة التي لم تبلغهم كدولة الأشراف الزيدانيين والعلوين، فكنت أشفي له الغليل ويقيد ذلك عني، ولما عزمت على السفر أتحفني بتاريخ الخطط للمقريزي في خبر مصر ومن عمرها قبل الطوفان وبعده إلى أن ملكها السلطان سليم العثماني" [1].

الأدب و الشعر :

احتل الأدب و الشعر مكانة بارزة في مصر، وقد عرف رواجا كبيرا، ومما يدل على المكانة التي حضي بها أن نصوص الرحلات ولاسيما المغاربية حفلت بكم هائل من القصائد التي نظمها الأدباء المصريين في تلك الفترة ، ومن أبرز الأدباء الذين برزوا في تلك الفترة يكفي أن نشير إلى الشيخ أحمد بن موسى العروسي و يوسف الحنفي الشافعي والأديب المصري الشيخ قاسم بن عطاء الله الذي نظم قصيدة في مدح مناقب الشيخ الجوهري وهذه القصيدة قد أوردها محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته [2]، كما اشتهر إلى جانب ذلك حسن العطار الذي أثنى عليه كثيرا إدوارد وليام لين و على براعته في الأدب و كتابة الرسائل[3]، ومما تجدر الإشارة إليه أيضا أن اهتمامات الأدباء في تلك الفترة قد تنوعت، إذ كان معظم الإنتاج الأدبي يرتبط بالمدائح النبوية و الرثاء والمواعظ [4].

---

[1] الزياني، المصدر السابق، ص ص 194، 195.

[2] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص ص768، 789، 493.

[3] وليام لين، المصدر السابق، ص 220.

[4] المالكي جواد كاضم ، المرجع السابق، ص 279.

التصوف :

كان هذا العلم من بين أبرز العلوم المتداولة في مصر، بل ومن أكثرها انتشارا إذ حضي باهتمام كبير من طرف العلماء، والجدير بالذكر أن ما ساعد على بروزه وتطوره هو احتضان البلاد المصرية لعدد كبير من الطرق الصوفية في تلك الفترة، وهذا ما أكد عليه وأشار إليه محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته إذ لاحظ كثرتها وتعددها، ومن أهم الطرق التي وجدت آنذاك وعرفت رواجا كبيرا نذكر على سبيل المثال لا الحصر الطريقة الشاذلية و الرفاعية و الخلوتية و الجزولية والقادرية وغيرها[1] .

لقد اعتنى بتدريس هذا العلم علماء أجلاء اشتهروا بالولاية و الزهد والكرامات ومن هؤلاء العلماء أبو عبد الله محمد ابن الحسن السَمنَودي المنيَر الذي يذكر محمد بن عبد السلام الناصري أنه تلقى منه مبادئ الطريقة الخلوتية، ومن العلماء البارزين كذلك الشيخ الحفناوي و الشيخ علي الفيومي و غيرهم ، وأما عن أشهر المؤلفات التي صنفت في مجال التصوف وكانت تعتمد في تدريس هذا العلم نجد:"تحفة السالكين ودلالة السائرين لمنهج المقربين" وهو عبارة مصنف يشتمل على أربع أبواب وخاتمة، وصفه محمد بن عبد السلام الناصري بأنه من أبدع ما ألف في الطريقة الخلوتية .كذلك "دلائل الخيرات للجزولي" و"حلية الأولياء لأبي نعيم " و إحياء علوم الدين للغزالي"، واقتطاف الأنوار بورد السحر الستاري[2] .

بتحليل ما سجلته كتب الرحلات عن أصناف العلوم التي كانت منتشرة في مصر نستنتج أن العلوم الدينية واللغوية قد استأثرت باهتمام المصريين مقارنة بالعلوم العقلية، وقد احتلت علوم الدين واللغة الصدارة نتيجة لأهميتها عند المسلمين كعلوم ضرورية مرتبطة بالدين الإسلامي، وأمّا بخصوص علوم الطب والهندسة والحساب فيتضح لنا من خلال ما سجله الرحالة المغاربة والأوروبيين أنها كانت أقل رواجا في القرن الثامن عشر، ولعلّ ذلك يرجع إلى طبيعة تلك العلوم التي كانت تتطلب مواد وأجهزة ووسائل متعددة وهو الشيء الذي لم يكن متاحا لدى معظم الطلبة في تلك الآونة [3]، لكن هذا الوضع سوف يتغير حلول القرن القرن التاسع عشر الذي سوف يشهد نهضة علمية في هذه العلوم لاسيما بعد بناء المدارس الحديثة .

[1] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 811.

[2] نفسه، ص ص742، 778-781، 801.

[3] ناصر عبد الله عثمان ، المرجع السابق ، ص 135.

3. طرق التلقي والتدريس في المؤسسات التعليمية المصرية :

أشار الرحالة المغاربة في خضم حديثهم عن ملامح الحركة الفكرية في مصر إلى بعض الأساليب والطرق التي كانت تستخدم في التعليم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والمطلع على ما سجله هؤلاء الرحالة يتبين له أن التحصيل العلمي خلال تلك الفترة كان يتم بطرق مختلفة وهي:

3 .1 الرواية :

تعد هذه الطريقة من أكثر الطرق شيوعا، ومما يدل على ذلك الأمثلة الكثيرة التي وردت في مصنفات الرحالة المغاربة، فالورتلاني خلال إقامته بمصر أشار إلى بعض العلماء الذين انتهجوا هذه الطريقة في إلقاء دروسهم، ولعلّ من بينهم الشيخ سيدي الهاشمي المغربي الذي حضر الورتلاني مجلسه ودروسه في جامع الأزهر الشريف، وفي هذا الشأن كتب قائلا :" اجتمعت معه في الحجة الأولى وسبب معرفتي إياه أني وجدت رجلا فاضلا عليه سمة فاضلة، يُقرأ عند باب الجامع الأزهر...،فجلست عنده فوجدته يقرأ في ابن هشام أعني المحاذي على الألفية بشرح السيد خالد أعني التصريح وحاشية الشيخ يس عليه، فما رأيت مثله في التحقيق وحسن العبارة "[1]، ومن الأمثلة الأخرى التي أوردها الورتلاني والتي تشير كذلك إلى انتشار طريقة التدريس بالرواية ما ذكره بشأن الشيخ منور التلمساني الذي اجتمع به خلال مدة مكوثه في مصر، إذ أطلعنا أنه كان يُقرأ الطبقات الكبرى في رواق المغاربة وقد كان مجلسه يشهد حضور جمع غفير من المصريين ومن المجاورين [2].

وفضلا عن ذلك أشار محمد بن عبد السلام الناصري في سياق حديثه عن لقائه بالمرتضى الزبيدي إلى هذه الطريقة، إذ ذكر أن أول ما سمعه عنه عند اجتماعه به حديث الأوقي وبيتا القيراطي و"حديث سلمة ابن الأوكع من صحيح البخاري، كما أورد في موضع آخر من رحلته أنه سمع عنه كذلك أجزاء من كتاب الطبقات الكبرى، و من ديوان الضعفاء للذهبي ومن كتاب البدر المنير للشعراني وغيرها من المصنفات الأخرى التي ألقاها عليه[3]، ومما يلاحظ على طريقة التدريس بالرواية والسماع أنها كانت تقوم على أساس نظام الحلقات حيث كان ينتظم الطلبة في مجالس العلم على شكل حلقات منفردة، وفي الغالب كانت هذه الحلقات تقام حسب المذاهب"فكل مذهب على حدتهم لهم حلقات معلومة وعلماء مستقلون" [4].

---

[1] الورتلاني، المصدر السابق، ص 356.

[2] نفسه، ص 361.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، ص ص 648، 676.

[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص 99.

3. 2 الإجازة :

لم يكن التعليم في مصر خلال العهد العثماني يقتصر على طريقة التدريس بالرواية والسماع فحسب، بل وجدت أساليب أخرى وإن لم تعرف نفس الإنتشار الذي حضيت به الطريقة الأولى، إلا أنها كانت تستخدم على نطاق واسع، ومن أهم هذه الأساليب التي وجدت وأشارت إليها كتب الرحلات نظام الإجازات .

يعتبر هذا الأسلوب من أقدم الأساليب التعليمية المتبعة، وقد استمر العمل به في العهد العثماني، وهو يقوم في الأساس على رخصة أو إذن يقدمه الشيخ للطالب الذي قرأ وسمع عنه، يجيز له من خلاله رواية وتدريس العلوم وجميع مروياته التي أخذها عنه [1].

لقد ضمت نصوص الرحلات المغاربية نماذج كثيرة من الإجازات التي كانت تصدر من علماء مصر، ولما كان من الصعب تتبع كل الإجازات التي أوردها الرحالة المغاربة في مصنفاتهم يكفي أن نشير إلى بعضها، و من أمثلة ذلك ما أورده الرحالة الورتلاني إذ يذكر لنا أنه أثناء إقامته بمصر أنه اتصل بالعديد من العلماء فسمع عنهم و أخذ عنهم إجازات متنوعة بعضها كانت إجازات عامة وبعضها الآخر إجازات صوفية، ومن هؤلاء الشيوخ الذين أجازوه الشيخ البليدي الذي يقول عنه :" وقد زرت في الحجة الثانية الشيخ البليدي وهو شيخ فاضل محقق مؤلف وقد ألف حاشية على الشيخ عبد الباقي ...وأجازني في العلوم كلها وزبر ذلك بخط يده ..."[2]، ومنهم أيضا الشيخ العمروسي والشيخ أحمد الملوي و الشيخ علي الصعيدي والشيخ علي الفيومي وغيرهم[3]، وأمّا الرحالة محمد ابن أبي راس الناصري فقد أجازه علماء كبار من أمثال المرتضى الزبيدي و الشيخ الأمير الذي لقبه في إجازته له "بالحافظ" بالإضافة إلى الشيخ الشرقاوي وغيرهم [4] .

ومن الرحالة المغاربة الذين اشتهروا بتلقيهم الإجازات من العلماء المصريين يبرز الرحالة محمد بن السلام الناصري، إذ يخبرنا أنه اجتمع بالكثير من العلماء الذين أجازوه في مختلف العلوم، حيث أخذ عن المرتضى الزبيدى الذي كتب له إجازة نظمية في علم الحديث، كما أجازه الشيخ حسن ابن ابراهيم الجبرتي الحنفي وكذلك أجازه أيضا عطية الأجهوري في التفسير و أجازه الشيخ أبو داوود سليمان المعروف بالجمل في الطريقة الخلوتية[5] .

---

[1] عبد الله فياض، **الإجازات العلمية عند المسلمين**، ط1، مطبعة الرشاد، بغداد، 1967م، ص 21.

[2] الورتلاني ، المصدر السابق، ص 340.

[3] نفسه، ص ص 340-343.

[4] أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص 116.

[5] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص ص 768، 769، 709.

و يبدو من خلال ما جاء في كتب الرحلات أن الإجازات التي يمنحها العلماء والشيوخ إلى طالبي العلم في مصر كانت تتم بأشكال مختلفة، فقد تكون إجازة شفوية أو مكتوبة، كما قد تكون إجازة عامة أو خاصة أو إجازة نظمية أو نثرية [1]، وأمّا عن الطريقة و الصيغة التي كانت تكتب بها نصوص الإجازات في تلك الفترة فقد أوضح الرحالة المغاربة من خلال النماذج الكثيرة من الإجازات التي أوردوها في مصنفاتهم أن كتابة نص الإجازة كان يتم وفق نمط وصورة واحدة مع وجود بعض الإختلافات الطفيفة، ففي العادة كان المجيز يبدأ نص الإجازة بحمد الله وشكره والصلاة على النبي و الدعاء، ثم ينتقل بعدها إلى الإشادة بفضل العلم عامة وبالأخص العلم الذي سوف تمنح فيه الإجازة ، ثم يقوم المجيز بذكر الشخص المجاز مع الإشارة إلى علاقته به ومكانته العلمية، ثم يتبع المجيز كل ذلك بمنح الإجازة له والإقرار له بها، وهذا وفق ما هو متعارف عليه لدى العلماء حيث يتم ذكر العلوم المجازة و الإذن له بالرواية عنه، ليختم في الأخير المجيز نص الإجازة بخاتمة تتضمن الدعاء و كتابة تاريخ الإجازة ومكانها [2].

هذا وكان الحصول على الإجازة لا يتم إلا وفق شروط معينه، ومن أهم هذه الشروط هي القراءة عن الشيخ المجيز و ملازمتة لفترة معينة قد تدوم أياما أو شهورا [3]، ومما يجب التنبيه إليه في هذا الصدد أن طلبة العلم الراغبين في الحصول على الإجازة لم يكونوا يكتفون بملازمة شيخ واحد بل كثيرا ما كانوا يلازمون أكثر من شيخ فيحصلون من كل واحد منهم على إجازة في علم محدد، وهذا ما أوضحه لنا العديد من الرحالة المغاربة، فمحمد بن عبد السلام الناصري الذي زار مصر مثلا ذكر أن الشيخ المرتضى الزبيدي قد أجازه في علم الحديث، في حين تحصل على إجازة عامة من الشيخ محمد ابن محمد الخالدي الجوهري، وأما الشيخ أبو داوود سليمان الجمل فقد أجازه في الطريقة الخلوتية [4] .

3.3 المناظرات العلمية :

إلى جانب طريقة التدريس بالرواية والإجازة عرفت مصر نوعا آخر من مناهج التدريس تجلى في المناظرات العلمية، ومما يدل على انتشارها في تلك الفترة أن الرحالة المغاربة قدموا لنا صورا مهمة عن المناقشات العلمية التي كانت تشهدها حلقات الدروس في الأزهر الشريف، ومنها قول أبو راس الناصري: "

---

[1] محمد الكبير فقيقي، **العلاقات الثقافية بين مصر وبلدان المغرب من خلال رحلات المغاربة في القرنين السابع عشر والثامن عشر** ، ضمن أبحاث المؤتمر: التحولات الفكرية في العالم الإسلامي : أعلام ، و كتب وحركات وأفكار من القرن العاشر هجري إلى القرن الثاني عشر هجري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الأردن، 2014م ، ص 628.

[2] أنظر الملحق رقم 15، ص 395.

[3] فقيقي ، المرجع السابق، ص 628.

[4] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى** ، المصدر السابق، ص ص649- 707- 717.

اجتمعت مع علماء مصر بالجامع الأعظم وتناظرنا وتذاكرنا في مسائل جمة "[1]، وقد تحدث الورتلاني كذلك عن هذا الأمر، ومن جملة ما أطلعنا به أنه خلال فترة مكوثه بمصر اجتمع مع أحد علمائها الأفاضل وهو علي الصعيدي حيث تناقش معه في مسائل في الفقه، وقد كتب عن ذلك:" حضرت مجلسه في الفقه في مختصر خليل بشرح الشيخ الخرشي وهو يحشي فيه، وقد كملت حاشيته الآن عليه في نحو خمسة أجزاء وقد باحثته في بعض المسائل الفقهية في مجلس إقرائه ..."[2].

4. العلماء ونتاجهم الفكري :

لقد ضمت مصر خلال القرنين الثامن والتاسع عشر عددا كبيرا من العلماء سواء كانوا من المصريين أو المجاورين ، ولا شك أن هؤلاء العلماء قد ساهموا بشكل كبير في تنشيط الحركة الفكرية في مصر وذلك من خلال الأدوار المختلفة التي قاموا بها، ولقد أورد الرحالة المغاربة في مصنفاتهم تراجم مفصلة للكثير من العلماء الذين بروزا خلال تلك الحقبة وهو ما سمح لنا بالإطلاع والتعرف على الكثير من الأمور المهمة المتعلّقة بهم والتي قد لا نجد لها ذكرا حتى في كتب التراجم، ولما كان من الصعب التعرض في هذا المقام لكل العلماء الذين ترجم لهم الرحالة المغاربة في مصنفاتهم[3]، وهذا لكثرة عددهم فإننا سوف نقتصر على ذكر أهم العلماء الذين اشتهروا في تلك الحقبة سواء كانوا من المصريين أو من الذين استقروا بها .

-المرتضى الزبيدي :

هو أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي العراقي الأصل، اجتمع به الرحالة محمد بن عبد السلام الناصري وأفرد له ترجمة مسهبة، ومما ذكره عنه أنه كانت له شهرة كبيرة في مصر، إذ ذاع صيته في البلاد المشرقية وحتى في بلاد المغرب و العراق واليمن وبلاد الشام، وقد كان الطلبة يتوافدون عليه للأخذ عنه من كل الأقطار، كما أن شهرته التي حازها في مصر جعلت الأمراء والأعيان يكاتبونه ويرسلون إليه العطايا كما فعل السلطان عبد الحميد الذي استدعاه إلى اسطنبول[4]، أثنى الرحالة المغاربة عليه مطولا واعترفوا بفضله لاسيما في خدمته لعلم الحديث، فوصفه محمد عبد السلام الناصري بـــ" السيد الشريف ذو القدر المنيف الحافظ البارع الجامع الناظم وعديم النظير نزيل مصر وخادم الحديث

[1] أبو راس الناصري ، المصدر السابق، ص 116.

[2] الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 341، 342.

[3] أنظر الملحق رقم 16: ص 396.

[4] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 636.

بها"[1]، وأما أبو راس الناصري الذي أخذ عنه الإجازة فقال عنه: "الإمام الأرضي الجهبذ الأمضي، سيف الله المنتضى شيخنا مرتضى الزبيدي فاوضته في فنون فوجدته كما لي فيه من الظنون "[2].

تميز المرتضى الزبيدي بتآليفه الكثيرة، اشتهر منها كتابان هما: "تاج العروس من جواهر القاموس" وهو في عشر أجزاء، وله شرح لكتاب "إحياء علوم الدين للإمام الغزالي"، ومن مؤلفاته كذلك "اتحاف الإخوان في حكم شجرة الدخان" و "كتاب التعريف بجامع علم اللغة والتصريف"، و له أيضا "إتحاف الأصفياء برفع سلالة الأولياء" ، و"تحفة الودود في ختم سنن أبي داوود "، وغيرها من المصنفات الأخرى [3].

أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الله عليش:

من كبار العلماء المصريين في القرن التاسع عشر، ترجم له الغيغائي في رحلته وقد اعتبره من خيرة العلماء في القاهرة وحلاه بأوصاف علمية رفعية فوصفه: "بالعلامة والحجة حافظ الوقت وإمام المالكية بمصر وشيخهم "[4]، ومن جمله ما ذكره عنه أيضا أنه كانت له حظوة كبيرة في مصر فقد تقلد منصب شيخ الأزهر، كما تصدر لتدريس عدّة علوم بالجامع الحسيني منها الحديث والتصوف، له تآليف كثيرة مفيدة منها "شرح في علم التصريف" و الفتاوى الفقية" و"شرح مواهب القدير في شرح مجموع العلامة الأمير"[5] .

حسن العدوي الحمزاوي:

من مشاهير فقهاء المالكية، حدد الزركلي مولده بسنة 1221هـ - 1806م، وأما وفاته فكانت في عام 1303هـ- 1886م[6]، اجتمع به الغيغائي خلال زيارته إلى مصر، وقد ذكر أنه خلف العديد من المصنفات ومن أهم هذه الكتب نذكر: "مشارق الأنوار في فوز أهل الاعتبار"، وكتاب "إرشاد المريد في علم التوحيد "ومنها أيضا "النفحات على مسلسل عاشوراء" بالإضافة "تحفة الإخوان في اجتناب البدع والدخان" [7] .

سالم ابن أحمد النفراوي :

وصفه الورتلاني "بالشيخ الفاضل والعالم الكامل إمام الجامع ذو الصدر الواسع الحافظ على الإطلاق والناقل بالإتفاق.... لا ترى في الجامع أحدا مثله لأنه شيخ الجميع وإمام المحققين "[8]، وأما الحضيكي الذي

---

[1] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ، ص 636.

[2] أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص ص 115، 116.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 656.

[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص 91.

[5] نفسه، ص 92.

[6] الزركلي، المرجع السابق، ج 2، ص 199.

[7] الغيغائي، المصدر السابق، ص ص 92، 93.

[8] الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 351، 352.

أجازه أثناء مجاورته بالأزهر فقد ذكر أنه فقيه مالكي، أخذ العلم عن كبار الشيوخ في عصره من أمثال العلامة الخرشي وسليمان الفيومي، وأضاف أنه كان ممن ترفع إليهم المسائل ويقصد للفتوى، وقد اشتهر سالم النفراوي بتضلعه في علوم شتى لاسيما في البيان وأصول الفقه [1] .

أكد الورتلاني الذي اجتمع به على المكانة التي اكتسبها سالم النفرواي في مصر، ومن جملة ما ذكره عنه أنه كان له مجلس بالأزهر الشريف يحضره حوالي سبعين طالب، وقد أخذ عنه كل من كان في زمنه من الشافعية والحنفية والمالكية، ومما أشار إليه أيضا أنه كان ضريرا أي أعمى ورغم ذلك كان يعتبر من كبار الأئمة في مصر وأفضلهم، وقد أتيح للورتلاني حضور بعض دروسه حيث قرأ عليه " مختصر السعد"، وقد صادفت وفاته وجود الورتلاني في مصر حيث كان من بين الذين صل عليه في جامع الأزهر[2].

علي الصعيدي :

هو علي ابن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي، أحد العلماء والمحققين الذين كان إليهم النظر في الجامع الأزهر في القرن الثامن عشر، بلغ صيته حسب ما ذكر الورتلاني مشارق الأرض ومغاربها فقد كانت تشد إليه رحال الطلبة من كل الأقطار الاسلامي، وهذا لما جمعه من علوم لا سيما في الفقه، اشتهر علي الصعيدي بكثرة مصنفاته، وقد ذكر الورتلاني أنه أجازه في علوم شتى، ومما ذكره عنه أنه كان له مجلس في الفقه يقرأ فيه مختصر خليل بشرح الشيخ الخرشي[3]، اجتمع به الرحالة الحضيكي وتتلمذ علي يديه، ووصفه بأنه كان من حذاق الأزهر، وأضاف أنه كان فقيرا زاهدا ، ومن أهم تلاميذه الشيخ السلموني[4].

الشيخ الدردير

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الدردير العدوي المالكي، شيخ الطريقة الخلوتية، كان فقيها على المذهب المالكي، لقيه محمد بن عبد السلام الناصري ولازمه لفترة، ومن ضمن ما ذكره عنه أنه تصدر للتدريس في جامع الأزهر وفي مسجد أبي الذهب،كما كان له مجلس في مترله ، ومن الكتب التي كان يقوم بتلقينها "مختصر خليل" و"الكبرى السنوسي" والجامع الصغير"، اعترف محمد بن عبد السلام الناصري بفضله وأشار إلى أنه حاز على مكانة كبيرة في مصر، وقد عبر عن ذلك بقوله:" كان حليما أخذ من حسن الخلق بالحظ الوافر من الصلاح بالنصيب الفاخر، قد حاز على رئاسة مصر على الإطلاق بل وفي ما قاربها من الأقطار والآفاق...

[1] الحضيكي، المصدر السابق، ص 184.

[2] الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 351- 353.

[3] نفسه، ص ص 342- 344.

[4] الحضيكي، المصدر السابق، ص 184.

وله المنزلة الشامخة عند فراعنة مصر من العمال تراهم يوبخهم في وجوههم يا فجار ياظلمة وهم ناكصو رؤوسهم فسبحان خالق الجميع"[1]، ترك الشيخ الدردير مصنفات ورسائل كثيرة منها"شرح مختصر خليل " و" تحفة الإخوان والخلان في بعض مذاهب أهل العرفان " وغيرها [2].

الشيخ ابراهيم الباجوري :

أحد العلماء البارزين الذين لقيهم الغيغائي بمصر، كان إماما في المذهب الشافعي، امتدحه الغيغائي بالكثير من الصفات التي تدل على غزارة علمه منها" الإمام الكبير والعالم الجليل الشهير شيخ الإسلام وعالم الأنام، كبير الأئمة الشافعية وأعلمهم"[3] ، ذكره أيضا الفقيه الحيوني في رحلته وأشار أنه درس عنده أصول الفقه في الأزهر الشريف[4]، كان للشيخ الباجوري صيت كبير في مصر، وقد ترك تآليف عديدة منها "شرح البردة"، و"شرح السنوسية"، و"شرح الشمائل لأبي عيسى الترمذي"، و"شرح بانت سعاد"وغير ذلك[5].

أحمد الإسكندري:

هو أحمد ابن مصطفى الاسكندري، كان عالما في الحديث وهو مالكي المذهب، تتلمذ على يد علماء أجلاء في عصره من أمثال الإمام الخرشي و محمد ولد الزرقاني، أسهب الحضيكي في الإشادة به وبمناقبه، وقد خصه بترجمة مطوله وصفه فيها بالعالم، العامل، التقي، الورع، الزاهد، وقد ذكر أنه أخذ عنه العلم أثناء مجاورته بالأزهر الشريف، ومن جملة ما قرأه عنه "مختصر خليل" و "رسالة ابن أبي زيد" و"أحاديث ابن أبي حمزة" و"الجامع الصغير للإمام السيوطي"، و مما يروى عنه أنه كان ذا منزلة عند الحكام الذين تقربوا منه لكنه كان يمتنع عن أخذ الهدايا والعطايا، ومن سماته كذلك حسب ما أشار إليه الحضيكي بعده عن الترف إذ اشتهر بإنفاق أمواله عن المساكين والفقراء، وكان أحمد الإسكندري قد نذر نفسه لتدريس العلم في الجامع الأزهر إذ كان لا يمكث في منزله بالإسكندرية إلا ثلاث أشهر في السنة[6].

[1] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 721.

[2] نفسه، ص ص 722،728.

[3] الغيغائي، المصدر السابق، ص 96.

[4] الحيوني، المصدر السابق، ص 138.

[5] الغيغائي، المصدر السابق، ص 96

[6] الحضيكي، المصدر السابق، ص 178.

خليل المغربي:

هو الشيخ خليل بن محمد المغربي، فقيه مالكي، مغربي الأصل، ولد ونشأ بمصر، وأخذ عن فحول علمائها حتى اشتهر أمره[1]، تصدر للتدريس في الأزهر الشريف، اشتهر بتضلعه في مختلف العلوم، لقيه الورتلاني وأخذ عنه العلم وقد أشاد بنبوغه واتساع معارفه، ومن جملة ما قاله عنه:" الشيخ المحقق العلامة المدقق خاتمة المحققين وإمام الأجلاء العارفين هو في العلوم بحر لاساحل له وإن العلوم كلها عنده من الضروريات " [2].

محمد الجوهري الخالدي :

هو أحمد بن الحسن ابن عبد الكريم الجوهري الخالدي، يرجع نسبه حسب ما أورده الحضيكي في ترجمته له إلى خالد ابن الوليد، كان فقيها شافعي المذهب، ينتمي إلى الطريقة الشاذلية التي أخذها عن سيدي عبد الله الكنكسي، أشار إليه الرحالة محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته وقد ذكر أنه كان أحد الشيوخ الذين أخذ عنهم الإجازة خلال إقامته بمصر، تميز بسعة علمه إذ كان يجمع بين علم التفسير والحديث وأصول الفقه الشيء الذي أكسبه شهرة كبيرة في مصر.

تصدر للتدريس بالجامع الأزهر وبالمدرسة الأشرفية وكان من جملة ما يقرؤه صحيح البخاري و منهاج شيخ زكريا الأنصاري، للشيخ الجوهري تآليف كثيرة منها: "اللوامع الإلهية على المنظومة الجزرية "و" لطائف التوحيد"، و"بارقة التمهيد في شرح خلاصة العبيد"، بالإضافة "شرح البشارة في معرفة الاستعارة"، كما له أيضا " إتحاف أولي الألباب فيما ينغلق شيء من الإعراب[3] .

أبو عبد الله الدمنهوري:

هو أبو عبد الله بن محمد الدمنهوري، من علماء القرن 19م، ترجم له الغيغائي ترجمة مقتضبة وصفه فيها بعدّة صفات تدل على علو منزلته حيث قال عنه:" الفقيه، المدرس، الجليل، كان الشيخ الدمنهوري شافعي المذهب، لم يشر الغيغائي إلى مصنفاته لكنه اكتفى بالقول أنه اشتهر بكثرة مؤلفاته في المذهب الشافعي [4].

أبو داوود سليمان الجمل :

هو سليمان بن عمر بن منصور العجيلي المعروف بالجمل، أخذ العلم من كبار المشايخ في تلك الفترة من أمثال شمس الدين محمد الحفناوي و الشيخ أحمد الملوي، وعمر الطحلاوي وغيرهم، لقيه محمد بن عبد

[1] الجبرتي، المصدر السابق، ج1، ص 425.

[2] الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 340،341.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص ص 691- 694.

[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص 96.

السلام الناصري في رحلته ولازمه لمدة طويلة وقد وصفه بعدّة صفات منها" الإمام البركة، الزاهد ، الوارع، الصوام ، القوام "، كان أبو داوود سليمان ملما بالعلوم و متضلعا فيها حيث دَرس الحديث و التفسير والنحو واللغة والبيان في مسجد أبو الذهب، كما كان له دروس في المشهد الحسيني يحضرها عدد كبير من الطلبة، أشار محمد بن عبد السلام الناصري أنه كان شافعي المذهب، خلوتي الطريقة، له مؤلفات كثيرة منها" حاشية على تفسير الجلالين" و "شرح على دلائل الخيرات" و "شرح حزب البحر للإمام الشاذلي "[1] .

الشيخ الملوي:

فقيه مصري، لقيه الورتلاني وأخذ عنه الإجازة في سائر العلوم، ووصفه بعبارات تنم عن مترلته الكبيرة منها قوله:"الشيخ، العلامة، الفاضل، الفهامة"، تميز الشيخ الملوي واشتهر بكثرة تصانيفه حيث ألف: "الشرحان الكبير والصغير على السلم المرونق في المنطق للأخضري"، وكذلك له "الشرح الكبير والصغير على رسالة السمرقندي في الاستعارات وهو مسمى بـــ ""عقد الدرر البهية في شرح الرسالة السمرقندية "، و أشار الورتلاني أنه له أيضا حاشية على المراكشي على الصغرى[2] .

مجملا يمكن القول أن مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع ضمت عددا كبيرا من العلماء ممن كان لهم الأثر البارز في تنشيط الحركة العلمية والفكرية بالبلاد، وإن كنا اقتصرنا على ذكر البعض منهم فقط ، إلا أن هؤلاء العلماء سواء كانوا من المقيمين فيها أو من الوافدين عليها قد أنتجوا مؤلفات متنوعة، إذ أدى نشاطهم العلمي الذي شمل مختلف أصناف المعرفة إلى بروز مصر كأهم المراكز الثقافية في المشرق العربي في تلك الفترة، وفي هذا دلالة واضحة على أن مصر استطاعت الحفاظ على مكانتها العلمية بالرغم من التحولات السياسية والاجتماعية التي عرفتها، ويبقى أن نشير في الختام أن المعلومات الوفيرة التي أمدتنا بها كتب الرحلات المغاربية فيما يخص الأوضاع الثقافية في مصر من شأنها أن تفند وتدحض مزاعم الرحالة الأوروبيين الذين رسموا صورة قاتمة لمصر في هذه الفترة.

[1] محمد بن عبد السلام الناصري ،**الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص ص 709- 711.

[2] الورتلاني، المصدر السابق، ص 341.

الفصل الثالث: صورة الحجاز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من خلال كتابات الرحالة.

المبحث الأول : الأحوال السياسية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

1. **الأوضاع الداخلية**
2. **التنظيم الإداري والسياسي**

المبحث الثاني : الأوضاع الاقتصادية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

1. الزراعة
2. الحرف و الصناعة
3. التجارة

المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

1. فئات المجتمع
2. العادات والتقاليد
3. الأعياد والاحتفالات
4. الألبسة في الحجاز
5. الأطعمة والأشربة
6. الأوضاع الصحية في الحجاز

المبحث الرابع: الأوضاع الثقافية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

1. المؤسسات التعليمية
2. أصناف العلوم.
3. العلماء

المبحث الأول : الأحوال السياسية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

إنّ الدارس والمتّمعن في كتب الرحلات يلاحظ أنها لا تمدنا بمعلومات كثيرة عن مظاهر الحياة السياسية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فالرحالة الذين زاروا هذه المنطقة خلال هذه الفترة كان اهتمامهم منصبا أكثر على إبراز ملامح الحياة الاجتماعية و الاقتصادية والفكرية، وعلى الرغم من قلة المعطيات ذات الطابع السياسي إلا أن الباحث يعثر على بعض الإشارات المقتضبة التي أوردها بعض الرحالة والتي يمكن من خلالها إعطاء صورة ولو جزئية عن الحالة السياسية التي شهدتها الحجاز إبان القرن الثامن عشر والتاسع عشر سواء تعلّق الأمر بالأوضاع الداخلية أو التنظيم الإداري.

1. الأوضاع الداخلية .

أجمع غالبية الرحالة الذين وفدوا على الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن السّمة الغالبة على الوضع السياسي في هذه المنطقة هو عدم الإستقرار، حيث انتشرت الفوضى وعم الفساد، وقد كانت الأوضاع تسير إلى الأسوء نتيجة للإضطرابات التي كانت تحدث من حين لآخر، وحسب ما جاء في متون الرحلات تظافرت عدّة عوامل كانت السبب وراء ظهور هذه الإضطرابات أهمها ضعف السلطة والحكام، فالحكام الذين كانوا يشرفون على تسيير شؤون الحجاز لم تكن لهم القدرة الكاملة على فرض سيطرتهم على البلاد، ومما يؤكد ذلك أن الورتلاني خلال زيارته للحجاز قد ذكر لنا أنه قد اجتمع بأمير مكة وقد أخبره هذا الأخير ما نصه:" ما ضيع الأحكام إلا الأشراف، فإن أمرهم قوي علي وعلى غيري"[1]، ولعلّ في هذا القول لدلالة واضحة على عدم خضوع الأشراف لأمير مكة وتمردهم على السلطة.

وفي الواقع إنّ أهم ظاهرة ميّزت القرن الثامن عشر وكانت من العوامل المساعدة كذلك على شيوع الفوضى وعدم الإستقرار هو صراع الأمراء الأشراف على السلطة[2]، إذ كثيرا ما كان يأخذ ذلك الصراع طابعا مسلحا[3]، وبذلك نلاحظ أن الحجاز قد دخل إبان القرن الثامن عشر في مرحلة من الإضطرابات، وبالعودة إلى ما سجلته مصادر تلك الحقبة نلاحظ أمثلة كثيرة تؤكد هذا الأمر، ففي سنة 1136هـ/ 1730م يذكر لنا

---

[1] الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 492، 493.

[2] إن الصراع على الشرافة في الحجاز لم يكن وليد العصر الحديث، بل إنه يعود إلى عهد الدولة الفاطمية حيث نشأ هذا الصراع في الأصل بين ثلاث أسر هي الأسرة الموسوية والأسرة السليمانية و الأسرة الهاشمية . للمزيد أنظر: رجب حزار، **الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب 1840–1909م**، دط، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ، 1970م، ص 103.

[3] بالنسبة لموقف الدولة العثمانية من الصراع القائم على الشرافة في الحجاز فإن الواضح أن وضعها لم يكن يسمح لها بالتدخل لوضع حد لهذه المنازعات وذلك بسبب انشغالها بحروبها مع أوروبا من جهة و من جهة أخرى انشغالها بالحركات القومية التي ظهرت في الولايات التابعة لها ، وبالرغم من ذلك كان بعض السلاطين العثمانيين يتدخلون لعزل من يريدون عزله من الأشراف عن طريق باشا الشام بالإضافة إلى تعيين أحد الباشوات الأتراك في مدينة جدة . للمزيد أنظر: حزار، نفسه، ص 104.

المؤرخ دحلان في مصنفه "خلاصة الكلام" أن الأشراف بقيادة الشريف مبارك بن أحمد بن زيد قد تمردوا على الشريف بركات بن يحي أمير مكة، وقد وقع بين الطرفين صدام ومعركة في مكة المكرمة انتهت في الأخير بهزيمته وتنحيته من الحكم[1]، وقد حدثت كذلك في سنة 1204هـ فتنة بين الشريف غالب بن مساعد[2] و ابن أخيه الشريف عبد الله بن سرور، ونتج عن الحرب التي دامت عدّة أيام أن انقطع سير الناس في الطرقات، كما أدت هذه الإضطرابات إلى انقطاع الصلاة في المسجد الحرام[3].

والجدير بالذكر أن الصراع على الشرافة في الحجاز قد ظل مستمرا طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وذلك بالرغم من أن الحجاز قد فقد الإستقلال الذاتي الذي كان يتمتع به في العهود السابقة بعد أصبحت تدار شؤونه من طرف الوالي التركي[4].

إنّ الصراع الذي نشب بين الأمراء الأشراف حول الحكم لم يكن العامل الوحيد الذي ساهم في تدهور الأوضاع في الحجاز، إذ شهدت الحجاز حدث أخر آدى إلى شيوع الفوضى وعدم الاستقرار وهو الحركة الوهابية التي بدأت في الإنتشار مع منتصف القرن الثامن عشر وأضحت تهدد نفوذ الدولة العثمانية في الحرمين الشريفين .

والمتمعن في ماسجله الرحالة عن هذه الحركة الإصلاحية في كتاباتهم يجد أن وصفهم لها جاء مختصرا، فبيركهارت اهتم بالحديث عن طبيعة مبادئها والتي ارتكزت في مجملها في الدعوة إلى اتباع تعاليم الإسلام الأولى، ومحاربة البدع والخرفات كزيارة القبور والتبرك بالأولياء الصالحين وغيرها من المفاسد التي علقت بالعقيدة الإسلامية[5]، كما تتّبع أيضا الجانب العسكري حيث يحدثنا عن الحروب التي عرفتها الحجاز في مطلع القرن التاسع عشر، وفي هذا السياق يشبر إلى الحملة التي قادها طوسون باشا للقضاء على الوهابيين الذين استولوا على المدينتين المقدستين مكة وللمدينة المنورة، وتجدر الإشارة أن بيركهارت يُعدّ من الرحالة

[1] أحمد بن زيني دحلان، **خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن سيدنا النبي إلى وقتنا هذا بالتمام**، تح : أبو عبد الله محمد الحسن اسماعيل الشافعي ، دط، مطبوعات أرض الحرمين، د ت، ص 252.

[2] الشريف غالب بن مساعد: هو غالب بن مساعد بن سعيد الحسيني، أمير مكة المكرمة، تولى الحكم بعد وفاة أخيه في عام 1202هـ-1787م، في عهده تعرضت مكة المكرمة إلى الهجوم من طرف الوهابيين، أعلن الولاء للإمام سعود بعد هزيمته ، استمر في إمارة مكة المكرمة إلى غاية سيطرة محمد علي على الحجاز، بعد القبض عليه أرسل إلى القاهرة ثم إلى استانبول ،ومنها نفي إلى سلانيك التي توفي بها في سنة 1816م . للمزيد أنظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 5، ص 115.

[3] دحلان، المصدر السابق، ص ص 297، 298.

[4] حزار، المرجع السابق ، ص 116.

[5] بيركهارت، **ملاحظات عن البدو...** ، المصدر السابق، ج 2، ص ص 67- 70

الأوروبيين القلائل الذين تزامن وجودهم في الحجاز مع انتشار الحركة الوهابية، حيث عاصر الصراع القائم بينها وبين الدولة العثمانية وسجل ذلك في رحلته [1].

ونفس الأمر نجده عند الغيغائي ففي رحلته تحدث هو الآخر عن الحروب التي عرفتها الحجاز نتيجة للصراع الذي قام بين الدولة العثمانية والوهابيين لاسيما بعد أن أخذت هذه الحركة طابعا سياسيا وذلك بتحالف مؤسسها محمد ابن عبد الوهاب[2] مع أمير نجد محمد بن سعود و امتداد الخطر الوهابي إلى الحجاز والحرمين الشريفين، حيث استعان السلطان العثماني محمود الثاني[3] بباشا مصر محمد علي للقضاء على هذه الحركة، ففي وصفه لجهود محمد علي يقول:" وجهز ولده ابراهيم باشا بالعساكر والقوة لمقاتلة القائم البدعي الوهابي المضر بأمة النبي صل الله عليه وسلم ...، وهي في أثره إلى أن حاصر عليه بالمدينة المنورة وأخرجه منها وتبعه إلى مكة المشرفة وإلى الطائف وإلى الشرق وإلى الدرعية والعساكر في أثره ...والإمداد من مصر لا تنقطع من القتال كل يوم إلى أن وصل الوهبي إلى بلده وتحصن ببعض الحصون من قلاعه، ووقف عليه وهو محصور نحو سنة ... ثم رجع عنه بعد الغاية وقبض الأموال وخلاء الحصون"[4].

هذا وتفيدنا مصادر تلك الحقبة بأن الصراع الذي نشب بين الدولة العثمانية والحركة الوهابية في القرن التاسع عشر قد أدى إلى حدوث اضطرابات، فعلى إثر سوء الأوضاع بالحجاز تعرضت قوافل الحج إلى التوقف في بعض الأحيان وهو ما نجد له تأكيد عند ابن بشر الذي يصف موسم حج سنة 1226هـ/ 1811م بقوله:"لم يحج هذه السنة أحد من أهل الشام ومصر والعراق والمغرب وغيرهم إلا شرذمة قليلة من أهل المغرب

---

[1] للتوسع أكثر في موضوع الحروب التي درات بين الحركة الوهابية و محمد علي في الحجاز أنظر: بيركهارت ، **ملاحظات عن البدو...**، المصدر السابق، ج2، ص ص 107- 157.

[2] محمد ابن عبد الوهاب: يعد من أشهر زعماء الإصلاح الديني في العصر الحديث ، ولد بالعينية في منطقة نجد ، ارتحل إلى الحجاز لأداء مناسك الحج، كما زار البصرة و اصفهان حيث أخذ العلم من فقهائها وشيوخها، اشتهرت دعوته بالحركة الوهابية وهي تقوم على الأمر بالمعروف محاربة البدع والخرافات و إنكار زيارة القبور والتبرك بالأولياء، سلك في دعوته مذهب الإمام أحمد ابن حنيل بالإضافة إلى ابن تيمية ، عرفت دعوته انتشارا كبيرا في نجد وفي أنحاء الجزيرة العربية، من أهم مؤلفاته: " التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد"، و "كشف الشبهات" و "أصول الإيمان" و "كتاب الكبائر"، توفي في نجد سنة 1792م. للمزيد أنظر: علي المولا، **الموسوعة العربية الميسرة**،ج 6، ط1، المكتبة العصرية ، لبنان، 2010م، ص ص 3044، 3045.

[3] السلطان محمود الثاني: هو ابن السلطان عبد الحميد الأول ، ولد سنة 1785م ، تولى العرش في عام 1808م ، تميزت فترة حكمه بالإصلاحات حيث وجه اهتمامه للشؤون الداخلية خاصة العسكرية منها وذلك من خلال إلغاء نظام الانكشارية ، عرف عهده ظهور العديد من التمردات والثورات والحروب أهمها الحرب مع روسيا و الثورة اليونانية بالإضافة إلى الحركة الوهابية التي انتشرت في الجزيرة العربية . للمزيد أنظر: فريد بك المحامي ، **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ، تح: اسماعيل حقي ، ط1، د.ن، بيروت، 1981م ، ص ص 398_ 431.

[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص 130.

لا إسم لهم حجوا بأمان"[1]، وتجدر الإشارة أنّ ما ذكره ابن بشر عن تعطل قوافل الحج نجد أنه يتوافق مع أورده بيركهارت في رحلته فقد أكد على تعطل قوافل الحج الكبرى المصرية والشامية والمغربية وعدم انتظامها لاسيما بعد سنة 1803م[2] .

وإذا كان الرحالة المغاربة المغاربة والأوروبيين لم يقدموا لنا تفاصيل كثيرة عن الأحداث السياسية التي شهدها الحجاز فإنهم بالرغم من ذلك أعطوا صورة أخرى تؤكد اضطراب الأوضاع السياسية في الحجاز ، فإلى جانب ما سبق ذكره تعد ظاهرة انعدام الأمن في الحجاز من الظواهر الرئيسية التي أثارت اهتمام الرحالة المغاربة والأوروبيين وتكررت الإشارة إليها في نصوصهم، فالحجاز تميز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بإنتشار ظاهرة اللصوصية واعتداءات العربان على قوافل الحج، ومما لاشك فيه أن هذا الأمر قد نتج عنه عدم الإستقرار ، فالقارئ لمتون الرحلات يجد أن الرحالة المغاربة أوردوا الكثير من الأمثلة التي تؤكد استفحال هذه الظاهرة، فقد كانت الطرق محفوفة بالمخاطر، وقد اشتكى جل الرحالة من غارات الأعراب، فهذا أحمد بن ناصر الدرعي يشير في رحلته أن من أكثر المواضع التي عرفت بوجود الأعراب فيها عقبة أيلة، حيث تعرض هناك ركب الحج التونسي في زمن رحلته إلى الاعتداء والسرقة[3].

ويضيف لنا أيضا محمد بن عبد السلام الناصري أنه عند وصوله إلى خليص وقع صدام عنيف بين الحجاج و الأعراب، حيث أدى ذلك إلى هلاك عدد كثير من الحجاج وسرقة أمتعتهم[4]، وهناك رحالة مغربي آخر من الذين زاروا الحجاز خلال القرن التاسع عشر ذكر لنا أيضا أن العربان تعرضوا لقافلة الحج التي كان يرافقها، وقد وقع بين الركب وبينهم صدام استخدم فيه البارود للدفاع عن أنفسهم[5]، ويشير أيضا ابراهيم

---

[1] محمد الكبير فقيقي، **الحركة الوهابية في كتابات المغاربة 1745م– 1945م**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2014/ 2015م، ص 157.

[2] أشار بيركهارت أن القافلة السورية التي كانت بقيادة يوسف آغا لم تتمكن في سنة 1803 م من الوصول إلى المدينة المنورة في حين أن القافلة المصرية لم تسلك الطريق البري نظرا لتحول قبيلتي حرب والجهين إلى المذهب الوهابي لكن المحمل ومعه قلة فليلة من الحجاج يسافرون عن طريق البحر إلى جدة، وقد تعطلت أيضا في هذه الفترة القافلة اليمنية والفارسية، أنظر: بيركهارت، **ملاحظات عن البدو** ...، المصدر السابق، ص 119.

[3] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 321-609

[4] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 470.

[5] الحيوني، المصدر السابق، ص 77.

رفعت ضمن كتابه "مرآة الحرمين" أنه في طريق بين جدة ومكة المكرمة اعتدى العربان على قافلة الحجاج، حيث قتلوا عددا كثيرا من رجالها ونسائها، كما استولوا على متاعهم و أموالهم [1].

وعلى غرار الرحالة المغاربة قدم الرحالة الأوروبيين صورا عديدة تجسد انعدام الأمن في الحجاز جراء انتشار اللصوصية، ولعلّ أهم ما نستدل به في هذا الشأن أن بيركهارت قد ذكر في رحلته أن القوافل الحج كثيرا ما كانت تتعرض للنهب في طريق سيرها بين مكة والمدينة المنورة[2]، ومن جانبه أشار عبد العزيز دولتشين إلى حالة الطرق والمخاطر التي تعترض الحجاج فذكر أنه باستثناء الطريق بين مكة وجدة التي يقل فيها الخطر فإن جميع الطرق الأخرى كانت حركة السير فيها غير ممكنة إلا في حالة السير في جماعات كبيرة و أخذ تدابير الحراسة[3]، ويتفق هذا الوصف مع ما أشار إليه الدرعي، ففي وصفه لحالة الطرق وهاجس الأمن فيها يقول:" ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر في الطريق، لما قدر أحد على سلوكها مع كثرة مخاوفها وقلة مرافقها" [4]، وللتأكيد على ما كان يتسبب فيه العربان يذكر لنا دولتشين أن السنة التي حج فيها قد بلغ عدد الضحايا من الحجاج من جراء اعتداءات البدو حوالي خمسين شخصا في الطريق بين مكة والمدينة المنورة[5].

وفي الواقع إن انتشار ظاهرة الصعلكة كما أطلق عليها كان لها تداعيات كبيرة، حيث لم يكن من السهل على الحكام القضاء عليها، وما يؤكد ذلك ما قاله محمد بن عبد السلام الناصري الذي وصف الأعراب بقوله: "وأعراب الحجاز اليوم غالبيتهم لا تنالهم الأحكام الشرعية من ناحية ولي الحرمين، وأمير مكة هو الحاكم غالبا على أهل المدينة، وفي سنتنا هذه وقعت نائرة بينه وبينهم حتى توجه إليهم في جيش فحاربهم وأخلى قلعة المدينة، ووقع فيها نهب وهتك حرمة ومع ذلك لم ينقادوا له، ولا أقاموا له وزنا ..." [6].

لقد أورد بعض الرحالة الأسباب الكامنة وراء انتشار ظاهرة اللصوصية، فالرحالة عبد العزيز دولتشين يعزوا ذلك إلى امتناع الحكام والولاة العثمانيين على دفع المخصصات والإعانات المالية لبعض القبائل البدوية التي تسيطر على الطريق بين المدينة المنورة وينبع[7]، وأمّا الرحالة المغاربة فقد أرجعوا ذلك إلى تهاون الحكام

---

[1] ابراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية**، ج 1، ط1،طبعة دار الكتب المصرية ، مصر، 1925م،ص 74.

[2] بيركهارت، **رحلات في شبه الجزيرة** ... ، المصدر السابق، ص ص 245- 253-260.

[3] عبد العزيز دولتشين، **الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين إلى الحجاز سنة 1898م**، 1899، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2008م، ص ص 155،156.

[4] الدرعي ، المصدر السابق، ص 307

[5] دولتشين، المصدر السابق، ص ص 155-157

[6] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 518.

[7] دولتشين، المصدر السابق، ص ص 159، 160.

و الولاة في القضاء على العربان، فهم لا يعملون على ردعهم والتضييق عليهم، والذي يؤكد ذلك ما ذكره العياشي بشأنهم حيث يقول :"إنهم يهجمون على الناس هجوما ويعظم أذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاون الحكام و إرخاء العنان لهم في ذلك، وقد قيل إنهم يؤخذون منهم جعلا على ذلك في أيام المواسم، فإذا أتى إليهم بسارق أدخلوه الحبس على أعين الناس فإذا جن الليل أخرجوه"[1] .

وقد أيّد اليوسي ما أشار إليه العياشي، ففي وصفه لأسباب انتشار السرقة لاحظ تقاعس الولاة الأتراك في توفير الحماية للحجاج، وقد قال بشأن ذلك:" إن أعراب الأرياف ينتهزون فرصة الحاج مع أن الغز (العساكر) ... يذهبون كتائب وزمرا خيلا ورجالا يتلقون الحجيج، فترى الأعراب يغيرون فيما بينهم فينهبون ويجردون ولا يلقاهم أحد، والغز ينظرون وهم حكام الأرض في زعمهم" [2].

إن مما لا شك فيه أن هذه الشهادات التي قدمها الرحالة المغاربة والأوروبيين تبين الأوضاع المتردية التي كانت الحجاز تعاني منها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فنتيجة لضعف الحكام وعدم مقدرتهم على فرض سيطرتها على القبائل المتمردة أضحت الحجاز تعيش حالة من الفوضى والفساد و عدم استتاب الأمن، وقد نقل لنا الورتلاني في رحلة صورة دقيقة تجسد ما آلت إليه الأوضاع خلال تلك الحقبة، ففي مقارنته بين الوضع السياسي في حجته الأولى والتي كانت في عهد الأمير مسعود بن سعيد وبين الأوضاع في حجته الثانية التي صادفت حكم الأمير مساعد بن سعيد خلُص إلى أن الأوضاع أضحت أكثر سوءا من قبل[3]، ومما يؤكد ذلك أن الحجاج قد اضطروا إلى ترك زيارة الكثير من المزارات الدينية نتيجة الخوف من اعتداءات الأعراب، وقد قال عن ذلك: "والناس في زماننا قد تركوا ذلك كله إلا من شذ من الناس لكثرة الأذية والخوف من اللصوص "[4]، وقد أضاف الورتلاني أيضا أن المرء أصبح لا يأمن على نفسه منها، وقد أوضح ذلك بقوله:" حتى يعلم الإنسان أنه لا يسلك تلك الطريق أحد بفضل الله تعالى وقوته والسلامة فيها من المعاطب من أكرم الكرامات لاسيما زمان الحر، وزماننا هذا لزيادة الظلم الظالمين وعتو المجرمين ومكر الجمالين وسرقة الحجاج..."[5].

[1] العياشي، المصدر السابق، ج 1، ص 317.

[2] اليوسي، المصدر السابق، ص 161. أنظر أيضا محمد ماكمان، المرجع السابق، ص 306.

[3] الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 492، 493

[4] نفسه، ص 492.

[5] نفسه، ص 390.

وحسب الورتلاني لم تكن اعتداءات العربان وحدها التي تؤرق الزائرين للحجاز، فإضافة إلى ذلك يتحدث كذلك عن سياسة الولاة التي اتسمت في نظره بالظلم وذلك ما نستشفه من قوله أيضا:" وهذا كله يرشد إلى أن الزمان قد زاد في الظلم و التعدي، نعم الحج كاد أن يكون ساقطا من ظلم الولاة وأصحابهم و العرب"[1].

وهنا يشير الورتلاني إلى معلومات جد مهمة، فإلى جانب صورة انعدام الأمن في الحجاز التي تكررت الإشارة إليها في معظم الرحلات يقدم لنا مظهر آخر يندرج ضمن الأوضاع السياسية، وبالتحديد سياسة الولاة و الحكام، وفي هذا السياق يرى أن الأشراف قد اتصفوا بالظلم و التعدي، وذلك ما نلمسه من قوله أيضا: "وقد زاد الفساد والظلم والتعدي من الأشراف وغيرهم من أصحابهم، فلا يكادون يرجعون عن التعدي، بل على أقل شيء يقتلون عليه العبد ولقد قتلوا صاحب أخينا سيدي محمد بن قسوم الريغي على شربه الماء"[2].

ومما يجب الإشارة إليه أن ما ذكره الورتلاني عن سياسة الولاة قد جاء متوافقا مع ما أورده العياشي في منتصف القرن السابع عشر، حيث نجده قد استنكر سياسة أمير مكة المكرمة في فرض الضرائب المجحفة على الحجاج وعلى الرعية وكذلك وتصرفه في الأموال العامة[3]، وفي الواقع إن بيركهارت الذي زار الحجاز خلال القرن التاسع عشر أكد أيضا على وجود هذه الظاهرة إذ أبدى استيائه من سياسة الطغيان والظلم التي انتهجها حسن القلعي حاكم المدينة المنورة ، فمن جملة ما ذكره عنه أنه كان يقمع الحجاج وينتزع المال منهم، ويقوم بمصادرة أملاك الحجاج والأجانب الذين يتوفون، كما كان يستولي على أموال الصرة المخصصة لأهل الحجاز[4].

على الرغم من قلة المعلومات التي أوردها الرحالة بخصوص هذه الإضطرابات التي شهدتها الحجاز، إلا أن نجدهم قد أشاروا إلى انعكاساتها فمن العوامل التي ساهمت كذلك في ازدياد اضطراب الأوضاع السياسية بالبلاد حسبهم هو التزام المناصب الشرعية حيث يفيدنا العياشي بأن جل المناصب: "من إمامة وخطابة وآذان وإقامة وقضاء وفتوى وشهادة كانت تنال بالشراء من الولاة، فإذا مات صاحب خطة و عزل دفع الراغب فيها

[1] الورتلاني، المصدر السابق، ص 493.

[2] نفسه، ص 492.

[3] العياشي، المصدر السابق،ج1، ص 433 .أنظر أيضا: الغاشي، **الرحلة المغربية** ...، المرجع السابق، ص 437.

[4] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 326، 327.

مالا للولاة فيولونه مكانه على أية حال كان من صلاحيته لذلك أم لا، فعظم الخطب على المسلمين والإسلام في ذلك خصوصا مناصب القضاء"[1].

وعلى العموم ومن خلال ما سبق نستنتج أن الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد عرف اضطرابات سياسية كبيرة فقد عكست الإشارات المقتضبة التي تضمنتها نصوص الرحلات الوضع السياسي الذي آل إليها الحجاز خلال فترة الدراسة، وذلك من جراء الصراع حول السلطة بين الأشراف من جهة وحروب الحركة الوهابية من جهة أخرى، فضلا عن استفحال ظاهرة اللصوصية، هذه الأخيرة التي كانت الموضوع الأساسي الذي طغى على مضامين الرحلات المغربية، إذ تدل على ضعف السلطة الحاكمة وعدم مقدرتها على فرض الأمن في ربوع الحجاز .

2. التنظيم السياسي و الإداري للحجاز :

تمتعت الحجاز بمكانة مهمة في سياسة السلاطين العثمانيين، وذلك نتيجة لأهمية الدينية التي اكتسبتها فهي كانت تحتضن المدينتين المقدستين مكة والمدينة[2]، وبالنظر إلى ذلك انفردت هذه المنطقة دون سائر الولايات العثمانية الأخرى بعدّة امتيازات[3]، وأمّا عن النظم الإدارية التي انتهجها السلاطين العثمانيين لتسيير شؤون هذه الإيالة فالملاحظ أنهم لم يحدثوا أي تغييرات جديدة، بل أبقوا على نفس الأنظمة التي كانت سائدة من قبل[4]، وعلى ما يبدو أن وضعية الحجاز الإدارية قد اختلفت عن بقية الأقاليم الأخرى، إذ قسمت إلى عدّة مناطق هي إمارة مكة المكرمة و متصرفية المدينة المنورة وسنجق جدة و البنبع بالإضافة إلى الطائف، وقد سجل لنا الرحالة المغاربة والأوروبيين ما لاحظوه في هذه المدن من تنظيمات إدارية وسياسية.

---

[1] العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 440.

[2] عماد عبد العزيز يوسف، **الحجاز في العهد العثماني 1876 ، 1918م** ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الموصل، 2005، ص 29 .

[3] من أبرز هذه الإمتيازات التي تمتعت بها الحجاز الإعفاء من تقديم الضرائب بالإضافة إلى ما كان يتلاقاه الحجاز كل عام من اعتمادات مالية ضخمة ترصد من مصر كحصيلة للأوقاف المخصصة للحرمين الشريفين، فضلا عن أموال الصرة التي كان يرسلها السلاطين العثمانيين سنويا لسكان الحجاز. أنظر: سحر بنت علي محمد دعدع، **ولاة الحجاز في العصر العثماني 1517هـ/ 1870م دراسة تاريخية حضارية** ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والحضارة الإسلامية، كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى، 2012م، ص ص 31، 32

[4] عبد الرحيم عبد الرحيم، "النظم الإدارية العثمانية في البلدان العربية وأثرها في العلاقات العربية العثمانية "، مجلة الدارة ، ع 1، السنة التاسعة ، شوال 1403هـ، ص 102.

1.2 مكة المكرمة :

كانت السلطة في مكة المكرمة تخضع لنظام الشرافة، وبموجب هذا النظام فإن الحكم كان بيد شريف مكة، وقد كان هذا الأخير حسب ما توضحه نصوص الرحلات يتمتع بصلاحيات واسعة في تسيير شؤونها [1]، وأمّا عن طريقة اختيار شريف مكة فإن بيركهارت يفيدنا بأنه كان يختار من إحدى قبائل الأشراف العديدة التي تستوطن الحجاز، وخاصة من قبيلة قتادة التي كانت مشهورة[2]، وطبقا لما تورده المصادر فإنه عند شغور منصب أمير مكة سواء نتيجة لوفاة الشريف أو استقالته أو عزله، فإن اختيار الأمير الذي يخلفه يتم تعيينه بموافقة من السلطان العثماني بعد انتخابه من طرف الأشراف، وفي حالة اختلاف الأشراف على اختيار واحد منهم للحكم فإن السلطان العثماني يقوم بتعيينه بناء على التقارير التي يقدمها له قاضي مكة و الولاة في مصر و الشام بالإضافة إلى حاكم جدة[3] .

تشير نصوص الرحلات إلى أن سلطة شريف مكة لم تكن مطلقة، إذ وعلى الرغم من الصلاحيات الواسعة التي يتمتع بها إلا أنه يظل تابعا للسلطان العثماني، ولعلّ ما يؤكد ذلك ما ذكره العياشي حيث يقول واصفا سلطة شريف مكة:" لا يأخذ سلطان مكة شيئا من كل ما يرد من الشام ومصر و المغرب، لأنه وإن كان مستقلا في مملكته فهو في الحقيقة عامل من عمال الخاقان الأعظم صاحب الروم، تأتيه من مصر الأموال والأطعمة ما يقوم بكفايته وكفاية عساكره"[4].

وتأكيدا لما ذكره العياشي بشأن تبعية شريف مكة للدولة العثمانية وعدم استقلاليته يذكر دومينجو باديا ما نصه :"عند وصولي كانت السلطة في مكة بيد الشريف الذي يعترف بالسلطان العثماني في القسطنطنية ويخضع لتبعيته والسلطان يرسل الباشا الحاكم إلى جدة، غير أن هذا الأخير يقضي جل وقته مع شريف مكة دون أن يمارس أي سلطة،كما أن السلطان يرسل على رأس كل سنة القضاة إلى مكة وجدة والمدينة للممارسة السلطة القضائية غير أنه لم يكن في استطاعتهم التدخل في الشؤون الإدارية التي تبقى حكرا على الشريف الذي ينفرد بالحكم كسلطان مستقل بواسطة ولاته "[5]، وطبقا لما أشار إليه هؤلاء الرحالة فإنه من الواضح أن بالرغم

---

[1] من المهام التي كان شريف مكة يختص بها نذكر توزيع أموال الصرة المرسلة في كل موسم على أهل الحجاز، تأمين الحجاج الذين يأتون لتأدية مناسك الحج وتوفير الحماية لهم ، اخضاع قبائل البدو ومنعهم من السلب والنهب وبسط الأمن . للمزيد أنظر: اسماعيل حقي جرشلي ، **أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني**، تر: خليل علي مراد، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2003م، ص ص 60 ، 61

[2] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 185، 186.

[3] جرشلي، المرجع السابق، ص 49.

[4] العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 433.

[5] Domingo Badia Y Leblich, **Voyage D'ali Bay El Abbassi En Afrique Et En Asie Pendant Les Années 1803, 1804,1805,1806, 1807**, t 2, paris, p 431,432.

من تراجع النفوذ العثماني في الحجاز إبان القرن الثامن عشر فقد ظل الأشراف في مكة المكرمة محتفظين بولائهم للسلطان العثماني حيث كان شريف مكة يتسلم براءة منصبه في كل سنة ويعترف بالقاضي الذي يرسله السلطان[1].

كان نفوذ شريف مكة لا يقتصر على إدارة شؤون مكة فحسب، بل كان في بعض الأحيان يمتد إلى أيضا إلى الطائف والينبع والمدينة المنورة، وقد أكد بيركهارت ذلك في رحلته وإن كان يرى أن سلطته كانت إسمية فقط حيث يقول في وصفه لفترة حكم الشريف غالب: "...إنه مايزال يتمتع بالسيطرة الإسمية أو بلقب زعيم المدينة، وإن المدينة المنورة كانت تشكل بالنسبة للباب العالي جزءا من الحجاز تحت قيادة شريف مكة "[2].

وبمقارنة ما ذكره بيركهارت مع ما جاء في الرحلات المغاربية نجد توافقا، حيث قال محمد بن عبد السلام في هذا الشأن كذلك:" وعمالتها اليوم من خارج جدة والطائف ومر الظهران، وما كان بالقرب منها هو الذي في إيالة أميرها، وقد كانت إيالتها من قبل أوسع من هذا "[3].

لقد أورد الرحالة الأوروبيون أسماء بعض أمراء مكة المكرمة، فبيركهارت خلال زيارته لمكة المكرمة تحدث عن تولى الشريف مساعد للحكم، وأشار أنه تولى السلطة في سنة 1770م، وقد امتدت مدة حكمه حوالي عشرين سنة، وقد شهد عهده صراعات مع الأشراف، إذ نشبت بينه وبينهم حروب انتهت بعزله من منصبه، وفي موضع آخر من رحلته يشير أيضا إلى الشريف سرور بن مساعد[4] الذي أشاد بسياسته في التقليص من نفوذ الأشراف المعارضين لحكمه[5]، وأما دومينجو باديا فيذكر لنا في رحلته أنه التقى بالشريف غالب بن مساعد، وقد وصف سياسته في إدارة شؤون مكة المكرمة [6].

---

[1] حزار، المرجع السابق، ص ص 102، 103.

[2] بيركهارت، المصدر السابق، ص 329.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 518

[4] سرور بن مساعد : هو الشريف سرور بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد ، من أمراء مكة المكرمة ، تولى حكم مكة سنة 1185هـ وذلك بعد انتصر في الحرب التي نشبت بينه وبين عمه الشريف أحمد بن سعيد، اشتهر بحسن إدارته لمكة حيث عرفت في عهده استتاب في الأمن خاصة بعد شنه لحملات تأديبة على القبائل البدوية التي تعترض طريق الحج، استمر في إمارة مكةل مدة خمسة عشر سنة ، توفي في سنة 1203هـ . للمزيد أنظر: جرشلي، المرجع السابق، ص ص 191، 192. للمزيد أنظر: الزركلي، المرجع السابق،ج 3، ص 81.

[5] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 188، 189.

[6] badia y leblich, op,cit, p 426, 427

3.2 المدينة المنورة :

كانت المدينة المنورة خلال المرحلة الأولى من العهد العثماني تابعة لسلطة أشراف مكة، حيث كان شريف مكة يعين عليها نائبا له من أقاربه من أجل تصريف أمورها[1]، وإذا ما تأملنا فيما سجله الرحالة المغاربة والأوروبيين عن التنظيم الإداري والسياسي لهذه المدينة فإننا نجد أنهم أكدوا على وجود عدّة سلطات تدير المدينة المنورة فلم يكن الحكم ينحصر بيد شريف مكة فحسب، بل شاركته أطراف عديدة حكم المدينة[2]، وهذا الأمر نجد له تأكيدا أيضا في المصادر المحلية التي أرخت لتلك الفترة.

ذكر بيركهارت أنه خلال فترة زيارته للمدينة المنورة لاحظ أن النظام الإداري بها كان موزعا بين شقين فقد كان يوجد حسب وصفه حاكم تركي يسمى بالآغا ومهمته تتمثل في الإشراف على الشؤون العسكرية،كما يضيف لنا أنه كان يوجد أيضا شيخ الحرم الذي يتولى الإشراف على الأمور المدنية، وقد كان شيخ الحرم يتمتع بنفس منزلة الباشا في المناطق الأخرى حيث يقوم بتعيينه السلطان العثماني مباشرة [3].

وإذا كان بيركهارت قد ركز في حديثه عن سلطة شيخ الحرم و الحاكم العسكري، فإن بيرتون الذي زار المدينة المنورة من بعده يشير إلى وجود سلطة أخرى هي سلطة قاضي المدينة الذي يرسل كل عام من استطنبول، حيث كان يقضي مدة اثنا عشر شهرا في المدينة المنورة[4]، وبالعودة إلى ما سجله الرحالة المغاربة تعد رحلة العياشي الرحلة الوحيدة التي أطلعنا فيها صاحبها عن ملامح التنظيم الإداري الذي تميزت به المدينة المنورة وإن كانت زيارته لها قد تمت في منتصف القرن السابع عشر، فمن أهم ما استوقفه فيها هو تداخل السلطات وتعددها وبشأن ذلك قال: "وعلى طول إقامتي في المدينة لم أدر كيفية تصرف الولاة فيها، ولا من له التصرف التام، فإن شيخ الحرم هو كبير الخدم تنفذ أحكامه، وكبير العسكر الساكنين بالقلعة أمير أيضا، وابن عم السلطان زيد ابن محسن وابن زوجته تقية النائب عنه في النظر في مصالح البلد كذلك، والأمير الذي تُنسب إليه إمارة المدينة من الشرفاء الحسينيين كذلك، والحاكم الذي يسجن ويضرب ويقتل ويُؤدب وهو من خُدام السلطان كذلك، ولا أعلم لكل واحد من هؤلاء ولاية على قوم بالخصوص أو هو عمل من الأعمال"[5].

---

[1] عبد الباسط بدر، **التاريخ الشامل للمدينة المنورة**، ج2، ط1، د ب ن، 1993م، ص ص 333،334.

[2] العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 463. أنظر أيضا بيركهارت: المصدر السابق، ص ص 325، 326.

[3] بيركهارت، المصدر السابق، ص 325.

[4] محمد بن عبد الهادي الشيباني، "بيرتون وصورة المدينة في رحلته عام 1853م" ، مجلة بحوث ودراسات المدينة المنورة، ع17، 2006، ص ص 104، 105.

[5] العياشي، المصدر السابق، ج 1، ص 463.

يتضح من هذا حديث العياشي أن الحكم في المدينة المنورة كان موزعا بين عدّة قوى هي شيخ الحرم و كبير العسكر الساكنين بالقلعة، بالإضافة إلى أمير مكة الذي يلقب بالسلطان، كما كان يتولى تسيير شؤون المدينة المنورة كذلك نائب أمير مكة ، كما وجد أيضا حاكم تنفيذي يطبق الأحكام من سجن وضرب وتأديب، بالإضافة إلى الأمير الحسيني الذي تنسب إليه إمارة المدينة إسميا [1]، لكن هذا التنظيم الإداري الذي تميزت به المدينة المنورة قد عرف تحولا في القرن الثامن عشر إذ تذكر المصادر أن سلطة الأمراء الحسينيين في المدينة المنورة قد ضعفت حيث لم يعد لهم أي سلطة فعلية وإنما كان الحكم في يد أمير مكة [2].

واستنادا إلى ما سبق ذكره يظهر جليا لنا أن العثمانيون أوجدوا عدة سلطات في المدينة المنورة فقد كانت هناك سلطة سياسية وسلطة عسكرية وسلطة دينية، وكان الهدف من إقامة هذه السلطات هو إبراز السيادة العثمانية وتعزيز سلطة الدولة العثمانية في المدينة المنورة وذلك بغية الحد من نفوذ شريف مكة ونوابه و إحداث التوازن بين هذه السلطات في حكم المدينة المنورة [3]، وبشكل عام يمكن تحديد الفئات الحاكمة في المدينة المنورة كما وردت في كتب الرحلات على الشكل التالي :

أولا : **سلطة شيخ الحرم** :

كان لشيخ الحرم مكانة كبيرة في الحجاز حيث كان يمثل السلطة السياسية العليا في المدينة المنورة، وقد كانت ترتبط به جميع السلطات الأخرى، وهي تتصل مباشرة بالأستانة، وحسب ما تُورده المصادر التاريخية كان يتم اختيار شيخ الحرم من فئة العلماء الأتراك الذين مارسوا وظيفة القضاء أو الإفتاء في اسطنبول[4]، وعادة ما كانت مدة تعيينه تستمر لسنة واحدة حيث يُستبدل بغيره،، وأمّا بخصوص مهام شيخ الحرم فإنها كانت تتمثل قي الإهتمام بشؤون الحرم النبوي والإشراف على إحياء المناسبات الدينية بالإضافة إلى فض المنازعات التي تشهدها المدينة المنورة[5].

---

[1] نواب، المرجع السابق، ص 197

[2] عبد الباسط بدر، المرجع السابق، ص ص 333، 334.

[3] عويضة بن متيريك الجهني، "سلطة أشراف مكة ونفوذهم في المدينة المنورة خلال القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي"، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع 16، السنة 8، 2007م، ص 88.

[4] علي حافظ، **فصول من تاريخ المدينة المنورة**، ط3، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، السعودية، 1996، ص 35.

[5] راجية اسماعيل أبو زيد اسماعيل، "المدينة المنورة في عهد الدولة السعودية الأولى"، مجلة بحوث الشرق الأوسط، ع 43، 2017م، ص ص 302، 303.

يذكر المؤرخون أنه كان لشيخ الحرم مقر خاص يزاول فيه وظيفته يسمى بالدار الكبرى، كما كان له مقر آخر لأسرته ولخدمه يطلق عليه الدار الصغرى[1]، زيادة على ذلك كان يتبع شيخ الحرم عدد كبير من الأغوات، وهؤلاء الأغوات كان لهم نفوذ كبير في تسيير الشؤون الداخلية للمدينة المنورة، فهم يتقاضون معاشاتهم من الأستانة، كما أنهم يستفيدون كذلك على الهبات والتبرعات التي تقدم للحرم، وحسب ما تفيدنا به كتب الرحلات حافظ شيخ الحرم على نفوذه إلى غاية القرن الثامن عشر لكن بعد دخول المدينة المنورة تحت حكم الوهابيين تقلصت صلاحياته وأصبحت سلطته صورية[2].

ثانيا: سلطة القاضي الشرعي :

ورد في رحلة بيركهارت أن قاضي المدينة المنورة كان يعين ويرسل مباشرة من الأستانة، حيث يقضي مدة سنة في المدينة المنورة ثم ينتقل منها إلى مكة المكرمة، وقد كان يعمل تحت رئاسته أربعة مفتين، مفتي المذهب الحنفي ومفتي المذهب الشافعي، ومفتي المذهب المالكي، فضلا عن المذهب الحنبلي[3]، وقد أكد العياشي في رحلته على سلطته الكبيرة حيث ذكر أنه كان يتمتع بالاستقلالية فهو لا يخضع لأي سلطة أخرى بما في ذلك سلطة شيخ الحرم أو حاكم العسكري[4].

وحسب ما توضحه المصادر التاريخية كانت الدولة العثمانية تولي القضاة في الحرمين الشريفين أهمية كبيرة حيث كان يتم اختيارهم من فئة العلماء البارزين ، كما كانت تخصص لهم رواتب سنوية[5]، وقد ذكر أوليا جلبي بأنها تبلغ حوالي 500 أقجة [6]، هذا وقد هدفت الدولة العثمانية من خلال تعيين قاضي المدينة إلى تعزيز السلطة العثمانية وتقويتها إذ كان القاضي يشارك في تسيير شؤون المدينة، حيث كان يحضر مجلس الإدارة الذي كان يعقده شيخ الحرم لمناقشة الأحداث التي تشهدها المدينة، كما كان قاضي المدينة المنورة يقوم بمراقبة سياسة القوى السياسية والعسكرية التي تشاركه في الحكم ويرسل التقارير للدولة العثمانية عن ذلك[7].

---

[1] بن متيريك الجهني، المرجع السابق، ص 82.

[2] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 325، 326

[3] نفسه، ص 326.

[4] الردادي، المرجع السابق، ص 34.

[5] محمد عبد اللطيف هريدي، **شؤون الحرمين الشريفين في العهد العثماني في ضوء الوثائق التركية العثمانية**، ط1، دار الزهراء للنشر بالقاهرة، مصر، 1989م، ص 33. أنظر أيضا : فؤاد بن ضيف بن صالح المغامسي، **المدينة المنورة في عهد السلطان عبد المجيد 1839– 1861**، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ، كلية الدعوة أصول الدين ، المملكة العربية السعودية ، 2015م، ص 138.

[6] جلبي، المصدر السابق، ص 114.

[7] بن متيريك الجهني، المرجع السابق، ص 87.

ثالثا: سلطة الحاكم العسكري:

كان يطلق عليه أيضا تسمية محافظ المدينة، وقد تمثل دوره الأساسي في المحافظة على الأمن الداخلي[1]، ويذكر بيركهارت في رحلته أنه كان يتم تعيينه في البداية من طرف السلطان العثماني، لكن بعد حالة التراجع التي أصابت الدولة العثمانية أضحى يختار من قبل الحامية العسكرية المتواجدة بالمدينة المنورة، ومن الذين تولوا هذا المنصب وأشارت إليهم كتب الرحلات حسن آغا القلعي الذي أسهب بيركهارت في وصف سياسته [2] .

رابعا: سلطة المحتسب:

كان من بين أهم مهامه تنظيم الأسواق والسهر على تطبيق العقوبات على المخالفين للنظام، لكن الملاحظ أن سلطة المحتسب قد تراجعت في القرن التاسع عشر، وذلك ما أكده بيركهارت في رحلته[3].

وتجدر الإشارة أن هذا النظام الإداري الذي كان سائدا في المدينة المنورة قد عرف تحولا، ففي مطلع القرن التاسع عشر، وبعد خضوع المدينة المنورة لسيطرة الوهابيين سنة 1804م، اتبع الأمير سعود لتسير شؤونها نظاما مختلفا، حيث فقد شيخ الحرم نفوذه وغادر المدينة المنورة، كما تلاشت كذلك سلطة الحاكم العسكري، وفي مقابل ذلك عين الوهابيون حاكم للمدينة، وهذا يعني أنه بعد أن كانت السلطة في عهد العثمانيين موزعة على عدة قوى أضحت في ظل حكم الدولة السعودية الأولى تقتصر فقط على حاكم المدينة [4].

لكن هذا النظام لم يدم طويلا فحينما دخل بيركهارت إلى المدينة المنورة وجد أن السلطة في المدينة قد عادت إلى ماكانت عليه حيث تزامن دخوله إليها مع وجود طوسون باشا فيها، والذي عين واليا على الحجاز وتولى محاربة الوهابيين[5] .

---

[1] حافظ، المرجع السابق، ص 35.

[2] بيركهارت ، المصدر السابق، ص ص 325،326

[3] نفسه، ص ص 313، 314

[4] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 325، 326.

[5] عبد الباسط بن عبد الرزاق بدر، "الحياة السياسية والاقتصادية بالمدينة المنورة في رحلة بيركهارت"، مجلة مركز البحوث ودراسات المدينة المنورة، ع 29، 2009م، ص ص 93- 96.

3.2 الطائف:

لا تقدم لنا متون الرحلات معلومات كثيرة عن التنظيم السياسي والإداري لمدينة الطائف، غير أنه و بالعودة إلى مصادر تلك الفترة نجد أن هذه المدينة كانت تخضع لحكم أمير مكة المكرمة الذي كانت له سلطة كبيرة عليها، وهي بذلك كانت خارجة عن نطاق السيطرة العثمانية[1]، أما عن الكيفية التي كان يتم من خلالها تسيير شؤونها فإن المصادر تذكر أنه كان لأمير مكة نائب في هذه المدينة يطلق عليه وكيل الطائف أو قائم مقام وكان يدخل ضمن مهامه فرض الأمن في الطرق والتفاوض مع القبائل العربية فضلا عن إدارة الشؤون الداخلية للمدينة [2].

4.2 جدة :

لا نعثر في كتابات الرحالة على وصف شامل يكفي لإعطاء صورة دقيقة للتنظيم الإداري والسياسي لمدينة جدة، ذلك أن معظم الرحالة الأوروبيين الذين زاروها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انصب اهتمامهم أكثر على وصف النشاط الاقتصادي و رصد ملامح الحياة الاجتماعية بها، وعلى الرغم من ذلك نجد بعض الرحالة من أمثال دومينجو باديا و نيبور و بيركهارت وشارل ديديه قد قدموا إشارات متفرقة يمكن من خلالها التعرف ولو بشكل نسبي عن طبيعة النظام الإداري السياسي القائم فيها .

اكتسبت مدينة جدة خلال العهد العثماني مكانة كبيرة ذلك أنها كانت تعدّ أحد أهم المراكز التجارية في الحجاز، ولما كانت الدولة العثمانية تخشى من تزايد نفوذ الأشراف في هذا الإقليم فإنها عملت على تعيين حاكم عليها برتبة وزير[3]، وقد أكد نيبور هذا الأمر حيث لاحظ خلال تواجده بهذه المدينة أن السلطة السياسية فيها كانت في يد شخص يلقب بالوزير، وهذا الحاكم كان في الواقع نائبا عن شريف مكة، و قد كان يتم اختياره من فئة الأشراف في مكة [4].

وبحسب ما يورده بيركهارت لم تكن سلطته تقتصر على مدينة جدة فحسب، بل كانت تشمل أيضا منطقة سواكن والحبشة اللتان كانتا تابعتان إلى ممتلكاته قبل دخول محمد علي إلى الحجاز، ومما لفت نظر الرحالة بيركهارت كذلك أن حاكم جدة كان لا يتمتع بأي نفوذ أو سلطة وإنما كان مجرد أداة في يد شرفاء

---

[1] نواب ، المرجع السابق، ص 206.

[2] متعب ماطر مطر البلادي، "المؤسسات الحكومية في العهد العثماني بالطائف 1840م-1916م"، مجلة مدارات تاريخية ، ع 6، جوان 2020م، ص 254.

[3] هريدي، المرجع السابق، ص 39.

[4] نيبور، المصدر السابق، ص 237.

مكة فهو يخضع لحكمهم[1]، وقد وافقه في هذا الرأي شارل ديديه أيضا، حيث ذكر في رحلته أن الباشا الذي كان يعين على مدينة جدة كانت سلطته صورية ومما يؤكد ذلك أن شريف مكة كان يستولي على عوائد الجمارك التي توجد بهذه المدينة [2].

5.2 مدينة ينبع:

تؤكد الإشارات الموجزة التي يوردها بعض الرحالة عن مدينة الينبع أن التنظيم الإداري والسياسي لهذه المدينة لم يكن يختلف عن ما كان سائدا في مدينة الطائف، إذ كانت تخضع هي الأخرى لسلطة شريف مكة، فقد كان يمثله فيها حاكم يطلق عليه تسمية الوزير، ومما يلاحظ أن هذا التنظيم قد طرأ عليه بعض التحول خاصة بعد ظهور الحركة الوهابية، وفي هذا السياق نجد أن دوميجو باديا قد ذكر في رحلته أنه عقب سيطرة الوهابيين على الحجاز دخلت مدينة الينبع تحت نفوذ الإمام سعود الذي كان له قاضي ينوب عليه هناك [3].

و كذلك يزودنا ابراهيم رفعت الذي زار المدينة المنورة بما شاهده من تنظيمات إدارية في زمن رحلته، حيث لاحظ أنه كان لمدينة ينبع محافظ، ونائب عنه، كما كان يوجد مجلس إدارة يتألف من المحافظ وستة أعضاء، أضف إلى ذلك وجد بالينبع أيضا مجلس بلدي يضم ثلاث أعضاء، هذا بالإضافة إلى فرقة من الجنود[4]، ويدل هذا الوصف أن التنظيمات الإدارية بهذه المدينة قد اختلفت من فترة إلى أخرى، وهذا تبعا للتغيرات والتطورات السياسية التي شهدتها الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

---

[1] بيركهارت، المصدر السابق، ص 47.

[2] Charles Didier, **Séjour Chez Le Grande – Chérife De La Mekke** ,librairie de l hachette ,paris , 1857, p 168

[3] Domingo Badia Y Leblich, **Voyage D'ali Bay El Abbassi En Afrique Et En Asie Pendant Les Annees 1803, 1804,1805,1806, 1807**, T 3, De L'imprimerie De P .Didot L'ainé Mdccxiv,Sd, P 39.

[4] رفعت باشا، المصدر السابق، ج2،ص 13.

المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

1. الزراعة :

يعتبر النشاط الزراعي من أهم الأنشطة التي مارسها أهل الحجاز بعد مهنة التجارة، وإذا ما تأملنا فيما سجله الرحالة عن هذا الجانب، فإننا نلاحظ أن حديثهم قد اقتصر على تقديم لمحة عن أهم المنتوجات الزراعية التي كانت تشتهر بها الحجاز، هذا بالإضافة إلى تطرقهم كذلك إلى مصادر المياه، كما نجد في رحلاتهم أيضا وصفا للثروة الحيوانية .

1.1 المحاصيل الزراعية:

أجمع الرحالة المغاربة والأوروبيين على وفرة الإنتاج الزراعي وتنوعه في الحجاز، فبالرغم من المناخ الجاف الذي كان يسود في هذه المنطقة، إلا أن سقوط الأمطار في بعض الفترات و وجود الأبار والعيون قد ساعد بشكل كبير في إنتاج أنواع مختلفة من المحاصيل الزراعية[1]، ومما يلاحظ أنه كان هناك تفاوت في الإنتاج الزراعي من منطقة إلى أخرى، حيث اشتهرت بعض المناطق بكثرة مزارعها وحقولها خاصة في المدينة المنورة، بينما بالمقابل كانت هناك مدن أخرى كمكة المكرمة تميزت بنشاط زراعي ضئيل، وذلك يرجع حسب ما يورده الرحالة إلى اهتمام سكانها بممارسة مهنة التجارة[2].

وبصفة عامة يمكن تقسيم أنواع المحاصيل الزراعية التي عرفتها منطقة الحجاز حسب ما أوردته كتب الرحلات إلى ما يلي:

أولا: النخيل والتمور

عرفت زراعة النخيل انتشارا واسعا، حيث لا تخلو جل الرحلات من الإشارة إلى مزارع النخيل الموجودة في الحجاز، وقد أفادنا بيركهارت بأن التمور كانت تشكل الغذاء الأساسي لسكان الحجاز والطبقات الفقيرة عامة[3]، ومن أهم المناطق التي اشتهرت بإنتاجه نجد المدينة المنورة بالإضافة إلى الينبع والطائف والعقبة، و مويلح ورابغ، وتشير نصوص الرحلات كذلك إلى انتشار زراعة النخيل ببعض الأودية الخصبة مثل وادي خليص ووادي فاطمة[4]، ومما لفت انتباه الرحالة المغاربة والأوروبيين أنه كانت توجد أصناف عديدة من التمور في الحجاز حيث يبلغ عددها أكثر من مئة نوع منها: العجوة و البرني و الصيحاني و الحلية، والجبلي

[1] عبد الكريم كريم ، "بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية "، مجلة العرب، ع 3، 4، السنة 12، المملكة العربية السعودية، أكتوبر 1977م، ص 191.

[2] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 159، 273، 294.

[3] نفسه، ص 297.

[4] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 326، 329،341، 345،353، 358، 446. أنظر أيضا، ابن طوير الجنة ،**رحلة المنى**...، المصدر السابق، ص 58.

وغيرها [1]، ووفقا لما أرده بعض الرحالة يبدو أن التمور الحجازية تميزت بنوعيتها الجيدة، ففي مقارنته بين تمور المدينة المنورة و تمور بلده درعة يقول الفقيه الحيوني:"وفيها اللحم الكثير والتمر أكثر، وهو كتمر بلدنا أو أشد حلاوة منه..."[2]، ونظرا لوفرة التمور في الحجاز وتعدد أنواعها فقد أكدت نصوص الرحلات أنه كان من ضمن أهم المنتجات الزراعية الموجهة إلى التصدير [3].

ثانيا: الحبوب:

اهتم أهل الحجاز بزارعة مختلف أنواع الحبوب، وخاصة القمح والشعير والذرة، فقد كانت تعدّ مصدرا أساسيا لمعيشة السكان، ومن أهم المناطق التي تركزت فيها زراعته حسب ما أفادنتا به النصوص الرحلية المدينة المنورة فقد ذكر بيركهارت أنه كانت تحيط بها مزارع كثيرة أغلبها مخصصة للحنطة والشعير[4]، واشتهرت منطقة رابغ كذلك بزراعة الحبوب حيث وصفها محمد بن عبد السلام الناصري بقوله:" ورابغ قرية فيها نخيل وآبار كثيرة ووادي يأتي إليها من بعيد وتزرع فيه مقاتي كثيرة ودخن وذرة "[5]، ورغم كثرة مزارع الحبوب في الحجاز إلا الملاحظ أن إنتاجها لم يكن يكفي لسد حاجيات سكانها من جهة وحاجيات الزائرين الذين يتوافدون لأداء مناسك الحج، وفي هذا الشأن أوضح نيبور أنه كان يتم استيراد جزء كبير من هذه الغلال من مصر وبلاد الشام[6].

ثالثا: الخضر والفواكه:

اشتهرت الحجاز بإنتاج مختلف أنواع الخضر والفواكه، وقد أشار الرحالة المغاربة إلى وجود هذه المنتجات في معظم المناطق الحجازية، فمحمد بن عبد السلام الناصري يقول واصفا ما شاهده أثناء زيارته:" والخضر كثير سيما الباذنجال الكثير و القرع بأنواعه الجيد"[7]، وقد أضاف الدرعي على ما ذكره الناصري من أنواع الخضر والفواكه ما رآه بالمدينة المنورة فذكر أنّها تمتاز بوجود أصناف كثيرة وقد قال في الشأن:" وفواكه

[1] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 296، 297.
[2] الحيوني، المصدر السابق، ص 83.
[3] دولتشين، المصدر السابق، ص 220.
[4] بيركهارت، المصدر السابق، ص 294.
[5] الدرعي ، المصدر السابق، ص 353.
[6] نيبور ، المصدر السابق، ص 236 .
[7] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 583.

المدينة المشرفة في غاية الجودة خصوصا عنبها ورطبها، وأما الخضر فأكثرها وجودا الجزر والباقلا والملوخية والبصل واللفت والخضر البرية ليس بها إلا الخبيز"[1].

إنّ الملاحظ أن هناك مناطق اشتهرت أكثر من غيرها في زراعة هذه المحاصيل كمدينة الطائف ووادي فاطمة ووادي خليص، حيث أجمع الرحالة على أن هذه المناطق كانت تعدّ المصدر الرئيسي الذي يمد المناطق الأخرى بحاجاتها، و أما عن أهم الخضر التي زُرعت في الحجاز وذُكرت من طرف الرحالة الملوخية و اللفت و الباذنجال و الجزر و البامية، والبصل، والسبانخ و الفجل و الكراث، وأمّا فيما يخص الفواكه فإن أكثرها وجودا كان التمر والرمان والسفرجل والخوخ والدراق والليمون والموز والبرتقال والتين والبطيخ[2]،كما وُجدت أيضا فاكهة "الدلاع" الذي ذكر محمد بن عبد السلام الناصري أنه يسمى عندهم بالحبحب، وهذه الفاكهة لا تنقطع عن الحجاز إلا في مواسم الجذب[3]، زيادة على ذلك يذكر أحمد بن ناصر الدرعي أن مزارع الكروم كانت موجودة بكثرة في الحجاز خاصة في بلدة مدين فقد كان إنتاج العنب بها يتم مرتين في السنة [4].

لم يكن الإنتاج الزراعي في الحجاز يقتصر على ما ذكرناه سالفا فحسب، بل رصد الرحالة المغاربة والأوروبيين كذلك وجود زراعات أخرى مثل نبات البرسيم الذي يستخدم كغذاء للحيوانات[5]، وإلى جانب ذلك وجدت كذلك بعض الأشجار البرية مثل شجرة الأراك التي تنتشر زراعتها بين الطائف ومكة المكرمة والتي تستخدم لصنع السواك[6]، ومنها أيضا أشجار الطلح التي تعد من أنواع الكلأ الذي تتغذى به الإبل[7]، كما انتشرت أيضا في نواحي مكة أشجار السدر والحنظل[8]، هذا إضافة إلى وجود أشجار الأثل التي تكثر مزارعها في العديد من المناطق كعسفان وخليص، وشجر البلسم[9].

---

[1] الدرعي ، المصدر السابق، ص 541.

[2] بيركهارت، المصدر السابق، ص 34.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 444.

[4] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 608، 609.

[5] بيركهارت، المصدر السابق، ص 295

[6] محمد بن عبد السلام الناصري ، المصدر السابق، ص 430.

[7] الدرعي ، المصدر السابق، ص 339.

[8] السبعي، المصدر السابق، ص 62.

[9] الطيب الفاسي الشرقي ، المصدر السابق، ص 187 . أنظر أيضا: بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 258- 297.

ومما يلاحظ على الإنتاج الزراعي في الحجاز أنه كان يتأثر سلبا بالعديد من العوامل الطبيعية فمثلا تذكر نصوص الرحلات أن السيول الجارفة التي كانت تتعرض لها المدن الحجازية في بعض الفترات كانت تتسبب في إتلاف وتدمير المحاصيل الزراعية وهو ما يؤكده قول محمد بن عبد السلام الناصري: "وهذه البلاد الحجازية مطرها قليل، وإن نزل كان طوفانا في لحظة لكثرة الجبال والأودية والشعاب المتطاولة بها، وربما نزل المطر في بعض الأماكن منه فيتضرر ما لم يره ولا علامته بنحو ذلك من السيول الطارقة"[1].

وفضلا عن ما كانت تخلفه السيول، كان لحدوث الجفاف والقحط تأثير على الإنتاج الزراعي حيث تشير المصادر إلى أن المواسم التي كان يعم في الجفاف غالبا ما كان يقل فيها الإنتاج ويصاحب ذلك ارتفاع في الأسعار[2]، وزيادة على ذلك شكلت بعض الحشرات تهديدا للمحاصيل الزراعية فقد كانت موجات الجراد التي تجتاح الحجاز في بعض المواسم تؤدي إلى تدمير الإنتاج الفلاحي، ومثال ذلك ما حدث في موسم 1076هـ-1661م[3].

2.1 مصادر المياه:

مما لا شك فيه أن من أسباب ازدهار النشاط الزراعي في الحجاز هو توفر المقومات الطبيعية خاصة المياه المستخدمة في ري الأراضي الزراعية، إذ وحسب ما ورد في المصادر الرحلية توفرت في الحجاز مصادر مياه عديدة يمكن حصرها في ما يلي:

الأمطار:

تعد المصدر الرئيسي الذي كانت تعتمد عليه الزراعة في الحجاز رغم قلتها، وفي هذا الشأن يذكر العياشي أنه نتيجة لتساقط الأمطار في موسم 1662م حدث خصب كثير في مكة المكرمة وأنحائها[4]، ومما يشير كذلك إلى أهمية الأمطار في عملية ري المحاصيل الزراعية ما رواه بيركهارت عن منطقة المناخة إذ يقول: "يتحول المناخ خلال الأمطار الغزيرة إلى بركة كاملة بين المدينة والضواحي، وتغمر المناطق الجنوبية بطبقة

---

[1] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص ص 431، 432.

[2] يصف دومينجو باديا تأثير الجفاف على الانتاج الزراعي في مكة المكرمة حيث يقول: " نتيجة لهذا القحط السائد في هذه البلدة لا يمكن العثور تقريبا عن أي نباتات حول المدينة أو في الجبال المحيطة بها ... فلا يمكن العثور في مكة على أي شكل من الحدائق أو المراعي الخضراء ، كما لا يتمكن هؤلاء من زرع أي حبوب نظرا للأرض القاحلة". أنظر : badia y leblich, op,cit,t 2, p409 .

[3] فوزية كرراز، "بعض المظاهر الاقتصادية ببلاد الحجاز من خلال الرحلات المغربية من القرن 11هـ/ 17م" ، مجلة الدراسات التاريخية و الاجتماعية، ع 50، نواكشط، 2021م، ص 9.

[4] العياشي، المصدر السابق، ج2، ص 143.

رقيقة من المياه، ويرحب السكان بتلك الفيضانان الخفيفة لأنّها تعِد بالخير فهي لا تروي نخلهم بغزارة فجسب، لكنها كذلك تنشر الخضرة على السهول النائية التي يسكنها البدو ..." [1].

الأبار والعيون:

كان يوجد بالحجاز آبار كثيرة ومتعددة منها ما هو مخصص للشرب ومنها ما كان يستخدم لري المحاصيل الزراعية، وعلى ما يبدو أن بعض هذه الآبار قد استمر استخدامها منذ عهود قديمة، حيث اعتبرت المصدر الثاني الذي اعتمد عليه أهل الحجاز في الزراعة بعد مياه الأمطار، وقد أجمع جل الرحالة على أهميتها في سقي المحاصيل فذكر بيركهارت أنه كان لكل بستان بئر خاص به وأن السواقي تروي الحقول كل باستمرار [2]، كما أشار محمد بن عبد السلام الناصري وغيره من الرحالة المغاربة إلى وفرة آبار السقي في كل من المدينة المنورة و رابغ و مويلح ودار أم السلطان [3]، ومن أشهر هذه الأبار بئر أريس وبئر بضاعة وبئر رومة، وبئر غرس وغيرها [4].

وأما فيما يتعلّق بالعيون فالملاحظ وفرتها أيضا في الحجاز، فالورتلاني عند وصفه لمدينة الينبع ذكر أن بها "حدائق ونخيل وعيون بين زروع تسيح وتسيل"[5]، ووجدت في منطقة خليص أيضا عيون استخدمت لري الحقول والبساتين المجاورة إذ يذكر محمد بن عبد السلام الناصري عند وصفه لها أن" الماء سيق في قنوات محكمات من العين يتفجر عنها، ويبرز في مواضع للسقي والوضوء إلى أن أُخرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية، وهو ماء زلال تزرع عليه زروع ومقاتي" [6]، ومن بين أبرز العيون التي تكررت الإشارة إليها كذلك في نصوص الرحلات المغاربية والأوروبية "العين الزرقاء" التي كان لها قنوات تحت الأرض تصل مياهها إلى معظم البساتين في المدينة المنورة والمناطق المجاورة [7].

---

[1] بيركهارت، المصدر السابق، ص 275.

[2] نفسه، ص 274.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ،**الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 426. الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص 405.

[4] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 507_ 514.

[5] الورتلاني، المصدر السابق، ج1،ص 414.

[6] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى**، المصدر السابق، ص 206.

[7] الدرعي ، المصدر السابق، ص 508.

الأودية:

لا تخلو رحلة من الرحلات المغاربية إلا وأشارت إلى كثرة الأودية بالحجاز، فقد اعتبرت هذه الأخيرة من مصادر المياه الهامة في النشاط الزراعي، أمَا عن أهم الوديان التي وجدت بالحجاز وذكرتها مصنفات الرحالة فنجد من أهمها وادي النبط الذي وصفه أحمد بن ناصر الدرعي بأنه: "وادي كبير يجري بين جبلين"، بالإضافة إلى وادي رابغ الذي امتاز بخصوبته حيث كان تزرع على جوانبه مقاتي كثيرة مثل الدخن والذرة[1]، ومن ضمن الأودية الأخرى المشهورة في الحجاز كذلك وادي فاطمة ووادي العقيق و وادي بطحان ووادي قناة وغيرها من الأودية[2].

وبحسب ما يشير إليه محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته فإن غزارة مياه هذه الوديان تكون بحسب كثرة مياه الأمطار أو قلتها [3].

3.1 الثروة الحيوانية:

كان الحجاز يتوفر على ثروة حيوانية متنوعة، ومما ساعد على ذلك كثرة وجود المراعي من جهة وتنوع الإنتاج الزراعي من ناحية ثانية[4]، وبالرجوع إلى ما سجله بعض الرحالة عن أصناف الحيوانات نلاحظ أن أهل الحجاز اشتهروا بتربية أنواع عديدة منها الإبل والخيول و الغنم و البقر و الضأن و الحمير، فقد كانوا يستخدمون بعضها في المواصلات والنقل، بينما كان البعض الآخر منها موجها إما للاستهلاك أو لإنتاج بعض المواد الغذائية كالسمن و اللبن [5].

أجمع الرحالة على الإشارة إلى أن الإبل والجمال كانت موجودة بأعداد وفيرة في الحجاز[6]، وقد اشتهر بتربيتها بالخصوص فئة البدو حيث كانت تنتشر تربيتها بكثرة في المناطق الموجودة خارج المدن والتي تتوفر على المراعي الخضراء كالينبع و الطائف، و للإشارة كانت الإبل تستخدم في الحجاز كوسيلة نقل هامة، إذ كان يتم من خلالها نقل المؤن و السلع[7]، كما أن الحجاج كانوا يستخدمونها كذلك لحمل بضائعهم والتنقل بين المناطق

---

[1] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 340- 353.

[2] الورتلاني، المصدر السابق، ج2، ص ص 604- 609.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 437.

[4] نواب، المرجع السابق، ص 363.

[5] الغيغائي، المصدر السابق، ص 166.أنظر أيضا: badia y leblich , op,cit , t 2 , p417, 418

[6] Richard Burton **, Personal narrative of a Piligrimage To Medinah And Meccah**, V 2, London , 1857 , p 16

[7] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 169- 321.

الحجازية، وفي هذا الصدد ينبغي التنويه إلى أن الحجاج كانوا يتحصلون على الإبل بطريقتين مختلفتين الطريقة الأولى هي الكراء وفي هذا يقول الغيغائي: " اكترينا الأجمال لحمل الأثقال[1]، وأما الطريقة الثانية فكانت عن طريق الشراء وهذا ما يوضحه قول السبعي:" اشترى بعض أصحابنا جملا بنيف وثلاثين ريالا وحملنا عليه بعض المحتاج إليه لمنى مع ركوبه"[2].

وأما بالنسبة للخيول فإن نصوص الرحلات لا تسعفنا بمعلومات كثيرة عنها، غير أن بيركهارت ودومنجو باديا قد أوردا أن أعدادها كانت قليلة في مدينتي جدة و المدينة المنورة[3]، فالسكان لا يحتفظون بها، وكل ما كان موجودا منها كان ملكا للتجار الأثرياء أو لشيخ الحرم وحاشيته[4].

و يقدم لنا بيرتون في رحلته وصفا للأغنام في الحجاز فيذكر أنّها تمتاز بوفرتها خاصة في المدينة المنورة، ويورد أيضا أنه كانت هناك ثلاثة أنواع من الماشية في الحجاز، الصنف الأول يتميز بكبر حجمه وكان في العادة منتشرا في نجد، وأمّا الصنف الثاني فيمتاز بصغر حجمه، وبخصوص الصنف الثالث من الأغنام فإن بيرتون يذكر أنّها كانت تجلب من بلاد فارس وهي تمتاز عن غيرها بلونها الأبيض ورؤوسها السوداء العريضة[5]، وأشار محمد بن عبد السلام الناصري من جانبه إلى أن الغنم كان يتم جلبها كذلك من بلاد الشام حيث قال عنها: " وأما الغنم فلا تسأل عن رخائها جيء بها كغيرها من الفواكه من بلاد الشام"[6]، و أمّا بالنسبة للماعز فيذكر لنا عبد العزيز دولتشين أن البدو قد اختصوا بتربيتها، حيث كانوا يستفيدون من لحومها و حليبها [7].

وينقل لنا شارل ديديه هو الآخر وصفا عاما للثروة الحيوانية، لكن الذي أثار انتباهه هو العجول و الأبقار، إذ يصفها بأنّها ذات حدبات،كما أنّها تمتاز بصغر حجمها مقارنة بمثيلاتها في أوروبا[8]، وقد أيّد السبعي ما ذكره شارل ديديه حيث أشار إلى أنه كان يوجد في مكة المكرمة كثير من البقر المسنم[9]، وإضافة

---

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 159.

[2] السبعي، المصدر السابق، ص 53.

[3] يذكر بيركهارت أن من بين أسباب قلة الخيول في المدينة المنورة هو قيام أصحابها ببيعها عندما دخل الوهابيون ، حيث كانوا يتخوفون من التجنيد الإجباري. للمزيد أنظر: بيركهارت، المصدر السابق، ص 321.

[4] نفسه، ص 321. أنظر أيضا : badia y leblich,op,cit , t 2, p417, 418

[5] Burton, op,cit , p 17

[6] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الصغرى**، المصدر السابق، ص 198.

[7] دولتشين، المصدر السابق، ص 140.

[8] didier , op,cit , p 219

[9] السبعي، المصدر السابق، ص54.

إلى ما ذكره شارل ديديه والسبعي لاحظ دمينجو باديا أنه كان يوجد بمكة صنف آخر من البقر بدون قرون في رأسها، وهذا الصنف حسبه كان يصلح للركوب وحمل الأثقال، ومن ضمن مميزاته كذلك أنه يدر الكثير من الحليب واللبن[1].

ومن أصناف الحيوانات التي وردت الإشارة إليها في كتب الرحلات الحمير، حيث أشاد بيركهارت بمدى قدرتها على التحمل، وقد ذكر بأنّها تتواجد بكثرة في المدينة المنورة حيث كان يقوم المزارعون بتربيتها للاستعانة بها في نقل محاصيلهم الزراعية من الحقول[2].

وللإشارة فإن الثروة الحيوانية بالحجاز لم تقتصر على ما ذكرناه سالفا، إذ تمدنا نصوص الرحلات ببعض الإشارات التي تؤكد اهتمام الحجازيين كذلك بتربية النحل، حيث كان منتوج العسل يُعدّ من بين الأغذية الأساسية لأهل الحجاز[3]، وقد لاحظ كل من الرحالة عبد العزيز دولتشين و الفقيه الحيوني وفرة إنتاجه فيذكران أن البدو كانوا يأتون به من الجبال و البوادي لبيعه في الأسواق خلال موسم الحج[4].

2. الصناعة

إنّ المتفحص لكتب الرحلات يلاحظ أن لا تمدنا بمعلومات كثيرة عن النشاط الصناعي في الحجاز، غير أن بعض الإشارات المقتضبة التي أوردها بعض الرحالة تُبين لنا أن أهل الحجاز مارسوا صناعات وحرف متنوعة وهذه الصناعات يبدو أنّها لم تكن من الصناعات الكبرى، وإنما اتسمت أغلبها بكونها من الصناعات اليدوية التي تكفي لسد حاجياتهم اليومية فحسب، ومما ساعد على تنوع الصناعات في الحجاز حسب ما تشير الدراسات هو توفر بعض مواد الخام هذا بالإضافة إلى جود اليد العاملة [5].

تعد الصناعة الخشبية من أهم الصناعات التي اشتهرت بها الحجاز، وقد أشارت نصوص الرحلات إلى ذلك حيث لاحظ ليون روش وجود صناعة للشبابيك الخشبية في مكة المكرمة[6]، وذكر العياشي أن بعض من الحجازيين قد تخصص في صناعة الرحل التي توضع على الدواب، وقد اشتهر نوع منها يطلق عليه إسم

---

[1] badia y leblich, op,cit , p .420

[2] بيركهارت، المصدر السابق، ص 321.

[3] نفسه، ص 34 .

[4] الحيوني، المصدر السابق، ص 57. أنظر أيضا: دولتشين، المصدر السابق، ص 136.

[5] نواب ، المرجع السابق، ص 351.

[6] ليون روش، **اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز** ، تر: محمد خير محمود البقاعي، ط1، جداول للنشر والتوزيع ، لبنان، 2011، ص 121.

"الشقدف "، وهو نوع من المحامل الكبيرة التي لا توجد إلا في الحجاز[1]، وحسب ما يورده بيركهارت كانت الحجاز تتوفر على المادة الأولية لهذه الصناعة فقد كانت تكثر في مزارع الحجاز أشجار الآثل التي تتميز بنوعية خشبها المتين الذي يستخدم في صناعة سروج الجمال وكل الأدوات التي تتطلب مقبضا صلبا[2].

زيادة على ذلك كانت صناعة الحلي والمجوهرات من أبرز الصناعات الشائعة في الحجاز، وقد أبدى كثير من الرحالة إعجابهم بهذه الصناعة حيث وصفها كورتلمون بقوله: "صناع مهرة يصنعون مصوغات جميلة متقنة مثل السلاسل من الذهب والفضة..."[3]، ووفقا لما يذكره الغيغائي كان يوجد بمكة المكرمة سوق مستقل بالمجوهرات وهذا السوق يقع بالقرب من الحارة الشامية[4] .

وانتشرت في الحجاز كذلك صناعة الفخار، والذي يؤكد ذلك أن بيركهارت قد ذكر أنه كان في مكة المكرمة وبالتحديد في معاملة أحد أحياء مكة حوالي عشرين فرنا يصنع فيها الجرار المزخرفة التي تستخدم في نقل مياه زمزم،[5]، وفي نفس السياق لاحظ بيركهات أيضا صناعة الرحى لطحن الحبوب والغلال وهي نوعين الأولى ذات حجم صغير موجودة بكثرة في المنازل، أمّا الأخرى فهي من الحجم الكبير وهي تستخدم في المطاحن العامة التي تمتلكها الدولة العثمانية[6]، ومن الصناعات التي زاولها أيضا أهل الحجاز صناعة الجلود، حيث أدى توفر الثروة الحيوانية إلى انتشار هذه الصناعة في العديد من المدن، إذ كان يصنع منها الدلاء التي تستخدم لحفظ الماء بالإضافة إلى القرب الكبيرة التي تستعمل هي الأخرى لرفع المياه من الآبار[7]، وإضافة إلى ذلك كان أهل الحجاز كانوا يصنعون من الجلود السروج التي توضع على الدواب[8]،كما ذكر بيركهارت من جانبه استخدام الجلود كذلك في صناعة الأحذية والنعال [9].

---

[1] العياشي، المصدر السابق، ج2، ص 137، أنظر أيضا: نواب، المرجع السابق، ص 354.

[2] بيركهارت، المصدر السابق، ص 297.

[3] Gervais – Courtellemont,Jules**, Mon Voyage A La Mecque**, 2 Ed , Librairie Hachette , Paris,1896, P 88 , 89.

[4] الغيغائي، المصدر السابق، ص 166.

[5] بيركهارت، المصدر السابق، ص 107.

[6] نفسه، ص 110

[7] حياة بنت مناور الرشيدي ، **تاريخ الحياة الاقتصادية في بلاد الحرمين من خلال كتب الرحالة في العصر العثماني الحرف اليدوية و الصناعات التقليدية أنموذجا** ، د، ب،ن، دت، ص ص 26، 27.

[8] عبد الحفيظ حمان، "الحياة العامة في بعض مدن الحجاز في مطلع القرن التاسع عشر من خلال رحلة دومينغو باديا"، مجلة الدارة، ع 2، مج 38، 2002م ، ص 116.

[9] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 107- 159.

و إضافة إلى ما سبق ذكره يبدو أن أهل الحجاز اشتهروا كذلك بالصناعة الغذائية التي ترتكز على الإنتاج الزراعي و الحيواني، وفي هذا الصدد نعثر في نصوص الرحلات على إشارات كثيرة تشير إلى أن البدو قد برعوا في صناعة بعض المنتوجات كالسمن و الجبن، والزبدة وغيرها من المنتوجات الغذائية الأخرى التي كانت تعج بها الأسواق[1]، وكذلك كانت الصناعة النسيجية من بين الصناعات التي عرفتها الحجاز منذ القدم حيث انتشرت هذه الصناعة على نطاق واسع، فقد كانت تمارس في المنازل و في المحلات المخصصة للنسيج، ومن أبرز العوامل التي أدت انتشارها هو التبادل التجاري بين الحجاز و الدول المجاورة كمصر وبلاد الشام والهند، فقد كان يتم جلب من هذه البلدان مختلف أنواع الكتان و الأقمشة، ورغم انتشار هذه الصناعة إلاّ أنّها كانت تكفي فقط لسد حاجيات السكان [2].

ومن الصناعات الأخرى التي وجدت في الحجاز وأشارت إليها نصوص الرحلات نجد صناعة العطور التي يذكر الفقيه الحيوني أنه كان لها سوق خاص بها في المدينة المنورة[3]، كما وجدت أيضا صناعة للحصير والسلال[4] وصناعة السبحات التي كانت تلقى رواجا كبيرا عند الحجاج[5]، فضلا عن صناعة الأسلحة و الصباغة التي اشتهرت بها مكة المكرمة[6] .

والجدير بالذكر أنه رغم ما ذكره الرحالة الأوروبيين عن أنواع الصناعات في الحجاز إلا أننا نجدهم قد أجمعوا على تراجع النشاط الصناعي وضعفه بشكل عام، ففي المدينة المنورة يذكر بيركهارت أنّها كانت تفتقر إلى الحرفيين فلم يكن يوجد بها على حد قوله لا صناعة للنسيج ولا صناعة فخارية و لا حتى صناعة للجلود، ومما يدل على قلة الصناعة بها أن مصر كانت تزودها بجميع حاجياتها نزولا إلى أبسط السلع والمنتجات، ولم يختلف الوضع بالنسبة لمكة المكرمة فهي الأخرى بحسب ما جاء في رحلة بيركهارت كانت تشهد أيضا ضعفا في الصناعة، حيث لم يكن سكانها يولون أهمية لممارسة الصناعة وهذا لتفضيلهم العمل ببعض المهن المرتبطة بالحج وكذا التجارة، ويسترسل بيركهارت في ذكر تراجع الصناعة وعزوف أهل الحجاز

---

[1] الحيوني، المصدر السابق، ص 57. أنظر أيضا: الدرعي، المصدر السابق، ص 322. دولتشين، المصدر السابق، ص 140.

[2] نهلة بنت شحات عمر محبت، **الحياة الاجتماعية في ولاية الحجاز زمن الحكم العثماني في الفترة مابين عامي 1517م–1744م**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ تخصص التاريخ الحديث والمعاصر، كلية التربية للبنات بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 2002م، ص ص 420، 421.

[3] الحيوني، المصدر السابق، ص 70.

[4] بيركهارت، المصدر السابق، ص318.

[5] didier, op,cit , p 125

أنظر أيضا : دولتشين المصدر السابق، ص 190

[6] بيركهارت، المصدر السابق، ص 159.

عن ممارستها فيقول في موضع آخر من رحلته: "إنّ الصناع الوحيدين الذين نجدهم في المدينة المنورة هم الحجاج الفقراء المعدومين خاصة أولئك القادمين من سوريا، يسعون عبر العمل الجاهد خلال بعض الأشهر لكسب المال الكافي لتأمين رحلتهم إلى الديار، وهم يعملون فقط في فترات متقطعة، وتصبح المدينة المنورة عند رحيلهم بدون أي حرفيين"[1].

وانطلاقا من هذا القول يتضح أن بعض المدن الحجازية كانت تفتقر إلى الحرفيين وأن أغلب الصناعات التي كانت موجودة آنذاك كان يقوم بها بعض الحجاج الذين يستقرون لفترة من الزمن لتأمين نفقات عودتهم إلى موطنهم، وفي الواقع إن هذه الملاحظة لم يشير إليها بيركهارت فحسب، فبيرتون الذي زار الحجاز أورد نفس ما ذهب إليه بيركهارت حيث قال في معرض حديثه عن أجور العمال في موسم الحج:" إن معظم الحرفيين الذين يمارسون صناعة الفخار أو الحدادة و النجارة "إما عبيد أو أجانب ومعظمهم من مصر"[2].

وبمقارنة ما ذكره الرحالة الأوروبيين مع ما جاء في الرحلات العربية نلاحظ أن هناك توافقا فقد أكد البنتوني على تراجع النشاط الصناعي في مكة المكرمة فأوضح أن" الصناعة فيها غير مهمة وهي لا تخرج عن صياغة بعض القطع الذهبية أو الفضية ... والحدادة عندهم ضعيفة، وفيها من مصانع الفخار لعمل الدوارق والقلل وكل ذلك في يد الأجانب أيضا، أما الأهالي فأغلبهم يعيش من مهنة التطويف ..."[3].

ويعزوا الرحالة بيرتون وبيركهارت أسباب ضعف النشاط الصناعي في المدن الحجازية إلى عدة عوامل نذكر منها: "اعتماد جزء كبير من أهل المدينة المنورة في معيشتهم على الهبات التي ترسلها الدولة العثمانية والتي تسمى بالصرة وعلى عوائد الأوقاف والتبرعات للمسجد النبوي"، أضف إلى ذلك الإرث القديم الذي يميز أهل الحجاز فقد أشار بيرتون و بيركهارت أن الحجازيين تربوا على احتقار ممارسة الحرف اليدوية، فهم يعتبرون الحرفيين مهما بلغت براعتهم في الصناعة من الطبقات الدنيا، ولعلّ ذلك ما أدى إلى نقص الاهتمام بالنشاط الصناعي الذي أصبحت تقتصر مزاولته على الحرفيين الذين يأتون من البلدان المجاورة، ومن العوامل التي أدت إلى ضعف الصناعة كذلك حسب بيركهارت هو عدم تشجيع الحكام للنشاط الحرفي[4].

---

[1] بيركهارت، المصدر السابق ، ص ص 316 ، 317 .

[2] Burton, op,cit, p 9

[3] محمد لبيب البنتوني، **الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر** ،ط2، مطبعة الجمالية ، مصر، دت ، ص ص 60، 61.

[4] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص159- 317. أنظر أيضا:

Burton, op,cit, p 9, 10.

ومما ينبغي الإشارة إليه أنه كان لموقع الحجاز دور كبير في توجيه سكانها إلى اشتغال بالتجارة و عدم الاهتمام بمزاولة النشاط الحرفي والصناعي إلا ما كان ضروريا منها، فقد كانت القوافل التجارية التي تفد على الحجاز خلال كل موسم تزود السكان وتملأ الأسواق بمختلف أنواع المصنوعات و الأدوات التي يحتاجونها[1].

وقبل أن نختم الحديث عن مميزات النشاط الصناعي بالحجاز وجب الإشارة إلى أنه نظرا لتوافد الحجاج ظهرت بالحجاز العديد من المهن والحرف المرتبطة بالحج، وقد أشارت كتب الرحلات إلى بعضها كمهنة الطوافة[2] التي وصفها بيركهارت بأنّها من أهم المهن التي زاولها سكان مكة[3]، و مهنة الأدلاء التي تقوم على إرشاد الحجاج و تقديم كافة الخدمات لهم، ومهنة الصرافة التي تقوم على بيع وشراء العملات المحلية والأجنبية خصوصا خلال موسم الحج، ومن بين المهن التي وجدت في الحجاز كذلك مهنة الحمالين التي تحدث عنها شارل ديديه [4]، ومهنة السقائين و البنائين وغيرها من المهن الأخرى [5].

3.التجارة

1.3 الأسواق

إذا ما أردنا أن نتتبع ما سجله الرحالة المغاربة والأوروبيين عن خصائص التجارة الداخلية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فإننا نلاحظ أن كتاباتهم ارتكزت بشكل أساسي على وصف الأسواق وذلك لما لها من أهمية كبيرة في ازدهار وتنشيط التجارة الداخلية، فقد كانت هذه الأخيرة تعد ملتقى للتجار و مركزا لتبادل السلع و المنتوجات.

[1] نادية بنت وليد الدوسري،" التجارة الداخلية في مكة المكرمة في مطلع القرن الثالث عشر هجري التاسع عشر ميلادي من خلال رحلة بيركهارت"، مجلة الدارة، مج 31، ع4،2005م، ص ص 21، 23. أنظر أيضا: بيركهارت، المصدر السابق، ص 159.

[2] الطوافة: مهنة قديمة النشأة في الحجاز، اقتصرت ممارستها على أهل مكة بالخصوص، وهي تقوم على استقبال المطوف للحجاج القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، ورعاية كافة شؤونهم، وذلك من خلال تزويدهم بكل ما يحتاجونه بدءا بتوفير مكان الإقامة وتزويدهم بالطعام والشراب، وإرشادهم إلى جميع مناسك الحج وأحكامه سواء كان في مكة المكرمة أو في أحد المشاعر المقدسة كالمزدلفة أو منى . للمزيد أنظر: شحات عمر محبت، المرجع السابق، ص 426- 429.

[3] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 163-165.

[4] didier, op,cit, p 124.

[5] للتوسع في المهن التي انتشرت في الحجاز. أنظر: عبد الرحمن سعد العرابي، "الحرفيون في جدة في القرن التاسع عشر" ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الآداب والعلوم الإنسانية ، مج 23،2016م، ص ص 35-42.

و قبل أن نتحدث الأسواق و مميزاتها في الحجاز ينبغي الإشارة أن أول ملاحظة لفتت أنظار الرحالة الأوروبيين وتحدثوا عنها في معرض وصفهم للحالة الاقتصادية في الحجاز هي الاهتمام الكبير لأهل الحجاز بممارسة التجارة، فقد كانت هذه المهنة من أكثر المهن التي احترفوها واعتمدوا عليها لكسب قوتهم اليومي[1].

وفي الواقع يبدو أن طبيعة البلاد والمنطقة هي التي فرضت على أهل الحجاز منذ القدم ممارسة هذا النوع من الأنشطة، وقد أشار القرآن الكريم إلى شهرة مكة المكرمة في التجارة، ولعلّ ذلك ما نستشفه من قوله تعالى:" **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** "[2] .

زيادة على ذلك إنّ ما ساعد على شيوع مهنة التجارة لدى أهل الحجاز هو موسم الحج حيث شكل مناسبة يتوافد فيها الحجاج من كافة أنحاء العالم الإسلامي، فنتيجة لذلك كانت تنشط الأسواق التجارية وقد تحدث أغسطس رالي على أهمية موسم الحج في إنعاش التجارة، فمكة المكرمة مثلا كانت تتحول خلال أيام الحج إلى أكبر معرض للبيع والشراء في العالم الإسلامي، حيث تمتلئ الأسواق بمنتوجات وسلع العديد من البلدان مما يساهم في زيادة حركة التبادل التجاري[3].

لقد تميزت الحجاز بكثرة أسواقها، فقد كانت توجد أسواق تنتمي إلى بلدان مختلفة مثل السوق اليمنى و السوق الهندي والسوق الشامي و السوق المصري[4]، كما وجدت أيضا أسواق أخرى اشتهرت بتخصصها في نوع واحد من أنواع السلع والتجارة كسوق الماشية وسوق الخشب وسوق الخضر التي كانت تقام بمدينة جدة والتي أشار إليهما كل من بيركهارت و شارل ديديه[5]، وسوق العطارين وسوق المجوهرات وسوق الحدادين وغيرها من الأسواق الأخرى[6].

---

[1] أشار بيركهارت في معرض حديثه عن سكان مكة المكرمة أنهم يزاولون مهنتين لا ثالث لهما هما: التجارة وخدمة البيت الحرام ، لكن بيركهارت قد ذكر أن مهنة التجارة كانت تحضى بالأفضلية عند أهل مكة المكرمة ولا يختلف الأمر بالنسبة لسكان جدة فكلهم تقريبا يشتغلون بالتجارة ، ولا يزاولون مهنا وحرفا أخرى باستثناء بعض المهن التي تكون الحاجة إليها ملحة، وأما بالنسبة للمدينة المنورة فقد لاحظ بيركهارت ركود الحركة التجارية فيها، ويرجع سبب ذلك حسبه أن معظم سكانها كانوا يشتغلون إما بالزراعة أو في خدمة المسجد النبوي. أنظر: بيركهارت: المصدر السابق، ص ص 24- 159،311،

[2] سورة قريش.

[3] Ralli , op, cit , p 17, 18.

[4] محمد فهيم بيومي، **ملامح النشاط الإجتماعي في مكة المكرمة خلال القرن الثاني عشر للهجرة**، د.ط، د ب ن، دت، ص 76.

[5] بيركهارت، المصدر السابق، ص 22. أنظر أيضا : Didier, op,cit, p 130

[6] Courtellemont ,op,cit, p 88, 89.

ويضاف إلى ما سبق ذكره وجد في الحجاز نوع ثالث من الأسواق هو الأسواق الموسمية التي تتشكل خلال موسم الحج، ومما ينبغي الإشارة إليه في هذا الصدد أن الحج لم يكن يعتبر مناسبة دينية فحسب، بل كان يُعدّ أيضا مجالا وفرصة لإزدهار النشاط التجاري[1] في الحجاز حيث كان الحجاج يفدون إلى مكة المكرمة حاملين معهم بضائعهم ومنتجات بلدانهم لتبادلها مع منتجات البلدان الأخرى، وهكذا كانت تتحول المحطات التي تتوقف بها قوافل الحج إلى أسواق موسمية مؤقتة تنشط فيها حركة البيع والشراء و يتم فيها تبادل السلع بين مختلف البلدان[2]، وقد أشار أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته إلى هذا النوع من الأسواق ففي وصفه لمدينة الينبع ذكر أنه: "كانت تقوم بها سوق كبيرة بين الأعراب والحجاج يوجد فيها غالب المحتاج، وتجلب إليها البضائع والسلع ذوات أثمان، ويجلب إليها من الثمار والفواكه والحبوب والفول شيء كثير"[3].

ومن الأسواق الموسمية التي أشارت إليها كذلك المصادر ونصوص الرحلات سوق منى الذي يرتبط بقدوم الحجاج، وهو يمتاز بأنه من الأسواق الكبيرة التي تعج بالملابس الفاخرة و أصناف الفواكه والخضر والأواني والجواهر الثمينة والخرز[4]، هذا بالإضافة إلى سوق رابغ الذي وصفه محمد بن عبد السلام الناصري بأنه سوق عظيم يباع فيه كل ما يحتاج إليه الحجاج من طعام و ملابس و نعال وغيرها من السلع الأخرى[5].

و مما يلاحظ على الأسواق الحجازية أنّها كانت منتشرة في كافة أنحاء الحجاز سواء في المدن الكبرى أو في البوادي، ولا تكاد توجد قرية أو مدينة مر عليها الرحالة إلا و ذكروا ما وجد بها من أسواق، ففي مكة المكرمة كان يوجد العديد من الأسواق التي تشهد حركة تجارية كبيرة خاصة خلال موسم الحج، ومن أهم هذه الأسواق التي ورد ذكرها في كتب الرحلات سوق الليل الذي يتوفر على جميع ما يحتاج إليه الحجاج وسوق الشامية[6] الذي تخصص ببيع الأقمشة التركية و الهندية، ومنها أيضا السوق الصغير الذي كانت تباع فيه

---

[1] يذكر المؤرخون أنه وجدت عدة عوامل ساهمت في ازدهار التجارة في الحجاز خلال موسم الحج، و من أبرز هذه العوامل نجد : تخفيض الرسوم الجمركية المفروضة على السلع التي يصطحبها الحجاج معهم لتصريفها في الحجاز ، إضافة إلى جهود الدولة العثمانية لتأميل قوافل الحج حيث أقيمت الحاميات العسكرية و أنشئت الحصون عبر الطرق الرئيسية التي تسلكها القوافل، ومما ساعد كذلك على ازدهار التجارة في الحجاز امتلاك التجار المصاحبين لقوافل الحج لوكلاء تجاريين في الحجاز حيث أدى ذلك إلى انتعاش النشاط التجاري، كما كان لتعدد العملات المختلفة وانتشارها دور هي الأخرى في زيادة النشاط التجاري خلال موسم الحج . للمزيد أنظر : حمساء بنت حبيش رزاح ماضي آل قويد الدوسري، "قوافل الحج والتجارة ودروبها المختلفة إبان العصر العثماني 1517-1803م"، مجلة كلية الآداب بقنا، ع 48، 2018م، ص ص 674-676.

[2] نفسه ، ص 673.

[3] الدرعي، المصدر السابق، ص 342

[4] نفسه، ص 448. أنظر أيضا: رفعت باشا، المصدر السابق، ج1، ص 53.

[5] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى**، المصدر السابق، ص 200.

[6] الغسال، المصدر السابق، ص 115.

أنواع المؤن كلها كالحبوب واللحوم ومختلف أنواع الخضر والفواكه[1]، كما اشتهر من أسواق مكة المكرمة سوق المسعى الذي يتميز بكثرة ازدحامه خاصة في أيام المواسم[2]، وسوق المعلا وسوق القشاشية الذي يقع غرب المسجد الحرام [3].

وتميزت المدينة المنورة هي الأخرى بأسوقها العامرة، حيث يذكر الفقيه الحيوني أنه كان يوجد بها سوق براني يعرف بسوق الملخ وسوق دخلاني يمتد من باب الحرم النبوي إلى سوق الملخ، وتخصص هذا السوق حسب ما يذكر ببيع اللحوم والتمور بأنواعها المختلفة، وكذلك من أسواق المدينة المنورة التي رصدها الحيوني سوق العطور وسوق العبيد الذي كانت تعرض فيه الإيماء الحبشيات والسودانيات، وقد أتيحت للحيوني فرصة زيارة هذا السوق[4]، وقد تحدث عنه أيضا الرحالة بيرتون، حيث روى أنه كان يباع فيه العبيد الذين يتم استقدامهم من مكة المكرمة، وهم في الغالب من أصل شركسي وقد استعرض في رحلته الأسعار التي يباع بها هؤلاء العبيد والجواري[5]، كما كان من أشهر أسواقها أيضا سوق باب السلام الذي يمتد من باب السلام بالمسجد النبوي إلى الباب المصري، وقد كانت تقام فيه تجارة الحبوب والخضر والفواكه[6] .

ويضيف ليون روش كذلك من أسواق المدينة المنورة المشهورة سوق البلاط[7]، وفي تتبعهم للحركة التجارية بالمدينة المنورة عدَد بيركهارت كذلك بعض الأسواق التي شاهدها هناك، ومن أهمها سوق المناخة الذي كان يعتبر مركزا لتداول السلع والمؤن، ويتضح من خلال وصفه لهذا السوق بأنه كان من أكبر الأسواق في المدينة المنورة فهو يضم العديد من المحلات التجارية المشيدة من الجريد، ويفيدنا بيركهارت كذلك بأن المتاجر التي تتواجد بسوق المناخة تتميز بالازدحام الكبير حيث كان يفد إليها البدو لتبادل المؤن، وأما عن ما كان يعرض في هذه السوق من سلع ومنتجات فقد اشتهر ببيع الحبوب والخضر والتمر والزبدة[8] .

---

[1] بيركهارت، المصدر السابق، ص 98.

[2] الدرعي، المصدر السابق، ص 366. أنظر أيضا: الطيب الفاسي الشرقي ، المصدر السابق، ص 196.

[3] للتوسع أكثر في أسواق مكة المكرمة أنظر: أشواق بنت حمزة محي الدين مليباري، **الأسواق في مدينة مكة المكرمة دراسة في النشأة والتطور** والتوزيع ، رسالة لنيل شهادة الماجيستير في الجغرافيا، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية، 1430هـ، ص ص 42-44.

[4] الحيوني، المصدر السابق ص ص 69،70، 83.

[5] Burton, op,cit, p 12 , 13

[6] رفعت باشا ، المصدر السابق، ج1، ص ص 441، 442.

[7] ليون روش، المصدر السابق، ص 79.

[8] بيركهارت، المصدر السابق، ص 272.

وكانت مدينة جدة تحتوي هي الأخرى على أسواق كثيرة، إذ يحدثنا شارل ديديه عن وجود سوق عظيمة بها قام بزيارتها وسجل انطباعاته عنها، حيث وصف ذلك السوق بأنه يمتد على طول المدينة ويتصل بشارعان رئيسين، وكان هذا السوق الذي أتيحت له زيارته من الأسواق العامرة، إذ كانت توجد به مختلف المنتوجات والبضائع وخاصة منها السلع الأجنبية التي يتم جلبها من بلاد الشام و مصر وبلاد فارس و الهند، كما كانت تسود فيه حركة كبيرة حيث كان يشهد ازدحاما في كل الأوقات[1].

واتسمت مدينة الينبع هي الأخرى بأنّها كانت تحتوي على أسواق كثيرة فعند زيارة الورتلاني لها وصفها بقوله:" وفيها أسواق كثيرة فلا تكاد تنعدم فيها الخيرات، وتقضي بها جميع الحاجات وفيها غالب الحبوب والثمرات وكذا الخزير أعني الدلاع وجميع الأقوات والمشهيات "[2].

وعلى ما يبدو عرفت الأسواق في الحجاز تنظيما دقيقا فقد كان يشرف عليها المحتسب الذي كان من مهامه الرئيسية تنظيم حركة البيع والشراء فيها وكذا الوقوف على المخالفات التي يقوم بها التجار وفرض العقوبات الزجرية على من يخل بالشروط المعمول بها في عملية البيع والشراء[3].

والجدير بالذكر أن الأسواق الحجازية قد تميزت بحركة تجارية واسعة حيث أجمع أغلب الرحالة المغاربة والأوروبيين على تنوع السلع والمنتوجات المعروضة بها، وقد أفادنا الحضيكي بما يؤكد ذلك حيث وصف سوق منى بأنّها سوق عامرة تحتوي على بضائع متنوعة من حلي وتحف عجيبة و أقمشة وأنواع الملابس التي تأتي من الهند وخرسان واليمن وأنواع الطيب واللحوم و الخضر والفواكه[4]، ومن جهته أشاد الدرعي بما تحتويه أسواق الطائف من منتوجات متنوعة حيث قال عن ذلك:" في هذا البلد أسواق حافلة يحضرها الناس من أطراف البلد، ويجلب إليها الحبوب والثمار والزبيب والعسل مما قضينا العجب من كثرته بحيث يخيل إلينا أنا لم نرى مثل ذلك في الكثرة في الأسواق العظيمة"[5].

ويعلل الرحالة الأوروبيين الرواج التجاري و تنوع المنتوجات في الأسواق الحجازية بتنوع مصادر المواد التجارية، حيث حدد لنا بيركهارت وبيرتون ثلاث مصادر رئيسية كانت تزود الأسواق في الحجاز بالمؤن والسلع المختلفة، يتمثل المصدر الأول في القوافل التي تأتي عبر الموانئ وخاصة ميناء جدة والينبع، وكانت معظم

---

[1] didier, op,cit,p 124

[2] الورتلاني، المصدر السابق، ص 440.

[3] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 313، 314. أنظر أيضا: براهيم جلال أحمد، "عوامل ازدهار الأسواق في مكة المكرمة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي"، المجلة التاريخية المصرية، مج 53، القاهرة، 2021م، ص ص 78، 79.

[4] الحضيكي، المصدر السابق، ص 103.

[5] الدرعي ، المصدر السابق، ص 448.

تلك القوافل على حد تعبير بيركهات تأتي من مصر، وكل قافلة من تلك القوافل كانت تصل إلى الحجاز كل أسبوعين[1]، أما المصدر الثاني فيتمثل في قوافل البدو حيث كانت تقوم بينهم وسكان المدن تجارة نشطة[2].

وقد ذكر كل من بيركهارت و الورتلاني أنهم يزودون المدينة المنورة بمنتوجات عديدة كالسمن و الغنم و العسل و الإبل والفحم النباتي والعلف، بينما يأخذون مقابل ذلك ما يحتاجون إليه من الحنطة والثياب، وحسب بيركهارت كانت ترد هذه القوافل على المدن محملة بالسلع في كل أسبوع وهي في الغالب تتكون من عشرة إلى خمسة عشر جملا [3].

وأمّا فيما يتعلّق بالمورد الثالث فقد تمثل في أركاب الحج التي تأتي من البلدان المختلفة كالقافلة المصرية والقافلة اليمنية والقافلة المغربية وقافلة الحج الشامي ، فهذه الأخيرة تشير المصادر الرحلية أنّها كانت تحمل معها العديد من السلع و المنتوجات، وقد أفادنا العياشي بما يؤكد أهميتها، حيث ذكر أن أهل المدينة المنورة لا ينتفعون بركب بقدر انتفاعهم بركب أهل الشام، فهم يأتون بتجارة كثيرة وطعام و وزيت وأشربة[4]، وأشار بيرتون إلى نفس الملاحظة حيث أكد أن القافلة الشامية كانت تزود الحجاز بالفواكه المجففة وأدوات الزينة و التمباك و السكاكين و الحلويات[5] .

كانت مزاولة التجارة بالأسواق الحجازية لا تقتصر فقط على السكان المحليين، بل على العكس من ذلك، حيث كان التجار بهذه الأسواق ينتمون إلى بلدان مختلفة كاليمن و المغرب[6] وبلاد الشام ومن الهند و البصرة، كما يوجد التجار الأتراك و المصريون و الماليزيون وغيرهم من الأجناس الأخرى[7]، ورغم هذا التنوع في جنسيات التجار ينبغي الإشارة أن التجار الهنود قد استطاعوا السيطرة على التجارة في الحجاز حيث أجمع الرحالة الأوروبيين والمغاربة على مدى نفوذهم ودورهم التجاري خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وفي هذا السياق نجد الحسن الغسال قد أكد على دورهم فذكر أن جل تجارة مكة المكرمة كانت بيد الهنود[8].

---

[1] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 311، - 314. أنظر أيضا : المغامسي، المرجع السابق، ص 217.

[2] Burton, op,cit, p 9 .

[3] بيركهارت، المصدر السابق، ص 314. أنظر أيضا الورتلاني ، المصدر السابق، ج 1، ص ص395،396.

[4] العياشي، المصدر السابق، ج 1، ص 385.

[5] Burton, op,cit, p 9

[6] أشار بيركهارت في رحلته إلى تاجرين مغربيين كان لهما دور تجاري كبير في مدينة جدة هما: " سيدي العربي الجيلاني" و"السقاط"، وقد ذكر أن عائلتيهما كانت قد استقرت منذ القدم في الحجاز كما وصفهما بأنهما من أغنى التجار في مدينة جدة حيث كانت ثروتهما تتراوح مابين مئة وخمسين إلى مائتي ألف جنيه أسترليني. أنظر: بيركهارت: المصدر السابق ، ص ص 15- 24.

[7] didier, op,cit,p 124 , 125 .

[8] الغسال، المصدر السابق، ص 122.

ومن جهته أسهب بيركهارت هو الآخر في الحديث عن تجارة الهنود، ومما يدل على احتكارهم وسيطرتهم على التجارة الحجازية هو أنه ذكر بأن التجارة في الحجاز تمارس بواسطة سماسرة وأغلب هؤلاء السمامرة هم من الهنود، ويضيف بيركهارت بأن التجار الهنود يعتبرون من أكثر الطبقات ثراء في مكة المكرمة فكان جزء منهم مستقر في الحجاز، ومنهم من كان يسافر باستمرار ذهابا وإيابا بين الهند و الحجاز، وأكد بيركهارت كذلك أن التجار الهنود كانوا يدخلون في علاقات تجارية مباشرة مع موانئ الهند كما أنه يمكنهم تكبد البيع بسعر أرخص من منافسيهم"[1].

ومن ناحية أخرى إن ما يميز الأسواق الحجازية هو مشاركة المرأة في عمليات البيع، حيث لاحظ أحمد بن ناصر الدرعي خروجها ومزاولتها للنشاط التجاري وذلك عند قدوم ركب الحج الشامي، وهو ما اعتبره من العادات الذميمة حيث قال عن ذلك:" ولأهل المدينة عند قدومه عادة مذمومة وهي أنه لا تبقى مخدرة من النساء شريفة كانت أو وضيعة إلا خرجت تباشر البيع والشراء بنفسها[2].

وأما بخصوص الأسعار في الحجاز فقد لاحظ معظم الرحالة المغاربة عند زيارتهم للأسواق وجود تفاوت في أسعار المنتوجات من منطقة إلى أخرى، ومما أكدوا عليه أيضا أن السلطات المحلية لم تكن تقوم بمراقبة أسعار السلع و المنتوجات في الأسواق الحجازية خاصة في موسم الحج، ولعلّ هذا ما نستشفه من خلال حديث أحمد بن ناصر الدرعي الذي يقول فيه:" وأما أيام الموسم لا سعر معلوم ولا مكيال واف ولا ميزان صحيح، كل يفعل ما يشاء ولا يتكلم الولاة في شيء من ذلك[3]، وبمقارنة ما ذكره الدرعي مع ما أشار إليه بيرتون نلاحظ أن هناك توافقا في الرأي، حيث أكد بيرتون في معرض حديثه عن الحركة التجارية بالمدينة المنورة أنه على الرغم من وجود المحتسب الذي كان يشرف حركة البيع والشراء و ضبط الأسعار، إلا أن أسعار البضائع في سوق المدينة المنورة كانت تتضاعف بشكل كبير لاسيما خلال موسم الحج[4].

وفي الواقع يبدو أن هناك عوامل كثيرة تحكمت في تحديد أسعار المنتوجات المعروضة في الأسواق الحجازية، وتأتي في مقدمة هذه العوامل" موسم الأمطار"، فحسب ما يشير إليه العياشي كانت أسعار المنتوجات والسلع ترتبط ارتباطا وثيقا بقلة الأمطار أو كثرتها، فغلاء المنتوجات في الأسواق الحجازية كان يحدث أكثر في المواسم التي تشهد جفافا أو قحطا، في حين كانت تنخفض وتقل هذه الأسعار في الفترات التي

[1] بيركهارت، المصدر السابق، ص 162.

[2] الدرعي ، المصدر السابق، ص 479.

[3] نفسه، ص 534.

[4] Burton, op,cit, p 10.

تكون فيها وفرة في الأمطار[1]، وإذا كان العياشي قد أشار إلى تأثير الأمطار على أسعار المنتوجات فإن بيركهارت قد أضاف عاملا ثانيا كان له هو الآخر دور في غلاء الأسعار وهو عدم انتظام قدوم القوافل التي تحمل المؤن سواء كان ذلك نتيجة لأسباب أمنية أو غير ذلك، وفي هذا الشأن أوضح بيركهارت أنه عندما كانت القوافل التي تزود المدينة المنورة بالسلع والمؤن تتأخر في الوصول، كان كبار التجار يقومون باحتكار السلع في مخازنهم ، الأمر الذي كان يؤدي إلى ندرة وشح المنتوجات في الأسواق من جهة وارتفاع أسعارها من جهة أخرى[2] .

وزيادة على ما سبق، كان للظروف السياسية المضطربة في الحجاز تأثير في ارتفاع أسعار المنتوجات، فقد أدى عدم الاستقرار و انتشار اللصوصية إلى إلحاق الضرر بالنشاط التجاري عامة[3]، وقد قدم لنا عبد العزيز دولتيش ما يؤكد ذلك، ففي معرض حديثه عن انتشار اللصوصية في الحجاز يذكر أنه في 1898م قامت قبائل بني حرب بإبقاء الطريق الذي يربط بين الينبع والمدينة المنورة مغلقا لمدة ثمانية أشهر وذلك لعدم قدرة القوافل على دفع الإعانة المخصصة لهؤلاء البدو، وقد نتج عن ذلك ارتفاع في أسعار جميع المؤن والسلع الرئيسية[4] .

لم يفت الرحالة المغاربة والأوروبيين وهم يصفون الأسواق الحجازية أن يتحدثوا كذلك عن طبيعة العملات المتداولة في الحجاز، ووفقا لما سجلوه في مصنفاتهم يتضح لنا جليا أن أنواع النقود التي كانت رائجة في المنطقة كانت متنوعة و متعددة، ولعلّ من أهم العملات التي عرفت رواجا في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر التاسع عشر النقود التركية والمصرية كالقرش العثماني و الديواني و الليرة المصرية، وقد أكد نيبور أنّها كانت تعد من المسكوكات الرئيسية وأكثر تداولا واستخداما في المعاملات التجارية، فالحجاز خلال هذه الفترة لم تسك أي عملة فيها بل ظلت تابعة اقتصاديا إلى الدولة العثمانية[5]، وفضلا عن انتشار النقود التركية والمصرية في الحجاز وجدت أنواع أخرى من العملات سواء تلك التي صنعت من الذهب أو الفضة أو النحاس، ففيما يخص المسكوكات الذهبية أشار أحمد بن ناصر الدرعي أنه انتشر التعامل في الحجاز بالدينار

---

[1] العياشي، المصدر السابق،ج1، ص 456.

[2] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 313، 314.

[3] عبد القادر حليس، **الحجاز في بعض كتب الرحالة المغاربة ابن طوير الجنة الموريتاني ، أبو القاسم الزياني المغربي أبو راس الناصري الجزائري أنموذجا خلال القرنين 12هـ – 13هـ – 18م –19م**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية ، جامعة الجزائر2، 2017 – 2018م، ص 134

[4] دولتشين، المصدر السابق، ص ص 159، 160.

[5] نيبور، المصدر السابق، ص 238.

ويسمى أيضا شريفيا أو سلطانيا[1]، وأما بالنسبة للعملات الفضية فقد استخدم أهل الحجاز في معاملاتهم التجارية اليومية الريال وكان يسمى أيضا قرشا أو قيراطا، كما وجدت عملة أخرى تسمى بالمائدية، وحسب ما يذكر أحمد بن ناصر الدرعي كان أهل المدينة المنورة يسمونها كذلك "حرفا" وكانت مختلف العمليات البيع تتم بواسطتها[2].

وإلى جانب العملات السالفة الذكر راجت بعض العملات الأوروبية في الحجاز كالمارك الألماني و الروبية الهندية و الدولار الإسباني والأمريكي و الدرهم فضلا عن القطع الذهبية التي تأتي من البندقية والتي تسمى بالسكوين[3]، ومن المهم الإشارة في هذا السياق أن تنوع العملات وتعددها في الحجاز يعطي صورة واضحة على مدى انفتاح الدولة العثمانية على بلدان العالم، كما أنه يعكس إضافة إلى ذلك حجم التبادل التجاري القائم بين الحجاز و الدول الأخرى[4].

والجدير بالذكر أن المعاملات التجارية لدى أهل الحجاز لم تكن تقتصر على المعاملات النقدية فحسب ، بل وجد أيضا أسلوب المقايضة لكنه كان منتشرا بشكل محدود، وحسب بعض الإشارات المقتضبة التي تمدنا بها نصوص الرحلات يبدو أن البدو هم أكثر من استخدم المقايضة في المعاملات التجارية، حيث يذكر بيركهارت أنهم كانوا يزودون المدن الحجازية بالعسل و الزبدة و المواشي و الفحم النباتي و يأخذون بدلا من ذلك الحبوب والألبسة [5].

ومما يلاحظ على الأسواق الحجازية أنّها كانت تتأثر بالأوضاع والحالة الأمنية السائدة في الحجاز، حيث يحدثنا بيركهارت بأنه عندما انتشرت الحركة الوهابية في نجد شهدت التجارة في الأسواق ركودا كبيرا خاصة بعد توقف مجيء أركاب الحجيج والتجار إلى الحجاز، ولكن هذا الوضع حسبه لم يستمر طويلا إذ سرعان ما استرجعت الأسواق نشاطها المعتاد بعد أن هدأت الثورات الداخلية والحروب[6]، ومما يؤكد ذلك أن بيركهارت قد ذكر مانصه : "عندما تهدأ الثورات الداخلية سواء في نجد أو الحجاز فإنّها تنشأ حركة تجارية ضخمة مع البدو وخاصة سكان نجد الذين يحتاجون إلى البضائع الهندية والعقاقير والأودية و الملابس ..."[7].

---

[1] الدرعي ، المصدر السابق،ص 540.

[2] نواب ، المرجع السابق، ص 340. أنظر أيضا: أحمد بن ناصر الدرعي ، المصدر السابق، ص 540.

[3] بيركهارت، المصدر السابق، ص 45. أنظر أيضا: نيبور، المصدر السابق، ص 238.

[4] بيومي، **ملامح النشاط الاجتماعي**...، المرجع السابق ، ص 85.

[5] بيركهارت، المصدر السابق، ص 313.

[6] نفسه ، ص 23.

[7] نفسه، ص 160

2.3 الصادرات والواردات

كان للحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر علاقات تجارية مزدهرة مع العديد مع البلدان منها دول المغرب العربي و مصر و الهند و بعض الدول الأوروبية، وقد كان للموقع الجغرافي للحجاز دور مهم في تنشيط التجارة الخارجية حيث كانت عملية التبادل التجاري مع الدول المجاورة تتم عبر القوافل التجارية التي تأتي إلى الحجاز في كل موسم، كما كانت تتم أيضا بواسطة السفن حيث وجدت العديد من الموانئ التي كانت تعد مركزا للتبادل التجاري مع الأقاليم الأخرى[1].

ولقد أشار الرحالة المغاربة والأوروبيين إلى أهمية هذه الموانئ في الحجاز، فالحسن الغسال وصف لنا في رحلته مدينة جدة ودور ميناءها في ازدهار التجارة الخارجية، ومما ذكره عنها أنّها مدينة كبيرة تقع على ساحل البحر الأحمر، كما أكد أنها تعتبر مرسى الحجاز العظيمة، كانت تقوم فيها تجارة كبيرة وهي تعتبر مركز للصادرات والواردات في الحجاز[2]، ولا يختلف وصف بيركهارت عن وصف الحسن الغسال إذ أشاد هو الآخر بميناء جدة ودوره التجاري حيث قال عنه: " إن مدينة جدة لا تستمد ثرائها من كونها تعد ميناء لمكة فحسب، بل يمكن اعتبارها ميناء لمصر والهند والجزيرة العربية، فكل صادرات هذه البلدان إلى مصر تمر أولا على يد تجار جدة ... لذلك فإنّها تعتبر ربما أغنى من أي مدينة تضاهيها حجما من المدن الخاضعة لسيادة الأتراك"[3].

وأما نيبور فإنه يصف ميناء جدة بأنه مرفأ هام فهو مخزن للبضائع حيث يصل إليه في كل سنة سفن محملة من الهند و من السويس، هذا بالإضافة إلى القوافل التي تصلها عبر البر من مصر وبلاد الشام[4].

وإضافة إلى ميناء جدة كان ميناء ينبع البحر يعتبر ذا أهمية كبيرة في التجارة الخارجية للحجاز، حيث كانت تمر عبره المنتوجات المصرية و الأوروبية، وقد بين كثير من الرحالة ذلك، فبيرتون وصفه بقوله : "وينبع البحر... لها موقع ذو أهمية كبيرة، تشترك مع مواقع أخرى في أنّها بوابة للديار المقدسة...، ولكون الينبع ميناء المدينة المنورة كجدة التي هي ميناء لمكة المكرمة فإن بها تجارة نقل معتبرة، وتجارة استيراد كبيرة من موانئ غرب البحر الأحمر، تزود مدن الحجاز بالغلال والتمور" [5]، ومما يؤكد كذلك أهمية هذا الميناء ماقاله الورتلاني حيث وصفه بقوله : "فمن هناك تجلب الميرة إلى المدينة، فإن السفن الجالبة للطعام من مصر ما كان منها إلى المدينة

[1] أنظر الملحق رقم 17 : ص397.
[2] الغسال، المصدر السابق، ص 130.
[3] بيركهارت، المصدر السابق، ص 24.
[4] نيبور، المصدر السابق، ص 236.
[5] بيرتون، المصدر السابق، ص 185.

يرسى بينبوع البحر، وما كان منها لمكة يتجاوز إلى جدة، فإذا وصل الطعام إلى الينبوع حمل منها إلى المدينة "[1].

ويبدو من خلال ما أورده الرحالة عن الموانئ الحجازية أنّها ساهمت بشكل كبير في تنشيط التجارة الخارجية حيث كانت تعتبر مركزا لتبادل السلع والمنتوجات مع مختلف الدول المجاورة.

بالنسبة للعلاقات التجارية يشير بيركهارت في رحلته أن مصر و الهند كانت تعد من أكثر الدول التي كانت لها علاقات تجارية مع الحجاز خلال القرن التاسع عشر، حيث نشط التبادل التجاري بين الطرفين، وقد كانت الحجاز تعتمد على هاتين المنطقتين أكثر من غيرهما في استيراد العديد من المنتوجات[2]، فمن مصر يشير بيركهارت ونيبور أنه كان يجلب من هناك القمح[3] والأرزو الشعير والذرة والسكر والفول والعدس بالإضافة إلى الزبدة و الصابون والعسل والتبغ، وكذلك ملح النشادر والزعفران والبارود [4].

و حسب ما يشير إليه نيبور كانت مصر أيضا تزود الحجاز كذلك ببعض السلع الأوروبية، حيث كانت تمولها بالجوخ الفرنسي والقصدير والزئبق والرصاص والورق بالإضافة إلى الأسلحة والسيوف والزجاج و الأساور التي تستخدمها النساء في الزينة [5]، وأمّا عن المنتوجات التي كانت تأتيها من الهند فقد حددت نصوص الرحلات بعضها، حيث يشير بيركهارت ونيبور إلى منتجات كثيرة تمثلت في الأقمشة الهندية بأنواعها المختلفة بالإضافة إلى الأرز والفلفل الأحمر و السكر و التمر الهندي و العقود الزجاجية و الملاعق الخشبية، فضلا عن السبحات و المرايا والأواني النحاسية والكتان، والأحجار الكريمة والبهارت والعطور المختلفة، وكانت هذه المنتوجات وفقا لما أورده بيركهارت تلقى رواجا كبيرا في الأسواق الحجازية[6]، وإضافة إلى ما كانت تستورده بلاد الحجاز من الهند ومصر تفيدنا المصادر التاريخية ونصوص الرحلات أنه كانت هناك علاقات تجارية جمعت بين الحجاز ودول المغرب العربي وكذا بلاد الشام واليمن و اسطنبول و إن كانت هذه العلاقات لاتصل إلى المستوى الذي بلغته علاقاتها مع مصر والهند .

---

[1] الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص 411.

[2] بيركهارت ، المصدر السابق، ص 46

[3] أشار كذلك الرحالة سونيني الذي زار مصر خلال القرن الثامن عشر أن مصر كانت تعتبر المصدر أساسي الذي يزود الدول المجاورة ومنها الحجاز بالحبوب، حيث كانت هناك قوافل كثيرة تنطلق من صعيد مصر إلى ميناء قصير على البحر الأحمر، وهذه القوافل تحمل القمح وتمر إلى جدة ومنها إلى بقية المدن الحجازية . للمزيد أنظر : Sonnini, op,cit, t 2, p 257, 258

[4] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 37- 39 . نيبور ، المصدر السابق، ص 236.

[5] نيبور، المصدر السابق، ص ص 236، 237.

[6] بيركهارت، المصدر السابق،ص 40. نيبور، المصدر السابق، ص 237.

فأما عن أهم السلع التي كانت دول المغرب العربي تزود بها الحجاز عبر قوافل الحج نجد الطرابيش والطواقي والشيلان الكشميرية، وكذلك كانت تمدها بزيت الزيتون والنعال المغربية والبرانس، وفضلا عن ذلك كانت التجار المغاربة يحملون معهم أيضا إلى الحجاز الزعفران و عسل النحل و الزبيب و الأرز[1]، بالإضافة إلى مادة (الصمغ) الذي كان ينقل منه الحجاج جزء كبير إذ كان يستخدم في البخور[2]، وأما بالنسبة لما كان يجلب من بلاد الشام، فقد ذكر بيرتون بأن قوافل الحج كانت تحمل معها إلى المدن الحجازية الملابس والتبغ والفواكه المجففة واللحوم وأدوات الزينة[3]، كما كانت القوافل الشامية تمد الأسواق الحجازية كذلك بالحبوب والشاي والأقمشة و الأرز و السمن وغيرها من المنتوجات التي ينقلها الحجاج معهم خلال رحلة الحج [4].

زيادة على ذلك كان اليمن من بين الدول التي تزود الحجاز بالمنتوجات إذ تمثلت أبرز تلك المنتجات في البن والحنطة و الخشب، فقد كانت تصل في كل موسم السفن إلى ميناء جدة تحمل أجود الأنواع [5]، هذا فيما يخص الواردات، وأما فيما يتعلّق بما كانت تصدره الحجاز من منتجات، فإن نصوص الرحلات قد أشارت إلى بعض المنتجات المحلية التي كانت تنقل من موانئ جدة إلى الأقطار المجاورة، ومن أبرز هذه المنتجات نجد اللوز الطائفي و بلسم مكة الذي أشار نيبور أنه كان يرسل إلى الهند ،ومن المنتجات الأخرى التي كان يتم تصديرها إلى مصر البن اليمني و الحناء و البهارات و الأقمشة الهندية[6]، وأما عن أهم المنتوجات التي كانت الحجاز تزود بها المغرب، فيذكر لنا النابلسي منها البلح المجفف، كما كانت القوافل المغربية تأخذ معها الأقمشة القطنية و التمر الهندي و الزعفران و البخور بالإضافة إلى الأرز و السكر ولوازم النسيج والعطور وغيرها من المنتوجات الأخرى[7]، وفيما يتعلّق ببلاد الشام فإن المصادر قد ذكرت أن القافلة الشامية أثناء عودتها من الحجاز كانت تحمل معها سلعا كثيرة منها المنسوجات والأقمشة الهندية و البن اليمني و الأحجار الثمينة والعطور والتوابل [8].

---

[1] بيومي، **المغاربة** ...، المرجع السابق، ص ص 106- 108.

[2] Arthur Leared, **Morocco And The Moors Being An Account Of Travels, With A General Description Of the country and the people**, London , 1876, p 357

[3] burton, op,cit, p 9

[4] حياة مناور فرحان الرشيدي، "دور الحج في إثراء العلاقات السياسية والاقتصادية بين مكة و بلاد الشام في ظل الدولة العثمانية من خلال حكم آل العظم" ، مجلة العلوم العربية و الإنسانية ، مج 9، ع 3، 2016، ص 1447. أنظر أيضا: دولتشين، المصدر السابق، ص 190.

[5] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 25، 30، 37.

[6] نيبور، المصدر السابق، ص ص 236، 237

[7] بيومي، **المغاربة** ...، المرجع السابق، ص ص 110، 111.

[8] حبيش رزاح ماضي آل قويد الدوسري، المرجع السابق، ص 688.

المبحث الثالث : الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر :

قبل الخوض في تفاصيل الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز تجدر الإشارة أن هذا الجانب أخذ حيزا مهما في كتب الرحلات مقارنة بغيره من الجوانب الأخرى، إذ توفر لنا المصنفات الرحالة المغاربة والغربيين معلومات قيمة حول المجتمع الحجازي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ورغم تفاوت الاهتمام بهذا الجانب من رحالة إلى آخر إلا أن دراسة ما جاء في متون هذه الرحلات يسمح بتكوين صورة شاملة عن المجتمع الحجازي، خصوصا إذا علمنا أن هؤلاء الرحالة قد اهتموا بوصف مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية سواء تعلّق الأمر بعناصر السكان أو العادات والتقاليد أو أنماط المعيشة .

1. فئات المجتمع :

اتسم المجتمع الحجازي بالتنوع، إذ كان يتألف من عدة فئات وطبقات ، ومن أهم العوامل التي ساعدت على تعدد التركيبة والبنية الاجتماعية بهذا القطر هي المكانة الدينية التي اكتسبتها هذه المنطقة، فمن المعروف أن وجود الأماكن المقدسة بالحجاز مكة والمدينة المنورة قد جعل منها مركزا وموئلا تتوافد عليه الكثير من الأجناس سواء من أجل الاستزادة من العلوم أو بهدف تأدية مناسك الحج أو بغية المجاورة[1]، وبهذا يمكن القول أن الحج قد كان له الأثر الكبير في تنوع التركيبة الاجتماعية للمجتمع الحجازي حيث تعددت الفئات التي يتكون منها حيث شكل خليطا من مختلف أنحاء العالم الاسلامي[2].

إن إشارات الرحالة المغاربة والأوروبيين إلى الفئات التي كانت تعيش في الحجاز قد أبرزت أن المجتمع الحجازي امتاز بكونه مجتمعا متعدد الأصول و الأجناس، فقد تكون من خليط من الأعراق التي توافدت عليه من مختلف الأمصار، وفي الواقع أنه رغم تعدد واختلاف التصنيفات التي أوردها الرحالة عن المجتمع الحجازي ، إلا أنه يمكننا أن نبرز أهم الفئات التي تألف منها المجتمع الحجازي حسب ما ورد في كتب الرحلات على الشكل التالي:

الأشراف:

اعتلت هذه الطبقة المرتبة الأولى في النسيج الاجتماعي للحجاز، وذلك نظرا لنسبها الشريف، حيث يرجع أصلها إلى ذرية الحسن والحسين أحفاد النبي عليه الصلاة والسلام، وحسب ما تذكره المصادر يعود

---

[1] نواب ، المرجع السابق، ص 412.

[2] أمال رمضان عبد الحميد صديق، "الحج وأثره في مجتمع المدينة من خلال كتب الرحالة إبان الحكم العثماني للحجاز" ، مجلة مركز بحوث دراسات المدينة المنورة ، ع 39، 2013م، ص ص 116، 117.

ظهور هذه الطبقة إلى سنة 358هـ/ 969م، وذلك بعد أن استقل أبناء علي ابن أبي طالب الحسن والحسين بتولي شؤون مكة والمدينة المنورة و الحجاز وأطلق عليهم الفاطميون تسمية الأشراف، ومن هذا التاريخ أصبح هذا اللقب يطلق على حكام وأمراء الحرمين الشريفين[1].

اشتهر الأشراف بعلو مكانتهم فقد كانوا يحتكرون مختلف الوظائف الإدارية و العسكرية وخاصة إمارة مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد أشار الرحالة شارل ديديه إلى أنهم يتفرعون إلى عدة فروع و أسر[2]، ومن أشهر تلك الأسر أسرة بني قتادة التي ذاع صيتها منذ القدم،كما نجد من ضمن فروع الأشراف كذلك السليمانيون وبنو هاشم و الموسويون[3].

وحسب ما يشير إليه بيركهارت ينقسم الأشراف إلى قسمين الفئة الأولى هم الذين يعتنون بالعلم والقانون والتجارة وهم يمثلون الغالبية وهم يسمون بـــ "الأسياد"، أما الفئة الثانية فهم الأشراف العسكريون وهم الذين انخرطوا في الوظائف العسكرية وكانت هذه الفئة تلقب بـــ:" الشرفاء"[4].

ومن الملاحظات الهامة التي قدمها الرحالة كذلك في وصفهم للأشراف أنهم حازوا على منزلة كبيرة لدى السلاطين العثمانيين إذ بعد ضم العثمانيين للحجاز أوكلوا لهم مهمة حكم البلاد، كما كانوا يخصصون لهم نفقات يدفعها إليهم الباب العالي[5].

المجاورون :

شكلت هذه الفئة شريحة مهمة في المجتمع الحجازي، إذ تشير المعطيات التي أوردها بعض الرحالة المغاربة والأوروبيين أنهم مثلوا نسبة كبيرة من سكان الحجاز، ومما يلاحظ أن جنسيات هؤلاء المجاورين قد اختلفت حيث قدموا من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وقد أشار كثير من الرحالة إلى هذا التنوع، فالغيغائي مثلا لاحظ أنه كان يوجد بالمدينة المنورة وحدها حوالي ألف و أربعين رجلا من المغاربة و أربعة آلاف رجل من الترك بالإضافة إلى وجود الجنس القرماني وغير ذلك من الأجناس الأخرى التي تأتي من الهند ومصر وبلاد الشام[6]، وقد لاحظ بيركهارت أيضا هذا التعدد في أجناس المجاورين بالمدينة المنورة ومكة المكرمة فذكر أنهم

---

[1] أحمد السباعي، **تاريخ مكة دراسات في السياسة و العلم والاجتماع والعمران**،ج1، م.م.ف ، الرياض ، 1999م ، ص 220، أنظر أيضا: حسن أحمد حسن بركة، **المدينة المنورة في عصر دولة السلاطين المماليك الجراكسة** ، هـــ.م.ع.ك ، مصر، 2015، ص 121 .

[2] didier, op,cit, p165,166.

[3] شحات عمر محبت، المرجع السابق، ص ص 244- 246.

[4] بيركهارت، المصدر السابق، ، ص 154.

[5] didier, op,cit , p 165.

[6] الغيغائي، المصدر السابق، ص 189

يمثلون ثلاث أرباع السكان وهم خليط ترجع أصولهم إلى بلدان مختلفة فمنهم المغاربة واليمنيون و المصريون و السوريون و الأكراد والأفغانيون [1]، وفي نظر بيركهارت كان للحج أثر كبير في استقرار المجاورين بمكة والمدينة المنورة إذ لا تمر قافلة من القوافل الحج إلا وتخلف وراءها عددا كبيرا من مسافريها، فهم يتوقفون بنية البقاء فيها سنة أو سنتين لكن سرعان ما تتحول إقامتهم المؤقتة إلى إقامة دائمة[2] .

تعددت الدوافع التي حفزت الجاليات الإسلامية على التوافد على الحجاز، فمنهم من قدم من أجل تأدية مناسك الحج ومنهم من جاء بدافع التجارة ومنهم من قدم رغبة في الاستزادة من العلوم، و أيا كانت الدوافع التي تحكمت في هجرة المسلمين إلى الحجاز فإن الملاحظ أن أعدادا كبيرة منهم فضلت الإستقرار والإقامة الدائمة بهذا القطر، حيث مثلوا مع مرور الزمن فئة مهمة انصهرت واندمجت مع السكان المحليين[3].

إن تواجد المجاورين بالحجاز قد ارتكز على مدن محددة، وقد كانت مكة والمدينة من أكثر المناطق التي استقطبت هذه الفئة نتيجة لوجود الحرمين الشريفين فشكلوا بذلك طبقة اجتماعية متعددة الأجناس وهذا ما أكد عليه ابراهيم رفعت باشا في قوله: "نظرا لوجود المسجد الحرام بمكة المكرمة توافد المسلمين عليها من كل حدب وصوب سواء للإقامة والمجاورة فيها، أو بغرض التجارة أو الحج، ولهذا فقد تعددت الأجناس فيها إذ ضمت خليطا متنوعا منهم أعراب البوادي من حضارمة وحجازيين ونجديين، ومنهم الهنود والجاوة والأفغان والأعاجم والشوام و الأتراك والمصريون والمغاربة والسودانيين[4].

ومما تجدر الإشارة إليه أن فئة المجاورين بالحجاز قد اضطلعت بدور فعال، إذ احتلت مكانة كبيرة في المجتمع الحجازي وذلك نظير لأدوارها المختلفة، وقد بينت كتب التراجم والرحلات أن هذه الفئة استطاعت أن تشغل وتتقلد أهم المناصب الدينية كالخطابة والإمامة و القضاء، أضف إلى ذلك ساهمت أيضا في إثراء الحركة الفكرية في الحجاز خصوصا وأن غالبية المجاورين كانوا يندرجون ضمن فئة العلماء [5].

الأغوات :

اتفق الرحالة المغاربة والأوروبيين على الإشارة بأن الأغوات هم عبيد ينتمون إلى جنسيات مختلفة، كانت مهمتهم الرئيسية تتمثل في خدمة الحرم النبوي الشريف، فكان من ضمن اختصاصاتهم حراسة

[1] بيركهارت، المصدر السابق، ص 309.

[2] رمضان صديق عبد الحميد، المرجع السابق، ص 117.

[3] للتوسع في هذا الموضوع راجع : محمد محمود السرياني، "البوتقة المكية وأثرها في صهر السكان دراسة في الجغرافيا التاريخية للهجرة و تأقلم الجاليات الوافدة إلى الأراضي المقدسة" ، مجلة الدارة، ع 4، السنة 31، 1426هـ، ص ص 178- 205.

[4] رفعت باشا، المصدر السابق، ص 201.

[5] حليس، **الحجاز** ...، المرجع السابق، ص ص 181،182.

و تنظيف الكعبة المشرفة والعناية بشؤون المسجد النبوي[1]، وأمّا عن تاريخ ظهور هذه الفئة فيرجع حسب ما تشير إليه بعض المصادر إلى عهد نور الدين زنكي و صلاح الدين الأيوبي اللذين قاما بتعيين مجموعة من الخصيان لخدمة المسجد النبوي[2].

و على ما يبدو كان لهذه الفئة شأن عظيم في المجتمع الحجازي، حيث كانوا يتمتعون بالاحترام والتبجيل وقد اعتبروا من أهل الحل والعقد في المدينة المنورة، وقد أكد العياشي على مكانتهم إذ وصف مدى نفوذهم بقوله: "لعبيد النبي صل الله عليه وسلم وخدام مسجده جلالة و قدر، وعظم منصب وسعة أرزاق ... ولكبيرهم كلمة نافذة في المدينة وتصرف تام ويد مبسوطة، تنفذ أحكامه، وتمضي تصرفاته في القوي والضعيف ويطاوعه الكبراء و الأشراف"[3].

وفضلا عن ما سبق ذكره يؤكد أحمد بن ناصر الدرعي كذلك بأن الأغوات كانوا على درجات ورتب حيث كان أعلاهم رتبة شيخ الحرم وهو يعين من طرف السلطان العثماني ويتجدد في الغالب إما في سنة أو سنتين أو أكثر، ويليه النقيب ثم المستلم، وهو الذي يتكفل بقبض الصدقات وما يهدى لهم، وكان الأغوات حسب ما يذكره الدرعي كذلك ينقسمون إلى قسمين القسم الأول هم النظاميون اللذين يعتمدون في معيشتهم على ما يأتيهم من بيت المال والأوقاف والهبات التي يقدمها الحجاج، وأمّا القسم الثاني فهم يعرفون بالأصاغر أو البطالين وهم يستخدمون في العادة في الأشغال خارج المسجد النبوي، وكان أغلبهم من الحنفية والمالكية، وأما بالنسبة لأعداد الأغوات فهو غير ثابت حيث كانوا يزيدون وينقصون حسب عدد الراغبين في الوقف [4]، وقد أوضح الفقيه الحيوني أن عددهم قد بلغ في منتصف القرن التاسع عشر حوالي أربعين رجلا[5]، ووفقا لما ذكره بيركهارت كان هؤلاء الأغوات يستقرون سويا في أفضل الأحياء بالمدينة المنورة[6] .

[1] الغيغائي، المصدر السابق، ص 193.
[2] البنتوني، المصدر السابق، ص 242.
[3] العياشي، المصدر السابق، ج1، 463.
[4] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 550، 551.
[5] الحيوني، المصدر السابق، ص ص 90،91.
[6] بيركهارت، المصدر السابق، ص 286.

الأنصار:

لا تقدم لنا نصوص الرحلات معلومات كثيرة عن هذه الفئة باستثناء بعد الشذرات القليلة التي أوردها بعض الرحالة، وبصفة عامة يُعرف الأنصار على أنهم سكان المدينة المنورة الأصليين، وهم من بقايا ذرية الأوس والخزرج الذين استوطنوا المدينة المنورة منذ القدم وقد استمر نسلهم على مر القرون[1] .

لقد أكد بيركهارت في رحلته أن الأنصار لم يعودوا يشكلون سوى فئة قليلة من سكان المدينة المنورة، إذ لم يبقى منهم سوى عشر أسر ممن تستطيع إثبات نسبها[2]، وقد أيد الغيغائي الذي زار الحجاز من بعده هذا الأمر حيث يقول عن ذلك :" سألت عن الأنصار وأولادهم هل بقي منهم أحد؟، فقال الفقيه الونشريسي و الفقيه عبد الله بن محمد: لم يبقى من أولاد الأنصار إلا ثلاثة نفر أنثى وذكرين أحدهما غاب إلى المغرب والثالث بهالي لاعقل له" [3]، وإذا كان بيركهارت والغيغائي لم يتطرقا في رحلتهما إلى أهم أسر الأنصار في المدينة المنورة فإن الرحالة بيرتون أفادنا بأسماء بعضها حيث ذكر أنهم يشكلون أربع أسر فقط هي:

-بيت الأنصاري: يرجع أصلهم إلى أبي أيوب الأنصاري ، كان منهم أئمة الحرم ، وقد تراجعت مكانة هذه الأسرة في القرن التاسع عشر .

-أسرة أبو الجود ، كان منهم الأئمة والمؤذنون في الحرم النبوي ، لم يبقى منهم إلا عدد قليل

-بيت الشعاب: كان عددهم كبير مقارنة بالأسر الأخرى ، اشتغل بعضهم في التجارة ، والبعض الآخر كأئمة في حين اختارت فئة أخرى الترحال

-بيت القرافي : كانوا يعملون في مجال التجارة [4].

وأمّا بالنسبةللوضع الاجتماعي الذي عاشت في كنفه هذه الفئة فينفرد بيركهارت بالإشارة بأنهم كانوا ينتمون إلى الطبقة العامة فهم من طبقة الفقراء ويعتمدون على العمل في الزراعة من أجل تأمين حاجياتهم [5].

العبيد والجواري:

تؤكد نصوص الرحلات أن فئة العبيد كانت تقبع في نهاية السلم الاجتماعي وذلك على الرغم من أنّها كانت تمثل شريحة مهمة من شرائح المجتمع الحجازي، ومما تجدر الإشارة إليه أن الرقيق كان يجلب إلى

[1] بيركهارت، المصدر السابق ص 308

[2] نفسه، ص 308.

[3] الغيغائي، المصدر السابق،، ص ص 188، 189.

[4] Burton ,op,cit, p 1, 2

[5] بيركهارت، المصدر السابق ، ص 308.

الحجاز من المناطق مختلفة وذلك عن طريق القوافل التجارية التي تتوافد على المنطقة خلال كل موسم،[1]، ولقد كان في الحجاز أسواق عديدة مخصصة لتجارة العبيد، وهذا ما أكده الفقيه الحيوني في رحلته فقد أتيحت له فرصة زيارة سوق النخاسة الموجود بمكة المكرمة، وفي هذا السياق أشار أنه كانت تعرض فيه الجواري والإيماء اللواتي كان يتم جلبهن من الحبشة والسودان [2].

وفي الواقع إن أهل الحجاز وخاصة منهم الأثرياء قد اعتادوا على استخدام العبيد في عدة مجالات وخاصة في الأعمال الشاقة، إذ كان منهم الحمالون و الحطابون و الجمالون والسقائون والخدم[3]، ووفقا لما أورده بيركهارت كانت مكة المكرمة تعد من أكثر المناطق التي انتشر فيها العبيد وخاصة منهم الأحباش، وذلك بخلاف المدينة المنورة التي قل عددهم فيها[4]، وعلى العموم يمكن القول أنه بالرغم من أن العبيد لم يشكلوا مجتمعا قائما بذاته إلا أن الملاحظ أنهم اندمجوا مع باقي الطبقات الاجتماعية، كما أنهم ساهموا في الكثير من الأحداث التي عرفتها الحجاز خلال العهد العثماني [5].

البدو والأعراب :

تعتبر إحدى الطبقات الرئيسية في المجتمع الحجازي، وهم يقطنون خارج المدن، وفي المناطق المحاذية لمكة والمدينة المنورة، وصفهم بيركهارت في رحلته فذكر أنهم يمثلون عرقا متميزا له خصوصياته، فالأعراب والبدو رغم استقرارهم في ضواحي المدن إلا أنهم لم يندمجوا مع باقي السكان، بل ظلوا يحتفظون بعاداتهم و لغتهم و سماتهم البدوية [6]، ولقد أكد الغيغائي من جهته نفس الملاحظة، كما أوضح إضافة إلى ذلك بأنه كان لقبائل البدو تنظيم خاص بهم فكانت لكل قبيلة من هذه القبائل شيخ يهتم بشؤونها [7].

لقد تحدث الرحالة بإسهاب عن صفات البدو، ومن أهم الملاحظات التي تكررت الإشارة إليها في نصوص رحلاتهم هي حديثهم عن المهنة التي كان يزاولونها، إذ أجمع غالبيتهم بأن القبائل البدوية قد احترفت

---

[1] حليس، المرجع السابق، ص 183.

[2] الحيوني، المصدر السابق، ص 70.

[3] عبد اللطيف محمد الصباغ، "صورة المجتمع المكي في كتابات الرحالة في النصف الأول من القرن الرابع عشر"، مجلة الدارة ، ع 4، 1426هـ، ص 83.

[4] بيركهارت ، المصدر السابق، ص 158، 320.

[5] شحات عمر محبت، المرجع السابق، ص ص 279، 280.

[6] بيركهارت، المصدر السابق، ص 311.

[7] الغيغائي، المصدر السابق، ص ص 149.

مهنة سرقة ونهب القوافل، وقد تضمنت رحلاتهم الكثير من الدلائل التي تشير إلى ذلك[1]. وفي الواقع إن هذا الحكم رغم صحته إلا أنه لا ينطبق على كل القبائل البدوية في الحجاز، فقد كان هناك بالمقابل الكثير من الأعراب الذين يقومون بمساعدة الحجاج وخدمتهم، وذلك بتوفير الأمن والحماية لهم والتعهد بكافة شؤونهم[2]. وأما عن أهم القبائل البدوية التي اشتهرت في الحجاز وورد الإشارة إليها في كتب الرحلات فنذكر على سبيل المثال لا الحصر قبيلة بنو حرب و جهينة وقبيلة عتيبة التي تقطن شمال مكة وقبيلة بنو سليم و قبيلة هذيلة و ثقيف وغيرها[3].

ختاما يمكن القول أن التركيبة الاجتماعية لسكان الحجاز قد تميزت بالتنوع، ورغم اختلاف الرحالة في تصنيفهم لهذه الفئات الاجتماعية[4] إلا أنه على العموم يمكن أن نميز بين نوعين من السكان في الحجاز الصنف الأول يمثلهم سكان المدن، وأما الصنف الثاني فهم الذين يستقرون في البوادي، وبالرغم من أن كل صنف من هاته الأصناف كان له وضعيته الاجتماعية الخاصة به و التي تميزه عن بقية الأصناف الأخرى إلا أن هذه الفئات اندمجت مع بعضها البعض وشكلت مجتمعا متجانسا.

2. العادات والتقاليد:

لقد تنوعت عادات وتقاليد أهل الحجاز نتيجة احتكاكهم بمختلف الأجناس التي وفدت على هذه المنطقة في مواسم الحج، فتشكلت عندهم عادات مرتبطة بالجانب الديني وأخرى ذات طابع اجتماعي.

يذكر أحمد بن ناصر الدرعي أن من ضمن عادات أهل الحجاز أنه إذا حل يوم السابع عشر من ذي القعدة يقومون بتنظيف المسجد، وكان يعرف عندهم بالكنيس، وفي هذا اليوم كانوا أيضا يقومون بجمع بسط وفرش الحرم المسجد النبوي كلها وإدخالها إلى المخازن فلا يتبقى سوى الحصائر، كما تجمع كذلك المصاحف

---

[1] ذكر الحيوني الذي زار الحجاز في القرن التاسع عشر أن الركب الذي كان يرافقه إلى مكة المكرمة تعرض لهجوم العربان وهم بالقرب من منطقة خليص، وقد وصف ذلك فقال:"فلما وصلنا بين بئر التفلة وبلد الخليص خرجت علينا العربان، وشرع البارود بيننا وبينهم وهرب الركب وما بقي أحد ، وأنا مريض فوق الجمل لا أستطيع النزول ... والمعركة سائرة والحاصل أخذوا لنا جملين ...". أنظر: الحيوني، المصدر السابق، ص 77.

[2] عبد الكريم كريم ، المرجع السابق، ص 199.

[3] بيركهارت، المصدر السابق، ص 63. أنظر أيضا:

Burton, Op,Cit, P 117, 123

[4] عمد بعض الرحالة من أمثال بيركهارت إلى تصنيف المجتمع الحجازي على أساس الناحية الدينية والمذهبية، إذ ذكر هذا الأخير أنه كان يوجد في الحجاز فئتين هما: أولا السنة وهم يمثلون غالبية السكان في مكة و المدينة المنورة، وأما الفئة الثانية فهم الشيعة ،وهم يتفرعون إلى قسمين :القسم الأول هم النخاولة، وقد سميوا بهذا الاسم نظرا لكون غالبيتهم يعملون في زراعة النخيل، وقد أشار بيركهارت أن أعدادهم كانت كبيرة حيث اشتهروا بولعهم بالحروب ، كما أوضح كذلك أنه كان لهم دور كبير في محاربة الوهابيين، وأما القسم الثاني فهم الروافض وهم ينتمون إلى العقيدة الفارسية ، ويتمركزون في الصحراء الشرقية ، ومن أهم القبائل التي تمثلهم قبيلة بن علي . للمزيد أنظر: بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 308، 309.

و السبحات وتوضع في الروضة الشريفة، وكذلك كان يرد كل من استعار كتابا إلى صاحبه أو ناظر المكتبة، وفي هذا اليوم كان يكنس الحرم النبوي الشريف ويكنس كذلك البيت العتيق في مكة المكرمة [1].

وسجل أحمد بن ناصر الدرعي أن من العادات المتوارثة عند أهل المدينة المنورة عقد النكاح في المسجد الحرام، حيث جرت العادة أن يجتمع ويحضر أكابر وأعيان المدينة وأصحاب المراتب والمناصب بالإضافة إلى الخطيب في ساحة المسجد، فيجلسون في صفين متقابلين، وبعدها يشرع العاقد في الخطبة فيثني على النبي عليه الصلاة والسلام و يتم ذكر العقد والإشارة إلى المتعاقدين فيرضيان بذلك، ويصاحب ذلك المبالغة في الثناء عليهما، وأضاف الدرعي أنه بعد ذلك كان يؤتى بأطباق الرياحين وأطباق السكر واللوز ليتم تفريقها على الحاضرين، كما يقوم المنشد بإلقاء قصيدتين في مدح النبي عليه الصلاة والسلام، وحين يفترق المجلس يقوم الحاضرون بتقديم التهاني للمتعاقدين، وهذه الصورة لعقد النكاح اختص بها حسب ما يشير الدرعي الأمراء و التجار و ذوي المناصب والأعيان وأما عن بقية السكان فتختلف عنها [2] .

ومن العادات الاجتماعية التي تميز بها أهل الحجاز كذلك وسجلها الرحالة في مصنفاتهم زيارة القبور، وقد لاحظ بيركهارت وجود هذه الظاهرة خلال مكوثة في المدينة المنورة، حيث ذكر أن غالبية سكانها كانوا خلال المواسم يقومون بزيارة قبور أهاليهم ويضعون على تلك الأضرحة سعف وأغصان النخيل[3]، وقد أشار أحمد بن ناصر الدرعي إلى هذه العادة كذلك، إذ ذكر أن أهل الحجاز كان من عادتهم المألوفة الخروج إلى البقيع كل يوم جمعة حيث يقومون بوضع الرياحين على القبور، وفي الواقع إذا ما تأملنا في نصوص الرحلات المغربية يتضح لنا أن الحجازيين لم يكن من عاداتهم زيارة القبور فقط في المواسم بل جرت العادة أنهم يحرصون على القيام بزيارات مستمرة إلى الأضرحة و المشاهد المعلومة والتبرك بها، وقد عدد لنا الرحالة المغاربة في نصوص رحلاتهم الكثير من المزارات الدينية التي كانت مقصدا لسكان الحجاز و الوافدين عليه نذكر منها قبور الصحابة و آل البيت رضي الله عنهم و الأولياء الصالحين الموجودة في مقبرة البقيع[4].

[1] الدرعي ، المصدر السابق ، ص ص 533، 534.

[2] نفسه، ص ص 539، 540.

[3] بيركهارت، المصدر السابق، ص 302.

[4] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 469- 473

وكان من ضمن عاداتهم المرتبطة بيوم الجمعة كذلك الاجتماع في أروقة المسجد النبوي حيث يأتي جماعة من المنشدين بعد صلاة العشاء فينشد كل واحد منهم قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم ولهم أتباع يردون عليهم[1].

ومن العادات الأخرى التي لفتت انتباه الرحالة المغاربة في الحجاز عادة التهنئة ببداية الشهور حيث لاحظ أحمد بن ناصر الدرعي الاختلاف في ذلك بين المغرب والحجاز، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه العادة تعتبر من العادات القديمة المتوراثة، حيث كان الحجازيون عند حلول الشهر يقومون بتهنئة بعضهم البعض، وهذا بخلاف ما يحدث المغرب العربي و الذي كانت فيه التهنئة حسب ما يشير إليه الدرعي تقتصر على المناسبات الهامة كالأعياد وما شابهها [2].

ومن العادات التي أشار إليها الورتلاني كذلك عادة المدرسين في تعطيل القراءة يومي الثلاثاء و الجمعة، حيث كان يتوقف المدرسون عن القراءة و التدريس، وذلك بخلاف عادة أهل المغرب الذين كان التعطيل عندهم يكون يومي الخميس والجمعة"[3]، وتجدر الإشارة هنا أن أحمد بن ناصر الدرعي بخصوص هذه الظاهرة قد أورد أيضا أن من عادات أهل المدينة المنورة توقيف الدراسة خلال موسم الحج، وذلك نتيجة لاشتغال أهل الحرمين بأمور معاشهم فيخرجون لقبض الأوقاف والجرايات فلا تستأنف القراءة إلا بعد ذهاب ركب الحجيج [4].

ومن العادات الذميمة الغير المستحبة التي رصدها بعض الرحالة عند أهل الحجاز عادة النساء في المدينة المنورة، حيث يذكر أحمد بن ناصر الدرعي نقلا عن العياشي أنهن اشتهرن بعادة تسمى الشخشخة، وهي ما تشتري به المرأة ما تشتهيه من الأزهار والطيب[5].

وفضلا عن عادة الشخشخة اتصفت النساء في المدينة المنورة بعادة سلبية أخرى هي الخروج للبيع والشراء في الأسواق عند قدوم الركب الشامي، وقد تحدث العياشي عن هذه العادة بإسهاب كبير، حيث ذكر ما نصه: "ولأهل المدينة عند قدومهم عادة مذمومة، وهي أنه لا تبقى مخدرة من النساء شريفة كانت أو وضيعة

[1] الدرعي، المصدر السابق، ص 536.
[2] نفسه، ص 538.
[3] الورتلاني، المصدر السابق،ج2، ص 586.
[4] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 533، 534.
[5] نفسه، ص 479.

إلا خرجت تباشر البيع والشراء بنفسها، ولهن على الرجال في ذلك الوقت إتاوة يؤدونها لهن يبتعن بها ما أحببن من اللائق بهن، من طيب أو شبهة، وربما لا تقتنع أحداهن من زوجها إلا بخمسين دينارا فما فوقها"[1].

ومما سجله الرحالة شارل ديديه كذلك عن عادات أهل جدة أنهم كانوا يقومون بتشريط وجنات أبنائهم بعد ولادتهم وبلوغهم أربعين يوما إلى ثلاث شرطات تترك أثرها مدى الحياة، وكانت هذه العادة التي درج أهل جدة والحجاز عامة اتباعها تسمى بعادة المشالي، وكان الغرض منها حسب شارل ديديه هو تكوين علامات الشرف والوقار[2]، وللإشارة فإن شارل ديديه لم يكن الرحالة الوحيد الذي تحدث عن عادة الوشم في الحجاز، فقد أكد بيركهارت في رحلته انتشار ووجود هذه العادة عند أهل مكة، فالمكيون حسب ما يذكر كانوا"يعتزون بالتمييز الذي يحول دون أن يدعي سكان الحجاز الآخرين من البلاد الأجنبية شرف ولادتهم في الأماكن المقدسة"[3].

وإضافة إلى عادة الوشم يحدثنا شارل ديديه وبيركهارت كذلك عن عادة أخرى اختص بها الأشراف، وهي عادة إرسال أبنائهم الصغار إلى البادية، حيث يشيران في هذا الصدد أن الأطفال بعد بلوغهم ثماني أيام من ولادتهم كانوا يؤخذون من أمهاتهم ويعهد بهم إلى القبائل العربية المشهورة في الصحراء لتربيتهم و تنشئتهم، وكان هؤلاء الأطفال لا يعودون إلى أهاليهم إلا بعد بلوغهم سن العاشرة أو الثانية عشر، وتعتبر هذه العادة من العادات القديمة التي انتشرت في الجزيرة العربية، ويفسر شارل ديديه هذه العادة بأنّها تساعد الأشراف منذ نعومة أضافرهم على إتقان اللغة العربية الفصحى وعادات البدو بالإضافة إلى تدريبهم وتعليمهم ركوب الخيل والإبل[4]، وتجدر الإشارة معلومات التي أوردها شارل ديديه بخصوص عادة الأشراف في إرسال أبنائهم إلى البوادي تتوافق مع جاء في الرحلات المغربية [5].

و امتاز أهل الحجاز كذلك بعادة أخرى هي الخروج إلى المتنزهات، وقد أكد العديد من الرحالة انتشار هذه العادة في الحجاز ولاسيما بين سكان المدينة المنورة، وفي هذا الصدد بين لنا العياشي أنهم كانوا يسمون خروجهم إلى المتنزهات بـــ: القايلة فيقولون نُقيل اليوم في الموضع الفلاني"[6]، وقد أيد بيركهارت ماذكره

[1] العياشي، المصدر السابق، ج 1، ص 385.

[2] didier, op,cit, p125 , 126.

[3] بيركهارت، المصدر السابق، ص 155.

[4] didier, op,cit, p 166 , 167,

أنظر أيضا : بيركهارت ، المصدر السابق، ص 193.

[5] العياشي، المصدر السابق، ج 1، ص 457.

[6] نفسه، ص 393.

العياشي فقد استرعى انتباهه خروج سكان المدينة المنورة إلى جبل أحد حيث كانوا يقومون بنصب خيامهم هناك ويبيتون لأيام كما أنهم اشتهروا كذلك بخروجهم إلى منطقة قباء [1].

وكانت في الحجاز أماكن عديدة تقصد للتنزه منها الجبال و الأودية و البساتين والحدائق بالإضافة إلى بعض المساجد[2]، وقد اعتبرت عادة التنزه عند أهل المدينة المنورة من العادات المذمومة عند بعض الرحالة فقد انتقد العياشي ما يصاحبها من إسراف في المأكل والمشرب وكثرة في النفقة وهذا ما يؤكده بقوله: " ونساء المدينة لهن عوائد مذمومة في الخروج إلى التنزه والتفرج في البساتين والأماكن المفسحة ...فتكلف المرأة زوجها من النفقة مالا قدر له عليه"[3].

وأما عن عوائدهم في الجنائز فقد أشارت كتب الرحلات أن من تقاليدهم عند حدوث الوفاة عدم المبالغة في إظهار الحزن على الميت، فلا توجد نساء يندبن ويبكين على الميت مثلما يحدث في بقية العالم الإسلامي، كما أن النساء الحجازيات لا يلبسن لباس الحداد مثل هو شائع عند نساء مصر، وهذا ما لاحظه كل من بيركهارت وبيرتون [4].

وقد أكد عليه الفقيه الحيوني حيث قال: "والميت إذا مات فلا تسمع لهم عليه بكاء أبدا سواء كبر شأنه أو لا" [5]، ومما استوقف انتباه الرحالة كذلك في جنائز أهل الحجاز أنهم اعتادوا على إدخال جنازة الميت إلى المسجد النبوي للصلاة عليها[6]، كما يضيف بيرتون أن من عاداتهم خلال تشييع الجنازة كذلك تقديم جموع الناس والأقارب التعازي لأهل المتوفي، وعن مواضع الدفن فقد جرت العادة أن يدفن أهل الحجاز موتاهم في مقبرة البقيع[7].

---

[1] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 304، 305.

[2] من أهم أماكن التنزه التي كانت مقصدا لسكان المدينة المنورة جبل أحد و جبل سلع و مسجد الفتح و حديقة بضاعة و حديقة بئر غرس وحدائق قباء وبستان المنشية ومزراع الجرف، ووادي عقيق، ووادي بطحان. للمزيد أنظر: سامح ابراهيم عبد الفتاح عبد العزيز، "متنزهات أهل المدينة المنورة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر هجري السابع عشر والثامن عشر ميلادي من خلال مشاهدات الرحالة المغاربة"، مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم التربوية والاجتماعية ، ع8، 2021م، ص ص 366- 385.

[3] العياشي، المصدر السابق، ج 1، ص 393.

[4] يصف بيركهارت عادة أهل الحجاز في الجنائز بقوله :" يظهرون الاحترام للميت ...، ولا تنوح نسائهم عند وفاة أحد أفراد الأسرة ،...، والنعش عند خروجه من بيت الفقيد يحمل على أكتاف بعض أقاربه أو أصدقائه، بينما يمشي الباقون خلف النعش ، ولكن عندما يتقدم موكب الجنازة في الطريق فإن كل شاهد أو عابر يسرع لإراحة حاملي النعش... فينتقل النعش وباستمرار من كتف لآخر إلى أن يوضع بالقرب من القبر"، بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 323، 324. أنظر أيضا :

Burton, op,cit, p 23,24 .

[5] الحيوني، المصدر السابق، ص 90.

[6] الورتلاني، المصدر السابق،ج2، ص 588.

[7] Burton, ibid, p 24.

وقبل أن نختم الحديث عن العادات الاجتماعية التي سادت في الحجاز ينبغي الإشارة أن الرحالة المغاربة والأوروبيين في وصفهم للعادات والتقاليد في الحجاز لم يفتهم أيضا أن يسجلوا في رحلاتهم طبائع الحجازيين سواء الحسنة منها أو الذميمة، وفي هذا السياق نجد الحسن الغسال الذي زار الحجاز خلال القرن التاسع عشر قد أثنى على أخلاق أهل المدينة المنورة فذكر أنهم يتمتعون بالأخلاق الفاضلة[1]، وأشار من جانبه بيركهارت إلى صفات أهل مكة المكرمة فبين أنهم يمتازون بالكرم والمروءة والمعاملة الحسنة سواء مع بعضهم البعض أو ومع بقية الأجناس الأخرى، ومما شد انتباهه كذلك ميلهم إلى المرح و تمسكهم الشديد بالعقيدة الإسلامية وتقيدهم بمبادئها[2]، و لم يختلف وصف السبعي لسكان جدة و الينبع عن وصف بيركهارت حيث ذكر أنّها أهلها يتسمون باللين، كما أشار كذلك أن أهل ينبع يغلب عليهم القناعة والعفاف والزهد "فلا يسمع عنهم خصام أو لغط وما سمعنا أن أحدا أذوه هنالك مدة إقامتنا فيها ويصبرون على الحجاج والمسكين عندهم يرحموته ويحسنون إليه إذا سأل في الديار"[3].

وأما ما شاع من الصفات الذميمة عند أهل الحجاز وورد ذكرها في مصنفات الرحالة فإن الملاحظ أن غالبية الرحالة قد أجمعوا على استنكار صفة السرقة والنهب التي امتازت بها بعض القبائل البدوية، وتجدر الإشارة أن ظاهرة اللصوصية كانت منتشرة بشكل كبير في الحجاز لاسيما في المسالك والطرق التي كانت تسلكها قوافل الحج[4].

وقد أورد لنا الرحالة المغاربة أخبارا كثيرة عن الاعتداءات التي كان يتعرض لها الحجاج[5] فأحمد بن ناصر الدرعي الذي حج في 1710م وكذلك ابن الطيب الشرقي أشار أنه من جراء انتشار اللصوصية في الحجاز

---

[1] الغسال، المصدر السابق، ص 100.

[2] بيركهارت المصدر السابق،ص ص 169- 172.

[3] السبعي، المصدر السابق، ص ص 66، 67.

[4] إذا ما أردنا استقصاء عوامل وأسباب تفشي ظاهرة اللصوصية في الحجاز فإننا نجد الباحثين قد أرجعوا ذلك إلى عدة أسباب نذكر منها: جدب مناطقها واشتداد القحط في بعض المواسم، فالقبائل البدوية كانت تلجأ إلى عمليات السرقة للحصول على المؤن والذخائر، وبالإضافة إلى ذلك كان لانعدام السلطان أثر كبير في استفحال هذه الظاهرة فعمليات السرقة حسب مايشير إليه العياشي كانت تزداد في أيام الموسم وذلك نتيجة لقلة الحكم من جهة وتهاون الحكام على القضاء على هذه الظاهرة من جهة أخرى، يقول العياشي في هذا الصدد "فالسراق يهجمون على الناس هجوما ويزداد أذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاون الحكام وإرخاء العنان لهم"، وزيادة على ذلك كانت عمليات النهب تشتد أيضا نتيجة لطغيان نفوذ بعض القبائل كقبيلة حرب التي كان يزيد عدد أفرادها على مئة ألف رجل ، وفضلا عن ذلك يعد كذلك عامل الثأر والانتقام أحد العوامل المهمة التي أدت إلى لجوء الأعراب لعملية السرقة ونهب القوافل الحجية . للمزيد أنظر: كريم عبد الكريم ، المرجع السابق، ص ص 198، 199.

[5] إن المعلومات التي أوردها الرحالة المغاربة بخصوص استفحال ظاهرة اللصوصية في الحجاز نجد لها تأكيدا في كتاب الجبرتي، ففي حديثه عن موسم حج 1785 أشار أن الأعراب تعرضوا للحجاج المغاربة في المدينة المنورة حيث حاصروهم و نهبوا أمتعتهم و قتلوا عددا كبيرا منهم و لم ينجوا منهم إلا القليل . أنظر : الجبرتي، المصدر السابق، ج2، ص ص 200- 202.

كان الحجاج يتخوفون من المبيت في منى ، وذلك خوفا من أذية اللصوص في هذا الموضع[1]، وأما الورتلاني الذي حج سنة 1768 فقد أشار أن بلاد الحرمين الشريفين مكة والمدينة المنورة أضحت تعد من المناطق التي تشهد انعداما في الأمن حيث زاد فيها الظلم والتعدي [2].

ومن العادات الذميمة التي استوقفت الرحالة المغاربة واستنكروها على أهل الحجاز انتشار ظاهرة الرشوة وشراء المناصب، حيث لاحظ الزياني أن هذا الفساد شمل كل المناصب الدينية من قضاء وإمامة وخطابة وفتوى، وفي هذا السياق قال مفاضلا بين المشرق والمغرب:" هذه أحدى المسائل التي فضل بها المغرب المشرق، والثانية هذه المناصب الدينية من القضاء والفتوى والتدريس والامامة و التوريق والخطابة والشهادة لا تباع ولا تشترى كعادة أهل المشرق، وكلهم ببلاد الروم والشام والعراق ومصر والحرمين فإنّها تباع، فإذا مات صاحب خطة يشتريها من الولاة غيره على أية حال كان، وما رأيت قاض ببلد من هذه الأقاليم كلها يقارب أن يكون شرعيا، ومدار أحكامهم على الرشا وقبض المال في الحق والباطل ..."[3].

وإلى جانب الرشوة لاحظ الرحالة المغاربة عادة أخرى استنكروها بشدة وهي عادة التدخين حيث قال السبعي بشأنها:"وقد تعودوا عادة قبيحة وهي شرب الدخان، عشبة تلف في كاغيط ذكورا وإناثا... وتلك مصيبة عظيمة أصابت أهل تلك النواحي، كما أصابت مصيبة شرب أتاي أهل نواحي المغرب"[4].

3. الأعياد و الاحتفالات :

اشتهر أهل الحجاز بإحيائهم لعدة احتفالات و مناسبات، وقد لفتت مظاهر هذه الاحتفالات أنظار الكثير من الرحالة المغاربة والأوروبيين الذين سجلوا في مصنفاتهم جوانب كثيرة عن الطقوس والأجواء التي تصاحبها، وقبل أن نشرع في الحديث عن أهم هذه الاحتفالات ينبغي الإشارة أن معظم هذه الاحتفالات قد اتسمت بالطابع الديني .

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف:

لقد خصص أهل الحجاز للمولد النبوي الشريف احتفالا عظيما، فهو من المناسبات الدينية التي لها تقاليد خاصة، وقد كان من ضمن عاداتهم إذا حلت ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول إيقاد الشموع

[1] الدرعي، المصدر السابق، ص 371. أنظر أيضا: الطيب الفاسي الشرقي ، المصدر السابق، ص 198.
[2] الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 492، 493
[3] الزياني، المصدر السابق، ص 232.
[4] السبعي، المصدر السابق، ص 67.

و المصابيح و القناديل، ويذكر بيركهارت أنه خلال هذا اليوم كان يعطل البيع والشراء فتغلق الحوانيت والمتاجر أبوابها، وفي صباح ذلك اليوم يجتمع الناس في المسجد النبوي، وكذلك يحضر العلماء والخطباء والأئمة لإحياء هذه الليلة فينشد المنشدون القصائد في مدح النبي عليه الصلاة و السلام، و يشرع كذلك الخطباء الأربعة في الحديث عن مناقب الرسول، وفضلا عن ذلك كان يتم إحياء هذا الاحتفال بتقديم مختلف أصناف الأطعمة و الأشربة[1]، وقد لاحظ الفقيه الحيوني مخالفة أهل الحجاز لأهل المغرب في إحيائهم للمولد النبوي الشريف، حيث استرعى انتباهه اقتصار الاحتفال عندهم على ليلة المولد النبوي فحسب، وهذا بخلاف المغرب العربي الذي كانت تبدأ فيه مراسيم الاحتفال من بداية شهر شوال وإلى غاية يوم الثاني عشر منه[2] .

الاحتفال بركب الحجيج والمحمل الشريف.

كان دخول أركاب الحج إلى الحجاز يُعدّ مناسبة للاحتفال عند الحجازيين، إذ جرت العادة أن يُستقبل الحجاج القادمين من مختلف الأمصار بالترحيب و الحفاوة، ومن المظاهر الاحتفالية المصاحبة لهذا الحدث المشهود يذكر لنا ابراهيم رفعت في معرض وصفه لوصول المحمل الشريف إلى مدينة جدة، أنه كان يقام للمحمل الشريف عند دخوله إلى الديار المقدسة احتفال رسمي، فقد كان من عادة أهل الحجاز في مثل هذا اليوم نصب الخيام لاستقبال الحجاج، كما كان يخرج عامة الناس و الأغوات وشيخ الحرم، والموظفون وأكابر الدولة لاستقبال موكب المحمل، فتطلق المدافع وتعزف أنواع الموسيقى والأنغام، وذلك طيلة فترة طوافه في شوارع المدينة، وكانت تستمر تلك الأفراح والاحتفالات حتى يصل المحمل إلى مكان المخصص له [3]، أضف إلى ذلك كان وصول أركاب الحج إلى مكة المكرمة يُعدّ أيضا فرصة تنصب فيها الأسواق وهذا ما أكده محمد بن عبد السلام الناصري بقوله: "ومن عادة أهل مكة الخروج لملاقاة الركاب فتنصب هناك الأسواق ويخرج حتى الطباخون"[4].

[1] بيركهارت، المصدر السابق، ص 322.

[2] عبر الفقيه الحيوني عن هذا الاختلاف بقوله " وقد جلست في المدينة المنورة ثلاثة أشهر وحضرت عندهم المولود فلا يقرؤون فيه شيئا أبدا ، ولا يصلون على النبي إلا ليلة المولود ...، وعند صباح المولود اجتمعت الخلائق في مسجده عليه السلام ، ونصبوا كرسيا في وسط المسجد ، فصعد فوقه واحد من الخطباء فخطب ثم نزل فصعد آخر، فصعد فوقه أربعة ثم انصرفت الناس، وهذا ما يفعلون في المولود لا غيره". أنظر: الحيوني، المصدر السابق، ص 99.

[3] رفعت باشا ، المصدر السابق، ج 1، ص 19، 20. أنظر أيضا: البنتوني، المصدر السابق، ص 142.

[4] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 481.

الاحتفال بختم القرآن الكريم:

يذكر ابراهيم رفعت أن هذا الاحتفال يُعدّ من بين الاحتفالات المهمة التي اعتاد أهل الحجاز على إقامتها لأولادهم بعد إتمامهم حفظ كتاب الله، فهم يخصصون لهذه المناسبة احتفالا كبيرا[1]، وعن ما كان يتخلل هذا الاحتفال من أجواء ومراسيم فقد جرت العادة أنه إذا أتم الإبن أو الطفل حفظ القرآن الكريم يقوم معلم الكتاب بكتابة آيات من القرآن الكريم على لوح من الخشب المزخرف ثم يخرج رفقة تلاميذه في موكب كبير باتجاه بيت الطفل الذي أتم حفظ كتاب الله، وبعدها يقرأ الطفل المحتفل به بعض الآيات القرآنية المكتوبة على اللوح المنقوش[2]، ثم بعد إتمامه للقراءة يلقى عليه الحاضرون في الاحتفال من الأقارب والأصدقاء النقود التي سوف تعطى للمعلم الذي قام بتلقينه القرآن الكريم، وفي خضم هذا الاحتفال كان المنشدون يقومون بإنشاد بعض القصائد، كما كانت توزع مختلف أصناف الأطعمة والحلويات و الأشربة [3].

الاحتفال بشهر رجب:

يُعرف هذا الاحتفال كذلك بالرجبية ، ويبدأ الاحتفال به من مستهل شهر رجب، حيث تعم الفرحة والبهجة في مكة المكرمة، وتُضاء المصابيح والقناديل وتُدق الطبول ، ولا يقتصر هذا الاحتفال على أهل الحجاز فحسب، بل يشارك فيه شريف مكة الذي يخرج مع فرسانه إلى الأماكن المخصصة للاحتفال لمشاهدة الاستعراضات، ثم يتوجه بعد ذلك الشريف إلى بيت الله الحرام فيطوف حول الكعبة و يستمع إلى دعاء المؤذن في أعلى قبة زمزم، وبعد الإنتهاء من الطواف يصلي ركعتين في المسجد وينتهى ذلك اليوم البهيج بعودته إلى مترله، وكان من أهم عادات أهل الحجاز في احتفالهم بالرجبية إقامة العمرة في هذا الشهر، حيث كان المسجد الحرام يكتظ بالمعتمرين سواء القادمين من داخل البلاد أو من الأقطار المجاورة[4]، كما كان من عاداتهم أيضا في الرجبية زيارة أحد المزارات المشهورة وهو قبر حمزة رضي الله عنه عم النبي عليه الصلاة والسلام، حيث كانت تقام به احتفالات كبيرة يحضرها غالبية سكان المدينة المنورة و الأمراء والعساكر [5].

---

[1] رفعت باشا ، المصدر السابق،ج 1، ص 205.

[2] رمضان صديق عبد الحميد، المرجع السابق، ص 141.

[3] شحات محبت، المرجع السابق، ص ص 397، 398.

[4] نفسه ، ص ص 372، 373.

[5] يصف الدرعي ما كان يجري في هذا الاحتفال فيقول:" ولأهل المدينة احتفال كبير في رجب يختلفون فيه لزيارة قبر حمزة والشهداء رضي الله عنهم، يأتي إليه الناس من أقطار الحجاز واليمن والطائف والينبع فيحشرها هناك خلائق لا يحصون يقاربون ما يجتمع في موسم الحج ، ويخرج أهل المدينة المنورة إلا القليل بأولادهم، ويخرجون معهم المضارب الحسان والخيام، ويخرج أمراء المدينة وعسكرها، وتنصب الأسواق هناك ... ويحصل في تلك الليلة من أنواع اللهو والطرب واللعب أشياء كثيرة والرمي بالمدافع والمحارق ، ويبيت الناس طوال ليلهم بالقراءة و الزيارة حول القبر ...".أنظر: الدرعي، المصدر السابق، ص ص 493، 494.

الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج:

كانت ليلة الاسراء والمعراج من المناسبات الدينية الهامة التي يحتفل بها أهل الحجاز، ففي يوم السابع وعشرون من شهر رجب يذكر الورتلاني نقلا عن العياشي أنه كان يقام بالمسجد النبوي الشريف احتفال كبير، فيجتمع به جمع غفير من الناس، يقضون ليلتهم في الذكر والقراءة والدعاء والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد حضر العياشي جانبا من هذا الاحتفال وقد لفت انتباهه مشاركة الأعراب ومختلف الوفود في هذه الاحتفالات المقامة بهذه المناسبة الدينية [1].

الاحتفال بشهر رمضان:

يُعدّ من الاحتفالات الراسخة في المجتمع الحجازي، فمنذ اليوم الأول من هذا الشهر كان المسجد النبوي يتحول إلى مكان مزدحم من كثرة الدروس وتلاوة القرآن[2]، وأمّا عن عاداتهم في شهر رمضان فإن أهل الحجاز اعتادوا أن يقوموا بتناول إفطار خفيف في المسجد النبوي الشريف، وبعد أدائهم لصلاة المغرب كانوا يذهبون إلى منازلهم لاستكمال بقية الإفطار، وبعد الانتهاء من الإفطار يعودون إلى المسجد النبوي لأداء صلاة العشاء و التراويح، وهذه الأخيرة يشير ابراهيم رفعت أنّها كانت تقام بعدة أئمة، حيث يبلغون أكثر من خمسين إماما معظمهم من الشبان الحافظين للقرآن الكريم، فكان للباشا وأتباعه إمام وللنساء إمام كذلك، وفي نهاية شهر رمضان كان من عادة الأغنياء والميسورين توزيع الملابس والثياب البيض على القفراء والمساكين [3].

الاحتفال بعيد الفطر:

يعتبر عيد الفطر بالنسبة لأهل الحجاز والمسلمين عامة من الأيام المشهودة التي يحرصون على الاحتفال بها، وقد استوقفت مظاهر الاحتفال بهذه المناسبة الدينية اهتمام العديد من الرحالة الأوروبيين، فذكر سنوك هورخرونيه أن من عادات الحجازيين في ليلة الأول من شهر شوال ترقب رؤية الهلال، وفي الصباح الباكر كان أهل الحجاز يتزينون بأبهى الملابس و أفضلها، ثم يتوجهون إلى المسجد النبوي لتأدية صلاة العيد، وحسب وصف نفس الرحالة كان الحجازيون خلال هذه المناسبة الدينية يعكفون على إظهار مظاهر الفرحة والبهجة[4]، ومن عاداتهم في هذه المناسبة كذلك تبادل التهنئة و زيارة الأقارب فلكل جهة يوم مخصوص

---

[1] الورتلاني، المصدر السابق، ج2، ص 605. العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 465.

[2] هيا بنت عبد المحسن محمد البابطين، "ملامح من الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة زمن العثمانيين"، 1517م-1916م"، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع 16، السنة الثامنة، 2007م، ، ص 146.

[3] رفعت باشا، المصدر السابق، ج1، ص 444.

[4] سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، تر: محمد محمود السرياني، ج2، دارة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، 1999م، ص ص 392، 393

يزورون فيه الأهالي في الجهات الأخرى، كما جرت العادة في هذا اليوم أن يتم إعداد مختلف أصناف الحلويات والمأكولات والمشروبات وتقديمها للزائرين[1].

الاحتفال بعيد الأضحى :

لعيد الأضحى أهمية خاصة لدى أهل الحجاز، فهم يخصصون له احتفالا في كل موسم، غير أن تلك الاحتفالات التي دأب أهل الحجاز على إقامتها في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة تظل أقل شأنا من احتفالاتهم المخصصة لعيد الفطر، وهذا ما أكد عليه سنوك هورخرونيه في كتابه، وأمّا عن عادات الحجازيين في الاحتفال بهذه المناسبة فقد كان من عاداتهم الخروج إلى المساجد لإقامة صلاة العيد وحضور الخطبة، ثم يقومون بذبح الأضاحي[2].

ولم تكن تقتصر الاحتفالات بهذه المناسبة على هذه المظاهر فحسب، بل كانت تنتشر مظاهر الفرح والسرور حيث كان يتم قرع الطبول في الشوارع وكذلك تعلّق الزينات، وكانت الاحتفالات بقدوم العيد الأضحى تبدأ من بداية اليوم الأول من شهر ذي الحجة وتستمر إلى غاية التاسع منه حيث يقف الحجاج في عرفة، وفي هذه المناسبة كان أهل الحجاز يقومون بتبادل التهاني والزيارات بالإضافة إلى زيارة المقابر[3].

حفلات الختان:

كان ختان الأبناء يُعدّ مناسبة يحتفل بها الحجازيون، وقد انفرد بيركهارت في رحلته بتصوير جانب من عاداتهم المرتبطة بهذه المناسبة، وفي السياق أوضح بأن احتفالاتهم بالختان لا تختلف عن احتفالات المصريين، فمن عاداتهم أنهم يلبسون الطفل بعد ختانه أحسن الثياب والتي تكون مصنوعة من القماش الفاخر، ويضعونه فوق حصان مزين و مزكش، ثم يسيرون به في موكب ضخم عبر المدينة وتدق الطبول وتقرع فرحا به[4].

[1] رفعت باشا، المصدر السابق، ج1، ص 444.

[2] هورخرونيه، المصدر السابق،، ص ص 394، 395.

[3] حليس، المرجع السابق، ص 204.

[4] بيركهارت، المصدر السابق، ص 183.

4. الألبسة في الحجاز

اتفق الرحالة المغاربة والأوروبيين على الإشارة إلى أن لباس أهل الحجاز امتاز بالتنوع ، ومما يلاحظ على الحجازيين أنهم كانوا يهتمون بشكل كبير بأزيائهم، وقد لفت هذا الأمر انتباه العديد من الرحالة، فبيركهارت عند زيارته لمكة المكرمة استوقفته نظافة أهلها واعتنائهم الكبير بملبسهم، وقد أشاد بذلك فقال:"يحافظ أهل مكة على نظافة ثوبهم أكثر من أي شعب شرقي عرفته يوما ...إنّ أهل الحجاز يبتهجون بأثوابهم أكثر بكثير من المسلمين الشماليين فينفق دخل الطبقات الدنيا في الأغلب على الثياب"[1]، وفي قول بيركهارت هذا دلالة واضحة على مدى اعتناء سكان الحجاز بملبسهم فقد كانوا يسرفون في إنفاق الأموال من أجل اقتناء الملابس الفاخرة، وقد أكد الرحالة العياشي هذه الملاحظة كذلك في رحلته [2].

اختلفت ملابس سكان الحجاز عن بعضها البعض وذلك تبعا للمكانة الاجتماعية لكل فئة، وإذا ما تطرقنا لملابس الرجال فإن الفقيه الحيوني قدم وصفا شاملا لها فذكر أنه نتيجة للمناخ الحار الذي يميز المنطقة: "فإن أهل الحجاز لا يلبسون في الغالب إلا الحزازيم ... وكل واحد منهم على رأسه خمار كالمرأة لكن فيه تفصيل فمنهم من يجعل منه سبنية حرير أحمر وهو الغالب، ومنهم من يجعل السبنية أولا على رأسه ثم عليها العمامة ومنهم من يعكس بأن يجعل العمامة أولا ثم يلقي فوقها الخمار ..."[3].

وبخلاف الفقيه الحيوني يشير بيركهارت إلى أن كل طبقة من طبقات المجتمع الحجازي امتازت بلباسها الخاص، فالطبقة العليا كان لباسها في فصل الشتاء يتكون من عباءة حريرية تكون مشدودة بحزام مزركش من الكشمير الرقيق،كما اشتهر من ملابسهم كذلك العمامة المصنوعة من الموسلين الأبيض، وتختلف ملابس الطبقة المتوسطة عن ألبسة الطبقة العليا، فملابس أفراد هذه الطبقة حسب ما جاء في وصف بيركهارت غالبا ما تكون مصنوعة من الموسلين الأبيض، وهي عموما تتشكل من عباءة قصيرة بدون أكمام وتسمى "بدن"، وفوق هذا البدن كانت تلبس جبة من القماش الرقيق أو من الحرير الهندي أو الكتان المصري، وأمّا بالنسبة للطبقة الدنيا فقد اقتصر لباسها في فصل الصيف على القمصان، وكان معظم أفراد هذه الطبقة يرتدون بدلا من السروال

[1] بيركهارت، المصدر السابق ، ص 156.

[2] يقول العياشي بهذا الشأن :" وأهل المدينة زادهم الله خيرا ووسع عليهم أهل رفاهية وتوسع في المعيشة في زماننا هذا وتغال في الملابس الفاخرة" أنظر : العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 456.

[3] الحيوني، المصدر السابق، ص 63.

قطعا من القماش المتين يلفون به خواصرهم، وأمّا في فصل الشتاء فكانوا يرتدون فوق تلك القمصان الأقمشة القطنية، كما كانوا يضعون على رؤوسهم طاقية لكن بدون العمامة التي اختص بها العلماء [1].

قدم بعض الرحالة وصفا لملابس الأغوات إذ يذكر بيركهارت أن لباس هذه الفئة قد تميز بكونه أكثر تكلفا من ألبسة الفئات الأخرى، حيث كانت ملابسهم تصنع من القماش الهندي، وزيادة على ذلك كانوا يضعون الشيلات الكشميرية، ويرتدون عباءات مصنوعة من أفخم الأقمشة الحريرية[2]، كما اعتادوا كذلك أن يضعوا فوق ملابسهم قفطانا أو قميصا أبيض اللون مشدود في الوسط بحزام مع عمامة بيضاء وهذا تمييزا لهم عن باقي الفئات[3].

وعن لباس الأشراف يشير الرحالة بيرتون أنهم كانوا يلبسون الجبة أو البشن و هو عباءة طويلة واسعة الأكمام، كما امتازوا بارتداء الكوفية أو العمامة البيضاء[4]، ووفقا لوصف العياشي لم يكن لباس الأشراف يختلف عن لباس الأعراب في البوادي فهم يضعون العمائم القصيرة ذات الأهداب الطويلة، ويرتدون الدشوت الرفيعة (العباءة) وينتعلون النعال ذات السيور على ظهر القدم[5].

وكان لفئة العلماء والخطباء ومشايخ الحرم لباس خاص بهم يميزهم عن غيرهم، وقد وصف الرحالة دومينجو باديا طبيعة هذا اللباس فذكر أنه يتكون من قفطان خارجي منفصل عن قفطان آخر داخلي ويكون مشدود بحزام[6]، ومن جهته يضيف بيركهارت أن العلماء اشتهروا بارتداء القفطان المزركش المصنوع من القماش الفاخر، والصدرية التي تخاط من القماش الحريري والقطني، كما كان من ملابسهم كذلك العمامة التي تصنع من القماش الهندي إذ كانت تلف حول الرأس ويترك جزء من ذيلها يتدلى إلى أسفل الظهر[7].

وأما بخصوص ملابس أهل البادية يذكر شارل ديديه في رحلته أنهم امتازوا بارتداء الملابس الخشنة التي تصنع من الكتان، كما اشتهر بعضهم بلبس أثواب زرقاء تكون مشدودة إلى الخصر بضفائر من الجلد، وكانت ملابسهم تحتوي على حمالات مزينة توضع فيها السيوف والخناجر، وكذلك كان البدو يلبسون الكوفية أو الطاقية التي توضع على رؤوسهم وفي الغالب ما تكون زرقاء اللون مثبت عليها عقال أسود[8].

---

[1] بيركهارت، المصدر السابق، ص 155.

[2] نفسه، ص 286.

[3] badia y leblich, op,cit, , t2, p 374,375 .

[4] Burton, opcit, p4

[5] العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 457.

[6] badia y leblich, , op,cit , p 405, 406

[7] بيركهارت، المصدر السابق ، ص 156.

[8] didier, op,cit, p 222 .

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض أهل الحجاز قد تأثروا في ملابسهم بملابس الأجناس الوافدة عليهم، حيث انتشرت العديد من الألبسة المغربية والتركية كالطرابيش والعباءات، وهذا ما أشار إليه الرحالة بيركهارت حيث قال عن هذا التنوع : "وأهل المدينة أكثر شبها في ألبستهم بألبسة الترك من جيرانهم الجنوبيين في مكة فقليلون جدا من من يرتدون البدن أو العباءة العربية التي ليس لها أكمام، وإن كان حتى من أفقر الناس من يرتدي معطفا طويلا مع جبة ... ويكثر استخدام الطرابيش التونسية الحمراء"[1]، كما يقول في موضع آخر : "وليس غريبا رؤية رجل وقد ارتدى ملابس تعود إلى ثلاث بلدان مختلفة أو أربع فهو بالتالي كعربي إلى حد خصره وكجندي تركي عند صدره وكتفيه"[2] .

وأمّا عن ملابس النساء فإن الملاحظ أنها اختلفت هي الأخرى حسب تنوع الطبقات الاجتماعية، فالملاحظ من خلال ما ورد في كتب الرحلات أن ملابس النساء في البوادي لا تختلف كثيرا عن مثيلاتهن في المدن، وقد ذكر دومينجو باديا أن النساء اللواتي يقطن في البادية كن يرتدين أثوابا من القماش الأزرق، كما كان من عادتهم أيضا ارتداء عباءة سوداء من الصوف[3].

ويتفق هذا الوصف مع وصف بيرتون الذي أشار بدوره إلى أن البدويات غالبا ما كن يلبسن أثوابا زرقاء داكنة وواسعة، كما أنهن كن يضعن على وجوههن غطاء يسمى بالبرقع وهو عبارة عن قماش أسود اللون[4]، وعن النساء في المدن يفيدنا نيبور بأن لباسهن كان مشابه للباس المصريات [5]، وأمّا بيركهارت فيذكر بأنهن كن يرتدين ملابس مصنوعة من الحرير الهندي ولباسهن عبارة عن سراويل زرقاء واسعة مطرزة من الأسفل بالفضة، وكانت النساء ترتدين فوق هذه السراويل عباءة واسعة تسمى بالحبرة، وكانت المرأة في المدن تضع فوق رأسها طاقية مثل طواقي الرجال لكنها ملفوفة بقطعة من الموسلين الملون، كما كُن أيضا يرتدين البرقع الأبيض والأزرق الذي يغطي جزءا من وجوههن، ومما تجدر الإشارة إليه أن المرأة في الحجاز قد اهتمت بالزينة حيث حرصن على التزين بمختلف أنواع الحلي كالأساور الفضية و العقود الذهبية والخلاخل[6].

[1] بيركهارت، المصدر السابق، ص310.

[2] نفسه، ص 310.

[3] badia y leblich,op,cit , t 2, p 403 , 404

[4] burton, v2, op,cit, p 116

[5] نيبور، المصدر السابق، ص 240.

[6] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 157، 158. أنظر أيضا: Burton, op,cit, p 116

5. الأطعمة و الأشربة :

إنّ أول ملاحظة يمكن استيقاؤها من نصوص الرحلات أن أهل الحجاز كانت لهم عناية كبيرة بالأطعمة والأشربة، وانطلاقا من هذا فإن أصناف المأكولات التي تميز بها الحجازيون تنوعت وتعددت، إذ كان منها ما هو محلي ومنها ما كان من أطعمة البلدان التي جاء منها الوافدون الذين أقاموا في الحجاز [1].

أشار العديد من الرحالة ومنهم شارل ديديه أن الغذاء الغالب عند أهل الحجاز يتمثل في لحوم الأغنام حيث يعتبر من بين الأطعمة الأساسية التي تستخدم في الضيافة[2]، وقد أكد العياشي ذلك أيضا ففي وصفه لغذاء أهل المدينة المنورة أوضح أنهم مولعون بأكل اللحوم، كما ذكر أن نساءهم لم يكن يقومن بإعداد الطعام ما لم يكن يتوفر عندهن اللحم، وقد بلغ الأمر ببعض الأسر الغنية من شدة ولعهم باللحوم إلى تكليف أحد من عبيدهم للقيام بمهمة واحدة هي شراء اللحم من الأسواق [3]، ومن الأطعمة الأخرى التي اشتهر بها أهل الحجاز أيضا الأرز و السمن والزبدة و الأجبان' والعسل والمربى بشتى أنواعه، وقد اعتاد الحجازيون على تقديم البعض منها في وجبة الفطور[4].وهذا ما لاحظه الرحالة بيركهارت حيث وصف عادة أهل الحجاز في تناول الطعام بقوله: "وعامة الناس عادة ما يكون طعامهم عبارة عن سمن و عسل مصبوب على قطع مفتتة من خبز حار للتو من الفرن، والعرب مولعون بالمعجنات لا يأكلونها أبدا بدون عسل"[5].

نستشف مما سبق ذكره أن معظم الأطعمة في الحجاز قائمة على الإنتاج المحلي، فالثروة الحيوانية التي كانت تزخر بها الحجاز وخاصة الأغنام تعد المصدر الأساسي لإنتاج هذه الأصناف من المأكولات[6]، وقد أشار في هذا الصدد الفقيه الحيوني بأن هذه المنتجات كان وفيرة بالحجاز فالأسواق كانت عامرة بالسمن والزبدة واللحم والعسل فقد كان يأتي بها الأعراب من البوادي لبيعها خصوصا في مواسم الحج[7].

ومن الأطعمة الشائعة في الحجاز كذلك الخبز المصنوع من الشعير، لكن الذي يظهر من خلال ما ذكره بيركهارت أنه كان الغذاء الأساسي للطبقة الفقيرة[8]، ومما يلاحظ على الأطعمة الحجازية أنّها تأثرت بأطعمة

---

[1] نهلة بنت شحات عمر محبت، "جوانب من الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز كما دونها الرحالة شارل ديديه من خلال رحلته الموسومة برحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر" ، مجلة المؤرخ العربي، مج2، ع 28، 2020م، ص 462.

[2] didier, op,cit, 238.

[3] العياشي، المصدر السابق،ج1، ص 456.

[4] didier, op,cit, p 240.

[5] بيركهارت ، المصدر السابق، ص 295.

[6] شحات عمر محبت، المرجع السابق ، ص 462

[7] الحيوني، المصدر السابق، ص 57.

[8] بيركهارت، المصدر السابق، ص 295.

البلدان المجاورة فنتيجة لازدياد عدد الوافدين واختلاطهم بالسكان المحليين انتقلت أنواع عديدة منها إلى الحجاز وخاصة منها أطعمة بلاد الشام و مصر والهند[1] فأضحت من أبرز الأطعمة، وفي هذا الصدد يشير شارل ديديه أنه قُدم له أثناء مكوثه بالحجاز الكباب و أوراق العنب المحشوة[2] .

لم يغفل الرحالة الأوروبيين وهم يستعرضون أصناف الأطعمة أن يشيروا كذلك إلى النظام الغذائي السائد في الحجاز، وفي هذا الصدد لاحظ بيركهارت أثناء مكوثه بمكة المكرمة أن الطبقة الغنية كانت تتناول وجبتين في اليوم، بينما يقتصر الفقراء على تناول وجبة الإفطار فحسب[3]، وإضافة إلى سبق ذكره اعتاد أهل الحجاز على تناول مختلف أنواع الفواكه كالتين والعنب و المشمش واللوز، والرمان و البطيخ والسفرجل، كما كانت التمور تعد من الأغذية الرئيسية لدى أهل الحجاز عامة والطبقات الفقيرة على وجه الخصوص، حيث أثنى بيركهارت على جودتها و ذكر أنّها تنقسم إلى أنواع عديدة منها التمر الجبيلي ، و البرني و الصيحاني[4].

زيادة على ذلك اشتهر أهل الحجاز بإعداد الحلويات، وهذه الأخيرة تنوعت فكانت توجد منها عدة أصناف، وقد أشار شارل ديديه إلى ذلك فذكر بأنه عند استضافته في الطائف قدم له نوع منها يسمى بـــ: "الفطير"[5]، كما أشار بيركهارت إلى وجود أنواع أخرى من الحلويات كالبقلاوة و الكنافة و الغريبة ، وهذه الأصناف من الحلويات لا تعد من الحلويات الحجازية المحلية وإنما اشتهر بإعدادها المصريون و السوريون [6].

وأمّا بخصوص الأشربة التي اشتهرت بها الحجاز فتنوعت هي الأخرى بتنوع الأطعمة، لكن الملاحظ أن حديث الرحالة عنها جاء موجزا مقارنة بحديثهم عن الأطعمة، ويستفاد من بعض الإشارات المتفرقة في نصوص الرحالة المغاربة والأوروبيين أن من أهم الأشربة التي كانت الذائعة الصيت في الحجاز شراب البن " القهوة"، إذ اعتاد الحجازيون على استهلاكه بصفة مفرطة على حد قول بيركهارت[7]، فتحولت إلى عادة من عاداتهم اليومية، كما أنه أضحت مظهرا من مظاهر إكرام الضيوف والاحتفاء بهم، وفي هذا الصدد يطلعنا الرحالة شارل ديديه أنه لما نزل بجدة تردد على العديد من المقاهي، وفي زيارته لأحد التجار الهنود يشير أنه

[1] Burton, op,cit, p 11
[2] didier, op,cit, p 238.

[3] بيركهارت، المصدر السابق، ص 168.
[4] نفسه، ص ص 34، 296،297 ،315.

[5] didier, op,cit, p 238.

[6] بيركهارت، المصدر السابق ، ص 35.
[7] نفسه ، ص81.

قدم له نوع من أنواع القهوة يسمى بـــ"الكسكري" وهو يصنع من قشور الحب تضاف إليه حبات من القرنفل و القرفة، ويرجع أصل القهوة على تعبير ديديه إلى اليمن[1].

كما يذكر محمد بن عبد السلام الناصري كذلك أنه لما وصل مدينة الينبع قدم له شراب البن الذي كان من أهم عادات الحجازيين في إكرام الضيوف، وتجدر الإشارة أن الرحالة المغاربة في حديثهم عن عادة شرب القهوة في الحجاز قد اتخذوا موقفا سلبيا منها وذلك لأنّها لم تكن معهودة في المغرب [2].

وعرف الحجاز إضافة إلى استهلاك البن وجود أنواع أخرى من الأشربة أهمها العصائر كشراب الزبيب وشراب الليمون[3] بالإضافة إلى شراب التمر الهندي الذي يذكر السبعي أن من أهم فوائده تخفيف الحرارة وتسكين العطش[4]، ومن الأشربة المشهورة في الحجاز كذلك شراب يسمى بـــ السويق"، وهذا المشروب اختصت بإعداده بعض المناطق حيث كان يسقى به الحجاج عند وصولهم إليها، وقد أفادنا البنتوني و الطيب الشرقي بطريقة إعداده إذ يذكران أنه كان يصنع عن طريق إذابة السكر في الماء [5].

وكذلك من الأشربة الرئيسية لدى أهل الحجاز اللبن والحليب وهما من المواد الأساسية التي اشتهر بهما سكان البوادي حيث يذكر أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته أن الأعراب كانوا يجلبون منه كميات كبيرة لبيعها في الأسواق الحجازية [6].

---

[1] didier, op,cit, p 162.

[2] يقول محمد بن عبد السلام الناصري في هذا الصدد : " كثيرا ما تقدم في سفرنا هذه القهوة جريا على عادة المشارقة ، فأمتنع عن شربها لمرارتها ولأني لم آلفها و لم تكن بأرض قومي فتجدني أعافها مع ما يزعمون فيها من المنافع ..." . أنظر: محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 439.

[3] البابطين عبد المحسن ، المرجع السابق، ص 159.

[4] السبعي، المصدر السابق، ص 52.

[5] البنتوني ، المصدر السابق، ص 144. أنظر أيضا: ، الطيب الفاسي الشرقي، المصدر السابق، ص ص 185- 241.

[6] الدرعي، المصدر السابق ، ص ص 540، 541.

6. الأوضاع الصحية في الحجاز :

إنّ المتتبع لما سجله الرحالة المغاربة والأوروبيين عن الحياة الاجتماعية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يلاحظ أن منطقة الحجاز عرفت خلال هذه الفترة وضعا صحيا متدهورا حيث انتشرت وتفشت الكثير من الأمراض والأوبئة التي أثرت سلبا على المجتمع الحجازي .

وقد اختلفت وجهات النظر حول العوامل التي أدت إلى تفشي الأمراض والأوبئة [1]، غير أن الملاحظ أن هذه الأسباب متعددة، فهناك من أرجعها إلى العوامل الطبيعية كسوء المناخ، وهذا ما أكد عليه بيركهارت فقد كان لطبيعة التربة وارتفاع نسبة الملوحة في المياه، وكذا وجود المستنقعات التي تكونها مياه الأمطار، زيادة على البخار المتصاعد من بساتين النخيل دور كبير في فساد الهواء وتلوثه وهذا ما يجعله غير مناسب للصحة [2].

وفي الواقع لم يكن بيركهارت الرحالة الوحيد الذي أشار إلى أثر المناخ على الصحة في الحجاز، حيث ذكر ذلك العديد من الرحالة فعبد العزيز دولتشين الذي زار الحجاز خلال موسم الحج 1898 م أكد هو الأخر أن المناخ و حالة الطقس ودرجات الحرارة المرتفعة وغياب الرياح في فصل الصيف كانت تتسبب في ظهور العديد من الأمراض خصوصا وأن ذلك كان يتزامن مع انتشار بقايا الأضاحي التي كان الحجاج يقومون بذبحها في إطار أداء مناسك الحج (الهدي) فكان يؤدي إلى تلوث الهواء [3] .

- وتجدر الإشارة أن ما ذكره دولتشين في الحجاز يتطابق إلى حد كبير مع ما ورد في بعض الرحلات الحجازية، إذ يؤكد لنا محمد بن عثمان السنوسي الذي زار الحجاز خلال موسم حج 1882م في معرض حديثه عن الأوضاع الصحية أن من أهم الأسباب التي كانت تؤدي إلى تفشي الأمراض في الحجاز هو تلوث الهواء الناتج عن مخلفات الذبائح، فذبح الأضاحي بطريقة عشوائية في ظل غياب الأماكن المخصصة لذلك كان ينتج عنه مع ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف روائح كريهة تضر بالصحة، وقد أوضح ذلك بقوله: "وهنا تحققت عن أسباب المرض على الحجاج ...، فإذا كان يوم العيد بمنى ذبحوا ضحاياهم وتناولوا لحومها بشره زائد، وربما تساهلوا في شأن طبخها فتؤثر فيهم آثارا غير ملائمة للصحة وقد شاهدت من ذلك كثيرا زيادة

[1] إن من أهم الدراسات التي تناولت موضوع الأوضاع الصحية في الحجاز خلال العهد العثماني كتاب جولدن صاري يلدز، والمعنون بـــ: الحجر الصحي في الحجاز 1865م 1914م، وقد ترجمه إلى اللغة العربية عبد الرزاق بركات .

[2] بيركهارت، المصدر السابق، ص 330

[3] دولتشين ، المصدر السابق، ص 312.

على كون جميع تلك الذبائح يجري دمها وتلقى أقذارها وفضلاتها على صعيد واحد بين منازل النازلين مع شدة حر المكان، وبذلك يحصل تعفن في الهواء واضح الضرر على الوافدين"[1].

إذا ما أردنا التعرف على أهم الأمراض التي انتشرت في الحجاز فإن الملاحظ أنّها تعددت غير أن أخطرها هو الوباء الذي كان ينتشر بسرعة ويؤدي إلى خسائر كثيرة في الأرواح خاصة إذ صادف انتشاره بداية موسم الحج ، وقد عرفت الحجاز خلال القرن التاسع عشر انتشار الوباء في فترات مختلفة ، وكانت مكة المكرمة و رابغ من أكثر المناطق التي تفشى فيها، ومما يدل على ذلك ما رواه العديد من الرحالة سواء المغاربة أو الأوروبيين، إذ يذكر الفقيه الحيوني أنه لما كان الركب في طريقه إلى مكة المكرمة وصلهم نبأ بتفشي الوباء فيها، وبالرغم من أن الفقيه الحيوتي لم يقدم تفاصيل كثيرة عن طبيعة هذا الوباء إلا أنه ترك لنا وصفا لحالة الذعر والهلع التي أصابت الحجاج بعد أن تناهى إلى أسماعهم خبر انتشار الوباء بمكة المكرمة حيث يقول:"فلما سافرنا منه بيوم تلقانا الكبة أي الوباء والعياذ بالله، فترى الرجل فوق جمله فلا تشعر به حتى يسقط من فوقه فمات الأول والثاني والثالث، وكنا متى وصلنا دار المصري وجدنا مكانه القبور وكذلك الطرابلسي كان أمامنا بيوم ... فطارت العقول للحناجر يا سعد الدين وجفت وصكت الركب ويبس الريق من أفواه الرجال"[2].

إن من أخطر الأوبئة التي شهدتها الحجاز في العهد العثماني وباء الكوليرا إذ تكرر انتشاره مرات عديدة[3]، وحسب ما جاء في وصف كورتلمون لم يكن هذا الوباء متوطنا في الحجاز، بل إنه كان ينتقل وينتشر فيه عن طريق القوافل والحجاج القادمين من الهند[4]، ومن أمثلة ذلك ما حدث في سنوات 1838م و 1840 م و1846 م[5]، بالإضافة إلى موسم حج 1865م الذي يعتبر من أكثر المواسم التي شكل فيها الوباء خطورة[6]، حيث أسفر عن هلاك عدد كبير من الأهالي و الحجاج، كما أنه لم يقتصر انتشاره على منطقة

---

[1] محمد بن عثمان السنوسي، **الرحلة الحجازية**، تح: علي الشنوفي ،ج2، الشركة التونسية للتوزيع، 1976م، ص 179

[2] الحيوني، المصدر السابق، ص ص 53، 54.

[3] أشار المؤرخ أحمد بن زيني دحلان في في مصنفه الموسوم بـــ "خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام " أن أول ظهور لوباء الكوليرا في الحجاز كان خلال سنة 1246هـــ- 1831م، و قد خلف هذا الوباء خسائر فادحة حيث راح ضحيته عدد كبير من السكان خاصة من مكة المكرمة التي أصبحت طرقاتها وأسواقها مملوءة بالموتى . أنظر: دحلان، المصدر السابق، ص 400.

[4] courtellemont, op,cit, p 147, 148.

[5] يلدز جولدن صاري ، " الحجر الصحي في الحجاز 1865-1914م "، تر: بركات عبد الرزاق البقاعي ، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج 8، ع 2، 2003، ص 291.

[6] اتخذت الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا من تدني المستوى الصحي بالحجاز ذريعة للضغط على الدولة العثمانية من أجل تحسين الأحوال الصحية في الحجاز، وقد كان هدفها من ذلك هو ضرب سياسة الوحدة الإسلامية (الجامعة الاسلامية) التي انتهجها السلطان العثماني عبد الحميد الثاني. أنظر: نفسه، ص 292.

الحجاز فحسب، بل انتقل وتفشى في العديد من الأقطار المجاورة كمصر واسطنبول وبلاد الترك وبلاد النصارى وذلك عن طريق الحجاج العائدين من مكة إلى موطنهم [1].

وفضلا عن تفشي الأوبئة شهدت الحجاز كذلك انتشار العديد من الأمراض، منها ما كان يحملها الحجاج معهم من بلدانهم، ومنها ما كان ينتقل إليهم بالعدوى أثناء سفرهم ومنهم من كانوا يصابون بها أثناء إقامتهم وأدائهم لمناسك الحج، فقد كانت الحجاز تعد من أكثر المناطق عرضة لانتشار الأمراض وهذا نظرا لأنّها تستقبل في كل موسم حج وفود كبيرة من الحجاج تأتي إليها من كافة بلدان العالم الإسلامي[2].

ومن ضمن الأمراض التي تأثر بها سكان الحجاز وورد ذكرها في نصوص الرحلات أمراض العيون، والكبد، واليرقان، والقرحة والرمد و الدوسنتاريا التي تنتج عن تناول الفواكه قبل نضجها، بالإضافة إلى الحمى، وهذه الأخيرة حسب ما يذكر بيركهارت تعد أكثر شيوعا وانتشارا بين السكان والوافدين وهي تنقسم إلى نوعين الحمى الخفيفة، والحمى المتقطعة، وقد كانت تصيب غالبية السكان وكان أخطرها تلك التي تنتشر في فصل الربيع، وزيادة على ذلك عرف أهل الحجاز كذلك مرض الجذام و الجدري الذي كان يتسبب في وفاة نسبة كبيرة من الأطفال، وقد كان يتم تطبيق العزل الصحي على المصاب به لتفادي انتشار العدوى[3].

وأمّا بالنسبة لإنعكاسات هذه الأوبئة والأمراض على المجتمع الحجازي فإنه بالرغم من أن النصوص الرحلية لم تقدم لنا إحصائيات دقيقة عن أعداد الوفيات جراء هذه الأوبئة والأمراض، إلا أن الواضح من خلال الوصف الذي قدمه بعض الرحالة أن هذه الأوبئة و الأمراض قد ألحقت أضرارا كبيرة بسكان الحجاز، حيث أثرت سلبا على التركيبة الديموغرافية فتناقص عدد السكان بشكل كبير، و خير ما نستدل به في الصدد ما أشار إليه الرحالة الحيوني الذي أكد أن الركب المغربي الذي كان يرافقه فقد نتيجة للوباء ثلثه من النساء والرجال، وفي وصفه لآثار الوباء يقول أيضا:"قامت الموت في الخلائق كحصاد الشعير فلا ترى إلا الجنائز يأتون بها للبيت الحرام فيطوفون بها سبعة أشواط ثم يطرحونها بفم الكعبة ويصلون عليها ويشيلونها للمقابر ولا يدفن أحد إلا إذا كتب له الشريف بن عون الإذن بذلك"[4].

---

[1] أدريان بروست أخيل، " الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة "، تر: محمد خير محمود البقاعي ، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج 8، ع 1،2002 م، ص 234.

[2] يوسف بن حسن العارف، "**الأوضاع الصحية في الحجاز أواخر العهد العثماني قراءة في كتاب الحجر الصحي في الحجاز 1865–1914**"، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، ع 6، 2003م، ص 197.

[3] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 202- 330.

[4] الحيوني، المصدر السابق، ص ص 58- 69.

ولا يختلف السبعي عن ما ذهب إليه الحيوني في وصفه لمخلفات الوباء أشار أن خلقا كثيرا هلك في منى جراء الوباء الذي ظهر بها خلال موسم حجه[1]، وكذلك حدثنا ابن طوير الجنة عن آثار الوباء الذي انتشر في الحرمين الشريفين سنة 1832م حيث وصفه بقوله: وأفنى الوباء في مكة المكرمة شرفها الله تعالى آلافا كثيرة لا يحصى عددها إلا الله خالقها تبارك وتعالى، وكان يموت في اليوم الواحد أكثر من آلاف، والمدينة المنورة زادها الله تشريفا وتعظيما ... أفنى فيها كثيرا في ثلاثة أيام، ولكن هي أقل من مكة بكثير ..."[2]، وأمّا الرحالة بيرتون فقد نقل لنا أيضا احصائيات تبين مدى خطورة الوباء على السكان فالوباء الذي تعرضت له المدينة المنورة ألحق أضرار بالغة حيث قضى في بعض الأحيان على أسر بأكملها [3].

وبالعودة إلى ما سجلته المصادر التاريخية نجد في ثناياها ما يدل على الآثار الوخيمة التي نجمت عن هذه الأوبئة، فجراء الوباء الذي تعرضت له مكة المكرمة سنة 1865م انتشر الموت بين الناس وتوفي عدد كبير من الحجاج [4]، كما أسفر وباء 1893م عن هلاك أكثر من ثلاثة وعشرون ألفا [5]، ومما ينبغي الإشارة إليه في الأخير أن تكرار تفشي الأوبئة و تدني المستوى الصحي في الحجاز خاصة خلال القرن التاسع عشر لا يعني أن الدولة العثمانية لم تعمل على الحد من أثار هذه الأوبئة، بل إنّ المصادر تؤكد أنّها عملت على تحسين الأوضاع الصحية بالحجاز، وذلك من خلال اتباع مجموعة من الإجراءات والتدابير الوقائية كالاهتمام بشؤون النظافة العامة وفرض نظام الحجر الصحي أو ما يسمى بالكرنتينة، وذلك في أهم الموانئ التي يمر على الحجاج[6].

---

[1] السبعي، المصدر السابق، ص 57.

[2] ابن طوير الجنة، **رحلة المنى** ...، المصدر السابق، ص73. أنظر أيضا: حماه ولد سالم، "مراجعة أولية حول أوضاع الحجاز في الرحلات الحجية الشنقيطية"، مجلة الدارة، مج22، ع 4، 1997م، ص 37.

[3] السملي، المرجع السابق، ص 340

[4] جولدن صاري ، المرجع السابق، ص 291

[5] سهيل صابان، "الأمراض والوفيات في الحجاز في مواسم الحج 1881مـ 1907م"، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع 16، 2007م، ص 184.

[6] أقامت الدولة العثمانية عددا من المحاجر الصحية لمراقبة الحجاج القادمين إلى مكة المكرمة وهذا بهدف منع انتشار الأوبئة في موسم الحج ، ومن أهم المحاجر الرئيسية التي تم إنشاؤها محجر الطور في خليج السويس بالإضافة إلى محجر قمران الذي أنشئ سنة 1881م في جنوب البحر الأحمر . للمزيد انظر: رمزي بن أحمد الزهراني، " **الأبعاد الجغرافية لظاهرتي الصحة والمرض خلال موسم الحج : دراسة للنصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين**"، مجلة رسائل جغرافية، ع 190، ص ص 25، 26.

المبحث الرابع : الأوضاع الثقافية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

شكلت بلاد الحرمين الشريفين على مر العصور التاريخية الملاذ العلمي والروحي للمسلمين، فلا يوجد موقع جغرافي استقطب المسلمين من مختلف أقطار العالم مثل الحجاز، وقد تعززت هذه المكانة الدينية والعلمية التي اكتسبتها منطقة الحجاز نتيجة لعدة عوامل أهمها وجود المدينتين المقدستين مكة والمدينة المنورة فقد كانت تشد إليهما الرحال لأداء مناسك الحج و طلب العلم خصوصا وأنهما كانا يشتملان على أهم المراكز العلمية الموجودة في العالم الإسلامي المسجد الحرام والمسجد النبوي[1]، و زيادة على ذلك إنّ ما ساعد أيضا في بروز المكانة العلمية للحجاز هو تعدد المذاهب الإسلامية الموجودة به، إذ أن تنوعها جعل طلاب العلم باختلاف انتماءاتهم المذهبية يتوافدون عليه للأخذ عن كبار الشيوخ والعلماء الذين ذاع صيتهم في العالم الإسلامي[2].

كما لا يخفى علينا أنه كان للمجاورين أثر فعال في تنشيط الحركة العلمية بالحجاز فقد كانت قوافل الحج التي تفد على الحجاز في كل موسم تضم جمعا من العلماء ممن فضلوا البقاء والاستقرار في مكة والمدينة المنورة، و نظرا لتنوع المراكز العلمية و تشجيع الدولة العثمانية للنشاط العلمي بالحرمين الشريفين وذلك من خلال ما كانت توفره للعلماء من مخصصات مالية فإن هؤلاء المجاورين نشروا علومهم و معارفهم وهو ما ساهم بلا شك في إثراء الحركة العلمية، فأضحى الحجاز بذلك يعدّ ملتقى للعلماء، بل أنه مثل أحد أهم المراكز العلمية التي أصبحت تشد إليها الرحال في العالم الإسلامي [3].

لقد نقل الرحالة في مصنفاتهم صورا متعددة تكشف لنا الحالة التي كانت عليها الحياة الثقافية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومما يجب التنويه إليه قبل الشروع في رصد ملامح الحياة الثقافية أن الرحالة المغاربة كانوا أكثر إسهابا في و صف الوضع الثقافي الذي شهده الحجاز مقارنة بالرحالة الأوروبيين الذين اكتفوا بإيراد بعض الإشارات المقتضبة فحسب، وعلى العموم إنّ المتتبع لما جاء في هذه الرحلات يجد أن الرحالة المغاربة قد تطرقوا إلى كافة مظاهر النشاط العلمي بالحجاز فوصفوا المراكز العلمية و تحدثوا كذلك عن العلوم السائدة في تلك الحقبة كما أشاروا إلى تراجم العلماء و نتاجهم الفكري .

---

[1] الغاشي، **الرحلة المغربية** ...، المرجع السابق، ص 468. أنظر أيضا : البشير أبرزاق، **الحركة العلمية ببلاد الحجاز خلال القرن 17م من خلال أدب الرحلات**، مقال ضمن كتاب: أدب الرحلة جدلية الأنا والآخر في عالم متغير، تنسيق خالد التوازني، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، 2020م، ص 143.

[2] نواب، المرجع السابق، ص490.

[3] نفسه، ص 486. أنظر أيضا: بوغوتة ، **دور المراكز الثقافية** ...، المرجع السابق، ص ص 82، 83.

1. المراكز العلمية:

لقد وجدت بالحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مراكز علمية عديدة، وقد تحدثت كتب الرحلات عنها بشيء من التفصيل، حيث تمثلت هذه المراكز في المساجد و المدارس والكتاتيب بالإضافة إلى الأربطة ومنازل العلماء .

1.1 المساجد :

كانت المساجد منذ القدم وحتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تعد المركز الرئيسي والأول لنشر التعليم و المعارف في الحجاز، فقد كانت تعقد فيها الحلقات العلمية و تنظم بها كذلك مختلف المناظرات بين العلماء الذين يتوافدون عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

شكّل المسجد الحرام أهم فضاء تعليمي بمكة المكرمة، بل إنه برز كأحد أشهر المراكز الثقافية التي كانت تُلقن فيها العلوم في الحجاز عامة، ومما يؤكد الدور التعليمي الذي اضطلع به المسجد الحرام أن الرحالة المغاربة والأوروبيين قد أشادوا مطولا بالنشاط التعليمي الكبير الذي كان يشهده، حيث وصفه ليون روش بقوله:" هذا الحرم مكان للعبادة وجامعة و مدرسة"[1]، ولم يختلف وصف سنوك عن وصف ليون روش للمسجد الحرام حيث اعتبره من بين أقدم المعاهد الدينية التي عكفت على نشر العلوم في الحجاز[2].

ويُستدل من حديث الرحالة المغاربة كذلك أن هذا المسجد كان عامرا بالحلقات العلمية حيث تعددت هذه الأخيرة بحسب اختلاف العلوم وتعدد المذاهب، ووفقا لما تشير إليه نصوص الرحلات كان يتم عقد معظم الحلقات العلمية في أروقة المسجد الحرام [3]، حيث اتسعت لتشمل طلبة العلم ليس فقط من الحجاز، بل استقطبت كافة الطلبة سواء من الزائرين أو المجاورين ولعلّ ذلك ما جعل المسجد الحرام لا يخلو من النشاط العلمي على مدار السنة، فقد كانت الحلقات العلمية تشهد تزايدا كبيرا لا سيما خلال موسم الحج، فالعلماء الذين كانوا يتوافدون على الحجاز من مختلف الأقطار الإسلامية كانوا يشاركون في النشاط

[1] روش، المصدر السابق، ص 109.

[2] هورخرونيه، المصدر السابق، ج2 ، ص 490.

[3] نفسه، ص 503.

التعليمي بالمسجد الحرام، وذلك إما عن طريق تصدرهم للتدريس، كما حدث مع الكثير من الرحالة أو من خلال التتلمذ و الأخذ و تحصيل مختلف العلوم من كبار الشيوخ والفقهاء [1].

ومن أمثلة ذلك أن الإسحاقي خلال مكوثه بمكة المكرمة قد عدد لنا أسماء العلماء الذين حضر مجالسهم ودروسهم منهم الشيخ عمر البار باعلوي الحسيني[2]، ومما يجب الاشارة إليه أنه التدريس بالمسجد الحرام لم يكن له منهج محدد بل كان كل عالم يلقي على طلابه العلوم التي برع فيها[3].

و إضافة إلى المسجد الحرام يعتبر المسجد النبوي كذلك من أبرز المراكز التي كانت تؤدي دورا تعليما في المدينة المنورة، فقد كثرت مجالس العلم وانتشرت في أروقته وفي الروضة الشريفة، فكانت تُدرس به علوم شتى كالفقه والتفسير والنحو والبيان والأصول والصرف والبلاغة وغيرها من العلوم الأخرى[4]، والجدير بالذكر أن القارئ لنصوص الرحلات المغربية يجد الكثير من الأمثلة التي تشير إلى وجود حلقات التدرييس بالمسجد النبوي، فالولاتي الذي زار المدينة المنورة في أواخر القرن التاسع عشر يذكر لنا في رحلته أنه تصدر للتدريس والإقراء بهذا المسجد حيث يقول عن ذلك:" ودرَّسنا في مدة إقامتنا بالحرم الشريف موطأ مالك رضي الله عنه، وعقود الجمان للسيوطي في علم البيان، وورقات إمام الحرمين، نُدرس نصابا من الموطأ ونصابا من عقود الجمان ونصابا من الورقات في كل يوم ضحى، ونُدرس نصابا من عقود الجمان بين المغرب والعشاء كل ليلة حتى أتممنا علم المعاني والبيان للطلبة"[5]، كذلك يفيدنا الإسحاقي أنه خلال مدة مكوثه في المدينة المنورة تسنى له حضور بعض الحلقات العلمية التي كانت تقام بالمسجد النبوي ومنها مجلس الشيخ والفقيه عبد الله بن عبد الكريم العباسي الحنفي مفتي المدينة وخطيبها[6].

وتأكيدا لما ذكره الرحالة المغاربة عن كثرة الحلقات العلمية بالمسجد النبوي يورد عبد العزيز دولتشين وصفا هو الآخر لمجالس العلم التي شاهدها أثناء زيارته للمسجد النبوي إذ يقول عن ذلك:" وعادة ما يذهب

---

[1] مشعل نايف عايض الدهاس، **الحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع هجري**، دراسة تاريخية حضارية ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية، 2008م، ص 190.

[2] الإسحاقي، المصدر السابق، ص 551.

[3] محمد عبد الرحمن الشامخ، **التعليم في مكة والمدينة المنورة آخر العهد العثماني**، ط 2، دار العلوم ، الرياض، 1982،ص ص 9-11.

[4] حسن أحمد حسن بركة ، **المدينة المنورة في عصر دولة سلاطين المماليك الجراكسة 1382م– 1517م**، هـــ.م.ع.ك ، مصر، 2015م، ص 187.

[5] محمد يحي بن محمد المختار الولاتي، **الرحلة الحجازية**، تح: محمد حجي ، ط2، د.غ.إ، تونس، 2009م، ص 196

[6] الإسحاقي، المصدر السابق، ص 652.

الراغبون في تحصيل العلم إلى الحرم حيث يُلقي أئمة المدينة المنورة الواسعة الشهرة الخطب في ساعات معينة من النهار، وكل واحد منهم في موضوعه، ويتجمع حوله عدد كبير من المستمعين"[1].

ومما يلاحظ على التعليم في المسجد النبوي أن إلقاء الدروس في المجالس العلمية كان يتم بلغات عديدة كالفارسية و الجاوية والتركية و الأردية و غيرها من اللغات، فالعلماء المجاورون من الأعاجم كانوا يلقون دروسهم بلغاتهم، وقد ذكر العياشي أن الشيخ الملا ابراهيم الذي جاور بالمدينة كان يلقي دروسه باللغة الفارسية والتركية [2].

و يذكر بيركهارت أن حضور مجالس العلم بالمسجد النبوي لم يكن مقصورا على فئة معينة، حيث كان يحضرها أيضا علية القوم فحين كان طوسون باشا في المدينة حضر حلقات العلم التي كانت تقام بانتظام في رحاب المسجد الشريف[3].

ووفقا لما أورده الرحالة المغاربة كان التدريس بالمسجد النبوي يسير وفق نظام خاص، إذ لاحظ أحمد بن ناصر الدرعي أنه كان من عادة المدرسين في المدينة المنورة تعطيل الدراسة بالكتاتيب والمراكز العلمية الأخرى يومي الثلاثاء و الجمعة، بينما كانت تستمر المحاضرات فيما سوى ذلك من أيام الأسبوع، وهذا بخلاف أهل المغرب الذي كان تعطيل الدراسة به في يومي الخميس والجمعة[4].

وعلى ما يبدو أنه كانت هناك عدة أساليب متبعة في التدريس آنذاك فقد انتشرت طريقة التدريس بالرواية [5]، وفي هذا الصدد يذكر لنا العياشي أنه أثناء إقامته بالمدينة المنورة التقى بالشيخ أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي و عكف على أخذ العلوم منه عن طريق الرواية إذ يقول:" عكفت على القراءة عليه والسماع منه فيسر الله تعالى أن قرأت عليه وسمعت في أزمان قليلة مال م يسمع غيري في عمره"[6] ، أضف إلى ذلك كان نظام الإجازة يعدّ هو الآخر من أساليب التدريس الشائعة في تلك الفترة، وما يثبت ذلك أن نصوص الرحلات

[1] دولتشين، المصدر السابق، ص 216.
[2] العياشي، المصدر السابق،ج1، ص 480.
[3] بيركهارت، المصدر السابق، ص 291.
[4] الدرعي ، المصدر السابق، ص 537.
[5] أبرزاق، المرجع السابق، ص 147.
[6] العياشي، المصدر السابق،ج 2، ص 190.

المغاربية تحفل بنماذج متعددة ومتنوعة من الإجازات التي حصل عليها هؤلاء الرحالة من طرف العلماء والشيوخ الذين لازموهم [1] .

وحسب ما يورده بعض الرحالة نجد إشارة كذلك إلى منهج آخر من مناهج التدريس والتعليم وهو أسلوب المناظرة، وفي هذا الصدد نستدل بقول ابن الطيب الشرقي الذي ذكر لنا أنه حدثت بينه وبين الشيخ محمد بن محمد قاضي زادة الأنصاري مناقشات علمية في شتى العلوم[2]، كما نجد أبو راس الناصري كذلك يذكر في رحلته أنه عندما كان بمكة المكرمة وقعت بينه وبين علماء الحركة الوهابية مناظرة في عدة مسائل ويظهر ذلك من خلال قوله: "فوقع لي معهم مناظرة ومباحثة واعتراضات وسؤالات وأجوبة فائقات ودلائل قاطعات وأحاديث مروية عن أكابر الأئمة من الأمهات ..."[3]. وقد أضاف في موضع أخر أنه عند زيارته للمدينة المنورة وارتحاله إلى مدينة طيبة جمعت بينه وبين فحول علمائها مناقشات علمية يقول واصفا ذلك: ولقيت بها علماء أجلاء من كل قطر ... وجرى لنا مع العلماء أبحاث ومناظرات ..." [4]

إن مما لا شك فيه أن المسجد الحرام والمسجد النبوي قد مثلا أهم المساجد التي كانت قبلة للعلماء و الطلبة في الحجاز، فنظرا لمكانتهما العلمية وشهرتهما الكبيرة نلاحظ أن الرحالة المغاربة أو الأوروبيين قد اهتموا بالحديث عنهما أكثر من المساجد الأخرى، وفي الواقع إن هذا لا يعني أن بقية المساجد الموجودة في المدن الحجازية لم تكن تعرف أي نشاط علمي، بل كان يوجد العديد من المساجد التي تدرس فيها العلوم الشرعية وإن كان الرحالة قد أغفلوا الحديث عن دورها العلمي نظرا لأهمية الحرمين الشريفين، مثل مسجد قباء الذي يذكر العياشي أنه كانت تقام به حلقات الدروس[5]، و مسجد الفتح في منطقة المناخة الذي أشار إليه بيركهارت[6]، فضلا عن مسجد عرفة و مسجد الخيف والذي يعرف أيضا بمسجد علي ومسجد العقبة وغيره من المساجد التاريخية الأخرى التي عكف الرحالة المغاربة على زيارتها[7].

[1] الدرعي ، المصدر السابق، ص 400.

[2] الطيب الفاسي الشرقي ، المصدر السابق، ص ص 225، 226.

[3] أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص ص 118، 119 .

[4] نفسه، ص 119.

[5] العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 475

[6] بيركهارت، المصدر السابق، ص 273.

[7] الورتلاني، المصدر السابق، ج 2، ص ص 456- 458. أنظر أيضا : الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 370- 384.

2.1 الكتاتيب:

كانت الكتاتيب على مر العصور الإسلامية تعد أحد أهم المؤسسات التعليمية التي عرفها المجتمع الإسلامي فقد ارتبط نشاطها منذ القدم بتربية النشء و تثقيفه فكانت بذلك تعد رمزا للحفاظ على العلم والدين [1].

لقد أشارت المصادر أن الكتاتيب كانت منتشرة بشكل واسع في الحجاز لاسيما في العهد العثماني حيث انحصر هدفها في تحفيظ القرآن الكريم بالإضافة إلى تعليم القراءة والكتابة و الحساب[2]، ووفقا لما ورد في نصوص الرحلات كانت أغلب الكتاتيب في الحجاز توجد بمحاذاة المسجد الحرام والمسجد النبوي، ونستدل في ذلك بما ذكره العياشي الذي أشار إلى شيخه محمد الفزازي الذي وجده يقوم بتحفيظ القرآن الكريم للأطفال في مؤخرة المسجد النبوي الشريف [3]، وقد أكد بيركهارت ذلك أيضا ففي حديثه عن المسجد النبوي أشار أنه كان يوجد في الجانب الشمالي والجنوبي منه عدة كتاتيب ملحقة به يجتمع فيها المعلمون مع الصبيان في شكل حلقات ويتم فيها تعليم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن[4].

و يبدو من خلال ما أورده المؤرخون أنه كان يوجد في الحجاز نوعين من الكتاتيب، الكتاتيب العامة وهي التي كانت مخصصة لغير القادرين من التلاميذ لاسيما الفقراء و الأيتام، و هذه الكتاتيب كانت تقوم على أساس المساعدات الخيرية بالإضافة إلى الأوقاف التي كانت ترصد عليها، ومما يلاحظ على الكتاتيب العامة أنه كان لها هيئة علمية تتكون من الفقيه وهو الذي كان يتولى مهمة التعليم، وإلى جانب ذلك كان يوجد أيضا العريف الذي يقوم بمساعدته فضلا بعض العاملين كالسقاء و الفراش، وهؤلاء كانوا يتلقون رواتبهم من الدولة العثمانية التي كانت تُشرف على هذه الكتاتيب أو يحصلون عليها خلال الأوقاف التي خصصت لها[5] .

وعلاوة على الكتاتيب العامة انتشرت في الحجاز كذلك الكتاتيب الخاصة أو ما يسمى بالمكاتب الأهلية، وهذا النوع من الكتاتيب قام بتأسيسها العلماء، حيث تذكر المصادر أن العديد منهم كانوا يتخذون

---

[1] رمضان عبد الحميد صديق، **الحياة العلمية في مكة 1703– 1916م**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، 2006م، ص 251 .

[2] عبد اللطيف عبد الله بن دهيش، **الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولهما**، ط1، مطبعة النهضة العربية، مكة المكرمة، 1986م، ص 12

[3] العياشي، المصدر السابق، ج 2، ص 63.

[4] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 285، 286.

[5] رمضان عبد الحميد صديق ، المرجع السابق، ص ص 254– 256.

من منازلهم مكانا لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن، والجدير بالذكر أن هؤلاء العلماء كانوا يتقاضون أجورا يدفعها لهم الأولياء نظير تعليمهم لأبنائهم [1].

وأمّا بالنسبة لعدد الكتاتيب التي وُجدت في الحجاز خلال فترة البحث، فالملاحظ أن كتب الرحلات لم تقدم سوى إشارات قليلة عنها، فالبنتوني عند زيارته للمدينة المنورة ذكر لنا أنه كان بها حوالي 17 كتابا لتعليم العلوم البسيطة [2]، بينما يذكر ابراهيم رفعت أنه كان بها حوالي 12 كتابا للصبيان لكل واحد منها فقيه وعريف ، وقد بلغ عدد المتعلمين فيها ما يقارب 320 تلميذ، و أما عن مدينة جدة فقد ذكر أنه كان يوجد بها عند زيارته لها تسعة كتاتيب[3]، ووفقا للإحصاء الرسمي الذي قامت بها الدولة العثمانية والذي صدر عام 1883م كانت مكة المكرمة تحتوي على ثلاثة وثلاثين كتابا وقد ضمت حوالي 1150 طالبا، وكانت هذه الكتاتيب موزعة في أنحاء كثيرة وبالأخص في سوق الليل و القشاشية و السليمانية و الشبيكة وغيرها من المناطق[4]، ومن بين أشهر الكتاتيب التي عرفتها الحجاز وأشار إليها المؤرخون نذكر على سبيل المثال لا الحصر :كُتاب السلطان محمود الأول، وكُتاب مراد باشا، وكُتاب حسن أفتدي الدفتردار، وكُتاب عيسى أفندي[5]، وأما فيما يتعلّق بالكتاتيب الخاصة فقد اشتهر منها كُتاب الشيخ عبد المعطي ابراهيم النوري وكُتاب الشيخ حسين العبادي ، وكُتاب الشيخ ابراهيم الخزامي وغيرها [6].

1. 3 المدارس:

إنّ النشاط التعليمي في الحجاز لم يكن محصورا على المساجد و الكتاتيب فقط، بل كان للمدارس دور كبير في تلقين ونشر العلوم، وإذا ما تأملنا في كتب الرحلات وما سجلته في هذا الجانب نلاحظ أن الدولة العثمانية قد أولت عناية كبيرة لبناء المدارس في الحجاز، حيث انتشرت هذه المدارس في مكة المكرمة والمدينة المنورة و غيرها من المدن، و لم يكن إنشاء المدارس مقتصرا على الدولة العثمانية فحسب، بل تؤكد المصادر أنه

---

[1] محمد علي فهيم بيومي، **مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني 1517_1805**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجيستير ، جامعة الأزهر، مصر، 1999م، ص ص 337، 338.

[2] البنتوني، المصدر السابق، ص 255.

[3] ابراهيم رفعت، المصدر السابق،ص ص 22، 414.

[4] حمدة بنت عبد الله المصعبي، **السالنامة مصدر من مصادر تاريخ الحجاز دراسة تحليلية لسالنامة 1303هـ _1886م**، دارة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، 2018م، ص 132.

[5] رمضان عبد الحميد صديق ، **الحياة العلمية**... ، المرجع السابق، ص ص 268، 270.

[6] بن دهيش، المرجع السابق، ص ص 21، 22.

وجدت الكثير من المدارس التي أنشأت من طرف أمراء مصر والهند وكذا بعض الأثرياء من الحجاج، فقد كان هؤلاء المتبرعون يرصدون عليها أموالا كثيرة للإنفاق عليها [1] .

و تشير المصادر أن الحجاز احتوت على ثلاث أنواع من المدارس النوع الأول هو المدارس الملحقة بالمسجد الحرام، والنوع الثاني هو المدارس الحكومية، وأمّا النوع الثالث فيتمثل في المدارس الأهلية [2]، وحسب ما توضحه نصوص الرحلات كذلك كانت مواد الدراسة في هذه المدارس لا تختلف عما كان سائدا في المساجد، إذ يذكر بيرتون أنّها كانت تشمل العلوم الدينية مثل الفقه و التفسير و النحو و البلاغة و الحديث، وأما فيما يتعلّق بالعلوم الأخرى كالفلسفة و الحساب و الجبر و الطب و الكمياء فإنّها كانت قليلة الانتشار، وذلك ما جعل طلبة العلم يتوجهون إلى القاهرة ودمشق لاستكمال تعليمهم[3].

وأمّا عن أهم المدارس التي وجدت في الحجاز وتكررت الإشارة إليها في متون الرحلات و في المصادر فقد اشتهر منها المدارس السليمانية وهي عبارة عن أربع مدارس أنشأها السلطان سليمان القانوني في مكة المكرمة وبالتحديد جنوب المسجد الحرام [4]، وكانت تختص كل واحدة منها بتدريس أحد المذاهب الأربعة [5]، وكذلك وجدت مدارس أخرى كمدرسة الداودية التي تنسب إلى داود باشا والي مصر، ومدرسة الوزير محمد باشا التي كانت تتواجد بسويقة[6]، ويذكر أوليا جلبي من بين المدارس كذلك المدرسة المرادية والمدرسة الغورية والمدرسة المحمودية والمدرسة الإبراهيمية [7]، وجاء في رحلة البنتوني أيضا إشارة إلى المدرسة الصولتية التي كان يدرس فيها القرآن الكريم و الحساب[8] .

و بالنسبة للمدارس التي وجدت بالمدينة المنورة ورصدها الرحالة في مصنفاتهم، فيذكر لنا بيرتون من بينها المدرسة المحمودية ومدرسة بشير آغا اللتان تقعان حسب وصفه بمحاذاة المسجد النبوي وهاتين المدرستين كانتا تحتويان على خزائن للكتب[9]،كذلك أشار بيركهارت أثناء زيارته للمدينة إلى وجود ثلاث مدارس هي المدرسة الحميدية التي ذكر أن موقعها في شارع البلاط، ومدرسة أخرى لم يعطي إسمها تقع بجوار الحرم

[1] هورخرونيه ، المصدر السابق، ج2، ص 489.

[2] رمضان عبد الحميد صديق، المرجع السابق، ص 290.

[3] Burton, op,cit, p 25

[4] بيركهارت، المصدر السابق، ص 132.

[5] رمضان عبد الحميد، المرجع السابق، ص 294.

[6] يحي محمود بن جنيد، "الحياة الثقافية في مكة المكرمة في القرن التاسع عشر"، مجلة مكة الثقافية، ع3، 1429هـ، ص 59.

[7] جلبي ، المصدر السابق، ص 265.

[8] البنتوني، المصدر السابق، ص 59

[9] Burton, op,cit, p 24

النبوي، وأمّا المدرسة الثالثة فيذكر أنّها تتواجد بمنطقة المناخة وهي ملحقة بمسجد عمر ابن الخطاب، غير أن هذه المدرسة حسبما يشير قد تعطلت في زمنه وتحولت إلى مأوى للجنود[1]، وحينما زار عبد العزيز دولتشين المدينة المنورة لاحظ وجود 17مدرسة دينية وجميع تلك المدارس حسب وصفه كانت عبارة عن أوقاف وكان يؤمن لها دخل يجري إنفاقه على المعلمين والطلبة[2]، ومن بين المدارس التي تواجدت بالمدينة المنورة وأشارت إليها المصادر أيضا المدرسة المجيدية و مدرسة قايتباي و مدرسة قاراباش ومدرسة أحمد أفندي و المدارس الرشدية[3].

هذا فيما يتعلّق بالمدارس التي وجدت بمكة المكرمة والمدينة المنورة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأما بالنسبة للمدارس التي عرفتها بقية المدن في الحجاز كمدينة جدة و ينبع والطائف فإن الملاحظ أن كتب الرحلات لم تمدنا بمعلومات وافية عنها، ولعلّ ذلك راجع إلى قصر مدة إقامتهم بهذه المدن مقارنة بمكوثهم الطويل بمكة والمدينة المنورة، الأمر الذي لم يسمح لهم برصد أماكن التدريس فيها، غير أن الواضح من خلال ما جاء في المصادر التي عُنيت بالتأريخ للحركة العلمية في الحجاز عامة أن وجود المدارس لم يقتصر على المدينتين المقدستين فحسب بل امتد ليشمل باقي المدن حيث انتشرت فيها العديد من المدارس التي استقطبت العلماء والطلبة وهذه المدارس جميعها قامت على ما كان يقدم لها من هبات و على ما كان يرصد لها من أوقاف[4].

4.1 المكتبات

من المتعارف عليه أن المكتبات في التاريخ الإسلامي تعد رافدا من روافد العلم ، حيث أنّها تؤدي دورا كبيرا في تنشيط الحركة العلمية ، وكغيرها من المناطق كانت الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تضم عددا من المكتبات وخزائن الكتب، وقد ساعد انتشارها ما كان يخصصه لها السلاطين و الأمراء الأثرياء من تبرعات وأوقاف[5].

[1] بيركهارت، المصدر السابق، ص ص 271- 273.

[2] دولتشين، المصدر السابق، ص ص 214- 216.

[3] سهيل صابان، "جوانب من الحياة العلمية في الحجاز من خلال بعض الوثائق العثمانية"، مجلة الدرعية، ع1، السنة الأولى، 1998م، ص 177.

[4] دولتشين، المصدر السابق، ص 214.

[5] محمد صلاح الدين بنان، " الحياة الفكرية في المدينة المنورة من خلال رحلة أبي سالم العياشي 1661م، 1662م"، مجلة المشكاة للعلوم الانسانية والاجتماعية، مج 7، ع 2، 2020، ص 312.

وبحسب ما جاء في نصوص الرحلات انتشر في الحجاز نوعين من المكتبات: المكتبات الخاصة و المكتبات العامة.

أولا: المكتبات العامة:

كان أغلبها ملحقا بالمساجد و المدارس والأربطة، ومن أبرز هذه المكتبات العامة التي وجدت بالحجاز مكتبات الحرمين الشريفين والتي تشكلت نتيجة لما أوقفه الحكام و العلماء والأثرياء في المراحل التاريخية المختلفة [1]، ولقد أشاد الرحالة المغاربة بما كانت تحتويه من نفائس الكتب و المخطوطات، ولعلّ خير ما نستدل به لتبيان أهمية هذه المكتبات ما ذكره العياشي بشأن تلف مكتبة المسجد الحرام على إثر السيل الذي حدث سنة 1662م حيث قال: "إن هذه الكتب من النوادر التي قلما توجد في غيرها من الأماكن "[2].

و قد سجل محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته كذلك ما يثبت أن مكتبة المسجد الحرام كانت تزخر بنفائس الكتب إذ عدد ما شاهده بها من المصنفات النادرة، وقد قال في هذا السياق:" وبمكة من الكتب سيما في فقه الحنفية العجب ...، ومما وجدته يباع بالمسجد الحرام صحيح ابن حبان ومشكل الأسماء والآثار للطحاوي وهو كتاب كبير و المؤتلف والمختلف للذهبي والتجريد له مختصر جامع الأصول، ومما وجدته يباع فيه أيضا الأحاديث المختارة للضياء المقدسي ..."[3]، ووصف محمد بن عبد السلام الناصري يدل على غنى مكتبة المسجد الحرام بالمصنفات و الكتب النفيسة والتي لم تكن توجد في خزانة الكتب الناصرية بالمغرب .

و لم تختلف مكتبة المسجد النبوي عن المسجد الحرام إذ يشير العديد من الرحالة إلى وفرة الكتب بها وقد أوضح ذلك أحمد بن ناصر الدرعي بقوله: "وفتحت خزائن الكتب العلمية الموقوفة بالحرم الشريف يستعير منها الناس للقراءة "[4]، ووصف بيرتون أيضا مكتبة الحرم النبوي إذ استوقفته فيها كثرة الكتب التي حبست عليه حيث قال بشأنها " هناك كتب كثيرة موقوفة تقدم للمسجد النبوي وهي خاصة بأُسر معينة"[5].

---

[1] سحر بنت عبد الرحمن مفتي الصديقي، **أثر الوقف الإسلامي في الحياة العلمية بالمدينة المنورة**، ط1 مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية، 2003، ص 223.

[2] العياشي، المصدر السابق، ج2، ص ص 142، 143 . أنظر أيضا: نواب، المرجع السابق، ص 515.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 569.

[4] نفسه، ص 533.

[5] Burton, op,cit, p 24

وبالإضافة إلى خزائن الكتب في الحرمين الشريفين اشتهر من المكتبات العامة أيضا مكتبات المدارس، ومن أهم هذه المكتبات التي أشار إليها الرحالة نذكر على السبيل المثال لا الحصر: مكتبة مدرسة المحمودية ومكتبة مدرسة بشير آغا اللتان ذكر بيرتون أنه كان بهما مخزن عامر بكتب التوحيد وغيره [1]، وقد أحصى البنتوني ما كان يوجد بهاتين المكتبتين فذكر أنه كان يوجد بمكتبة المحمودية ما يقارب 4569 كتاب، وأمّا مكتبة بشير آغا فقد ضمت مالا يقل عن 2063 كتاب، ويضيف البنتوني أن من بين المكتبات العامة الموجودة بمكة المكرمة مكتبة مدرسة السليمانية والتي كانت تحتوي على حد قوله على كتب في الأدب والفقه و التاريخ و النحو، وهذه المكتبة كان لها مشرف يهتم بشؤونها[2]، كما أشار إلى مكتبة السلطان عبد الحميد بالمدينة المنورة والتي حوت ما يقارب 1659 كتاب[3]، ويذكر ابراهيم رفعت من المكتبات المشهورة في المدينة المنورة أيضا مكتبة مدرسة عمر أفندي ومكتبة مدرسة الشفاء وقد عدد ما فيها من الكتب و المصنفات[4].

ثانيا: المكتبات الخاصة :

كان يوجد في الحجاز الكثير من المكتبات التي تعود ملكيتها للعلماء والفقهاء، وقد ساهمت هذه المكتبات بما كانت تحتويه من مصنفات ثمينة في تنشيط الحركة العلمية بالحجاز حيث كان يتردد عليها طلبة العلم من مختلف الأقطار، ومن بين أهم المكتبات الخاصة التي اطلع عليها الرحالة المغاربة والأوروبيون وذكروها في رحلاتهم نجد مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، وهذه المكتبة أشاد بها البنتوني مطولا فأشار أنّها من أفضل المكتبات في المدينة المنورة إذ يقول عنها:" وفي المدينة المنورة كتبخانة كثيرة أحسنها مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت ...، وهذه المكتبة آية في نظافة مكانها وحسن تنسيقها وترتيب كتبها وفيها كتب كثيرة قيمة لا يقل عددها عن 5404 كتاب"[5]، كذلك يذكر لنا الرحالة بيرتون من بين المكتبات الخاصة مكتبة نقيب الأشرف محمد جمال الليل ومكتبة الشيخ الجزائري المالكي محمد بن عبد الله السنوسي والتي كانت تشتمل على حد قوله أكثر من ثمانية ألاف مجلد[6].

[1] Burton, op,cit, p 24

[2] البنتوني، المصدر السائق، ص 59.

[3] نفسه، ص 255.

[4] رفعت باشا ، المصدر السابق، ج1، ص ص 422، 423.

[5] البنتوني، المصدر السابق، ص 255.

[6] Burton, op,cit, p 24

ومن المكتبات الخاصة التي لاحظها أحمد بن ناصر الدرعي مكتبة الشيخ عبد الله بن سالم البصري الموجودة بمنزله، وقد أتيحت له فرصة زيارتها و الاطلاع على ما تحتويه من نفائس الكتب حيث قال واصفا إياها:" ذهبنا إلى داره فوجدناه في بيت كتبه ، والكتب محدقة به يمينا وشمالا ووراء وأماما ، ورأينا عنده مسند الإمام أحمد في ثلاث مجلدات كبار...." [1].

و رصد بيركهارت أثناء إقامته بالمدينة المنورة العديد من المكتبات الخاصة لكنه لم يشر إلا لمكتبة واحدة يمتلكها أحد العلماء كانت تضم حسب قوله أكثر من ثلاثة ألاف كتاب[2]، و اشتهر من المكتبات الخاصة كذلك مكتبة رئيس المؤقتين بالحرم الشريف و مكتبة الشيخ ميرزا الشامي الدمشقي ومكتبة الشيخ عبد الرحمن بن أحمد المكناسي بمكة المكرمة ومكتبة الشيخ محمد بن رسول الذي يدرس الفقه الشافعي بالمدينة المنورة[3].

5.1 منازل العلماء:

إضافة إلى المراكز العلمية السالفة الذكر كانت منازل العلماء والفقهاء تشكل هي الأخرى مراكز ثقافية إذ كان يتم فيها عقد حلقات الدروس، كما كان يجتمع في هذه المجالس العلماء والطلبة لمناقشة مختلف المسائل، وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وجدت الكثير من منازل العلماء التي كان يتم فيها عقد حلقات التدريس، ومن أهم المنازل التي كانت بمثابة أندية علمية مترل أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد عقيلة المكي، حيث يخبرنا الإسحاقي أنه استضافه في بيته القريب من الحرم الشريف وتباحث معه في بعض المسائل العلمية يقول الإسحاقي عن ذلك:" فلما دخلنا عليه في موضعه الذي يخلو فيه مع بعض خاصته ...أجزل القرى وبالغ في التحفي بنا ...وأنال من فوائده العلمية ما أزال الإعياء عن القرى وذاكرنا في مسائل من العلم وأطلعنا على جملة من مؤلفاته ومصنفاته ..."[4]، وممن زارهم الإسحاقي كذلك في مكة المكرمة السيد عبد الله السكندراني الضرير حيث يقول: ودخلنا عليه في مترله قرب باب العمرة المفضي إلى المسجد الحرام متصلا به، وحدثنا بمصنفاته في التفسير والحديث وعلم الكلام "[5].

ومن منازل العلماء التي اشتهرت أيضا بإقامة حلقات التدريس مترل محمد بن محمد قاضي زادة الأنصاري فقد ذكر ابن الطيب الشرقي أنه اجتمع به وحضر مجلسه وعن ملاقاته قال: "ولقيت من علمائها

---

[1] الدرعي، المصدر السابق، ص 367.

[2] بيركهارت، المصدر السابق، ص 324.

[3] الدازي حفيظة، "الرحلة الحجازية جسر للتواصل الثقافي رحلة ماء الموائد لعبد الله العياشي أنموذجا" ، مجلة بصمات، ع8، 2008، ص 196.

[4] الإسحاقي، المصدر السابق، ج2، ص 557.

[5] نفسه، ص 579.

الشيخ محمد بن محمد قاضي زادة الأنصاري الشهير بالقاضي عيد ورد علينا أولا ودعانا إلى داره فأسعفناه رغبة في إدخال السرور عليه ... وخضنا معه في مسائل علمية متنوعة إلى عربية وحديث وآداب... و أطلعنا على مؤلفات له بديعة في فقه الحنفية"[1].

و إضافة إلى مجالس العلماء السالفة الذكر تذكر لنا المصادر العديد من العلماء الذين اتخذوا من منازلهم مركزا للتعليم وإقامة حلقات الدروس نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ حسن الحبشي الشافعي و الشيخ محمد حسين الخياط و الشيخ عبد الله الزواوي بالإضافة إلى الشيخ علي المالكي و غيره من العلماء[2].

6.1 الأربطة:

لقد اشتهرت الأربطة[3] في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بدورها الاجتماعي و التعليمي فلما كان معظمها يتواجد بالقرب من المساجد والمدارس فإنّها كانت تشهد أنشطة علمية مختلفة، وقد ساعد على ذلك توافد العلماء والطلبة عليها واتخاذهم لها مسكنا، أضف إلى ذلك أنّها كانت تحتوي على خزائن للكتب[4]، وحسب ما توضحه المصادر كانت الأربطة في الحجاز تعتمد في مواردها على الأوقاف كبقية المراكز العلمية الأخرى[5] .

إنّ كتب الرحلات لا تسعفنا بمعلومات كثيرة عن أسماء الأربطة التي كانت توجد بالحجاز خلال فترة البحث باستثناء بعض الإشارات القليلة التي أوردها بعض الرحالة المغاربة كالعياشي الذي زار الحجاز في منتصف القرن السابع عشر وتحدث عن بعض الأربطة التي مكث فيها وشاهدها ومنها رباط الموفق و رباط

[1] الطيب الفاسي الشرقي، المصدر السابق، ص 225.

[2] الشامخ، المرجع السابق، ص ص 115، 116.

[3] الرباط: اختلف المؤرخون في تحدد مفهوم الرباط وذلك تبعا للظروف التي مرت بها الدولة الإسلامية، ففي أول الأمر كان الرباط يطلق للدلالة على المكان الذي يرابط فيه الجنود المسلمين للجهاد، ثم بعد ذلك تغير المعنى وأصبح يطلق على المكان الذي يرابط فيه الصوفية للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى، وتطور مفهوم الرباط بعد ذلك فأصبح يقصد به مأوى للفقراء واليتامى و مسكنا للعلماء و الفقهاء، وهكذا أضحى الرباط يؤدي خدمات اجتماعية وثقافية ودينية كالوعظ و والإقراء و الافتاء و التعليم . أنظر: عبد الرحمن الصديقي ، المرجع السابق، ص ص 29، 30.

[4] نفسه، ص 30.

[5] ابتسام بنت محمد صالح بن عبد الرحمن كشميري، **مكة المكرمة من بداية العهد العثماني إلى القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي دراسة سيلسية حضارية** ، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، 2001م، ص ص 186، 187

قايتباي ورباط عبد القادر الجيلاني ورباط النخلة ورباط النساء في مكة المكرمة[1] ، وأما البنتوني فقد أشار إلى رباط عثمان ابن عفان في المدينة المنورة والذي كان يحوي مكتبة غنية بنفائس كتب المذهب المالكي [2].

وبالرجوع إلى ما سجله المؤرخون نلاحظ أن الأربطة انتشرت في الحجاز بشكل كبير خلال فترة البحث إذ كان بعضها موجودا منذ العهد المملوكي واستمر إلى العهد العثماني كرباط الباسطية ورباط قايتباي و رباط الظاهرية فضلا عن رباط السلطان قانصو الغوري الذي يقع في الناحية الغربية من الحرم المكي وغيرها من الأربطة الأخرى التي لا يسع المقام لذكرها[3]، كما أن العهد العثماني شهد أيضا إنشاء العديد من الأربطة حيث ورد في سالنامة الحجاز الذي صدر سنة 1885م أن مكة المكرمة كان بها حوالي مئة وخمسين رباطا[4]، وقد اكتفى المؤرخين بذكر الأربطة المشهورة منها والتي كان من بينها:

- **رباط محمد العجمي**: سمي على إسم واقفه محمد بن عبد الكريم الشيرازي العجمي، وهذا الرباط كان يترل به أهل جاوة ، وهو يقع في مكة المكرمة.
- **رباط عمر الدهلوي**: نسبة إلى واقفه عمر جان الدهلوي، وكان يقع في حي الشامية .
- **رباط النساء**: سمي بهذا الاسم لأنه كان مخصصا لفئة النساء، وكان هذا الرباط يقع حسب ما تشير إلى المصادر بمحاذاة باب الصفا أحد أبواب المسجد الحرام .
- **رباط المغاربة**: سمي بهذا الاسم لأن أهل المغرب كانوا من نزلائه، ولا تذكر المصادر اسم واقفه ، لكنها تشير أنه كان يقع في حي أجياد في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام
- **رباط عبد الكريم العطار**: نسبة إلى واقفه عبد الكريم بن عبد الكريم بن عبد الرسول العطار، لم يعرف بالتحديد تاريخ وقفه، وأما عن موقعه فيذكر المؤرخون أنه كان يقع في حي حارة الباب مقابل مسجد خالد ابن الوليد[5].
- **رباط قايتباي** كان مقره بالقرب من باب السلام بجانب المسجد الحرام، خصص للفقراء والطلبة ، وقد استمرا هذا الرباط طيلة القرن الثامن عشر .

---

[1] العياشي، المصدر السابق، ج 1، ص، 425 ، أنظر أيضا العياشي، ج 2، ص ص 143، 144.

[2] البنتوني، المصدر السابق، ص 255.

[3] حسين عبد العزيز حسين شافعي، **الأربطة بمكة المكرمة في العهد العثماني دراسة تاريخية حضارية 1517–1915م**، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تخصص الدراسات العليا الحضارية، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، السعودية، 2001م، ص ص 12-17.

[4] نفسه، ص 20.

[5] عبد العزيز حسين شافعي، المرجع السابق، ص ص 43 ، 157، 168

- **الرباط الخاص:** ينسب إلى يوسف بن عبد الكريم الذي أقام عمارته، وهو يتواجد بالقرب من أبواب المسجد الحرام ، كان به مدرسة معروفة[1].

وحسب ما جاء في المصادر التاريخية كذلك كانت هذه الأربطة منها ما هو مخصص لكافة الأجناس والمذاهب ومنها ما كان مخصصا لفئة معينة فقد كان هناك أربطة للمجاورين ولطلاب العلم، كما كان هناك أربطة مخصصة لأهل بلد معين، ووجدت بعض الأربطة مخصصة للرجال وبعضها الآخر للنساء، كما كان من ضمن الأربطة ما هو مخصص كذلك لأحد الطوائف الصوفية أو المذاهب الإسلامية، وكان منها ما هو مخصص للغرباء والفقراء[2].

إجمالا وبعد هذا العرض للمراكز العلمية التي عرفتها الحجاز يمكن القول أن مختلف هذه المؤسسات قد أدت دورا متميزا في نشر التعليم وتنشيط الحركة الثقافية، لكن الذي يجب التنويه إليه أن الدور التعليمي للحرمين الشريفين قد فاق دور بقية المراكز التعليمية أخرى، فالمسجد الحرام والمسجد النبوي شكلا محورا للحركة التعليمية في الحجاز، حيث كانت أروقتهما تغص بحلقات الدروس وبالعلماء الذين توافدوا عليه من مختلف أقطار العالم الإسلامي، وهذا ما أكدته نصوص الرحلات التي ركزت في وصفها على إبراز مكانتهما العلمية الكبيرة في حين أنّها لم تتطرق بإسهاب إلى دور الكتاتيب و المدارس و الأربطة والمكتبات .

1 - أصناف العلوم :

إنّ المتأمل فيما سجله الرحالة المغاربة والأوروبيين بشأن الحياة الثقافية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يتبين له أن العلوم التي كانت تُدرس في مختلف المؤسسات التعليمية آنذاك قد تعددت وتنوعت، لكن الملاحظ أن العلوم الشرعية قد حظيت بإقبال كبير مقارنة بالعلوم العقلية والتي إن وجدت فإنّها لم تكن تلقى رواجا كالرواج الذي عرفته العلوم الدينية في تلك الحقبة[3]، ولعلّ هذا ما جعل بعض الرحالة يصفون الحالة العلمية في الحجاز بالركود والجمود، إذ يقول عن ذلك محمد بن عبد السلام الناصري: " إعلم

---

[1] بيومي، **ملامح** ...،المرجع السابق، ص 39.

[2] عبد الرحمن مفتي الصديقي، المرجع السابق، ص 98.

[3] أكد هذا الأمر العديد من الرحالة، ومنهم بيرتون، إذ أشار أن الاهتمام في الحلقات العلمية كان منصبا على تعليم العلوم الدينية كالفقه والحديث والتفسير، وأما بالنسبة للعلوم الأخرى كالطب و الفلك والرياضيات فكانت نادرة الوجود ، ويضيف بيرتون أن الكثير من الحجازيين نتيجة لاهتمامهم بالعلوم الشرعية كانوا يتوجهون إلى مصر والشام لطلب العلم، و قد كان في القاهرة رواق في الجامع الأزهر يسمى رواق الحرمين الشريفين وهو مخصص لطلبة العلم القادمين من الحجاز . للمزيد أنظر: burton, op,cit, p24, 25.

وفقنا الله وتعالى وإياك أن مكة اليوم ليس بها من يرجع إليه في المعضلات ولا يصلح للمثول بين يديه، وقديما في زمن المحب الطبري قال العبدري " ضعف العلم في هذه البلاد لضعف العيش بها والناس مع الدنيا و صاحبها"[1].

وبصفة عامة يمكن تصنيف العلوم التي كانت موجودة في الحجاز وأشارت إليها كتب الرحلات إلى صنفين العلوم النقلية والعلوم العقلية.

1.2 العلوم النقلية :

يأتي في مقدمتها علم الحديث، وهذا العلم لقي رواجا كبيرا لدى علماء الحجاز، ومما يؤكد ذلك أنه لا تكاد أي رحلة من الرحلات المغاربية تخلو من الإشارة إلى العلماء الذي نبغوا فيه أو إلى الكتب التي كان يتم الاعتماد عليها في تدريسه، و قد كان الرحالة المغاربة يحضرون مجالسه و يأخذون الإجازة فيه، وممن تميز بإجادته لهذا العلم حسبما ذُكر في بعض النصوص الرحلية والمصادر أبو العباس أحمد بن عبيد العطار الشافعي الذي كان مجاورا بمكة المكرمة، وقد اجتمع به محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته و أخذ عنه الإجازة [2]، بالإضافة إلى الشيخ الملا ابراهيم بن حسن الكوراني و أبو مهدي عيسى الثعالبي اللذان أجازا أحمد بن ناصر الدرعي[3] و أبو عبد الله محمد بن أحمد عقيلة الذي أجاز الاسحاقي وغيره من العلماء [4]، ومن أشهر كتب الحديث التي كانت متداولة في تلك الحقبة: صحيح البخاري[5] وكتاب الشفا للقاضي عياض[6]، فضلا عن كتاب شرح النووي لصحيح مسلم وكتاب القسطلاني [7]، و المعجم الصغير للطبراني [8].

ومن العلوم التي حظيت باهتمام كبير في الحجاز كذلك نجد الفقه، إذ اشتغل به العديد من العلماء، ومما يدل على رواجه الكبير أن الكثير من متون الرحلات المغاربية قد احتوت على مسائل فقهية عديدة[9]، ومن أبرز العوامل التي ساعدت على انتشاره في الحجاز هو أن ذلك العصر كان حافلا بالقضايا والمسائل التي وجب على العلماء إظهار الحكم الشرعي فيها كقضية شرب البن و الدخان التي لم تكن معروفة من قبل لدى أهل الحجاز[10].

---

[1] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 565.

[2] نفسه، ص ص 567- 568.

[3] نفسه، ص 520.

[4] الإسحاقي، المصدر السابق، ص 557.

[5] الدرعي ، المصدر السابق ، ص 533.

[6] العياشي، المصدر السابق، ج2، ص 245.

[7] هورخرونيه ، المصدر السابق، ج2، ص 517

[8] ماكامان، المرجع السابق، ص 275. أنظر أيضا : محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 577.

[9] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 565. الولاتي، المصدر السابق، ص ص 199- 204

[10] نواب ، المرجع السابق، ص 528.

أضف إلى ذلك وجود المذاهب الإسلامية[1] الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية فقد ذكر سنوك أن دروس الفقه كانت تقدم على المذاهب الأربعة[2]، وأما عن أشهر العلماء الذين اشتهروا بإجادتهم لهذا العلم فقد برز منهم الفقيه زين العابدين بن سعيد المنوفي[3]، و الشيخ حسين العجمي و الشيخ عبد الله بن سالم البصري الشافعي[4]، و الشيخ حسين الزواوي التونسي[5] و الفقيه أبو العباس أحمد بن حجر الذي التقاه ابن الطيب الشرقي ووصفه بأنه من كبار شيوخ الحديث في الحجاز [6]، و من كتب الفقه التي تداولت بكثرة آنذاك: الجامع الصغير وتحفة المحتاج في شرح المنهاج ، ومختصر الأخضري و رسالة ابن أبي زيد بالإضافة إلى مختصر خليل[7] و مختصر جامع الأصول في الفقه الحنفي وسنن الترمذي والنسائي[8].

وزيادة على علوم الفقه والحديث تشير نصوص الرحلات إلى انتشار علم التفسير في الحجاز، فقد كان هناك عدد كبير من العلماء ممن تصدروا لتدريسه في مجالس العلم ومنهم الشيخ تاج الدين عبد الملك بن عبد المنعم بن القاضي القلعي الحنفي الذي أشار إليه أبو راس الناصري وذكر أنه قرأ عليه تفسير سورة النور[9]، ومن أهم كُتب التفسير التي اشتهر بتدريسها علماء الحجاز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كتاب "تفسير الجلالين" و"تفسير البيضاوي" [10]، وتفسير القرطبي[11].

وكذلك كان علم القراءات أحد العلوم البارزة في الحجاز، فقد ساعد على انتشاره استقرار عدد من العلماء المختصين فيه بالحجاز[12]، ومن الكتب المشهورة التي كان طلبة العلم يستندون عليها نجد "المنظومة

---

[1] قدم لنا الرحالة المغاربة وصفا دقيقا للحالة والوضعية التي كانت عليها المذاهب الإسلامية في تلك الفترة ،إذ لاحظ محمد بن عبد السلام الناصري أن المذهب الحنفي والشافعي كانت لهم مكانة كبيرة بينما عرفت المذاهب الأخرى تراجعا ، وقد قال واصفا وضعية كل مذهب: "وأما المالكية فلم أرى فيها بعد البحث إلا المجاورين منهم ...، وأما الحنفية والشافعية فلهم اليد الطولى في الحرمين الشريفين من طلبة وغيرهم، ومنهم الأئمة والقضاة والمفتون...، وأما الحنابلة فما أضعف مذهبهم في مصر ، وأكثرهم اليوم بالشام. أنظر: محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص ص 565-566.

[2] هورخرونيه ، المصدر السابق، ج2 ص 504.

[3] الإسحاقي، المصدر السابق، ص 570

[4] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 399-401، 402.

[5] محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ص 566.

[6] الطيب الفاسي الشرقي، المصدر السابق، ص 226.

[7] رمضان عبد الحميد صديق، **الحياة العلمية** ...، المرجع السابق، ص ص 471- 473.

[8] محمد بن عبد السلام الناصري ، المصدر السابق ، ص 569.

[9] أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص 118.

[10] هورخرونيه ، المصدر السابق، ج2،ص 522. انظر أيضا: الطيب الفاسي الشرقي، المصدر السابق، ص 224.

[11] محمد بن عبد السلام الناصري، المصدر السابق، ص 574.

[12] نواب ، المرجع السابق، ص 524

الشاطبية" والتي تسمى كذلك بـــ:"حرز الأماني ووجه التهاني للقراءات السبع للسبع المثاني"[1]، ومنها أيضا كتاب المنظومة الجرزية [2].

أضف إلى ذلك أشار الرحالة المغاربة كذلك إلى انتشار علم التصوف، فقد لاحظوا مدى اهتمام علماء الحجاز به، والذي ينبغي الإشارة إليه أن العهد العثماني قد تميز بسيطرة ظاهرة التصوف ليس في الحجاز فحسب بل في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وقد تأثرت الحياة الفكرية به حيث نشط هذا العلم و اهتم به العلماء اهتماما بالغا، ولعلّ الدّارس لنصوص الرحلات يجد في متونها ما يؤكد ذلك[3]، ومن أهم العلماء الذين اشتهروا بإلمامهم بعلم التصوف وودت الإشارة إليهم في المصادر و نصوص الرحلات سيدي عبد الله الحداد باعلوي الحسيني الذي التقى به الإسحاقي في مكة المكرمة [4].

و إلى جانب العلوم الشرعية نشطت في الحجاز إبان فترة الدراسة علوم أخرى كثيرة، وقد أوردت كتب الرحلات إشارات متعددة حولها، ومن ضمنها علم الصرف والنحو، و هذا العلم عرف رواجا كبيرا لدى علماء الحجاز لكونه يعدَ من العلوم المساعدة على فهم العلوم الشرعية ومن أشهر الكتب التي كان يستعين بها العلماء في تدريس الصرف والنحو: "الأرجومية" و "ألفية ابن مالك" [5] .

ويظهر من خلال نصوص الرحلات كذلك أن الأدب و الشعر قد احتل مكانة بارزة في الحجاز إذ لا تكاد تخلو الرحلات المغربية من القصائد الشعرية التي سمعها الرحالة المغاربة عن شعراء الحجاز وأدبائها في تلك الفترة، وقد ارتكز موضوع تلك القصائد على مدح النبي صل الله عليه وسلم[6]، ومن أشهر كتب الأدب التي راج تدريسها آنذاك كتاب القاموس المحيط للفيروز آبادي، وأمّا بالنسبة لأهم القصائد التي تكررت الإشارة إليها في نصوص الرحلات "قصيدة البردة و شرحها للإمام ابن مرزوق" وقصيدة "الهمزية للبويصري" [7]وكتاب:"مسارح الأنظار في شرح بردة المختار للغبريني"[8]، كما اشتهر من الكتب كذلك" العقد الفريد"

---

[1] رمضان عبد الحميد صديق، المرجع السابق، ص 451.

[2] الطيب الفاسي الشرقي، المصدر السابق، ص 274. أنظر أيضا : نواب ، المرجع السابق، ص522

[3] نواب، المرجع السابق، ص 538.

[4] الإسحاقي، المصدر السابق، ص 551.

[5] هورخرونيه ، المصدر السابق، ص 519.

[6] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 535، 536، 581.

[7] الطيب الفاسي الشرقي، المصدر السابق، ص 274.

[8] نواب ، المرجع السابق، ص ص 534- 536.

و"مقامات الحريري" [1]، وأمّا عن أشهر الأدباء الذين برزوا في تلك الفترة فقد اشتهر منهم أبو العباس أحمد بن عبد الله الدمناتي الذي التقى به محمد بن عبد السلام الناصري[2]، بالإضافة إلى عبد الله ابن المرحوم يحي أفندي بن جعفر الواعظ و زين العابدين بن سعيد المنوفي ...إلخ.[3]

وزيادة على ذلك كان علم التاريخ من ضمن العلوم الشائعة في الحجاز، إذ وجد الكثير من العلماء الذين اشتغلوا به، ومما يؤكد ذلك أن أحمد بن ناصر الدرعي قد ذكر لنا في رحلته أنه التقى بالشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي المكي الشافعي و أشار أنه كانت له عناية بالتاريخ والتأليف فيه، وقد أطلعه على مصنفه الذي تطرق فيه إلى علماء و أدباء و صلحاء وملوك القرن السابع عشر [4]، كما أن كتب الرحلات تحفل بأسماء بعض كتب التاريخ التي كانت المتداولة في تلك الفترة ومن أبرزها :

-تاريخ السمهودي المعنون بـــ وفاء الوفا[5]

- شفاء الغرام للفاسي[6] .

- كتاب أخبار مكة للأرزقي[7].

- أخبار مكة للفاكهي.

- القرى لقاصد أم القرى للطبري[8].

- تاريخ الخلفاء للسيوطي [9].

[1] هورخرونيه ، المصدر السابق ، ص 482. أنظر أيضا: ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ص 274.

[2] محمد بن عبد السلام الناصري ، المصدر السابق، ص 578.

[3] الإسحاقي، المصدر السابق، ص ص 567- 570

[4] الدرعي ، المصدر السابق، ص 399.

[5] محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق، ص 602.

[6] الدرعي، المصدر السابق، ص 396.

[7] الإسحاقي، المصدر السابق، ج2،ص 544.

[8] نواب ، المرجع السابق، ص ص 532،533.

[9] رمضان عبد الحميد صديق، **الحياة العلمية** ...،ص 487 .

2.2 العلوم العقلية :

رغم أن تدريس العلوم الدينية والشرعية كان هو السائد في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إلا أن ذلك لا يعني عدم اهتمام علماء الحجاز بالعلوم العقلية، إذ يلاحظ من خلال ما يذكره الرحالة المغاربة أن هذه العلوم لقيت إقبالا وإن كان هذا الإقبال أقل من الإقبال الذي شهدته العلوم النقلية التي عرفت رواجا ملحوظا، وقد برز في العلوم العقلية أكثر العلماء العجم، كما وجد بعض علماء العرب الذين جمعوا بينها وبين العلوم الشرعية [1].

إن القارئ لنصوص الرحلات الحجازية يجد إشارات لعلماء اشتغلوا بعلم الكمياء والمنطق والطب والحساب فهذا الشيخ أبو مهدي عيسى الثعالبي زيادة على إلمامه بعلم الحديث كانت له معرفة كبيرة بعلم المنطق[2]، وكذلك يفيدنا بعض الرحالة أن الشيخ محمد بن سليمان الروداني المغربي الذي كان مجاورا بمكة المكرمة كان معروفا بإجادته لعلم المنطق، و قد أكدوا زيادة على ذلك اشتغاله كذلك بعلم الحساب[3]، وعلى ما يبدو أن علم الحساب هو الآخر قد احتل مكانة كبيرة لدى علماء الحجاز خلال تلك الفترة إذ كان يرتبط بالزكاة وبالمعاملات اليومية ومما يثبت انتشاره أنه توجد إشارات متعددة في مصنفات الرحالة تشير إلى بعض الكتب المتداولة في تدريسه مثل كتاب "رسالة في علم التوقيت وكتاب منية الحساب" وغيرها من الكتب الأخرى [4].

ومن ضمن العلوم العقلية التي انتشرت في الحجاز إبان فترة الدراسة إضافة إلى ما سبق ذكره علم الأسماء وأسرار الحروف وعلم التنجيم، حيث شهد رواجا سواء عند العامة أو الحكام[5]، ومن أبرز ممن اشتهروا بإلمامهم بهذا العلم نجد شهاب الدين أحمد أحمد بن التاج الذي كان رئيس المؤقتين بالحرم، فقد ذكر العياشي أنه برع فيه، كما أنه أشار كذلك إلى بعض الكتب التي كان يعتمد عليها في تدريسه ومنها كتاب الجفر الكبير [6].

---

[1] ماكامان، المرجع السابق، ص 276.

[2] الدرعي ، المصدر السابق، ص 403.

[3] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدر السابق،ص ص 421، 422.

[4] العياشي، المصدر السابق،ج2، ص 28، 58. أنظر أيضا: محمد ماكمان، المرجع السابق، ص 276

[5] نواب ، المرجع السابق، ص 537.

[6] العياشي، المصدر السابق، ج 2، ص 11.

3. العلماء

تجمع نصوص الرحلات على أن الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان يحفل بالعلماء الذين كانت لهم مشاركة في شتى أصناف المعرفة، ومما يلاحظ أن أصول هؤلاء العلماء قد تنوعت ، فلما كان موسم الحج يعدّ مناسبة لالتقاء الوفود من مختلف الأقطار الإسلامية فإنه وجد بالحجاز خلال فترة الدراسة علماء من مختلف الجنسيات منهم الحجازيون و المجاورون و الأعاجم، ومما لاشك فيه أن هؤلاء العلماء الذين أورد الرحالة المغاربة تراجم عدد منهم في مصنفاتهم كان لهم أثر فعال في تنشيط الحركة الثقافية خصوصا وأنهم اشتهروا بمؤلفاتهم الكثيرة وبنبوغهم في مختلف العلوم .

وفي الواقع أنه لا يمكن حصر جميع العلماء الذين ورد ذكرهم في كتب الرحلات لذلك سوف نكتفي بذكر عدد يسير منهم وهم كالتالي :

محمد بن محمد قاضي زادة الأنصاري :

من علماء مكة المكرمة ويلقب أيضا بالقاضي عيد، لقيه ابن طيب الشرقي أثناء مجاورته بها و قد اجتمع به في منزله وذكر لنا أنه تناقش معه في مسائل علمية متنوعة من حديث ونحو و أدب، كان هذا الشيخ كبيرا في السن، فائق الشهرة في الحجاز حيث عرف عنه تعلقه بالعلم، وقد ألف مصنفات كثيرة منها على سبيل المثال: "حلية المتحلي" الذي تناول فيه جميع ما يتعلّق بالصلاة في المذهب الحنفي، وله ايضا كتاب "حسن السلوك على تحفة الملوك" بالإضافة إلى مؤلفه الموسوم"الأحرار في أحكام الخلع والأبرار، كما ألف كذلك كتاب "الفيض الصمداني في شرح الكيداني"[1].

محمد بن سليمان الروداني :

فقيه وإمام مغربي، كان مجاورا بالمدينة المنورة ، يرجع نسبه إلى تارودانت وهي بلدة تقع في السوس بالمغرب الأقصى، ترجم له صاحب نشر المثاني فذكر أنه اشتهر بإلمامه ونبوغه في علوم كثيرة كالمنطق و الكمياء و الحساب و التنجيم، أخذ العلم من كبار العلماء في المغرب العربي من أمثال محمد بن سعيد و أبي

[1] الطيب الفاسي الشرقي، المصدر السابق، ص ص 225، 226.

عبد الله سيدي محمد بن ناصر الدرعي بالإضافة إلى سعيد قدورة[1]، اجتمع به الإسحاقي في رحلته إلى الحرمين الشريفين ومن جملة ما ذكره عنه أنه كانت له وجاهة ومكانة كبيرة في البلاد المشرقية [2].

وصفه أحمد بن ناصر الدرعي عندما لقيه كذلك في الحجاز ومن أهم ما أورده عنه أنه عرف بكثرة رحلاته فبعد أن جال بلاد المغرب العربي ارتحل إلى اسطنبول ثم إلى مصر و منها إلى المدينة المنورة التي استوطن فيها، كما سافر بعدها إلى بلاد الشام التي كانت وفاته بها [3]، ومما استوقف أحمد بن ناصر الدرعي ولفت إعجابه اشتغاله وبراعته في الصناعات اليدوية خاصة تسفير الكتب والخرازة والتطريز و الصياغة وصناعة الزجاج و آلات التوقيت[4].

اشتهر محمد بن سليمان الروداني بكثرة تصانيفه وقد عددها المحبي في كتابه ومن ضمنها: "مختصر التحرير في أصول الحنفية لابن همام وشرحه"، و"حاشية على التسهيل، و" منظومة في علم التوقيت"، وصلة الخلف بموصول السلف وغيرها من المصنفات الأخرى [5].

أبو الفضل محمد تاج الدين بن عبد المحسن بن سالم القلعي الحنفي:

مفتي وخطيب المسجد الحرام، كان حنفي المذهب، اجتمع به الإسحاقي وأخذ عنه الإجازة في الحديث إذ قرأ عليه حديث المسلسل بالأولية[6]، لا تذكر المصادر التي ترجمت له تاريخ مولده لكنها أشارت أنه أخذ العلم من كبار الشيوخ كالشيخ حسن عجيمي والشيخ عبد الله بن سالم البصري، تولى قضاء مكة المكرمة وتصدر للتدريس في المسجد الحرام، أكدت المصادر أنه كانت له حضوة كبيرة في الحجاز حيث تتلمذ على يديه العديد من الطلبة الذين أقبلوا عليه من داخل الحجاز وخارجها[7].

---

[1] محمد ابن الطيب القادري ، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر** ، تح: محمد حجي، ج2، ط 1، مكتبة الطالب ، االرباط، 1982م، ص ص 314، 315.

[2] الإسحاقي، المصدر السابق، ص ص 579،580.

[3] الدرعي، المصدر السابق، ص ص 421- 423.

[4] نفسه، ص 428.

[5] المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج4، دت، ص 205، 206.

[6] الإسحاقي، المصدر السابق ، ص 567.

[7] صديق بن حسن الغنوجي، **أبجد العلوم الوشي المرقوم في معرفة أحوال العلوم** ، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1889م، ص 168، 169.

الحسن العجيمي:

من علماء وفضلاء مكة المكرمة اجتمع به أحمد بن ناصر في رحلته،[1]، كان حنفي المذهب أخذ العلم من كبار الشيوخ من أمثال الشيخ ابراهيم بيري والعلامة مهنأ ابن عوض الحضرمي ودرس الحديث وأصول الفقه والنحو و البيان و علم الفرائض عن الشيخ عيسى الثعالبي المغربي، أثنى عليه صاحب كتاب نشر النور والزهر و وصفه بالامام الكبير، الزاهد، الورع، محدث الحجاز، القدوة، كانت وفاته في عام 1113هـ-1702م، وقد ترك مؤلفات ثمينة من أهمها: "منحة الباري في إصلاح زلة القاري"،وكتاب "التصوف والفلك المشحون"، "وخبايا الزوايا" الذي ترجم فيه لشيوخه،" و النفح المسكي في عمرة المكي"، ومن ضمن مؤلفاته أيضا بلوغ المأمول في معرفة المكلف وطريق الوصول و بلوغ المآرب في صبر الناصح على المتاعب...إلخ [2].

محمد الطبري:

هو محمد بن علي ابن فضل ابن عبد الله ابن المحب الطبري، حدّد الزركلي تاريخ مولده بسنة 1100هـ_ 1689م، وأمّا عن وفاته فكانت عام 1173هـ- 1760م، وولد ونشأ في مكة المكرمة، وكان يلقب بالجمال الأخير، شغل منصب إمام المقام الابراهيمي[3]، ذكر الإسحاقي الذي لقيه وأخذ عنه الإجازة أنه كان رجلا متصوفا على المذهب الأشعري ووصفه بالشيخ العلامة الورع، له مؤلفات عديدة أطلعه عليها منها:كتاب منتهى السؤال في الصلاة على النبي الرسول" و له أيضا"حرز الخشي في حزب الصبح والعشي [4]، ومن ضمن مصنفاته كذلك " إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني لحسن فضلا عن كتاب "الحجة الناهضة في إبطال مذهب الرافضة"[5].

الشيخ عبد الله بن سالم البصري :

هو عبد الله بن سالم بن محمد بن سالم البصري المكي، أحد أشهر علماء الحجاز في القرن الثامن عشر، تذكر المصادر التي ترجمت له أنه ولد في مكة المكرمة في عام 1049 هـ وتوفي بها في سنة

[1] الدرعي ، المصدر السابق، ص 399.

[2] عبد الله مرداد أبو الخير، **المختصر في كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر**، تح: محمد سعيد العامودي و أحمد علي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، دت، ص ص 167-173.

[3] الزركلي، المرجع السابق، ج6،ص 296.

[4] الإسحاقي، المصدر السابق، ص ص 564- 565.

[5] الزركلي، المرجع السابق،ص 296.

1134هـ[1]، أخذ العلم وتتلمذ على يد الكثير من العلماء والشيوخ منهم عيسى الثعالبي الجعفري وعلي بن عبد القادر الطبري ويحي الشاوي وغيرهم[2]، برع في علم الحديث فتصدر لتدريسه بالحرمين الشريفين، اجتمع به أحمد بن ناصر الدرعي وأخذ عنه الإجازة في جميع مروياته، ومن جملة ما ذكره عنه أنه كان شافعي المذهب، وأضاف كذلك أنه كانت كان له حضوة ومكانة كبيرة عند أهل الحجاز[3]، امتدحه صاحب كتاب نشر النور والزهر فقال عنه:"عمدة المحققين وخاتمة المحدثين، ومن أبرز مؤلفاته:"الإمداد بمعرفة علو الإسناد"، وله أيضا"الضياء الساري على صحيح البخاري"[4].

أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد عقيلة المكي:

لقيه الإسحاقي في رحلته و أخذ عنه الإجازة[5]، وفي ترجمته ذكر المرادي أنه كان حنفي المذهب، وأشار أيضا أنه ولد ونشأ بمكة المكرمة، أخذ العلوم من الشيخ عبد الله بن سالم البصري و حسن بن علي العجيمي و الملا إلياس بن ابراهيم الكوراني وغيرهم من العلماء [6].

اشتهر بتآليفه ومصنفاته المتنوعة ومنها :

- لسان الزمان في أخبار سيد العربان وأخبار أمته من الإنس والجان
- رسالة القول النفيس في الجواب عن اسئلة ابليس
- رسالة المجالس الذكرية في الليالي القدرية .
- كتاب الإحسان في علوم القرآن [7].

الشيخ عيسى الجعفري الثعالبي:

هو الشيخ أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري، أشار أحمد بن ناصر الدرعي أنه فقيه مغربي من عمالة الجزائر، عالم فاضل، شاذلي الطريقة، جاور بالحرمين الشريفين وأخذ عن كبار شيوخها من أمثال تاج الدين المالكي وزين العابدين الطبري وغيرهم، تفرغ للتدريس بالحجاز فانتفع بعلمه عدد كبير من الطلبة

[1] اسماعيل باشا البغدادي، **هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين** ، ج1، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1951م، ص 480.
[2] الجبرتي، المصدر السابق، ج1، ص 151.
[3] الدرعي ، المصدر السابق، ص 367.
[4] الزركلي، المرجع السابق، ج4، ص 88.
[5] الإسحاقي، المصدر السابق، ص 557.
[6] المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 30.
[7] الإسحاقي، المصدر السابق ،ص ص 557، 558.

ومنهم العياشي الذي أجازه في جميع مروياته، ارتحل إلى مصر واجتمع بعلمائها، ولقد امتدحه أحمد بن ناصر الدرعي بصفات جليلة منها: الشيخ العلامة ، نادرة الزمان ، المحقق ، الفهامة [1].

كانت وفاته في سنة 1080هـ - 1669م و من ضمن مؤلفاته التي قيدها: كتاب مقاليد الأسانيد وقد تناول فيه شيوخه من المالكيين، بالإضافة إلى كتاب "أسماء رواة الامام أبي حنيفة" وغيرها[2].

الملا ابراهيم ابن الحسن الكوراني:

هو ابراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري الشمراني الشافعي[3]، حدّد القادري مولده في سنة 1025هـ- 1616م، في حين أشار أن أن وفاته كانت في سنة1101هـ/ 1689م، اشتهر بكثرة رحلاته حيث ارتحل إلى بغداد ثم إلى بلاد الشام وبعدها إلى مصر ثم الحجاز، استقر وجاور بالمدينة المنورة وأخذ عن كبار العلماء كالشيخ صفي الدين القشاشي وأحمد بن علي الشناوي [4].

لقيه أحمد بن ناصر الدرعي في المدينة المنورة و أخذ عنه الإجازة في جميع مروياته، وقد وصفه بقوله: "حامل لواء الشريعة والحقيقة، الشيخ العلامة الفهامة، نادرة الأعصار، عديم الشكل في سائر الأمصار"، وأضاف أنه كانت له مشاركة في جميع العلوم النقلية والعقلية[5]، و ذكر المرادي أنه تولى مهنة التدريس بالمسجد الحرام حيث نال حضوة كبيرة في الحجاز فقد كان قلبة للطبة الذين يأتون إليه من البلدان المختلفة للأخذ عنه، و للشيخ الكوراني مؤلفات ثمينة منها: تكميل التعريف لكتاب في التصريف، و شرح العوامل الجرجانية و ضياء المصباح في شرح بهجة الأرواح و حاشية شرح الأندلسية للقصيري ومسلك السداد إلى مسألة خلق أفعال العباد وغير ذلك من المصنفات [6].

[1] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 400- 405.
[2] عبد الله مرداد أبو الخير، المصدر السابق، ص 384
[3] المرادي، المصدر السابق،ج1 ص 5.
[4] محمد بن طيب القادري، **التقاط الدرر...**، المصدر السابق ، ص ص 255، 256
[5] الدرعي ، المصدر السابق، ص ص 520، 521.
[6] المرادي ، المصدر السابق، ص ص 5، 6.

عبد الله السكندراني:

عالم ضرير، اكتفى ابن الطيب الشرقي بالإشارة إلى أنه التقى به في مكة المكرمة[1]، وأمّا الإسحاقي فذكر عنه أنه كان عالما بارعا لا سيما في علوم التنزيل، وقد حلاه بأحسن الصفات حيث قال عنه: الشيخ الإمام، القدوة الهمام، مهر هذا العالم في التأليف فشملت مؤلفاته التفسير و الحديث وعلم الكلام ومن أبرز مؤلفاته تفسير بالنظم و هو كتاب يضم أكثر من ثلاثة آلاف بيت في الرجز [2].

عبد الله ابن الطيب الفاسي:

هو محمد بن الطيب بن محمد الشرقي الفاسي، من العلماء الذين جاوروا بالمدينة المنورة، ذكر الحضيكي أنه التقاه واكتفى بالإشارة إلى أن أصله من المغرب[3]، ولد بفاس سنة 1110هـ ـــ 1698م، وأخذ العلم من كبار العلماء كالشيخ عبد السلام بناني و أبو عبد الله محمد بن محمد الأندلسي وغيرهم ، تضلع في الكثير من العلوم لاسيما في الأدب واللغة، ذكر المرادي أنه كانت له عناية فائقة بالشعر، كما برع كذلك في الحديث، تولى التدريس بالحرم النبوي وقد انتفع به عدد كبير من الطلبة، سافر إلى مصر وبلاد الشام وكانت له مع علمائها مباحثات علمية في شتى العلوم[4]، توفي بالمدينة المنورة في عام 1170هـ-1856م وترك مجموعة من المؤلفات منها: فيض نشر الانشراح و شرح على كفاية المتحفظ، وحاشية على القاموس، وشرح كافية ابن مالك[5].

أحمد بن محمد النخلي:

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن علي النخلي المكي الشافعي متصوف على الطريقة النقشبندية [6]، أشار المرادي أنه ولد عام 1044هـ بمكة المكرمة وأخذ العلم من كبار علماء عصره من أمثال عبد الله بن سعيد باقشير المكي و محمد بن علاء الدين البابلي، ومن مشايخه كذلك يحي الشاوي و محمد الرديني اليمني الشافعي وغيرهم[7]، كان هذا الشيخ بارعا في العلوم العقلية والنقلية، وقد تولى التدريس بالمسجد الحرام حيث انتفعت به

[1] الطيب الفاسي الشرقي، المصدر السابق، ص 225.
[2] الإسحاقي ، المصدر السابق، ص 579.
[3] الحضيكي، المصدر السابق، ص 173.
[4] المرادي، المصدر السابق،ج4، ص ص 91- 94.
[5] الزركلي، المصدر السابق، ج6، ص ص 177،178.
[6] مرداد أبو الخير، المصدر السابق،ص 120
[7] المرادي، المصدر السابق ، ج1، ص ص 171، 172

طائفة كبيرة من الطلبة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد بن عبد الرحمن الغزي و اسماعيل العلجوني[1].

تذكر المصادر التي ترجمت له أنه اتصف باللين وبشاشة الوجه والتواضع[2]،توفي في عام 1130 هـــ، وأمّا عن أشهر مصنفاته فقد ألف: "بغية الطالبين لبيان المشايخ المحققين" و "التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات الشرعية" [3] .

أحمد جمل الليل الشافعي:

هو أحمد باعلوي الشهير بجمل الليل، أحد علماء المدينة المنورة الذين أخذ عنهم واجتمع بهم محمد بن عبد السلام الناصري[4]، أخذ العلم على ثلة من العلماء كالشيخ عبد الله الجوهري و محمد بن عبد الله المغربي السجلماسي، تصدر لتدريس العلوم الشرعية بالمسجد النبوي، يذكر عنه صاحب كتاب حلية البشر أنه كانت له معرفة بسائر العلوم النقلية والعقلية وأضاف أنه اهتم بالشعر[5]، كانت وفاته سنة 1216هـــ، ومن أشهر مؤلفاته: "ذخيرة الكيس فيما سأل عنه باجبير ومحمد باقيس"[6].

مصطفى بن فتح الله الحموي:

أشار الدرعي أنه التقاه خلال مكوثه بمكة المكرمة[7]، وأمّا المصادر التي ترجمت له فتذكر أنه كان مؤرخا وأديبا، ولد بمصر وقيل أنه أصله من منطقة حماة، غير أن نشأته كانت بدمشق التي أخذ فيها العلم عن كبار علمائها، رحل إلى مكة المكرمة وجاور بها[8]، أثنى عليه المؤرخون فوصفه المرادي بـــ: الشيخ

[1] محمد الحبيب الهيلة، **التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن 3 هجري إلى القرن الثالث عشر**، ط1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 1994م، ص 387.

[2] المرادي، المصدر السابق، ص 172.

[3] البغدادي، المصدر السابق، ص 167.

[4] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الصغرى**، المصدر السابق ص 213.

[5] عبد الرزاق البيطار، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، تح: محمد بهجت البيطار، ج1، دار صادر ، بيروت، ص 284، 285

[6] الكتاني، المصدر السابق، ج1، ص ص 120، 121

[7] الدرعي ، المصدر السابق، ص 399

[8] مرداد أبو الخير ، المصدر السابق، ص 497.

الفاضل، العالم الأديب، البارع [1]، توفي باليمن في عام 1123هـ- 1711م، له من المؤلفات: "فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر" [2].

محمد حياة بن ابراهيم السندي:

من علماء المدينة المنورة الذين ذكر الحضيكي أنه اجتمع بهم في رحلته[3]، أشار المرادي في ترجمته له أن ولد بالسند وأخذ العلم عن علماء عصره، ثم انتقل بعدها إلى المدينة المنورة واتخذ منها موطنا، وقد لازم كبار شيوخها الذين أجازوه ومنهم الشيخ محمد أبو الطاهر بن ابراهيم الكوراني و الشيخ أبا الحسن بن عبد الهادي السندي وغيرهم، وأضاف المرادي أنه كان رجلا ورعا منعزلا عن الناس إلا في وقت إلقاء دروسه بالمسجد النبوي ، ومن الصفات التي حلاه بها: العلامة، الفهامة، المحدث، حامل لواء السنة[4].

اشتغل بالحديث، وقد انتفع به خلق كثير حيث أقبل عليه أهل الحرمين الشريفين و مصر والشام و الهند[5]، ذكر الزركلي أنه توفي بالمدينة المنورة وترك مصنفات كثيرة منها: "شرح الترغيب والترهيب للمنذري"، "شرح الحكم العطائية"،"مقدمة في العقائد"[6].

محمد الدقاق السلاوي :

اجتمع به الحضيكي في رحلته إلى الحرمين الشريفين[7]، يرجع أصله إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، كان مالكي المذهب، ارتحل في عام 1142إلى المدينة المنورة واستقر بها وهناك أخذ عن شيوخها من أمثال العلامة عبد الرحمن ابن الشيخ عبد القادر الفاسي وعن غيره من العلماء، أشار المرادي في ترجمته له أنه كان صوفيا، وله فضل ووجاهة في المدينة المنورة، كما وصفه بأنه كان شيخا فاضلا هماما، عليه السكينة والوقار، اشتغل بالتدريس في المسجد النبوي، توفي بالمدينة سنة 1158هـ، ودفن بالبقيع[8] .

[1] المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 178.
[2] الزركلي، المرجع السابق، ج 7، ص 238.
[3] الحضيكي، المصدر السابق، ص 111.
[4] المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 34.
[5] الغنوجي ، المرجع السابق، ص 170.
[6] الزركلي، المصدر السابق، ج6، ص 111.
[7] الحضيكي، المصدر السابق، ص 173
[8] المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 122، 123.

التاودي بن سودة :

هو أبو عبد الله محمد التاودي بن الطالب بن سودة المرى الفاسي، أحد علماء وفقهاء المغرب الأقصى المشهورين في الثامن عشر، ولد ونشأ بمدينة فاس، أخذ العلم وتتلمذ على يد كبار علماء المغرب من أمثال محمد بن عبد السلام بناني و أحمد بن مبارك اللمطي وغيرهم، كان مُلما بعلوم كثيرة مثل الفقه والحديث واللغة ، وقد أهله ذلك لتولي مهنة التدريس بجامع القروين فأصبح من أشهر الشيوخ اللذين يؤخذ عليهم عليهم الطلبة الإجازة، ارتحل في سنة 1191 هـــ إلى الحجاز لأداء مناسك الحج، وقد لقي هناك أثناء مجاورته عددا من العلماء فأخذ عنهم وأجازهم[1].

أثنى عليه صاحب كتاب سلوة الأنفاس فوصفه بالشيخ الإمام، الفقيه العلامة، المحقق المدقق، الولي الصالح شيخ الجماعة في وقته، توفي سنة 1209هـــ وقد ترك مصنفات كثيرة منها فهرسته التي جمع فيها أشياخه المغاربة والمشارقة، وكتاب" زاد الساري في مطالع البخاري" وشرح مشارق الأنوار للصاغاني" و"شرح التحفة لابن عاصم" و"شرح الجامع للشيخ خليل" و"مناسك الحج" وغيرها[2] .

مجملا يمكن القول أن الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد شهد حركة علمية نشيطة حيث تعددت المراكز العلمية وتنوعت أصناف العلوم وطرق التدريس، وقد تبوأ المسجد الحرام والمسجد النبوي مكانة كبيرة، فقد اعتبرا في العهد العثماني من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي، ومما لاشك فيه أنه كان للحج أثر كبير على الحياة الثقافية، إذ أضحت الحجاز نتيجة لذلك تعد ملتقى ثقافي يجتمع في رحابها العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية ، وقد أسهم ذلك بلا شك في انتعاش الحركة الفكرية .

[1] عبد الله مرابط الترغي، **فهارس علماء المغرب من النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر هجري**، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، المغرب، 1999م، ص 294- 296.

[2] محمد بن جعفر بن ادريس الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، تح: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، دب ن، دت، ص ص 117-119.

الخاتمة

إنّ مما لا شك فيه أن كتب الرحلات تعد مصدرا فريدا لاغنى عنه للباحثين المهتمين بدراسة التاريخ الحضاري لمنطقة المشرق العربي عامة ومصر والحجاز على وجه الخصوص، حيث تختزن هذه المصنفات بين طياتها رصيدا هاما ومتنوعا من المعارف والمعطيات ذات الطابع التاريخي، والتي بواسطتها يمكن الكشف عن صورة وواقع هذه المناطق في كافة المجالات سواء تعلّق الأمر بالناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية، وعلى العموم وبعد دراستنا لهذا الموضوع توصلنا إلى جملة من الاستنتاجات نوجزها على الشكل التالي:

- يعتبر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من أكثر الفترات التاريخية التي شهدت فيها الرحلة إلى المشرق العربي تطورا، حيث نجم عن ذلك كم هائل من الرحلات المدونة التي تميزت بالطابع الشمولي منها ما حقق و تمت دراسته، ومنها ما لا يزال على شكل مخطوط مثل بعض الرحلات المغاربية التي لا تزال تحتفظ بها بالخزائن العامة في المغرب العربي .
- شكلت منطقة المشرق العربي على مر العصور التاريخية نقطة جذب بالنسبة للرحالة المغاربة والأوروبيين ، حيث توافدوا عليها لأسباب كثيرة و متنوعة، فالرحالة المغاربة نجد أن رحلاتهم قد ارتبطت بالدافع الديني المتمثل في تأدية مناسك الحج بالإضافة إلى الرغبة في الاستزادة من العلم وتحصيل المعارف، ومن بواعث رحلاتهم كذلك السفارة والتجارة، وأمّا الرحالة الأوروبيين فيرجع اهتمامهم بالمشرق العربي إلى عدة مقاصد، فمنهم من زار هذه المناطق من أجل الرغبة في الاستكشاف و المغامرة، ومنهم من كلف من طرف حكوماتهم لجمع المعلومات وتقصي أحوال المشرق العربي، ومن بينهم من قدم إليه بدافع ديني لزيارة الأراضي المقدسة .
- اعتمد الرحالة المغاربة والأوروبيون في تدوين مصنفاتهم الرحلية على مصادر عديدة تأتي في مقدمتها الملاحظة والمشاهدة المباشرة للأحداث، كما استندوا كذلك إلى الرواية الشفوية حيث ضمنوا رحلاتهم ما سمعوه من أخبار أثناء تنقلاتهم، زيادة على ذلك أفادوا أيضا من كتب الرحالة السابقين،كما استعانوا بمصادر تاريخية متنوعة، ولعلّ من هنا تتّأتى القيمة العلمية والمصدرية لكتب الرحلات، ذلك أنّها تعد نتاج تجربة شخصية للرحالة الذي يصور بدقة ما يشاهده من وقائع في البلد المزار، وبالتالي إن هذه المصنفات الرحلية تجاوزت محتواها من مجرد مذكرات إلى كونها أحد أهم المصادر التاريخية التي ارتسمت فيها صورة المشرق العربي في العهد العثماني.

- إن تنّوع اهتمامات الرحالة و تفاوت درجة ملاحظاتهم لأحوال مصر والحجاز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد نتج عنه مادة تاريخية مهمة يمكن أن تساهم في كشف الغموض على بعض الجونب التي لا تزال تحتاج إلى الدراسة خاصة وأن المصادر التاريخية المحلية الأخرى قد أغفلتها، فالمعروف عن كتب الرحلات أنّها تصف بشكل دقيق مظاهر الحياة اليومية وتلم بمختلف الجوانب وهو ما من شأنه أن يسد النقص الذي ميز المصادر التاريخية الأخرى ويفتح أفاقا جديدة للبحث حول هذه المنطقة المهمة .
- رغم الأهمية المصدرية التي تتسم بها كتابات الرحالة المغاربة والأوروبيين عن منطقة المشرق العربي، إلا أنه يعاب على مضامينها بعض المآخذ خاصة النزعة الذاتية التي تميز كتابات الرحالة الغربيين، كما أنّها لا تخلو من المغالات و مجانبة الحقيقة في بعض الأحيان، وسواء كانت مظاهر القصور في هذه الرحلات ناتجة عن اختلاف المرجعيات الدينية والثقافية لهؤلاء الرحالة أو لأهدافهم المختلفة والمتنوعة فإن ذلك يفرض على الباحثين المهتمين بدراستها الحذر مما قد يشوب تلك المصنفات من نقائص، وذلك عن طريق التحلي بالموضوعية في التعامل مع تلك النصوص، إذ يتوجب على الباحث إخضاعها للنقد والتمحيص الدقيق والتحليل، كما أنه لا بد كذلك من مقارنة ما جاء في هذه الرحلات مع المصادر المحلية الأخرى من نفس الحقبة الزمنية.
- إنّ الرحلات المغاربية و الأوروبية إلى مصر والحجاز في العهد العثماني اتسمت بانتظامها حيث تزايدت هذه الرحلات بشكل لافت في القرنين الثامن عشر التاسع عشر، وقد قام هؤلاء الرحالة برصد أوضاع مصر والحجاز في مصنفاتهم بشكل متفاوت حيث تحكمت في ذلك عدة أسباب منها فترة الإقامة و طبيعة المشاهدات، بالإضافة إلى قدرة الرحالة على الوصف، ومهما يكن من أمر فإن ما تتوفر عليه تلك المصنفات من إفادات تاريخية يسمح بلا شك بإعطاء صورة شاملة عن أوضاع مصر و الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .
- إنّ المتتبع لما سجله الرحالة المغاربة والأوروبيين عن أحوال مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يجد أن مصر خلال هذه الحقبة عرفت عدة تطورات و تحولات، فعلى الصعيد السياسي تميزت أوضاع مصر في القرن الثامن عشر بعدم الاستقرار حيث كثرت الاضطرابات التي نجمت عن النزاع السياسي القائم بين مختلف القوى (الباشا العثماني، الأوجاق العسكرية، المماليك) حول الحكم، وقد أدى هذا الأمر إلى ضعف وانهيار الحكم العثماني في مصر في مقابل زيادة نفوذ المماليك الذين أصبحوا الحكام الفعليين لمصر خلال هذه الحقبة، وأمّا بالنسبة لما شهدته مصر في القرن التاسع عشر فإن الملاحظ أن هذه الإيالة قد عرفت

مرحلة جديدة اتسمت بالإستقرار خاصة بعد تولي محمد علي للحكم، فقد سعى هذا الأخير إلى إرساء دولة حديثة، وذلك من خلال انتهاج سياسة الاصلاحات و التحديث الذي مس كافة المجالات .

- بالنسبة للأوضاع الاقتصادية التي شهدتها مصر نلاحظ أن الزراعة كانت تشكل عماد الاقتصاد المصري، حيث كان لنهر النيل أهمية كبرى في انتعاشها باعتباره مصدرا لخصوبة الأراضي، وقد انعكس ذلك على الإنتاج الزراعي حيث تنوعت وتعددت المحاصيل الزراعية والتي شملت مختلف المنتجات سواء تلك الموجهة للاستهلاك المحلي أو الموجهة للتصدير، وأما بخصوص حالة الصناعة في مصر فقد ظلت خلال القرن الثامن عشر تعاني من الركود، وهذا على عكس القرن التاسع عشر الذي شهدت فيه مصر نهضة صناعية كبرى بفضل جهود محمد علي وسياسته الإصلاحية.

- فيما يتعلّق بالنشاط التجاري الذي عرفته مصر خلال تلك الحقبة نستنتج من كتب الرحلات مدى أهمية الموقع الجغرافي الذي تحتله هذه الإيالة، فوجودها في طرق التجارة العالمية جعلها تعد قطبا تجاريا مهما، وهو ما انعكس على التجارة الداخلية والخارجية،إذ تعددت الأسواق بالمدن المصرية، وازدهر التبادل التجاري خاصة خلال موسم الحج الذي كان له دور مهم في تنشيط الحركة التجارية بمصر .

- إنّ أهم ظاهرة استوقفت الرحالة المغاربة في حديثهم عن المجتمع المصري في القرن التاسع عشر هي ظاهرة الحضور و التغلغل الأوروبي الذي شهدته مصر ، إذ استنكر جل مدوني الرحلات الحجازية هذه الظاهرة واعتبروها خطرا يهدد المجتمع المصري لاسيما وأن هذا التواجد الأوروبي قد أخذ شكل السيطرة و الهيمنة، إذ استأثرت فئة الأوروبيين بالنفوذ في كافة المجالات، و لم يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل امتد تأثيرهم إلى المجتمع المصري حيث حصل التمازج بينهم وبين المصريين الذين أضحوا يقلدونهم في عاداتهم و تنظيماتهم، ومما لاشك فيه أن هذا الأمر يعكس جليا أهم التحولات التي مست المجتمع المصري خلال القرن التاسع عشر.

- تنوعت التركيبة الديمغرافية للمجتمع المصري في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ،حيث كان يضم عدّة أجناس وفئات، ورغم هذا التنوع إلا أن المجتمع المصري امتاز حسب ما أورده الرحالة المغاربة والأوروبيين بوجود ظاهرة التفاوت الطبقي حيث انقسم إلى طائفتين الطائفة الأولى تمثلها الفئة الحاكمة وتشمل الباشاوات والولاة والجند وهي تتمتع بمكانة كبيرة، وأمّا الطائفة الثانية فهي تضم مختلف الشرائح الاجتماعية الأخرى وعلى رأسها طبقة الفلاحين وقد ظلت هذه الشريحة تعيش في ظل ظروف اجتماعية متردية .

- عرف المجتمع المصري خلال القرن التاسع عشر عدة تحولات مست التركيبة الاجتماعية ، إذ برزت فئات اجتماعية جديدة لم يكن لها وجود في القرن الثامن عشر، وفي المقابل اضمحلت فئات اجتماعية أخرى وتراجع دور البعض الآخر منها، وهذا ينطبق على فئة الجاليات الأجنبية التي أضحت تمثل شريحة مهمة لها مكانتها وتأثيرها الكبير في القرن التاسع عشر، وفئة المماليك التي تراجعت وكادت تختفي من التركيبة الاجتماعية التي تألف منها المجتمع المصري في القرن التاسع عشر.

- لقد تميز المجتمع المصري بتنوع عاداته وتقاليده منها ما هو مرتبط بالجانب الديني ومنها ما يتعلّق بالحياة اليومية، وقد أثارت هذه العادات المختلفة اهتمام جميع الرحالة الذين زاروا مصر حيث استحسنوا العادات الحسنة منها في حين استنكروا السيئة منها .

- كانت المرأة المصرية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تتمتع بمكانة مهمة في المجتمع المصري، إذ اضطلعت بدور مهم في الحياة العامة، كما أنها كانت تتمتع بالحرية خصوصا في القرن التاسع عشر، فهذا القرن شهد فيه واقع المرأة المصرية عدة تحولات نتجت أساسا عن التطورات التي شهدتها مصر خاصة بعد الحملة الفرنسية.

-كانت مصر تعد من أهم الحواضر الثقافية في العالم الإسلامي، فرغم تعدد وتنوع المراكز العلمية الموجودة بها، إلا أنّها اكتسبت هذه المكانة من أهمية ودور مؤسسة الأزهر الشريف الذي اعتبر في العهد العثماني أحد أهم المراكز العلمية في المشرق العربي عامة ، فقد تميز بنشاط علمي كبير وكان قبلة ومقصدا للطلبة القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

- تميّزت الحياة الثقافية في مصر بسيطرة ظاهرة التصوف، وهو ما انعكس على طبيعة العلوم التي كانت سائدة آنذاك والتي ارتكزت أكثر على العلوم النقلية، بينما ظل الاهتمام بالعلوم العقلية ضئيلا إلى غاية القرن التاسع عشر الذي سوف يشهد نهضة علمية خاصة بعد إصلاحات محمد علي باشا وبناء المدارس الحديثة، وأمّا عن مناهج التدريس السائدة في مصر في تلك الحقبة فقد أظهرت لنا كتب الرحلات أنها قد ارتكزت على طريقة التدريس بالرواية، بالإضافة إلى نظام الإجازة الذي كان أكثر شيوعا، فضلا عن المناظرات العلمية التي اعتبرت هي الأخرى مظهر من مظاهر التواصل العلمي .

- يستنتج كذلك من خلال ما دونه الرحالة و بالأخص المغاربة منهم عن الحياة الفكرية أن مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع قد تميزت بوجود عدد كبير من العلماء الذين ساهموا من خلال نشاطهم

العلمي في تنشيط الحياة الثقافية حيث تنوعت أصولهم ما بين المصريين وكذلك المجاورون الذين وفدوا من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

- بالنسبة لصورة الحجاز في كتابات الرحالة فإن هذه الدراسة قد أظهرت لنا أنه شهد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عدم الاستقرار، إذ اتسم القرن الثامن عشر بالصراع الذي كان قائما بين الأمراء الأشراف على السلطة، كما أن هذه الحقبة طغى عليها انعدام الأمن نتيجة للحروب التي نشبت بين الحركة الوهابية والدولة العثمانية من جهة، وانتشار ظاهرة اللصوصية بشكل واسع من ناحية أخرى ، وقد سجل الرحالة المغاربة في مصنفاتهم مباحث كثيرة حول هذه الظاهرة و أسبابها.

- اقتصاديا يتضح لنا من خلال كتب الرحلات أن أهل الحجاز اهتموا بممارسة مختلف المهن، فالنشاط الزراعي رغم الظروف المناخية السائدة إلا أنه اتسم بتنوع المنتجات ووفرتها، وكانت الصناعة حسب وصف الرحالة تقليدية إذ اقتصرت على بعض الحرف اليدوية التي تلبي حاجيات السكان اليومية، وأمّا عن حالة التجارة فقد عرفت نشاطا كبيرا و انتعاشا خاصة خلال الموسم الحج الذي كان يشكل مناسبة هامة تلتقي فيها مختلف الوفود من أنحاء العالم الإسلامي، الأمر الذي انعكس على النشاط التجاري الذي ازدهر بفضل الأسواق الداخلية من جهة و عملية التبادل التجاري مع البلدان المجاورة من جهة أخرى .

- لقد اتسم المجتمع الحجازي بالتنوع إذ كان يتألف من عدة أجناس وفئات، ومرد ذلك إلى المكانة الدينية التي احتلتها هذه المنطقة في نفوس المسلمين مما جعلها مركز جذب واستقطاب لمختلف الأعراق .

-تنوعت العادات والتقاليد في المجتمع الحجازي، وقد تشكلت هذه العادات نتيجة لتنوع التركيبة السكانية، فوُجدت عادات متوارثة منذ القدم، وكانت هناك عادت مرتبطة بالجانب الديني وأخرى مستحدثة وفدت مع مختلف الأجناس الذين استقروا بالحجاز .

- لم يفت الرحالة المغاربة والأوروبيين وهم يصفون أوضاع الحجاز أن يتطرقوا إلى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية كالألبسة والأطعمة و الأشربة ، وفي هذا السياق أشاروا إلى تنوعها، ففيما يخص الألبسة نلاحظ أنّها اختلفت حسب تنوع الطبقات الاجتماعية، فقد كان لكل فئة لباس يميزها عن غيرها من الفئات الأخرى، وأمّا بالنسبة لأطعمة سكان الحجاز فيلاحظ أنّها تعددت هي الأخرى حيث شملت الأطعمة المحلية و الأطعمة التي أدخلها الوافدون الذين استقروا بالحجاز.

- يُستنتج من خلال مصنفات الرحالة أن الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد شهد أوضاع صحية متدهورة، حيث انتشرت به العديد من الأمراض نتيجة للعوامل الطبيعية كالمناخ، بالإضافة إلى عامل

الحج، فالمعروف أنه كان يستقبل في كل موسم حج وفود كبيرة من الحجاج تأتي إليه من كافة بلدان العالم الإسلامي وهو ما يساهم في انتقال الأوبئة وخاصة وباء الكوليرا الذي كان يسفر عن خسائر كبيرة في المجتمع الحجازي.

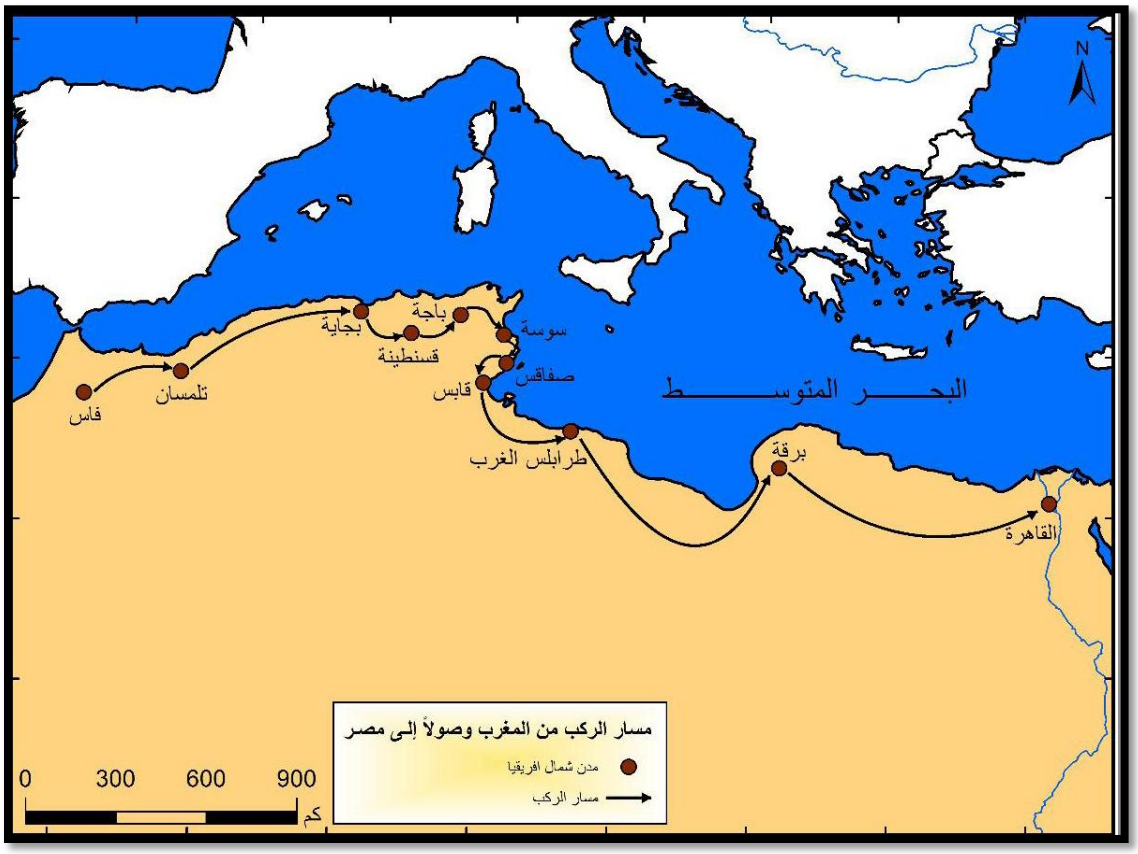
-فيما يخص الحياة الثقافية في الحجاز يظهر جليا لنا أن مكة المكرمة والمدينة المنورة قد حضيتا بمكانة علمية كبيرة في العهد العثماني، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل أهمها وجود المسجد الحرام والمسجد النبوي اللذان كان عامران بالحلقات العلمية والدروس، فضلا عن اهتمام السلاطين العثمانيين بالنشاط العلمي، وكذا توافد طائفة كبيرة من العلماء على الحجاز من كافة الأقطار الإسلامية واستقرارهم فيها .

- اشتهر الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بوجود عدد كبير من العلماء الذين توافدوا عليه من مختلف الأقطار الإسلامية، ويعود الفضل في ذلك إلى موسم الحج الذي كان يشكل مناسبة هامة للتواصل العلمي، وقد ساهم هؤلاء العلماء في تنشيط الحركة العلمية وذلك من خلال التدريس في المراكز العلمية ومن خلال ما تركوه من مصنفات في شتى أصناف العلوم.

وفي الختام يمكن القول أن دراسة موضوع المشرق العربي من خلال كتب الرحلات يعدّ من المواضيع الهامة التي لاتزال تحتاج إلى البحث والتعمق لاسيما وأنّها تستند إلى نصوص الرحلات التي تعتبر مصادر أولية تختزن في طياتها الكثير من المعلومات التي من شأنها أن تساهم في كتابة تاريخ هذه المناطق، وعليه يبقى المجال مفتوحا أمام الباحثين للقيام بدراسات أخرى حول هذا الموضوع خاصة إذا علمنا أن الخزائن العامة والخاصة في المغرب العربي لازالت تحتفظ بعدد هائل من الرحلات المخطوطة و التي لا تزال تنتظر النشر والتحقيق.

قائمة الملاحق

الملحق رقم 01: خريطة توضح مسار ركب الحج المغربي من المغرب وصولا إلى مصر [1].



[1] شرين مبارك فضل الله ، المرجع السابق، ص 3457.

ملحق رقم 02: أهم الرحلات المغاربية إلى المشرق العربي في القرنين 18/ 19 م.[1]

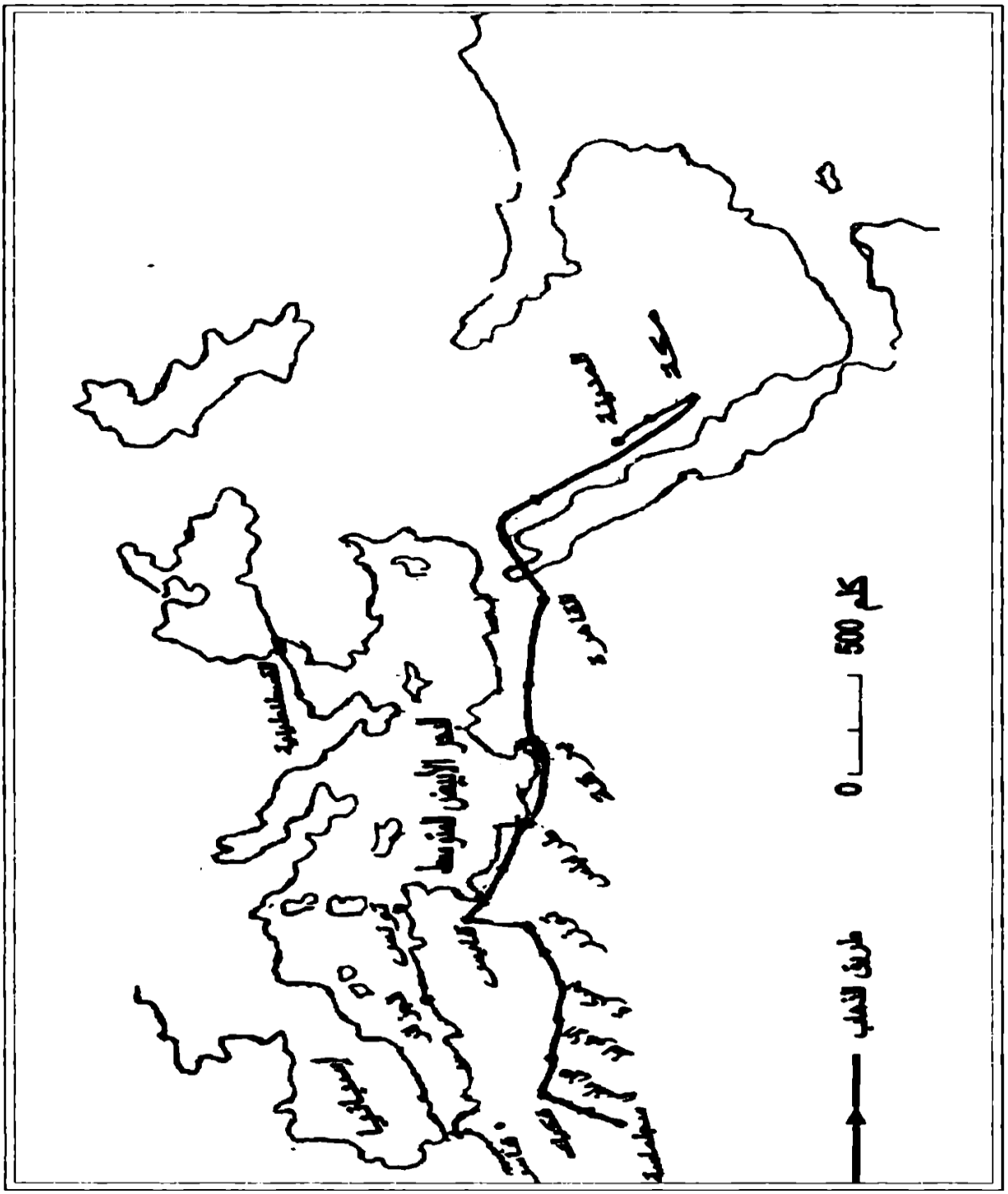
الرحالة	تاريخ الرحلة	هدف الرحلة	عنوان الرحلة
أحمد بن ناصر الدرعي	1121هـ/ 1709م	الحج	الرحلة الناصرية
ابن الطيب الشرقي	1139هـ/1726-	الحج	رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة
الإسحاقي	1143هـ/1731 م	الحج	رحلة الوزير الاسحاقي الحجازية
أبي عبد الله بن الحاج بن منصور العامري	1152هـ/ 1739	الحج	الرحلة العامرية
الحضيكي	1152هـ/ 1739م	الحج	الرحلة الحجازية
عبد المجيد المنالي الزيادي	1158هـ/1745م	الحج	بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام
رحلة ابن عمار	1166هـ/1753م	الحج	نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب
الحسين الورتلاني	1179هـ- 1766م	الحج	نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار
ابن عثمان المكناسي	1201هـ / 1787هـ	الحج و السفارة	إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب
محمد بن عبد السلام الناصري	الرحلة الأولى: 119هـ/ 1782م. الرحلة الثانية: 1211هـ/ 1796م	الحج	- الرحلة الكبرى -الرحلة الناصرية الصغرى

[1] من إعداد الطالبة .

تابع:

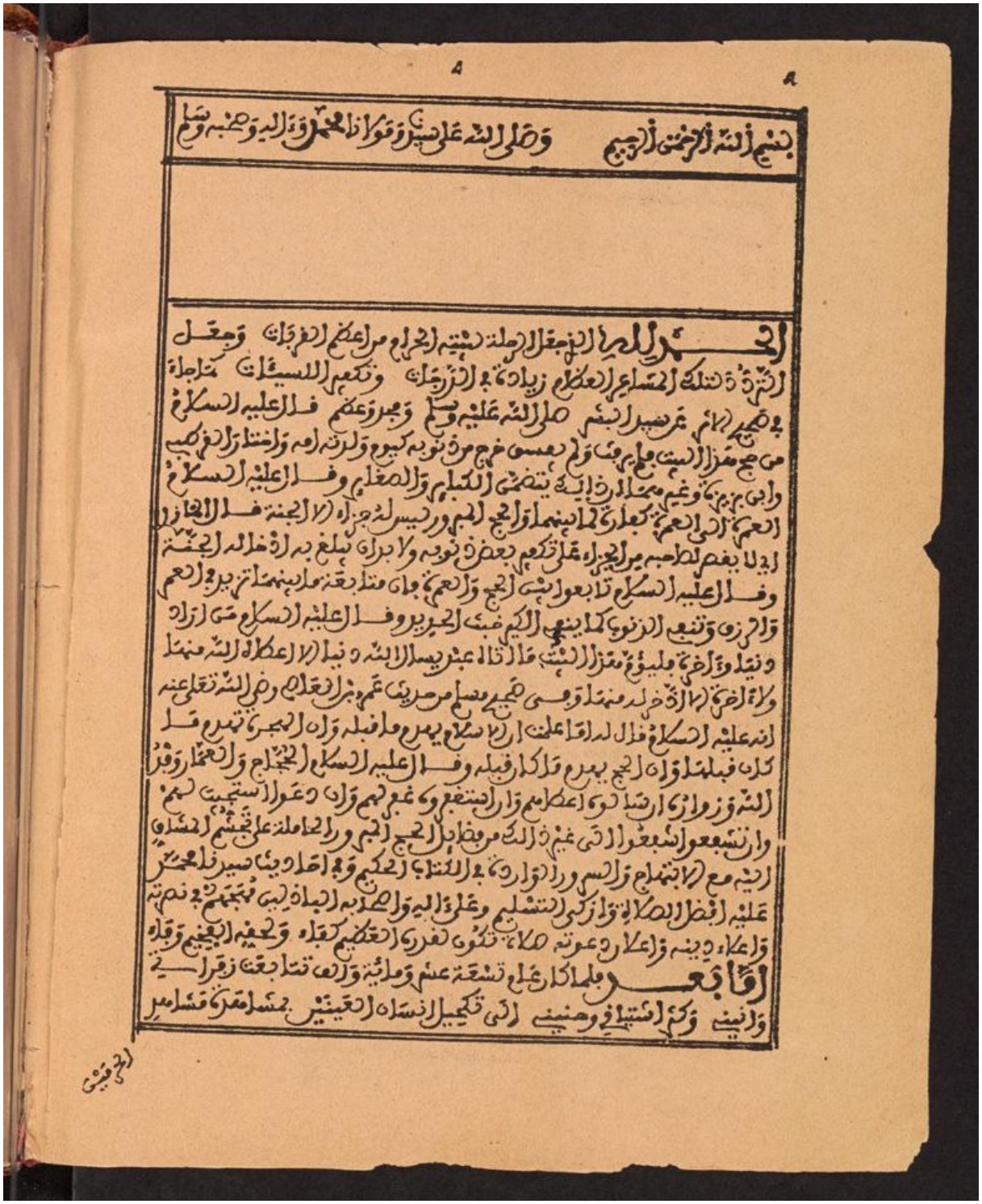
الرحالة	تاريخ الرحلة	هدف الرحلة	عنوان الرحلة
أبو القاسم الزياني	1226هـ/ 1811م	السفارة	الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا
أبو راس الناصري	1226هـ/ 1811م	الحج	فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته.
محمد التمراوي	1242هـ/ 1827م	الحج	الرحلة منشورة في كتاب " المعسول" ج 8
أحمد بن طوير الجنة	1245هـ- 1829م	الحج	رحلة المنى والمنة
محمد الحيوني	حوالي سنة 1263هـ/1847م	الحج والمجاورة بمصر	الرحلة الحجازية
محمد بن عبد الله الغيغائي	1274هـ/1858 م	الحج	من المغرب إلى الحجاز عبر أوروبا
محمد الطيب ابن أبي بكر بن كيران	1293هـ/ 1876م	الحج	الرحلة الفاسية الممزوجة بالمناسك المالكية
السبعي	1310هـ/ 1893م	الحج	الرحلة الحجازية
محمد يحي بن محمد المختار الولاتي	1311هـ/ 1894م	الحج	الرحلة الحجازية
الحسن بن محمد الغسال	1315هـ/ 1898م	الحج	الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية

الملحق رقم 03 :خريطة تبين مسار رحلة أحمد بن ناصر الدرعي[1]



[1] مصطفى الغاشي، **الرحلة المغربية** ...، المرجع السابق، ص 665.

الملحق رقم 04: صورة للصفحة الأولى من مخطوط الرحلة الناصرية [1].



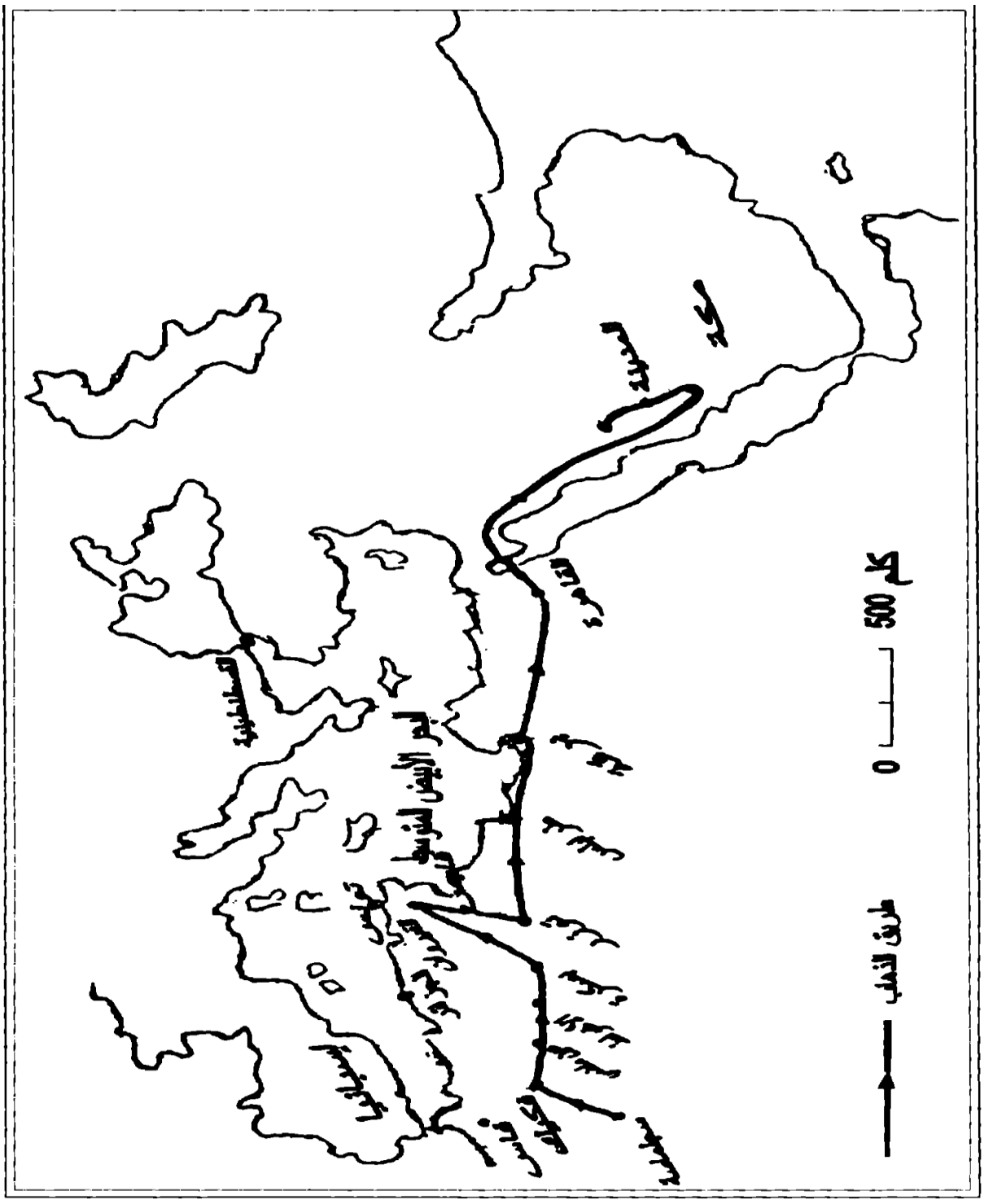
[1] أحمد بن ناصر الدرعي، **الرحلة الناصرية**، مخطوط منشور على الشبكة العنكبوتية https://wadod.net/bookshelf/book/2557

الملحق رقم 05 : يبين الصفحة الأولى من مخطوط رحلة الورتلاني [1]



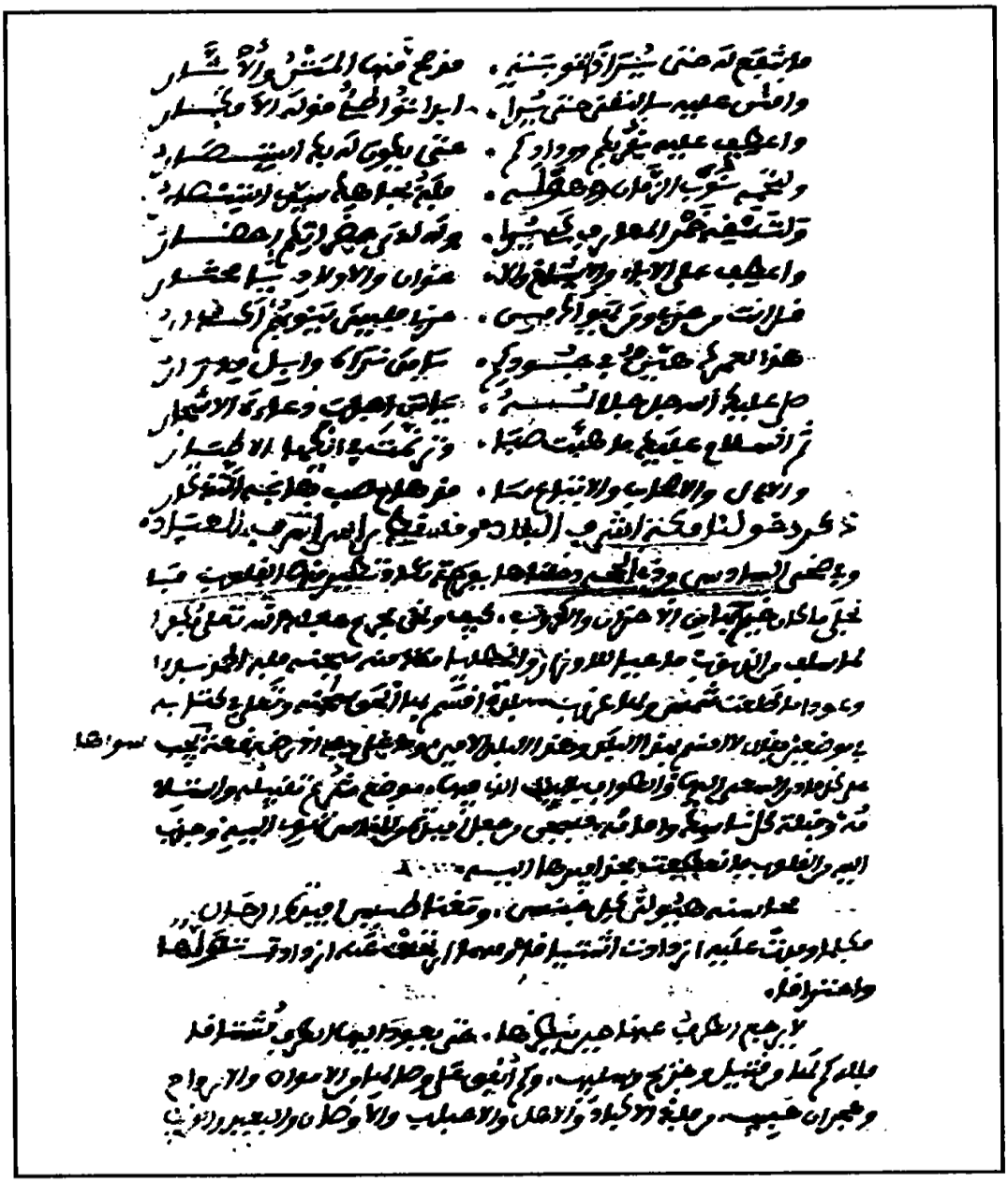
[1] الورتلاني، **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار**، مخطوط منشور على الشبكة العنكبوتية https://albordj.blogspot.com/2015/01/blog-post_14.html

الملحق رقم 06 : خريطة تبين مسار رحلة محمد بن عبد السلام الناصري[1].



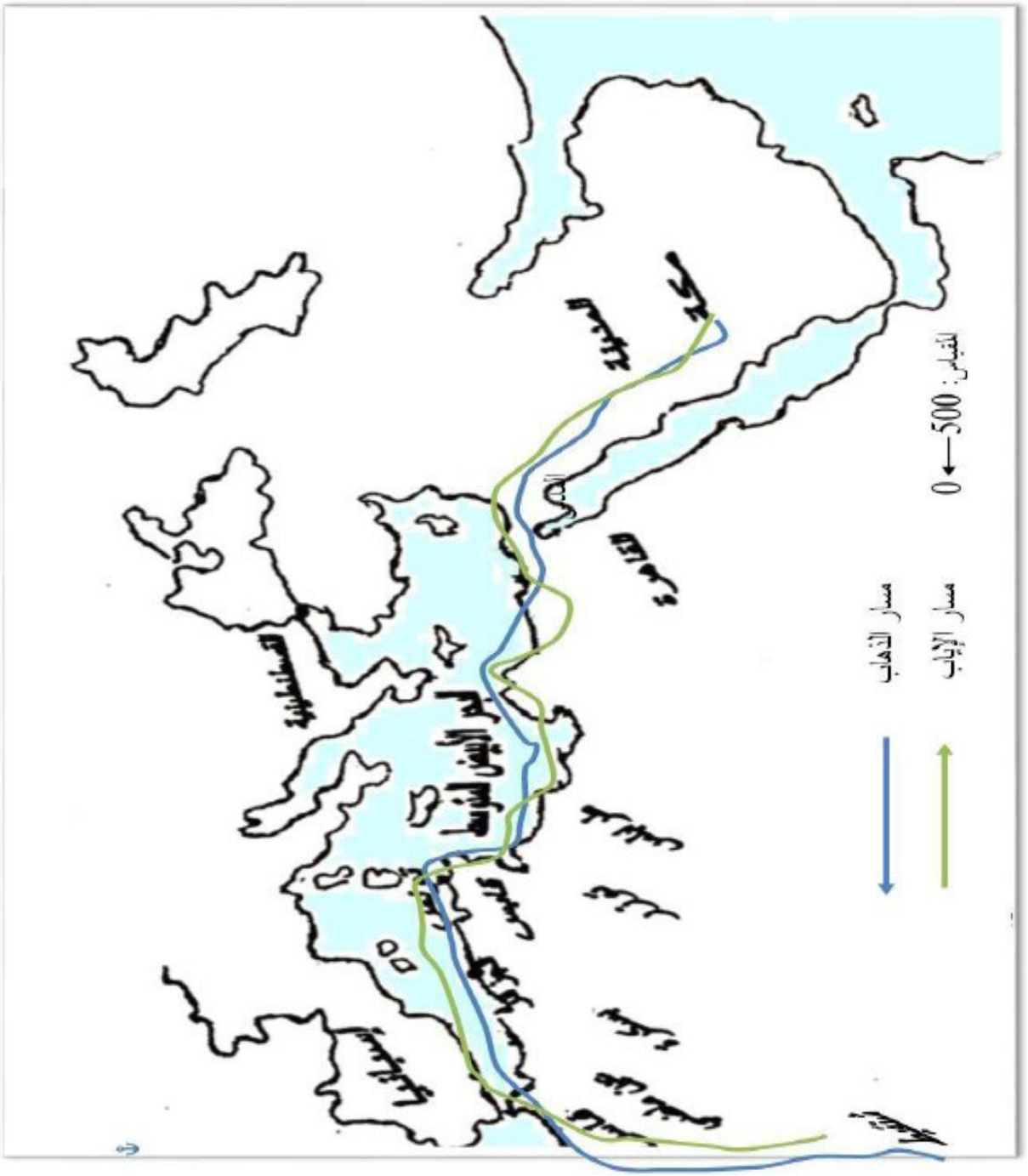
[1] مصطفى الغاشي، **الرحلة المغربية والشرق** ...، المرجع السابق، ص 668

الملحق رقم **07**: إحدى صفحات مخطوط رحلة محمد بن عبد السلام الناصري[1]



[1] عبد الهادي التازي، **رحلة الرحلات** ...، المرجع السابق، ص 471.

الملحق رقم08: خريطة تبين مسار رحلة ابن طوير الجنة إلى الحجاز[1]



[1] عبد القادر حليس، **الحجاز في بعض كتب الرحالة**...، المرجع السابق، ص 331.

الملحق رقم9: الصفحة الأولى من مخطوط رحلة ابن طوير الجنة [1]



[1] ابن طوير الجنة، **رحلة المنى والمنة** ، مخطوط تحت رقم 1018.

الملحق رقم **10** : يبين إحدى صفحات مخطوط رحلة الغيغائي [1].



[1] عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات...، المرجع السابق، ص 514.

ملحق رقم 11: يبين أهم الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المشرق العربي في القرنين18/ 19[1]

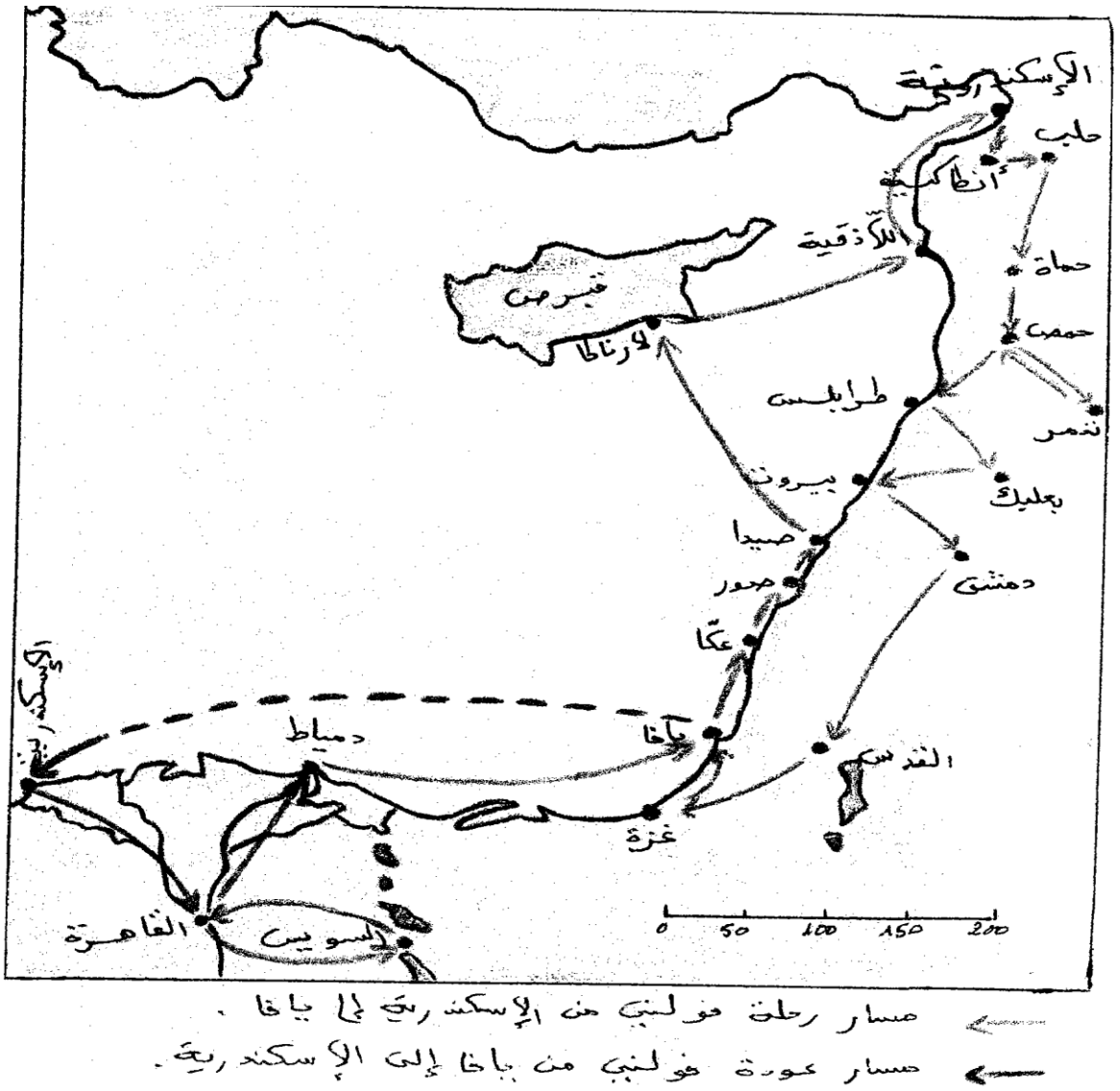
الرحالة	تاريخ الرحلة	هدف الرحلة	عنوان الرحلة
بول لوكاس	1700م	بعثة علمية من طرف لويس الرابع عشر.	Voyage du sieur paul lucas au levant
كلود إتيان سافاري	1776م	مهمة سياسية	Lettres Sur l'egypte
فولني	1783م-1753م	هدف علمي، سياسي	Voyage en syrie et en egypte pendant les annés,1783,1784,1785
رحلة كارستن نيبور	1800-1798	بعثة علمية	Voyage En Arabie En d'autre Pays Circonvoisins
دومينجو باديا "علي باي العباسي".	1803م – 1807م	مهمة رسمية	Voyages d'ali Bay El Abbassi En Afrique Et En Asie Pendant Les Années 1803, 1804,1805,1806,Et 1807
شاتوبريان	1806م/ 1807م	زيارة الاماكن المقدسة	Intinéraire De Paris A Jerusalem Et De Jerusalem A Paris Par La Gréce , Et Revenent Par l'egypte , La Barbarie Et l'espangne
جوهان لوفيدج بيركهارت	1815-1814	الاستكشاف	Travels in arabia
ألفونس دي لامارتين	1833/1832م	علمي	Souvenirs Impressions Pensées Et Paysages Pendant Un Voyage En Orient 1832-1833

[1] من إعداد الطالبة .

تابع:

الرحالة	تاريخ الرحلة	هدف الرحلة	عنوان الرحلة
ليون روش	1832م-1864م	مهمة رسمية	Trente –deux ans a travers l'slam 1832_1864
ريتشارد بيرتون	1853- 1269هـ	اسندت إليه الجمعية الجغرافية البريطانية مهمة استكشاف المناطق الوسطى والشرقية للجزيرة العربية	Personal narrative of a Piligrimage To El Madinah And Meccah
شارل ديديه	1270هـ/1854	المغامرة والاستكشاف	Séjour Chez Le Grande – Chérife De La Mekke
جون كين	1877م/ 1878	جمع المعلومات عن الحجاز	Six Months In Meccah
جيل –جرفيه كورتلمون	1311هـ/1894م	الاستكشاف وجمع المعلومات عن الحجاز	Mon Voyage A La Meque
وليم جيفورد بلجريف	1862،1863م	الاستكشاف	Narrative of a year's journey through central and eastern trabia

الملحق رقم 12 : خريطة تمثل مسار رحلة فولني إلى مصر[1].



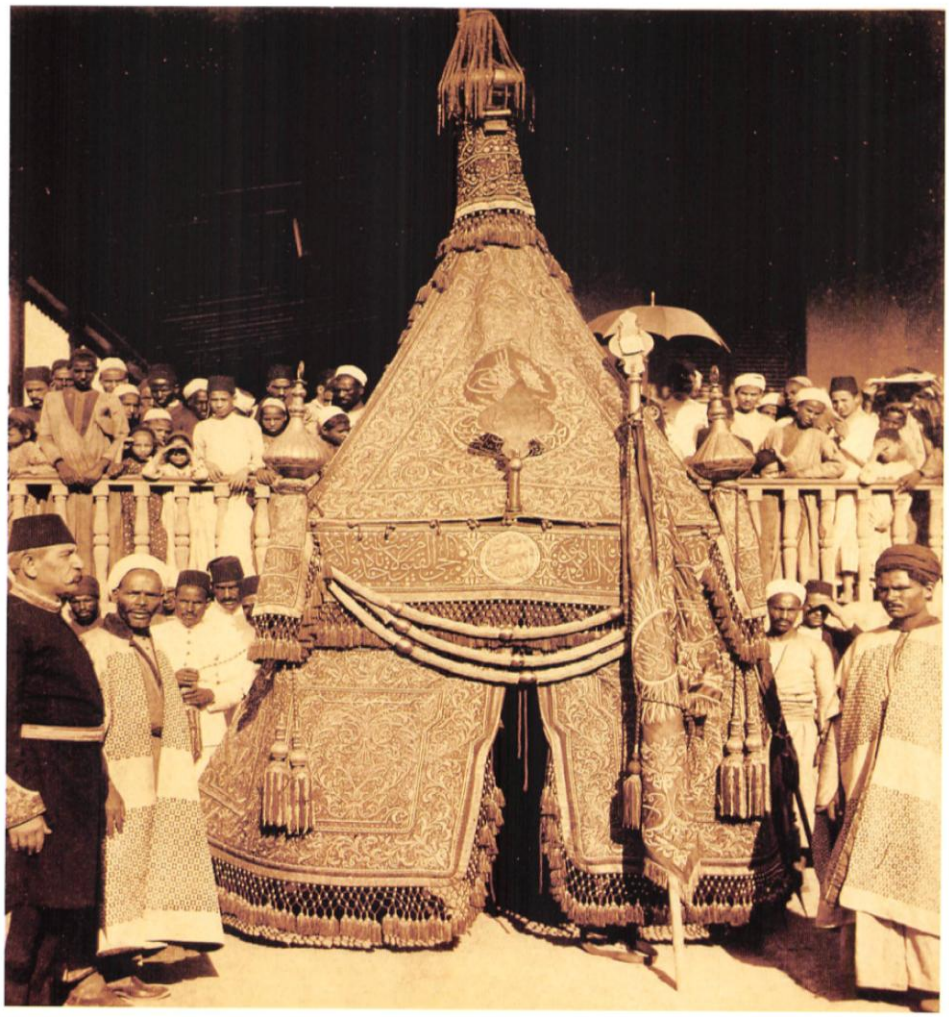
[1] خيرة الطار، المرجع السابق، ص 174.

الملحق رقم 13: يوضح العملة التي سكها علي بك في سنة 1768م[1]



[1] حمزة صباح كاظم الحمداني، المرجع السابق، ص 134.

الملحق رقم 14: يبين شكل المحمل المصري الذي يرسل إلى الحجاز[1]



المحملُ الشريف المرسلُ من مصرَ إلى الحرمين الشريفين [البومات يلدز ٩٠٦١٢-٤٣ - جامعة إسطنبول]

[1] يوسف جاغلار، المرجع السابق، ص 160.

الملحق رقم 15: يبين نموذج لإجازة علمية نثرية [1]

" الحمد الله الذي جعل الإسناد من الدين ، وجعله قربة يتقرب بها إلى رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد : فإن الولي الصالح والشيخ الناصح مولاي محمد بن عبد السلام بن محمد بن محمد ابن ناصر المقدادي الدرعي المغربي قد سمع عليا أوائل كتب الحديث أجزته بذلك وبجميع ما يجوز لي روايته من مسموع ومقروء إجازة عامة بشرطها المعتبر عند أئمة الأثر منهم : الشيخ أحمد الجوهري الخالدي، والشيخ أحمد الملوي الشافعيان، والشيخ أحمد الاسكندري المالكي بروايتهم عن حافظ الحجاز الشيخ عبد الله بن سالم البصري ، والشيخ البابلي الشافعي ، وكان يوصف بالحفظ بسنده المعروف ، وأسأله ألا ينساني من دعائه في خلواته و جلواته ، نفعه الله تعالى و نفع به، وجعله ملاذا وملجأ لعباده ، وكذلك أجزت الشيخ أبا العباس سيدي أحمد بن الحسن بن علي بجميع ما ذكر نفعه الله ونفع به ، وأسأله ألا ينساني من صالح دعائه . قاله وكتبه عنه بإذن الشيخ أحمد ابن عبد الله جمعة البجيرمي الشافعي . حرر في صفر سنة 1197هـ، من هجرة النبي الصادق الأمين عليه وعلى آله وأصحابه الصلاة والسلام في كل وقت وحين . وكذا أجزت سيدي محمد المذكور بالطريقة الشاذلية و الخلوتية و النقشبندية... ".

[1] محمد بن عبد السلام الناصري ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، المصدرالسابق، ص 776.

الملحق رقم 16: جدول يبين أهم العلماء الذين التقى بهم الرحالة المغاربة في مصر[1]

إسم الرحالة	تاريخ الرحلة	العلماء الذين التقاهم في مصر
أحمد بن ناصر الدرعي	1121هـ/1709م	الإمام القيلوبي، الشيخ موسى المصري القيلوبي، الشيخ عبد الرؤوف رئيس كسوة الكعبة، الشيخ حسن نقيب الأشراف
الورتلاني	1179هـ/ 1766م	الشيخ الحفناوي، عمر الطحلاوي، الشيخ الزياتي الشافعي، سالم النفراوي، أحمد الاشبيلي، أبو القاسم الربعي، الشيخ محمود الكردي، الشيخ الجوهري، الشيخ العمروسي، الشيخ المنور التلمساني.
محمد بن عبد السلام الناصري	1196هـ/ 1782م.	الشيخ مرتضى الزبيدي، محمد البقري، الشيخ الجوهري المصري، الشيخ العماوي، الشيخ الخرشي، سليمان الفيومي، الشيخ عمر أفندي، الشيخ الحريري، الشيخ محمد بن محمد الجوهري الخالدي، أبو داود سليمان الجمل، الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الدردير العدوي
ابن طوير الجنة	1245هـ/ 1829م	الشيخ البويصري ، سيدي عبد الله المنوفي، الشيخ عبد الباقي الزرقاوي، محمد الخرشي.
الغيغائي	**1274هـ/ 1858م**	أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الله عليش، حسن العدوي، أحمد الاسماعيلي،منصور الدمنهوري، الشيخ العباس المهدي، السيد الرافعي، ابراهيم الباجوري، الشيخ السقا، أبوعبد الله الدمنهوري، محمد المغربي نغموش، الشيخ الأبراشي، هلي البلقي.

[1] من إعداد الطالبة.

الملحق رقم 17 : خريطة تبين طرق التجارة الداخلية والخارجية للحجاز خلال العهد العثماني[1]



[1] مساء بنت حبيش رزاح ماضي آل قويد الدوسري، المرجع السابق، ص 637

قائمة البيبليوغرافيا

-القرآن الكريم: رواية ورش

أولا: المصادر والمراجع العربية :

1. المصادر :

أ. المخطوطات:

1. ابن طوير الجنة أحمد، **رحلة المنى والمنة**، مخطوط تحت رقم1018، ودان.
2. الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر ، **الرحلة الناصرية**، مخطوط منشور على الشبكة العنكبوتية https://wadod.net/bookshelf/book/2557
3. عبد الله أفندي أبو السعود ، **منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ محي مصر**، مخطوط تحت رقم 323212، 1278هـ
4. المكي بن موسى بن ناصر الدرعي محمد، **الدرر المرصعة بأخبار أعيان أهل درعة**، ج2، مخطوط، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء.
5. الورتلاني الحسين، **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، مخطوط منشور على الشبكة العنكبوتية. https://albordj.blogspot.com/2015/01/blog-post_14.html

ب – المصادر المطبوعة:

1. الإسحاقي محمد سيدي الشرفي بن محمد، **رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية**، تح: محمد الأندلسي، ج2، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ، المملكة المغربية، 2017م.
2. الإفراني حمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، تح: عبد المجيد خيالي، ط1، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، 2004م.
3. أنتيس جون، **مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر من خلال وصف الرحالة جون أنتيس 1770م–1782م**، تر: سيد أحمد علي الناصري، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر، 1997م.
4. الأنصاري الجزيري عبد القادر بن محمد، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، تح: محمد حسن اسماعيل ، ج1،ط 1، دار الكتب العلمية ، لبنان، 2006م.

5. إينسلي روبرت، **مشاهدات في مصر في القرن التاسع عشر**، تر: أحمد سالم سالم، ط1، مركزالتاريخ العربي للنشر والتوزيع، اسطنبول، 2019م.
6. بالغريف وليام جيفورد، **وسط الجزيرة العربية وشرقها 1862،1863م**، ج1، تر: صبري محمد حسن، المجلس الأعلى للثقافة، الاسكندرية، 2001.
7. البغدادي اسماعيل باشا، **هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، ج1، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1951م.
8. البغدادي عبد المؤمن، **مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تح محمد علي البجاوي، ، مج1، ط1، دار الجيل ، بيروت، 1992.
9. البنتوني محمد لبيب، **الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر** ،ط2، مطبعة الجمالية ، مصر، دت.
10. بيركهارت جون لويس، **العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي**، تر: ابراهيم أحمد شعلان، ط3، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 2000.
11. بيركهارت جون لويس ، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، تر: هتاف عبد الله، ط1، دار الانتشار العربي، بيروت، 2005م.
12. بيركهارت جون لويس، **رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان**،تر: فؤاد أندراوس، المجلس الأعلى للثقافة، مصر ، 2007م.
13. بيركهارت جون لويس ، **ملاحظات عن البدو والوهابيين**، ج2، تر: صبري محمد حسن، ط1، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق اليومية ، مصر، 2007.
14. بيركهارت جون لويس، **مواد لتاريخ الوهابيين**، تر: صالح عبد الله العثيمين، د ط، جامعة الملك سعود، السعودية، دت.
15. بيرم الخامس محمد، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**،م1، تح: علي بن طاهر الشنوفي ،المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ،1999م
16. البيطار عبد الرزاق، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، تح: محمد بهجت البيطار، ج1، دار صادر ، بيروت. دت.

17.التمكروتي علي بن محمد، **النفحة المسكية في السفارة التركية**، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 2002م.

18.الجبرتي عبد الرحمن ابن حسن، **عجائب الآثار في تراجم و الأخبار**، ج1، ،ج2،ج3، ج4، تح:عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، مصر، 1998م.

19.الجبرتي عبد الرحمن ابن حسن ، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، تح:عبد الرزاق عيسى، ط1، مطبعة النيل، مصر، 1998.

20. ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، دط، دار صادر، مصر، دت.

21.الجشتيمي أبو زيد عبد الرحمن، **الحضيكيون**، تح: المجلس العلمي المحلي لتارودانت،ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2010.

22.جلبي أوليا ، **الرحلة الحجازية**، تر: الصفصافي أحمد مرسي، دط، دار الأفاق العربية، مصر، 1999م.

23.جلبي أوليا، **سياحتنامة مصر**، تر: محمد علي عوني وآخرون، تقديم ومراجعة أحمد فؤاد منوني، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2003م.

24.جيرار، **الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر**، ضمن كتاب وصف مصر، تر: زهير شايب، ج1، مصر ، 1978.

25.الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد، **الرحلة الحجازية**، ضبط وتعليق: عبد العالي لمدبر، ط1، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 2011م.

26.الحضيكي حمد بن أحمد، **طبقات الحضيكي**، تح: أحمد بومزكو، ج1، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 2006م.

27.الحيوني محمد الحنفي ابن أبي بكر، **الرحلة الحجازية**، تقديم وإخراج أحمد البوزيدي، ط2، المغرب، 2010م.

28.ابن خلدون عبد الرحمن، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، لبنان 2001م.

29.دافين بريس، **دريس أفندي في مصر مذكرات الفنان و المستشرق بريس دافين في مصر، 1807م، 1879م**، تحرير جمال الغيطاني، د ب ن، مصر، دت.

30. الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر، **الرحلة الناصرية 1709-1710**، تح:عبد الحفيظ ملوكي ، ج1، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات، 2011م.

31. الدمرداشي أحمد، **الدرة المصانة في أخبارالكنانة فيما وقع بمصر في دولة المماليك من السناجق والكشاف والسبعة أوجاقات والدولة وعوايدهم والباشا إلى آخر سنة ثمان وستين ومئة وألف**، تح: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1989م.

32. دولتشين عبد العزيز، عبد العزيز دولتشين، **الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين إلى الحجاز سنة 1898م**، 1899، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2008م.

33. دي نارفال جيرارد، **الرحلة إلى الشرق**، ج3، ترجمة: عبد السلام البحيري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، دت.

34. ديديه شارل، **رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر 1853م**، تر: محمد خير البقاعي، دار الفيصل الثقافية، السعودية، 2001م.

35. الرجبي خليل بن أحمد ، **تاريخ الوزير محمد علي باشا**، تح: دانيال كريسيليوس، ط1، دار الأفاق العلمية ،القاهرة ،1997م.

36. الرشيدي أحمد ، **حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي أمارة الحاج**، تح: ليلى عبد اللطيف أحمد ،دط، مكتبة الخانجي، مصر ،1980 م.

37. ابن رشد الجد، **فتاوى ابن رشد**، تح: مختار بن طاهر التليلي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.

38. رفعت باشا ابراهيم، **مرآة الحرمين الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية**، ج 1، ط1، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر، 1925م.

39. روش ليون، **اثنان وثلاثون سنة في رحاب الاسلام مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز** ، تر: محمد خير محمود البقاعي، ط1، جداول للنشر والتوزيع ، لبنان، 2011.

40. الزياني أبو القاسم، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**،تح: عبد الكريم الفيلالي، دار المعرفة للنشر والتوزيع ، الرباط، 1991م.

41.زيني دحلان أحمد، **في بيان أمراء البلد الحرام من زمن سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا بالتمام**، تح: أبو عبد الله محمد الحسن اسماعيل الشافعي، مطبوعات أرض الحرمين، دت.

42.السبعي أبو العباس أحمد بن محمد، **الرحلة الحجازية**، تح: محمد عيناف و يوسف أمال، المملكة المغربية ، 2019م.

43.ستانلي لين بول، **سيرة القاهرة**، تر: ابراهيم حسن ، ط2، مكتبة النهضة المصرية، دت.

44.السجلماسي أبو زيدان عبد الرحمن بن محمد، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس** ، تح ، علي عمر ، ج3، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2008.

45.السملالي العباس بن ابراهيم، **الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، ج2، ط2، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1993.

46.السملالي العباس بن ابراهيم ، **الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، ج3، ط3، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1993م.

47.السملالي العباس بن ابراهيم ، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، مراجعة: عبد الوهاب ابن منصور، ج6، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 2001م.

48.السنوسي محمد بن عثمان، **الرحلة الحجازية**، تح: علي الشنوفي، ج2، الشركة التونسية للتوزيع، 1976م.

49.ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر، **إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع 1171هـ-1400هـ /1756-1980م**، تح: محمد حجي، ج1، د1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997م.

50.سيدي عبد الله ابن انبوجة، **ضالة الأديب**، تح: أحمد ولد الحسن، دط، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، المغرب،1996م.

51.الطيب الفاسي الشرقي، **رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة** ، تح: عارف أحمد عبد الغني، دار العراب للدراسات والنشر والترجمة، دمشق، 2014م.

52.الصديقي أحمد ابن سرور البكري، **النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية**، تح: عبد الرزاق عبد الرزاق عيسى، ط1، دار العربي للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1998م.

53.الصفصافي أحمد القطوري، **الرحالة العثماني أوليا جلبي الرحلة الى مصر والحجاز وبلاد الحبشة 1672،1680**، ج1، ط1، المركز القومي للترجمة ، القاهرة، 2010.

54.ضياء الدين خالد، **ذكريات مصورة عن مصر**، تر: سامية محمد جلال، ط1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2006م .

55.ابن طوير الجنة الحاجي الوداني الطالب أحمد، **تاريخ ابن طوير الجنة** ، تح: سيد أحمد بن أحمد سالم، دط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1995م.

56.العبدري البلنسي محمد، **الرحلة المغربية**، تقديم سعد بوفلاقة، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات ، الجزائر، دت.

57.علماء الحملة الفرنسية، **وصف مصر المصريون المحدثون**، تر: زهير شايب، ط3، صندوق التنمية الثقافية ، 1992م.

58.العياشي أبو سالم، **التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز**، تح: سعيد واحيحي، منشورات مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع، الرباط، 2018م.

59. العياشي أبو سالم ، **الرحلة العياشية**، تح: سعيد الفاضلي، ط1، ج1، ج2، دار السويدي للنشر والتوزيع، 2006م.

60.العياشي أبو سالم ، **إتحاف الأخلاء بإيجازات المشايخ الأجلاء**،تح: محمد الزاهي ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.

61.الغسال الحسن بن محمد، **الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية**، تح: محمد فهيم بيومي،ط1، دار زهراء الشرق، مصر، 2009م.

62.الغيغائي محمد، **من المغرب إلى الحجاز عبر أوروبا 1857م**، تح: سليمان القرشي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات، 2018م.

63. ابن فضلان بن العباس بن راشد ابن حماد، **رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة** ،تحقيق سامي الدهان ، دمشق ، 1959م.

64.فولني ، **ثلاث سنوات في مصر وبر الشام**، ج1، تر: إدوارد البستاني، ط1، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة ، لبنان، 1949.

65.القادري محمد ابن الطيب، **كتاب التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر**، تح: هاشم قاسم علوي، ط1، منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت، 1983م.

66.القادري محمد ابن الطيب ، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تح: محمد حجي، ج3، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، الرباط، 1986م.

67.القادري محمد ابن الطيب ، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر** ، تح: محمد حجي، ج2، ط 1، مكتبة الطالب، االرباط، 1982م.

68.القيسي محمد بن أحمد، **أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب وسيد الأعاجم والأعارب**، تح: محمد الفاسي، دط، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، المملكة المغربية، 1968م.

69.كلوت بك، **لمحة عامة عن مصر**، تر: محمد مسعود، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، 2011م.

70.الكتاني محمد بن جعفر بن ادريس، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، تح: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، دب ن، دت

71.لوديفيكو دي فارتيما، **رحلات فارتيما الحاج يونس المصري**، تر: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1994م.

72.الليدي آن بلنت، **رحلة إلى بلاد نجد**، تر: محمد أنعم غالب، ط2، دار اليمامة للبحث والترجمة ، الرياض، 1978م.

73.مبارك علي باشا، **الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة** ، ج6، ط1، المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق، 1305هـ .

74. المحاجي عبد الرحمن بن محمد بن الخروب، **رحلة المحاجي**، تح: سعاد آل الشيخ، ط1، مركز جمعة ماجد للثقافة والشؤون الخارجية ، الإمارات العربية، 2017.

75.المحامي فريد بك ، **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ، تح: اسماعيل حقي ، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981م .

76.المحبي، خلاصة **الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج4، دت.

77. محمد الولاتي يحي بن محمد المختار، **الرحلة الحجازية**، تح: محمد حجي ، ط2، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2009م.

78. مختار السوسي محمد ، **المعسول**، ج8، ج 9،د د ن، المغرب، دت

79. مخلوف محمد بن محمد بن عمر بن قاسم، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، خرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003م.

80. المرادي، أبو الفضل محمد خليل بن علي، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ج4، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت.

81. مرداد أبو الخير عبد الله، **المختصر في كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر**، تح: محمد سعيد العامودي و أحمد علي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، دت.

82. المشرفي محمد بن محمد بن مصطفى، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية** ، تح: ادريس بوهليلة ، ج2، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ، المملكة المغربية، 2005م.

83. المكناسي محمد ابن عبد الوهاب، **إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب** ، تح: محمد بوكبوط ، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ،2003م.

84. المكناسي محمد ابن عبد الوهاب ، **البدر السافر لهداية المسافر إلى افتكاك الأسارى من يد العدو والكافر**، تقديم وتعليق عبد الهادي التازي ،ط1، 2013م.

85. النابلسي عبد الغني، **الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز**، الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر،1987م.

86. الناصري بن عبد السلام محمد ، **الرحلة الناصرية الكبرى**، ط1، تح: مهدي الغالي، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2013م .

87. الناصري بن عبد السلام محمد، **الرحلة الناصرية الصغرى** ، تح: محسن أخريف، ط1، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، المملكة المغربية، 2019م .

88.الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**،ج 8، تح: جعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م .

89.الناصري أبو العباس أحمد بن خالد ، **طلعة المشتري في النسب الجعفري**، ج2، طبعة حجرية، المؤسسة الناصرية للثقافة والعلم، دت.

90.الناصري محمد أبو راس، **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته** ، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

91.الناصري محمد بن عبد السلام بن عبد الله، **المزايا فيما أحدث من البدع في أم الزوايا الزاوية الناصرية**، تح: عبد المجيد خيالي ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت، 2003.

92.نيبور كارستن ، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها**، ج1، تر: عبير المنذر ، ط1، دار الانتشار العربي ، بيروت ،2007م.

93.هورخرونيه سنوك، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، تر: محمد محمود السرياني، ج2، دارة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، 1999م.

94.الورتلاني الحسين بن محمد، **الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، ج1، ج2، ،تح محمد بن شنب، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008م.

95.وليام لين إدوارد ، **عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم مصر مابين 1833م–1835م**، تر: سهير رسوم، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999م.

96.الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي، **المعيار المعرب ولجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقيا والأندلس والمغرب**، ج1،اشراف محمد حقي،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989م.

97.الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب**،ج1، إشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1989م.

98.اليوسي محمد العياشي بن الحسن، **رحلة اليوسي 1101–1102هـ/ 1690–1691م**، تح: أحمد الباهي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 2018م.

2: المراجع العربية والمعربة .

أ – الكتب:

1. الأخضر محمد، **الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية 1075هـ – 1311 1664– 1894م** ، ط1، دار الرشاد ، المغرب ، 1977م .
2. الأرقش عبد الحميد آخرون، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر**، د.ط، مركز النشر العربي ،دب ن، 2003.
3. الأزمي نادية، **الآخر في الرحلة المغربية " الرحلة التطوانية إلى الديار الفرنسية للشيخ عبد الله الصفار الرحلة الحجازية للشيخ ماء العينين أنموذجي** ، ط1، منشورات جمعية النجاح للتنمية الاجتماعية بالعيون ، مراكش ، 2016م.
4. ابن الأصفر محمد، **أدب الرحلات في القرن التاسع عشر سند للحركة الاصلاحية العربية**، دار سنابل للنشر والتوزيع، 2006.
5. أمحزون محمد، **المدينة المنورة في رحلة العياشي**، ط1، دار الأرقم للنشر والتوزيع ، الكويت ، 1988م.
6. الأنصاري ناصر، **المجمل في تاريخ مصر النظم السياسية و الادارية**، ط1، دار الشروق، بيروت، 1993.
7. الأورناؤوط محمد، **من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي**، ط1، دار جداول للنشر والتوزيع ، بيروت، 2012م.
8. البادي عوض، **الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية منطقة الجوف 1845م– 1922م** ، ط1،مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، 2011م.
9. بدول روبن، **الرحالة الغربيون والجزيرة العربية**، تر:عبد الله آدم نصيف، دط، الرياض، 1989م.
10. بركة حسن أحمد حسن، **المدينة المنورة في عصر دولة السلاطين المماليك الجراكسة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر، 2015.
11. بلبكري عبد العزيز، **الرحلة الحجازية المغربية مصدر للعلاقات المغربية الفلسطينية**، الذاكرة التاريخية المشتركة المغربية الفلسطينية،ج1، طبعة جديدة ، المغرب، 2018.

12. بلحميسي مولاي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**،د.ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1981م.

13. بن العربي الصديق، **كتاب المغرب**، ط3، دار الغرب الاسلامي، د ب ن،1984م.

14. بنسعيد العلوي سعيد، **أوروبا في مرآة الرحلة صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة** ،منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية د ط، المغرب، 1995م.

15. بن دهيش عبد الله عبد اللطيف، **الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولهما**، ط1، مطبعة النهضة العربية، مكة المكرمة، 1986م.

16. بوعسرية بوشتى، **من مصادر تاريخ العلاقات بين المغرب وشبه الجزيرة العربية رحلات المغاربة إلى الحرمين الشريفين ، القرنين 18 م – 20م**، إعداد محمد ياسر الهلالي، ط1، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المطبعة الأمنية، ، الرباط ، 2013م.

17. بوعزيز يحي، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م.

18. بوغوتة عبد الله ، **إمتاع السامع بأخبار الرحلة الحجية المغربية في القرون السابع والثامن والتاسع هجري** ، الجزء الأول ، د ط، مكتبة سلمى الثقافية ، تطوان ، المغرب، 2018م.

19. بيضون جميل، **تاريخ العرب الحديث**، ط1، دار الأمل للنشر والتوزيع، د ب ن، 1992.

20. بيرين جاكلين، **اكتشاف جزيرة العرب خمسة قرون من المغامرة والعلم** ، تر: قدري قلعجي ، دط، دار الكتاب العربي، د ب ن، دت.

21. بيومي محمد علي فهيم، **المغاربة في المدينة المنورة إبان القرن الثاني عشر هجري الثامن عشر ميلادي** ، ط1، دار القاهرة ، 2006م.

22. بيومي محمد فهيم، **ملامح النشاط الاجتماعي في مكة المكرمة خلال القرن الثاني عشر للهجرة**، د.ط، د ب ن، دت.

23. التازي عبد الهادي ، **أمير مغربي في طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاقي**، دط، د د ن ، دت.

24. التازي عبد الهادي، **رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة**، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ،الرياض ، 2005م.

25. الترغي عبد الله مرابط ، **فهارس علماء المغرب من النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر هجري**، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، المغرب، 1999م.

26. الجاسر حمد، **رحالة غربيون في بلادنا عرض موجز لرحلات بعض الغربيين في قلب الجزيرة وشمالها** ، دار اليمامة للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، دت.

27. الجاسر حمد، **ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي**،ط2، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، د ب ن، 1983.

28. جاغلار يوسف و كولن صالح ، **المحمل الشريف ورحلته إلى الحرمين الشريفين**، ط1، دار النيل ، 2015م.

29. جب هاميلتون وهارولد بوون، **المجتمع الإسلامي والغرب**،ج1، تر: أحمد أبيش، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، الامارات، 2012م.

30. جرشلي اسماعيل حقي، **أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني**، تر: خليل علي مراد، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2003م.

31. جوردا بيير، **الرحلة إلى الشرق: رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الاسلامية في القرن التاسع عشر** ، تر: مي عبد الكريم ، ط1، دار الأهالي للطباعة والنشر، سوريا، 2000م.

32. الجيار سيد ابراهيم، **تاريخ التعليم الحديث في مصر وأبعاده الثقافية** ، ط2، دار غريب ، مصر، 1977م.

33. جيلان عباس، **أثار مصر القديمة من خلال كتابات الرحالة العرب والاجانب** ، ط1، الدار المصرية اللبنانية، مصر ، 1992.

34. الحاتمي محمد، **الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي** ، ط1، مطبعة المعارف الجديدة ، المغرب ، 2012م .

35. حافظ علي، **فصول من تاريخ المدينة المنورة**، ط3، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، السعودية، 1996.

36. الحتة أحمد أحمد، **تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر**، د ط، مطبعة المصري، مصر، 1967م.

37. حجي محمد، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1988م.

38. حجي محمد، **معلمة المغرب**، ج 19، إشراف الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، المغرب، 2004م.

39. حركات ابراهيم، **التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنيين ونصف قبل الحماية**، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1994م.

40. حزار رجب، **الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب 1840–1909م**، دط، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ، 1970م.

41. حسين قصي، **من معالم الحضارة العربية الإسلامية** ، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 1993.

42. حفناوي بعلي، **الرحلات الحجازية المغاربية المغاربة الأعلام في بلد الحرام دراسة نقدية توثيقية ثقافية**، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع ، 2018م.

43. الحيدري ابراهيم، **صورة الشرق في عيون الغرب: دراسة للأطماع الأجنبية في العالم العربي** ، ط1، دار الساقي، لبنان، 1996م.

44. الدوسقي وائل ابراهيم، **التاريخ الثقافي لمصر الحديثة المؤسسات العلمية والثقافية في القرن 19م**، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، 2012م.

45. ذنون طه عبد الواحد، **أبحاث في تاريخ المغرب والأندلس وصور من التواصل الحضاري مع المشرق** ،ط1، دار حامد للنشر والتوزيع ،الأردن ،2014م.

46. ذنون طه عبد الواحد، **الرحلات المتبادلة بين المغرب الإسلامي و المشرق**، ط1، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2004م.

47. ذهني إلهام، **رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر بين النزعة الانسانية والاستعمارية** ، ط2، دار الشروق، مصر 2008م.

48. ذهني إلهام، **مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر**، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1992م.

49. الرافعي عبد الرحمن، **عصر محمد علي** ، ط 5، دار المعارف ، القاهرة ، 1989م.

50.الرافعي عبد الرحمن، **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر** ، ج1، ط1، مطبعة النهضة ، مصر، 1929م.

51.رالي أغسطس، **مكة المكرمة في عيون الرحالة النصارى**، تر: حسن سعيد غزالة، دط، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1430هـ.

52.رشيد الفيل محمد، **أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب**، الكويت ، 1979م.

53.الردادي عائض، **مجتمع المدينة المنورة في رحلة العياشي 1072هـ _ 1662م**، دط ، مكتبة الملك فهد، الرياض ، 1431هـ .

54.رزق لبيب وآخرون، **تحديث مصر في عصر محمد علي**، تقديم: اسماعيل سراج الدين، د.ط، مكتبة الإسكندرية، مصر، 2007م.

55.رزق لبيب بونار، **تاريخ العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912م**، دط، الدار البيضاء ، 1982م.

56.رمضان أحمد أحمد، **الرحلة والرحالون المسلمون** ، دار البيان العربي. د ب ن ، دت.

57.رمضان عيد كامل، **شرائع الأزمنة وطبائع الأمكنة مقتطفات من كتابات الرحالة الأوروبيين عن مصر في القرن التاسع عشر** ، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، 2010م.

58.زقلمة أنور، **المماليك في مصر**، ط1، دار مدبولي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1995م.

59. زكي أحمد صلاح، **أعلام النهضة العربية في العصر الحديث** ،مركز الحضارة العربية، 2001

60.زيادة نيقولا، **الجغرافيا والرحلات عند العرب** ، الشركة العالمية للنشر ،1987 .

61.زيادة نيقولا، **الرحالة المسلمون والأوروبيون إلى الشرق العربي في العصور الوسطى** ، ط1، الدار العربية للموسوعات، 2010م.

62.زين العابدين رشيد، **سياسة السلاطين العثمانيين في الاعتناء بركب الحج المغربي خلال القرن 18م، تقييم الرحالة المغاربة**، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ، الحولية 40، مجلس النشر العلمي، الكويت، 2020م.

63.سابايارد نازك، **الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة** ،ط2، دار نوفل ،1992م.

64. السباعي أحمد، **تاريخ مكة دراسات في السياسة و العلم و الاجتماع والعمران**،ج1، مكتبة الملك فهد ، الرياض ، 1999م.

65. سعد الله أبو القاسم، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر** ،ج1، طبعة خاصة ، دار البصائر ، الجزائر ، 2007م.

66. سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي 1500–1830** ،ط1، ج2، دار الغرب الإسلامي ، 1998م.

67. سعيد إدوارد، **الاستشراق: المفاهيم الشرقية للغرب**، تر:محمد عناني، ط1، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،2006م.

68. سعيدوني ناصر الدين، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي** : تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1999.

69. السقاط خالد، **ماء الموائد لابي سالم العياشي الرحلة والرحالة مع تحقيق قسمي مكة والقدس**، منشورات المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية والشرق الأوسطية والخليجية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ظهر المهراس ، فاس ، دت .

70. السملالي العباس بن ابراهيم، **الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، ج2، ط2، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1993م.

71. السملالي العباس بن براهيم، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، مراجعة: عبد الوهاب ابن منصور، ج6، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 2001م.

72. السوسي محمد مختار ، **المعسول**، ج9، د ن، د ب ن، دت.

73. سوليه روبير، **مصر ولع فرنسي**، تر: لطيف فرج، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991م.

74. سيار جميل ، **تكوين العرب الحديث**، د ط، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان، 1979م

75. الشامخ محمد عبد الرحمن، **التعليم في مكة والمدينة المنورة آخر العهد العثماني**، ط 2، دار العلوم، الرياض، 1982.

76. الشامي صلاح الدين علي، **الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية** ، ط2، دار المعارف ، الإسكندرية ، 1999م.

77.الشاهدي الحسن، **أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني**، ج1، منشورات عكاظ، د ب ن، دت.

78.شاهين شريف كامل، **مجتمع علماء الأزهر إبان الحكم العثماني1517–1797م**، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، 2016م.

79.ابن شقرون محمد ابن أحمد، **مظاهر الثقافة المغربية: دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1985.

80.شوابكة عبد الرحمن نوال، **أدب الرحلات الاندلسية والمغربية حتى نهاية القرن 9هـ** ، د1، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن ، 2008م .

81.الشرقاوي محمود، **مصر في القرن الثامن عشر** ، ج1، مكتبة الانجلو المصرية، مصر 1955م.

82.الصديقي عبد الرحمن مفتي سحر ، **أثر الوقف الاسلامي في الحياة العلمية بالمدينة المنورة**، ط1 مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية، 2003.

83.ضيف شوقي، **الرحلات** ، ط4،دار المعارف ، القاهرة ، دت .

84.طقوش محمد سهيل، **تاريخ مصرالحديث والمعاصر**، ط1، دار النفائس، بيروت، 2018م.

85.عامر عبد السلام عبد الحليم، **طوائف الحرف في مصر 1805**–1914، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1993م.

86.عبد الرحمن المنيع الجوهرة، **الرحلات العربية مصدر من مصادر تاريخ المملكة العربية السعودية من الفترة : 1338،1374هـ/1920م،1953م**، دط، مطبوعات الملك فهد الوطنية ، الرياض ، 1431هـ، 2010م .

87.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، **المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517– 1798م دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية**،دط، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982م .

88.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، **فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني**، دط، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، مصر، 1990م.

89.عبد الغفار محمد حسين، **بناء الدولة الحديثة في مصر**، ج1، دار المعارف، مصر، 1980م.

90.عبد الغني ابراهيم عبد العزيز، **روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية 1500–1840م** ، ج2، ط 1، دار الساقي، بيروت، 2013م.

91.عبد الغني ابراهيم عبد العزيز، **روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية 1500–1840م** ، ج1، ط 1، دار الساقي، بيروت، 2013م.

92.عبد اللطيف أحمد ليلى، **الإدارة في مصر في العصر العثماني**، مطبعة جامعة عين شمس، مصر، 1978.

93.عبد المعطي حسام محمد، **العائلة والثروة البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م.

94.عبد المعطي حسام محمد ، **المغاربة في مصر في القرن الثامن عشر**، د.ط، مكتبة الإسكندرية ، مصر، 2015م .

95.عبد المعطي حسام محمد، **شيخ الجامع الأزهر في العصر العثماني، 1538 – 1812م**، مكتبة الإسكندرية ، مصر ، 2016م.

96.العمراني عبد الوهاب محمد اسماعيل ، **رؤية يمنية في أدب الرحلات: مشاهدات وانطباعات من الشرق والغرب** ،ط2، مؤسسة الرسالة ، لبنان ، 2013.

97.عبده علي عرفة، **أوروبيون في الحرمين الشريفين**، ط1، دار عالم الكتب، القاهرة، 2013م،

98.عزي عبد الرحمن، **التواصل القيمي في الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2011.

99.العشماوي محمد سعيد، **مصر والحملة الفرنسية**، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999م.

100.عصمت محمد حسن، **الجبرتي وعصره دراسة في التاريخ الاجتماعي لمصر العثمانية**، ط1، دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، مصر، 2015م.

101.عطا الله سمير، **قافلة الحبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج 1862– 1959**، ط1، دار الساقي ، لبنان، 1994م.

102.عفيفي محمد، **عرب وعثمانيون رؤى مغايرة**، ط2، دار الشروق، مصر، 2008م.

103.عقيقي نجيب ،**المستشرقون**، ج2، ط5، دار المعارف، القاهرة ، 2005م.

104.عكاشة ثروت، **مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء (القرن التاسع عشر)**، المجلد 1، ط 2، دار الشروق، القاهرة، 2003م.

105.عمر ابراهيم سمير، **الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 1992.

106.عنان ناصر عبد الله، **قبل أن يأتي الغرب الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر** ، ط2، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة 2012م .

107.عوض محمد مؤنس أحمد، **الرحالة الأوربيين في مملكة بيت المقدس 1090– 1187م**، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1992م.

108.عياد محمد كامل، **صفحات من تاريخ الاستشراق** ، دط، د .ب.ن، دت.

109.غازي على عفيفي،**كتابات الرحالة مصدر تاريخي**، منشورات المجلة العربية، الرياض، 1439هـ.

110.غازي على عفيفي ، **بدو العراق والجزيرة العربية بعيون الرحالة**، تقديم: محجوب الزويري، ط1، دار الرافدين ، العراق، 2016م.

111.الغاشي مصطفى، **الرحلة المغربيَة والشَرق العثماني– محاولة في بناء الصورة** ،ط1، دار الإنتشار العربي ، بيروت ،2005م.

112.غالب محمد أديب، **من أخبار الحجاز و نجد في تاريخ الجبرتي**،ط1، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر،د ب ن، 1975م.

113.الغشتول الحسن، **خطاب الرحلة المغربية إلى الحجاز**، د ط، السعودية، 1439هـ.

114.الغنام سليمان بن محمد، **قراءة جديدة في سياسة محمد علي باشا التوسعية في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا 1811_1840 م**، ط 1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2004.

115.الغنوجي صديق بن حسن، **أبجد العلوم الوشي المرقوم في معرفة أحوال العلوم** ، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1889م.

116.غربي الغالي، **دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي 1288–1916م**، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 2011م.

117.فياض عبد الله ، **الإجازات العلمية عند المسلمين**، ط1، مطبعة الرشاد، بغداد، 1967م.

118.فهيم حسين محمد ، **أدب الرحلات** ،عالم المعرفة ، دط، الكويت، 1989م.

119.القاسمي الحسني عبد المنعم، **أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى دراسة احصائية تحليلية** ، ط1، دار الخليل القاسمي، الجزائر، 2005م.

120.قباني رنا، **أساطير أوروبا عن الشرق لفق تسد**، تر: صباح قباني،ط3، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1993.

121.قنديل فؤاد ، **أدب الرحلة في التراث العربي** ،مكتبة الدار العربية للكتاب ، ، 2002م.

122.كاريه جون ماري، **مختارات من كتاب رحالة وأدباء فرنسيون في مصر**، ترجمة: سونيا نجا و رشا صالح ، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، مصر، 2006م.

123.الكتاني عبد الحي بن الكبير، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، ج1، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م.

124.الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير ، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي،بيروت، 1983م.

125.كراتشكوفسكي أغناطيوس يوليانوقتيش، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** ، ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ، دط، د ب ن ، 1957 م.

126.كردي علي ابراهيم، **أدب الرحل في المغرب والأندلس**، د ط، منشورات الهيشة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة ، دمشق، 2013م.

127.كيال منير، **المحمل الشامي دراسة توثيقية**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006م .

128.لمليح السعيد، **التواصل الفكري والروحي بين المغرب الأقصى والمشرق الإسلاميين (مصر والحجاز) أسسه ومظاهره**، دط، المجمع الثقافي، الإمارات، 2005.

129.ماكامان محمد، **الرحلات المغربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة الموافق للقرنيين السابع عشر والثامن عشر للميلاد**، ط1، كلية الأداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، 2014م.

130.محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف، **المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية**، م1،ط 1، دار الأندلس الخضراء، السعودية، 2001م.

131.محمد حسن زكي، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى** ، دار الرائد العربي ، لبنان، 1981م.

132.محمد عبد المنعم إيمان، **العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1979م.

133.محمود حسين حسني، **أدب الرحلة عند العرب**، ط2، دار الأندلس، لبنان ، 1983.

134.مرابط الترغي عبد الله ، **أدب الرحلة في المغرب 1082هـ – 1139هـ دراسة في الاتجاهات والمكونات**، ط1، دار سليكي أخوين للنشر والتوزيع، طنجة، 2020م.

135.المصعبي حمدة بنت عبد الله، **السالنامة مصدر من مصادر تاريخ الحجاز دراسة تحليلية لسالنامة 1303هـ _1886م**، دارة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، 2018م.

136.مفتاح ابراهيم منصور علي، **الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، دراسة تاريخية وثائقية**، ط1، دار الكتب الوطنية ، بنغازي، .2005.

137. مناور الرشيدي حياة، **تاريخ الحياة الاقتصادية في بلاد الحرمين من خلال كتب الرحالة في العصر العثماني الحرف اليدوية و الصناعات التقليدية أنموذجا** ، د، ب،ن، دت.

138.المنصور محمد، **المغرب قبل الإستعمار، المجتمع والدولة والدين 1792، 1822م**، ترجمة: محمد حبيدة،ط1 المركز الثقافي العربي ، الدارالبيضاء، 2006م.

139.المنوني محمد، **ورقات عن حضارة المرينيين**، ط3، منشورات كلية الأداب ، المغرب ، 2003م.

140.المنوني محمد ، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، ج1، منشورات كلية الأداب، الرباط ، 1983م.

141.المنوني محمد، **من حديث ركب الحج المغربي**، دط، مطبعة المخزن، تطوان ، 1953م.

142.الموافي ناصر عبد الرزاق، **الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 4هـ**، ط1، دار النشر للجامعات المصرية ، مصر 1995م.

143.النساج سيد حامد، **مشوار كتب الرحلات قديما وحديثا** ، د ط، مكتبة غريب، د ت.

144.نصار حسين، **أدب الرحلة** ، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر لنجمان، لبنان ، 1991.

145.نواب محمد يوسف عواطف، **الرحلات المغربية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 7و8 هـــ دراسة تحليلية مقارنة**، مطبوعات الملك فهد ، الرياض ، 1996م.

146.هريدي صلاح أحمد، **الحرف والصناعات في عصر محمد علي، دار المعارف**، مصر ، 1980م.

147.هريدي محمد عبد اللطيف، **شؤون الحرمين الشريفين في العهد العثماني في ضوء الوثائق التركية العثمانية**، ط1، دار الزهراء للنشر بالقاهرة، مصر، 1989م.

148.هوغارث ديفيد جورج، **اختراق الجزيرة العربية سجل لمعرفة الغرب بشبه الجزيرة العربية** ، تر: صبري محمد حسن، ط2، المركز القومي للترجمة، القاهرة .

149.الهيلة محمد الحبيب، **التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن 3 هجري إلى القرن الثالث عشر**، ط1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 1994م.

150.يحي جلال، **مصر الحديثة 1517–1805م**، د.ط، دار المعارف، الاسكندرية، دت.

ب – الرسائل الجامعية:

1. أنساعد سميرة، **الرحلة الى المشرق في الأدب الجزائري :دراسة في النشأة والتطور والبنية** ، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الادب ، جامعة الجزائر ، إشراف : الشريف مريبعي ، 2006م ، 2007م.
2. بخيتي عيسى، **أدب الرحلة الجزائري الحديث سياق النص وخطاب الأنساق**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في الأدب الجزائري الحديث، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان، 2015-2016م.
3. بكاري عبد القادر، **منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني 1519**،1830، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران ، 2015،2016.
4. بهي الدين أحمد يوسف العزب هناء، **المجتمع المصري خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر**، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجيستير في التاريخ الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول االعربية، غير منشورة، 2007م.

5. بيومي محمد علي فهيم، **مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني 1517_1805**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجيستير ، جامعة الأزهر، مصر، 1999م.

6. حليس عبد القادر ، **المشرق العربي من خلال رحلات المغاربة رحلة المقري– العياشي– الورتلاني17م–18م**، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر2، 2011/2010م.

7. حليس عبد القادر، **الحجاز في بعض كتب الرحالة المغاربة ابن طوير الجنة الموريتاني ، أبو القاسم الزياني المغربي أبو راس الناصري الجزائري أنموذجا خلال القرنين 12هـ – 13هـ – 18م –19م**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية ، جامعة الجزائر2، 2017 – 2018م.

8. حمزة محي الدين مليباري أشواق، **الأسواق في مدينة مكة المكرمة دراسة في النشأة والتطور** والتوزيع، رسالة لنيل شهادة الماجيستير في الجغرافيا، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية، 1430هـ.

9. رمضان عبد الحميد صديق أمال، **الحياة العلمية في مكة 1703– 1916م**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، 2006م.

10. روباش جميلة، **أدب الرحلة في المغرب العربي** ،رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراة في الأدب الجزائري القديم ، كلية الآداب واللغات ،جامعة محمد خيضر ببسكرة ،2014/ 2015م .

11. سعيد الحربي أماني، **مصر في كتابات الرحالة المغاربة في القرنين السابع والثامن هجري** ، مذكرة مدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الإسلامي ، جامعة أم القرى. 2015م.

12. سليمان ذياب تقوى، **أدب الرحلة في العصر العباسي في القرنين الرابع والخامس هجري**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في اللغة العربية وأدابها، إشراف: عبد الجليل عبد المهدي، جامعة اليرموك ، 2006م.

13. السملي عبد الإله سعيد حورية، **كتابات الرحالة الأوروبيين مصدر للتاريخ الحضاري للمدينة المنورة من مطلع القرن العاشر هجري حتى نهاية العصر العثماني دراسة تحليلية مقارنة**،

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية ،جامعة أم القرى ،كلية الشريعة و والدراسات الإسلامية ، 1434هـ- 2013م.

14.شافعي حسين عبد العزيز حسين، **الأربطة بمكة المكرمة في العهد العثماني دراسة تاريخية حضارية 1517-1915م**، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تخصص الدراسات العليا الحضارية، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، السعودية، 2001م.

15.شحات عمر محبت نهلة، **الحياة الاجتماعية في ولاية الحجاز زمن الحكم العثماني في الفترة مابين عامي 1517م-1744م**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ، تخصص التاريخ الحديث والمعاصر، كلية التربية للبنات بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 2002م.

16.صادوق الحاج، **الرحلات الحجازية المغاربية إبان القرن التاسع عشر وأثرها على البيئة الحجازية**، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، مرقونة، 2012/2011م.

17.الطارخيرة، **الرحلة والرحالة في الدولة العثمانية فولني أنموذجا** ، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر تخصص الدولة العثمانية والمشرق العربي، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2012، 2013م..

18.عبد الله ثالث منصورية، **صورة المرأة في رحلة ابن بطوطة**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في الأدب الشعبي، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، ، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان ، 2016،2017.

19.علواش فتيحة، **الحياة الفكرية في مصر وبلاد الشام خلال الفترة العثمانية من الربع الأول من القرن 16/ 10هـ إلى منتصف القرن 19م/ 13هـ**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر الدولة العثمانية والمشرق العربي، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر2، 2013م-2014.

20.علي محمد دعدع سحر، **ولاة الحجاز في العصر العثماني 1517هـ/ 1870م دراسة تاريخية حضارية** ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والحضارة الإسلامية، كلية الشريعة و الدراسات الاسلامية ، جامعة أم القرى، 2012م.

21.عماد عبد العزيز يوسف، **الحجاز في العهد العثماني1876، 1918م** ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث ، جامعة الموصل، 2005.

22.غويني ليلى، **التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية الجزائرية**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية،، جامعة الجزائر 2، 2010، 2011م.

23.فقيقي محمد الكبير، **الحركة الوهابية في كتابات المغاربة 1745م– 1945م**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2014/ 2015م.

24.كاضم الحمداني حمزة صباح، **مصر في عهد علي بك الكبير 1720، 1783**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب ، جامعة ذي قار،العراق، 2015م.

25.محمد صالح بن عبد الرحمن كشميري ابتسام، **مكة المكرمة من بداية العهد العثماني إلى القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي دراسة سيلسية حضارية** ، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراة في التاريخ الحديث، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، 2001م.

26.المغامسي فؤاد بن ضيف بن صالح، **المدينة المنورة في عهد السلطان عبد المجيد 1839– 1861**، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ، كلية الدعوة أصول الدين ، كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية، 2015م.

27.مفتاح ابراهيم منصور علي، **تاريخ ليبيا الثقافي والديني والاجتماعي من خلال الرحالة العرب والأوروبيين خلال القرنين 18و19م**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، 2006م، 2007م.

28.نايف عايض الدهاس مشعل، **الحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع هجري**، دراسة تاريخية حضارية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية، 2008م.

29.نواب محمد يوسف عواطف، **كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 11هـ، 12هـ دراسة تحليلية نقدية مقارنة** ، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث ،كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، 1991م.

ج- المقالات:

1. ابراهيم عبد الفتاح عبد العزيز سامح، "الحركة العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربية خلال العصر العثماني دراسة تاريخية" ، مجلة المؤرخ العربي، ع 28، إتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 2020م،
2. ابراهيم عبد الفتاح عبد العزيز سامح، "متنزهات أهل المدينة المنورة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر هجري السابع عشر والثامن عشر ميلادي من خلال مشاهدات الرحالة المغاربة"، مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم التربوية والاجتماعية، ع8، 2021م.
3. أحمدون عبد الخالق،" الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي"، مجلة الإحياء، ع21، رابطة علماء المغرب، ديسمبر 2003م.
4. الأخضر محمد،" الأدب المغربي على عهد الدولة العلوية العصر الأول 1139- 1171هـ، 1727م – 1757م " ، مجلة المناهل ، ع1، المغرب ، 1974م.
5. أسعد عطا الله مرفت، "الحياة الاجتماعية لبكوات المماليك في مصر في القرن الثامن عشر،" مجلة مصر الحديثة ، ع 8 ، 2009.
6. اسماعيل أبو زيد اسماعيل راجية، "المدينة المنورة في عهد الدولة السعودية الأولى"، مجلة بحوث الشرق الأوسط، ع 43، 2017م.
7. أمعضشو فريد، "خصائص الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، مجلة البيان الكويتية ، ع 521، الكويت ، ديسمبر 2003م.
8. بدر شحادة سلمان، "العرب بعيون المستشرقين الفرنسيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر" ، مجلة جامعة البعث، مج 42، ع 31، سوريا، 2020م.
9. بدر عبد الباسط بن عبد الرزاق،"الحياة السياسية والاقتصادية بالمدينة المنورة في رحلة بيركهارت"، مجلة مركز البحوث ودراسات المدينة المنورة، ع 29، 2009م.

10. بدر عبد الباسط عبد الرزاق ، "وصف المدينة المنورة لبيركهارت" ، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، ع 3، 2003.
11. بروست أدريان أخيل،" الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة"، تر: محمد خير محمود البقاعي ، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج8، ع 1،2002 م.
12. بطرس انجيل،" الرحلات في الأدب الإنجليزي"، مجلة العربي ، ع7 .
13. بفليتش أندرياس، "الشرق في مرآة أدب الرحلات الغربي: بحاثة ومستكشفون وسياح "، مجلة فكر وفن ، ع 89، يوليو 2008م .
14. بكاري عبد القادر، "حسين الورتلاني والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والانسانية، ع1، مج 8، جوان 2017م.
15. بكور محمد، "طريق الحج الصحراوي صلة وصل بين المغرب والمشرق"، مجلة أمل التاريخ الثقافة ، المجتمع ،ع 48 ، المغرب، 2016م.
16. البلادي متعب ماطر، "المؤسسات الحكومية في العهد العثماني بالطائف 1840م-1916"م، مجلة مدارات تاريخية، ع 6، جوان 2020م.
17. بلاعدة العمري،" الرحلات الجزائرية الحجازية: الرحلة الورتلانية أنموذجا" ، مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، ع2، الجزائر، 2016.
18. بلعربي عبد القادر،" الرحلة الورتلانية محطاتها ومصادرها المعرفية"، مجلة آفاق فكرية، ع6، الجزائر ، 2017م.
19. بن جنيد محمود يحي، "الحياة الثقافية في مكة المكرمة في القرن التاسع عشر"، مجلة مكة الثقافية، ع3، 1429هـ.
20. بن متيريك الجهني عويضة،"سلطة أشراف مكة ونفوذهم في المدينة المنورة خلال القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي"، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع 16، السنة 8، 2007م.
21. بنان محمد صلاح الدين، " الحياة الفكرية في المدينة المنورة من خلال رحلة أبي سالم العياشي 1661م، 1662م"، مجلة المشكاة للعلوم الانسانية والاجتماعية، مج 7، ع 2، 2020،.

22. بنان محمد صلاح الدين،"أدب الرحلات من خلال مظاهر من الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة 1661م-1710"، مجلة: مركز بابل للدراسات الانسانية، ع 1، م 9، 2019م .
23. التازي عبد الهادي ،" رواق المغاربة بالأزهر الشريف أو البعثة العلمية الدائمة للمغرب بمصر" ،مجلة دعوة الحق ، ع229 ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب ، 1983م.
24. التمسماني خلوق عبد العزيز ، "رحلة الغيغائي" ، مجلة دار النيابة، ع 22، السنة 1989م، المغرب.
25. جلال أحمد ابراهيم، "عوامل ازدهار الأسواق في مكة المكرمة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي"،المجلة التاريخية المصرية، مج: 53، القاهرة، 2021م.
26. جولدن صاري يلدز ،" الحجر الصحي في الحجاز 1865-1914م "، تر: البقاعي بركات عبد الرزاق، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج 8، ع 2، 2003.
27. الحاج صادوق، "أسباب الرحلات المغاربية إلى الحجاز إبان القرن الثامن عشر" ، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية ، ع 10، الجزائر.
28. الحازمي منصور ابراهيم، "رحلات العرب في جزيرة العرب البلاد العربية السعودية 1901م1972 "، مجلة: الدارة ، ع 3، ، 1400هـ.
29. حبيش رزاح ماضي آل قويد الدوسري حمساء ، "قوافل الحج والتجارة ودروبها المختلفة إبان العصر العثماني 1517-1803م" ، مجلة كلية الآداب بقنا، ع 48، 2018م.
30. الحجري هلال، "أدب الرحلات والاستشراق البحث عن المنهج" ، المجلة العربية للعلوم الانسانية، مج102 ع،26، 2008م.
31. الحجوي محمد، "الأهداف الدينية والعلمية لرحلة علماء الغرب الإسلامي إلى المشرق"، مجلة المناهل، ع85 ، الرباط، 1974م.
32. حشيشو محمد علي، "رحلات نيبور وزيتس وبوركهارت ومن سبقهم من الالمان إلى البلاد العربية "،مجلة فكر وفن ، ع7، يوليو 1961م.
33. حمان عبد الحفيظ، "الحياة العامة في بعض مدن الحجاز في مطلع القرن التاسع عشر من خلال رحلة دومينغو باديا"، مجلة الدارة، ع 2، م 38، 2002م.

34. الحناوي محمد عبد الحميد، "النشاط العلمي للمغاربة في مصر خلال القرن الثامن عشر دراسة في وثائق المحاكم الشرعية وكتابات الجبرتي"، المجلة العلمية لكلية الآداب، ع 22، أسيوط، 2007م

35. خصاونة أسماء جاد الله، "إصلاحات محمد علي الاقتصادية في مصر 1805- 1848م"، مجلة المشكاة للعلوم الانسانية والاجتماعية ، مج 7، ع 2، 2020م.

36. خلوصي صفاء ،" حجة أحمد بن طوير الجنة"، مجلة المجمع اللغة العربية بدمشق، مج:53، الجزء3، دمشق، 1978م.

37. خليل فاطمة، "من ملامح الرحلة المغربية الفقه الإسلامي في الرحلة "، مجلة البحث العلمي ، ع41، جامعة محمد الخامس ، المغرب، 1994م.

38. الخيقاني حيدر صبري شاكر، "كتابات الرحالة الأوروبيين احدى المصادر المهمة في تدوين تاريخ البصرة"، مجلة آداب البصرة ، مج 2، ع 63، العراق، 2012م.

39. الدازي حفيظة، "الرحلة الحجازية جسر للتواصل الثقافي رحلة ماء الموائد لعبد الله العياشي أنموذجا" ، مجلة بصمات، ع8، 2008.

40. دواجي عبد القادر جلول، "أعلام أدب الرحلات المغاربية رحلة محمد الشنقيطي إلى الحج" ، مجلة تاريخ العلوم ، ع6، مج3، 2017م.

41. الدوسري وليد نادية،" التجارة الداخلية في مكة المكرمة في مطلع القرن الثالث عشر هجري التاسع عشر ميلادي من خلال رحلة بيركهارت، مجلة الدارة، ع4، مج 31، 2005م.

42. الدويهي جبور، "الرحلة وكتب الرحلات الأوروبية إلى المشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر" ، مجلة الفكر العربي، ع 32، السنة الخامسة، معهد الإنماء العربي ، لبنان، 1983م.

43. الديباجي محمد أحمد ،"حول تحقيق الرحلة الناصرية الكبرى لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري"، مجلة أفاق التراث والثقافة، ع 110، السنة 28، مركز جمعة الماجد للتراث والثقافة، الإمارات العربية، 2020م.

44. راغب نبيل ،" أدب الرحلات" ، مجلة الفيصل ، ع 88، 1984.

45. رمضان صديق عبد الحميد أمال، "الحج وأثره في مجتمع المدينة من خلال كتب الرحالة إبان الحكم العثماني للحجاز" ، مجلة مركز بحوث دراسات المدينة المنورة ، ع 39، 2013م.

46. الرويعي حيدر جاسم ، "تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوروبي من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين"، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مج 10، ع3،4، الكويت، 2011م.

47. الزاهدي مليكة، "**الرحلة الحجازية أداة التواصل الثقافي**"، ضمن كتاب **الثقافة العربية بين الوحدة والتعدد في حوار المشرق والمغرب**، إشراف: محمد محمد سيد خليل، ط1، دار العلوم للنشر والتوزيع ، مصر ، 2007م.

48. زكري لامعة، "الرحلة العلمية ودورها في إثراء المجال العلمي المفهوم والدوافع و الأنواع"، مجلة كان التاريخية، ع22، ديسمبر 2013.

49. زمامة عبد القادر ، "مع أبي سالم العياشي في رحلته"، مجلة المناهل، ع30، المغرب ، 1984م.

50. زمامة عبد القادر،"الرحلة المغربية صلة علم وحضارة"، مجلة كلية الآداب بفاس، ع8، المغرب، 1986م.

51. الزهراني رمزي بن أحمد،" الأبعاد الجغرافية لظاهرتي الصحة والمرض خلال موسم الحج : دراسة للنصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين"، مجلة رسائل جغرافية، ع 190.

52. زيدان ليليان "أحوال الشرق من خلال كتاب الرحلة إلى مصر وسوريا خلال 1783-1784-1785م للرحالة الفرنسي فولني"، مجلة كلية التربية الأساسية ، عدد خاص بوقائع المؤتمر الدولي العلمي الافتراضي الأول للعلوم والاجتماعية ، كلية التربية الأساسية ، جامعة المستنصرية بالتعاون مع كلية التربية الأساسية جامعة واسط وكلية الآداب والعلوم الإنسانية الجامعة اللبنانية ، 20 ، 21 تموز، 2020م

53. سديرة سهام، أدب الرحلة الماهية والشكل والبنية "، مجلة البدر ، مج 10، ع1، 2018م.

54. سراح عمار، "صورة الدولة العثمانية في الرحلات المغربية من خلال القرن الثامن عشر رحلة ابن عثمان المكناسي أنموذجا"،مجلة الحكمة للدراسات التاريخية ع13، مج6، 2018م.

55. السرياني محمد محمود، "البوتقة المكية وأثرها في صهر السكان دراسة في الجغرافيا التاريخية للهجرة وتأقلم الجاليات الوافدة إلى الأراضي المقدسة"، مجلة الدارة، ع 4، السنة 31، 1426هـ.

56.السرياني محمد محمود، معراج نواب مرزا، "مكة المكرمة في عيون غير المسلمين دراسة في تقييم أهداف وانطباعات ومعارف الرحالة النصارى عن العاصمة المقدسة"، مجلة رسائل جغرافية ، ع307، الكويت، 2005.

57.سعد الله أبو القاسم، "حول رحلة ابن طوير الجنة"، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج 54، ج3، دمشق، 1979م.

58.السنيدي عبد الرحمن بن علي،" أمن حركة الحج من المشرق الإسلامي إلى مكة المكرمة خلال العصور العباسية المتأخرة"، مجلة الدارة، ع 3، السنة 32، دارة الملك عبد العزيز، دت.

59.سيد حامد النساج، "أدب الرحلات في حياتنا الثقافية "، مجلة العربي ، ع338، 1987م

60.الشاهدي الحسن، "البعد الفهرسي في الرحلات الحجازية بالمغرب رحلات القرن السابع هجري"، مجلة المناهل، ع 85، المغرب، 2008.

61.شحات عمر محبت نهلة ،"جوانب من الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز كما دونها الرحالة شارل ديديه من خلال رحلته الموسومة برحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر" ، مجلة المؤرخ العربي، مج 2، ع 28، 2020.

62.شحادة سلمان بدر، العرب بعيون المستشرفين الفرنسيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، مجلة البعث، مج 42، ع 31 ، 2020م.

63.شرشار عبد القادر، "كتاب الرحلة إلى المغرب والمشرق"لأبي العباس المقري"، مجلة الفضاء المغاربي، ماي ، 2016.

64.شرف موسى،"أخبار العلم والعلماء بأرض الحجاز من خلال الرحلات المغربية رحلة أبي سالم العياشي وابن الطيب الشرقي والهلالي نماذجا"، مجلة: قضايا تاريخية، ع 7، 2017.

65.الشيباني محمد بن عبد الهادي، "بيرتون وصورة المدينة في رحلته عام 1853م"، مجلة بحوث ودراسات المدينة المنورة، ع17، 2006.

66.صابان سهيل، "الأمراض والوفيات في الحجاز في مواسم الحج 1881م_ 1907م"، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع 16، 2007م.

67.صابان سهيل، "جوانب من الحياة العلمية في الحجاز من خلال بعض الوثائق العثمانية"، مجلة الدرعية، ع1، السنة الأولى، 1998م.

68. الصادقي حسن، "الوجود المغربي في المشرق من خلال كتب التراجم المشرقية"، مجلة: المناهل، ع38، ديسمبر 1989م.

69. الصباغ عبد اللطيف محمد، "صورة المجتمع المكي في كتابات الرحالة في النصف الأول من القرن الرابع عشر"، مجلة الدارة ، ع 4، 1426هـ.

70. صحراوي عبد القادر، "الورتلاني مقدمة عن رحلته وملاحظات عن فضل علم التاريخ"، مجلة الحوار المتوسطي، ع9، 10، سيدي بلعباس، 2015م .

71. الصياد محمد محمود، "الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية قبل القرن التاسع عشر"، مجلة المؤرخ العربي ، ع14، العراق، 1980.

72. طلال عبد الله الشريف نوال، "طريق ركب حجاج المغرب والأندلس من المغرب الأقصى إلى مكة المكرمة منذ القرن السادس حتى القرن العاشر هجري، مجلة العقيق، مج21، ع41،42، نادي المدينة المنورة الأدبي الثقافي، 2002.

73. العارف يوسف بن حسن، "الأوضاع الصحية في الحجاز أواخر العهد العثماني قراءة في كتاب الحجر الصحي في الحجاز 1865-1914"، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، ع 6، 2003م.

74. عبد الرحيم عبد الرحيم، "النظم الإدارية العثمانية في البلدان العربية وأثرها في العلاقات العربية العثمانية" ، مجلة الدارة، ع 1، السنة التاسعة ، شوال 1403هـ.

75. عبد الكريم كريم، "بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية من أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ الجزيرة العربية "، مجلة العرب، ع 3، 4، السنة 12، المملكة العربية السعودية، أكتوبر 1977م.

76. عبد المحسن محمد البابطين هيا، "ملامح من الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة زمن العثمانيين"، 1517م-1916م، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع 16، السنة الثامنة، 2007م.

77. العرابي عبد الرحمن بن سعد، "جدة في كتابات الرحالة الغربيين في القرن الثالث عشر التاسع عشر ميلادي" ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، ع1، المجلد 20، السعودية، 2012م.

78. العرابي عبد الرحمن سعد ، "الحرفيون في جدة في القرن التاسع عشر"، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الآداب والعلوم الإنسانية ، مج 23، 2016 م.

79.عشي علي، "ركب الحج الجزائري والطريق إلى بلاد الحرمين الشريفين خلال الفترة الوسيطة"، مجلة البحوث التاريخية، مج 3، ع1، الجزائر، 2019م.

80.عنان محمد عبد الله، "مصر في أواخر القرن الثامن عشر كما وصفها الرحالة سافاري،" مجلة الرسالة ، ع 221.

81.الغاشي مصطفى، "صورة الشرق من خلال المعارج المرقية في الرحلة المشرقية للرافعي التطواني 1096هـ 1684م "، مجلة الدارة ، ع1، 1420هـ.

82.الغاشي مصطفى،" المؤرخ والرحلة أو كيف تتصدر الرحلة مدونة المؤرخ الرحلة المغربية والشرق العثماني أنموذجا "، مجلة سطور ، ع11، يناير ، 2020 م .

83.الغامدي عبد العزيز صالح، "دور الحج في التواصل الثقافي بين علماء الحرمين الشريفين والعلماء المغاربة" مجلة التاريخ العربي ، ع63، المغرب، 2013.

84.الغامدي، عبد الله بن أحمد " رحلة إلى الشرق لجيرار دو نرفال : المرأة المصرية نموذجا "، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، ع 1، مج 25، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية ، 2017م.

85.الفاسي محمد، "الرحالة المغاربة وأثارهم 3"، مجلة دعوة الحق ،ع4،وزارة عموم الأوقاف، المغرب، 1959م .

86.الفاسي محمد،" الرحالة المغاربة وأثارهم "، مجلة دعوة الحق ، ع2، السنة الثانية، وزارة عموم الاوقاف ،الرباط ، 1958م.

87.فريد جرار، " مروان دوافع رحلات الرحالة الغربيين إلى مدينة القدس وصورتها في كتاباتهم" ، المجلة التاريخية الفلسطينية، ع4، 2015م.

88.فلاح حسن عبد الحسين،" بعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لمدينة البصرة كما أوردها الرحالة الأوروبيون في العصر الحديث" ، مجلة المورد، ع4، أكتوبر 1989م.

89.القاضي محمد، "جماليات خطاب الرحلة: قراءة في ترحال في الجزيرة العربية لجون لويس بيركهارت" ، مجلة الآطام، م 13، ع 39، 40، النادي الأدبي بالمدينة المنورة ، 2011م.

90.القضاة أحمد حامد، نصارى مصر دراسة في ضوء كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي 1733م-1821م، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع23، السنة 12، 2011.

91. كرراز فوزية، "بعض المظاهر الاقتصادية ببلاد الحجاز من خلال الرحلات المغربية من القرن 11هـ/ 17م" ، مجلة الدراسات التاريخية و الاجتماعية، ع 50، نواكشط، 2021م.

92. كساس صافية، "الرحلات العلمية من والى المغرب ودورها في تنشيط العلمية والتعليمية بالمغرب العربي"، مجلة الممارسات اللغوية ،ع 8، الجزائر ، جامعة مولود معمري.

93. كلخة محمد منصور، "عرض كتاب رحلة ابن طوير الجنة"، مجلة: المناهل، ع17، مارس،المغرب ، 1980.

94. لطفي السيد عفاف، "العلماء ودورهم في مصر مطلع القرن التاسع عشر"، مجلة الإجتهاد ، مج 1، ع 4، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر ، 1989م.

95. المالكي جواد كاظم علي، "الحياة الفكرية في الوطن العربي خلال السيطرة العثمانية مصر أنموذجا"، مجلة الدراسات المستدامة، مج2، ع6، 2020.

96. مالكي سليمان عبد الغني،" علاقة مصر بمكة المكرمة من خلال المجاورين زمن سلاطين الأيوبيين"، مجلة المؤرخ المصري دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة، ع 22، كلية الأداب جامعة القاهرة ،1999م.

97. مبارك فضل الله شيرين، "ركب الحج المغربي وأثره في تقوية الروابط بين مصر والمغرب في القرن الثامن عشر من واقع نخبة مختارة من الرحلات الحجازية"، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، ع 40، ج1، جامعة الأزهر،2021م.

98. محمود حسين عبد الله، "الدور الاقتصادي لركب الحج"، مجلة: العمرة والحج، ع 5، مج 49، وزارة الحج، 1994م.

99. المراكشي محمد صالح، "مفهوم الرحلة من خلال كتاب محمد بيرم الخامس ،" صفوة الإعتبار في مستودع الأمصار والأقطار" ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ، ع 17، 1979م.

100. مقنوش كريم ، "منهج الكتابة عند الحسين الورثلاني من خلال رحلاته رحلة نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار أنموذجا"، مجلة رؤى تاريخية للأبحاث والدراسات المتوسطية، مج 1، ع 2، 2020م.

101.المكاوي أحمد، "الرحلة الحجازية مصدر لرصد بعض المواقف من أوروبا ومدنيتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية"، ع 6، 2001.

102.مناور فرحان الرشيدي حياة، "دور الحج في إثراء العلاقات السياسية والاقتصادية بين مكة و بلاد الشام في ظل الدولة العثمانية من خلال حكم آل العظم"، مجلة العلوم العربية و الإنسانية ، مج 9، ع 3، 2016.

103.ناجي نجيب، "الرحلة إلى الشرق والرحلة إلى الغرب" ، مجلة فكر ونقد ، ع 31، ألمانيا، 1978م.

104.النصر تركي محمد، "طرق الحج ومسالكه"، مجلة الوعي الإسلامي، ع 591، مج 51، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، 2014م.

105.النملة علي بن ابراهيم الحمد، "رحلات المستشرقين مصدرا من مصادر المعلومات عن العرب و المسلمين" ، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج1، ع1، مكتبة فهد الوطنية، 1995م.

106.هلايلي حنيفي،" الجزائريون والرحلة إلى الحجاز على ضوء رحلتي الورتلاني وأبو راس الناصري" ، مجلة الشهاب، مج7، ع 7، الجزائر 2018.

107.هللر أردموته، "الغرب في مرآة الشرق"، مجلة فكر وفن، ع 40، يوليو 1984، ألمانيا، 1984.

108.هندي صالح ذياب، "الرحلة في طلب العلم في الإسلام وتطبيقاتها المعاصرة"، مجلة دراسات: العلوم التربوية مج38 ، ع1.

109.ولد سالم حماه،"مراجعة أولية حول أوضاع الحجاز في الرحلات الحجية الشنقيطية"، مجلة الدارة، مج22، ع 4، 1997م.

د - الملتقيات والندوات العلمية:

1. أبرزاق البشير، "**الحركة العلمية ببلاد الحجاز، خلال القرن 17م من خلال أدب الرحلات**"، مقال ضمن كتاب: أدب الرحلة جدلية الأنا والآخر في عالم متغير، تنسيق خالد التوازني، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، 2020م.
2. ابن الأحرش سعيد، **الرحلات المغربية إلى الديار المقدسة وتركيا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مصدرا للمعلومات عن العالم الإسلامي**، ضمن أبحاث ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي ، مج 1، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض 2004م.
3. الادريسي الفقيه، **ركب الحاج المغربي بين إكراهات المجال وجاذبية المقامات المقدسة من خلال رحلة " ماء الموائد" لأبي سالم العياشي** ، ضمن أبحاث ندوة ركب الحج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب و المشرق، تنسيق عبد القادر آيت الغازي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية ببني ملال، المغرب، 2013م .
4. اسماعيل أحمد علي، **طرق الحج دراسة جغرافية**، ضمن أبحاث ندوة طرق الحج جسر للتواصل الحضاري بين الشعوب المنعقدة 25و27 حزيران 2002م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، المملكة المغربية، 2007م.
5. أمعيط نور الدين ،" **الرحلة المغربية إلى الحجاز خلال العصر الوسيط رحلة العبدري انموذجا**، ضمن أبحاث ندوة ركب الحج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، كلية الأداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ببني ملال 29-30 ماي ، 2013م.
6. آيت الغازي عبد القادر، **الرحلة الحجية المغربية بين الدين والعلم والسياسة مشاريع في مشروع** ، ضمن أبحاث ندوة ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال، المغرب ، 29و30 ماي 2013م.
7. آيت المكي عبد العزيز، **الرحلات الدرعية إلى الديار الحجازية محاولة ببليوغرافية**، ضمن أبحاث ندوة الرحلات الدرعية إلى الديار الحجازية المنعقدة بزاكورة يومي 23و24أكتوبر 2015م ، المملكة المغربية .
8. باعليان محمد عوض، **عدن في كتابات الرحالة الأوروبيين مابين القرن الثالث عشر إلى الثامن عشر** ، ضمن أبحاث ندوة عدن بوابة اليمن الحضارية ، اليمن .

9. بلبكري عبد العزيز، **الرحلات الحجازية المغربية مصدر للعلاقات الفكرية المغربية المصرية** ، ضمن كتاب : الذاكرة التاريخية المغربية المصرية ، ج1، جمع وتنسيق: عبد الحميد المودن ، ط1، المغرب.

10. بن بلغيث الشيباني، **أهمية رحلات الحج المغاربي في ربط الهوية بالمجال رحلة العياشي في القرن السابع عشر نموذجا**، ضمن أبحاث الندوة الدولية المجال والهوية ببلاد المغرب المنعقدة(4-5-6 مارس 2004م) ، جمع وتقديم عبد الواحد المكني ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس ، 2007م.

11. بن عبد الله عبد العزيز ، **الرحالة العرب والمسلمون من المغرب وإليه** ، ضمن أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموئلا ، ط1، مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب، 2003م.

12. بوجلة عبد المجيد، **رحلة الورتلاني إلى مصر**،، الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمون أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين إكتشاف الذات والآخر، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م.

13. بوسعيد أحمد، **طريق الصعاليك في روايات الرحالين المغاربة خلال القرنين 17و18م**، ضمن أبحاث مؤتمر طرق الحج في افريقيا، الكتاب الخامس، جامعة افريقيا العالمية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، 2015م.

14. بوشنافي محمد، **قراءة في رحلة بن مسايب إلى الحجاز في القرن 18**، الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمون أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين إكتشاف الذات والآخر، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م.

15. بوغوتة عبد الإله، **دور المراكز الثقافية في التواصل بين المشرق والمغرب من خلال الرحلات الحجية المغربية في العصر المريني** ، ضمن أبحاث اليوم الدراسي : مسالك الثقافة والمثاقفة في تاريخ المغرب –أعمال مهداة للأستاذ السعيد لمليح، الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، مكناس، عمار جحيدر ، **التواصل الثقافي بين ليبيا والمغرب نموذجا**، ضمن أبحاث ندوة طرق الحج جسر للتواصل بين الشعوب المنعقدة في 25-27 حزيران ، 2002م ، 2016م.

16. بويوزان بن عيسى ، **فضل الحج على العلم في الغرب الإسلامي من خلال رحلات الحج من القرن الخامس الى القرن التاسع** ، ضمن أبحاث ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة العربية الإسلامية ، 1426هـ.

17. التازي عبد الهادي، **أدب الرحلات هل سوف يختفي من الساحة** ، ضمن أبحاث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في الفترة الممتدة من 21 ،24 أكتوبر 2004م .

18. الجميعي عبد المنعم ابراهيم، **المرأة المصرية في عصر الجبرتي ، ضمن كتاب المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني**، ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، 2007م.

19. الحاتمي محمد بن محمد، **الحرمان الشريفان في الرحلة الناصرية الكبرى لمحمد بن عبد السلام الناصري**، ضمن أبحاث ندوة الرحلات الدرعية إلى الديار الحجازية المنعقدة بزاكورة يومي 23و 24أكتوبر 2015م، المغرب.

20. حقي محمد، **الحج في المغرب الأندلس في العصر الوسيط الجدال حول استمرار فرضية الحج**، ضمن أبحاث ندوة ركب الحج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق ، كلية الأداب والعلوم الإنسانية والإجتماعية ببني ملال 29-30 ماي ، 2013م.

21. حيمر جمال، **تصورات مغربية للمدنية الأوروبية من خلال الرحلات السفارية المغربية خلال القرن 19**، ضمن أبحاث ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري ،كلية الأداب والعلوم الإنسانية ، مكناس ، 1993م

22. الزاهدي مليكة، **ركب الحاج المغربي ودوره في تعزيز الصلة بين أشراف المغرب وأشراف المشرق**، ضمن كتاب الهوية بين التراث واللغة، تنسيق مصطفى حسوني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، المحمدية ، المغرب ، 2012م.

23. الزهراني ضيف الله بن يحي، **ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مكة المكرمة من خلال كتاب رحلات في شبه الجزيرة العربية لمؤلفه جون لويس بيركهارت أو الحاج ابراهيم بن عبد الله**، ضمن بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة مابين 24-27 رجب 1421 الموافق لـ 21-24 أكتوبر 2000م، ج2، دارة الملك عبد العزيز، الرياض.

24. سرحان نبيل عبد الجواد، المدينة المنورة في رحلتي بيركهارت وليون روش 1230هـ - 1257هـ، 1814م- 1841م، ضمن بحوث السجل العلمي للقاء الجمعية التاريخية السعودية العاشر تاريخ وحضارة المدينة المنورة عبر العصور، مج 2، ع 2، الجمعية التاريخية السعودية ، 2007م.

25. الشاذلي عبد اللطيف ، **مسألة الانتماء من خلال رحلة التمكروتي إلى القسطنطنية** ، ضمن أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموئلا ،ط1، مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب ، 2003.

26. الشيباني محمد بن عبد الهادي، **أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية** ، ضمن أبحاث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض 21- 24 أكتوبر، 2000م، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ، 2000م.

27. العطية مروان، **منهج الورتلاني في رحلته إلى مصر والحجاز**،، الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمون أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين إكتشاف الذات والآخر، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م.

28. علمي عبد الرحيم، **مجتمع مكة في أدب الرحلات المغربية قراءة في النصوص والدلالات** ،بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة العربية، 1426هـ .

29. علوي أمراني عمر، **الرحلة كوثيقة من بين أقدم الوثائق المكتوبة في تاريخ المغرب القديم** ، ضمن أبحاث ندوة:أدب الرحلة والتواصل الحضاري ، جامعة المولى اسماعيل، المغرب، 1993م.

30. علوي حسن حافظي، **أخطار تنقل القوافل في القفر بين العوامل الطبيعية والثقافية**، ضمن أبحاث ندوة من إيناون إلى استانبول أعمال مهداة إلى عبد الرحمن المودن، تنسيق: عبد الأحد السبتي وعبد الرحيم بنحادة ، ط1، كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، 2012م.

31. عماري الحسين، **الركب الشنقيطي جسر للتواصل الروحي والثقافي خلال العصر الوسيط وبداية الحديث**، ضمن أبحاث ندوة ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال 29و30 ماي 2013م.

32. عيد الفارس أسعد، **الرحالة الغربيين في شبه الجزيرة العربية أهدافهم وغاياتهم** ،الرحلات إلى الجزيرة العربية ضمن أبحاث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض 21- 24 أكتوبر، 2000م، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ، 2000م.

33. الغاشي مصطفى، **الرحالة الفرنسيون مصدر للمعلومات عن الدولة العثمانية**، ضمن أبحاث ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي، مج1، مكتبة الملك عبد العزيز ، الرياض ، 2004م.

34. الغاشي مصطفى، **طرق الحج خلال القرن التاسع عشر من الصحراء إلى بوغار جبل طارق، قراءة في التحول**، ضمن أبحاث ندوة دور مضيق جبل طارق في علاقات المغرب الدولية، كلية الآداب العلوم الانسانية ، تطوان، المغرب، 2001م.

35. الغاشي مصطفى، **مغربي في مصر خلال القرن التاسع عشر**، ضمن أبحاث ندوة السفر في العالم العربي الإسلامي التواصل والحداثة، تنسيق عبد الرحيم المودن – عبد الرحيم بنحادة، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003م.

36. فاضل أحمد، **مظاهر الإهتمام بالعلوم الشرعية في الرحلة الناصرية الكبرى للعلامة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري**، ضمن أبحاث ندوة الرحلات الدرعية إلى الديار الحجازية المنعقدة يومي 23و 24 أكتوبر 2015م بزاكورة، المجلس العلمي الأعلى ، المملكة المغربية .

37. فقيقي محمد الكبير، **العلاقات الثقافية بين مصر وبلدان المغرب من خلال رحلات المغاربة في القرنين السابع عشر والثامن عشر** ، ضمن أبحاث المؤتمر: التحولات الفكرية في العالم الإسلامي : أعلام ، و كتب وحركات وأفكار من القرن العاشر هجري إلى القرن الثاني عشر هجري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الأردن، 2014م .

38. القرشي سليمان، **أسفار مقدسة عبر سفن ليست كذلك صورة أوروبا في الرحلات الحجية المغربية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين** ، العرب بين البحر والصحراء،أرض التعارف، مج2، أبحاث المؤتمر الدولي لأدب الرحالة العرب و المسلمين، تقديم: نوري الجراح، ط1، قطر، 2019م.

39. القرشي سليمان، **رحلة أبي سالم العياشي إلى المشرق قضايا ومواقف ورجال** ، الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمون أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين اكتشاف الذات والآخر، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م.

40. القرشي سليمان،**الماء في الرحلات الحجية المغربية بين الحقيقة والرمز** ، السودان وإفريقيا في مدونات رحالة الشرق الغرب أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين المنعقدة بالخرطوم، 2006م ،ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات ، 2006.

41. كنون محمد، **فوائد علمية وحقائق تاريخية من خلال الرحلة الناصرية لأحمد بن ناصر الدرعي**، ضمن أبحاث ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة المولى اسماعيل، مكناس، 1993م.

42. مبارك شيرين، **ركب الحاج المغربي وأثره في تقوية الروابط بين مصر والمغرب في القرن 18**، ضمن كتاب: الذاكرة التاريخية المشتركة المغربية المصرية، ج1، جمع وتنسيق: عبد الحميد المودن ، ط1، المغرب.

43. محمد الشناوي عبد العزيز، **دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان العصر العثماني**، ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ج2، مارس –أفريل 1969م، مطبعة دار الكتب، 1979م.

44. المزيني ابراهيم محمد حمد، **وصف مكة ومظاهر الحج في رحلة المستشرق الإيطالي لودفيكو دي فارتيما 908هـ – 1503م**، ضمن أبحاث الملتقى العلمي الثامن عشر الحج والعمرة والزيارة ، المنقد في 1-2 ماي 2018م ،جامعة أم القرى.

45. معنينو عز المغرب، **الرحلات الحجازية المغربية في ظل الحماية الفرنسية رحلة ادريس الجعيدي السلوي سنة 1930** نموذجا، السودان وافريقيا في مدونات رحالة الشرق والغرب اكتشاف الذات والاخر ، أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين ، دورة ابن حوقل، الخرطوم، 2006م.

46. معنينو عز المغرب، **وصف صنائع الفرنج وحيلهم العجيبة للجعيدي** ، ضمن أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموئلا ، ط1، مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب 2003.

47. مكاوي أحمد، **صورة المشرق من خلال الرحلات الحجازية القرن التاسع عشر نموذجا**، ضمن أبحاث ندوتي المغرب ــ المشرق، العلاقات والصورة جامعة القاضي عياض ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال،، 1999م.

48. مكي محمد علي، **أثر الحج في الثقافة الأندلسية رحلة أبي مروان الباجي**، ضمن أبحاث ندوة طرق الحج جسور للتواصل الحضاري المنعقدة 25و27 حزيران 2002م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، المملكة المغربية، 2007م .

49. المنوني محمد، **مثقف من البادية يعرف المدينة المغربية بواقع أوروبا والمسلمين في القرن التاسع عشر**، ضمن أبحاث ندوة تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط، 1988م.

50. الموذن عبد الرحمن، **الرحلة الحجية مصدر من مصادر التاريخ الإجتماعي المغربي**، ضمن أبحاث ندوة: في النهضة والتراكم ، دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية مهداة للأستاذ محمد المنوني ، ط1، دار توبقال للنشر والتوزيع ، المغرب ، 1986م.

51. الهلابي عبد العزيز بن صالح ،**الرحلة الحجازية لمحمد البتنوني دراسة مقارنة** ، ضمن أبحاث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ، ج1، الرياض ،2000م.

52. ولد سالم حماه الله، **رحلات الحج من موريتانيا (بلاد شنقيط) تقديم الرحلات واسهامها في التواصل المشرقي المغربي**، العرب بين البحر والصحراء أرض التعارف، أبحاث المؤتمر الدولي لأدب الرحالة العرب والمسلمين المنعقد في الدوحة، ديسمبر 2011،تقديم نوري الجراح، مج2، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الامارات ، 2011م.

53. اليوسفي محمد لطفي، **حركة المسافر وطاقة الخيال دراسة في المدهش والعجيب والغريب** ، ضمن أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمون إكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموئلا ، ط1، المغرب ، 2003م.

هـــ_ المعاجم والموسوعات:

1. ابن منظور، **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة، دت.
2. دحمان أحمد، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، دار الفكر، دمشق، 1999م.
3. الزركلي خير الدين، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**،ج 4، ج 6، ، ط15، دار العلم للملايين،بيروت، 2006م .
4. سليم محمود محاسين نجاة ، **معجم المعارك التاريخية** ، ط1، دار زهران للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2011م.
5. شامي يحي، **موسوعة المدن العربية و الإسلامية**، ط1، دار الفكر العربي، بيروت ، 1993م.
6. صابان سهيل، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000.
7. علي المولا، **الموسوعة العربية الميسرة**،ج 6، ط1، المكتبة العصرية ، لبنان، 2010م.
8. الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، تح: أنس محمد شامي، دار الحديث، القاهرة ، 2008م .
9. وهبة وجدي، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب** ،ط2، مكتبة لبنان،لبنان، 1984.

ثانيا: المصادر والمراجع الأجنبية:

1. المصادر الأجنبية :

1. Augustus James , **Egypt And Mohamed Ali: Travels In The Vally Of The Nile** ,V 2, London, 1834.
2. Badia Y Leblich Domingo, **Voyages D'ali Bay El Abbassi En Afrique Et En Asie Pendant Les Annees 1803, 1804,1805,1806,et 1807**,t2, T 3, De L'imprimerie De P .Didot L'ainé Mdccxiv .sd
3. Burchaart John Leuis**, Travels In Arabai**, Bublished By Authority Of The Association For Promoting The Discovery Of The Interior Of Africa, V1, London , 1829
4. Burton Rechard , **Personal narrative of a** P**iligrimage To El Madinah And Meccah ,** V1,v2, Printed By Spottiswood ,London, 1857.
5. Courtellemont Gervais –**Mon Voyage A La Mecque** , 2Ed, Librairie Hachette , Paris , 1896
6. moncorps de savigny**, Journal D'un Voyage En Orient 1869-1870 –Egypte , Syrie , Constantinople,ullustré par riou et alph, de neuville** ,libraries hachette, Paris, 1873
7. Didier Charles , **Séjour Chez Le Grande – Chérife De La Mekke** ,Librairie De HACHETTE ,Paris , 1857
8. Le Baron . De Testa , **Recueil Des Traités De La Porte Ottoman Avec Les puissances étrangéres** , Amayot Editeur Des Archives Diplomatique , T 1 , Paris , S D .
9. Leared Arthur, **Morocco And The Moors Being An Account Of Travels, With A General Description Of The Country And The People**, London , 1876.

10. Lucas Paul, **Voyage Du Sieur paul lucas Au Levant**,V1,v2 Libraire Ordinaire De Mofeigneur De Dauphin, Paris.1704.
11. Maillet, **Description De L'egypte Contenant Plusieurs Remarques Curieuses Sur La Géographie Ancienne Et Moderne De Se Pais**…, t 2, paris.
12. Miller William**, Travels And Politics In The Near East** , Ferederick A Stokes Company , New York , 1889.
13. Olivier**, Voyage Dans L'empire Othoman ,L' Egypte Et La Perse , Fait Par Ordre Du Gouvernment , Pendant Les Six Premiéres Années de la République**, t2, T3, Chez H ,Agasse, Paris,1801.
14. Savary , **Lettres Sur L'egyte** ,T2,t 3 ,SD, Paris.
15. Sonnini **,Voyage Dans La Haute Et Basse Egypte Fait Par Order De L'ancien Gouvernement Et Contenant Des Observations De Tous Genres**, Tome 2, Paris.sd
16. Thévénot Jean, **Relation D'un Voyage Fait Au Levant** , Paris, 1664 .
17. Volney, **Voyage En Syrie Et En Egypte Pendant les Anneés , 1783,1784,1785**, Tome 1, Paris .

2. المراجع الأجنبية :

أ -الكتب:

1. Gustave Cirilli , **le Regime des Capitulations** , librairie plon, Paris , 1898 .

2. Hamont pierre nicolas, **L'egypte Sous Méhémet _ Ali** , T1, Léautey Et Lecointe, Paris, 1845.

3. Mengin Filix, **Histoire Sommaire De L'égypte Sous Le Gevernement De Mohammed- Aly,** Libraire De Firmin Didot Fréres , Paris.

4. Mouriez Paul , **Histoire De Méhémet – Ali Vice Roi D'égypte**, T 03, Louis Shappe Editeur, Paris, 1858.

5. Ralli Augustus , **Christians At Macca**, William Heinemann , London, 1909.

6. stanly lane poole , **social life in egypte a description of the country and its people** , London.

7. thomassy , r, **le maroc et ses caravans ou relation de la france avec ses empire**, pais,1845 .

8. wright thomas , **the life of sir richard burton**, v 1, london , 1906.

9. yerasimos stephane**, Les Voyageurs Dans L'empire Ottoman (Xive_ Xvie Siécles) Bibiliographie, Itinéraires Et Invet Des Lieux Habités**, Imprimerie De La Sociéte Turque D' Histoire, Ankara, 1991.

ب – المجلات

1. Abed – Fatah Gaber Siham, **"L'image Politique Et Sociale D'Aprés Voyage En Egypte Et en Syrie De Volney Au Xviiiéme Siécle"** , Revue De La Faculté Des Arts , V20 , Université Du Fayoum , 2019.
2. Al-Hasnat Mohamed Abed Majeed, **" la représentation de la syrie dans le voyage en egypte et en syrie en 1789 de l'idéologie volney** " , revue dirasat ,human and social sciences , v32, n 2, 2005.
3. Batou Jean, **"L'égypte De Muhammad 'Ali Pouvoir Politique Et Développement Economique 1805- 1848 ",** Annales Economies , Sociétés , Civilisations , n 2, 1991
4. Brahimi Denize**," Voyageurs en Egypte, Avant et Pendant L'expédition "** , In Cahiers De La Méditerranée, N57, 1989, Ponaparte , Les Iles Méditerranéennes Et L'appel De L'orient – Actes Du Colloque D'ajaccio 29-30 Mai 1989.
5. Cook Alexander, **"Entre L'ancien Et Le Nouveau Monde C.F . Voleney Et La Politique Des Récits De Voyage En France , 1782-1803 "**, Revue Annales Historiques De La Révolution Fraçaise , N 385, 2016.

6. Distaing , "**Et-Ta Libe Ahemed Ben Towair El –Ganna – Rehlat El-Monna Wel Minna Pélernage A La Mekkee",** Revue Africaine , V 55 , 1911.
7. Durand Yves ," **Anticlericalizme Et Politique Dans L'ouest De La France A La Fin Du Xviiie Siécle"**, Revue Histoire ,Economie Société , N2, 1990.
8. Farganal Jean_ Pierre, **"Les Voyageurs Français Au Levant Et En Berbarie Du Xvl$_e$ Au Xvlllz$_e$ Siécle; De La Perception De L'altérité Fondée Sur Des A Priori Religeux Aux Prémices De La Vision Ethnographique"**, Actes Du 130 sup Congrés Nationaux Des Société Historiques Et Scientifiques« Voyages Et Voyageurs » , La Rochelle, Paris , 2005.
9. Gauthier Henri, **"Voyageurs Et Ecrivains Français En Egypte "** , In Journal Des Savants, Mars ,Avril, 1934.
10. Moussa Sarga ," **Méhmét –Ali Au Mémoir Des Voyageure Français En Egypte", Revue Romantisme "**, N 120, 2003.
11. Moussa Sarga , "Voleny , Ouveres ,T,Iii, Voyage En Syrie Et En Egypte Et Considirations Sure La Guerre Des Turcs" ,Revue Romantizme , N 107, Figures, 2000.
12. Raymond André **," Deux Familles De Commerçants Fasi Au Caire A La Fin Du Xviii^e Siécle "**, Revue De L'occident Musulman Et De Méditerranée , N 15,16, Mélanges Le Tourneau , 1973.
13. Reix André, **"Constantin François De Volney , Les Ruines Ou Méditations Sur Les Révolution Des Empires "** , Revue Philosophique De Louvain , T 76, N 31, 1978.
14. Sadok Hadj , **"A Travers La Berberie Oriental Du Xvllle Siecle, Avec Le Voyageur Al Warthilani** ", Revue Africaine , V 95, 1951
15. Texier Roger , **" Volney Au Proche –Orient Entre Le Passé Et L'avenir Des Peuples "** , In Ciculation Des Homme Et Des Idées A

L’epoque Révolutionnaire, Actes Des Congrés Nationaux Des Sociétés Historiques Et Scientifiques Voyages Et Voyageurs ,La Rochelle , 2005, Paris , Edition Du Cths , 2008.

ج – الرسائل الأجنبية :

1. Abdelazim Abdelmaksoud Abdelkader Hamdi, **L’ Egypte Dans Voyage En Orient De Gérard De Narval Et La France Dans L’or De Paris De Rifa’a Al Tahtawi**, These Exgence Partille Du Doctorat En Etudes Littérares , Université Québec A Montréal , 2008 .

2. Al – Zaum Abdumalak, **La Part De La Syrie Dans La Littérature De Voyage Dans Les Pays Du Levant Du Xix**e, These Pour Obtenir Le Grade docteur De L’université François Rabelais , Spésialité Lettre Modernes , 2011.

فهرس الأعلام و الأماكن

فهرس الأعلام

–أ–

أبا الحسن بن عبد الهادي السندي:369.

ابراهيم الباجوري:272.

ابراهيم الخزامي: 348.

ابراهيم باشا: 106– 151– 176– 178– 278.

ابراهيم بك: 157– 159– 168– 170– 211.

ابراهيم بيري:364.

ابراهيم رفعت: 280– 291– 317– 328

330– 348– 352.

ابراهيم كتخدا: 161– 162.

ابراهيم ابن الحسن الكوراني: 366.

ابن الطيب الشرقي: 28– 200– 326–

337– 346– – 353– 358–367.

ابن بطوطة: 7– 12– 13– 22.

ابن جبير:7– 15– 22– 41.

ابن حمادوش: 56.

ابن خلدون:5– 6– 15– 45.

ابن زاكور: 56.

ابن طوير الجنة: 32– 94– 95– 96– 97– 98

99– 100– 101– 180– 182– 183– 252

– 341.

ابن مليح السراج: 28– 33.

أبو الحسن بن عمر القلعي: 47.

أبو العباس أحمد بن حجر: 358.

أبو العباس أحمد بن عبد الله الدمناتي:360.

أبو العباس أحمد بن عبيد العطار الشافعي: 357.

أبو العباس المغربي: 47.

أبو القاسم الزياني: 64– 209– 210– 223–

224 231– 252– 255– 257– 264– 325.

أبو القاسم السجلماسي الرباطي: 84.

أبو القاسم سعد الله:65.

أبو داود سليمان الجمل:262– 396.

أبو راس الناصري:268– 346– 358.

أبو سالم العياشي: 16– 18– 29– 33– 35

36– 38– 40– 42– 59– 62– 63– 69 –

71– 77– 79– 90– 281– 282– 284–

286– 288– 295–299– 308– 309–

310– 318– 323– 325– 329– 330–

332– 333– 335– 345– 346– 346–

351– 354– 361– 366.

أبو عبد الله الدمنهوري:273.

أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد عقيلة

المكي:353– 365.

أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الله عليش:270

396.

أبو عبد الله محمد ابن الحسن السَمنَودي:265.

أبو عبد الله محمد بن محمد الأندلسي: 367

أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي: 345- 366.

أبي العباس الأحزي الجزولي: 67.

أبي عبد الله ابن أبي الفتوح التلمساني: 67.

أبي عبد الله سيدي محمد بن ناصر الدرعي:363.

أبي محمد بن عبد المجيد بن علي الزبادي:63.

أبي يعقوب يوسف بن محمد الكبير:84

أحمد الإسكندري: 272-395.

أحمد الملوي:267- 273

أحمد الهشتوكي: 70.

أحمد بن خالد الناصري:85.

أحمد بن سالم بن الامام: 94.

أحمد بن مبارك اللمطي: 370.

أحمد بن محمد أحزي الهشتوكي: 65.

أحمد بن محمد النخلي:367.

أحمد بن موسى العروسي:264.

أحمد بن ناصر الدرعي: 30- 36- 36- 68 69- 70- 71- 72- 200- 300- 227 234- 279- 295- 304- 317- 320 322- 325- 343- 348- 349 354- 358- 361- 363- 364.

أحمد جمل الليل الشافعي:368.

ادريس بن محمد العراقي: 84.

إدوارد سعيد:112.

إدوارد وليم لين:120.

الإسحاقي: 25- 28- 227- 237- 238 250- 252- 261- 263- 342- 353 357- 359- 363- 364- 365- 367

اسماعيل العباسي:264.

اسماعيل باشا: 152.

الإمام الخرشي:272.

الإمام الغزالي:3.

الإمام سعود: 291.

الأميرة خناثة: 25.

أنكتيل دوبرون:117.

أوليا جلبي:46- 233- 253- 288- 349.

أوليفيه:117- 189- 196-197- 206.

إيزابيل بيرتون: 120.

-ب-

بريس دافين: 174-195- 200- 201، 207-223.

بن سليمان الروداني :361- 362- 363.

ابن عمار:65.

بن مسايب التلمساني:65

البنتوني: 348.

البويصري:95

بول لوكاس: 201- 237

بيتر بنت: 116.

بيركهارت: 120- 133- 134- 135- 136 137- 138- 139- 140- 145- 277 279- 280- 282- 283- 284- 285 286- 287- 288- 289- 290- 292

293- 295- 298- 299- 300- 301
302- 303- 304- 306- 307- 308
309- 310- 311- 312- 313- 316
318- 319- 320- 322- 324- 325
326- 327- 331- 332- 333- 334
335- 336- 337- 338- 340- 345 –
346- 347- 349- 353.

-ت –

تاج الدين عبد الملك بن عبد المنعم بن القاضي:
القلعي الحنفي: 358.
التامراوي: 229- 249.
تشالز دواتي:114.
تقي الدين الفاسي: 138.
التاودي بن سودة: 370.

-ج –

جان تيفينو: 118.
جان كوبان: 114.
الجبرتي:47- 151- 154- 158- 160- 164
165- 167- 169- 172- 175- 158
216- 217- 221- 232- 242- 243
255- 256-- 259- 261- 264 266.
جيرارد دو نارفال:119- 209- 224- 225-
241.

-ح-

الحاج ابراهيم بن عبد الله:133.
حبيب بن سويلم:218.
حسن آغا القلعي:289.
حسن الحبشي الشافعي: 354.
حسن العدوي الحمزاوي: 270.
حسن العطار:3- 261- 164
حسن بك:151- 164.
حسن الغسال: 191- 199- 308- 312-
325.
حسن عجيمي:363.
حسين الزواوي التونسي:358.
حسين العبادي:348.
الحضيكي:29- 35- 249- 250- 261-
263- 365- 267- 270- 271- 272-
273-307- 367- 369.
الحفناوي:72- 160- 265- 274.
حمد الجاسر:85- 123- 124.
الحيوني: 176- 178- 182- 184- 186
192- 193- 198- 200- 202- 203 -
204- 211- 215- 220-223- 224-
226- 239- 241- 242- 246- 247- 248
250- 261- 272- 299- 301- 306
318- 320- 325- 328- 332- 335
339- 340- 338- 341 .

-خ –

خليل المغربي:273.

-د –

داود باشا:349.

الدردري:261.

الدمرداشي:147- 152- 261.

دوبدان:121.

دومينجو باديا: 116- 284- 285- 290

333- 334.

-ر-

الرافعي التطواني:63.

روبرت إينسلي:184- 208.

ريتشارد بوكوك:120.

ريتشارد بيرتون:116- 120- 138- 140

141- 142- 143- 144- 249- 251

253- 286- 288- 298- 302- 307

308- 309- 312- 314- 319- 325

333- 334- 341- 349- 351- 352.

-ز-

الزياتي الشافعي:263- 396.

زين العابدين بن سعيد المنوفي:358- 360.

-س-

سافاري:116- 119- 131- 150_ 152 159-

161- 162-164- 166- 167 168- 169- 186-

194- 217- 241 - 242.

سالم ابن أحمد النفراوي: 270.

السبعي:186- 188- 193- 297- 298

324 - 326- 327- 337- 341- 381.

سعيد قدورة: 363.

السلطان عبد الحميد: 269- 352.

سليمان الفيومي:255.

سليمان القانوني: 119- 349.

-ش-

شاتوبريان:119- 170- 390.

شارل ديديه: 290- 291- 298- 303- 304

307- 316- 324- 333- 332- 335

336- 337- 391.

الشريف عبد الله: 164- 277.

شهاب الدين أحمد أحمد بن التاج:361.

الشيخ همام: 166_ 218.

-ص-

صلاح الدين الأيوبي: 154-318 .

-ض-

الظاهر عمر: 131- 165.

-ع-

عارف حكمت: 352.

العامري:34- 39- 63- 380.

عبد الرحمن الأخضري:70- 73- 76.

عبد الرحمن بن أحمد المكناسي: 353.

عبد الرحمن بن جاد الله البناني: 47.

عبد الرحمن بن محمد بن خروب المجاجي: 65.

عبد السلام بناني: 367- 370.

عبد العزيز دولتشين:280- 298- 299- 338-

344- 350

عبد الله المنوفي:95.

عبد الباقي الزرقاوي: 95

عبد الله الجوهري: 368.

عبد الله الحداد باعلوي الحسيني:359.

عبد الله الزواوي:354.

عبد الله السكندراني: 353- 367

عبد الله بن سالم البصري: 67-350- 358- 363- 365- 395.

عبد الله بن سرور:277.

عبد الله بن سعيد باقشير المكي:367.

عبد الله بن محمد:66- 273- 319.

عبد المعطي ابراهيم النوري:348

العبدري:22- 37- 41- 89- 90.

عطية الأجهوري:267.

علي ابن أحمد بن أحمد الله :72.

علي الصعيدي: 80- 260- 266- 268. 270.

علي المالكي:354.

علي باشا:106- 134- 151- 153- 170- 177- 195- 250-373.

علي بك العباسي:116.

علي بك الكبير:147- 153- 161- 166- 167- 168- 169.

علي بن عبد القادر الطبري: 365.

العماوي:261.

عمر الطحلاوي: 72- 261-274.

عمر مكرم:171.

العمروسي:267.

عيسى أفندي:348.

عيسى الثعالبي: 65- 357- 361- 364- 365.

-غ -

غالب بن مساعد:277- 285.

الغيغائي:102- 103- 104- 105- 106 108- 170- 171- 172- 175- 176 177- 178- 179- 180- 181- 182 184- 185- 186- 187- 189- 190 191- 192- 193- 195- 198- 201 205- 214- 215- 218- 219- 223 224- 225- 226- 227- 228- 229 230- 237- 240- 241- 242- 243-244 246- 247- 248- 249- 250- 251 252- 253- 255- 257- 258- 261- 270-272- 273- 278- 300-316- 319- 320.

-ف -

الفقيه الطرطوشي:41.

فلوبير: 119.

فولني: 116- 124- 125- 126- 127 128- 129- 130- 131- 132- 149 150- 151- 152- 153- 154- 155 156- 157- 158- 159- 161- 162 163- 164- 165- 166- 167- 168 194- 204- 205- 209- 210- 211 214- 215- 216- 220- 257.

فوليام ميلر: 123

-ق -

قاسم بن عطاء الله:264.

قطب الدين المكي:138.

–ك –

نيبور: 138- 149- 151- 153-157- 162- 163- 189- 190- 201- 203 204- 205- 207- 223- 249- 290 293- 310- 312- 314 334.

الكتاني:31- 31.

كورتلمون:300- 339.

–ل–

لامارتين:119- 131.

لوديفيكو دي فارتيما:117.

الليدي آن بلنت:118- 120.

لين بول: 248- 252- 253-236- 245- 248- 252.

–م–

محمد بك أبو الذهب:254.

محمد ابن إبراهيم الزرهوني: 56.

محمد الأمين الصحراوي: 104.

محمد البليدي:263.

محمد الجوهري الخالدي:262- 273.

محمد الرديني اليمني:367.

محمد الطبري:364.

محمد العجمي:355.

محمد الفزازي: 347.

محمد القرشي:103.

محمد بك الألفي:170.

محمد بن رسول:353.

محمد بن سعيد:362.

محمد بن سليمان الروداني:361- 362- 363.

محمد بن عبد الله السنوسي:352.

محمد بن عبد الله المغربي السجلماسي:368

محمد بن عثمان السنوسي: 339.

محمد بن علاء الدين البابلي:367.

محمد بن محمد قاضي زادة الأنصاري:346- 353- 362.

محمد جمال الليل:352.

محمد بن عبد السلام الناصري:63- 84- 85 86- 87 88- 89- 94- 168- 169- 188 209- 215-232-234-249-252- 254 - 258-262-264-265- 266- 268- 269 271-273- 274-279- 280- 292- 294 296- 297- 305- 328-336-337 351- 356- 357- 360- 368.

محمد حسين الخياط: 354.

محمد حياة بن ابراهيم السندي: 369.

محمد علي: 106- 134- 136- 138- 148 161- 170- 172- 173- 174- 175 176- 177- 178- 179- 187- 189 191 195- 196- 197- 210- 212- 213 220- 250- 252- 254- 256- 278 290- 272.

محمد ولد الزرقاني: 271.

محمد الدقاق السلاوي:369.

محمود الأول:348.

مراد بك:158- 159- 210- 241.

مرتضى الزبيدي: 255- 257- 261 263-
265- 266- 267- 268 - 269- 396.

مسعود بن سعيد:281.

مصطفى بن فتح الله الحموي:360- 368.

المقري:6- 60.

منور التلمساني:266.

موسى باشا:151.

-ن -

نابليون بونابرت:133.

نور الدين زنكي:318.

نور الدين علي ابن أحمد السمهودي:138.

- هـ-

الهلالي السجلماسي:38.

هيستر ستانهوب:120.

-و -

الورتلاني:63- 65- 71- 72- 73- 74- 75
76- 77- 78- 79- 80- 81- 82- 83
157- 160-184- 202- 208- 211 - 216
220- 224- 227- 230- 232- 246-
263- 266-267- 270- 273 275- 280-
281- 294- 306- 312 323- 329.

الولاتي :344.

وليام بالغريف: 114.

وليد نويهض:123.

-ي-

يحي الشاوي:65-365- 367.

يوسف الحنفي الشافعي:264.

اليوسي:36- 38- 281.

فهرس الأماكن :

-أ-

أزمير: 178- 189- 204.

الأستانة: 149- 152-155 - 163- 185-203-204-205- 287- 288.

الإسكندرية: 28- 30- 32- 52- 97- 99-103- 104- 105- 129- 143-151-157- 158- 181-182-183-188-192-194- 198- 206-220- 221- 239- 272.

أسيوط: 185- 188- 191- 192- 196-197- 253.

ألمرية:30.

أمبابة: 88.

أوروبا: 64- 109- 110- 111- 112-113-114-115- 120-121-130- 138- 142-144- 164-167-189--195 – 203-204-205-206.

إيطاليا:32- 97- 103- 140- 203.

-ب-

باريس:117- 125- 126.

البتراء: 136

البحيرة: 186.

برقة: 28- 35-40- 76-87- 88-98.

بسكرة :29- 36-39- 72- 76- 88.

البليدة :72.

البندقية: 164- 189- 204- 205- 311.

بنغازي: 98- 180.

بني ورتلان:72- 73- 75.

بولاق: 191- 196- 231- 239-240 257.

-ت-

تاجوراء :29- 88.

تارودانت: 362.

تازة:88.

تامكروت: 66.

تطوان:56.

تلمسان:28- 72.

توزر: 88.

تومبكتو: 137

تونس :27-28-62- 76-78- 81-92- 98-201- 205.

-ج-

جبل طارق: 98- 103.

جدة: 103- 136- 164- 165- 181-189-198- 204- 207-280- 283- 284-285-289- 290-297- 304- 307- 312-314-324- 326-339-348-350.

جرجا: 162- 185-189-196.

الجزائر:27-28- 31-56-62- 72- 74- 75-81- 97-99- 100-183.

الجزيرة العربية: 13- 76-120-134-
135-137- 139- 140-141-176
203-204-205-206-207.
الجيزة:188.

-ح-

الحبشة:194- 204- 205-206-290- 320.
الحجاز: 5- 7- 21- 22- 23- 24- 25- 26
31- 38- 42- 43- 44- 45- 46- 48- 49
50- 51- 52- 54- 57- 58- 59- 60- 63
64- 65- 66- 69- 72- 76- 78- 80- 81
83- 87- 88- 90- 92- 93- 94- 96- 97
98- 100- 101- 104- 106- 107- 108
109- 116- 118- 120- 121- 133- 134
135- 136- 137- 138- 139- 140- 141
142- 143- 144- 145- 164- 165- 176
177- 178- 192- 209- 232- 236- 262
276- 277- 278- 279- 280- 281- 282
283- 284- 285- 287- 289- 291- 292
293- 294- 295- 296- 297- 298- 299
300- 301- 302- 303- 304- 305- 306
307- 308- 309- 310- 311- 312 – 313
314- 315- 316- 317- 318- 320 – 321
322- 323- 324- 325- 326- 327- 328
329- 331-332-334-335-336-338-
341- 342- 343- 347- 348 – 349 350
351- 352- 354- 355- 356- 357 358
359- 361- 362- 363- 364- 365 366
370- 372- 373- 375- 376- 377.
حلب: 136.

-خ-

خرسان:307.
خليص:279-292-296.

-د-

درعة: 66-96- 293.
دمشق:45-141-165- 167- 349- 368 .
دمياط: 186- 190- 196- 200- 207- 220
الدولة العثمانية:26-48-49-64-106-111
114- 115-119-127- 145 - 148-149
153- 154-155-156- 158-159- 161
163-164-165- 166-169- 170- 176
177- 179- 206-232-235-277- 278
287 - 289-290-302- 311- 341- 342
347- 376.

-ر-

رابغ:291- 293- 296- 305- 339
رشيد: 157-185- 188- 189- 196 -204
207.
روسيا: 106- 127- 153- 165- 166
167.

-ز-

زمورة: 76.

-س-

سبتة: 30.
سجلماسة: 29-31- 33.
سرت: 28.

سواكن: 136- 290- 136.

السودان:137- 169-171- 176- 178

196-205.

سوريا:127- 128-130-131-133

136- 141- 203-204.

السويس32-97-103-143-150-164

186-188-190-194-207- 212.

الشام: 22- 108- 113- 128- 131- 133

134- 137-171- 178- 180- 195-203

207-209-211- 218- 221- 233- 250.

شنقيط: 94، 96، 98،100، 101.

-ص-

الصعيد: 162- 163- 164-166- 186

188- 194-196-221.

الصويرة :105.

الصين: 9- 199- 209.

-ط-

الطائف:136- 176- 278- 284-285

289- 292- 293- 307- 336-350.

طرابلس الغرب:69- 71- 76-81.

طنجة:32- 198- 103.

طيبة:185- 186- 189- 346.

-ع-

عجرود:35.

العرائش:32- 97- 103.

العقبة:29-233- 346.

-ف

فاس: 30- 32-69-84-97-180- 241-

367- 369.

فرنسا:111-115-119-127-129-

130-170-177-183-204-205.

فلسطين: 133.

-ق-

قابس:29- 88.

القاهرة: 52-79-88- 129- 133- 142

151- 153- 161- 162- 163- 168

187- 191- 193- 196- 199- 200

205- 206- 207- 220- 222- 224

225-236- 238 - 239-246- 246- 252

253- 259- 270- 349.

قنا: 197- 254.

-ك-

-ل-

لبنان: 130- 133.

ليفورن: 204.

-م-

مالطة : 32- 103- 136- 196.

مالقة: 30.

المحمودية: 191- 192- 203- 219 - 220

349- 351.

المدينة المنورة : 25- 36-45- 57- 58- 98

105- 133- 134- 136- 138- 141

142- 176- 278- 280- 282- 283
285- 286- 287- 288- 289- 291- 292
295- 296- 299- 301- 302- 305
306- 308- 309-311–312- 315- 316
317- 319- 320- 322- 324- 325
327- 329- 336- 337-341- 342-344
345- 348- 349 -350-352-353-354
362 - 366-367-368-369-370.- 377.
مراكش: 31- 96-97-98-99-103 104
105.
مرسيليا: 103-129-189-197-203-204.
المشرق العربي:21- 23- 24- 27- 42- 43
45- 48- 49- 50- 52- 53- 54- 55
57- 63- 65- 66- 72- 74- 75- 76
80- 81- 93- 94- 96 - 107- 109
110- 111- 112- 115- 118- 121
122- 126- 128- 130- 134- 139
143- 144- 169- 226- 231
372- 373- 375- 377
101
مصر : 5- 11- 21- 22- 23- 29- 38
40- 41-42- 43- 45- 46- 47- 49-51
54- 63- 65- 66- 69- 70- 72- 76
78- 79- 80- 81- 82- 83- 85- 86 87-
88- 92- 93- 94- 95- 98- 100- 104
106- 107- 108- 109- 111- 114
116- 118- 119- 120- 126- 127
128- 129- 131- 132- 133- 134
135-136 – 137 – 140- 141- 142
143- 144- 147- 148- 149- 150
151- 152- 153- 154- 155-156
157- 158- 160- 161- 163- 164
165- 166- 167- 168- 169- 170
171- 172- 173- 175- 176- 177
178- 179- 180- 181- 182- 183
184- 185- 186- 187- 188- 189
190- 191- 192- 193- 194- 195
196- 197- 198- 199- 200- 201
202- 203- 204- 205- 206- 208
209- 210- 211- 212- 213- 214
215- 217- 218- 219- 221- 222 223
224- 225- 226- 227- 228- 229
230- 231- 232- 233- 235- 236
237- 239- 240- 241- 242- 243
244- 245- 246- 249- 250- 251
252- 253- 254- 255- 256- 257
258- 259- 261- 262- 263- 264
265- 266- 267- 268- 269- 270
271- 273- 274-278- 284- 293
300- 301- 306- 312- 313- 314
316- 326- 336- 342- 351- 368
مصراتة: 29-88.
المغرب الأقصى: 26-27- 28- 29- 48-49
62- 64- 69- 205- 369- 370
المغرب الأوسط: 64-69-87-88.
المغرب العربي:22-23-24- 26- 30-31-
32-47-51- 52-53- 55- 56-58- 62-

-96-100-101-205-246 - 312-313-
314- 323-328-362-363-372.
مكة المكرمة : 7، 91، 92- 97- 103 - 135
136- 142- 143- 185- 193- 277
280-282- 283- 284- 285- 290-292
294-295- 298- 300-301- 302-303
304-305- 308-309-312- 316- 317-
320- 322 - 326-328-332- 336-
339- 341- 344 348- 350- 352-
353- 355- 359- 361- 362- 363- 364
367-368-377.
مكناس: 56-180.
المناخة: 295-306-346- 350
المنصورة: 196.
المنوفية: 185.
منى:297- 304-305-307-326- 338
341 .
المنيا: 185.
-ن-
النوبة: 133- 134- 135- 136-207.
-هـ-
الهند: 9 - 140-141-142-171-196
198-199-204-206-309- 307 - 308
309- 312-313-314- 316- 349.
-و-
ودان: 94- 95- 96.
-ي-
اليمن: 13-204- 209-248- 260-269
306-307-308- 313- 314 -337-369
الينبع: 285- 292- 296-297-295-305
307-310- 312- 324- 337 - 350.

الفهرس العام

الفهرس العام

الموضوعات	االصفحة
الإهداء	
الشكر والتقدير	
قائمة المختصرات	
مقدمة	أ–ك
الفصل التمهيدي: مفهوم أدب الرحلة وأهمية الرحلات في الدراسات التاريخية	**1**
1. مفهوم الرحلة اللغوي والإصطلاحي	**2**
2. أنواع الرحلات	**4**
3. مفهوم أدب الرحلة	**10**
4. دواعي وطرق تدوين الرحلة.	**12**
5. أدب الرحلة عند العرب وتطوره	**13**
6. القيمة التاريخية لكتابات الرحالة	**17**
الفصل الأول: التعريف بالرحلات المغاربية و الأوروبية نحو المشرق العربي خلال القرنين 18/ 19م	**20**
المبحث الأول: الرحلات الحجازية المغاربية.	22
1. العلاقات المغاربية المشرقية في العهد العثماني وركب الحج المغربي	22
2. مسالك ركب الحج المغربي وعوائقه	27
3. دوافع الرحلات المغاربية إلى المشرق العربي في العهد العثماني	43
4. خصائص الرحلات الحجازية المغاربية.	54
5. نماذج عن أهم الرحلات الحجازية المغاربية إلى مصر والحجاز خلال القرنين 19/18م	66
1.5 رحلة أحمد بن ناصر الدرعي 1709م	66
2.5 رحلة الورتلاني 1179هـ/ 1766م.	72
3.5 رحلة محمد بن عبد السلام الناصري 1196هـ/ 1782م	84
4.5 رحلة أحمد ابن طوير الجنة 1245هـ/ 1829م	94
5.5 رحلة الغيغائي 1274هـ/ 1858م	102
المبحث الثاني: الرحلات الأوروبية	109

1. التطور التاريخي للرحلة الأوروبية إلى المشرق العربي	109
2. دوافع الرحلات الأوروبية إلى المشرق العربي	112
3. نماذج عن أهم الرحلات الأوروبية إلى المشرق العربي خلال القرنين 18/ 19م	124
1.3 رحلة قسطنطين فرنسوا فولني 1783-1785م	124
2.3 رحالة جون لويس بيركهارت 1814-1815م	132
3.3 رحلة رتشارد بيرتون 1853م.	140
الفصل الثاني: صورة مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من خلال كتابات الرحالة	146
المبحث الأول: الأوضاع السياسية في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر	147
1. الأوضاع السياسية في القرن الثامن عشر	148
2. الأوضاع السياسية في القرن التاسع عشر	170
المبحث الثاني مظاهر الحياة الاقتصادية في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر	184
1. الزراعة	184
1.1 المنتجات الزراعية	184
2.1 نظام الري والسقي	190
3.1 الثروة الحيوانية	192
2. الصناعة	194
- صناعة الغزل والنسيج	196
- الصناعات الغذائية	196
- صناعة الأواني الفخارية	197
- صناعة ملح النشادر.	198
- الصناعات الحربية.	198
3. التجارة	199
1. 3 الأسواق	199
3. 2 التجارة الخارجية (الصادرات والواردات)	203
3. 3 المراكز التجارية	206
المبحث الثالث: الأوضاع الاجتماعية في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر	208
1. التركيبة الإجتماعية	208

2. العادات والتقاليد	223
3. الاحتفالات والأعياد	233
4. المرأة المصرية	240
المبحث الرابع: الحركة الفكرية في مصر من خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر	245
1. المؤسسات والمراكز العلمية	245
1.1 المساجد والجوامع	246
2.1 المدارس والكتاتيب	253
3.1 المجالس العلمية في منازل العلماء والأعيان	255
4.1 المكتبات وخزائن الكتب	256
2. أصناف العلوم	259
3. طرق التدريس والتلقي في المؤسسات التعليمية المصرية	266
1.3 الرواية	266
2.3 الإجازة	267
3.3 المناظرات العلمية	268
4. العلماء ونتاجهم الفكري	269
الفصل الثالث: الحجاز في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر من خلال كتابات الرحالة	**275**
المبحث الأول : الأحوال السياسية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر	276
1. الأوضاع الداخلية	276
2. التنظيم الاداري والسياسي	283
المبحث الثاني : الأوضاع الاقتصادية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر	292
1. الزراعة	**292**
1.1 المحاصيل الزراعية	**292**
2.1 مصادر المياه	295
1.3 الثروة الحيوانية	297
2. الصناعة	299
3. التجارة	303
1.3 الأسواق	303
2.3 الصادرات والواردات	312

المبحث الثالث : الحياة الاجتماعية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر	315
1. فئات المجتمع	315
2.العادات والتقاليد	321
3. الأعياد والاحتفالات	327
4. الألبسة في الحجاز	332
5. الأطعمة والأشربة	335
6. الأوضاع الصحية في الحجاز	338
المبحث الرابع : الأوضاع الثقافية في الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر	342
1. المراكز العلمية	343
1.1 المساجد	343
2.1 الكتاتيب	347
3.1 المدارس	348
4.1 المكتبات	350
5.1 منازل العلماء	353
6.1 الأربطة	354
2. أصناف العلوم	356
1.2 العلوم النقلية	357
2.2 العلوم العقلية	361
3. العلماء	362
الخاتمة.	371
قائمة الملاحق	378
قائمة البيبليوغرافيا	398
فهرس الأعلام والأماكن	446
الفهرس العام.	459